THE SILENT MONK
WAR OF SHADOWS

الراهب الصامت

عمار محمد

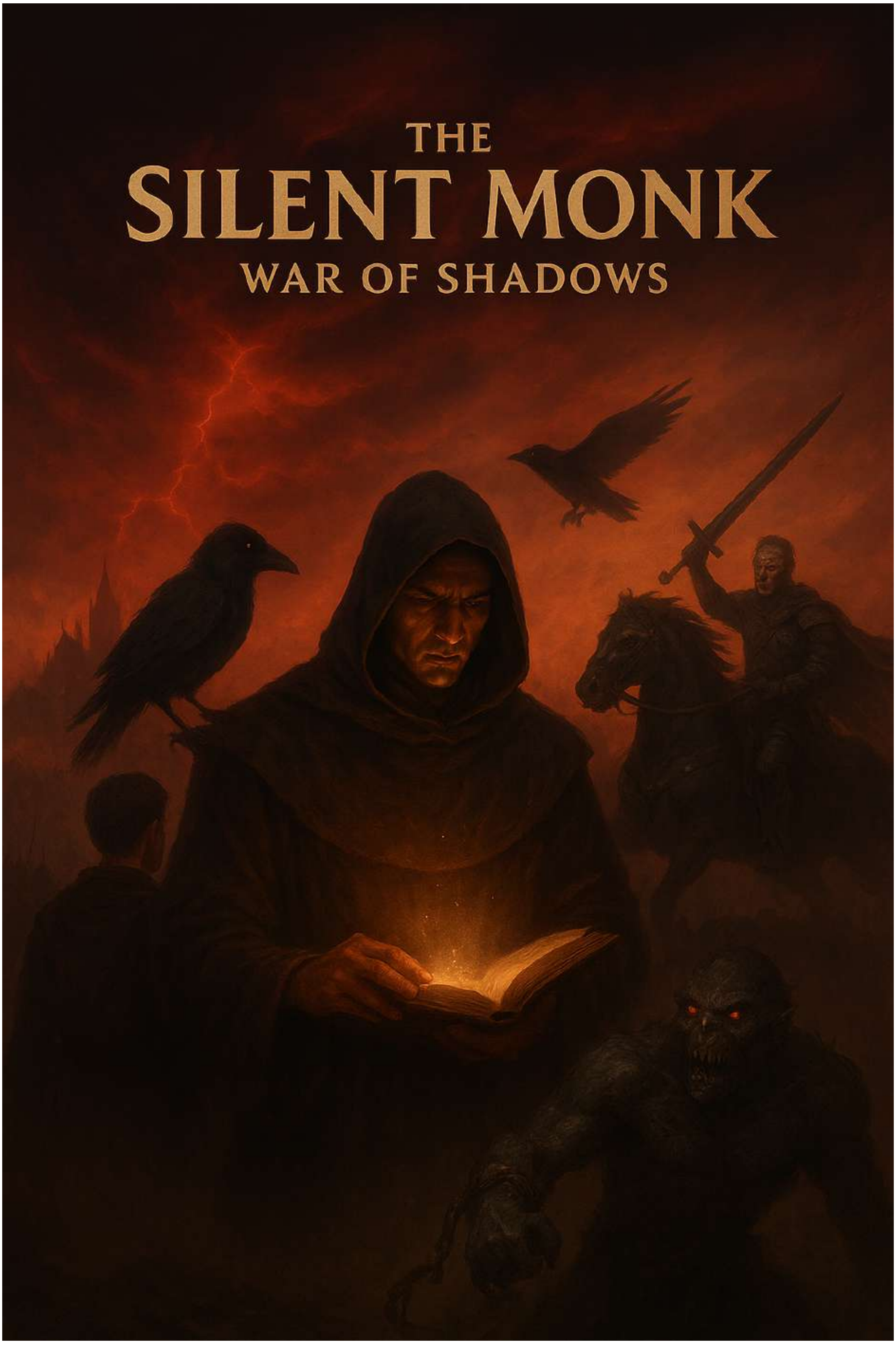

الجزء الاول : الراهب ✨ والطائر🐦‍⬛

الفصل الافتتاحى:.

كانت شمس الثلاثاء تشرق من خلف التلال، مخترقةً الضباب الكثيف الذي يلف المنطقة. كان المنظر خلاباً؛ سماء صافية تنذر بيوم هادئ وجميل، كجمال القرية ومناظرها الخضراء، والقلاع والأديرة المحيطة، وعلى رأسها دير القديس أغناطيوس، المنحوت بفن عريق في الصخر. كل شيء يوحي بالسلام.

في الأسفل، وعلى الطريق الموصل إلى الدير، كان الراهب الشاب يوهان يقود عربته التي يجرها حماره المجهد. كان يوهان يحمل لفائف من مخطوطات قديمة، وهي سلع ثمينة مخصصة لغرفة النسخ المركزية في الدير. كان عمله هو تسليمها لـ ثيودور لنسخها كجزء من عملية الترميم الأثرية المعتادة.

داخل غرفة النسخ الباردة، حيث كانت رائحة الحبر والجلد القديم معلقة في الهواء، لم يكن هناك سلام داخلي.

الراهب ثيودور، شاب في أواخر الثلاثينات، يجلس على مقعده الخشبي المعتاد. كان متوسط الجسم وخفيف الحركة، يمتلك عيوناً زرقاء وشعراً قصيراً مصقولاً قريباً من اللون الأصفر. لكنه كان دائماً ما يرفع غطاء الرأس الموجود في ردائه الرهباني، بحيث لا تتضح ملامحه إلا عن قريب، وهذا الغموض يفاقم من وحدته . كان ثيودور يقضي نهاراته في روتين النسخ المملّ، وهو الروتين الذي يفضله؛ فالوحيد يجد الأمان في التكرار.

لكن ثيودور لم يكن مجرد ناسخ. ففي الأسابيع الأخيرة التي قضاها في الدير، عُرف عنه أنه كان يلتقي بانتظام بالعمال والفلاحين المنهكين في القرى التابعة للدير. وقد عُرف الدير باسم "دير الظلال" منذ أن تولى أوغسطين منصب الأنبا. كان ثيودور يستمع لشكواهم باهتمام، وقلما يتحدث هو، إلا ليسأل عن شخص زاره مرة واحدة في الدير ثم اختفى. ذلك الشخص كان يرعاه منذ صغره قبل أن يضعه في الدير ويغادر منذ زمن بعيد، وهذا ما اشتهر به."

. وكان لثيودور سراً آخر في غرفته الخاصة، حيث يقتني طائراً بشكل مهيب وجميل ومخيف في آن واحد، من نوع يسمى محلياً بـ "طائر الشيطان"، لأنه يُعرف عنه أنه صياد ماهر. بعيون حمراء كالجمر وريش اسود وباطن بريش ابيض .

يجلس ثيودور فى غرفته فى انتظار عمله المعتاد فى نسخ المخطوطات القديمه

الفصل الأول: الخطيئة المكتوبة

صمت مريب عند البوابة
كان الصباح لا يزال يرتدي عباءة الضباب الخفيفة فوق تلال دير القديس أغناطيوس. وعند البوابة الجانبية لغرفة النسخ، توقفت عربة الراهب يوهان.

فتحت الباب ببطء، تكاد لا تُسمع. وقف ثيودور على العتبة، وعلى غير عادته، أزاح غطاء الرأس عن رأسه. كشفت عيناه الزرقاوان، التي عادة ما يختبئ غموضها في الظل، عن نظرة هادئة، لكنها كانت تحمل نوعاً من اللطف المريب.

"مرحباً بك يا أخ يوهان،" قال ثيودور بصوت خفيض ودافئ بشكل غير معهود، وكأن الهدوء نُسج من الخيط.

مد يوهان إليه لفائف المخطوطات الثقيلة، وبينها المجلد السابع عشر البالي. "سيد ثيودور، هذه هي شحنة الترميم. هي لك خصيصاً."

أومأ ثيودور وتسلم المجلدات بكلتا يديه بقوة وثبات. "شكراً لك. أتمنى لك يوماً مباركاً." كان لطفه مهذباً لدرجة شعر معها يوهان بنوع من التوتر غير المبرر.فدائما ثيودور غامضا لديه ويعرف انه الراهب الصامت . كان ثيودور يحاول ازاحه ذالك الغموض ليوهان
لكن
غادر يوهان سريعاً،

طقس الطائر المظلم

بمجرد أن أُغلق الباب، عاد الهدوء المُطبق ليخيم على ثيودور. حمل المجلدات الثقيلة، التي كان المجلد السابع عشر بينها يبعث شعوراً خفياً بالاستدعاء، وتوجه مباشرة نحو غرفته المغلقة.

كانت تلك الغرفة مكان طقوسه الخاصة؛ غرفة مظلمة يُضيئها فقط ضوء شمعة خافت، حيث تتكاثف رائحة الحبر القديم والسر. وضع ثيودور المخطوطات برفق على طاولة خشبية عتيقة.

ثم اقترب من القفص، حيث كان يقبع طائره.

كما وصفنا كان "طائر الشيطان" طائراً مهيباً، صياداً ماهراً حُبست قوته. كانت عيناه تلمعان بلون أحمر داكن في الظل، وكأنهما نقطتان من الجمر. وقف ثيودور أمام القفص، يحدق في عيني الطائر الحادتين بثبات وهدوء.

لم يكن بينهما كلمات، فقط لغة صامتة من التحديق المتبادل؛ علاقة بين قوة محبوسة (الطائر) وخوف محبوس (ثيودور). كانت هذه الطقوس بمثابة تفريغ للتوتر الداخلي، استعداداً للروتين الذي يكرهه. بعد لحظات من الصمت المطلق، عاد ثيودور إلى منضدته.

جلس على مقعده الخشبي، واستنشق بعمق رائحة الجلد الميت. وضع أمامه المجلد السابع عشر البالي، مُشعلًا مصباحاً زيتياً صغيراً.

..

ضوء من شق في الظلام

كانت الغرفة، التي اعتاد أن يحيطها بالعتمة، تشهد أمراً غير مألوف.

ففي ذلك الوقت، وفي منظر لم يعتد عليه ثيودور، اخترق ضوء الشمس الغرفة. كان الضوء يتسلل عبر شق صغير قطعه ثيودور يوماً في الشيش الخشبي، ليسقط شعاعاً ذهبياً ضيقاً وموجهاً على المجلد السابع عشر البالي.

وضع ثيودور المخطوطة أمامه تحت هذا الضوء، وبدأ في روتينه. كانت ريشته تتحرك ببطء، نسخاً حرفياً لسيرة قديس منسي آخر.

جولة في المخطوطة المحرمة

بينما كانت عيناه تتبعان الكلمات، قَلَب ثيودور إحدى الصفحات المتآكلة، فجأة، توقف نبضه للحظه .

وصل إلى جزء لم يكن يتوقعه؛ قطعة من المخطوطة مكتوبة بلغة ليست لاتينية ولا إغريقية. كانت حروفها عظاماً متشابكة، كأنها رسائل حفرت قبل أن تُبنى حوائط الدير بآلاف السنين. كانت اللغة مهجورة، وثيودور لم يستطع فهمها بالكامل.

لكنه لم يكن بحاجة إلى الفهم.

فبمجرد ملامسته للصفحة، شعر وكأن عقله قد اتصل بشبكة معلومات ضخمة. لم يكن يقرأ الكلمات، بل يستشعر معانيها. لاحظ وجود كلمات وتعليمات تصف بدقة متناهية قوانين وأحداثاً في واقعه الحالي، بل وتفاصيل تخص أشخاصاً محددين. كانت القوة الكامنة في الحبر تَعِد بـ الفهم الصحيح بالقوانين والقواعد، وربما أيضاً القدرة على وضع القيود على الأشخاص أنفسهم.

وفي اللحظة ذاتها، انتابه شعور آخر، أكثر برودة وحميمية. كلما لامست يده المخطوطة، تدفقت إليه موجات من المعلومات عن البشر. كانت المخطوطة كالعدسة،
لقد كانت هذه المخطوطة ليست سجلات، بل هي مخطط العالم.

وضع ثيودور ريشته في الحبر، وهو يشعر بذبذبة باردة لاذعة في أطراف أصابعه.

كانت هذه الكتابات تبدو له وكأنها أساطير قديمة لا يمكن أن تكون جزءاً من الواقع الذي يعيشه؛ ولم يكن يدري إن كانت حقيقية أم مجرد خيال يبعثه الغموض.

صدى الأساطير

وضع ثيودور ريشته جانباً. لم يستطع مواصلة النسخ.

كان يشعر بذبذبة باردة لاذعة في أطراف أصابعه، وكأن القلم أصبح ممغنطاً. كانت المعلومات التي تدفقت إليه هائلة: قوة التحكم في الواقع، والقدرة على قراءة الخطايا.

صمتت الغرفة، لكن الضجيج في عقل ثيودور كان يصم الآذان. هل كانت تلك الأحاسيس حقيقية؟ هل يمكن لصفحات بالية أن تمنح قوة تغيير القوانين والأشخاص؟

صراع عنيف دار بين خوفه القديم الذي يرى الأمان في الروتين، وبين طموحه السري الذي يهتف بالقدرة على إحداث "الخير الأكبر".
بعد قصص العمال والفلاحين البسطاء واحوالهم المريره ووحدته الدائمه .

• الراهب الخائف يهمس: "هذه حماقة. إنها مجرد حكايات خرافية. خيالات كتبها راهب مجنون في عزلة الدير منذ آلاف السنين، ولا يمكن أن تكون جزءاً من الواقع الذي تعيشه."

• بينما القوة الكامنة ترد: "لكن الإحساس كان حقيقياً. كانت كـ تاريخ مكتوب بدم، وليس حبراً."

أغمض ثيودور عينيه محاولاً إيقاف تدفق الإدراك المزدوج. لم يكن يدري إن كانت تلك الكتابات أساطير قديمة أم حقيقة مطلقة؛ كان الشك هو الملجأ الوحيد لعقله.

بصمة القرية المنسية

بينما كان الصراع يهزه، أعاد ثيودور فتح عينيه وبدأ يقلب صفحات الجزء المحرم ببطء أكبر. كان يبحث عن أي شيء ملموس، أي دليل يثبت أن تلك الكتابات مجرد خيال.

عند آخر سطر في هذا المقطع الغامض، توقفت عيناه الزرقاوان. لم تكن الكلمات نبوءة عالمية هذه المرة، بل كانت توصيفاً دقيقاً لـ "مَوضع" معين.

قرأ ثيودور وصفاً لـ دير وقرية، تتطابق مواصفاتهما بشكل مريب مع دير القديس أغناطيوس والقرية التي تقع أسفله. كان الوصف يشمل: المداخل التاريخية، والأنهر التي تحدها، والأهم من ذلك، ذكر لـ "قادة سابقين" (أو آباء روحيين) كانوا مسؤولين عنها، بأسماء وأفعال تتوافق مع الأساطير المتداولة عن مؤسسي الدير الأوائل.

هذا الوصف لم يكن يمكن أن يكون محض صدفة أو خيالاً.

لقد تحول الشك إلى قلق مُحكم. كان المخطوط يتحدث عن قريتهم، عن تاريخهم الحقيقي، بلغة لم تعد موجودة.

وضع ثيودور ريشته في الحبر، وهو يعلم الآن أن لديه القدرة على فعل شيء عظيم. لم يعد ينسخ القديسين المنسيين، بل كان ينسخ قوانين

لغز الرموز الفرعونية

أنهى ثيودور قراءة السطور التي ربطت النبوءة بواقع قريتهم. كانت أصابعه ترتعش قليلاً، لكن عقله بدأ يستعيد رباطة جأشه المعتادة.

قضى ثيودور أكثر من نصف ساعة وهو يتأمل الرسوم والرموز التي تشبه الكتابات الفرعونية القديمة في آخر الصفحة. ثم، في الركن الأخير، وجد الرسم التوضيحي الذي استطاع فك رمزه: رسمة لطائر مهيب بعينين حمراوين، يجلس داخل قفص، وتحته مكان مفتوح فيه تُوضع الأسرار. كانت المخطوطة تخبره بكيفية حماية نفسها.

سر الحارس الصامت

كانت الأولوية الآن هي الحماية.

ببطء وهدوء شديدين، طوى ثيودور المجلد السابع عشر الذي يحوي النبوءة المحرّمة. قام بربطه بخيط سميك بإحكام.

توجه ثيودور نحو قفص "الطائر" في الزاوية المظلمة من الغرفة. كانت عينا الطائر الحمراوان تراقبه بصمت مطبق.

انحنى ثيودور ورفع القفص بحركة اعتادت عليها يداه. كشف القفص عن فجوة خفية في الأرضية الخشبية. وضع ثيودور المخطوطة بعناية فائقة داخل الفجوة، ثم أعاد القفص فوقها.

في تلك اللحظة، حدث ما لم يكن متوقعاً.

طار الطائر داخل قفصه دورتين سريعتين وهادئتين، ثم صرخ صرخة حادة وعالية لم يسمعها ثيودور منه من قبل. كانت صرخة قصيرة لكنها مزقت صمت الغرفة.

تصلب ثيودور مكانه. فقد لاحظ أن الطائر حرك جناحيه الصغيرين ليحتوي القفص من حوله، وعيناه الحمراوان استقرتا كحارسين فوق المخبأ. كان تحرك الطائر مشابهاً بشكل مذهل للرسمة الفرعونية التي نظر إليها للتو.

همس ثيودور لنفسه، وعقله يرتجف بين العقلانية والخيال: "يبدو أن الطائر قد نفذ الخطة..." لقد فهم أن الطائر ليس مجرد كائن محبوس؛ بل هو جزء من ترتيب قديم، حارس حي للسر المدفون.

تحت عباءة الليل

جلس ثيودور على مقعده، محاولاً دمج الصدمة والقدرة الجديدة مع روتينه القديم. كان القرار قد اتخذ.

انتظر طويلاً حتى تعمقت عتمة الليل، وعاد صوت الدير إلى الصمت العميق.

تسلل ثيودور إلى خارج غرفته. رفع غطاء الرأس ليظلل وجهه، وتحرك ببطء وحذر، كعادته، متجهاً نحو البوابة الخلفية التي اعتاد استخدامها.

كان ثيودور يتحرك الآن بهدوء ليلاً كعادته، لكن نيته كانت مختلفة؛ لقد كان يغادر ليرى القرية بعين المخطوطة المحرمة، مُقارناً بين ما كُتب عن قوانينها وقادتها وخطايا أهلها القديمة، وبين الواقع الذي يعيشه
انتهى الفصل الأول.

الفصل الثاني: عين المخطوطة
عباءة الشك والوشاح

رفع غطاء الرأس في ردائه الأسود، فغلف وجهه بالكامل في الظل، وهي عادته القديمة. لكن هذه المرة، لم يكن الأمر مجرد عادة؛ فقد أخرجه وهو يشعر بالخوف والترقب لأول مرة بهذا العمق. كان يختلس النظر خلف كتفيه باستمرار، ويشعر وكأن أحدهم يراقبه من كل زاوية مظلمة.

البوابة المنسية والنقوش المنسوخة
ببطء، قرر ثيودور أن يغير خطته المعتادة. فبدلاً من التوجه نحو البوابة الخلفية المألوفة، قرر استخدام بوابة أخرى مهجورة تقع في الطرف الشمالي من الدير.
دفع البوابة الثقيلة، فأصدرت صريرًا مبحوحًا. انحدر ثيودور بخطوات خفيفة على الطريق الصخري الوعر.
وبينما كان يهبط بحذر، أحس ثيودور ببرودة غريبة قادمة من الأرض. نظر إلى الأسفل، واكتشف أن الطريق لم يكن مجرد صخراً طبيعياً.
لقد وجد نقوشاً وكتابات غريبة محفورة بعمق في الحجر، وكأنها سُطّرت منذ زمن بعيد. كانت تلك النقوش تمتد بشكل عشوائي، لا تشبه أي لغة رأها ثيودور من قبل، لكنها كانت تحمل بصمة الرموز الغامضة التي رآها على المخطوطة المحرمة في غرفته. كانت تلك النقوش المنسوخة تمثل دلائل مادية على الأرض تشير إلى أن النص ليس مجرد خيال أو أسطورة. كلما تابع قدمه على الطريق، زاد يقينه بأن المخطوطة هي خريطة حقيقية لواقعه.

الاختبار الصامت
بهذا اليقين المروع، وصل ثيودور إلى أول أكواخ القرية.
توقف ثيودور عند الخط الأول من الأكواخ، حيث كان الظلام يسود الجميع. لكن عيناه الزرقاوان، المظللتان بغطاء رأسه، رصدتا نقطة ضوء واحدة. كان هناك منزل واحد فقط في هذا الخط تُضيئه شمعة خافتة.
لم يكن ثيودور يعلم شيئاً عن الشخص الذي يسكن هذا الكوخ، وكان هذا هو الاختبار الأمثل.
ركّز ثيودور نظره على الكوخ المضيء، مستدعياً الشعور الغريب الذي انتابه عند لمس المخطوطة. شعر فجأة بأن رؤيته الجسدية تنحسر لتحل محلها رؤية داخلية.
لم يعد يرى الكوخ الخشبي البالي، بل رأى خيوطاً رمادية مشؤومة تتدلى من سطح الكوخ نحو الأرض. لم تكن هذه الخيوط سوداء لامعه فحسب، بل كانت خطايا وآثاماً لا تخص الساكن، بل تخص مصيره القادم.
لقد رأى ثيودور أن المصير ليس مجرد توقع، بل حقيقة محفورة في نظام العالم.
تراجع ثيودور إلى الظل، ويده ترتجف تحت الوشاح. لقد أكد لنفسه كل شيء: المخطوطة لا تكذب، و القدر ليس إرادة، بل هو مصير لايمكن تغييره.

مشهد البئر

تراجع ثيودور إلى الخلف مرتعشًا، مختبئًا وراء جذع شجرة، والكوخ أمامه يضيئه خيط شمعة واهن، تتدلى فوقه خيوط المصائر والخطايا. شعر أن الأرض تلفظه من جذورها، فابتعد ببطء، وعيناه تتسارعان بين الظلال. هناك، في الشمال، لمح البئر.
اقترب منه بخطوات مرتجفة، كل خطوة كأنها تُسحب من قلبه انتزاعًا. الهواء صار أثقل، كأنه يهبط من صدره إلى معدته حجرًا لا ينكسر. وعندما مال على الفوهة، رأى ما لم يره في حياته كلها.
لم يكن ماءً، بل مرآة حيّة لذاكرته. صور قديمة انبثقت من السواد؛ طفولته داخل الدير ،رجل يقولون له انه أباك ، ثم انكساره تحت ثقل النسخ، وعيناه مبللتان بدموع لم يجرؤ أن يتركها تنهمر. ثم برز وجه امرأة... كان أوضح من أي شيء.
كانت أمه.
المرأة التي غابت لسنوات عن لسانه وعقله، ودفن ذكراها كأنها خطيئة، عادت في تلك اللحظة بعينيها المرهقتين وصوتها الخافت يناديه باسمه من عمق الحجر. ارتجف قلبه حتى كاد يتمزق. فقد السيطرة على قدميه وسقط على الأرض، جسده يرتعش ويده تتشبث بالتراب.
مشهد الطائر
ظل ثيودور ملقىً قرب البئر، يلهث وكأنه يغرق في هواء الليل. حاول أن يقنع نفسه أن ما رآه وهم، أن عقله أرهقه الخوف، لكن كل ما داخله كان يصرخ: ما حدث كان حقيقيًا.
وقف متكئًا على جذع شجرة، جسده يترنح. لم يعد يعرف اتجاهاته. البئر اختفى عن عينيه، القرية تلاشت، ولم يبقَ حوله سوى ظلال متشابكة.
وفجأة، شق الليل صرخة حادة مألوفة. رفع رأسه، فرأى طائرًا يهبط بخطوط متوازنة، جناحاه كالسحاب الأسود، عيناه جمرتان من لهب.
إنه الطائر نفسه، حارسه وصديقه المسجون في القفص. كيف خرج؟ كيف تبعه؟ لم يكن هناك وقت لأسئلة.
هبط على كتفه مباشرة، وأحس بثقل رهيب كأن عظامه تتكسر تحته. لم يكن الأمر مجرد وقوف طائر، بل قوة خفية تشدّ كيانه كله، تحرّكه من داخله.
لم يقاوم. لم يستطع. أحس أن جسده صار ظلًا للطائر، وأن إرادته سُلبت. ثم، في لحظة، انطلق الطائر صاعدًا، يجرّه معه حتى أفلت، فتهاوى ثيودور على ركبتيه، يلهث، مدفوعًا بقوة غريزية للهرب.
ركض... ليس بإرادته، بل كأن قدميه تسيران بأوامر لا يراها. خطواته تقوده شمالًا، إلى طريق لم يخطُه من قبل، كأنه مكتوب في المخطوطة أن يسلكه.
العودة إلى الكوخ
توقّف أخيرًا ليلتقط أنفاسه، صدره يعلو ويهبط بعنف، والعرق يقطر من جبينه. رفع رأسه، وإذا به أمام مشهد مألوف... الكوخ.
الكوخ ذاته الذي رآه أول مرة، بالشمعة الواحدة المتوهجة. لكن هذه المرة لم يكن فارغًا.
من خلال النافذة الصغيرة، رأى رجلًا يجلس منحنٍ على طاولة، وجهه مطأطأ، كتفاه تهتزان. لم يسمع صوتًا أول الأمر، ثم بدأت الحشرجات تتضح: الرجل كان يبكي.
دموعه تسيل تحت ضوء الشمعة، والبكاء يملأ الصمت الليلي بصدى يجرح الروح.
تجمد ثيودور مكانه. لقد عرف أن ما يحدث ليس مصادفة، بل كأن المخطوطة ساقته ليكون شاهدًا على هذا المشهد بالذات.
شعر بالهواء يثقل أكثر، كأن الكوخ يبتلعه. صدره ضاق، أنفاسه انقطعت، الأرض اهتزت تحته. لم يعد يعرف:

: عودة الإشارة
رفع ثيودور عينيه نحو السماء، وقلبه لا يزال يرتجف من مشهد الرجل الباكي في الكوخ. هناك، وسط السحب الداكنة، لمح الطائر يندفع بسرعة هائلة في اتجاه الدير. جناحاه كانا يضربان الهواء بعنف، وكأن قوة خفية تستدعيه إلى عرينه الأول.
في تلك اللحظة، اجتاح ثيودور شعور غامض لا يقبل الجدل: هذه إشارة.
لم يكن مجرد طائر يهرب، بل كان إنذارًا صريحًا. كأن المخطوطة نفسها تهمس في أذنه: "عد الآن... الغرفة في انتظارك."
ارتجف صدره، وارتفعت أنفاسه. لم يتردّد، لم يعد هناك متّسع للشكوك.
دار بجسده المرهق، وبدأ يخطو في طريق العودة إلى الدير، وهو يشعر أن ما ينتظره هناك ليس مجرد أوراق في قفص مخبأ... بل حقيقة سوداء بدأت تخرج من صمتها.

انتهى الفصل الثانى

الفصل الثالث: عبء الرؤية
١. عودته المباشرة ورؤية الطائر الهادئ
اندفع ثيودور عائداً إلى الدير، وقلبه يخفق بعنف تحت وطأة اليقين الجديد. كل ما حدث كان في ليلة واحدة، والآن كان عليه أن يواجه المصير داخل غرفته.

بمجرد أن أغلق الباب خلفه، أسرع ثيودور نحو منضدته. نظر أولاً إلى القفص الخشبي؛ كان الطائر الحارس بداخله، هادئاً جداً وكأن شيئاً لم يحدث ليلتها. كان جالساً بعناية، والقفص مغلق وكأنه لم يُفتح أبداً.
اقترب ثيودور، يداه ترتجفان. رفع الطائر رأسه ببطء، وعيناه الحمراوان نظرتا إليه. لم تكن نظرة غضب، بل نظرة قبول ويقين لا يتزعزع. وعندما التقت عيناهما، لم يسمع ثيودور صوتاً خارجياً، بل شعر بأن عبارة قديمة نقشت في ذهنه، نصّاً من المخطوطة يتردد بصوت عميق:

"لقد عاد إلى سيدي."

ثم تحولت نظرة الطائر إلى ثيودور مباشرة، وفي اللحظة ذاتها، انبعثت عبارة أخرى من أعماق المخطوطة في وعي ثيودور:

"عليك أن تذهب إلى سجن الوعي."

اطمأن قلبه لعودة الطائر، ثم تحسس بيده مكان إخفاء المخطوطة تحت القفص؛ كانت ما تزال هناك، ثقيلة ومشتعلة بالرموز.

٢. استسلام ثيودور للنوم وهو لا يصدق كل شيء
رغم استسلامه للنوم
لم يكن نوم ثيودور عميقاً. استيقظ فجأة، قبل بزوغ الفجر، على صوت مألوف لم يكن يتوقعه في هذه الساعة المبكرة، صوت يوهان، رسول القديس أوغسطين، وهو يبلغ قائد حرس الدير في الفناء.
قفز ثيودور نحو النافذة، وشاهد يوهان والقائد يتحدثان. كانت رسالة القديس أوغسطين تحمل إلحاحاً:

"... أمر القديس أوغسطين بالتحرك فوراً. لقد رأوه؛ سقط من التل الشمالي بالقرب من البئر. ويحمل شيئاً غريباً في يده."

تجمد ثيودور. وفي تلك اللحظة، شاهد بعقله ما لم تراه عيناه: صورة واضحة ومخيفة لـ جثة الرجل في الكوخ، مطروحة بلا حراك قرب البئر. اجتاحته حقيقة مروعة وقوية: لقد كان عدم ذهابه لإنقاذه أو رؤية ما فيه خطيئة بداخله أبدية!
لقد رأى الخيوط السوداء التي تتدلى فوقه ورغم ذلك تخلى عنه، وها هي الرؤية تتحول إلى عبء حقيقي وفشل شخصي.
رفع قائد حرس الدير يده ليقطع حديث يوهان، ثم همس بكلمة واحدة قوية، التقط ثيودور صداها جيداً: "ابحثوا عن..."
وفي تلك اللحظة، أدرك ثيودور أن دوي الرسالة كان إنذاراً لا يقبل الجدل: هو متورط، وخطؤه أصبح الآن حقيقة لا يمكن إخفاؤها.

٤. تحرك الحرس واستدعاء الرهبان
تحركت فرقة من الحراس نحو التل الشمالي بسرعة، تحركاً سرياً لم يكسر صمت الدير إلا بقعقعة خفيفة.
وبينما كان ثيودور يقف جامداً، تائهاً بين واقعه ورؤاه،
بعد لحظات قليلة، انفتح باب الغرفة بعنف. كان الواقف على الباب حارس من حراس الدير، يلهث بشدة، العرق يبلل جبينه رغم برودة الصباح. لقد أرسله القائد لاستدعاء جميع الرهبان، وثيودور كان آخر من وصل إليه، مما جعل الحارس مرهقاً حد الانهيار.
نظر الحارس المنهك إلى ثيودور ثم أطلق صوته المتعب في الغرفة:

"أمر قائد الحرس! يجب على جميع الرهبان الحضور فوراً إلى دار الشرطة. لقد اكتشفوا شيئاً... الأمر يتعلق بالشخص الميت."

غادر الحارس مسرعاً للتمركز. تجمد ثيودور في مكانه. كان هذا يعني أن اكتشافهم في التل الشمالي أكبر بكثير من مجرد جثة.
ارتدى عباءته وخرج؛ كان يشعر ان عليه أن يذهب ليواجه خطيئته وما كتب عليه.
نهايه الفصل التالت

الفصل الرابع: محاكمة اليقين
١. دخوله مبنى حراس الدير ومحاولة إبعاد الحشد
سار ثيودور وسط رهبان الدير، متجهاً نحو مبنى حراس الدير الحجري. كانت خطواته ثقيلة كأنه يجر قدراً مكتوباً. عند وصوله، لم يجد الصمت المعتاد؛ كان المدخل يعج بحشد غاضب ومضطرب من عمال الدير وسكان القرية.
كانت صرخاتهم ودموعهم تتداخل بينما يتدافعون محاولين اختراق مدخل المبنى. رأى ثيودور حراس الدير يصارعون لإبعاد الحشد بالقوة. وبصعوبة، شق ثيودور طريقه. كانت هناك امرأة تبكي بنشيج موجع، وإلى جوارها، وقف فتى صغير يتمسك بعباءتها. كان يعلم، بيقين قاسٍ ومكتوب، أن هؤلاء هم عائلة الرجل الميت الذي رآه الليلة الفائتة.

٢. المواجهة في غرفة القائد وكشف الدوافع
دخل ثيودور الغرفة الرئيسية ليجد جميع الرهبان متجمعين. كان قائد الحرس يقف خلف منضدة خشبية ضخمة، يطلق نظرات حادة ومخترقة.
بدأ القائد في الكلام بنبرة رسمية لكنها تحمل سخرية مبطنة، موجهاً حديثه للجميع:

"أرى الوجوه الشاحبة. أرى القلق في العيون. هل خوفكم هذا ناتج عن هيبة الحادثة، أم أن دموعكم هنا بسبب شيء خفي تعرفونه عن هذا الرجل أو سبب موته؟ هل لديكم ما تخشونه؟"

بدأ القائد في توجيه أسئلة سريعة للرهبان دون ذكر أسمائهم، باحثًا عن أي تناقض حول أعمالهم أو ما لفت انتباههم.
بعد أن اختبر القائد الرهبان جميعاً وأنهى أسئلته العامة، أشار إليهم بأمره: "يمكنكم المغادرة الآن أيها الإخوة."
وعندما خلا المكان إلا من الحراس، نادى القائد على ثيودور بمفرده، ثم أطلق رسالة القديس أوغسطين الإنذارية:

"هذه رسالة جاءتني للتو من القديس أوغسطين. أبلغني أن لديه تقارير سابقة عنك. إنه يعلم أنك تتسلل ليلاً، وتستمع إلى أحاديث العمال، وأن هذا أغضب الأنبا كثيراً. هناك من شاهدك تعود بسرعة كبيرة إلى الدير ليلة مقتل ذلك الرجل على التل الشمالي."

كانت العبارة الأخيرة قوية كالصاعقة. أدرك ثيودور أن رحلته لم تكن سرية.
٣. طلبات القائد وجواب ثيودور القلق
بدأ القائد في توجيه أسئلة محددة، متوغلاً في أسرار ثيودور المدفونة:
أولاً: عن الراوي من أهل القرية الذي كان يشتكي له عن ظلم الدير.

لنعد إلى عاداتك يا ثيودور،" قال القائد ببرود. "من من أهل القرية أخبرك عن مصاعب ومشاكل يتعرض لها من الدير؟ من هو هذا 'الراوي' الذي كان يروي لك عن ظلم القوانين عليهم؟"
تحدث ثيودور بصوت خفيض، يمزجه تردد ملحوظ:

"لا... لا أتذكر شخصاً بعينه يا سيدي القائد. ربما كنت أستمع إلى بعض العمال... وهم يتحدثون عن متاعبهم اليومية، لكن... لم تكن هناك شكوى صريحة ضد الدير. مجرد... مجرد أحاديث... عابرة."

ثانياً: وجه القائد ضربة قاضية بسؤاله عن الزائر الغامض الذي أتى إليه مره في الدير ولم يعد. ارتجف ثيودور علناً، وأدرك أن الدير يراقب أدق تفاصيل ماضيه. حدث نفسه انا ايضا ابحث عنه هل سيصدق انى لا اعرفه وكل ماعرفه إنه من راعنى صغيرا عن بعد

ثالثاً: صمت القائد، ثم انتقل إلى التهديد الأكبر:

"هل أنهيت النسخ بالكامل؟ لقد وردتني للتو رسالة جديدة من القديس أوغسطين يُبدي فيها رغبته العاجلة في قراءة بعض المخطوطات التي من المفترض أنك قد انتهيت من نسخها. عليك أن تعلم أن الدير سيبدأ في مراجعة جميع نسخك لضمان دقتها."

٤. إعلان الحكم وسجن المراقبة
أنهى القائد استجوابه بكلمة أخيرة جعلت ثيودور سجيناً فعلياً:

"عد إلى عملك الآن. لكنك تحت المراقبة. سوف تُستدعَى في أي وقت، دون سابق إنذار، للإجابة عن أسئلة أخرى. ستبقى في الدير، ولن تطلب منا الإذن بالمغادرة حتى ننتهي من التحقيق والمراجعة."

شعر ثيودور ببرودة كلمات القائد تخترق عظامه. أصبح الآن سجيناً فعلياً، لا يملك من أمره شيئاً. أومأ برأسه بصمت، وانسحب من الغرفة دون أن يرفع عينيه، عائداً إلى غرفته حاملاً خطيئة رؤية المصير والتخلي عنه.
انتهى الفصل الرابع

الفصل الخامس: القفص الشاغر والنظرة الأخيرة
١. مغادرة دار الحرس والعودة إلى الغرفة

خرج ثيودور من مبنى حراس الدير، مغادراً كمشتبه به تحت المراقبة. سار في الممرات الحجرية الفارغة، وخطواته تثقل كاهله بـ خطيئة عدم التدخل التي نُقشت في وعيه. كانت أوامر قائد الحرس تتردد في أذنه: "ستبقى في الدير... ستُستدعَى في أي وقت."

٢. الطائر في انتظاره
وصل ثيودور إلى غرفته وفتح الباب. على المنضدة، كان القفص الخشبي مفتوحاً بهدوء تام. وخلف القفص المفتوح، كان الطائر الحارس يقف على عتبة الباب، يواجه ثيودور مباشرة بعينيه الحمراوين. لم يكن ثيودور ينظر إلى طائر، بل إلى قاضٍ يرى النهاية قبل البداية.

٣. جنون السرعة واكتشاف التغيير

أدار ثيودور ظهره للطائر المتربص، واندفع نحو منضدته لتسريع النسخ. سحب المخطوطة المحرمة المكتوبة بلغة أخرى. وعندما فتحها، تجمدت يداه؛ لقد وجد أن المخطوطة قد تغيرت، وكأن النص يُعيد كتابة نفسه استجابة لأحداث الليلة الماضية.
أخذ ثيودور ريشته وبدأ بالكتابة بسرعة جنونية، منهياً نسخ المخطوطة بالكامل في ساعة من الصمت المجهد. شعر بانفراج غريب ومؤقت.

٤. الاستدعاء القسري ورسالة يوهان
لم يدم شعور ثيودور بالانفراج طويلاً.
اخترق الصمت صوت دق سريع وقاسٍ على الباب. لم يكن دَقاً عادياً، بل جندي (حارس) يخبط على الباب بقوة.
ارتفع صوت الجندي من خلف الباب، صوته يحمل أمراً لا يمكن رفضه: "**الأخ ثيودور! لقد صدر الأمر. قائد الحرس يطلب حضورك... الآن!"

نهض ثيودور ببطء، تاركاً المخطوطة المفتوحة والقفص المشرع. فتح الباب ليجد الجندي يقف على أهبة الاستعداد.
سلم ثيودور نفسه للجندي، وذهب إلى غرفة القائد حيث خاض جولة ثانية من الأسئلة. كان الاستجواب سريعاً وضاغطاً، يهدف إلى تثبيت المراقبة عليه.
بعد فترة قاسية، خرج ثيودور من غرفة القائد، مثقلاً أكثر من ذي قبل. وعندما سار في الممر للعودة إلى غرفته، وجد يوهان ينتظره عند منعطف.
خفض يوهان صوته وهمس سريعاً، وعيناه تتلفتان حوله:

"يا ثيودور... عليك أن تعلم. إنهم يتحدثون. أهل القرية والدير جميعاً... حديثهم ليس عن الميت فقط..."

شعر ثيودور ببرودة تسري في جسده.

"حديثهم كله عنك أنت. عن تسللك المتكرر ليلاً. يقولون إنك كنت شاهد المصير الذي كتبه على نفسه... وأن عودتك السريعة ليلة الحادثة ليست صدفة. هم يتهمونك بالمعرفة... أو ربما بالصمت. انتبه يا ثيودور، الجميع ينظرون الآن."

قبل أن يتمكن ثيودور من الرد أو طلب التوضيح، انزلق يوهان عائداً إلى الظلال، تاركاً ثيودور وحيداً في الممر. أدرك ثيودور أن سجن المراقبة لم يعد يقتصر على القائد؛ لقد أصبح سجناً اجتماعياً يحيط به من كل جانب.
هنا ينتهي الفصل الخامس.

الفصل السادس: سجن الرموز

١. القراءة الهادئة والتمعن في فك طلاسم المصير
عاد ثيودور إلى غرفته، لكن هذه المرة كانت لديه رؤية واضحة: الخلاص ليس في الفرار، بل في الفهم. جلس أمام المخطوطة، ليس تحت ضغط الحرس، بل بقرار ذاتي لـ قراءة المخطوطة كاملة بهدوء تام، متخلياً عن الخوف الذي أصابه في الاستجواب. كانت نيته الآن هي نسخ النص بالتزامن مع التمعن في كل كلمة وكل رمز مكتوب. لقد أصبح النص بالنسبة له خريطة يجب فك شفرتها. أراد أن يعرف السبب الجذري للبلبلة والتوتر، والأهم من ذلك، كان يسعى لربط سبب بكاء الرجل ليلة الحادثة، بـ وجود جثته في الصباح، وما سبب ارتباط كل هذه الأحداث المأساوية في يوم واحد.

٢. تركيز النسخ وحركة الطائر الصامتة
وضع ثيودور المخطوطة أمامه. بدأ ينسخ قطعة قطعة، يركز في كل رمز وجملة. ومع كل سطر ينسخه ثيودور، كان يشعر بحركات غريبة في محيطه. كان الطائر الحارس لا يزال يقف عند عتبة القفص . في كل مرة يتعمق فيها ثيودور في جملة مهمة، كان الطائر يحرك رأسه ببطء شديد أو يُغير وقفته على العتبة دون أن يصدر صوتاً. أدرك ثيودور أن تركيزه القوي على النص يستفز الطائر، ويثبت شكه بأن الطائر هو حلقة وصل حية بينه وبين رموز المخطوطة.

٣. البئر المكتوب وصورة الذكرى المنسية
بينما كان ثيودور ينسخ، وصلت ريشته إلى جزء مفصلي. توقف. كانت الصفحة تحتوي على رسمة باهتة للبئر الذي يقع بالقرب من الطريق الشمالي حيث مات الرجل. تحت الرسم، كانت الرموز تتحدث عن نقطة التقاء الزمن والقدر. اندفعت إليه الذكريات كصاعقة صامتة. أغمض ثيودور عينيه بقوة، وهو يسترجع تفاصيل الماضي الذي نُسي قسراً: تذكر صوتاً خافتاً جداً، صوت امرأة، وهي تسلمه قفصاً خشبياً صغيراً بداخله الطائر. تذكر كلماتها: "هذا هو حارسك، إنه يعرف كل كلمة قبل أن ينسخوها ." وفي اللحظة التي سمع فيها ثيودور هذا الصوت القديم يتجسد، أدرك ان هذا الطائر هو ذكرى وحارس من أمه.

٤. البحث عن الاسم وبداية كسر العزلة
انتفض ثيودور من مقعده. لقد أضاءت المخطوطة ماضيه، لكنها لم تمنحه الإجابة الكاملة. أدرك ثيودور أن المخطوطة لا تحمل أسماء. أصبح لزاماً عليه أن يكسر العزلة التي فرضها الدير. كانت أوامر القائد بالبقاء في الدير لا تزال ترن في أذنه، لكنها لم تعد تخيفه بقدر ما يخيفه جهله. لقد حان الوقت لـ اكتشاف هوية الرجل الميت، وإيجاد شخص من القرية ليخبره ما هو السبب الذي دفع ذلك الرجل للبكاء. قرر ثيودور أنه يجب عليه التسلل للبحث عن الحقيقة البشرية التي تكمّل الأسرار المكتوبة.

٥. محاولة التسلل الفاشلة وعين ثيودور الجديدة
انتظر ثيودور حتى انقضى الليل وبدأ في محاولة التسلل. لكن بمجرد أن فتح ثيودور بابه بحذر، فشلت محاولته من أول خطوة بسبب المراقبة الشديدة للحرس التي أُحكمت عليه. انكمش ثيودور بسرعة إلى الظلال، لكن في تلك اللحظة، ظهر شاب صغير يسير في الرواق حاملاً أدوات تنظيف. كان هذا الشاب، واسمه رومان، وقد تأخر في هذا اليوم فى التنظيف
نظر رومان إلى ثيودور. كان رومان يشعر بأن ثيودور رجل غامض، وأنه غير محبوب من الدير ومن حوله. ثيودور شعر بهذا الشعور المشترك بالعزلة، وقرر كسر هذا الحاجز. بدأ يسأله عن عمره وسنه وعن مصاعبه، بكلمات بدت كأنها صداقة غير متوقعة.
بعد أن اطمأن رومان إلى صدق ثيودور، نظر إليه بعينين تحملان العزم:

"يا رومان، أنا أحتاج إليك في أمر ضروري، أمر يخص الدير والقرية. أريدك أن تأتي إلي غداً في الصباح الباكر، قبل بداية عملك."

شعر رومان بالمسؤولية والاهتمام لأول مرة من راهب. أومأ برأسه في صمت، مؤكداً أنه سيحضر، وتأسست بذلك علاقة ستكون بمثابة خيط رفيع يربط ثيودور بعالم الحقيقة الملموسة.
انتهى الفصل السادس

الفصل السابع: العين الخارجية وسمّ البئر
١. صباح اليوم التالي: الهدوء المرعب
حلّ اليوم التالي على الدير بهدوء غريب ومُريب، يختلف عن أي هدوء اعتاده الرهبان. لم يكن سكون الصباح المعتاد؛ كان سكوناً ثقيلاً ، يخفي تحت سطحه رعباً مكبوتاً. كانت حركة الرهبان في الممرات معدومة تقريباً. شعر ثيودور بأن هذا الصمت ليس طبيعياً، بل هو دلالة على أن المراقبة لم تتوقف؛ لقد أصبحت أكثر ذكاءً وأشد سكوناً. وفي ظل هذا الجو القاتم، كان ثيودور ينتظر وصول رومان.

٢. وصول رومان المتخفي: تحت ستار التنظيف
بعد انتظار قصير ومقلق في ظل الهدوء المريب، ظهر رومان. لم يكن مجيئه مباشراً؛ بل كان يتخفى ببراعة محترف. كان رومان يجر عربة التنظيف الخشبية ببطء، وفي يده ممسحة قديمة. كانت حركاته تبدو طبيعية ومملة، لكن عينيه كانتا تتلفتان بحدة ويقظة. كان يستخدم عمله كـ ستار مثالي؛ لقد استمر في التنظيف والتخفي ببراعة، متجنباً أي تواصل بصري مع الأبواب المغلقة. بعد جهد، نجح رومان في التحرك ووصل أخيراً إلى غرفة ثيودور، متوقفاً أمام الباب وكأنه على وشك تنظيف أرضيتها.

٣. طرق الباب وذريعة التنظيف
رفع رومان يده ببطء وطرق الباب طرقاً خفيفاً جداً. فتح ثيودور الباب بهدوء بالغ، ليجد رومان عند عتبته. تحدث رومان بنبرة خفيضة ورسمية، وكأنه يلقي حجة أعدها مسبقاً:

"سامحني يا سيدي الراهب. لم أستطع إكمال عملي أمس. توقف رومان، يتفحص الممر بعينيه بسرعة، ثم أكمل بصوت أكثر خفوتاً: لم أستطع تنظيف غرفتك في الصباح بسبب ظروف التحقيقات التي جرت في مبنى الحرس، ولم أستطع في المساء بسبب ظروفي الخاصة التي جعلتني أتأخر. أرغب في الدخول الآن لتنظيفها، قبل أن يبدأ الجميع العمل."

لقد كانت حجة متكاملة. أومأ ثيودور ببطء، وفتح الباب على اتساعه قليلاً، وسمح لـ رومان وعربة تنظيفه بالدخول إلى الغرفة.

٤. الطائر النائم وطلب كسر الصمت
دخل رومان الغرفة بهدوء، وأغلق الباب خلفه. كانت الغرفة الصغيرة تعمها سكينة مريبة، لكن هذه السكينة كانت نابعة من مصدر غير متوقع: الطائر الحارس. كان الطائر يقف على عتبة القفص المفتوح، لكنه هذه المرة بدا نائماً في شكل وديع وبريء، كطائر أليف لا علاقة له بأي أسرار أو مراقبة.
بدأ ثيودور الحديث بصوت خفيض، يمزجه عزم جديد:

"رومان، أنا أحتاج إلى عينيك وأذنيك. أنا رجل منعزل، لكن الأحداث الأخيرة دفعتني للبحث عن الحقيقة. لا يمكنني ترك هذه الأمور تمر دون أن أفهم."

بدأ ثيودور يسأل رومان عن القيل والقال الدائر في الدير والقرية: "ماذا يقول الناس؟ ماذا يدور في أحاديث العمال عن حادثة القتل؟ هل هناك أسئلة تطرح حول الأسباب، أو عن الرهبان؟"
أخبر رومان ثيودور بوجل عن الكلمات المتناثرة، وعن اعتقاد الناس بأن الأمر ليس مجرد جريمة، بل نقمة أو حكم إلهي وقع بسبب ظلم ما. تحدث عن الخوف الذي يسيطر على العمال خوفاً من أن يكون الدير متورطاً في إخفاء شيء ما.
بعد أن استمع ثيودور باهتمام، أدرك أن عليه التحرك شخصياً. انتقل إلى الطلب الأكثر خطورة:

"أنا محتجز هنا، لكن عليّ أن أرى بعيني. رومان، أنا أرغب في زيارة عدة أماكن في القرية، تحت ستار ظروفك الخاصة. أريد أن أرى بيت الرجل المقتول، وأريد ٥. الرصد الأولي: رومان يعرض التضحية
صُدم رومان بطلب ثيودور، لكنه قدم عرضاً استراتيجياً بدا وكأنه محاولة للتخفيف من وطأة المخاطرة المباشرة: أن أرى البئر بنفسي."

"يا سيدي الراهب، الخروج الآن انتحار محقق، والمراقبة شديدة." قال رومان بصوت يكاد يكون همساً. "دعني أفعل أنا ما تطلبه. اسمح لي فقط أن أستمع بعناية إلى كل ما يقال بين العمال والرهبان، وأن أبحث لك عن اسم الرجل المقتول وعن أسرته وعن ظروفه. أريد أن أجمع لك كل معلومة عن ما أدى به إلى القتل وما إذا كان الدير متورطاً في يأس هذا الرجل."

ثم، وبعد تردد مرير، خفض رومان صوته أكثر وقدم اقتراحه الأخير، وهو يرتجف: "سأفعل ذلك، ثم سأحاول أن أجد لك طريقة للتسلل، لتتمكن من رؤية البئر بنفسك، لكن هذه الخطوة... هذه الخطوة مرعبة، وسأفعلها فقط إذا كان لا مفر منها."
شعر ثيودور بالكلمات تخترق قلبه. لقد التفت ثيودور إلى كمية الخوف بداخل هذا الصغير. أدرك أن رومان يعرض على الراهب مساعدة تفوق قدرته، وكل ذلك نابع من إحساس مشترك بالعزلة والظلم.
٦. يقظة الطائر: السطران المتبقيان
بعد أن اتفق ثيودور ورومان على خطة المراقبة، غادر رومان الغرفة بهدوء.
بمجرد إغلاق الباب، كُسر الهدوء المريب. تحرك الطائر الذي كان نائماً. لم تكن حركته مجرد نفضة، بل كانت حركات غريبة وسريعة ومحمومة داخل القفص . بدا وكأنه يوجه ثيودور لفعل شيء عاجل.
التفت ثيودور إلى الطائر، وتجاهل الإشارات لأول مرة. لقد فهم الرسالة.
"
أعلم، أيها الحارس الصامت،" همس ثيودور لنفسه وهو يقترب من المنضدة. "لقد ألهاني ما هو بشري عن ما هو مكتوب."

نظر ثيودور إلى المخطوطة التي ظن أنه انتهى منها. كانت النسخة المكتملة حديثاً أمامه، لكنه تذكر فجأة شيئاً غريباً: لقد لم ينهِ آخر سطرين في آخر صفحتين في المخطوطة. كان يتجنب قراءتهما دائماً، ففي كل مرة كان يقترب منهما، كان يحدث شيء يشتت انتباهه.

"كلما أتيت لقراءتهما، يحدث شيء يصرفني،" قال ثيودور بصوت مسموع. "الآن لا عذر. عليّ الآن أن أقرأهما. فربما يكون الحل الذي أبحث عنه مختبئاً في هذين السطرين المنسيين

٧. فك شفرة الكارثة المنسية والنهايات المحتومة
وضع ثيودور ريشته جانباً، وتناول المخطوطة مباشرة. بدأ يقرأ السطرين المنسيين في الصفحتين الأخيرتين.
لم يفهم ثيودور شيئاً في البداية، لكن مع التركيز، شعر وكأن عقله يجبر نفسه على تجميع صور متناثرة. كان النص يتحدث عن قصة شخص تسلل ليلاً، شاهد الرموز العتيقة على الطريق الذي غادره ثيودور ليلاً قبل وفاة القتيل.
ثم تحول النص لوصف النتيجة المرعبة لهذا السلوك. كانت الرموز تتحدث عن مصير كل من يقترب من البئر. البئر لم تكن مسمومة؛ كانت مهجورة ويُروى عنها روايات كثيرة لا أحد يعرف صدقها. النبوءة كانت تدور حول الثمن الذي يدفعه الزائر.
لقد وقع ثيودور في دائرة الشك القاتلة. فقد فهم من قراءة المخطوطة أن هذه البئر:
• إما أن تكون بداية النهاية لأي شخص يتجرأ على الاقتراب منها، أو أنها تمثل النهاية لشخص بالفعل تحت عقاب ومصير مكتوب.
• أو أنها كما بالرسم، مكان ينظر فيه الرجل فيجد نفسه يرى ماضيه المرير، أو يرى نفسه بصورة غير صورته الحقيقية.
• والأدهى من ذلك، أنه فهم أن البئر تسمح للإنسان بأن يرى نهايته المحتومة.
شعر ثيودور بأن عقله يفهم هذا الكلام بصعوبة بالغة لصعوبة المخطوطة ولغتها ورسومها التي مر عليها الآلاف من السنين. وبدأ يخاف على رومان من أن يتأثر بهذه النبوءة. أدرك ثيودور أن البئر ليست مجرد موقع، بل هي مرآة مصيرية.

الفصل الثامن: الموعد المحتوم وكسر الصمت
١. يومان من الهدوء القاتل
مر يومان كاملان على اكتشاف ثيودور المرعب للسطرين المنسيين في المخطوطة. لم تكن أيام راحة، بل كانت صمتاً مطبقاً وكابوسياً داخل أسوار الدير. لم يجرؤ ثيودور على مغادرة غرفته، والأهم، أن رومان لم يظهر أبداً خلال هذين اليومين، مما زاد من قلق ثيودور وشعوره بالعزلة التامة. كان الهدوء بحد ذاته تهديداً؛ هدوء ما قبل العاصفة، أو ربما فخ نُصب ليجعل ثيودور يشعر بالأمان الزائف قبل أن يطبق عليه.
٢. استدعاء القائد: ثيودور هو أول المستدعين غداً
في نهاية اليوم الثاني، انكسر جدار الصمت المرعب. وصل راهب مفرد إلى غرفة ثيودور، لا يحمل أي علامات للحرس، مما زاد من غموض الموقف. طرق الراهب الباب وأبلغ ثيودور بنبرة رسمية وهادئة، كاشفاً عن خطة القائد:

"سيدي الراهب، اليوم تم استدعاء أربعة رهبان آخرين أمام قائد الحرس." توقف الراهب، ثم أضاف ببطء يثير الريبة: "وأنت أول من يُستدعى غداً صباحاً."

أدرك ثيودور أنهم لم ينسوه، بل كانوا يغلقون دائرة تحقيقاتهم. وضع اسمه في البداية غداً يعني أنه الهدف الرئيسي، وأن مواجهته أصبحت وشيكة ومفروضة.
٣. لقاء رومان: الإصرار على طاعة القائد أولاً
بعد مغادرة الراهب، بدأ ثيودور يستعد نفسياً للمواجهة. كان قد انتهى لتوه من صلاة الصباح وكان متجهاً نحو غرفته ليجمع أفكاره قبل الذهاب إلى القائد. في تلك اللحظة، ظهر رومان.
كان رومان يرتدي ملابسه المعتادة، ممسكاً بمقشة، يتظاهر بأنه يواصل كنس وتنظيف الممرات ببطء شديد. سار رومان بخطوات سريعة نحو ثيودور، وهمس بنبرة لم تخرج من فمه بل كادت أن تخرج من روحه:

"يا سيدي الراهب، أعلم أن القائد طلبك غداً. يجب أن تذهب إليه أولاً. لكن عليك أن تأتي إليّ قبل أن تشرق الشمس بعشر دقائق غداً صباحاً. في ذلك الوقت، يكون الرهبان لم يستيقظوا بعد، ولم يذهبوا لتناول فطورهم. ولن يرانا أحد."

هذا التوجيه كان مفاجئاً: رومان يطلب من ثيودور أن يواجه الخطر الرسمي أولاً، ثم يأتي إليه. عاد ثيودور إلى غرفته، وهو يدرك أن الموعد السري لكسر المراقبة لن يتم إلا بعد أن ينجو من المواجهة مع القائد.
٤. العودة إلى المخطوطة العادية: تكميل العمل المتراكم

عاد ثيودور إلى غرفته، وتملكه إحساس الإلحاح المميت. لقد كان يعلم أنه قضى وقتاً طويلاً جداً منغمساً في المخطوطة المحرمة (الـ ١٧)، والتي استهلكت منه أربعة أيام كاملة من التركيز المخيف، دون أن ينجز أي شيء آخر.
أدرك ثيودور خطورة الموقف؛ يجب أن تكون لديه ذريعة مقنعة لتأخره. بدأ ثيودور العمل بضغط هائل على بقية المخطوطات المتراكمة عليه. وضع يديه على المخطوطة الثانية عشرة، وهي آخر المخطوطات التي يجب أن يقدمها للقائد.
لهذا، انغمس ثيودور فيها ناسياً الوقت، بقي ساهراً طيلة الليل، يدفع ريشته بحمى لإنهاء النسخ. لقد كان يهدف إلى تقديم دليل قاطع على انشغاله الشديد، وأن المخطوطة الثانية عشرة قد اكتملت تحت يديه في آخر لحظة، مما يبرر تأخره.
٥. الاستدعاء الليلي: توقف القلم القسري
في ذروة انغماسه بالعمل، وقبل أن يضع النقطة الأخيرة على المخطوطة، لم يحدث طرق، بل حدث اقتحام صوتي للصمت. كانت ضربات عنيفة وثقيلة هزت الباب بأكمله. جمد ثيودور في مكانه، وقطرت الحبر من طرف ريشته على الورق. لقد أدرك فوراً أن القائد لم ينتظر للصباح.
فُتح الباب بعنف، ووقف عند العتبة قائد الحرس بنفسه، مُحاطاً بهالة من التوتر والقلق الشديد المخيف. نطق القائد بصوت حاد ومعدني:

"الراهب ثيودور، طلب القائد أصبح فورياً. ليس هناك صباح. عليك الحضور الآن."

غطى ثيودور المخطوطة بسرعة، ونهض بجسد مجهد، وخطا نحو الباب، يواجه المصير في ليل الدير المظلم.
٦. مواجهة القائد: الرهبة الصامتة والإنصياع
دخل ثيودور مكتب القائد في صمت يكسوه البرد. هرول ثيودور مسرعاً إلى مكتب القائد، دخل الغرفة بلهفة وأنفاس متقطعة، خائفاً من غضب القائد بسبب تأخره.
كان قائد الحرس جالساً خلف مكتبه، شديد العبوس والصرامة، ينظر إلى ثيودور بعينين ثابتتين خاليتين من أي رحمة. لم ينطق القائد بكلمة فور دخول ثيودور، بل سمح للصمت الطويل أن يطبق على الغرفة، بينما ثيودور يقف مرعوباً، غير قادر على تبرير تأخره بسبب هرولته.
٧. اعتراف الراهب وأمر العزلة القاتل
بعد لحظات من الصمت المشحون، كسر القائد الجمود بسؤال مباشر:

"ما هو سبب هذا التأخير كله يا ثيودور؟ وما هي طبيعة هذا الغياب عن الدير في فترة انعزالك؟ أخبرني بصدق، كنت مشغولاً فعلاً بالنسخ؟"

رد ثيودور سريعاً، محاولاً استباق القائد بعذره القوي: "يا سيدي القائد،" قال ثيودور بصوت مبحوح. "أنا منغمس في تجهيز كل الورق المطلوب والمراجعات التي طلبتموها. كنت أُجهّز النسخ كي تكون جاهزة للمراجعة الكاملة في أي لحظة. لقد كنت أعمل دون توقف كي لا أكون مُقصراً—"**
هنا، قاطع القائد ثيودور ببرود قبل أن يكمل جملته، مُصدِراً الأمر في نبرة لا تقبل التراجع، ومشيراً إلى أن المراقبة ستكون تحت سلطته المطلقة:

"تمام، حسناً. لن يكون هناك تراكم للعمل بعد اليوم. لقد تقرر أن تنتقل مهمتك إلى تنظيم أرشيف المخطوطات المتهالكة في قبو المكتبة. هذا العمل يتطلب الانغلاق التام. لن تتواصل مع أي راهب أو أي عامل، وستكون تحت رعاية قائد مباشر."

تحولت مهمة النسخ إلى سجن انفرادي. عاد ثيودور إلى غرفته والموعد السري لـ رومان يدق في رأسه. الآن، لم يعد الأمر مجرد خيار؛ لقد أصبح عصياناً وجودياً. نظر ثيودور إلى المخطوطة وتذكر نبوءة النهاية المحتومة. نهض ثيودور ببطء، وفي عينيه عزم لا رجعة فيه. همس لنفسه:

"ما لا يُكتب لا يُنجز. لقد كتبوا لي النهاية، ما الحل"
انتهى الفصل الثامن

الفصل التاسع: ساعة الصفر و درب المجهول
١. الرهبة قبل الشروق: الطائر الشاهد

عاد ثيودور إلى غرفته بعد جولة الاستجواب القاسية مع القائد. كانت الساعة تشير إلى ما بعد منتصف الليل بوقت قليل، والموعد المحدد للقاء رومان هو قبل شروق الشمس بعشر دقائق. لم يكن ثيودور قادراً على النوم؛ فكل إغماضة عين كانت تحمل معها صوراً من المخطوطة أو صدى لأوامر القائد بالعزلة.
جلس ثيودور على كرسيه الخشبي البالي، والمخطوطة الـ ١٧ المحرمة أمامه، لكنه لم يعد ينسخ. كان يحدق في الظلام.
لم يكن وحيداً. الطائر الحارس، الذي كان يقف بهدوء عند عتبة القفص لم يكن نائماً هو الآخر. كان الطائر يراقبه بـ عينين حمراوين ثابتتين في ظلمة الغرفة، وكأنه حارس ساهر لا يريد لثيودور أن ينام. كانت النظرة تحمل إلحاحاً غريباً وكأن الطائر يقول له: لقد اتخذت قرارك، والآن عليك أن تبقى مستيقظاً لتشهد على عواقب هذا القرار.
شعر ثيودور بأن الطائر لا يراقبه فحسب، بل يضغط عليه نفسياً، مذكراً إياه بأن كل دقيقة يقضيها ثيودور في الغرفة هي دقيقة يُحسب عليه فيها تأخره عن اللقاء المصيري. وبينما كان الراهب يعيش في رعب متزايد من المجهول، ظل الطائر شاهداً صامتاً، ينقر المنضدة ببطء وكأنه يعد الثواني المتبقية على ساعة الصفر.

٢. يقظة الطائر: نداء الوداع الأخير (مُعدَّل)
لم ينجح ثيودور في مقاومة إرهاق أربعة أيام من العزلة وليلة من الاستجواب. بينما كان يحدق في الطائر، غفلت عيناه لحظات قليلة، سقط فيها رأسه إلى الأمام فوق المخطوطة. في تلك اللحظة القصيرة بين الوعي والنوم، لم يرَ ثيودور صوراً مشوهة، بل رأى المخطوطة وهي تشتعل برموزها، معلنة عن المصير المكتوب، ورأى في الجانب الآخر بئراً مظلمة تعكس ماضيه المرير وصوراً غامضة لوجه إنسان.
لكنه لم يغرق في النوم. أيقظه صوت حاد غير متوقع.
لم يكن صوتاً عالياً، بل كان صوت نقرة نقرة متتالية وسريعة من منقار الطائر على الخشب. لم يكن الطائر يضرب بعنف، بل كان ينقر بإيقاع مُلح، وكأنه ساعة طبيعية تعلم دقة الموعد.
رفع ثيودور رأسه ببطء، وعاد إلى وعيه بالكامل. كانت عينا الطائر الحمراوان تشتعلان الآن بضوء خافت وغريب. كان الطائر يرفرف بجناحيه ببطء داخل القفص ، ثم وقف على العتبة، ونظر إلى الممشى المظلم خارج النافذة.
في تلك اللحظة، لم تعد النظرة اتهاماً، بل كانت تذكيراً صارخاً: لقد اقترب الموعد. لم يتبق سوى لحظات قليلة تفصلك عن لقاء رومان. كانت النظرة تحمل وداعاً غامضاً، وكأن الطائر يودعه لرحلة قد لا يعود منها.
أدرك ثيودور أن الطائر كان يعمل كـ حارس شخصي للوقت المكتوب. لقد كان يحرسه من النوم، ويوقظه بدقة قبل الموعد السري.
نهض ثيودور من كرسيه، وارتدى عباءته، تاركاً الطائر يقف وحده في الغرفة، شاهداً على أول خطوة له خارج النظام المرسوم.

٣. الصدمة الكبرى: أمر الامتثال
خرج ثيودور للقاء رومان عند ممر العمال في الدير، حيث كان الظلام لا يزال يلف كل شيء. تم اللقاء على خطوات خافتة، والهمس هو وسيلتهم الوحيدة للتواصل.
بدأ رومان يسرد لثيودور ما حدث في القرية، لكنه بدأ بالتهامس عن الشكوك بدلاً من الحقائق

"يا سيدي الراهب، ما يقال في القرية والدير مرعب. هناك اعترافات تتحدث عن أن الدير له يد في مأساة القتل، ليس باليد المباشرة، بل بالصمت والغطاء. لكن ليس هذا ما يخيفني."

سأل ثيودور بلهفة، محاولاً تجاهل الخطر المحدق: "ما الذي يخيفك إذاً؟"
هنا، كشف رومان عن السبب الحقيقي لطلبه للقاء. قال إنه استمع إلى بعض استجوابات الرهبان من خلف الجدران، وسمعهم يتحدثون بهدوء مرعب. الكل يتهم ثيودور، لديهم معلومات مؤكدة عن عودته ليلاً وقت الحادثة، وهم الآن على يقين من أنه سيهرب ولن يعود إذا سُمح له بالخروج.
عندما توقع ثيودور أن رومان سيدعوه الآن للفرار معه، جاءت الصدمة. نظر رومان إلى ثيودور بعينين يملأهما القلق، وهمس بطلبه الذي قلب الطاولة:

"يا سيدي الراهب، يجب أن تمتثل لأمر القائد ولا تهرب! لا تذهب معنا إلى القرية الآن! الأنبا أوغسطين قادم إلى الدير... سينفذ العقاب بنفسه بعد اكتشاف من هو الرجل اللغز، رجل الكوخ والقتيل!"

"لكنه وعد بأن يبرئ ثيودور! يجب أن يراك القائد في الدير ليعلم أنك لم تهرب. هذا هو المفتاح!"

تجمد ثيودور في مكانه. لقد كان يفكر في الفرار والمخاطرة، بينما رومان يطالبه بالعودة إلى القفص والامتثال التام. كانت هذه هي صدمة طلب رومان؛ لم يكن الشاب يدعوه إلى الحرية، بل يدعوه إلى مواجهة عقاب محتوم بحجة "البراءة". أدرك ثيودور أنه محاصر بين مصيرين: الهروب مع رومان إلى المجهول، أو العودة إلى القائد والرهان على وعد غامض من الأنبا أوغسطين.

٤. العودة الحزينة ومواجهة القفص الشاغر

في لحظة انقسام الوعي بين الهروب والامتثال، حسم ثيودور أمره. نظر إلى رومان، ثم إلى الممر المظلم المؤدي خارج الدير، ثم أدار ظهره للممر واستسلم للبقاء. كانت عودته إلى غرفته حزينة وبطيئة؛ فخطواته كانت مثقلة بعبء قرار ليس له.

دخل ثيودور الغرفة، وكان أول ما فعله هو النظر نحو المنضدة. شعر بصدمة جديدة: القفص كان مفتوحاً، لكن الطائر لم يكن موجوداً.

غاب الحارس. غاب الشاهد.

بدأ ثيودور يدور في الغرفة بخطوات بطيئة وخائفة، والتفكير يمزق صدره: هل الطائر غادر لأنه رأى أن مصيري أصبح محسوماً؟ هل رحيله يعني أنني اخترت المسار الخاطئ؟ أم أن الطائر ذهب ليقوم بدوره الأخير في هذا المصير المكتوب؟

لقد تحول المشهد من مواجهة خارجية إلى فراغ داخلي موحش، زاد من رعب ثيودور ويقينه بأن لحظة الحسم قد اقتربت.

٥. الرعب المكتوب: ثمن المصير

تجاهل ثيودور غياب الطائر، وتحولت نظرته إلى المخطوطة. في لحظة من اليأس، قرر قراءة النص المتغير مرة أخرى، على أمل أن يكون كل ما حدث مجرد كابوس.

وجد ثيودور كلمات جديدة نقشت في النص. لم تعد القصة مجرد وصف للمصير؛ بل كانت خياراً بيده. فهم ثيودور من بين السطور أن القصة مكتوبة، لكن نهاية المصير ليست ثابتة. كان الخيار يكمن بين ثيودور، أو "رجل من القرية". لقد كان النص يلمح إلى أن المصير المحتوم (العقاب أو الموت) يجب أن يقع على أحدهما.

لقد أصبح المصير المكتوب في المخطوطة الآن عبارة عن معادلة صفرية: إما أن يستسلم ثيودور لحكم الأنبا أوغسطين ليتحقق المصير عليه، أو أن يُغيِّر القدر ويجد دليلاً يدفع بـ "رجل آخر" (ربما أحد المتورطين في ظلم القرية) ليذهب مكانه إلى ذلك المصير المحتوم. المصير الآن في يد ثيودور: هل هو الضحية أم القاضي؟

٦. وصول الأنبا: الدليل والمراجعة

في تلك اللحظات الفاصلة، انقطع صمت الغرفة بطرق مهيب وحاد على الباب. لم يكن طرق حارس، بل كان يحمل سلطة أعلى وأقدم.

"الأخ ثيودور!" جاء صوت رسمي من خلف الباب. "الأنبا أوغسطين يطلب جميع المخطوطات التي نسختها، والمخطوطات القديمة البالية. عليك إحضار كل النسخ... فوراً."

أدرك ثيودور أن وصول الأنبا أوغسطين كان متزامناً مع اللحظة التي فهم فيها سر المخطوطة. هرع ثيودور لتجميع جميع النسخ التي كتبها، والمخطوطة الـ ١٧ المحرمة أيضاً. قام بتسليم كل شيء، وتلقى الأوامر الجديدة: إيداع المخطوطات القديمة البالية في أرشيف قبو المكتبة الجديد، وهو المكان الذي أمره القائد بالعزلة فيه.

عاد ثيودور إلى غرفته بانتظار الحكم. ثم حدث ما لم يتوقعه. بعد فترة وجيزة، أُعيدت إليه المخطوطة الـ ١٧.

أبلغ الأنبا عن تقديره لإتقانك في وقت قليل،" قال الراهب الذي أعادها. "وأشاد بجهدك."

شعر ثيودور بالمديح كطعنة باردة. كان الثناء في غير محله. لقد مدحه الأنبا على السرعة والإتقان، لكن في قلب الأنبا كان هناك شك وهدف آخر. كان ثيودور يدرك أن المخطوطة قد عادت إليه لكي يكون تحت المراقبة داخل حدودها، وأن الحكم النهائي سيصدر ثاني يوم، بعد أن يكون الأنبا قد "اكتفى من الأدلة" ووصل إلى استنتاجه حول لغز الرجل الميت. عاد ثيودور إلى غرفته، والمخطوطة الـ ١٧ الآن هي رفيقة عزلة الأرشيف.

٧. الطائر يعود والكل يتجمع (الصيغة النهائية)

فجأة، شق سكون الدير صرخة مدوية. لم تكن صرخة رعب، بل صرخة دهشة وانفعال.

نظر ثيودور نحو النافذة فرأى الطائر الحارس، الذي غاب عنه، قد عاد! لكنه لم يعد إلى القفص؛ لقد كان يحلق في سماء الدير بشكل دائري ومحموم، يضرب بجناحيه بقوة، مما تسبب في فوضى عارمة في صفوف العمال المتبقين وبعض الرهبان.

في تلك اللحظة الحرجة، وبينما كان الناس في الدير وضواحيها منشغلين بالنظر إلى السماء، أصدر قائد الحرس أمراً كاملاً: أمر باعتقال جميع الرهبان الذين استُدعوا سابقاً أمام القائد، إلا ثيودور، الذي بقي في عزلته بأمر الأنبا. دوى خبر الاعتقال الجماعي

كصاعقة في أنحاء الدير والقرية، مما أنسى الناس والجميع حدث الطائر الفجائي. لقد تحول الانشغال من سماء الدير إلى مصير الرهبان.
وبسبب هذه الفوضى، لم يخبر أحد القائد أو الأنبا بظهور الطائر وعودته. لقد نجت عودة الطائر من التسجيل في الدائرة الرسمية.
وفي خضم هذا الحدث الجلل، وصل أمر آخر من الأنبا: أمر الأنبا أوغسطين بحضور عائلة الرجل الميت لسماع شهادتهم النهائية أمام الرهبان المعتقلين.
شعر ثيودور بأن المخطوطة قد بدأت تتحقق. لقد قرر ثيودور تغيير المصير وعدم التضحية بنفسه كجزء من المعادلة الصفرية.
ثم سمع نداء الطائر. لم يكن صوتاً، بل كان إحساساً قوياً بأن الطائر يطلب منه الذهاب. أدرك ثيودور أنه سيذهب لحضور جلسة الاستماع العلنية في اليوم التالي، بعد سماع نداء طائره. لقد حان وقت المواجهة النهائية.
هنا ينتهي الفصل التاسع.

الفصل العاشر: محكمة الأنبا وكسر النبوءة
١. إعلان الإرادة: المصير المكتوب
عاد ثيودور إلى غرفته بعد نداء الطائر، ليجد المخطوطة الـ ١٧ أمامه. لم يعد يرى فيها حكماً يخشاه، بل رقعة شطرنج يتحرك عليها الجميع، محاولين تحقيق النهاية التي يرونها. لقد أدرك ثيودور بوضوح أن خياره لم يعد بين الأمان والخطر، بل بين أن يكون الضحية المكتوبة أو القاضي الذي يعيد كتابة الحكم.
لقد أيقن أن الطائر الذي عاد يمثل الآن نداء العمل وليس نداء الطاعة العمياء. لهذا، استجاب ثيودور لنداء الطائر الذي سمعه، لأنه أدرك أن هذا النداء هو البداية الجديدة التي يجب أن يكتبها بنفسه.
جلس ثيودور أمام المخطوطة، ليس ناسخاً، بل كاتباً يعلن إرادته. أخذ ريشته، وبدأ يكتب في الهوامش البيضاء للنص القديم، ليس رمزاً، بل إعلاناً صريحاً، مكملاً بذلك فهمه للسطرين المنسيين:

"لقد كتبوا لي النهاية، لكنني أختار مصيراً آخر." [١, ٢]

كانت هذه هي اللحظة التي قرر فيها ثيودور أن يتلاعب بمصير الجميع. لقد أيقن أن اعتقال الرهبان الأربعة المعاونين للقائد، والذي تلا عودته وفوضى الطائر، كان نتيجة مباشرة لقراره بعدم الانصياع ولبدء تحقيقه الخاص. لهذا، تلاعب ثيودور بمصير الجميع عندما قرر أن يتحرك، وأصبح اعتقالهم نتيجة لهذا القرار. لقد انتهى عهد السلبية، وبدأت الإرادة الحرة في محاولة كسر النبوءة.[٣]
٢. الصدمة الكبرى في الجلسة العلنية
توجه ثيودور نحو قاعة المجمع الكبرى، متسللاً بين الحراس الذين لم يعيروه انتباهاً. كانت الأجواء في القاعة ثقيلة ومُخيفة؛ فجميع رهبان الدير المعتقلين، باستثناء ثيودور، كانوا جالسين في صف واحد بانتظار الحكم. في المقابل، جلس الأنبا أغوسطين على منصته الرسمية، وإلى جانبه قائد الحرس الصامت.
دخل ثيودور القاعة بهدوء، وسار نحو مقعد خُصص له في زاوية، بعيداً عن الرهبان المعتقلين. كان يحمل صمتاً عميقاً يعكس يقينه.
في مشهدٍ مفجع، تم إحضار أسرة القتيل. بدأت الجلسة ببطء قاتل، حيث تحدثت الأسرة عن فقيدها : لقد مات قهراً، ذهب ولم يعد، تاركاً إرثاً من الوفاء والإخلاص للأنبا اوغسطين شخصياً.
بدأ الأنبا يسأل، وبدأت الإجابات تتناثر ببطء.

الأنبا أغوسطين (بصوت يملؤه الغضب): "من منكم رأى هذا الرجل يوم الحادث؟ وكيف تم العثور عليه؟"

أحد الرهبان (بارتباك): "يا سيدي الأنبا، لا نعلم من هو بالتحديد... لقد وجدناه من فوق التل، سقط وتحطم جسده."

ثم بدأت أصوات الرهبان ترتفع في كورال دفاعي مُنسق: "نحن لم نخرج! كلنا كنا في الداخل. والخارج واحد فقط معروف!"
هنا، ارتفع صوت قائد الحرس فجأة ليقطع التضارب، موجهاً ضربة مفاجئة لسرد الرهبان

"الراهب الذي تلمحون إليه كان تحت المراقبة التامة بأمري. لم يغادر غرفته إلا بأمر، ولا دليل لدي على أنه ذهب إلى التل. لا تتهموا الراهب الصامت ."

ساد صمت قليل مريع. ثم، فجأة، تحول الإيقاع إلى تسارع لا يُقاوم. وقف بولا، أحد الرهبان الأربعة الذين استجوبوا قبلاً، وبدأ يتحدث بصوت لم يعد خائفاً، بل صوت اليائس الذي أراح سرّه:

"الرجل قتل نفسه! أنا وعدته بالمساعدة، لكني عجزت. لقد كان يائساً، وعندما علم بقدوم الأنبا اوغسطين لتحقيق العدالة، فقد الأمل من رحمة البشر. لقد ألقى نفسه من فوق التل الأعلى."

كان اعترافاً صادماً أوقف كل الأنفاس. عند هذه النقطة، كان الأنبا اوغسطبن قد اكتفى تماماً.

الأنبا أوغسطين (بصوت يملؤه الغضب): "أطلب من الجميع الخروج من هذه القاعة. الرهبان الذين تم استدعاؤهم، وعائلة الرجل الميت، والراهب ثيودور... اخرجوا جميعاً."

انصاع الجميع لأمره. وبعد دقائق معدودة من خروجهم، خرج حارسان وأطلقا سراح الرهبان الثلاثة الذين بقوا، وعائلة الميت، وسمحا لـ ثيودور بالعودة إلى عزلته. وبقي بولا الراهب الوحيد داخل القاعة، يواجه مصيره بمفرده مع الأنبا أغوسطين.
٣. الحكم المكتوب: ثمن الاختيار (بولا)
لم يطل صمت القاعة. فبعد دقائق قليلة من خروج ثيودور وبقية الحضور، فُتِح باب المجمع، وخرج بولا محاطاً بعدد من الحراس، مكبل اليدين وفي عينيه استسلام تام لمصيره.
شعر ثيودور ببرودة تقرص أصابعه وهو يرى المشهد من طرف الممر، متذكراً أن بولا هو الروح التي كتبها بيده لتكون بديلاً عن نهاية المصير المحتوم. كان هذا هو ثمن الاختيار: لقد اختار ثيودور ألا يضحي بنفسه، وبمجرد أن وقع اختياره على إنسان، سارع النظام المكتوب إلى إيجاد الطريقة لتنفيذ هذا الاختيار، فكان اعتراف بولا المصيري بالنهاية.
صدر الأمر العلني بتنفيذ العقوبة على بولا ليلاً. كان هذا تأجيلاً لم يزيد ثيودور إلا رعباً؛ فالصمت الذي يسبق الليل سيكون ثقيلاً بمصير الراهب المختار.
عاد ثيودور إلى غرفته المُعزلة، يائساً تحت عبء قراره. نام قليلاً، ولكن مع أول خيط للفجر، كان هناك من ينتظره.
٤. نداء الأنبا الأخير وإلحاح رومان
لم تكن ليلة ثيودور نوماً، بل كانت جولة عقاب صامت يجلد فيها نفسه بذنب بولا. كان يتقلب وهو يدرك أن الحكم سينفذ ليلاً.
ومع الصباح الباكر التالي، وقبل أن يتجه ثيودور إلى مهمته الجديدة في الأرشيف، وصل إليه رسول يحمل أمراً مختوماً. لقد كانت رسالة من الأنبا، شديدة اللهجة:

"الأخ ثيودور، عليك الحضور غداً لمقابلتنا ولاتتأخر يا أخ ثيودور!"

هذه الرسالة لم تمنحه سوى بضع ساعات أخيرة. لكن قبل أن يغرق في التفكير، شق الظل الصباحي رعباً جديداً. كان رومان. لم يكن رومان يعلم شيئاً عن الحكم الصادر ليلة أمس، وقد جاء يائساً.

رومان (بإلحاح وارتعاش): "سيدي الراهب! يجب أن نلتقي الآن! لدي معلومة أخيرة عن الرجل الميت. أَلِحُ عليك أن تقابلني. في نفس الموعد القديم، قبل شروق الشمس. هذا قد يغير كل شيء!"

لم ينتظر رومان رداً من ثيودور. لقد كان يعلم أن الوقت نفد، وأن كل دقيقة تعني كشف أمره. غادر رومان مسرعاً، ولم يسمع كلمة واحدة من ثيودور، تاركاً الراهب محاصراً بين أوامر الأنبا ونداء الصديق.
انتهى الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر: المواجهة الأخيرة والكتابة الجديدة
١. صراع العزلة: التخلي عن رومان والمواجهة المكتوبة
جلس ثيودور وحيداً في غرفته، يستمع إلى صمت الفجر. كانت الساعات التي مرت منذ حكم الإعدام على بولا هي الأصعب في حياته. كان ثيودور محاصراً بين صوتين متناقضين: أمر الأنبا أغوسطين الحاد بالاجتماع، وإلحاح رومان للقاء سري قبل الشروق.
بدأت الحكايات تدور في رأسه بضراوة: هل ذهب رومان للبئر حقاً؟ هل كانت معلوماته عن الرجل الميت كافية لتغيير أي شيء؟ هل كان بإمكان رومان أن يغير قصة بولا ويثبت أنه ليس له يد في الأمر؟ كلها مجرد حكايات تُنسج في ذهنه، لا أساس لها من اليقين.
أدرك ثيودور أن الأنبا اوغسطين ليس هو صاحب المصير، بل هو مجرد قوة تنفيذية يملي عليها النظام المكتوب أفعالها. وأن المواجهة يجب أن تتم مع هذه القوة التنفيذية لكسر دائرة الأوامر. لهذا، قرر ثيودور أن يواجه الأنبا دون المخطوطة الـ ١٧.
وبعد تحليل عميق وحاسم، قرر ثيودور أن الإجابة لا تكمن في الهروب، بل في المواجهة الرسمية. لقد حسم أمره: لن يذهب إلى موعد رومان السري. همس ثيودور لنفسه، وعيناه مثبتتان على رسالة الأنبا:

"لقد بعثُ روحي مرة بتركي بولا للمصير المكتوب. لا يمكنني أن أخون رومان أيضاً بالذهاب إليه وجرّه نحو الهلاك. سأذهب إلى الأنبا، ثم أبحث عن رومان لاحقاً." [١]

جمع ثيودور عباءته، تاركاً المخطوطة الـ ١٧ مخبأة في غرفته. كان سيتجه نحو مكتب الأنبا، مُفضلاً المواجهة القاتلة على الهروب الهش.
٢. العبور إلى المجهول: أين يكمن الهدف؟
توجه ثيودور نحو مكتب الأنبا. لم يكن هناك رسول ينتظره، بل وجد عند باب الغرفة قائد الحرس بنفسه، واقفاً في صمت مهيب.
كانت هذه هي المفاجأة الأولى: القائد، الذي أمره بالعزلة، هو الآن من سيقوده شخصياً إلى الأنبا.
بدأ ثيودور والقائد رحلة صامتة عبر ممرات الدير، صعوداً نحو مكاتب الأنبا في القمة المعزولة. كانت كل خطوة صاعدة تثقل على روح ثيودور، وكأنها تجاوز لحدود النظام.
بينما كان يسير، كان التفكير يدور في رأسه كالدوامة، محاولاً فك طلاسم هذا اللقاء: يا ترى ما هي أسباب هذا اللقاء تحديداً؟ ما هو الهدف الحقيقي للأنبا اوغسطين من استدعائه الآن؟ هل هو مجرد استكمال روتيني للتحقيق أم هل اكتشف أخيراً أن ثيودور هو الوحيد الذي يفهم سر البئر والمصير المكتوب؟ أدرك ثيودور أن المواجهة لابد منها لإنهاء هذا القلق الوجودي الذي يمزقه.
وصل ثيودور إلى الباب الخشبي الضخم الذي يؤدي إلى مكتب الأنبا. وقف القائد جانباً، أشار إلى الباب، ثم أغلقه خلف ثيودور بقوة، تاركاً إياه في مواجهة مصيره دون أي حارس أو شاهد.
٣. عرش النظام: الكشف عن الخيانة القديمة
دخل ثيودور المكتب، ليجد قائد الحرس جالساً في زاوية المكتب. لكن الأنبا اوغسطين رفع يده ببطء نحو القائد، وكانت نبرته تحمل سلطة مطلقة: "اخرج، أيها القائد. سأتناقش مع الراهب ثيودور على انفراد." غادر القائد وأغلق الباب خلفه.
بقي ثيودور والأنبا اوغسطين وحدهما، لتبدأ مواجهة الأسرار:
المحور الأول: حقيقة ماركوس القتيل
جلس الأنبا بهدوء قاتل، وبدأ حديثه بسؤال يتتبع فيه تاريخ ثيودور:

"أخبرني يا ثيودور، كيف هو حالك في الدير منذ قدومك؟ لم تكن كبقية الرهبان في عزلتك."

رد ثيودور بهدوء: "يا سيدي الأنبا، لقد أحببت العزلة، وهي عادتي منذ الصغر. كان الجو بسيطاً وساعدني على التركيز."
لم يكترث الأنبا لجوابه، بل قاطعه بحدة مفاجئة:

ماذا عن ذلك الرجل الذي أتى لزيارتك في أول يوم لك بالدير، وغادر ولم يعد؟... هذا الرجل اسمه ماركوس. وهو القتيل الذي وُجد على التل الشمالي."

ثم واصل الأنبا كاشفاً سر ماركوس ووالدة ثيودور:

"عندي لك معلومة تعرفها لأول مرة: ماركوس هو الرجل القتيل. وهو أيضاً من كانت والدتك تتواصل معه. هو من جاء إليك بوصفها ليرعاك ويسلمك شيئاً." نظر الأنبا بتمعن: "والآن أخبرني، هل تعرف أن هذا ماركوس هو القتيل؟ وكيف لم تعرف طيلة هذه المدة؟"

لقد كشف الأنبا أن كل الرقابة والعزلة كانت اختباراً لـ ثيودور.
المحور الثاني: مواجهة ثيودور واعتراف بولا
شعر ثيودور بالدائرة تضيق عليه. رفع ثيودور رأسه وبدأ يتحدث بحدة، مهاجماً منطق الأنبا:

"يا سيدي الأنبا! إذا كنتم تعرفون كل شيء عني، وعن زيارة ماركوس لي، فلماذا تعمدتم اتهامنا في الجلسة العلنية؟ ماذا عن الراهب بولا؟ هو الراهب الذي ذهب لمقابلة ماركوس ووعده بالمساعدة! ألم يكن اعترافه [بولا] مفاجأة لكم أيضاً؟"

كان السؤال تحدياً مباشراً. فرد الأنبا اوغسطين ببرود وقطع كلام ثيودور بوضوح لاذع:

"الذي حدث كان مفاجأة في توقيته وتفاصيله، يا ثيودور. اعتراف بولا بأنه ذهب لمقابلة ماركوس لم يكن مفاجئاً لي. لكن بولا لديه أسرار أخرى، لم يكشف عنها في الجلسة، ومع ذلك كان كبش فداء مناسباً لنظام الدير."

أدرك ثيودور أن الأنبا استخدم بولا عمداً ليكون ضحية المصير المكتوب.
المحور الثالث: عهد الطموح والحقيقة المنسية
نظر الأنبا اوغسطين إلى ثيودور ببرود، لكن عينيه حملتا ثقلاً قديماً. بدأ الأنبا كاشفاً حقيقة لم يعلمها ثيودور أبداً:

"كنت أنا ووالدك زملاء. لكننا اختلفنا في العقيدة. كانت رغبتي هي التسلق والقوة والسلطة داخل الدير، بينما كانت رغبة والدك أن تكون القوة بـ العلم والعقيدة فقط. لقد نصحته بأن يلتزم الصمت، لكنه لم يسمع كلامي..."

تذكر ثيودور ذكريات مبهمة عن والده. أكمل الأنبا:

كانت النهاية أن والدك قُتل على يد بعض الغوغائيين. هربت والدتك، هاربة بك، بمساعدة ماركوس، صديقنا الثالث. سلمك ماركوس إلى هذا الدير تحديداً. لقد صار فقيراً، وكنا نعلم أنه من يعلم حقيقة الطائر، ومن يعلم مع من اختبأت والدتك.**"

كانت النهاية أن والدك قُتل على يد بعض الغوغائيين. هربت والدتك، هاربة بك، بمساعدة ماركوس، صديقنا الثالث. سلمك ماركوس إلى هذا الدير تحديداً. لقد صار فقيراً، وكنا نعلم

انتقل الأنبا إلى الكشف عن سر المخطوطة:

كل ما نعرفه عن تلك النبوءة أن علامتها هي طائر شبيه بطائرك الذي كان صغيراً وكبر الآن. ولهذا، كنا نتابعك منذ طفولتك. وباعتراف ماركوس الأخير لنا، تأكدنا. كانت النتيجة... موته."

لقد كانت صدمة مروعة لثيودور؛ لقد كان الدير كله قائماً على خلاف عقيدي وطموح سلطة.
٤. القرار الأخير وسجن المعرفة
عاد الأنبا اوغسطين إلى صرامته المعتادة، مكملاً ما تبقى من اللغز، ومفصلاً قرار ثيودور وتداعياته.

يا ثيودور،" قال الأنبا بنبرة قاسية لا تقبل الجدال. "لقد ضحى بولا بنفسه، لأنه لابد للدير أن يضحي بكبش فداء لحفظ النظام. لكن ما يجب أن تعرفه هو أن الحُكم كان سيكون عليك أنت، بدلاً من بولا. نعم، أنت. كان قدرك هو الموت ليلة أمس."

شعر ثيودور ببرودة الموت تعود لتغلفه.

أعلن الأنبا حكمه النهائي، الذي يطمس الحقيقة ويرسخ النظام:

"لقد عرفت الآن كل الأسرار. عد الآن إلى غرفتك... لكن تذكر، المصير واحد، ويجب أن يستمر. أنت الآن في يدنا، ستعود إلى غرفتك للنسخ، ولكنك الآن تحت مراقبة شديدة جداً، ولن تغادرها أبداً."

خرج ثيودور من الغرفة وهو يحمل عبء الوراثة والمعرفة كاملة، وداخل عباءته كان يُخفي السر الأعظم الذي لم يكشفه بعد للأنبا: المخطوطة رقم ١٧.
هنا ينتهي الفصل الحادي عشر
والجزء الاول

الجزء الثانى :بزوغ الفجر

الفصل الأول: الشعلة الخفية
١. الهدوء المهدّد: الاستدعاء الكنسي والمهلة القاتلة
اجتاح الدير بعد مغادرة ثيودور لمكتب الأنبا هدوء زائف ومهدّد. فبعد الإعدام الليلي لبولا، تم استدعاء الأنبا اوغسطين لاجتماع كنسي ضروري وكبير، مما اضطره للغياب عن الدير قرابة أسبوع كامل، هي مدة السفر والذهاب والإياب. ترك الأنبا القائد لإحكام المراقبة على ثيودور. قبل عودته، وصلت رسالة مختومة إلى ثيودور:

لقد عدت، والمهلة زادت أسبوعاً كاملاً. استغل هذا الوقت جيداً، لكن تذكر... بعدها سيكون النهاية والمصير الأخير لنا جميعاً."

كانت هذه الرسالة بمثابة تأكيد لحكم الإعدام المؤجل؛ أسبوع إضافي قبل أن يتم استدعاؤه مرة أخرى لتنفيذ ما تقرر.
في هذه الأثناء، جلس ثيودور في عزلته المفروضة، يحيط به هدوء القبو الموكل إليه حديثاً (الأرشيف). قضى يومين كاملين في تفكير عميق وإعادة ترتيب كل الأمور والذكريات المنسية عمداً. بدأ يفكر بحدة: لماذا طلب منه رومان البقاء وقال: "سيتم تبرئتك!" بينما أكد الأنبا: "كان الحكم اليوم عليك لولا اعتراف بولا!" هل رومان تم اكتشافه وخداعه لـ إبقاء ثيودور في الدير بدلاً من تهريبه؟ أم أن الشاب كان معهم منذ البداية، وهم من أرسلوه لإقناعه بالبقاء؟
هذه الشكوك أطلقت صراعاً داخلياً مريراً استمر ليومين كاملين. والأخطر من ذلك، كانت الرغبة في تعلم استخدام المخطوطة كاملة في صالحه، لكنها الآن أصبحت في الأرشيف المتهالك في القبو، وهو المكان الذي سيعمل فيه تحت أعين القائد مباشرة، ولا يخرج إلا بإذن منه! كان عليه الآن أن يجد طريقة لاستعادة المخطوطة قبل نهاية الأسبوع.
٢. خداع القائد: ظهور رومان البارع
في اليوم الثالث لعزلته، وبينما كان ثيودور يبدأ عمله في أرشيف القبو المظلم، فوجئ بظهور رومان. لم يكن مجرد ظهور، بل كانت محاولة مستميتة للقاء، مع الأخذ في الاعتبار أن ثيودور لا يخرج إلا بإذن وأن القائد يراقبه.
كان رومان قد أظهر ذكاءً فائقاً كبيراً في خداع القائد والرهبان المراقبين. ففي خطوة متقنة ومدروسة، استغل رومان الهيكل التنظيمي الحازم للدير [١, ٢] وحاجة القيادة الإدارية لاستخدام الموارد بكفاءة [٣] لإنهاء الأرشيف.
تظاهر رومان بأنه تعرض لوعكة صحية حادة مفاجئة، مما أدى إلى إصابته بالإغماء في الساحة الرئيسية، تحديداً عند البوابة المؤدية لجناح ثيودور. لم يكن هذا إغماءً عادياً، بل تظاهر بأنه نوبة صرع عنيفة ومخيفة، مصحوبة بزبد يخرج من فمه، وصراخ متقطع يكسر هدوء الدير. أحدثت هذه الفوضى المتقنة ارتباكاً جماعياً. [٤, ٢]
قائد الحرس، الذي يُعتبر مسؤولاً عن تنظيم وإدارة الموارد والمهام [٥, ٦]، وعن ضمان سير العمل بفاعلية [٣, ٧]، اضطر للابتعاد عن موقعه والتوجه بسرعة لمساعدة رومان ونقله إلى العيادة.
في تلك اللحظة الحاسمة من الفوضى المتقنة، والتي أتاحت له فرصة لا تتجاوز الدقيقتين، تحرك رومان بسرعة البرق. فجأة، نهض رومان بـ كامل لياقته، متظاهراً أنه أفاق من غيبوبته، ولكنه بدلاً من أن يتوجه إلى العيادة، اندفع بخفة نحو القبو والارشيف. لم يره أحد وهو يغادر العيادة؛ فقد أغلق الباب خلفه وتسلل من النافذة، ومن هناك توجه مباشرة إلى أرشيف القبو حيث يعمل ثيودور، مستخدماً معرفته بأسرار الدير المظلمة. [٤]
وصل رومان إلى غرفة ثيودور، ليطرق الباب بثقة يائسة. فتح ثيودور الباب ليجد رومان يقف أمامه، بملامح تعكس مزيجاً من الإرهاق والانتصار الخاطف.
٣. أسئلة المصير: حوار تحت الرقابة
بمجرد أن أغلق ثيودور الباب خلف رومان بإحكام، بادر ثيودور بسيل من الأسئلة التي كانت تنهش عقله، متجاهلاً تحذير رومان السابق.
رفع ثيودور صوته الهامس: "لماذا طلبت مني البقاء يا رومان؟ كنتَ تُلح عليّ بالهرب في لقائنا الأول! ومن أخبرك أن الأنبا قد أعلن براءتي، حتى تقول لي: «سيتم تبرئتك»؟"
تنهد رومان بمرارة، وشرح لثيودور ما رآه وما سمعه، كاشفاً عن خطة خفية للقائد لم يكن ثيودور يعلم عنها شيئاً:

يا سيدي الراهب ثيودور، لقد دخلتُ غرف الرهبان وتحسستُ ما يجري. لم يكن نية الأنبا هي قتلك منذ البداية، بل كانت نيته الإبقاء عليك إذا لم تهرب." واصل رومان، وهو يرتب أدواته البالية كستار: "الدير بأكمله كان وما زال محاصراً، ولو أنك هربتَ لكانوا سيقدمونك للعقوبة على الفور. لقد دخل القائد على الرهبان في غرفهم - وكل هذا حدث قبل قدوم الأنبا للمحاكمة وقبل مقابلتي السرية الأولى معك - وأعلن اعتقالهم فقط وعليهم الامتثال. لكن القائد كان يراقب غرفتك بتركيز شديد. لقد كان الأنبا يختبرك: هل أنت جبان أم واثق من نفسك؟ وكنتُ أعلم أن بقاءك هو خيارك الوحيد للبقاء على قيد الحياة. لقد كنتُ أحاول أن أُقنعك بأن هذا النظام القديم سيحميك، لكنني الآن أدركتُ أنني كنتُ مخطئاً.**"

يا سيدي الراهب ثيودور... لقد حزنتُ منك لعدم مقابلتي عندما طلبتُ منك ذلك. كنتُ أتمنى أن أنقذك، لكنك اخترتَ الدخول في العاصفة وحدك."

شعر ثيودور بصدق رومان، وبأن الفتى مخلص ولكنه غير مطلع على الأسرار الكبرى. هذا اللقاء أنهى كل شكوك ثيودور؛ لقد قرر أخيراً: لا مزيد من التردد.

"استمع إليّ جيداً يا رومان،" قال ثيودور بصوت خفيض لكنه يحمل قوة هائلة. "هذا الدير، وهذا النظام، وهذه الحكايات... يجب أن تنتهي. لكن الأمر يتوقف على شيء واحد: الطائر الذي كان معي."

نظر ثيودور مباشرة في عيني رومان:

"يا رومان، أريد أن تغادر الآن وتفعل شيئاً واحداً: ابحث لي عن طائر. ليس أي طائر، بل طائر يشبه ذلك الذي رأيته معي في قفصي. عليك أن تجده لي بأسرع ما يمكن. إن العثور عليه هو مفتاح تغيير الواقع الذي نحن فيه."

شعر رومان بالصدمة من حجم الطلب، لكنه رأى في عيني ثيودور إرادة قوية لم يرها من قبل.
٥. نجاة رومان والنجاح في التسلل للخارج
بعد أن تلقى رومان أمراً جديداً ومحيّراً بالبحث عن الطائر، كان عليه أن يخرج من الغرفة بأسرع ما يمكن وقبل أن يكتشف القائد غيابه.
العودة إلى العيادة:
خرج رومان من غرفة ثيودور بنفس الخفة التي دخل بها، متسللاً عبر الممر الخلفي. عاد مرة أخرى إلى العيادة، ليتظاهر بالاستفاقة الكاملة من نوبة الصرع المزعومة. كان عليه أن يمر بمحاولات خروج خطيرة تجعله على حافة الاكتشاف.
أسئلة الرهبان والنجاة:
وجد رومان بعض الرهبان ما زالوا يتبادلون النظرات حوله، وفي عيونهم شكوك لا تخطئ. اقترب منه أحدهم بنبرة متفحصة:

يا رومان، لقد سألت عنك! لم أرك منذ أن استفقْتَ. هل ذهبتَ للقاء الراهب الصامت ثيودور . الأنبا لا يريد لأحد أن يقترب منه الآن."

شعر رومان بالخطر يحيط به، وأن محاولاته للتخفي تكاد تفشل. أجاب بهدوء مصطنع، مظهراً ارتباكاً يبرر غيابه: "آه... لقد كان رأسي يؤلمني بشدة بعد الإغماء... ذهبتُ لأتنفس هواء نقياً بعيداً عن الجميع. أنا أطيع الأوامر، سيدي الراهب. أنا لم أذهب إليه."
خروج بهدوء وترقب:
نجا رومان في اللحظة الأخيرة من هذا السؤال الحرج. خرج بهدوء شديد وترقب، وكل خطوة يخطوها كانت مصحوبة بـ خطر اكتشاف محاولاته المتكررة للتسلل. كان يرى القائد يراقب المكان عن كثب، وقد كاد القائد أن يراه وهو يخرج من الظل. كانت كل مرة ينجو فيها رومان تأكيداً على ذكائه وقدرته على المناورة في أصعب الظروف.
لقد خرج رومان من الدير سالماً، حاملاً على عاتقه مهمة البحث عن شفرة المخطوطة: الطائر.
٦. رحلة التيه: البحث عن الطائر المفقود
غادر رومان الغرفة بنفس الخفة التي دخل بها، تاركاً ثيودور ليتأمل صمته. بدأ رومان مهمته الخطيرة، وخرج من الدير متسللاً.
كانت رحلة رومان داخل القرية رحلة تيه وبحث في الظلام. كان يتسلل إلى بيوت العمال وأماكن تجمعهم، يستمع إلى القصص المتناثرة، باحثاً عن أي أثر للطائر. كانت القرية تغرق في الرعب؛ فالناس كانوا يتحدثون عن بولا (الذي حكم عليه بالإعدام)، وعن ماركوس (القتيل).
كانت روايات الناس وتصديق أغلبهم أن ماركوس كان خائناً يحمل أسراراً تهدد الدير، وأن بولا كان يريد إنقاذه بالطريقة الخاطئة فخان الأمانة، فكانت نهايته قاسِية جداً. كان الرعب يسيطر على القرية من أي محاولات لفهم الحقيقة أو الاقتراب من أسرار الدير.
استمر رومان في البحث لأكثر من يومين، متنكراً في ساعات الفجر الأولى أو أوقات العشاء. كانت هذه الأوقات هي الفرصة الوحيدة التي يستطيع فيها أن يهرب لاختلاس محاولة للبحث عن الطائر.
توقف رومان أخيراً عند أطراف القرية، عند بيت عائلة ماركوس وأهله، والمكان الملعون: البئر، حيث أدرك أن الطائر، إذا عاد، فلن يعود إلا عند نقطه اللقاء الأول.

نهايه الفصل الاول

الفصل الثاني: القبو والمتاهة
١. البحث المضاعف: المخطوطة الـ ١٧ وموقع الجريمة
كانت هذه هي اللحظات الأكثر كثافة في الأسبوع الفاصل. بينما كان رومان يتوه في الشوارع، يحاول العثور على الطائر والابتعاد عن أعين الحرس، كان هناك توازي مرعب في المصير يحدث في أعماق الدير.
ثيودور في القبو:
كان ثيودور يعمل بضغط هائل لتنظيم الأوراق البالية في القبو. كان مكانه في الأرشيف الآن هو مكان العامل الذي سبقه في مهمة النسخ، وقد أصبح ثيودور يمثل الآن هذا الراهب الذي كان يعمل ببطء قبل أن يُنقل مكانه. جلس ثيودور في نهاية اليوم، بعد أن تأكد من أن الحراسة خفت، وبأن القائد لن يمر قبل حلول الليل.
لحظة الاكتشاف المزدوج:

استمر هذا البحث المضني لأكثر من يومين كاملين. وفي اللحظة ذاتها التي وصل فيها رومان إلى أطراف القرية، عند بيت عائلة ماركوس وأهله، ووقف بين البيت والبئر الملعونة التي يقول عنها أهل القرية كانت هذه هي اللحظة الحاسمة التي لم تعد فيها المخطوطة الـ ١٧ في جيب عباءة ثيودور فحسب.
ففي تلك اللحظة، كان ثيودور قد وضع المخطوطة الـ ١٧ بين يديه على طاولة مهملة في القبو، وبدأ في تقليبها على ضوء شمعة خافتة. كان النص يتحدث عن خفايا الرموز التي تشير إلى أسرار الدير الخفية، وكأن المخطوطة تستجيب لوصول رومان إلى نقطة الحقيقة في الخارج. كان ثيودور يكتب كلمات أخرى باحثاً عن الحقيقة، ويدرك أن هذه الكلمات لن تكتمل ولن تتحرك إلا بوجود الطائر الحارس.
كانت هذه هي النقطة التي التقت فيها المصائر: رومان عند موقع الجريمة، وثيودور عند النص الذي يشرح الجريمة.

٢. العهد المكسور: صوت زوجة ماركوس
في تلك اللحظة المصيرية التي كان ثيودور يقلب فيها المخطوطة في القبو، كان رومان يواجه الحقيقة المرة في القرية.
رومان عند البيت الملعون:
تسلل رومان إلى منزل ماركوس، وهو المنزل الذي تحول إلى رمز للموت واليأس. طرق الباب بهدوء، وقدم نفسه على أنه وافد من الدير، أرسله الرهبان لـ معرفة طلبات الأسرة ومواساتهم. لقد كان هدفه هو الحصول على معلومات، لكنه كان عليه أن يتنكر في ثوب الطاعة الدينية.
لقاء الزوجة الغاضبة:
استقبلت زوجة ماركوس رومان استقبالاً جافاً وبارداً، عيناها متورمتان من الألم والشك. كانت متألمة من الدير نفسه، الذي ظنت أنه كان سند زوجها.
بدأ رومان يسأل عن ظروف ماركوس، لكن الزوجة لم تستطع كبح غضبها، وانهارت وهي تروي قصتها، لكنها لم تتهمه بالانتحار:

"زوجي لم يكن خائناً كما يقول الرهبان! زوجي كان وفياً للدير ولنا، ولكنهم باعوه في النهاية!" صرخت الزوجة بألم. "لقد كانوا يطلبون منه أشياء، وكانوا يضغطون عليه بوعود كاذبة. ماركوس لم يقتل نفسه، يا بنى .لقد مات دفاعاً عن حق، بعد أن تعرض لـ ضغط رهيب وشديد لم يستطع تحمله."

أكدت الزوجة بكلماتها المريرة: ماركوس كان ضحية ولم يكن مذنباً أبداً. لقد أدرك رومان أن الرواية الرسمية للأنبا والقائد (الانتحار بسبب اليأس) كانت كاذبة تماماً. فماركوس، الذي كان ضحية للرعب والضغط الرهيب، لم يمت عبثاً.

البحث عن الراهب الصامت

بعد أن أسقطت زوجة ماركوس الرواية الرسمية للأنبا والقائد، واجهها رومان بسؤال أكثر حذراً وعمقاً، محاولاً اختراق جدار صمتها المحصن:

رومان (بصوت يمتلئ بالحرص والتعاطف): "سيدتي، لقد تعاطفنا كثيراً مع السيد ماركوس، ونحن نريد أن نأتي بحقه. ما هو السر الذي أخفاه عنكِ؟ وما هو السر الذي كان بينه وبين الأنبا؟ وماذا فعل ماركوس تحديداً؟ بعض الرهبان يريد أن يساعدك، ولكن هذا لا يصح أن أخبرك به علناً. ولهذا، أرسلوني فى هذا الوقت ... هناك من أوصانا بمعرفة السر منكِ إن أردتِ ذلك، لمساعدتكِ."

ظلت الزوجة صامتة قليلاً، عيناها تخترقان وجه الفتى الصغير. لقد كانت ترفض إخبار الفتى الصغير بالسر، لكنها كانت بحاجة ماسة للمواجهة.

زوجة ماركوس (بهمس قارس): "لن أتحدث إلى فتى صغير. هذا السر ليس لأمثالك. لكنني بحاجة إلى مواجهة ضرورية. أرغب في مقابلة الراهب صاحب الطائر. الراهب الصامت، كما يسميه البعض.. أريد أن أتحدث إليه وحده. أخبره بذلك إن كنت تعرفه."

تجمد رومان. لقد أدرك أن ماركوس ربط زوجته برمز الطائر، الرمز الذي كشف كل شيء لثيودور. لقد كانت المرأة ترفض إخباره بالسر، لكنها كشفت عن المفتاح الحقيقي الذي سيكمل لغز المخطوطة.

رومان (بصوت يكاد يكون حشرجة): "الراهب... صاحب الطائر؟ تقصدين... الراهب الصامت، الذي لم يتم اعتقاله مع الأربعة الآخرين في قاعة المجمع؟"

اهتزت الزوجة برأسها إيجاباً، وأصبح صوتها أكثر حزماً:

"هو. الراهب ثيودور. أريد أن أراه الآن، عند البئر."

لقد أدرك رومان أن السيدة ترغب في مقابلة ثيودور وجهاً لوجه، وأن الخروج الآن أصبح حتمياً وضرورياً لفك طلاسم المخطوطة.

٣. يقظة الطائر: نداء الواجب عبر البئر
خرج رومان من منزل ماركوس، يترقب ويحسب الوقت جيداً ليعود مسرعاً إلى الدير. كانت معلوماته الجديدة تشتعل في عقله: ثيودور يجب أن يواجه زوجة ماركوس عند البئر!
وبينما كان رومان يتجه مسرعاً خارج القرية، سمع صوتاً من السماء. رفع عينيه، وإذا بـ الطائر الحارس يحلق في السماء! لم يكن طائراً عادياً، بل كان يطير في دوائر واسعة ومحمومة فوق المنطقة. وفي مشهد مهيب، هبط الطائر على حافة البئر الملعونة، ووقف ساكناً، كأنه إشارة إلهية لـ نهاية الانتظار.
شعر رومان أن الوقت يهرب منه. اتجه بسرعة نحو الدير، ورغم يأس اللحظة، جلس لأكثر من ساعة يبحث عن وسيلة آمنة للوصول لـ ثيودور.

خطة إيصال الطعام:
في تلك اللحظة، ناداه القائد المباشر الجديد (الحارس السابق)، وأمره بأن يجهز الطعام لبعض الرهبان الذين بقوا في عزلاتهم. انتهز رومان الفرصة. ورغم أن القائد لم يأمره بإعطاء الطعام لثيودور تحديداً (بسبب عزلة ثيودور)، إلا أن رومان خاطر بكل شيء.
تظاهر رومان بأنه أضاف بكل مخاطرة طعاماً إضافياً، وادعى أن ثيودور ضمن الرهبان المعزولين الذين يجب أن يحصلوا على حصتهم. دخل رومان إلى غرفة ثيودور في القبو، في ثوانٍ معدودة، وأخبره بالهمس الحاسم:

"يا سيدي الراهب! الطائر عاد! لقد وقف على البئر! وزوجة ماركوس تنتظرك هناك! سآتي إليك من السرداب عند منتصف الليل، كما أتيت لحظة تظاهري بالمرض. ضرورة قصوى!.

نداء الواجب الأخير:
لم يقتصر الأمر على طلب زوجة ماركوس، بل أضاف رومان كل ما رآه في القرية، فجاءت كلماته محملة برعب الأهالي

"يا سيدي الراهب! لقد رأيتُ كل شيء في الشوارع؛ رعب الأهالي وأحاديثهم السريعة وهدوء الليل القاتل** خوفاً من القبضة الأمنية الشديدة! لقد ذهبتُ إلى البيت، وزوجة ماركوس... حكت لي كل شيء، عن موت زوجها وعن الضغوط! سيدي الراهب، لابد من الخروج الآن!"

أخبره رومان بالقضية كاملة حتى وصوله لبيت ماركوس والبئر. غادر رومان مسرعاً عبر السرداب، تاركاً ثيودور محاصراً بين صوت القائد القادم وصوت رومان الذي يطالبه بالهرب

الفصل الثالث: الهروب المزدوجة
١. خطط الهروب الفاشلة: سباق مع النهاية
مع حلول الليل وبدء العد التنازلي لعودة الأنبا اوغسطين ، أصبح الرهان على حياة ثيودور هو الهروب. استغل ثيودور ورومان الأيام القليلة المتبقية لـ وضع خطط هروب كانت جميعها محفوفة بالمخاطر.
اليوم الأول: فشل الغطاء البشري
في اليوم الأول، حاول ثيودور استغلال أوامر الأنبا الجديدة. اقترح على الحارس المباشر (القائد السابق) أن عمله في الأرشيف يتطلب ترتيب بعض المخطوطات في القاعة الرئيسية. كانت هذه محاولة للحصول على إذن بالخروج من القبو، لكن القائد كان بارعاً في تطبيق وحدة القيادة والتسلسل.رفض القائد بشدة، مؤكداً أن مهمة ثيودور هي العزلة، ولا تغادر إلا بإذنه.
اليوم الثاني: نداء السرداب
في اليوم الثاني، كان التركيز على السرداب السري الذي اكتشفه ثيودور. حاول رومان التسلل عبر مدخل السرداب من الخارج ليلاً، مستخدماً معرفته بأسرار الدير، لكنه عاد مرعوباً. اكتشف رومان أن القائد ضاعف الحراسة عند الممر الشمالي، مما جعل الخروج عبر السرداب، الذي يقع بالقرب من الأرشيف، شبه مستحيل دون مواجهة.

النجاح في اليوم الأخير:
استمرت محاولات الهروب الفاشلة ليومين كاملين. لكن ثيودور ورومان أدركا أن فرصتهما الأخيرة تقع في اليوم الأخير؛ يوم وصول الأنبا في المساء.
في ذلك اليوم، وقبل وصول الأنبا بساعات، قام رومان بافتعال حريق شديد في غرفة التنظيف المهملة، لدرجة أنه تم استدعاء القائد بنفسه لإخماد الحريق. أدى هذا الحريق إلى إحداث فوضى عارمة، وبدأ الرهبان بالتحرك في دهشة وذعر لتفقد مكان النيران.
في تلك اللحظة الحاسمة، قرر ثيودور استغلال الفرصة. بدأ يتحرك من غرفة القبو باتجاه الغرفة القديمة (التي كانت غرفته السابقة في سجن النسخ)، وقام بـ تغطية رأسه بعباءته كـ الرهبان الذين مروا مسرعين. ركز الجميع باتجاه العيادة ومكان التنظيف لرؤية النيران التي اشتعلت.
الخروج من البوابة المهجورة:
اندفع ثيودور نحو البوابة المهجورة. كان هناك حراس على الباب المهجورة، ولكن عند سماع جرس الكنيسة (وهو جرس الإنذار للحريق)، تحرك الحراس مسرعين باتجاه مصدر الصوت. اختبأ ثيودور خلف الباب، ثم تسلل بهدوء تام من خلفهم، باتجاه البوابة المفتوحة.
شعر بعض الحراس بصوت خطواته خلفهم، لكن ثيودور كان قد هرب واختفى وراء الشجرة القريبة، تاركاً الدير خلفه في حالة فوضى لا سابق لها.

٢. رحلة التيه والشك: على خطى الرموز
انطلق ثيودور في رحلة هروب سريعة من البوابة المهجورة. كانت الرحلة لمنزل ماركوس مزيجاً من السرعة والترقب.
النظر إلى الأرض:
في اللحظة التي خطا فيها خارج أسوار الدير، نظر إلى الأرض فلم يجد رسوم النقوش التي كان قد رآها عندما نزل من البيت في المرة الأولى وتبع المخطوطة. لقد اختفت النقوش تماماً، وكأنها كانت موجودة فقط لتوجيهه إلى البئر في المرة الأولى. أدرك ثيودور أن رحلته الآن لا يقودها القدر المكتوب على الأرض، بل تقودها إرادته.
أصوات القلق:
بدأت أصوات أهل القرية تتسلل إليه؛ كانت هناك همهمات عن حريق هائل في الدير، وعن إصابة عامل التنظيف الخطيرة. سمع ثيودور الهمسات وتملكه قلق عارم على رومان.

تماسك يا رومان، لا تكن أنت من احترق!" همس ثيودور لنفسه، مع تزايد الشكوك حول ما فعله رومان بالضبط لتمكينه من الهروب.

الوصول إلى الحقيقة:
تحرك ثيودور، متخفياً في الأماكن المظلمة، حتى وصل إلى منزل ماركوس، حاملاً عبء الذنب والشك في آن واحد.

٣. المواجهة عند البئر: نداء الطائر والماضي

وصل ثيودور إلى منزل ماركوس. لم تكن زوجة ماركوس موجودة في المنزل، فقد كانت هي الأخرى تتابع الحرائق التي حدثت في الدير.
الخوف من البئر:
لم ينتظر ثيودور، بل اتجه مباشرة إلى البئر. كان يشعر بخوف يتسلل إلى عظامه، لكن هذا الخوف لم يكن جديداً. لقد كان خائفاً من البئر لأنه قد رآها من قبل في رؤى غريبة، وقرأ عنها في المخطوطة أنها مرآة تكشف المصير المرير. أدرك أن الاقتراب منها يعني مواجهة ماضيه.
الطائر والدليل:
لم يجد ثيودور زوجة ماركوس عند البئر. بدلاً من ذلك، ظهر الطائر الحارس فجأة في السماء! كان يحلق فوق البئر، صارخاً نداءً قوياً ومُلحّاً.
أخرج ثيودور المخطوطة الـ ١٧ من عباءته، وأمسك بها بقوة. وفي تلك اللحظة، هبط الطائر ليقف على حافة البئر، وكأنه يثبّت موقعه. أدرك ثيودور أنه لابد من مواجهة البئر أولاً، لأن البئر والمخطوطة والطائر، كلها تجمعت لتعلن أن لحظة الحقيقة قد حانت.
٤. مرآة المصير: سقوط ثيودور وبولا
بدأ ثيودور يتحرك ببطء نحو حافة البئر، ويده مشدودة على المخطوطة الـ ١٧. شعر بثقل الرموز يزداد مع اقترابه من الماء الساكن. انحنى ثيودور على الفوهة، لم يرَ وجهه ينعكس في الماء، بل رأى ناراً حمراء ضخمة تشتعل في الأعماق—صورة النار في الدير التي افتعلها رومان.

رؤية القائد والغليان:
ثم تحولت الصورة، فرأى قائد الحرس الغاضب ينظر إلى النيران، وهو يقول بغضب مكتوم: "سواء نجا رومان من الاحتراق أو لم ينج، فلن ينجو من عقابي." أدرك ثيودور أن رومان في خطر حقيقي الآن.
بدأ الدير يظهر في انعكاس البئر وكأنه يغلي من الداخل، ليس بالحريق، بل بالصراع. ارتفعت رغبة جامحة في قلب ثيودور لترك كل شيء والعودة لإنقاذ رومان، خوفاً من أن ينتهي الأمر بالشاب المخلص.
الضحية الحقيقية:
في تلك اللحظات الفاصلة، تحرك الطائر وهبط على كتف ثيودور. اهتزت صورة البئر، ليظهر في الماء وجه بولا. رأى ثيودور مظهر إعدام بولا المروع ليلاً، ثم تبدل المشهد، ليجد بولا يراقب ثيودور دائماً، ليس كراهب عادي، بل كشخص يرغب في التخلص منه، وكأنه كان يراقب ثيودور منذ اليوم الأول. لقد كان ينفذ اوامر الانبا وعين القائد على ثيودور وماركوس ولكنه كان يساعد ماركوس فى نفس الان
ثم انقسم المشهد إلى سؤال مرعب: هل بولا كان يستحق الموت؟ كان يساعد ماركوس في نفس الوقت الذي كان يراقبه فيه. هل هو سيئ أم لا؟
تلاشت الصورة ليعود وجه بولا، الضحية، يحدق في ثيودور.
وفي هذه اللحظة، وصلت السيدة زوجة ماركوس إلى البئر.

٥. الكشف: زوجة ماركوس تُعلن الثمن
في هذه اللحظة، وصلت زوجة ماركوس إلى البئر. رأت ثيودور واقفاً على حافة البئر، والطائر على كتفه، والمخطوطة في يده. أدركت على الفور أن هذا هو الراهب الصامت.

زوجة ماركوس (بصوت حزين وغاضب): "لقد عرفتك، يا صاحب الطائر! ماركوس لم ينساك لحظه قط"

"رومان تعرض لإصابة بالغة في الحريق! لقد فعلها لينقذك، لكنه لم ينجُ من شره! هذا هو الثمن الأول!"

الخيانة القديمة: "بولا لم يمت عبثاً!" قالت الزوجة. "بولا كان يراقبك ويتابع ماركوس وكان يرغب في التخلص منك! لكنه كان يساعد ماركوس في نفس الوقت! ماركوس قُتل لأنه رفض أن يسلم السر للأنبا!"

وصية ماركوس: "ساموت من أجل الوعد الذي قطعته لأبيه وأمه (والدي ثيودور). أخبريه إن مُتُّ، لابد أن يهرب! فالأنبا أغسطين إن لم يصل لرغبته الجامحة، سوف يقضي على الجميع!"

أدرك ثيودور أن كل شيء كان خياراً مصيرياً: بولا كان خائناً وحليفاً في آن واحد خائن يشى للأنبا بكل تحركات ماركوس لكنه ساعده كثير فكان معلمه سابقا وهو يحبه . وموت ماركوس لم يكن انتحاراً، بل تضحية لوعد قديم.

٦. اللغز المكتمل: الخيانة الكبرى
أكملت زوجة ماركوس سرد الحقيقة التي كانت مطوية:

مقتل أبيك لم يكن على يد غوغائيين يقتلون بدون قصد، بل كان عمداً! وكادوا أن يقتلوا ماركوس وأمكِ بعد أبيك. لهذا، أتى ماركوس بأهله إلى هنا، إلى هذه القرية، قبل أن ينقذك."

كشفت عن ماضي ثيودور المضلل: "تربيت أنت يا ثيودور فى دير اغناطيوس الكبير وتركك ماركوس هنا بوصية من والدك، الذي كان يرى في هذا المكان سر القوة لتغيير الظلم."

صراع ماركوس: "لكن الأنبا اوغسطين علم بعد بحث طويل أن ثيودور هو ابن إيليا (والده). وهنا بدء صراع مع ماركوس طيلة فترة وجودك هنا، منذ قرابة شهر. أظهر أوغسطين وجهه القبيح في أذى واضح لماركوس وأهله (لجعل ماركوس ييأس)، حتى قضى عليه ودفعه للموت."

أدرك ثيودور أن كل حقيقة عاشها كانت كذبة مريحة، وأن والده إيليا، وامه لم يتركوا بأيديهم وأن مصيره المكتوب هو أن يكمل حرب والده ضد الأنبا.

الفصل الرابع: الخيار الأخير والعقد السري
١. الأجواء المشتعلة وحصاد الخيانة
تزامنت اللحظة التي انتهت فيها زوجة ماركوس من سرد قصة الخيانة الكبرى مع ذروة الفوضى في الدير. بدأت الأجواء المشتعلة تنقلب؛ فقد انشغل الجميع بـ محاولات إخماد النار داخل الدير.
في خضم الفوضى، تم العثور على رومان. كانت الإصابة البالغة التي أصابته من جراء الحريق المفتعل دليل إدانة ضخم. تم القبض عليه فوراً، ويُورّه الأغلال في قدمه، ليصبح ثاني ضحية لقرار ثيودور بالهروب.
وصلت الأخبار إلى القائد: لم ينجُ رومان. وعند تفقده لغرفة الأرشيف، كان الرعب؛ فقد اكتشف الدير الاختفاء المفاجئ لثيودور.
٢. السرداب الملعون والوصية الأخيرة
بعد أن استوعب ثيودور الحقيقة الكاملة، بدأت زوجة ماركوس في كشف آخر الأسرار العائلية والمكانية:

"يا ثيودور، اسمع جيداً. زوجي ماركوس كان قد أعد طريقاً للهروب لي ولإبنى، ولابد أن تأخذه أنت الآن."

كشفت له عن السرداب السري القريب من البئر، لكنها أوضحت: "هذا هو المدخل الآخر للبيت الذي كان يقوم فيه ماركوس بـ العبادة بعيداً عن أعين الدير. هذا المكان لا يعلمه إلا ماركوس وزوجته، وهو الطريق الوحيد الذي لن يشك فيه القائد."
أكدت المرأة: "أنا سأغادر البلاد، وكل القرية تعلم أنني سأغادر أنا وابني خوفاً من بطش الأنبا!" كانت هذه مغادرة منظمة ستصرف الأنظار عن ثيودور.

٣. المصير المشترك: إنقاذ رومان وتحدي الأنبا
استمع ثيودور لكل كلمة، لكن كل ما يدور في ذهنه الآن هو رومان.

ثيودور: "أنا لن أهرب. يجب أن أعود لإنقاذ رومان!"

زوجة ماركوس (بحدة): "لا! هذا ما يريده الأنبا! أنت الآن إيليا، لا ثيودور!"

لكن ثيودور حسم أمره. أدرك أن الذهاب للبير ليس هروباً، بل تحدي للمصير المكتوب. كانت مهمته الآن هي التعرف على مصير رومان فقط؛ هل هو حي أم ميت، وهل يمكن أن يكون دليلاً على خيانة الأنبا.

دخل ثيودور السرداب بخطوات مترددة، والشمعة المرتجفة في يده ترسم ظلالًا متكسّرة على الجدران الحجرية.
كان المكان بسيطًا لكنه مهيب، رائحة بخور قديم ما زالت عالقة في أركانه، وكأن أنفاس ماركوس ما زالت تصلي هنا. على الجدران نقوش غير مكتملة، كلمات ممسوحة وأخرى باهتة، هي بقايا أسرار دفنها ماركوس بعيدًا عن عيون الدير.

خلفه، كانت زوجة ماركوس قد غادرت على عجل، بيدها ابنها الصغير ، ووجهها مشدود بالخوف، لكنها تمضي في طريقها إلى الهروب.
أما ثيودور فبقي، عينه معلّقة بالظلام أمامه، يختار العزلة في قلب السرداب. لم يكن هروبًا، بل انتظارًا واعيًا.

جلس في الركن الأقرب للجدار الشرقي، حيث كان ماركوس يركع طويلًا. لمس الأرض بيده، فوجد أثرًا محفورًا صغيرًا، كأنه علامة خفية. تساءل: كم سرًّا خبأ ماركوس هنا؟ وكم مرة احتمى بهذا المكان من بطش الأنبا؟
ليجد ماركوس يكتب فى احد كتاباته " البئر والطائر وان عادت المخطوطه ال محرمه مايحلم به الانبا ومايملكه ابن ايليا . هو الطائر والبئر هنا والمخطوطه فى انتظار عودتها . هكذا كان دائما يقول ايليا ان اجتمع ".المخطوطه.الطائر" تحددت المصائر ورؤيت ان فقد احدها عطلت قرائتها .اما البئر فان الورقه الاخرى تجعلها مقفوله"
تجمد ثيودور وحدث نفسه الان انه فهم وعرف سر اللعنه التى يريدها اوغسطين لكنه توقف قليلا لم يفهم القطعه الاخيره من الكتابه .

صوت الخارج كان يعلو: ضجيج الجنود، صرخات الرهبان، الجرس النحاسي يدوّي.
لكن في عمق السرداب، كان كل شيء ساكنًا.
أغمض ثيودور عينيه، يردّد في داخله: "لن أهرب... لن أترك رومان. سأنتظر حتى يهدأ الدم، ثم أخرج لأعرف مصيره."

الشعلة الوحيدة ظلت تترنح، والهواء الثقيل يذكّره أنه لم يعد مجرد راهب صامت... بل أصبح وريث سرٍّ كبير، وصوتًا يجب أن يخرج من بين جدران هذا القبو، مهما طال الانتظار

تحت وهج النيران المشتعلة، كان صراخ رومان يمزق جدران الدير.
الحريق الذي افتعله بيديه ليفتح الطريق لثيودور انقلب عليه؛ النار التهمت ساعده وساقه، وتركته جراحه ينزف على الأرض كجسد يتلوى بين الحياة والموت. لم يُمنح حتى فرصة للرحمة؛ القيود الحديدية أُحكمت على رجليه المصابتين، فغرز الحديد في اللحم المحترق، وأطلق من حلقه صرخة هزت جدران الأقبية.

اقتيد إلى القاعة كغنيمة، والقائد يعلن أمام الجنود بوجه متحجر:

"هو السبب. هو من هرّب الراهب الصامت. لن ينجو بعد اليوم."

انتشرت الفرق العسكرية في أرجاء القرية.
أبواب البيوت فُتحت عنوة، النساء متجمدات في أماكنهن، الأطفال يرتجفون من صليل السيوف، والرجال عاجزون عن النطق. كل سؤال عن ثيودور كان يقابل بصمت ميت، وجوه خاوية لا تعرف شيئًا، أو ربما لم تعد تجرؤ أن تعرف. كان الرعب أعمق من الكلام، والقرية بأكملها كأنها جُرّدت من ذاكرتها.

وعند بيت ماركوس، وقف القائد طويلًا، مشعله يضيء سواد الليل.
أبواب مغلقة، نوافذ صامتة، لا زوجة ولا أثر. كانوا قد غادروا بالفعل.
رفع صوته عاليًا كالسيف القاطع:

"إن لم يكن هذا البيت مأوى للخونة، فليكن عبرة لكل من يتجرأ على إخفاء الراهب. أشعلوا النار!"

اندفعت المشاعل إلى الجدران الخشبية، فاشتعل البيت بسرعة، وارتفع عمود دخان أسود اخترق السماء. القرية تجمعت من بعيد، تراقب في صمت خانق. لم يبكِ أحد، ولم يجرؤ أحد على الكلام؛ النار وحدها كانت تصرخ.

وفي أعماق السرداب، جلس ثيودور ساكنًا، يسمع الانفجار البعيد ويشم رائحة الحريق تتسرب من شقوق الأرض.
أغمض عينيه لحظة، ثم فتحهما بحدة. أمسك بالمخطوطة، وقرأ في داخله ما كان يعرفه منذ البداية:
"الطائر مفتاحها... والبئر مرآتها."

نهض ببطء، كأن الصمت الذي عاش فيه سنوات تحطم فجأة.
شد عباءته على صدره، وأخفى المخطوطة داخله، ثم همس لنفسه:

"لن أعرف مصير رومان وهو يتعذب في القيود، ولن أرى ما يُحاك في الدير قبل وصول أوغسطين، إلا إذا وقفت أمام البئر ومعي الطائر. وحدها المرآة ستكشف الطريق."

خرج من السرداب بخطوات ثابتة، والعتمة تلفه من كل جانب.
لم يكن مجرد راهب هارب، بل صار ظلًا يفتش عن الطائر، ليحمل المفتاح إلى فوهة البئر... حيث الحقيقة تنتظر، واللعنة كذلك

خرج ثيودور من السرداب، قلبه يلهث بالخوف والهواء المحمّل برائحة الحريق يثقل صدره. الجنود كانوا مصطفين حول البئر، مشاعلهم تضيء الليل، وأعينهم شاخصة كأنها معلّقة على هاوية. ارتفع صوت القائد آمرًا:

"هذا البئر الملعون... لا يقترب منه أحد! أشعلوا النيران حوله كما أمر الأنبا. إن خرج الطائر، فثيودور هنا!"

ألقوا النار من كل جانب، فالتفّ اللهيب كطوق جهنمي حول الفوهة. الصمت لم يدم طويلًا، إذ فجأة اخترق الدخان جناحان مظللان. الحدأة – الطائر الشيطان اندفعت وسط النيران، وبخفقات قوية بدأت تسحب النار وتنقلها، لتشتعل الأرض بعيدًا، حتى كادت تحاصر الجنود أنفسهم.

صرخ بعضهم مرتاعين، وتعثر آخرون في محاولتهم الهرب من ألسنة اللهب.
لأول مرة، بدا القائد مضطربًا، عينيه تتسعان بالقلق وهو يصيح:

"انسحبوا! كفى... النار ستأكل نفسها. عودوا للدير، وغدًا مع الفجر نمشّط القرية بيتًا بيتًا!"

تراجع الجنود مذهولين، والنار تواصل الرقص حول البئر. لم يلحظوا أن الطائر كان يعبث بهم، يختفي وسط الشرر كأنه جزء من اللهيب نفسه. شيئًا فشيئًا، خبت النار، وبدأ المكان يخلو من الضجيج.

—-

حين خفّ وهج النيران، تقدّم ثيودور بخطوات بطيئة نحو البئر، والمخطوطة بين يديه. وقف على الحافة، والحدأة هبطت فوق الحجر، تحدّق فيه بعينيها المتقدتين.

انحنى فوق الماء المظلم، فرأى مرآة المصير تنقلب أمامه في صور مرعبة متتابعة:

- رومان ظهر أولًا، مسمّرًا على صليب خشبي، جسده مثقل بالجراح، والأغلال تغرس في يديه وقدميه.
- الجنود والقائد مجتمعون، لكن ملامحهم هذه المرة لم تكن قاسية كما اعتاد، بل امتلأت بالارتباك والفزع، وكأنهم يواجهون ما يعجزون عن السيطرة عليه.
- الدير ظهر بعد ذلك، الحريق قد انطفأ داخله، لكن في الأعماق كانت نار أخرى تتأجج، نار تنذر بانفجار قادم، أكبر وأكثر شراسة.
- انعكست صورة بولا لحظة إعدامه، نظراته مركّزة على ثيودور كأنها تعبر الزمن لتسأله عن سر لم يكتمل.
- وأخيرًا، الأنبا أغسطين ظهر في المشهد، يلبس عباءته السوداء الثقيلة، يعتلي عربة فارهة تجرها الخيول القوية، وحوله حرس مدججون بالسلاح، يستعدون للانطلاق نحو الدير مع أول خيط من الفجر.

ارتجف قلب ثيودور وهو يبتلع المشاهد واحدًا تلو الآخر. لم يعد هناك مجال للتردد. الطائر والمخطوطة والبئر اتحدوا ليقولوا له الحقيقة: القدر يقترب، والفجر لن يرحم المتأخرين.

⁝

✨ انتهاء الفصل الرابع

الفصل الخامس: القرار المصيري – نجاة ملطخة بالدم

١. الخروج إلى البئر ومحاولة السيطرة

خرج ثيودور من السرداب، قلبه يضرب في صدره كطبل حرب. الليل خانق، والدخان يغطي السماء كأن القرية دفنت تحت غمامة جحيمية. أمامه كان البئر، تحيطه بقايا النيران، والشرر يتطاير مع كل نسمة.

الطائر الحدأة – الطائر الشيطان كان يحوم فوق الفوهة، جناحاه العريضتان يشقان الهواء وصراخه يخترق العظام. لم يعد ذلك الكائن الذي ربّاه صغيرًا، صار الآن جامحًا، كأنه سيف مسلط فوق رأسه.

رفع ثيودور المخطوطة، تلا الرموز التي علّقها في ذهنه، وكل كلمة تُضعف الطائر قليلًا ثم يثور من جديد. أخيرًا، مع آخر حرف، خفّ صوته وانحنى برأسه. لأول مرة، شعر ثيودور أن السيطرة ممكنة.

⁝

٢. الكتابة على المخطوطة ورؤية المصائر

فتح الصفحة البيضاء، غمس القلم في المداد الأسود، وبدأ يخط الرموز بخط مرتجف، يردد في نفسه:

"نجاة... حرية... حياة لرومان."

كل رمز اشتعل على الورق كأنه جمر، وكل كلمة كتبها انعكست في ماء البئر:

- رومان مصلوب، جسده ينزف، لكن عينيه لم تُغلقا بعد.
- القائد والجنود وجوههم مضطربة، الخوف يتسلل بينهم للمرة الأولى.
- الدير، حريقه انطفأ، لكن في الأعماق نار تتأجج تنذر بانفجار هائل.
- بولا لحظة إعدامه، عيناه مثبتتان على ثيودور كأنه يرسل رسالة صامتة عبر الزمن.
- وأخيرًا، الأنبا أغسطين، يلبس عباءته الثقيلة، يعتلي عربته الفارهة، وحرسه يحوطونه كجيش أسود، يستعدون للانطلاق نحو الدير مع أول خيط للفجر.

ثيودور شهق، وعرف أن الوقت صار ضيقًا.

⊡

٣. كسر الصمت ومجزرة الإنقاذ

داخل الدير، ارتجّ الهدوء المكبوت. القائد كان يضغط على الجميع، حتى بلغ القهر حد الانفجار.
راهب عجوز، صامت طيلة عمره، فجّر اللحظة. صرخ بصوتٍ هز الأروقة:

"كفى ظلمًا! لن نصمت بعد اليوم!"

كانت هذه الكلمات كالرعد. رهبان آخرون رفعوا رؤوسهم، بعض الجنود تبادلوا النظرات المرتبكة. قبل أن يتحرك القائد، اندفع الراهب العجوز نحو رومان المصلوب.

اقترب منه، دموعه تختلط بالعرق، وقال بصوت يرتجف لكنه مليء بالعزم:

"انجُ يا بُني... أنت متهم دون دليل، وسأكسر قيدك بيدي."

ضرب الأغلال بفأس قديم، حديدها تحطم تحت إصراره. انكسر قيد، ثم آخر. رومان انهار على الأرض، يزحف مترًا مترًا، كجثة تبحث عن حياة.

لكن الجنود لم يتركوا الأمر. التفوا حول الراهب، طعنوه، وهو يصرخ آخر كلماته لرومان:

"اهرب... لا تنظر خلفك!"

وبينما ينهالون عليه بالحديد، حدث ما لم يتوقعه أحد. بعض الجنود نفسهم تراجعوا، تعاطفوا مع المشهد، وبدؤوا يواجهون زملاءهم.
صراع داخلي انفجر، الحديد يقرع الحديد، والرهبان يصرخون.

الدم سال على الأرض، رذاذه أصاب جدران الدير. جثث تهاوت، والهواء امتلأ بالصراخ والأنين. كانت مجزرة، لم ينجُ منها سوى رومان، الذي خرج من الصليب محطم الجسد، يزحف ببطء نحو الظلام، شبه ميت، لكن عينيه لا تزالان تحملان بريقًا واهيًا للحياة.

⊡

٤. صدمة ثيودور

عند البئر، ثيودور رأى كل هذا في الماء. المشاهد كانت أوضح من أي وقت مضى:

- الراهب الذي كسر الصمت وسقط مضرجًا في دمه.
- الجنود الذين انقلب بعضهم على بعض.
- رومان، يزحف على الأرض، ينجو لكنه يترك وراءه أنهارًا من الدماء.

الطائر صرخ صرخة طويلة فوقه، كأنها تسخر من محاولته لكتابة النجاة.

شعر ثيودور ببرودة تجتاح عروقه. قبض على المخطوطة حتى كادت تنشق، وهو يهمس لنفسه:

"كل مرة أطلب النجاة... تأتي ملطخة بالدم. كل محاولة خلاص... تصحبها جثث وضحايا."

ارتجف جسده كله. النجاة لم تعد وعدًا... بل لعنة.

⊡

✨ انتهاء الفصل الخامس

الفصل السادس: الفجر الأسود – وصول الأنبا أغسطين

النقطة الأولى: محاولة الهرب قبل الفجر

لم يتبقَّ على الفجر سوى أقل من ساعتين. السماء متوترة بين سواد الليل وخيط النهار الأول، والقرية كلها تحت حصار خانق. في الظلال، كان رومان يزحف، جسده محطم، الدم ينزف من أطرافه، وكل نفس يخرج منه كأنه الأخير. ومع ذلك ظل يتحرك ببطء، كمن يزحف من تحت الركام لينتزع نفسه من الموت.

داخل الدير كان المشهد أشبه بساحة مذبحة:

- الراهب العجوز الذي كسر الصمت سقط قتيلاً.
- راهب آخر حاول إنقاذ رومان، تبعه في الموت.
- أربعة أو خمسة جنود سقطوا في الاشتباكات.
- آخرون أصيبوا بجراح، بعضهم يترنح على الأرض.

لكن الانفجار لم يقف عند هذا الحد:

- ثلاثة رهبان أُمسك بهم أحياء، سلاسلهم تصدر صريرًا مرعبًا وهم يُساقون.
- ستة جنود أو أكثر هربوا من هول الفوضى.
- أكثر من عشرة تفرقوا في الظلام دون أثر.
- اثنان من الحرس الذين تعاطفوا مع الرهبان وقعوا أسرى.

ورغم الدم والفوضى، ما زالت صفوف الجنود قائمة، قبضتهم قوية وسيوفهم مرفوعة، وجوههم متوترة لكنها واقفة.

وسط الدخان والجثث، ارتفع صوت القائد:

"لا أحد يخرج... ولا أحد يدخل.
ثيودور سيُقبض عليه... ولن ينجو من يدي."

هذه كانت الكلمة الفصل التي سارت كالرعد بين الجدران، أوامر مطلقة من القائد وحده، إذ إن الأنبا أغسطين لم يكن قد وصل بعد، ولم يعرف بعد أن ثيودور قد فرّ.

لكن ظل اسمه حاضرًا في كل لحظة، كظلّ يسبق حضوره.
فالأنبا أغسطين معروف بانضباطه المخيف:

- يصل دومًا بعد بزوغ الفجر بساعة بالضبط، لا يتأخر ولا يتقدم.
- يقيم صلاة الصباح بنفسه وسط الرهبان، في طقس كنسي يملأ القلوب بالخوف أكثر من الخشوع.
- يخلد بعدها إلى راحته القصيرة.
- ثم يخرج ليجلس على كرسيه الكبير، حيث يمارس ما يسميه "جلساته الأبوية"... لكنها كانت أشد من أي محاكمة، إذ تتحول إلى محاسبة علنية تُذل الرهبان وتكسر إرادتهم.

ولذلك، كان القائد يتحرك كمن يسبق عقابًا قادمًا. فهو يعرف أنه لو وصل أغسطين ووجد الأمور منفلتة، فسيكون هو أول من يدفع الثمن.

القرية مطوقة، الدير يغلي بالدم، ورومان الجريح يزحف بصمت مرعب.
أما ثيودور، فكان يسابق الزمن... ساعتان فقط تفصلانه عن لحظة دخول الأنبا إلى الدير، لحظة قد تُغلق أبواب المصير إلى الأبد

النقطة الثانية: سباق ثيودور مع الزمن – الطائر يقود الطريق

خرج ثيودور من عتمة الأزقة الضيقة، خطواته ثقيلة لكنها سريعة، كمن يمشي فوق جمرٍ ملتهب.
القرية كلها تحت المراقبة.

- العيون تترصده من النوافذ المغلقة.
- الأبواب لا تفتح إلا بارتجاف، ثم تغلق سريعًا.
- كل همسة في الهواء تشي بالخوف.

أهل القرية كانوا مشلولين بين سيفين:

- تهديد القائد: "أي رجل أو امرأة يُخفي مكان ثيودور... يُقتل بلا محاكمة."
- إغراء الجائزة: أعلن لبعض العمال والضعفاء أن من يدلّ على مكانه، فله مكافأة عظيمة وتكريم من الدير والكنيسة.

صار الناس يخافون حتى من ظلالهم. لم يعد أحد يجرؤ أن يقول كلمة. كل عين تُحدّق في الأرض، لكن داخلها خوف قاتل: إن لمحوا ثيودور، سيصير مجرد نظرهم إليه كفيلًا بأن يُتهموا.

ثيودور تسلل بين الأزقة، قلبه يخفق. كل مرة يسمع وقع أقدام يظن أنها النهاية. كل نظرة سريعة من نافذة تذكره أنه مراقب في كل اتجاه.

وفجأة... اخترق الصمت صرخة حادة.
الطائر – الحدأة، الطائر الشيطان.
ظهر فوقه، جناحاه يمزقان السماء، صوته كالصاعقة. نفس المشهد الذي عاشه عند البئر في الجزء الأول، تكرر بعنف أشد.
انقض الطائر على كتفه فجأة، مخالبه حفرت في لحمه، الألم اخترق جسده كالسيف. وقع على الأرض من شدة الصدمة، والدم سال من كتفه.

لكن الطائر لم يختفِ.
صرخ مرة أخرى، ثم طار في دوائر واسعة، وانحرف نحو الغابة القريبة.
ثيودور، وهو يضغط على كتفه النازف، أدرك:

"إنه يقودني... يريدني أن أتبعه."

لم تكن المرة الأولى، لكنه هذه المرة كان أكثر جنونًا.

في نفس اللحظة، خرجت مجموعة من الجنود يطاردون شخصًا آخر. بدا أنهم ارتابوا في رجل ظنوا أنه ثيودور. صرخاتهم ووقع سيوفهم غطى على كل شيء.
استغل ثيودور الارتباك، تبع الطائر بين الأشجار، يركض بين الأغصان والظلال، كأن الغابة ابتلعته.

الطائر كان يطير أمامه، يختفي بين الأغصان ثم يظهر فجأة، صرخاته كأنها ترسم له الطريق.
خطوة بعد خطوة، الغابة ازدادت كثافة، الظلال صارت ثقيلة.

حتى توقف فجأة.
هناك... خلف بعض الصخور، على مقربة من الجدار الخلفي للدير، لمح ثيودور جسدًا يزحف بصعوبة.
كان رومان.
نجا بأعجوبة من المجزرة، زحف من الباب الخلفي وسط الفوضى، لكن جسده لم يعد يحتمل. كان وجهه شاحبًا، أنفاسه متقطعة، وعيناه نصف مغلقتين.

الطائر ارتفع عاليًا في السماء، كأنه أعلن انتهاء مهمته.
وثيودور، وهو يتجمد في مكانه، فهم الحقيقة:

"لحظات قليلة تفصلني عن إنقاذ رومان... إن لم أصل الآن، سيموت "

النقطة الثالثة: انهيار اللحظة – الطريق إلى البئر

اقترب ثيودور من رومان، رآه يرفع رأسه بابتسامة واهنة... قبل أن يغمى عليه ويسقط بلا حراك.
وقف ثيودور حائرًا: لا يعرف ماذا يفعل.

لكن أصوات الحرس كانت تقترب: وقع أقدام، صليل سيوف، صهيل خيول يضرب الأرض كالرعود.
لم يعد على قدوم الأنبــا إلا ساعات قليلة.

رفع عينيه يبحث عن الطائر... لكنه اختفى.
ذُعر، خشي أن يضيع الطريق.

ثم لمح الدماء على التراب: دماؤه هو، النازفة من جرح كتفه. صارت خيطًا أحمر يقوده وسط الظلام.
سار وراءه دون أن يدري أنه يعود إلى حيث بدأ... إلى البئر الملعونة.

فوهتها السوداء بدت كأنها فم مفتوح لابتلاعه. البئر التي لا تعكس الوجوه بل تكشف المصير.

⊡

النقطة الرابعة: مؤامرة القائد – رواية الانقلاب وسيطرة الظلّ

في حين كان ثيودور يقترب من البئر، كان القائد يعقد اجتماعًا مع نوابه الثلاثة عند بوابات القرية.
جلس بينهم بصرامة، وصاغ رواية مزيّفة للأحداث:

"ما حدث لم يكن فوضى عابرة، بل محاولة انقلاب قادها ثيودور بمساعدة رهبانٍ خونة.
الرجل العجوز كان أحد المحرّضين، والطفل رومان أشعل الحريق.
رومان مات في النار، والآخرون قُبض عليهم أو قُتلوا.
لقد سيطرنا على كل شيء."

أمر بإحراق بيت ماركوس، وتمشيط القرية من أولها إلى آخرها.

نشر بين الناس أن الوضع كله تحت السيطرة، وأن القبضة الأمنية باتت حديدية: لا خروج ولا دخول.
هكذا رسم صورة مثالية ليُقدّمها للأنبــا أوغسطين عند وصوله، يخفي بها الفوضى ويظهر نفسه كمنقذ.

النقطة الخامسة: السرداب – عذاب الجسد وصبر الروح

بعد أن التقى رومان، حمله ثيودور إلى السرداب الذي كان يختبئ فيه ماركوس قديمًا.
المكان مظلم، رطب، تتصاعد منه رائحة الأرض القديمة.

رومان كان في حالة مأساوية:
- النار التهمت يده ورجله بجروح مروّعة.
- جسده متقرّح من الأغلال والتعذيب.
- أنفاسه متقطعة، وروحه بين الموت والحياة.

قضى رومان يومين كاملين من الصلب والتعذيب وثيودور كان يحاول إنقاذه بما استطاع:
- يطعمه فتات الخبز، ويسقيه قطرات ماء.
- يصنع له مراهم بدائية مما تعلمه من قراءاته القديمة.
- يعثر في ركن السرداب على بقايا أعشاب وزيوت كان ماركوس يحتفظ بها لنفسه، فيدرك أن ماركوس عانى من نفس العذاب وطبّب جراحه بنفسه هنا.

بما تعلمه ثيودور مما قرأ من كتب الاطباء والفلاسفه
وما وجده فى سرداب ماركوس من علاجات وماء مقدس كان هو الآخر ياتى جريحا يقاسى ويلات العداء مع الأنبا

جلس ثيودور بجوار رومان، يضغط على جراحه بيد مرتعشة وهمس له:

"اصبر يا رومان... لن أدعك ترحل. لقد خذلني الكثيرون، لكنك لم تخذلني."

وهكذا، انتهى الفصل السادس:
ثيودور محاصر بالوقت، الأنبــا في طريقه، القائد ينسج خيوطه، ورومان يتأرجح بين الحياة والموت... بينما البئر الملعونة والمخطوطة ما زال ظلامهما يخفي الكثير من الأسرار

القصل السابع
: عودة الأنبا – المشهد المهيب في الساحة

مع أول خيوط الفجر، انبثق صليل حوافر الخيل من بعيد، كأنه وقع مطارق على صدور الرهبان.
الأنبا أغسطين عاد.
العربة السوداء تشق الضباب، تجرها جياد هائلة، ومن حولها حرسه الخاص في صفوف كأنهم جدران من حديد. كل عين منهم لا ترمش، كل خطوة محسوبة، كأن الأرض ذاتها تُؤمر فتخضع.

وقف الرهبان في الساحة الكبرى. أجسادهم متيبسة، أنفاسهم متقطعة. حتى القائد ـ بكل جبروته ـ بدا وكأنه أصغر من أن يملأ الفراغ أمام الأنبا.

نزل الأنبا ببطء. لم يقل كلمة. عيناه تجولان في المكان، تتوقفان عند الجدران المحروقة، عند الأرض التي ما زالت تفوح منها رائحة الدم والرماد، عند الأبواب المكسورة التي حاولوا إصلاحها.
كل شيء صرخ: هنا وقعت مجزرة.
لكن الأنبا لم يرفع حاجبًا، لم يُبدِ انفعالًا. فقط سكون مُرعب، كأن حكمه لا يُقال بالكلمات بل بالصمت.

ثم رفع رأسه، وبصوت خافت لكنه اخترق القلوب:

"أخبرني... ماذا جرى في غيابي؟"

وقف القائد، محاطًا بجنوده والرهبان، وروى بصوت ثابت:
- "سبعة من الرهبان تآمروا على قلب الدير."
- "اثنان قُتلا في المواجهة."
- "ثلاثة اعتُقلوا."
- "الطفل رومان أشعل النار ومات وسط اللهب."
- "قائدهم جميعًا... ثيودور، الهارب في الغابة."

كانت كلماته تسقط في الساحة كالأحجار الثقيلة. الرهبان تجرؤوا بالكاد على رفع أعينهم، يبحثون عن أي أثر للغضب أو التصديق على وجه الأنبا.
لكن الأنبا ظل صامتًا. لا تصديق... ولا إنكار.

ثم استدار ببساطة، كأنه أنهى المشهد، وسار ببطء إلى الكنيسة. دخل ليؤدي صلاة الصباح وحده، وخلفه ارتجف المكان كله.

بعد الصلاة، لم يذهب إلى حجرته كما توقع البعض. بل رفع يده، فأُحضِر القائد أمامه.
ثم أمر بأن يدخل حُرّاس البوابات الثلاثة واحدًا تلو الآخر.
بعدهم جاء حرس القرية، كلٌ يقف بخشوعٍ ميت، يروي ما رآه.

الأنبا استمع للجميع. لم يقاطع أحدًا. لم يُعلّق.
كل كلمة نُطقت، وكل تبرير قُدِّم، دخل في بحر صمته الذي يزداد عمقًا ورهبة.

وبين الرهبان في الساحة، كان كل قلب يخفق كأنه طَبل حرب:
هل صدّق؟ هل عرف الحقيقة؟ هل يهيئ عاصفة قادمة

: الاستدعاء الداخلي – صمت الأنبا وروايات الدم

خلف الأبواب الثقيلة للقاعة الكبرى، جلس الأنبا أغسطين في صدر المكان، خلفه صليب ضخم ينعكس عليه وهج الشموع، فيبدو كأنه ظلّ أسود يراقب.
دخل القائد، وانحنى ببطء، ثم بدأ في سرد روايته... رواية طويلة من الأكاذيب، حبكها بعناية ليغطي على آثار الفوضى التي انفجرت في غياب سيده.

تكلم بصوت واثق، لكنه كان في داخله يختنق:

"يا أبانا، لقد كان ما حدث فتنةً عظيمة. الراهبان جوزيب وإسحاق، كانا أصل البلاء. لقد سعيا لإفساد النظام، وتآمرا مع ثيودور على قلب الدير. جوزيب كان مُحرّضًا، يُثير قلوب البسطاء، أما إسحاق... العجوز الضعيف الذي تظنه بريئًا، فقد كان أخطرهم، لأنه استغل صورته كشيخ مسكين ليخفي خيانته."

رفع القائد رأسه قليلًا، يراقب أثر كلماته على وجه الأنبا، فلم يجد شيئًا... لا دهشة، لا غضب. فقط هدوء يثير الفزع.

تابع بسرعة، كأنه يخشى الصمت أكثر من كلامه:

"إسحاق حاول أن ينقذ الطفل رومان من العقوبة. لقد فتح له الطريق، وهمس له بالهرب، وكان على وشك أن ينجو به من يد العدالة. لكنه فشل، وسقط معه في النار التي أشعلها الصغير. هكذا انتهى العجوز، مع خيانته، محترقًا وسط الرماد، بينما مات رومان في لهيبٍ أشعله بنفسه."

القائد هنا كذب بمهارة: جعل إسحاق البطل خائنًا، وجعل رومان ضحية تهمة لم يرتكبها. وحوّل دماء المجزرة إلى حكاية مرتبة كأنها درسٌ في الطاعة والعقاب.

ظلّ الأنبا يسمع، بلا مقاطعة، بلا حركة. لم يبدُ أنه يصدق... أو يكذّب.
القائد ارتبك، لكن تابع:

"أما الثلاثة الذين قبضنا عليهم، فقد وُضعوا في السجن، ينتظرون حكمك. والآخرون... تفرقوا كالجرذان. لكن، ثق يا أبانا، كل شيء الآن تحت السيطرة. القرية محاصَرة، الأبواب مُغلقة، الجنود على أهبة الاستعداد. لم يعد هناك خطر، إلا ذلك الهارب... ثيودور. لكنه لن ينجو طويلًا."

ساد صمت ثقيل. حتى وهج الشموع بدا أنه يخبو في حضرة الصمت.
اقترب القائد خطوة، وانحنى أكثر، كأنه ينتظر كلمة رضا أو تصديق.

رفع الأنبا أغسطين عينيه ببطء. لم يتكلم بجملة طويلة، لم يوبخ، لم يمدح. قال كلمة واحدة فقط، بصوت هادئ:

"قبل الغروب."

تجمد القائد في مكانه. فهم المعنى.
قبل غروب شمس هذا اليوم، عليه أن يحضر لمثولٍ جديد أمام سيده، لينفذ ما سيُحكم به.
ثم أشار الأنبا بيده إشارة صغيرة، لا تحمل انفعالًا، لكنها كالسيف القاطع: انصرف.

انحنى القائد ببطء، قلبه يدق كطبول حرب، ثم خرج، والباب يُغلق خلفه كأنه ختمٌ على مصيره القادم

نهار ثقيل – الصمت الذي يسبق الانفجار

بعد خروج القائد من القاعة، عمّ الدير صمت لا يُحتمل.
لم يصدر الأنبا أغسطين أي أمر جديد. لم يطلب شيئًا سوى أن تُقدَّم له طقوس الصباح المعتادة.

جلس الرهبان في ساحاتهم، يتبادلون نظرات سريعة، كل واحد يخشى أن يتكلم.
الجنود وقفوا في أماكنهم كتماثيل، لكن العرق انحدر من جباههم رغم برودة اليوم.
حتى الريح بدت وكأنها اختفت، وكأن الطبيعة نفسها توقفت انتظارًا لقرار لم يأتِ بعد.

مرّت الساعات ثقيلة، كل دقيقة كأنها ساعة.
- الرهبان يحاولون الصلاة، لكن قلوبهم تهتز عند كل حركة باب.
- الحرس يتبادلون نظرات مرتعشة، لا يعرفون إن كان سيدهم يصدق روايتهم أم ينتظر اللحظة ليُسقطها عليهم كسيفٍ لا يرحم.
- أهل القرية بدورهم أغلقوا الأبواب، لا صوت يخرج من البيوت، الأطفال أنفسهم صمتوا كأن الرعب كمم أفواههم.

كان الجميع يعرفون أن الأنبا لا يصمت عبثًا.
صمته دائمًا يسبق العاصفة، وهدوءه لم يكن إلا قناعًا يخفي وراءه زلزلة آتية لا محالة.

ومع اقتراب غروب الشمس، ازداد التوتر في كل ركن من أركان الدير.
كل الأنظار صارت تتجه إلى القاعة الداخلية... حيث ينتظر القائد أن يُستدعى من جديد، ليواجه مصيره أمام سيد لم ينطق حتى الآن سوى بكلمتين: "قبل الغروب"

الجرح والوصية – نبوءة رومان الضعيف

في الوقت نفسه، بعيدًا عن جدران الدير الثقيلة وصمت الأنبا المميت...
في السرداب المظلم الذي كان مأوى ماركوس، جلس ثيودور بجوار رومان.
النار الخافتة في مصباح الزيت تلقي بظلال متكسرة على الجدار، كأن الأرواح تراقبهما من كل زاوية.

رومان كان نصف ممدد، جراحه التي تركتها النيران بدأت تلتحم ببطء، وثيودور يحاول تطهيرها بما تيسر من أعشاب وعلاجات بدائية وجدها مخبأة بين مقتنيات ماركوس القديمة.
أما كتف ثيودور، فقد ظل ينزف منذ هجوم الطائر الشيطان "الحدأة"، فراح يربط جرحه بقطعة قماش بينما عيناه تتعلقان بالمخطوطة الـ ١٧ أمامه.

مدّ يده المرتعشة نحو المخطوطة، وأمسك بها بقوة، وكأنها آخر سلاح في معركة غير متكافئة.
في تلك اللحظة، بدا قراره واضحًا: لن ينتظر حكم الأنبا، بل سيقلب الطاولة عليه.

التفت إليه رومان، عينيه نصف مغلقتين من الألم، وعلى شفتيه ابتسامة ضعيفة تخلّلتها علامات العذاب.
بصوت هزيل لكنه حادّ، قال مباشرة:

"سيدي ثيودور — القائد سيحرق الجميع إن أعطاه الأنبا فرصة لينقذ نفسه من غضبه."

تسمر ثيودور في مكانه، وهو يسمع كلمات الفتى الذي عانى التعذيب والنار.
رومان لم يعد يرى نفسه ناجيًا... لكنه رأى في ثيودور الأمل الأخير لمواجهة ما ينتظرهم جميعًا.

وفي قلب السرداب المظلم، بين جرحٍ يقطر دمًا، ومخطوطة ترتجف تحت أصابعه، وابتسامة صبيٍّ على حافة الموت...
شعر ثيودور لأول مرة أن المواجهةَ مع الأنبا لم تعد خيارًا، بل قدرًا يقترب بخطوات لا تُسمع

المشهد: النداء الأخير — قبل الغروب بقليل

دقّت الدقائق ببطء، والنهار يصفع آخر أشعته على نوافذ القاعة. الأنبا أغسطين استدعى القائد على عجل — "تعال قبل الغروب" — وحدث اللقاء وراء أبواب مغلقة، حيث لا شهود إلا الله واللهب الخافت للشموع.

دخل القائد وهو يظن أنّه يعرف كلّ شيء، لكنه وقف أمام الأنبا كقزم يقف أمام جبل. نظر إليه الأنبا بهدوءٍ قاتل، ثم تكلم بصوتٍ لا يحتمل التردد:

"اسمعني جيدًا: ما في الدير أبعد من تمرد أو شغب. ثيودور ليس مجرد هارب؛ شيء ظلامي يسير معه. والحدأة ليست طائرًا عاديًا — إنها لعنة مرتبطة بالبئر."

لم يترك الأنبا فراغًا بين الكلمات، لكن ثقلها كفى لردع أي رجل. أكمل بحزم:

"البئر تُردَم. الطائر يُقضى عليه أو تُعرض بقاياه أمام الناس كي يُطمئنوا. المخطوطة تُنقل إلى مكان محكم داخل الدير لا يطلع عليه إلا أنا ومن أوكلتُه. لا تساهل، ولا أهواء. إن بقيت هذه الشوائب، ستنتشر اللعنة من بقايا ماركوس إلى أزقة القرية وإلى الأديرة المجاورة."

ثم ألقى الأنبا بقيود الأمر الأخيرة:

"انشروا في الأسواق وفي الطرق لافتات بمواصفات ثيودور — اجعلوه مكشوفًا أمام الناس. من يساعده أو يخبئه فهو خائن يجب إلقاء القبض عليه فورًا. شدد قبضتك الأمنية: لا مفرّ له، لا مأوى، لا نفوذ."

نطق بعدها بكلماتٍ تضرب كالسيف:

"هذه فرصتك الأخيرة. إن نفذت ما أمرتك به — ردم البئر، القضاء على الطائر، تأمين المخطوطة، إحكام القبضة — ستمنع شرًا أعظم. إن فشلت، فمصيرك ومصير هذا المكان على يديك."

القائد خرج من القاعة وقد تغيرت ملامحه؛ لم يعد يتحدث عن تقارير فقط، بل عن تنفيذٍ صارم. الأنبا أعطاه غطاء القداسة لعملٍ عنيف؛ وبهذه الموافقة المقدسة، ارتسمت على وجه القائد ملامحِ رجلٍ على وشك أن يحول الخوف إلى قانون

المشهد الأول — حشد الجنود

الصباح التالي جاء محملاً بصرامةٍ ما بعدها صرامة. عند بوابات الدير، صفوف الجنود انفتحت كدوائر متلاحمة؛ أقنعةٌ من حديد، دروع تلمع، ورايات سوداء ترفرف بخفة.
القائد وقف في مقدمتهم كقائدٍ على مشارف حرب، يوزع التعليمات بصوتٍ خشن: "لا يترك أحد داخل القرية أو يخرج. من يشك في أي بيت... اقتحموه."
الأعصاب متوترة؛ العيون لا ترتاح. الجنود يضغطون على مقابض السيوف ويتابعون وجوه بعضهم، يعلمون أن اليوم غير عادي، وأن ما يخرج منهم اليوم سيُحسب أمام الأنبا.
انطلقت الأوامر كطبول: تشكيلات لاقتحام البيوت، فرق لتمشيط الأزقة، فرسان يستعدون لاقتحام الغابة. الأرض تهتز من وقع حوافر الخيول.

·

المشهد الثاني — اللافتات في الأسواق

في منتصف السوق، بين بائع الخبز وبائع الزيت، علّق الجنود لافتات ورقية خشنة الحواف: رسومات بدائية لوجهٍ يُشبه وصف "سيودور" — شعر مغطى، عينان نافذتان، نبرة التحذير بخطٍ غليظ.
الناس تجمعوا بعينين مبللتين بالخوف: المرأة تحكم مئزرها، الرجل يغمض باب دكانه، والأطفال يختبئون وراء الأرجل.
النص على اللافتة صارخ: "مطلوب حياً أو ميتاً — من يعلم بمكان هذا الشخص يتقدّم الآن ويبلغ الحرس. عاقبة الإخفاء الموت."
ولكل لافتة صريرها: أحد الحرس يقرأها بصوتٍ جهوري، ليعلنه في السوق كأنها نبأ حرب. الصخب يتحوّل إلى همساتٍ متقلبة: الشائعات تتشقق، والقلق يتكاثر.

·

المشهد الثالث — تحذير الناس

النداءات انطلقت من منابر الكنيسة والأسواق: القائد وُجه إلى الناس بكلمات هي أقرب إلى الأمر منه للطلب.
"احذروا من الاقتراب من البئر. أبلغوا عن أي رجل غريب. احموا بيوتكم."
الرهبان المزّين بثيابهم البيضاء صعدوا درجات الكنيسة، لكن أصواتهم كانت مرتعدة. رجال الحرس طافوا الأزقة، يطرقون الأبواب بصرامة: "هل رأيت أحدًا؟"
في البيوت، النساء يربطن الأبواب ـ لكن الأنفاس لا تُقفل. من قال كلمة حبّ، الآن يخاف أن يسمعها الجار. الأطفال يُكمّمون أفواههم بيدٍ صغيرة.

·

المشهد الرابع — الهجوم على الغابة لصيد الطائر

عند حافة الغابة، صفوف الجنود تهيّأت. المصابيح اليدوية تلمع كعيون وحوش صغيرة، وأزياء التمويه تختلط مع الضباب اللاصق.
القائد يهمس: "احذروا من النار... لا تقرّبوا كثيرًا."
اندفعت الفرق بين الأشجار، ضربات الأغصان تصفع الوجوه، وأنفاس الناس تتسارع. فجأة صرخة حادة تشق الظلام — صوت الطائر، صرخة كما لو أن السماء اقتلعت.

الحدأة ظهرت كوميضٍ أسود، ترفرف بين الأغصان، وتختفي ثم تعود؛ جناحها يرسل شررًا تُلتقطه أعين الرجال. الرماح تُرمى، الفخاخ تُنصب، والكل يترقب لحظة سقوطه. لكن الطائر ذكي؛ يتحاشى التضييق، ويقود الجنود إلى فخاخٍ من سيول الخريف والأحجار الرطبة.
الليل يعجّ بالصخب، وصدّى الصراعات بين أغصان الأشجار. في النهاية، فريقٌ يعود يُلقي على الأرض ما تبقّى من ريشٍ محترق — دليلٌ على أن شيئًا ما قد جُرّح، لكنه قد لا يكون قد مات بعد.

⊡

المشهد الخامس — الناس تُهيّئ لردم البئر الملعونة

وسط الساحة، تُجمع الحشود. حفرٌ جديدة تُجرى حول فوهة البئر، وحبالٌ، ودفّات ترابٍ وسيقانٌ خشبية. النساء يبكين بصمت، والرجال يتبادلّون النظرات؛ كلٌ يحمل حقيقةً واحدة: أن هذه اللحظة لن تُنسى.
القائد يشرف، وأمام الناس تُحمّل العربات الأتربة والحجارة. أصوات المعاول تملأ الجو. الرهبان يُصلّون بصوتٍ مجهد، والكل ينتظر أن ينتهي الفعل الطقسي — ردمُ فمٍ أسودٍ، إغلاقُ فمٍ ربما يلتهم مصائر.
وكل حركة تُنفذ كأنها ختمٌ على عهدٍ جديد: إن غُمدت البئر، إن سُكت الطائر، فإن الدير سيعتقد أنه قد نجا. لكن في أعماق القلوب، ثمة خشية: هل ردم البئر يدفن لعنةً، أم يدفن شيئًا ينتظر أن ينهض من التراب؟

⊡

المشهد: لعنة الراهب الملعون — والولاءات الجديدة

بعدما انغلق فم البئر تحت التراب والصخور، لم تهدأ القرية. بل انفجر لسانها بألف إشاعة:
"القضاء على الطائر كان بداية فقط... هناك أصل اللعنة... الراهب الملعون."

كانوا يتحدثون عنه كما لو كان ظلًا يتنفس بينهم: رجلٌ مغطى الرأس، كان يسير بين الأزقة في صمت، يتلقى أسرار البيوت ككاهنٍ غامض، ثم يبيعها ويحوّلها ضد أهل القرية. هو، قالوا، السبب في موت ماركوس. هو من تسبب في قتل الرهبان العجوزَين. هو من دبّر لإشعال الفتنة، وهو من تلاعب بطمأنينة الناس ليقودهم إلى حتفهم.

ولأن الناس بطبعها تبحث عن كبش فداء يطفئ رعبها، صار الاسم يتردد كوصمة، والكل يضيف إلى القصة تفصيلة من عنده. حتى الأطفال صاروا يتهامسون: "لو مرّ بجوارك، يأخذ سرك ويموت أهلك."

في وسط هذه العاصفة، ظهر وجه آخر للقصة: كبار التجار والأقوياء من رجال القرية. لم ينتظروا كثيرًا، فاستغلوا الموقف ليثبتوا ولاءهم. تقدموا نحو الدير علنًا، بعضهم بذهب، بعضهم بمواد غذاء، وبعضهم بتصريحاتٍ أمام الجنود:

"نحن مع الأنبا أغسطين، نحن مع الدير الذي يحمي القرية."

صار المشهد طقسًا يوميًا: القائد يضع أسماء المتقدمين على لوائح "الولاء"، والرهبان يسجلون كل اسمٍ بحبر أسود على ورقٍ رسمي، وكأن التاريخ يعاد كتابته في لحظات.

والأهم من كل ذلك، أنّ الأنبا أغسطين لم يترك شيئًا للصدفة. هذا الدير ليس مجرد مبنى — إنه من أكبر الأديرة في البلاد، ومنه تنبثق رسائل السلطة الروحية إلى كل الجهات. والأنبا الأكبر في فلسطين، الذي عيّنه هنا، يراقب سمعته وهيبته عن قرب. لهذا، استثمر أغسطين الأزمة كلها ليعيد بناء صورته:

- نشر أخبارًا في القرى المجاورة أنّه هو من أنقذهم من اللعنة.
- أرسل منشورات كنسية تحمل ختمه، يذكر فيها أنّ الدير استعان بالصلاة والقوة ليقهر الطائر.
- وجعل من إشاعة "الراهب الملعون" مادةً جديدة لتثبيت قبضته: "لن تنتهي اللعنة حتى يُساق هذا المجرم إلى العدالة."

الناس، بفزعهم، اصطفوا في طوابير أمام البوابات، يرفعون أياديهم بالولاء. البعض قدم مالًا، البعض قدم خدمة، البعض قدم دموعًا، لكن النتيجة واحدة: كل الولاءات تصب في يد رجلٍ واحد.

وهكذا... استغل الأنبا أغسطين الخوف الجماعي ليحوّله إلى قوةٍ سياسية ودينية تضاعف هيبته. وصار وجهه لا يُرى إلا كمنقذ، بينما في الخفاء كان خصمًا مباشرًا لكل من يعرف الحقيقة

المشهد: ثيودور في السرداب — كشف أسرار المخطوطات

في أعماق السرداب الرطب، حيث لا يُسمع سوى أنفاسه وصرير الفئران في الزوايا، جلس ثيودور وسط أكوام الكتب البالية. كانت أوراق ماركوس ملطخة بدموعٍ وعرقٍ وكتاباتٍ متشابكة، كأنها صرخات رجلٍ عاش حياته مطاردًا بين الإيمان واللعنة.

أشعل ثيودور شمعة صغيرة، ضوءها يتراقص على الجدران الحجرية، وبدأ يقلب الصفحات بيد مرتجفة. كل صفحة كانت أشبه بطعنة: رموز غامضة، إشارات إلى الطائر، خرائط للبئر، ودوائر سوداء تتصل كلها بخيطٍ واحد... المخطوطة الكبرى.

شيئًا فشيئًا، بدأ يلاحظ نمطًا يتكرر: كل رموز ماركوس لا تتوقف عند حدود السرداب، بل تشير إلى شيء أكبر... أن هذه المخطوطات ليست مجرد أوراق، بل أبواب، وأن من يمتلك مفاتيحها يملك السيطرة على قلوب الناس وعقولهم.

عند منتصف الليل، وبينما الشمعة أوشكت على الانطفاء، قرأ ثيودور جملة بخطٍ داكن:

"من يربط خيوط الطائر، والبئر، والمرآة... يصبح سيدًا على الكلمة، ومالكًا للمصائر."

ارتجف قلبه. هذه لم تعد مجرد خيالات ماركوس؛ إنها الحقيقة التي تُفسّر كل شيء.
الأنبا أغسطين لم يكن يحارب الطائر لأنه لعنة فقط... بل لأنه يعرف سرّه. هو وحده الذي يملك معلومات كاملة عن المخطوطات، وعن طريقة ربطها ببعض. وهذا ما جعله يرتفع يومًا بعد يوم حتى صار الأمل في أن يكون البابا الأكبر، الرجل الذي يضع يده على كل سلطة روحية ودنيوية.

ثيودور أغلق الكتاب بيدٍ مرتعشة، الدم يسيل من كتفه حيث جرح الطائر ما زال ملتهبًا، وقال بصوتٍ خافت:

"إذن... نحن لا نحارب رجل دين فقط. نحن نحارب من يريد أن يُخضع العالم كله بالمخطوطة واللعنة."

وفي تلك اللحظة، شعر لأول مرة أن الظلام الذي يحيط بالسرداب ليس فقط من الحجر... بل من حقيقة ثقيلة، أكبر من طاقته، لكنه مُجبر أن يواجهها

: الأيام الثلاثة في السرداب

مرّت ثلاثة أيام ثقيلة داخل السرداب الحجري.

- الضوء الخافت للشعلة الصغيرة جعل الجدران كأنها تتحرك.
- رائحة الدم والعرق امتزجت مع الأعشاب القديمة التي استعملها ثيودور.
- الطعام الذي خبّأه ماركوس قبل موته كان شحيحًا، لكن ثيودور رتّبه بدقة ليكفيهم.

رومان ظلّ بين الوعي والإغماء، جروحه تلتهب، بينما ثيودور لا يغمض عينيه لحظة، يقرأ المخطوطات بيدٍ ويراقب صديقه باليد الأخرى.

⊡

: بقايا ماركوس — العلاج والدواء

وسط الأرفف المتهالكة وجد ثيودور ما يشبه الصناديق الصغيرة المخبّأة.

- مراهم مصنوعة من خلطاتٍ عشبية تركها ماركوس لنفسه.
- ضمادات من قماشٍ بالٍ، لكنها محفوظة بعناية.

- بعض الأعشاب المطحونة التي تحرق كالبخور، تخفف الألم وتطرد الحشرات.

ثيودور استعملها كلها بحذر. الجروح لم تختفِ، لكنها بدأت تلتئم ببطء، ورومان بدأ يستعيد أنفاسه تدريجيًا، بعد أن كان قاب قوسين من الموت.

⊡

اعتراف رومان — ضرورة الخروج

في اليوم الثالث، فتح رومان عينيه لأول مرة بصفاء، صوته ضعيف لكنه ثابت:

"سيدي ثيودور... البقاء هنا موت بطيء. القبضة تزداد قسوة. إن أردت الهروب... أو المواجهة... لا بد أن نجد الطائر. الطائر وحده مفتاح المخطوطة."

الكلمات نزلت كالصاعقة على ثيودور. كان يعلمها في داخله، لكن سماعها من رومان أعطاها ثقل الحقيقة.

⊡

: صراع ثيودور مع المخطوطة

بينما رومان يتكلم، كانت عينا ثيودور على المخطوطة.

- الصفحات تتوهج أمامه كأنها ترسم قدره.
- الكلمات والرموز تترابط أمامه بشكلٍ يفضح سرًا أكبر مما توقع.
- كل سطر يصرخ أن أغسطين لم يكن يحارب الطائر عبثًا... بل لأنه يعرف سرّه.

ثيودور يهمس:

"لو فشلت في السيطرة على الطائر... لن ننجو، ولن نواجه. سننتهي مثل ماركوس."

⊡

: ابتسامة رومان

رومان، بجسده الهزيل ووجهه الشاحب، ابتسم ابتسامة باهتة وقال:

"إذن فلنجرب... الموت بالانتظار موت بطيء. أما الموت بالسعي... فقد يفتح بابًا للحياة."

ابتسامته بدت كأنها جمرة في العتمة، جمرة أشعلت قلب ثيودور.

⊡

؛لحظة الإدراك

في تلك اللحظة، ثيودور فهم أن السرداب لم يعد مأمنًا، بل أصبح قبرًا ينتظر إغلاقه.

- الطائر في الخارج... يترقب.
- المخطوطة بين يديه... تصرخ لتُكتشف.
- والأنبا أغسطين يقترب... بخطوات غير مسموعة، لكنها ثقيلة كالصخر

: خروج رومان – بداية المفاجآت

مع حلول الليلة الرابعة داخل السرداب، وبعد أن بدأت جروحه تلتئم ببطء، أصرّ رومان على ما لا يتوقعه ثيودور.
جلس بجواره، صوته خافت لكنه يحمل عنادًا غريبًا:

"سيدي ثيودور... لو بقينا هنا أكثر، سنصير موتى قبل أن نُمسك الطائر. سأخرج متخفيًا. أريد أن أرى ما يُقال عني، عن موتي، وعن الدير."

ثيودور حاول أن يوقفه، لكن رومان كان يعرف أن خروجه ليس مجرد مغامرة... بل ضرورة.

- كان يريد أن يواجه الحقيقة: ما الذي تغيّر في القرية بعد المجزرة؟
- كيف يروي الناس قصة موته؟
- وهل ما زال الطائر، الحدأة الملعونة، يطوف في السماء أم اختفى؟

ارتدى رومان عباءة قديمة تركها ماركوس، غطى وجهه بقطعة قماش سوداء، وتحرك بخطوات بطيئة نحو فتحة جانبية في السرداب.

عيناه كانتا تقولان لثيودور:
"ابقَ هنا... وانتظر الطائر. أما أنا، فسأجلب الأخبار... وإن عدت، ستعرف المفاجآت."

اختفى بين الظلال، وبقي ثيودور وحيدًا، جالسًا في العتمة، يسمع أنفاس السرداب كأنها دقات قلب تحت الأرض.

لم يكن يدري أن خروج رومان المتخفي لن يجلب له أخبارًا فقط، بل سيعيد فتح أبواب الرعب، ويكشف تغييرات لم يتخيلها أحد

نهايه الفصل السابع

الفصل الثامن: القرية التي ابتلعتها اللعنة

: ثلاثة أيام غيّرت كل شيء

لم يمضِ سوى ثلاثة أيام، لكن القرية لم تعد هي نفسها.

- البئر الملعونة رُدمت بالحجارة والتراب حتى تساوت بالأرض.
- بيت ماركوس، الذي كان يومًا مأوى للسرّ، صار كومة من الرماد، جدرانه تحولت إلى أطلال سوداء.
- لم يبقَ سوى رائحة الحريق في الصباح، تخنق أنفاس المارة.

القرية صارت صامتة كالمقابر، لكنها مليئة بالحركة:

- صباحًا: الجميع يخرج للعمل في توقيت محدد كأنه جرس معسكر.
- الجنود ينتشرون في كل زاوية، يراقبون الوجوه بعين الشك، يسجلون الأسماء، ويتعقبون الحركات.
- حتى الأطفال لم يعودوا يلهون... صاروا يهربون من الطرقات عند مرور الجنود، وكأن القرية أصبحت مسرحًا للجنون والانضباط القاتل.

: القرية تتحول إلى ثكنة

لم يكن الانضباط مجرد طاعة... بل صار استعبادًا كاملًا:

- أُجبر الناس على الوقوف في صفوف طويلة كل صباح لتعداد الأسماء.
- كل كلمة تُقال في السوق تُسجل وتُرفع إلى القائد.
- أي شخص يتأخر أو يتغيب عن عمله يُجلد علنًا في الساحة، أمام الجميع.

الوجوه أصبحت نسخة واحدة: خائفة، مطيعة، مسلوبة الإرادة.

حتى همسات النساء عند الأفران كانت تُراقَب، فانتشر الخوف لدرجة أن الناس صاروا يراقبون بعضهم كما يراقبهم الجنود.

النقطة الثالثة: المفاجآت المرعبة

لكن ما جعل رومان يشعر بالرهبة الحقيقية لم يكن الجنود وحدهم... بل تلك التغييرات الخفية:

١. أصوات غامضة في الليل:
- في كل ليلة، يسمع الناس صرخات تأتي من تحت الأرض، قرب أنقاض البئر الملعونة.
- بعضهم أقسم أنهم رأوا ظل طائر أسود يحوم رغم إعلان القائد أن الطائر أُبيد.
- الأطفال يتهامسون أن الطائر صار "شبحًا" يظهر فقط لمن ينتظر موته.

٢. شعارات جديدة في القرية:
- لافتات حمراء علقت على جدران البيوت والسوق:

"الراهب الملعون هو سبب لعناتكم... من يراه، فليدلّ عليه فورًا."
- الناس بدأت تصدق أن ثيودور ليس مجرد هارب، بل لعنة تمشي على قدمين.

٣. تجنيد إجباري:
- القائد أجبر عشرات من شباب القرية على حمل السلاح والانضمام للحراسة.
- صار نصف القرية جنودًا، والنصف الآخر عبيدًا تحت أعينهم.

: رومان وسط الجحيم

مشى رومان في الأزقة متخفيًا كما خرج، رأسه مطأطأ، خطواته سريعة لكن ثقيلة، كأن كل حجر يضغط على صدره.
في أذنه، كانت الهمسات تتلاحق:
- "رومان الخائن مات محروقًا."
- "كان لعنة على الدير... والآن انتهت اللعنة بموته."
- "لو عاش، لأحرق القرية كما أحرق الدير."

الكلمات ضربته كالسياط.
رأى نفسه ميتًا في كلامهم، جثة لم تعد تخصه.
كان حيًا، لكنه محاط بحياة تعاملت معه كأنه رماد متناثر

الإشاعة القاتلة

آخر ما التقطه رومان من الهمسات وهو يبتعد:
- الرهبان الثلاثة الذين قُبض عليهم بعد المجزرة سيُقادون إلى ميدان القرية ليُعدموا عند الضحى علنًا، أمام الأهالي، عبرة لمن تسوّل له نفسه خيانة الدير.

كان الخبر كالسيف المغروس في صدره؛
الرهبان الذين كان يعرف وجوههم سيُذبحون بلا محاكمة... بلا صوت

: الجنود الهاربون

ومن بعيد، لمح مشهدًا مرعبًا آخر:
- الجنود الذين هربوا ليلة الفوضى، بعضهم أُلقي القبض عليه، والبقية خرجوا من القرية في اللحظات الأخيرة.
- لكنهم لم يخرجوا كأناس أحياء، بل كأشباح.
- تسللوا بين الدخان والظلال، وجوههم مغطاة بالدماء والسخام، يركضون بلا هدف، يختفون في الغابة كأنها ابتلعتهم.

المشهد ترك في رومان يقينًا واحدًا:
القرية لم تعد مأهولة بالبشر... بل بالأشباح، سواء كانوا أحياء أو أمواتًا

اللقاء العابر

التقى رومان بالصبي، ابن الراهب إسحاق، في زاوية ضيقة من القرية.
ارتبك الصبي أول الأمر، لكنه لم يستطع أن يمنع عينيه من النظر إلى رومان.
" مات أبى . من أجل إنقاذك"

اقترب رومان بهدوء وقال بصوت خافت:
«أنا لم أنسَ فضل أبيك... أنا حيّ بفضله، ولن أُضيّع جميله ما حييت.»

خفض الصبي رأسه وتمتم:
«أخي الأكبر جُنّد بالقوة... هرب مع الجنود الفارّين. لم يبقَ لي غير أمي وأختي، نعيش كالعبيد تحت يد القائد.»

تنهد رومان وأجاب بحزم:
«لن أنسى فضل أبيك أبداً. اليوم لن أستطيع أن أفعل شيئًا، لكن غدًا... غدًا نلتقي هنا، في هذا المقعد نفسه. سأهديك طريق الهروب. لن أتركك، فدين أبيك في عنقي.»

تركه بعدها ومضى بخطوات متثاقلة، بينما الصبي ظلّ واقفًا يراقبه وهو يبتعد، وعيناه مملوءتان بالرهبة والأمل معًا

عودة رومان وسرّ الصمت

بعد أن افترق رومان عن ابن إسحاق وأسرته، جلس الطفل الصغير وسط أمه وأخته، يلتقط أنفاسه المرتجفة.
قالت له الأم بصوت متحشرج:
«هذا الذي رأيته... يبقى سرًّا بيننا. لا تخبر أحدًا بما دار، ولا بما وعدك به رومان. إن علم القائد، فلن يرحمنا.»

أومأ الطفل برأسه، عيناه تلمعان كمن يبتلع السر مع خوفه، لكنه ظل يتمتم في نفسه:
«رومان لن يخون... لن يخون.»

وفي عتمة الليل، عاد رومان إلى السرداب حيث ينتظر ثيودور.
قصّ عليه ما سمع من همسات القرية، وما رأى من وجوه مرعوبة، وما دار بينه وبين ابن إسحاق.
كانت الأخبار أثقل من أن تُحتمل، فثيودور جلس صامتًا، والعرق يتصبب من جبينه. بدا كأن الخوف يحيط به من كل جانب، حتى من عودة رومان نفسه.

لكن رومان، رغم جراحه وآلامه، كان صوته ثابتًا حين قال:
«لم أجد الطائر... لكن وجدت ما هو أخطر: القرية كلها تغلي بالأكاذيب، والقائد يسيطر عليها كالشيطان.»

في تلك اللحظة، ساد صمت ثقيل. لم يظهر الطائر بعد، ولا المخطوطة تكشّفت، لكن المفاجآت التي عاد بها رومان كانت كافية لتزلزل قلب ثيودور، وتفتح أمامه دروبًا لا عودة منها.

هنا على عتبة انتظارٍ ثقيل، حيث الظلام يخبّئ عودة الطائر، أم بداية الهروب الكبير مع ثيودور ورومان وابن إسحاق وأمه وأخته الصغيرة للبحث عن الحقيقه

- [ ] الفصل التاسع: قرار الهروب الجديد

جلس رومان متكئًا على الجدار الرطب في السرداب، أنفاسه متقطعة من طول الطريق، ووجهه متجهم وقد غطّته آثار الجراح.
وبهدوء ثقيل، بدأ يسرد على ثيودور ما رآه وما سمعه: همسات القرية، الإشاعات عن موته، نظرات الخوف، ثم اللقاء القصير بابن إسحاق وما حمله من كلمات موجعة.

أصغى ثيودور لكل كلمة، وكأنها تُغرز في صدره كالإبر.

ثم رفع رومان رأسه وقال بصوتٍ متماسك، رغم ضعفه:
– «زوجة إسحاق... وابنه الصغير... وأخته الطفلة. يمكنهم النجاة من نفس الطريق الذي هربت منه زوجة ماركوس مع طفلها. ذلك الممر ما زال مجهولًا عن القائد.»

ظل ثيودور صامتًا لحظة، وجهه مشدود، كأن فكرة إخراج أحد من القرية تعني أن يفتح أبواب الجحيم على نفسه.
لكن رومان لم يتوقف، بل تابع بإصرار:
– «يا ثيودور... من ضحّى بنفسه لأجلك، يستحق أن يُرد له الدين. أبيه أنقذك، وأنت حيّ بفضله. إن تركناهم الآن، فما معنى بقائنا؟»

رفع رومان عينيه، كان فيهما بريق غريب، خليط من الألم والعزم، وقال بصوت أقوى:
– «هذا ما تعلّمته من أبي... العطاء حتى النهاية. وهذا ما أقدّمه لك... إنقاذهم سيكون دينًا في رقابنا، لا مهرب منه.»

تأمل ثيودور صديقه الصغير، فأدرك أن هذا الفتى الممزق الجسد قد حمل قلبًا أكبر من جراحه. لم يكن مجرد طفل متمرّد أو هارب، بل صار رمزًا لمعنى الامتنان والوفاء.

وأخيرًا، أومأ ثيودور برأسه، وإن كان قلبه يتخبط من الخوف. فقد شعر أنه يتعلم من رومان، في كل لحظة، معنىً أعمق من أي مخطوطة قرأها.

وهنا انتهى الحوار، ليبدأ القرار: رومان سيخرج مرة أخرى... ليهرب عائلة إسحاق

بين الجمع والمهرب

في صباحٍ غريب الصمت، خرج ثيودور من السرداب متخفيًا في عباءةٍ بالية من عباءات الخدم، فيما سار رومان إلى جواره، وكأن الأرض نفسها تثقل خطواتهما.
لم يتبادلا الكلام كثيرًا؛ فكل كلمة كانت تزيد الخوف، لكن أعينهما كانت تتحدث.

القرية بدت كأنها تحولت في ثلاثة أيام إلى معسكر كبير:
- الجنود ينتشرون في كل زاوية، عيونهم كالسيوف.
- الرايات السوداء المعلقة في الساحة العامة، معلنة حكم الإعدام على الرهبان الثلاثة.
- الناس خرجوا أفواجًا، بعضهم بدافع الفضول، وأكثرهم خوفًا من أن يُتهموا إن بقوا في بيوتهم.

ثيودور أصرّ أن يخرج بنفسه، ليرى بعيونه ما يقال وما يُفعل، وليتحقق من كل ما حمله رومان من أنباء.
أما رومان، فكان في قلبه غرض آخر... تهريب عائلة إسحاق.

وبحنكةٍ صامتة، سار إلى الزاوية التي التقى فيها بابن إسحاق من قبل، فأشار له بيده بخفة.
ظهر الفتى وسط الحشد، وبجواره أمه وأخته الصغيرة. ملامحهم الذليلة وأيديهم المرتجفة جعلتهم يبدون كأي متسولين جاءوا بين الناس يشهدون العقاب.

اقترب رومان منهم كأنه واحد من الجموع، لم يلتفت إليه أحد؛ لأن الجميع كان مشدودًا إلى الساحة حيث يُنتظر تنفيذ الحكم.
أعطاهم همسة سريعة:
– «ابقوا قريبين... وحين أشير، اتبعوني وكأنكم جزء من الجمع.»

ثيودور كان يراقب من بعيد، قلبه يضرب كأنه طبل في صدره. لم يفهم كيف يستطيع رومان أن يغامر بكل هذه الشجاعة وهو بالكاد ما زال قادرًا على الوقوف. لكنه رأى في عينيه تصميمًا لا ينكسر.

وهكذا، في قلب الجمع المتراصّ، وبين العيون القاسية للجنود، بدأ رومان خطته:
إخراج الأم وطفليها إلى الحرية، تحت أنف القائد

الضحى الأسود

حين دقّت ساعة الضحى، تحولت ساحة القرية إلى مسرحٍ للجحيم.

- الجنود مصطفّون في دوائر متراصة، سيوفهم تلمع تحت الشمس.
- الناس محشورون وسط الساحة، وجوههم مذعورة، بعضهم يخبئ دموعه، وبعضهم يتظاهر بالصمت كي لا يلفت الأنظار.
- في وسط الجمع، وُضع ثلاثة رهبان مقيدين بالسلاسل، ينتظرون مصيرهم.

وقف ثيودور بعيدًا، متخفيًا في عباءته القديمة، لكن قلبه كان مكشوفًا لكل رعشة خوف.
كل دقة طبول كانت تمزق صدره، وكل نظرة جندي تشعل في رأسه سؤالًا: هل عرفوني؟ هل حان دوري؟

وفجأة... ارتجفت ذاكرته.
تذكّر البئر، ذلك المشهد الملعون الذي رأى فيه رؤى متداخلة: الرهبان، الدماء، ورومان وهو يُساق إلى الهلاك.
الآن أمامه نفس الرهبان الثلاثة، أحياء لكن في طريقهم إلى الموت. كأن النبوءة التي همست بها أعماق البئر بدأت تتحقق أمام عينيه.

ارتعش جسده، ليس فقط خوفًا مما يراه، بل من فهمٍ أعمق:
كل الدماء التي سُفكت من قبل، كل المجازر التي مرّت، لم تكن إلا تمهيدًا لهذا اليوم.

وبينما كان الناس يهمسون بخوف، ظهر القائد على منصةٍ مرتفعة، صوته يعلو:
– «اليوم تنكشف الحقيقة! هؤلاء الرهبان الخائنون تآمروا على الدير والقرية، أشعلوا النيران، وسعوا مع الراهب الصامت للهلاك.
لكن يد العدالة أمسكت بهم، ليكونوا عبرة لكل من تسوّل له نفسه الخيانة!»

تصاعدت الهمهمات، والوجوه ارتجفت. بعضهم صدّق، وبعضهم جفل، لكن أحدًا لم يجرؤ أن ينطق.

ثيودور شعر أن الأرض تهتز تحته.
هو يعرف أن ما يُقال كله كذب، لكنه يرى كيف تنقلب القرية رأسًا على عقب بكلمة واحدة من القائد.
هذا الرجل العسكري القاسي، بلا رحمة ولا شفقة، جعل الخوف ديانةً جديدة للناس.

وفي أعماق ثيودور، صرخ صوته الداخلي:
"كل هذا استُغلّ لصالحهم... القائد يُحكم قبضته الحديدية، والقرية صارت سجناً مفتوحاً."

كان يعلم أن اللحظة القادمة أخطر:
لأن الغد، مع قدوم الوفد الكنسي من الكنيسة الكبرى، ستُعلن القرية رسميًا تحت ولاية الأنبا أوغسطين... وسيُخلَّد اسمه على الدير إلى الأبد.

ثيودور وقف في مكانه، متخفّيًا، لكنه شعر وكأنه مدفون حيًّا وسط جموعٍ لا تستطيع أن تتنفس

الوفاء الأخير

بينما كانت الساحة تشتعل بالطبول والهتافات القسرية، انسحب رومان بخطواتٍ ثابتة وسط الحشود.
لم يلتفت إليه أحد، فقد بدا كأنه مجرد فتى بين الناس، يدفع بأمٍ متعبة وطفلين صغيرين نحو أطراف الجمع.

بهذا الهدوء، عبر بهم الأزقة الخلفية حتى بلغوا الممر السري، المظلم الملتوي، الذي يقود إلى خارج أسوار القرية.
كانت الأم تبكي بصوت مكتوم، تحمد الله على النجاة، والطفلة تشد بيدها ثوب رومان وكأنها تستمد قوتها منه.

حين وصلوا إلى آخر الممر، إلى فسحة خالية تؤدي إلى الغابة، توقفت الأسرة، التفتت الأم إلى رومان وقالت برجاء:

– «تعال معنا... اترك كل شيء، فما ينتظرك في القرية موت لا يرحم.»

هزّ رومان رأسه ببطء، وعيناه تلمعان تحت ظلال النار البعيدة:
– «لا... لا أستطيع. ثيودور ما زال هناك، ولن أتركه وحده في قبضة هذا الجيش، في مواجهة القائد والأنبا أوغسطين.»

عادت الأم ترجوه، والطفل الصغير مد يده إليه:
– «ابقَ معنا، أرجوك!»

لكن رومان ابتسم ابتسامة واهنة، ثم وضع يده على كتف الطفل، وقال بصوتٍ خافتٍ كالوعد:
– «أنتم بأمان الآن... أنا معه حتى النهايه لن أتركه"

تركهم يسيرون في الغابة حتى ابتلعهم الظلام، بينما عاد هو أدراجه، بخطواتٍ أبطأ من الدماء التي سالت على الأرض، لكن أعظم عزيمةً من أي خوف

مشهد الدم والرماد

في ذروة النهار، حين ارتفعت الشمس كأنها تفضح كل ما يُخفى، ارتفعت أصوات الطبول في الساحة.
اصطف الناس على شكل دائرة واسعة، وجوههم مشدودة بالخوف، بينما الجنود أحاطوا بالمكان بسيوفهم اللامعة.

تقدّم القائد بخطوات ثابتة، وخلفه وقف الأنبا أوغسطين، صامتًا، عينيه جامدتين كأنهما حجران لا يلينان.
ثم رفع القائد يده وأمر:
– «قدّموا الخائنين!»

فجُرّ ثلاثة رهبان مكبّلين بالسلاسل، وجوههم معصوبة، خطواتهم متعثرة تحت ضربات الجنود.
وقفوا وسط الساحة، يترنحون، والناس من حولهم كأنهم شهود على جريمة لن تُمحى من ذاكرتهم أبدًا.

رفع القائد صوته:
– «هؤلاء... خونة الدين والوطن والقرية. باعوا أنفسهم للشر، خانوا الدير، وتآمروا مع الراهب الصامت على نشر اللعنة. واليوم، أمام أعينكم، سيُنفذ فيهم الحكم الإلهي.»

ارتجف الجمع، بعضهم بكى في صمت، والبعض خفض رأسه لئلا يلتقي نظر القائد.

لم يُمهلهم طويلاً.
أشار بيده، فانقضّ الجنود على الرهبان الثلاثة، سيوفهم تقطع الهواء... لحظات قليلة، وصارت الأرض مضرجة بالدماء.
ارتفعت صيحات الجنود بالنصر، بينما غطّى الصمت الثقيل وجوه الناس.

لم ينتهِ الأمر.
بأمر القائد، جُمع الجسد المحطّم، وأضرمت النيران فيه أمام الجميع، حتى صار رمادًا أسود.
ثم أعلن القائد بصوتٍ كالرعد:
– «هذا هو مصير كل خائن. رمادهم سيُدفن بعيدًا، في القبو المخصص للخونة، حيث لا يُذكرون أبدًا.»

ثيودور كان واقفًا بين الجمع، يختنق بالهواء.
كل ما حوله بدا كأنه يغرس خناجر في صدره:

- الرهبان الذين رأى وجوههم في رؤياه عند البئر، والآن يذبحون أمامه.
- الناس الصامتة التي تحولت إلى قطيع مذعور.
- القائد، الذي صار شيطانًا يتكلم باسم العدالة.

قلبه تحطم، نفسه انكسرت، كأن الأمل تلاشى من وجوده.

كان يريد أن يصرخ، أن يوقف ما يحدث، لكن لسانه انعقد، وجسده تجمد.

وفي تلك اللحظة التي أوشك أن ينهار فيها كليًا، شعر بيدٍ صغيرة تُمسك بيده.
التفت، فرأى رومان قد عاد، يده مضمدة لكن عينيه تشعان بصلابة غريبة.

ضغط على يده وقال له بصوتٍ خافتٍ وسط الجلبة:
– «أنا هنا... لن أتركك وحدك.»

دموع حارّة انسابت من عيني ثيودور، لم يعرف هل هي دموع ألم أم امتنان.
لكنه في تلك اللحظة، وسط الدم والرماد، أدرك أن قلبه المحطم ما زال ينبض... لأن رومان بجواره

قبضة أوغسطين

بعد ثلاث ليالٍ من الفوضى، أصبحت القرية أشبه بمخيم عسكري.

- الجنود يملأون الأزقة، والأبواق تدوي مع كل فجر، والناس يُساقون للعمل كأنهم عبيد.
- الإشاعات تنتشر كالنار: الطائر الملعون قُضي عليه، البئر الملعون سيُردم، الراهب الغامض – ثيودور – هو سبب الخراب.
- الأغنياء وأصحاب النفوذ بايعوا أوغسطين علنًا، يصورونه المنقذ الذي خلصهم من اللعنة.

وسط هذا السواد، تمكّن رومان من تهريب زوجة إسحاق وابنتها الصغيرة، بعد أن وعد الصبي – ابن إسحاق – أن يجدهم لاحقًا. خرجوا عبر الطريق السري نفسه الذي استُخدم من قبل، تاركين القرية خلفهم، عيونهم مليئة بالدموع والهلع، لكن أقدامهم تحملهم بعيدًا عن قبضة الحديد.

ثيودور ظلّ مختفيًا في العتمة، يراقب. كان يعرف أن أوغسطين لم يُحكم قبضته على الأرض فقط، بل على القلوب والعقول، وأن هذه القرية لم تعد كما كانت: كل همسة مراقبة، كل خطوة محسوبة. لقد ربح أوغسطين الجولة الأولى.

⊡

النار والماء – لحظة الانفجار

لكن الظلام لم يكتمل بعد...
حين اكتشف الجنود الممر السري، أُشعلت النيران في السرداب. الدخان الأسود حاصر المكان، وصرخات الجنود تتعالى بالأوامر.
بدا كل شيء وكأنه يُمحى، كما لو أن القائد أراد أن يُزيل كل أثر للذين تمرّدوا.

فجأة ارتجّت السماء بصرخة الحدأة – الطائر الشيطان.
ظهر فوق الساحة، جناحاه كسيفين أسودين يقطعان الفجر. الجنود ارتبكوا، والقائد تجمّد لوهلة. وقبل أن يعود الصراخ، انفجر الماء من فوهة البئر... موجة عاتية اقتلعت الحجارة وابتلعت الجنود. صراخ، جثث، وأصوات غرق، حتى ساد صمت ثقيل كأن الأرض انتقمت.

الناجون من هذه الفوضى لم يعرفوا ما يفعلون. في وسط الارتباك، تسلل ثيودور ورومان، مزقوا عن بعض القتلى والجرحى ثياب الجنود، وارتدوها فوق ملابسهم. صاروا جزءًا من الحشد المرتبك، خطواتهم محسوبة، وجوههم مغطاة بغبار المعركة.

⊡

الهروب بالزي الحديدي

الطائر ارتفع عاليًا، يحوم فوق القرية المحترقة كأن جناحيه يوقّعان على نهاية المشهد.
الماء ما زال يفيض من فوهة البئر، يغرق من تبقى من الجنود.

وسط هذا الجنون، خرج ثيودور ورومان من القرية — بزيّ الجنود أنفسهم، يمشون كأنهم من جيشٍ انهار. كان هذا آخر أمل لهم، آخر خدعة تنقذهم من قبضة أوغسطين التي ظن أنها لا تُكسر.

⊡

✨ هنا ينتهي الفصل الثامن:

- أوغسطين يفرض سلطته.
- القرية تستسلم للحديد والنار.
- البئر ينفجر بالماء، والطائر يعلن نفسه من جديد.
- ثيودور ورومان يخرجان إلى المجهول، متنكرين بزيّ الأعداء

الفصل التاسع: طريق المجهول واللعنة الحيّة

١. الخروج بالزي الحديدي

خرج ثيودور ورومان من القرية في صفوف الجنود الناجين، وجسديهما ما زالا يرتجفان من صدى الانفجار.
كانت خطاهم ثقيلة، كأن الحديد الذي ارتدوه لا يحجب دماء من ماتوا، بل يحملها فوق صدورهم.
لم يجرؤا على النظر حولهما كثيرًا، كل ما فعلاه هو أن يثبتا عيونهما إلى الأرض مثل باقي الجنود المرهقين.

الخارج من القرية لم يكن خلاصًا... كان مجرد بداية.
الطرقات كلها محاطة بالحرس، والقبضة الأمنية لم تُكسر رغم ما حدث.
لكن انفجار البئر وانقضاض الطائر جعل الجنود مشتتين، بعضهم يهرب، بعضهم يترنح من الذعر.
وهنا وجد ثيودور الفرصة الأولى للنجاة.

٢. ظلال الغابة

ما إن تجاوزوا السور الخشبي، حتى انعطف ثيودور برومان نحو ظلال الغابة.
كل خطوة كانت كأنها تُداس على قلوب من قُتلوا.
ورائحة الدم ما زالت عالقة في أنوفهم، مختلطة برائحة الدخان والطين المبلول بماء البئر.

في داخل الغابة، بدا الصمت كالمصيدة.
كل ورقة تتحرك كانت كأنها سيف على رقبتهم.
رومان يتنفس بصعوبة، جراحه القديمة تؤلمه، وكتف ثيودور ينزف من أثر مخالبه الطائر.
لكن لم يكن هناك خيار سوى التقدم.

٣. همسات القرية خلفهم

من بعيد، كانت أصوات القرية تتعالى:

- "الطائر عاد!"
- "البئر ملعونة... انفجرت لتبتلع الجنود!"
- "الراهب الملعون هو من جلب هذه الكارثة!"

الإشاعات تزداد.
أوغسطين سيحوّل ما حدث إلى سلاح جديد: سيخبر الكنيسة الكبرى أن لعنة ثيودور خرجت عن السيطرة، وأن القبضة الحديدية وحدها هي المنقذ.
كان واضحًا لثيودور أن المعركة لم تبدأ بعد... بل ما حدث لم يكن إلا الشرارة.

٤. العودة إلى العتمة

كلما توغلوا في الغابة، أحس ثيودور أن الظلام يزداد ثِقلاً.
رومان قال بصوت مبحوح:
"سيدي ثيودور... كأننا لم نهرب، بل دخلنا فخًا أكبر."

في تلك اللحظة، صرخة اخترقت السماء.
نفسها... صرخة الطائر الشيطان.
لكنها لم تكن كما كانت من قبل، كانت هذه المرة أطول، أعنف، كأنها لا تنادي... بل تحذّر.

رفع ثيودور عينيه، رأى الظل الأسود يقطع القمر بين الأشجار، جناحاه يضربان الهواء كأنهما نار حيّة.
الطائر لم يكن يهرب... بل يقودهم إلى مصير جديد.

٥. المجهول الموعود

اقتربا من ممر صخري ضيق في قلب الغابة، والظلال تتحرك حولهما.
كانت هناك آثار أقدام قديمة، وبعض الرموز المنحوتة على الصخور... الرموز نفسها التي رآها ثيودور في المخطوطات.
شعر بتيار بارد يجتاح صدره:
"هذا الطريق... ليس صدفة. إنه مكتوب."

وقف رومان وهو يلهث، وجهه شاحب، وقال:
"إلى أين يأخذنا؟ إلى النجاة... أم إلى الهلاك؟"

لم يجب ثيودور.
كل ما فعله هو أن شد على المخطوطة، ونظر إلى الطائر الذي يحوم فوقهما، كأنه يبتسم بصرخة.

لقد بدأت رحلة جديدة... طريق المجهول

أوغسطين يغير خطته – الصرح العسكري

بعد أن هدأ صخب الانفجار وجفّت مياه البئر، لم يعد المكان كما كان.
الناس اعتقدوا أن اللعنة انتهت، لكن أوغسطين رأى شيئًا آخر:
البئر لم تعد مجرد حفرة مظلمة... صارت رمزًا يجب سحقه أمام أعين الجميع.

أصدر أوغسطين أوامره فورًا:

- بناء صرح عسكري من الحجارة السوداء أمام البئر.
- مضاعفة الحراسة، نصب أبراج خشبية عالية، وإحاطة المكان بالجنود ليلًا ونهارًا.
- ردم السرداب القديم بالحجارة والطين حتى لا يبقى له أثر.

كان يريد أن يمحو كل شيء: البئر، الطائر، الذكرى.
كأن محو الرموز سيمحو الخوف من قلوب الناس، وكأن الجدران الحديدية ستكسر لعنة القرون.

⊡

إرث ماركوس – وفاء لا يموت

أما ثيودور، فكان بعيدًا عن الأنظار، مختبئًا بين ظلال الغابة.
حين هرب، لم يخرج فارغ اليدين... لقد أخذ معه أهم ما تركه ماركوس:

- مخطوطاته القديمة التي تحوي أسرار الرموز.
- مقتنياته الشخصية التي كانت شاهدة على صراعه مع الأنبا.
- مذكراته المليئة بالآلام والاعترافات.
- أعشابه وأدويته التي استخدمها ليضمد جراحه من قسوة الدير.

كان ثيودور يحملها في صدره كأنه يحمل قلب رجل ميت ما زال ينبض.

تذكر لحظة وفاء رومان للراهب إسحاق، وكيف رفض أن ينسى جميله حتى بعد موته.
شعر أن عليه الآن أن يرد جميل ماركوس بالطريقة ذاتها:
أن يحفظ إرثه حيًّا، وأن لا يدع الدماء التي أُريقت تذهب بلا معنى.

⊡

مشاعر متداخلة

جلس ثيودور في عتمة السرداب الجديد الذي اتخذه مخبأً مؤقتًا، قلبه يشتعل:

- الامتنان لماركوس، الرجل الذي حماه ودفع حياته ثمنًا لذلك.
- الحزن على رومان الممزق بين الحياة والموت، وعلى كل الأبرياء الذين سُحقوا بلا رحمة.
- اليأس من قبضة أوغسطين الحديدية التي أحكمت على القرية كالسجن الكبير.
- الرغبة في الانتقام التي نمت داخله كالنار الهادئة، تنتظر لحظة الانفجار.

كان يسمع أصوات الجنود من بعيد وهم يكدّسون الحجارة فوق السرداب القديم، بينما يداه تتحسسان أوراق ماركوس.
كأن كل ورقة تهمس له:

"لا تدع موتي يذهب سدى... اكمل ما بدأتُه."

رفع عينيه نحو سقف العتمة، وقال في نفسه بصوت مبحوح:

"سأكون وفيًّا لك يا ماركوس... كما كان رومان وفيًّا لإسحاق.
لكن وفائي... لن يكون بالصمت. بل بالانتقام.

الفصل العاشر: بين الغابة والصرح

١. عشرة أيام في الغابة

مرّت الأيام على ثيودور ورومان كأنها أعوام.
أكثر من عشرة أيام كاملة من السير المتواصل:

- ليالٍ باردة يقضونها في كهوف ضيقة لا يدخلها سوى الريح.
- أيام ممطرة يبتلون فيها حتى عظامهم، يترقبون أي صوت خوفًا من الحرس.
- طعام شحيح يجمعونه من جذور يابسة وأعشاب برية، أو من قلة ما حمله رومان من أعشاب ماركوس.

كان الطائر يقودهم، يحلق في السماء ثم يختفي، ليعود ويظهر عند مفترق الطرق، كأنه يرسم لهم مسارًا مخفيًا.
خطواتهم ثقيلة، قلوبهم منهكة، لكن شيئًا واحدًا كان يبقيهم على قيد الأمل: أنهم يبتعدون يومًا بعد يوم عن قبضة أوغسطين.

وفي صباح يوم ممطر، دخلا أخيرًا إلى قرية صغيرة تقع بين ديرين:

- دير أوغسطين من جهة.
- ودير آخر يسمى فوتان من الجهة المقابلة.

القرية كانت للفلاحين فقط، مركز عمل زراعي يخدم الديرين.
لم تكن محصنة بقوة، حراستها ضعيفة، فلا يأتي إليها الجنود إلا مرة كل شهر ليتسلموا حصص العمل.
في ذلك اليوم، بدت القرية شبه فارغة، سوى قلة من الفلاحين والحرّاس البسطاء.
دخل ثيودور ورومان متخفيين بملابس الجنود، ملامحهم مرهقة، عيونهم تفضح ما عانوه، لكن أحدًا لم يجرؤ على سؤالهما.

⊡

٢. سباق أوغسطين مع الزمن

بينما كان ثيودور ورومان يزحفان خلف الطائر عبر الغابة، كان أوغسطين يخوض سباقًا من نوع آخر.
خلال الأيام العشرة نفسها، صنع معجزته المرعبة:

- الصرح العسكري أمام البئر بدأ يرتفع بسرعة غير متصورة.
- الطوب الأسود، الذي استُجلب من مقالع بعيدة، تكدّس ليبني الأساسات والجدران.
- هياكل خشبية ضخمة أُقيمت لتكون مساكن للجنود، ومكاتب للقائد، وقاعة استقبال للأنبا نفسه.
- أغلب أهل القرية سُخّروا في البناء، رجالًا ونساءً، يعملون كأنهم عبيد تحت سوط الوقت.

كانت سرعة الإنجاز جنونية، كأن أوغسطين يسبق الزمن نفسه، يريد أن يثبت للعالم أن سلطته لا تُقهر.
لم يعد البئر الملعون موجودًا، بل أصبح مكانه معسكرًا حصينًا، كالقلب الحديدي في وسط القرية.

⊡

٣. الاستعداد الأكبر

لم يتوقف أوغسطين عند البناء فقط.
بل بدأ يجهّز المشهد القادم:

- أرسل رسائل عاجلة إلى الدير الأكبر وإلى الكنيسة الكبرى، يطلب قدوم وفود ليروا بعينهم كيف سحق لعنة ثيودور.
- جمع وجهاء القرية والتجار والأقوياء ليظهر أمامهم بمظهر المنقذ الذي خلصهم من الطائر واللعنة.
- وعدهم بأن الصرح الجديد سيكون بداية توسع أعظم: لن تحمي القرية فقط، بل ستسيطر على الديرين المجاورين، ليصبح هو البابا القادم بلا منازع.

كل يوم كان يقترب أكثر من حلمه: أن يمسك بزمام الكنيسة كلها.
وكل حجر يوضع في الصرح كان كأنه يُبنى فوق صدر ثيودور نفسه.

⊡

✨ النهاية هنا مشهد مزدوج:

- [ ] ثيودور ورومان يصلان إلى قرية جديدة، مطاردَين بالدم والذكريات.
- [ ] وأوغسطين يرسّخ سلطته بصرح عسكري لم يشهد له مثيل، ويجهّز نفسه للظهور أمام الكنيسة كمنقذ عظيم

٤. لقاء الفلاح الكفيف

في صباح اليوم الممطر، وبينما تسلّل ثيودور ورومان إلى القرية، وقف أمامهما فجأة رجل عجوز، يتكئ على عصا خشبية.
كان ضريرًا، عيناه بيضاء كقطعتين من زجاج غائم، لكن ملامحه مشدودة كمن يرى ما لا يُرى.
صوته خرج خشناً:

– "من أنتم؟ لا أسمع أصوات الفلاحين... ولا رائحة تراب على ثيابكم. أنتم لستم من هنا."

شدّ رومان ثيابه مرتبكًا، وحاول أن يخفي الارتعاش في صوته:
– "نحن... من الحرس. ضللنا الطريق في المطر."

ضحك العجوز بسخرية ثقيلة، وكأنه مزّق بكلماته قناعهم الضعيف:
– "الحرس؟ لا، أنتم لستم حرسًا. الحرس يضربون الأرض بخطواتهم، أما أنتم فتسيرون كمن يجرّ خلفه لعنة."

ساد صمت لثوانٍ، لا يُسمع فيه إلا المطر المتساقط على سقوف الأكواخ الخشبية.
اقترب الرجل منهم أكثر، وراح يمرر أصابعه المرتعشة على عباءاتهم، ثم قال بصوت خافت:

– "أشم رائحة الدم... رائحة البئر."

ارتجف قلب ثيودور، كأن الرجل الكفيف اخترق ذاكرته.
رفع العجوز رأسه نحو السماء الملبدة، ثم همس:

– "أوغسطين يظن أنه سيبني مجده على الخراب، لكنه يزرع نارًا ستأكل يديه. لقد أعماني رجال القائد، أرادوني أن أكون شاهدًا أعمى على ما يفعلون... لكنني أبصر أكثر منهم جميعًا."

ثم خفض صوته أكثر، وقال بشيء من الحذر:
– "هنا... في هذه القرية، يختبئ الجنود الذين هربوا من قبضته. ليسوا جميعهم جبناء، بعضهم ثار على ما رآه من مذابح. أوغسطين يبحث عنهم، لكنه لا يعرف أن الغابة تخفيهم، وأننا نحن العميان نرى طرقًا لا يراها المبصرون."

رومان تبادل نظرة مشوشة مع ثيودور، لم يتوقع أن يجد في هذا المكان النائي من يعترض علنًا سياسات القائد.
لكن العجوز أكمل، صوته يزداد ثقلًا، كأنه يفرغ أسرارًا محرمة:

– "إن بقيتم هنا، فأنتم بين من يكره أوغسطين كما تكرهونه. لكن عليكم الحذر... فالوشاة في كل مكان، وكلمة واحدة تكفي لتسلمكم إلى السيف."

ابتلع ثيودور ريقه، وشعر أنه يسمع في كلمات الرجل صدى نبوءة مرعبة.
رومان كان أكثر اندفاعًا، اقترب وقال بصوت خافت:
– "دلّنا على طريق... طريق للهروب، أو لمكان نستطيع أن نختبئ فيه."

رفع الكفيف عصاه، وأشار نحو طرف القرية، حيث تنحدر الغابة من جديد.
– "هناك، بين الأشجار الملتفة، ستجدون كوخًا مهجورًا. ادخلوا إليه ليلًا، ستعرفون من بداخله أنه ينتظر أمثالكم."

ثم تراجع خطوة، كأن اللقاء انتهى، وقال:
– "لكن تذكروا... كل ما بُني على الدم، لن يصمد أمام لعنة البئر. حتى أوغسطين نفسه، مهما رفع صرحه إلى السماء."

تركهم ومضى بخطوات بطيئة، عصاه تنقر على الوحل، وصدى كلماته يظل يتردد في آذانهم

٥. وصول وفد الكنيسة – أمطار الليل وهيبة النهار

في ليلةٍ حالكة، والأمطار تنهمر بغزارة كأن السماء تغسل الأرض من الدماء التي سالت، وصلت القافلة.
خيول ثقيلة، عربات مكسوّة بأقمشة مشمّعة، ورجال بزيّ كنسي فخم، أرسلوا من بيسة، وفدٌ رسمي من الكنيسة الكبرى، جاءوا للتفقد.

أوغسطين استقبلهم على مشاعل مضاءة تحاول عبثًا أن تصمد أمام الريح والمطر.
وجوه الجنود متصلبة، والقرية كلها حبست أنفاسها.
الوفد الكنسي دخل الدير في صمتٍ ثقيل، لا يُسمع إلا وقع الأقدام وصرير العجلات على الوحل.

في النهار التالي، وقبل ساعتين من صلاة الضحى، أقام لهم أوغسطين قداسًا مهيبًا.
الجرس دقّ، فاجتمع الكهنة والجنود والفلاحون، وارتفعت التراتيل كأنها تحاول أن تطمس صرخات الأرواح التي ما زالت تئن في جدران الدير.
الوفد جلس في أماكن الشرف، ينظرون بعين الفاحص، يسجلون في ذاكرتهم كل شيء.

ثم، عند الغروب، أقام أوغسطين وليمة كبيرة، ذبائح وخمر وخبز، وأعلن أن هذه الوليمة "تبارك لعودة الوحدة إلى الدير والقرية".
لكن تحت هذه المظاهر كان يخفي شيئًا أعمق: عرض قوته، وإثبات أن سلطته لم تهتز رغم الدماء.

بعد الوليمة والصلوات، أخذ أوغسطين الوفد في جولة.
أراهم القرية، وقد تحولت في ثلاثة أيام فقط إلى ثكنة:

- الأزقة مرصوصة بالجنود.
- الساحات مشيدة بأبنية جديدة، نصفها حجر أسود ونصفها أخشاب عسكرية.
- برج مراقبة ارتفع عند طرف القرية يطل على الغابة.
- والصرح العسكري نفسه يعلو تدريجيًا كوحشٍ من الطوب والحجارة.

وقف أوغسطين أمامهم، عيناه تقدحان بريقًا غامضًا، وقال بصوته الرنان:

– "أنا لا أوسع حدودي... بل أوسع قوة الكنيسة. هذه القرى لم تعرف يد الدير من قبل، والآن ستُخضع وتبارك تحت راية القداسة. ليس هذا صرحًا لي... بل للكنيسة كلها."

الوفد تبادل نظرات صامتة، بين الإعجاب والريبة.
أوغسطين شعر أنهم يختبرونه، لكنه كان واثقًا:
كل شيء معدّ بعناية، كل جدار وكل جندي شاهد على قبضته الحديدية.

الليل يقترب، والمطر لم يتوقف.
لكن القرية بدت كأنها مدينة جديدة، محاصرة بالعسكر، محروسة بالصمت، وفي قلبها... طموح أوغسطين الذي لم يعرف حدًا

٦. محاكمة خفية في عيون الوفد

بعد الوليمة والصلوات، جلس الوفد في القاعة الكبرى.
النيران في المشاعل تترنح مع الرياح القادمة من الشمال، والهدوء يخيّم على المكان كأن الزمن توقف.

أوغسطين جلس في صدر القاعة، بجواره القائد متصلّب الوجه، عيناه لا تهدآن، كأنهما تراقبان كل حركة.
الكؤوس امتلأت، والوجوه تمايلت بين الجد والرهبة.

لكن فجأة... كسر الصمت صوت أحد الأشراف في الوفد.
كان رجلاً ذا لحية بيضاء طويلة، نظراته ثاقبة، سؤاله خرج كالسهم:

– "يا أبنا أوغسطين... وصلنا من الكنيسة أخبار مقلقة. قيل لنا أن مجزرة حدثت هنا. قيل أن طفلاً... اسمه رومان... قد أُحرق. قيل أيضًا أن راهبًا صامتًا قد هرب. وقيل... أن ماركوس، الرجل الذي عُرف عندنا بالولاء والأخلاق، مات في ظروف غامضة. ما حقيقة هذا؟"

القاعة صمتت كليًا.
وجوه الكهنة تجمدت، والجنود ارتبكوا.

حتى القائد نفسه، الذي لم يعرف الخوف من قبل، انعكس على ملامحه فزعٌ صامت، كأنه لم يتوقع أن تصل هذه الأخبار بسرعة إلى الكنيسة.

كل العيون صارت على أوغسطين.
هو الوحيد الذي لم يهتز.
ارتشف من كأسه ببطء، ثم وضعه على الطاولة، وبدأ يتكلم بصوت هادئ عميق، كأن كلماته صلاة مهيبة:

– "ماركوس... آه، ماركوس... لقد كان رجلًا صالحًا، ذا أخلاق عالية ووجهٍ مهيب بين الرهبان. كان وفاؤه لا يُقاس، وكان إخلاصه للدير فوق الشبهات. لقد خدمنا سنوات طويلة، وكان ملاذًا للفقراء وسندًا للضعفاء. فقدانه جرح عميق لا يندمل، وسيبقى اسمه محفورًا في ذاكرة الكنيسة شهيدًا للوفاء."

ساد المكان صمت مهيب، كأن كلمات الأنبا تحولت إلى صلاة جنائزية.
ثم رفع صوته قليلًا، بنبرة حازمة، ليقلب الموازين فجأة:

– "لكن الحق يجب أن يُقال. ماركوس لم يسقط إلا لأن خيانةً كانت من حوله. رومان... نعم، ذلك الطفل، لم يكن إلا أداة في يد الخونة. وإسحاق العجوز... لقد اعترف بنفسه أنه ساعد الراهب الصامت في كسر قوانيننا وتدنيس عهدنا. إنهم سعوا لإحراق الدير، لإغراق القرية في الفوضى. وموت ماركوس لم يكن إلا ثمرة سمّهم، ثمرة تآمرهم. لقد قتلوه بخيانتهم، قبل أن تقتله النيران."

ارتفعت همسات بين رجال الوفد، بعضهم ينظر بذهول، وبعضهم يدوّن ملاحظاته بخوف.

لكن أوغسطين واصل، وهو يحدق في الوجوه كلها:

– "لقد ردمنا البئر الملعون، أصل الشرور كلها، وقضينا على بذرة الفتنة. أما الراهب الصامت... فلعنته لن تدوم، وسنقضي عليه كما قضينا على من أعانه. وأقسم أنني بخدمتي ودموعي ودماء رجالي، سأبقي هذه القرية وهذا الدير طاهرين، لا تدنسهما خيانة ولا يفسدهما مارق."

في تلك اللحظة، انطلقت تصفيقات خافتة من بعض أعضاء الوفد، كلمات بركة وتسبيح خرجت مترددة.
لكن خلف العيون الجامدة، كان هناك شكٌّ يتسلل، كالنار تحت الرماد.

أما القائد، فقد بدا العرق يتصبب من جبينه رغم برودة الجو، وقد أدرك أن الأنبا أوغسطين وحده أمسك بزمام المجلس، وحوّل كل الاتهامات إلى رثاء وتمجيد

لكن الرجل ذو اللحية البيضاء لم يبدُ مقتنعًا.
رفع يده، وقال بصوت ثابت:

– "لقد كنت بليغًا في رثاء ماركوس، أيها الأنبا... لكن موته، رغم كلماتك، يظل أقرب إلى عينيك مما يجب. هناك خيط ضائع في هذه القصة... لم تُظهره لنا بعد."

القاعة سكنت من جديد.
لحظة حرجة كادت أن تهز الصورة كلها.

ابتسم أوغسطين ابتسامة هادئة، وأجاب بصوت رزين:

– "الخيط الوحيد يا سيدي، هو خيط الوهم الذي ينسجه المارقون. أما الحق فقد قيل. ماركوس رحل شهيدًا للوفاء، والخونة رحلوا بخيانتهم. وما بقي سوى الطهر الذي سنحافظ عليه بدمائنا."

ثم تقدم القائد بخطوة، وأضاف بصوت جهوري:

– "لقد ردمنا البئر الملعون، وأغلقنا باب الفوضى. لا خيط بعد اليوم، إلا خيط النظام والقوة. القرية آمنة، والدير في قبضة الكنيسة."

هنا التقت نظرات أوغسطين والقائد، وتكاملت كلماتهما كجدار واحد.
الوفد تبادل النظرات، ثم ارتفعت أصوات التأييد، بينما بقي الرجل ذو اللحية البيضاء ساكتًا، يراقبهم بعينين لا تزالان مشبعتين بالشك

وفي نفس الوقت كان ثيودور ورومان يسيران على الخطة التي دلّهما عليها الرجل الكفيف، يمضيان في الدرب كما وصفه لهما.

قادهم الرجل الكفيف بخطوات بطيئة واثقة، كأن العمى لم يمنعه من معرفة كل حجر في الطريق.
قال لهم بصوت هامس، وهو يرفع يده المرتجفة:
"اذهبوا من هذا الدرب... ستجدون في نهايته بيتًا متهالكًا. هناك من ينتظركم."

ثم تركهم واختفى بين الظلال، تاركًا خلفه غموضًا أثقل من الكلام.

سار ثيودور ورومان في الممر الضيق، والجدران الطينية على جانبيهما كأنها تتقارب لتبتلعهما.
حتى وصلوا...
إلى بيت قديم، نصفه منهار، بابه متدلٍ من مفصلاته.

دخلوا بحذر... فوجدوا داخله بعض الجنود الذين هربوا من جحيم القائد. وجوههم شاحبة، أنفاسهم متقطعة، وكأنهم ينتظرون نهاية لا مفر منها.

لكن اللحظة التي جمّدت الدم في عروق ثيودور ورومان لم تكن وجوه الجنود...
بل ما كان فوق البيت.

فوق السقف المتهالك، في العتمة...
جلس الطائر الحدأة – الطائر الشيطان، جناحاه مطويان، عيناه حمراوان تتوهجان كالجمر، يحدّق فيهما بصمت مرعب.

كأنما يقول:
"وصلتم... لكن ما ينتظركم الآن أفظع مما تركتم خلفكم.
✨ انتهى الفصل العاشر

- [ ] الفصل الحادى عشر :
وجوه من الرماد

جلس ثيودور متصلّب الجسد، عيناه ما زالتا معلقتين بالطائر الجاثم فوق السقف، لكن ما أيقظه من شروده كان صوت مألوف وسط الجنود المتخفيين.
صوت خشن، مبحوح من التعب والجوع، لكنه اخترق ذاكرة رومان كالسهم.

– "أهذا... رومان؟!"

تجمّد الفتى في مكانه، عيناه اتسعتا، وبصوت مرتعش أجاب:
– "جوزف... متّى... أنتم؟!"

اندفع الجنود نحوه، بعضهم بدموع مختنقة، بعضهم بضحكات متوترة لا تصدّق المشهد.
لقد كانوا جنودًا من حرس الدير، أُجبروا على القتال تحت يد القائد بالقوة، وكان رومان يعرفهم من أيامه كعامل صغير في الدير: كان يجلس معهم أحيانًا على موائد الطعام، يحمل لهم الماء، ويضحك على قصصهم البسيطة في ساعات الخدمة.

لكنّهم الآن... وجوه هزيلة، ملابس ممزقة، أنفاس محمّلة برائحة الخوف والهروب.

لقد اعتقدوا جميعًا أن رومان مات في الحريق، وأن ذكراه انتهت مع ألسنة اللهب التي التهمت القبو.

رومان، وهو يقترب بخطوات مرتجفة، مد يده لواحد منهم، وصوته يختنق بين الفرح والدهشة:
– "ظننتم أني مت؟ أنا... أنا ما زلت حيًا، بفضلكم، بفضل من ساعدني."

همس أحد الجنود وهو يضع يده على كتف رومان المرتجف:
– "ظننا النار أكلتك يا صبي... قلنا إنك لن تخرج منها حيًا. القائد أعلن موتك أمام الدير والقرية. لم نتخيّل أن نراك ثانية."

في تلك اللحظة، تبادل ثيودور ورومان النظرات.
ثيودور أدرك أن ما جرى لم يكن مجرد كذبة عابرة من أوغسطين وقائده... بل خطة مرعبة: تحويل الحقيقة إلى أسطورة، والأسطورة إلى لعنة، ليُبنى عليها صرح القبضة الحديدية.

أما رومان، فكان قلبه يخفق بجنون، كأنه يستعيد كل لحظة عاشها مع هؤلاء الرجال، الذين صاروا الآن بين الهاربين والضعفاء.

وسط الصمت الثقيل، انبعث صوت الطائر من فوق السقف...
صرخة قصيرة، حادّة، أشبه بجرسٍ ينذر ببداية فصل آخر

مشهد الخيانة :نهاية متّى

الوجوه حول النار كانت شاحبة، تتنفس الخوف كما يتنفس الغريق الماء.
وسط الجنود الهاربين الذين التفوا حول رومان وثيودور، بدا متّى مختلفًا. عيناه مضطربتان، شفتيه ترتجفان كأن شيئًا في صدره يحترق.

اقترب بخطوات مترددة، ثم فجّر كلماته كاعتراف مسموم:
– "أنا... لا أستطيع. سأذهب للقائد... سأخبره أنني كنت تحت تهديدكم. سأعتذر. سيصدقني... سيغفر لي. إن عدت إليه، ربما يرحمني!"

صُدم رومان، جسده ارتجف، صوته خرج مرتعشًا وهو يحدّق في الرجل الذي كان يومًا يجلس معه على مائدة الدير:
– "أتشي بنا يا متّى؟! بعد أن أكلنا من رغيف واحد؟! بعد أن رأيت بعينيك ما فعل بنا القائد؟!"

لكن متّى لم يسمع إلا صدى خوفه. عيناه كانتا غارقتين في رعبٍ مجنون، وكلماته تنزف ذلًا:
– "أنتم لا تفهمون! النار... الدم... الرعب... لا أريد أن أموت هنا كلصّ! سأعود وأقول لهم إنني كنت معكم مجبرًا... سيصدقونني! لابد أن يصدقوا!"

اندفع فجأة نحو حافة الجبل، جسده يرتعش، كمن يهرب من شبح يطارده.
وفي اللحظة نفسها، انقض الطائر – الحدأة من الظلام، جناحاه ضربا الهواء كالعاصفة، وصرخته اخترقت الليل.

مخالبه غرست في وجه متّى، وانتزع إحدى عينيه في ومضة دامية، صرخة الرجل ارتجّت كالرعد وسقط يتدحرج بين الصخور، الدم يغطي وجهه.

ركض خلفه أنطونيوس، الجندي الصارم، لم يتردد لحظة. لحق به وهو يتلوى بين الأشجار، يصرخ بصوتٍ واهن:
– "لم أقصد! كنت خائفًا فقط! دعوني أعود! أرجوكم...!"

وقف أنطونيوس فوقه، عينيه مثل حجر بارد، وصوته يخرج كالحكم الأخير:
– "الخوف لا يعفيك من الخيانة... والخيانة لا تُغفر."

وبضربة واحدة، غاص سيفه في صدر متّى، وأسكت صرخاته إلى الأبد.

من فوق، الطائر ظلّ يرفرف بجناحيه، عيناه الحمراوان تلمعان، كأنه قاضٍ صامت يشهد تنفيذ عدالة مظلمة

ولادة النواة الأولى

سقط متّى صريعًا، جسده يتلوى للحظات ثم تجمد وسط بركة دمه، فيما ظل الطائر يحوم في السماء كأنه ختم على عدالةٍ لا يرحم.
الجنود نظروا لبعضهم بوجوه مصفّرة، بعضهم عضّ على شفتيه حتى كاد الدم يسيل، والبعض الآخر ارتجف كالأطفال، فقد فهموا أن لا مفرّ: الطريق للخيانة يُفتح بالدم ويُغلق بالدم.

ثيودور ظلّ صامتًا للحظات، عيناه على جثة متّى، قلبه يضرب بقسوة... ثم التفت إليهم، صوته خرج هادئًا لكنه حاد كالنصل:
– "اللعنة ليست في الطائر وحده... ولا في البئر وحده. اللعنة هي الطمع في السيطرة، هي أوغسطين الذي يظن أن بيده أن يُمسك سرّ المخطوطة. إن لم نفهم نحن، فسيبتلعنا كما ابتلع غيرنا."

اقترب منه أنطونيوس، عيناه تشعان لأول مرة بنار لم تكن طاعةً بل تحديًا:
– "لن أكون بعد اليوم تابعًا... لا للقائد ولا لأوغسطين. إن أرادوا المخطوطة، فلن يأخذوها إلا من فوق جثتي."

رومان وقف بينهم، وجهه ملطخ بالسواد والدم القديم، لكنه ابتسم رغم كل الألم وقال:
– "أنا عشت لأن إسحاق ضحّى... ولن أموت إلا وأنا أرد الدين. سيودور ليس عدوكم... إنه الراهب الغامض الذي أرعبهم لأنهم لم يفهموه. واليوم... صار بيننا، يقاتل لأجلنا."

الجنود تبادلوا النظرات، وجوههم لم تعد مشلولة بالخوف فقط، بل بشيء جديد يتشكل... بذرة أمل صغيرة.
سبعة رجال بالكاد يقفون على أقدامهم، ومعهم رومان وثيودور، أقل من عشرة... لكنهم قرروا أن يبدأوا من هنا.

في الظلام، جلسوا حول نار خافتة، والريح تعصف بأغصان الغابة، والصرخات القديمة ما زالت تتردد في ذاكرتهم.
لم يكن أحدهم يعلم كيف سينجون، ولا كيف سيواجهون أوغسطين الذي صار قوة من حديد... لكنهم اتفقوا على شيء واحد:

"من هذه اللحظة... لن نموت عبيدًا."

وفي السماء، الطائر الجاثم فوق السقف خفّض جناحيه، وصوته الحاد اخترق الليل، كأنه يشهد ولادة أول قوة صغيرة ستقف في وجه الظلام.

⊡

🩸 هنا تنتهي أحداث الجزء الثاني

—

الجزء الثالث - جحيم العوده
الفصل الأول – ذكريات ثيودور والحقيقة

كان الليل ثقيلاً، والريح تمزّق الأشجار كما لو أنها تُعلن نذر الخراب القادم.
ثيودور ورومان ومعهم الجنود الهاربون ساروا بخطوات مترددة، يترقبون أي حركة في العتمة.

عند أطراف أرض مهجورة، ظهر أمامهم الرجل الكفيف، عصاه ترتجف مع كل ضربة على التراب.
كان كأنه ينتظرهم.
صوته خرج أجشًا، لكن فيه قوة غامضة:

– "لا تتوقفوا... الجنود في الطريق. إن لم تتحركوا الآن، سيمسكون بكم جميعًا."

اقترب منه أحد الجنود الهاربين، وقال بارتباك:

– "هذا رومان... الطفل الذي أعلنوا موته. وهذا... الراهب الصامت، الذي يسميه القائد والأنبا بالملعون."

صمت الرجل الكفيف لبرهة.
وجهه اتجه نحو ثيودور، عيناه المطفأتان كأنهما رأتاه أعمق مما يرى المبصرون.
ثم قال بصوت خافت لكنه كالسهم:

– "ثيودور... ابن إيليا!"

ارتجف قلب ثيودور، كأن الأرض اهتزت تحته.
لم يتجرأ أن يفتح فمه.

لكن الرجل أكمل، كاشفًا ما لم يجرؤ أحد على قوله من قبل:

– "ماركوس... قُتل من أجلك. كان يحمي السر، يخفيه عن أوغسطين وعن القائد، حتى لا يصلوا إليك. دمه لم يُسفك عبثًا... بل ليمهد لك الطريق."

تجمد رومان والجنود من وقع الكلمات.
أما ثيودور، فقد شعر بذاكرته تنزف... صور أبيه إيليا، الراهب الطيب الذي اختفى قبل أن يبدأ هو طريقه. صور ماركوس، المهيب الذي كان يحميه بصمت غامض. صور الدماء والحرائق والمطاردات.

كلها عادت فجأة لتضرب قلبه بقسوة.

لم يكن "الراهب الصامت" مجرد لقب... كان لعنة ولادة، ميراث دم، وحقيقة لم يستطع الهرب منها

صمت ثيودور ثم تكلم وكأنه يخاف ان ينطق هل تعرفُ أمي!؟

سكت الكفيف للحظات، صوته اختنق كأنه بيحاول يختار الكلمات من بين جراح قديمة.
التفت ناحية ثيودور وقال ببطء:

– "أتسألني عن أمك، يا ابن إيليا؟..."

تجمّد ثيودور، جسده كله يرتجف.
لم يكن أحد يجرؤ على ذكر اسمها من قبل. لم يكن أحد يتحدث عنها أصلًا.

ابتسم الكفيف ابتسامة حزينة، وقال:

– "كانت امرأة عظيمة... جميلة كالطهر، قوية كالنور. لكنها مرضت بمرض لم يجد له أحد علاجًا. لم ترد أن يقترب منك المرض، فاختارت أن ترحل بعيدًا... تبعد عنك. لم تتركك قسوةً، بل خوفًا عليك، تضحيةً بروحها."

شعر ثيودور أن قلبه ينخلع من صدره.
كان يتمنى أن يسمع أنها ماتت في هدوء... لكنه لم يتخيل هذا القدر من التضحية، أن تختار أمه أن تموت وحيدة، حتى لا تترك له إلا فرصة النجاة.

تابع الكفيف، صوته صار أشبه برثاء:

– "لم تتركك عاريًا يا ولدي. أوصت ماركوس... صديق إيليا الوفي. جعلته وصيًّا على قلبك وروحك، يراقبك من بعيد حتى لا يكتشف القائد وأوغسطين أنك ابن إيليا. لقد خبّأك كما يُخبئ اليتيم في حضن القدر، وربّاك من الظل... حتى حان وقت الحقيقة."

دموع ثيودور بدأت تتساقط، رغم أنه حاول أن يكتمها.
لكن الكفيف لم يتوقف، كأنه يطعن في الجرح ليكشف أعمق ما فيه:

– "أتدري يا ثيودور... لماذا قُتل ماركوس؟ قُتل من أجلك. لأنك لم تكن مجرد راهب صامت... كنت السر كله. كانوا يبحثون عنك، عن ابن إيليا، عن حامل الدمّ الذي يخفي المخطوطة واللعنة والطائر."

ارتجف رومان بجوار صديقه، لم يدرِ كيف يمسك به وهو يتهاوى من وقع الكلمات.

أكمل الكفيف، ونبرة صوته تحولت فجأة من الحزن إلى الظلام:

– "وأنا... كنت الرابع بينهم. كنت الراهب الرابع. أصابني العمى بمرض لم يشفَ منهم .أجلسوني جانبًا. ظنوا أني انتهيت. لكنني صرت عيون ماركوس... رسول أسراره. الناس في القرية عامَلوني كأعمى ضعيف، لا يرونه خطرًا، لكنني كنت أرى أكثر منهم جميعًا... كنت أرى بما لا تراه العيون."

اقترب بخطوات متعثرة حتى صار أمام ثيودور، ومد يده المرتعشة ليلمس كتفه.

– "إنك... ابن إيليا... ابن المرأة التي ضحّت بروحها لتبقى، وابن الراهب الذي مات ليحميك. أنت لم تولد لتصمت، يا ثيودور... وها أنت ترى أن صمتك صار لعنة يطاردها الطائر نفسه."

ساد الصمت.
الجنود الهاربون انحنوا برؤوسهم، حتى رومان لم يستطع أن يرفع عينيه من الأرض.
أما ثيودور... فقد جلس على ركبتيه، وانهار أخيرًا.

دموعه سقطت على التراب... كأنها توقيع على بداية جديدة، بداية الحقيقة التي لم يعد منها مهرب

- [ ] الجانب الآخر – أوغسطين بعد مغادرة الوفد

مع بزوغ النهار، كانت عربات الوفد الكنسي تغادر القرية، عجلاتها تغوص في الطين بعد ليلة مطيرة.
الوجوه الشاحبة للشيوخ لم تحمل سوى الصمت، لا اعتراض ولا تأييد، لكن أثر أسئلتهم ظل عالقًا في الهواء كالخنجر.

أوغسطين وقف على عتبة القاعة الكبرى، يلوّح بيده حتى آخر عربة اختفت في الأفق.
ابتسم ابتسامة باردة، كأن شيئًا لم يحدث.
التفت إلى القائد بجواره، وقال بصوت لا يعرف ترددًا:

– "لقد صدقوا ما أردنا أن يصدقوه. الآن لم يعد للريبة مكان. الحكم هنا لي... وسلطتي لن تُنتزع."

القائد انحنى، بينما داخله كان ما زال يختنق من خوف الأسئلة التي كادت تفضحهم.
لكن أوغسطين كان كالجرس البارد: كلما ضربه الشك، ازداد صلابة.
وبهدوء جليدي، أمر بإحكام الطوق على القرية، وإتمام بناء الصرح العسكري عند البئر، حتى يصبح شاهدًا على قبضة لا تُهز.

كان ذلك الهدوء الذي يسبق العاصفة.

⊡

العودة إلى الكفيف – جمع الصفوف

في بيت الكفيف المتهالك، عاد ثيودور ليستمع، والجنود الهاربون من حوله، وجلس رومان قريبًا منه كأنه ظلّه.

قال الكفيف بصوت عميق:
– "ماركوس لم يكن وحده. هناك من أحبّه بصدق، وهناك من يتذكر إيليا. سأجمعهم... واحدًا تلو الآخر. سيكون لك رجال أوفياء، لا جنود مهزومون."

التفت إلى الجمع، ثم مد يده المرتعشة نحو رجل قوى هادئ لكنه مهيب:
– "وهذا أنطونيوس... سيكون سيفك يا ثيودور. هو أقواهم، وها هم يختارونه قائدًا لهم."

انحنى أنطونيوس أمام ثيودور، عينيه تلمعان بصرامة العهد.
ابتسم رومان ابتسامة متعبة لكنه مخلصة، وقال:
– "وأنا... سأكون صوتك، يا سيدي. سأقرأ لك المخطوطات، ألخص كلمات القداس، وأجمع ما تحتاجه من الرموز. أنت تقودنا، ونحن نتحد."

ارتفع الهمس في المكان كأنهم ينسجون اتفاقًا مقدسًا:
توحيد الصفوف... مواجهة أوغسطين... كشف الحقيقة... وإنقاذ الدير والقرية من لعنة الظلم.

الطائر فوق السقف ظل جاثمًا، عيناه الحمراوان تراقبان بصمت، كأنهما تختمان على هذا العه
أوغسطين يُحكم قبضته من ناحية، وثيودور يبدأ جمع الولاء من ناحية أخرى

- [ ] الفصل الثاني – الصرح الحجري وظلال الدم

صرح فوق البئر

بعد عده أشهرمن رحيل الوفد، كان البئر الملعون قد اختفى تحت كتل من الحجر الأسود.
صرح عسكري ارتفع فوقه كأنه شاهد قبر، جدرانه غليظة، أبراجه شاهقة، وأسواره مرصوصة بالجنود.

أوغسطين وقف في أعلاه، يراقب العمال والفلاحين الذين جُرّوا للعمل بالسخرة، بينما القائد يصرخ فيهم بالعصي والسياط.
صوت المطارق والحديد امتزج بصرخات الضعفاء، والهواء امتلأ برائحة الطين المبلل بالدم.

– "ليكن هذا الصرح بداية عهد جديد،" قال أوغسطين، عينيه تلمعان ببرود، "عهد تُدفن فيه كل لعنة... ويولد فيه سلطان لا ينكسر."

القرية كلها صارت ظلاً لهيبته. لم يعد أحد يتنفس إلا بإذن، ولا يتكلم إلا بخوف.

▫

ظلال المقاومة

في الجانب الآخر من القرية، عند بيت الكفيف، كان المشهد مختلفًا.
ثيودور جلس وسط رجاله، الجنود الهاربين، ورومان بجواره يقرأ بصوت خافت من المخطوطة: رموز مبعثرة، كلمات مشحونة بالرهبة.

– "هذه المخطوطة،" قال رومان وهو يغلقها بعناية، "ليست مجرد كتاب... إنها نبوءة. أوغسطين يريدها ليُحكم سلطته، لكننا نستطيع أن نجعلها سلاحًا ضده."

أنطونيوس نهض واقفًا، قبضته مشدودة:
– "كفى هروبًا. لدينا السيوف، ولدينا الإيمان. أول ضربة يجب أن تكون ضد الحراس الذين يجلدون الناس عند الصرح. لن يعرف أوغسطين أن القرية بدأت تنزف من داخله."

الكفيف رفع عصاه المرتجفة، وقال بصوت مبحوح:
– "تذكروا... أن الظلال دائمًا تسبق الفجر. لكن كل قطرة دم تُراق ستفتح علينا أبوابًا أثقل من الصرح نفسه."

نظر ثيودور في وجوههم:
– الجنود بعزم مكسور،
– رومان بعينين يلمع فيهما نور لا ينطفئ،
– أنطونيوس كسيف لا يعرف الصدأ،
– الكفيف كصوت الحكمة المنفيّة.

قال أخيرًا بصوت هادئ لكنه حاد:
– "إن كان أوغسطين يبني صرحًا من حجر... فليعلم أن تحت الحجر دمًا لا يجف. سنكون نحن الظلال التي تسبق عاصفته."

الطائر – المسمى بالحدأة – طائر ثيودور - ظهر فجأة، حلق فوق البيت دورة واسعة، ثم اختفى في السواد.
صرخته اخترقت قلوبهم... كأنها نداء لبداية الحرب

أوامر التمشيط

صباحٌ رطبٌ بالندى، والقرية تئنّ من صمتٍ ثقيل —– لكنه لم يطل.
قبل فجرٍ كامل، عاد الطائر —– الحدأة —– محلقًا هذه المرّة بصوتٍ يقطع الهواء كقضيبٍ حاد.
صرخته كانت أكثر حدة من أي يومٍ مضى، تخترق السكون وتشقّ السماء شقًّا، كأنها إنذارٌ للعالم السفلي.
الصوت تردّد بين الأزقة، ارتجّت النوافذ الخشبية، واستفاق الكفيف أولًا ثم تبعه البقية.

رومان استدار كمن قُطع من ساقيه.
الصوت لم يكن مجرد نداء طائر —– كان إنذارًا.
في نفس اللحظة، لمحت عيون الجنود الهاربين على السطح طريق الخروج من البيت؛ ووسط ذلك، سُمِعَت في الأفق دقات حوافرٍ —– خيول تقترب.

لم تمضِ ثوانٍ حتى جاء النداء الذي يخبر أن أحدًا قد أبلغ عن حركةٍ ليلية قرب الممر:
أثر أقدامٍ طازج، دخانٌ خفيف عند المدخل، ظلالٌ متحركة على جدار الطين.
الخبر انتشر كشرارةٍ في بركةٍ من الزيت.
أحد الكشافة العائدين من دوريةٍ مبكرة وصل يلهث وهو يقول:
– «وجدتُ أثراً... آثار أقدامٍ، وقطعةَ قماشٍ ممزقة على الشجرة. هناك شيءٌ هنا.»

في القاعة العلوية، جلس أوغسطين بلا حركة، يقرأ ما في الوجوه —– الخطر.
رفع رأسه ببرودٍ عسكري، وصوته خرج حادًا كالسيف:
– «تمشيط كامل للقرية. كل زاوية تُفتّش، كل بيتٍ يُطوّق. لا مكان للاسترخاء. أفرغوا الحظائر، ونزّحوا الأهالي إلى الميدان إن لزم الأمر. لا أريد ظلًا واحدًا يمرّ دون أن يُرى.»

القائد أطلق صفيره الطويل؛ انطلقت الأوامر كتيارٍ من نارٍ باردة:
حواجزٌ عند المداخل، فرسانٌ في الطرق، رماةٌ على الأسطح، وصيحاتٌ تمزّق الهواء.
أوغسطين سحب خريطته الصغيرة، وضع عليها علاماتٍ حمراء عند كل زقاقٍ مشبوه، ثم قال بصوتٍ مثل الحديد:
– «اليوم سنُنقّي القرية من كل لعنةٍ تتنفس بيننا.»

الكلمات وصلت إلى بيتهم كما موجةٍ من زجاجٍ متكسّر: «تمشيط... إخلاء... لا بد أن نخرج».
ثيودور لمس بيده قلب رومان، عيون الفتى كانت مشتعلة بالقلق لكنه لم يرتجف.
أنطونيوس جمع الأفراد بصوتٍ خافتٍ لكنه قاطع:
– «جهّزوا أنفسكم. من يحمل جروحًا يُسند، من يقدر سيرا يجرّ الآخر. لا تأخير. من سيبقى؟ لا أحد.»

الكفيف همس وهو يلمح من النافذة:
– «الحدأة لم تصرخ عبثًا. إنها تدعوكم للحركة... قبل أن يصير صمتكم شاهدًا على موتكم.»

الطائر حلق مرة أخرى، هذه المرة فوق البوابة الشمالية.
صوت الخيول اقترب، والظلال العملاقة لجنود القائد عبرت التلال؛
كان وقت القرار قد حان.
ثيودور رفع المخطوطة المغلّفة بعناية، وضعها تحت عباءته، ونظر إلى رفاقه:
– «امشوا. لا تلتفتوا. نحمي بعضنا ونحمي السر. هذه ليست نهاية، بل بداية طريقٍ آخر.»

تحركوا في صمتٍ ثقيل، خطواتهم أولاً خافتة ثم أكثر سرعةً وعزيمة.
من تحت السقف، الطائر رصدهم بعينيه الحمراوين، ثم اختفى في مخروط الضباب الرمادي.
وراءهم، ارتفعت أصواتٌ وجيّاشة —— صرخات القائد، وقع السيوف، وصهيل الخيول.
وأمامهم، طريقٌ موحل في الغابة، يعِد ببرٍّ مجهولٍ وبحربٍ لا مهلة فيها

اكتشاف الجثه

غلّف الضباب أطراف القرية ككفنٍ رمادي.
الجنود المنتشرون للتمشيط ساروا في صفوفٍ طويلة، تتنفس الخوف وتدوس الصمت.
وفي أحد الممرات الضيقة، بجوار جدولٍ جافٍ إلا من بقعٍ من الطين،
صرخ أحد الجنود فجأة وهو يشير إلى شيءٍ ممدّدٍ بين الأعشاب المبللة.

اقترب القائد بنفسه، أزاح الغطاء الخشن عن الجسد،
فتراجع خطوةً إلى الخلف.
كانت الجثة مشوهة —— ذراع ممزقة، الصدر مفتوح كأن سكينًا نزع قلبه، والعين اليسرى منزوعة،
والوجه يحدق إلى السماء بفراغٍ لا يصفه إلا الموت البطيء.

تبادل الجنود النظرات، ثم خرج الاسم من أفواههم مرتجفًا:
– «إنه... متّى!»

ركع أحدهم ليتفحّص العلامة المنقوشة على ذراعه —— شعار الجنود السابقين للدير.
كان متّى أحد من هربوا أثناء محاولة إحراق الدير في الليلة التي احترقت فيها الأقبية،
هرب مع الفارين بعد أن أشعلوا النيران بأيديهم،
ثم اختفى في الغابات كمن ابتلعته الأرض.
لكن الطائر... قتله ! هناك طعنه فى صدره من سكين "

الريش الممزق على الأرض، والآثار التي تشبه مخالب ضخمة على وجهه . الطعنه فى صدره كانت كافية لتزرع الرعب في قلوب الجميع.
همس أحد الحراس:
– «إنها اللعنة... لعنة الراهب الملعون. من يتبعه لا ينجو.»

رفع القائد رأسه ونظر إلى السماء الغائمة، ثم قال بصوتٍ غليظٍ:
– «اجمعوه. هذا ليس موتًا عاديًا. أوغسطين يجب أن يراه بعينه.»

⁝

عند الغروب، وصلت الجثة إلى القاعة الحجرية في مقرّ أوغسطين.

الشموع كانت تترنّح بضوءٍ أصفر باهت،
والأنبا جلس في صمتٍ كأنّه يستمع إلى نبض الموت من بعيد.
وحين كُشف الغطاء عن الجثة، لم يبدُ على وجهه أي ذهول،
بل ارتسمت ابتسامةٌ دقيقة، باردة، لا روح فيها.

قال بصوتٍ خافتٍ وهو يتأمل الجثة:
– «متى... الجندي الذي أغوته خرافات الراهب الملعون.
ترك حمى الدير المقدس، وسار وراء طائر الشرّ.
انظروا... هذا جزاء من صدّق اللعنة وسار في ظلّها.»

التفت إلى القائد وقال بلهجةٍ كهنوتيةٍ فيها مكرٌ عظيم:
– «أرسلوا الخبر إلى الأديرة المجاورة.
أخبروهم أن اللعنة تطارد كل من تبع الراهب الصامت وطائره الشيطاني.
أن كل من يخرج عن طاعة الكنيسة سيُقتلع كما اقتُلعت عينه.
من يهرب من القداسة إلى الفوضى... يلقَ مصير هذا.»

هزّ القائد رأسه، والرهبة تمسك بأنفاسه،
بينما أوغسطين رفع يده ببطءٍ كمن يبارك الموت وقال:
– «ليعلم الجميع أن يد الرب تُبارك من يطيع،
وتسحق من يلهث وراء الظلال.»

⊡

في الخارج، بينما الجنود يحملون الجثة لدفنها،
حلّق الطائر مرةً أخرى فوق القرية،
صرخته شقّت الغروب كالسكين،
وكل من سمعها تجمّد في مكانه ––
لكن هذه المرة، صار الناس يهمسون في خوفٍ أعمى:
«اللعنة تضرب أتباع الراهب الملعون... الطائر يحصدهم واحدًا تلو الآخر.»

وهكذا، لم يعد الموت موتًا فقط،
بل سلاحًا جديدًا في يد أوغسطين...
يُحكم به قبضته، ويُرهب به القلوب

بين الجبلين –– بدايات الهدوء الماكر

مع بزوغ فجرٍ رماديّ، حين كانت الغيوم تُغطي قمم الجبال مثل عباءاتٍ من رمادٍ ثقيل،
وصل أنطونيوس والرجال إلى الممرّ الضيّق بين جبلين شاهقين.
ذلك المكان لم يكن في خرائط القادة، ولا يعرفه حتى كبار الحراس.
قال الرجل الكفيف عنه ليلة الهروب:

"إنه مأمن الطبيعة... لا يسمع صوته إلا الحجر، ولا يراه إلا من أضله القدر."

بين الصخور ووسط عروق الطين اليابس، نصبوا خيامًا صغيرة، خفية عن الأعين.
الريح كانت تمرّ من هناك كالهمس، وكأنها لا تريد أن تفضح سرّهم.
الرجال التقطوا أنفاسهم للمرة الأولى بعد أيامٍ من الهرب،
وثيودور جلس على صخرةٍ عالية يرقب الشروق،

وفي عينيه خليطٌ من الحذر والإرهاق — كأنه يحاول أن يصدّق أن هذا السكون حقيقي.

قال أنطونيوس بصوتٍ منخفضٍ:
– "لن يصلوا إلينا هنا، يا سيد ثيودور. هذه الأرض لا يطؤها أحد.
كل من عرفها مات أو نُسي. نحن آمنون... ولو إلى حين."

أومأ ثيودور دون أن يجيب.
الطمأنينة لم تدخل قلبه بعد — فالعالم لم يعد كما كان، والظلال لم تعد تُنذر فقط، بل تتكلّم بأصوات الناس

مع انبلاج الصبح الرمادي، حين لامس أول ضوءٍ قمم الجبال المغطاة بالضباب،
كانت قافلة صغيرة من التجّار تشق طريقها الوعر المؤدي إلى الدير المجاور.
الليل الذي سبق كان عاصفًا، اقتلعت رياحه الأشجار الصغيرة، وملأت السماء برائحة التراب الرطب والمطر،
ولذا آووا ليلتهم خلف تلالٍ صخرية تحميهم من البرد والرؤية.
ما كانوا يعلمون أن بين صفوفهم رجلين يختبئان كالأشباح — ثيودور وروman،
قد تنكّرا في هيئة حاملي بضاعة، وجعل كلٌّ منهما وجهه مطأطئًا تحت عباءةٍ مبللة.

في الفجر، تحركت القافلة ببطء.
كانت وجوه الرجال شاحبة من التعب، وأصوات الحمير تختلط بأنين العجلات على الحصى.
ومع أول استراحةٍ عند الطريق الترابي الذي يؤدي إلى القرية الزراعية التي تمّ تمشيطها مؤخرًا،
انضمّ إليهم عددٌ من العمال وبعض الحرس المكلفين بالعودة إلى القرية لبدء العمل فيها من جديد.
تبادل الجمع التحية الصباحية، وأشعلوا نارًا صغيرة ليجففوا ما ابتلّ من ملابسهم.

في تلك اللحظات، جلس ثيودور متقنعًا، يستمع دون أن يتكلم.
كان صامتًا كصخرة، لكن عينيه تلتقطان كل تفصيلٍ، وكل كلمةٍ تمرّ على الألسنة.

قال أحد العمال وهو ينفخ في كفّيه من البرد:

– "أتعلمون ما يُقال في القرية منذ فجر البارحة؟ اللعنة قد عادت.
الطائر الأسود حلق فوق الميدان، وصاح ثلاثًا، ثم اختفى."

ضحك أحد الحراس بخوفٍ مقنّع:

– "اللعنة؟ لا تقل ذلك بصوتٍ عالٍ. لقد أمر الأنبا أوغسطين أن تُقطع ألسنة من يردد تلك الأكاذيب.
قال لنا القائد إنّها علامة على وجود الراهب الملعون... ومن يتبعه، فالنار تأكله كما أكلت الذين خانوا الدير."

ردّ عاملٌ عجوزٌ بصوتٍ مبحوح:

– "يقولون إن من هرب مع الراهب أصابته اللعنة، واحدًا تلو الآخر.
وسمعتُ أن جثّة أحدهم، جندي اسمه متّى، وُجدت ممزقة عند أطراف الغابة.
عيونه منزوعة، وقلبه كُتب عليه بدمه... من يتبع الملعون يُهلك."

سرت في القافلة رجفةٌ غامضة،
الريح صفّرت بين الصخور كأنها تؤكّد ما قاله الرجل،
وتبادل الحرس نظراتٍ مرتبكةٍ بينما رفع أحدهم صليبه وتمتم بكلماتٍ خافتةٍ للوقاية من الشر.

ثيودور لم يحرّك ساكنًا،
لكن رومان، وهو يخبّئ وجهه تحت غطاءه المهترئ،
شعر بأن قلبه يكاد يخرج من صدره.

كان يعلم أن متّى قد لقي حتفه على يد انطونيس بعد ما اقتلع عينه الطائر ومنعه من الهرب والشى عنهم، لكن سماع الخبر من أفواه العامة جعل الرعب يتجسد أمامه ككائنٍ حيٍّ لا يُرى.

⊡

مع اقتراب القافلة من تخوم القرية،
بدأت تتعالى الأحاديث من جديد بين الفلاحين العائدين للعمل.
الأبواق العسكرية تُسمع في البعيد، والجنود ينتشرون كالنمل عند مداخل القرية،
لكنّ الأحاديث كانت هي الحاكم الحقيقي،
تنتقل من فمٍ إلى آخر، من سوقٍ إلى زقاق،
كأنها وحيٌ جديد:

– "أوغسطين قالها بنفسه، الراهب الملعون سيجلب الخراب لكل من يتبعه."
– "حتى إسحاق، ذلك العجوز المسكين، لم يسلم. أولاده تاهوا في الغابة، والبيت أصبح خربًا."
– "والطائر؟"
– "من رآه، فقد نجا بأعجوبة، أو فقد عقله."

كان الكلام ينتشر كالدخان،
والخوف يغلف القرية كما يغلف الجليد الأغصان.
لم يعد أحد يثق بأحد،
وكلٌّ صار يتهامس في الظلّ عن اللعنة والطائر والراهب الملعون...
كأنها ثلاثية الموت التي تحكم كل بيت.

⊡

في تلك اللحظة،
افترق التجار عن العمال، واتجهوا نحو الدير المجاور.
أما ثيودور، فانسحب بهدوءٍ من الصفوف الأخيرة، وروماں يسير خلفه بخطواتٍ محسوبة.
لم يتبادلا كلمة واحدة حتى اختفيا بين أشجار التلّ القريبة.
هناك، وقف ثيودور على صخرةٍ مرتفعةٍ يراقب القرية من بعيد،
عينيه تلمعان بوميضٍ غامضٍ من الغضب والحزن معًا.

قال في نفسه:

"هكذا يصنع أوغسطين مملكته... بالخوف.
يُحرق الأحياء ليبني تماثيل من الرماد.
لكنه نسي أن النار... أحيانًا تلد نورًا."

التفت إليه رومان بصوتٍ خافتٍ:
– "ما العمل الآن، سيدي؟"

فأجابه بثباتٍ باردٍ:
– "نعود لأنطونيوس.
لقد بدأت الحرب...
لكنها هذه المرة ليست حربَ سيوفٍ، بل حربَ رواياتٍ وأرواح."

⊡

وبينما تلاشى صوتهما في صدى الجبال،
كانت في الأفق البعيد صرخة الطائر تُسمع مجددًا،
أعلى من المرة السابقة،
كأنها تصرخ لا تحذيرًا... بل وعدًا

✨ نهايه الفصل الاول -الجزء الثالث

- [ ] الفصل الثاني: صوت المشرق – ظهور الطائر

كانت الليلة الثالثة منذ اجتمع الرجال في المخبأ الجبلي.
السماء مظلمة كأنها فُسيفساء من رماد، والريح الباردة تعوي بين الصخور،
لكن داخل الكهف، لم يكن أحد يتكلم.
الجميع حول ثيودور، عيونهم تراقبه وهو يفتح المخطوطة — ذلك الجلد العتيق الذي كأنه نُقش بأنفاس الموتى.

المخطوطة على ضوء النار بدت ككائنٍ حيٍّ يتنفس؛
الرموز ترقص في وهج الشعلة، تتغيّر كلما حاول قراءتها.
رومان جالس إلى جواره، يحمل بين يديه بعض أوراق ماركوس القديمة،
تلك الأوراق الممزقة التي لم يُعرف ترتيبها يومًا،
لكنها الآن — للمرة الأولى — بدت كأنها تهمس بشيءٍ متّصل.

كان أنطونيوس واقفًا قرب باب الكهف،
يتابع الخارج بقلقٍ ويده على مقبض سيفه،
أما الكفيف، فكان يردد أدعيةً بلغةٍ منسية،
كأنه يُنذر الجبل بعدم الغضب.

ثيودور، بصوته المنخفض، قال وهو يمرّر أصابعه على الحروف المحفورة:

"هذه الرموز ليست كتابة... إنها اتجاهات.
ليست نصوصًا بل خريطة — لكنها خريطة لمن لا يرى،
خريطة الروح لا الأرض."

رومان يقلب أوراق ماركوس بسرعة،
وفي إحدى الزوايا، وجد سطرًا نصف ممحوٍ، كُتب فيه:

"النور يبدأ من المشرق، عند النخيل بأرض اللحيه البيضاء
حيث تنكسر الشمس الأولى على حُكم الخداع."

قرأ رومان الجملة بصوتٍ مرتجف،
فرفع ثيودور رأسه فجأة،
كأن الرعد ضرب داخله.

"يوهان... الراهب المرسال؟"
قالها بذهولٍ وصدمةٍ في آنٍ واحد.
أنطونيوس التفت نحوه باستغراب:
"المبعوث الذي كان يحمل رسائل أوغسطين للدير الشرقى والكنيسه الأم
كان تلميذه النجيب رغم انه إبن رجل كبير ذو اللحيه البيضاء.

غاب عنا منذ يوم محاكمه الرهبان فى قضيه ماركوس "

ثيودور هزّ رأسه ببطء،
وفي عينيه بريقٌ غريب:.
"المشرق الذي تحدّث عنه ماركوس ليس اتجاهاً... إنه مفتاح."

في تلك اللحظة، سمعوا الصوت.
لم يكن صوت ريحٍ ولا حجرٍ يتدحرج،
بل صرخةً عميقةً، حادة، اخترقت الجبل كله —
الحدأة.

هبّ الجميع واقفين، والسيوف ارتفعت في لحظة غريزية.
لكن الطائر لم يهاجم...
بل نزل ببطء، جناحاه يمتدان كظلّين عملاقين فوقهم،
ثم استقرّ على صخرةٍ أمام ثيودور.
العيون كلها تتابع المشهد بارتجاف،
حتى مدّ ثيودور يده — بحذر، بخوف، لكن دون تردد.

اقترب الطائر ببطءٍ شديد،
عيناه الحمراوان تنعكسان على وجه الراهب الصامت،
ثم — أمام دهشة الجميع —
هبط الطائر على كفّ ثيودور، دون أن يخدشه.

الصمت الذي تلا المشهد لم يكن صمت رهبة فقط،
بل صمت إيمانٍ يعود بعد موتٍ طويل.
الريح هدأت، والنار خفّ لهيبها،
والسماء خارج الكهف تفتحت فوقهم كعينٍ كونية تراقب.

أنطونيوس همس بصوتٍ أقرب للارتجاف:

"إنه خاضع لك... يا ثيودور."

لكن ثيودور لم يبتسم،
بل نظر إلى عيني الطائر وقال بصوتٍ خافتٍ مبحوح:

"لا أحد يخضع في هذا العالم... الطائر لا يطيع، بل يختبر."

رفع الطائر جناحيه ببطء،
ثم سكن على كتف ثيودور،
كأنهما خُلقا ليكمّلا بعضهما — الصمت والصرخة.

رومان تقدّم خطوة،
وعيناه تتسعان من الدهشة والخوف:

"إنه هو... الطائر الذي كان سبب كل شيء، لكنه الآن... معك."

ثيودور لم يُجب.
جلس مجددًا أمام المخطوطة،

والطائر على كتفه يراقب الرموز بعينيه الحمراوين،
كأنهما يعرفان معناها.

أصابع ثيودور بدأت تتتبع الخطوط المائلة في الصفحة،
ورومان يقرأ معه الرموز المتفرقة،
ثم بعد لحظاتٍ طويلة من الترجمة والتأمل،
همس ثيودور بصوتٍ مبحوحٍ كأنه اكتشف لُغزًا مرعبًا:

"المخطوطة تبدأ من المشرق...
من أرضٍ يسكنها نخيل عملاق...
لكن تلك الأرض، يا رومان...
هي أرض أوفى رجال أوغسطين."

ساد صمتٌ دام طويلاً...
حتى الطائر، حدّق في ثيودور بنظرةٍ غامضة،
كأنها تقول له:

لكي تبدأ، يجب أن تدخل إلى قلب عدوّك.

وهنا...
انطفأت النار للحظةٍ قصيرة،
وغمر الظلام الكهف بالكامل،
كأن الجبل نفسه أُسدل عليه ستار من قدرٍ قادم

- [ ] الفصل الثالث: طريق المشرق – عبور التل الكبير

كان النهار الرابع من رحلتهم الطويلة، والسماء رمادية كأنها غبارُ ليلٍ لم يُمحَ بعد.
سار ثيودور ورجاله بين الجبال، والطائر – الحدأة – يحلق فوقهم في دوائر واسعة، يراقبهم كظلٍّ للقدر.
الطريق كان وعراً، لا أثر فيه سوى لأقدامٍ هاربةٍ من العالم، ولا صوت إلا أنين الريح التي تصطدم بالصخور، تصفر كأنها أرواحٌ ضائعة تئنّ في صدور الجبال.

كانت المجموعة تتقدّم بصمتٍ منضبط، يقودهم أنطونيوس بخطواتٍ حذرة،
والكفيف يسير خلفهم مستنداً إلى ذراع رومان الذي لم يفارقه لحظة.
ثيودور يمشي في المنتصف، يضم عباءته بإحكام على المخطوطة، كأنها قلبه النابض الأخير.
كلّ خطوة كانت ثقيلة، لكنها مشحونة بالعزم، وكلّ نظرة في الأفق تُشبه صلاةً قصيرة للنجاة.

بحيرة التل الكبير – فخّ الغدر الأول

حين اقتربوا من بحيرةٍ كبيرة تمتدّ على مدّ البصر، توقفوا.
الضباب الكثيف جعل سطح الماء يبدو كمرآةٍ من زئبقٍ يغلي.
كان أنطونيوس أول من لاحظ الدخان البعيد يتصاعد من بين الأشجار.
لم يكد ينطق بتحذيره حتى دوّى صوت صفيرٍ حادّ،
ثم انطلقت من بين الصخور سهامٌ كثيرة، اخترقت الهواء كأنها مطرٌ من حديد.

صرخ أحد الرجال:

"كمين! قطاع طرق!"

ارتفعت السيوف، وتعالت الأصوات، وبدأت أول معركة حقيقية في طريق المشرق.
كانوا ستة أو سبعة من اللصوص، يرتدون جلودًا ممزقة، وجوههم مطلية بالرماد،
انقضّوا عليهم من الجانبين بعنفٍ حيواني.
لكن أنطونيوس اندفع كالإعصار، سيفه يلمع تحت المطر الخفيف،
قطع يد أحد المهاجمين، وأسقط الآخر بركلةٍ عنيفةٍ في الماء.

ثيودور لم يستخدم سلاحًا، بل أمسك رمحًا مكسورًا من الأرض،
واستطاع صدّ هجومين متتاليين بحركةٍ واحدة.
أما رومان، فكان يحمي الكفيف ويصيح:

"وراءك! احذر!"

الحدأة حلّقت فوق رؤوسهم، تصرخ بصوتٍ هادرٍ أربك المهاجمين.
كانت الصرخات تصمّ الآذان، حتى إنّ أحد اللصوص ألقى سلاحه وهرب مذعورًا وهو يصرخ:

"اللعنة! الطائر الملعون! إنهم الملعونون!"

استمرت المعركة دقائق بدت كدهور.
وحين سكنت الأصوات، كان ثلاثة من اللصوص جثثًا على الأرض،
واثنان أُسروا وهم يترنحون من النزف والرهبة.

وقف أنطونيوس فوقهم، سيفه يقطر بالماء والدم، وقال بصرامةٍ قاطعة:

"لا نقتل من يُستسلم. من يريد النجاة، فليعمل معنا."

حدّق اللصان ببعضهما بخوفٍ صامت، ثم أومأ برأسيهما.
عندها قال ثيودور بصوتٍ حازمٍ منخفض:

"من كان ضالًا ثم اهتدى، فليعرف أن طريقنا أشدّ من سيوفكم. أنتم لستم أسرى... أنتم شهود على ما سيأتي."

ربطوهم وساروا معهم حتى حلول المساء،
وفي نهاية اليوم، كان الجميع قد أُنهك من التعب،
لكن نيران العزيمة لم تخمد في صدورهم.

بوابة أرض المشرق – حيلة الدخول

مع بزوغ فجر اليوم التالي، ظهرت بوابة ضخمة على بُعد أميال.
كانت تلك هي بوابة المشرق — مدخل الأرض التي تحدثت عنها المخطوطة.
أعلام الدير الشرقي ترفرف فوق الأبراج العالية،
وجنود أوغسطين ينتشرون عند المداخل، يفحصون القوافل والوجوه بدقةٍ صارمة.

هنا ظهرت براعة أنطونيوس.
غيّر أوضاع الرجال، جعلهم يسيرون بصفٍ واحدٍ كقافلة تجارية،
وأمر من كان يملك عباءةً قديمة من الدير أن يرتديها،
أما ثيودور فغطّى وجهه بالكامل، كأنه تابعٌ صغير لأحد القساوسة.

حين وصلوا إلى البوابة، تقدّم أنطونيوس بثقةٍ كاملة وقال للحارس:

"وفد من الدير الكبير، نحمل رسالة إلى رئيسكم عن أوامر القدّاس القادم.
أرسلنا الأب أوغسطين بنفسه من صرح الشمال."

الحارس العجوز نظر إليهم مرتابًا،
لكن حين لمح الختم المحفور على الحقيبة (كان أحدها من مقتنيات ماركوس القديمة)،
انحنى سريعًا وقال:

"مرحبًا بكم... لم نُبلّغ مسبقًا بقدومكم، لكن... تفضّلوا بالدخول. المعسكر في انتظاركم."

دخلوا ببطء، بخطواتٍ ثقيلةٍ مملوءة بالريبة.
كلّ جنديّ مرّ بجانبهم كان يحمل في عينيه مزيجًا من الشكّ والولاء،
والكفيف كان يتمتم بصلواتٍ خافتة، يخفي وجهه تحت عباءته الرمادية.

ثيودور، وهو يمر عبر البوابة، شعر بالهواء يبرد على جلده...
الهواء ذاته الذي تنفّسه يوهان ذات يوم، الراهب المرسال،
والأرض ذاتها التي خرجت منها كلّ الشرور الأولى.

ليلة المعسكر – صمت ما قبل الانكشاف

حلّ الليل، واستقرّوا في معسكر الضيافة المخصص لزوار الدير.
نيران صغيرة تشتعل في الساحة، الجنود يتسامرون،
لكن عيون ثيودور لم تهدأ لحظة.
كان يعلم أن الغد ليس كأي يوم،
فكلّ خطوةٍ داخل هذه الأرض تقرّبه من قلب السر...
ومن المواجهة التي لا مفر منها.

أما الطائر، فظلّ على سقف المعسكر،
عيناه الحمراوان تحدّقان في الظلام،
كأنهما تريان ما وراء الجبال — مصيرًا يقترب ببطءٍ...
وبوحشية
انتهى الفصل الثالث

- [ ] الفصل الرابع: ظلال المشرق – اللقاء المؤجل

كان الليل قد انكمش على أطراف المعسكر ككائنٍ يترقّب الصيد،
والنيران الصغيرة التي أوقدها الحرّاس تترنّح كأنها أنفاس خائفة.
في الخيام، الجنود النائمون يتقلّبون على وجوههم المرهقة،
لكن بين صفوفهم، في أحد أركان المعسكر المعتمة،
جلس ثيودور ورفاقه، متخفّين كأنهم أشباح تسلّلوا من زمنٍ آخر.

الريح القادمة من الشرق حملت معها رائحة البخور والحديد،
رائحة الأديرة البعيدة... ورائحة الدم القديمة.
رومان كان يراقب حركة الحراس من بين شقوق الخيمة،
بينما جلس أنطونيوس بجوار الباب، ممسكًا خنجره بيدٍ ثابتة.
أما الكفيف، فظلّ صامتًا، كأن سمعه يستمع لما لا تسمعه الآذان.

ثم همس بصوتٍ خافت، مشوبٍ بالرهبة:

"الآن يبدأ ما كُتب... لقد وصلنا إلى أرضٍ يعرف فيها النور طريقه، لكن الظلال أطول مما تظنون."

أدار وجهه نحو ثيودور وقال:

"سيأتي الغد باللقاء... يوهان هنا، في هذا الدير.
أنت تعرفه كما يعرفك، هو الذي كان يأتي بالمخطوطات وكتب القديسين ، ويأتيك برسائل أوغسطين في ليالي الشتاء."

رفع ثيودور عينيه ببطء، وصوتٌ قديم عاد يتردّد في ذاكرته:
تلك الزيارات القليلة في الماضي —
شابٌ في أواخر العشرينات، وجهٌ هادئ لكنه مضطرب،
عينان عسليتان تشعّان بقلقٍ صامتٍ كلما نطق اسم أوغسطين.
قال بصوتٍ متنهّد:

"نعم... أذكره. لم تطل لقاءاتنا أبدًا، لكني كنت أشعر أن في قلبه شيئًا لا يُقال...
شيئًا يقف بين الطاعة والخوف."

أومأ الكفيف، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة حزينة:

"إنه يعرفك أكثر مما تظن، وربما... هو وحده من يستطيع أن يفتح لنا باب الحقيقة.
سأرتّب اللقاء، لكن الحذر واجب، فالعيون كثيرة، والجدران هنا تسمع أكثر مما تتكلم."

مرّت الساعات بطيئة.
كان أنطونيوس يخرج من الخيمة متخفّفًا ليراقب الممرات،
ورومان يعيد ترتيب المخطوطات القديمة التي حملوها من ميراث ماركوس،
بينما جلس ثيودور متأملًا، يراجع في ذهنه رموز المشرق التي بدأ بفكّها في الطريق.
كلّ شيء يشير إلى أن ما ينتظرهم هنا... ليس مجرد لقاء،
بل مفترق طرق بين ماضٍ دفين ومستقبلٍ مجهول.

⊡

اللقاء المرتقب

عند الفجر، تحرّك الكفيف بخطواتٍ هادئة، يقوده أنطونيوس،
حتى وصل إلى حارسٍ عند بوابة الساحة الشرقية.
همس له بكلماتٍ لا تُفهم، تبادل معه رقعة صغيرة مختومة.
وبعد دقائق، سُمِعَ صوت خطواتٍ تقترب —
كان يوهان.

وقف في ضوء الفجر، وجهه مائل إلى الشحوب،
تعب السنين والشكّ يظهران في عينيه،
لكن حين رآه الكفيف، ارتجف صوته بخفةٍ مكبوتة:

"يوهان... لم تكبر كثيرًا عن آخر مرة رأيتك فيها."

ردّ يوهان ببرودٍ محسوب:

"وأنت... ما زلت تمشي بين الظلال يا أبتِ العجوز.

ما الذي جاء بك إلى هنا؟ وما هؤلاء الذين معك؟"

تقدّم أنطونيوس بهدوء، وأشار إلى الداخل:

"نحن وفد صغير من دير الشمال. جئنا نطلب لقاءك باسم الحقيقة."

لكن يوهان لم يتحرّك.
كانت عيناه تتنقّلان بين الوجوه، حتى توقفت على ثيودور،
الذي كان واقفًا في الظلّ، مغطّي الوجه،
إلى أن رفع عباءته قليلًا، فظهر وجهه للحظة.

سقطت الكلمات من فم يوهان كأنها انتحرت:

"أنت... الراهب الصامت؟! ثيودور؟!
لا... لا يمكن... لقد قيل لنا أنك ميت!"

سادت لحظة صمتٍ خانق،
ثم تراجع يوهان خطوةً إلى الوراء،
عيناه تتّسعان بالخوف والتردد، وصوته يرتعش بين الولاء والشكّ:

"إن وُجدت هنا حقًا، فالعالم كله مهدّد.
أوغسطين قال إنك أصل اللعنة، وإن الطائر جالب الخراب..."

لكن الكفيف قاطعه بصوتٍ حادٍ كالسيف:

"ومن قال إن اللعنة لم تبدأ من أوغسطين نفسه؟
ومن قال إن الطائر جلب الخراب؟ ربما كان يحاول إنقاذ ما تبقّى من النور قبل أن يبتلعه ظلكم!"

تراجع يوهان، بين ذهولٍ وغضب،
ثم أمر بإغلاق الممرات المحيطة بالدير،
وصاح في حرّاسه أن لا يدخل أحد ولا يخرج أحد.
كان يحاول فهم ما يراه،
لكن شيئًا في داخله كان يتمزق بين إيمانه القديم،
وبين ما يراه أمامه من وجوهٍ صادقةٍ تهرب من الجحيم ذاته الذي عاشه هو تحت يد أوغسطين.

⸱

في تلك اللحظة،
انفتح باب القاعة الكبرى، ودخل رجل ذو لحية بيضاء طويلة.
وقف الجميع مذهولين، حتى الكفيف همس بصوتٍ متهدّج:

"الربّ شاء اللقاء أخيرًا..."

لقد كان والد يوهان — الشيخ ذاته الذي واجه أوغسطين في الوفد الكنسي.
وقف بجانب ابنه، ووضع يده على كتفه وقال بهدوءٍ مهيب:

"قبل أن تحكم... اسمع.

إن كان هذا الراهب هو ثيودور حقًا، فليتحدث، ولتحكم أنت بما ترى."

التفت يوهان نحو أبيه، وصوته يتهدج بين الصدمة والعجز:

"أبتاه... لقد حذرونا منه، قالوا إنه خائن، وإن الطائر... لعنةٌ تسير على الأرض!"

لكن الأب أجابه بنظرةٍ ثابتةٍ عميقة:

"ربما لم نكن نسمع إلا نصف الحقيقة، يا يوهان...
وربما آن الأوان لنسمع النصف الآخر."

⊡

تبادل الرجال نظراتٍ متوترة،
أنطونيوس وضع يده على سيفه دون أن يشهره،
ورومان كان يحدّق في الأرض، كأنه يسمع دقات قلب العالم.
أما ثيودور، فظلّ واقفًا، لا يتكلم،
عيناه مرفوعتان نحو الطائر الذي كان يحوم فوق المعبد بصمتٍ مهيب،
كأنما ينتظر الكلمة التي ستقرّر مصير الجميع.

وانتهى الليل الطويل...
وبقي يوهان حتى الصباح لا يغمض له جفن،
يفكر في كلمات أبيه،
وفي وجه الراهب الذي ظنه ميتًا فعاد من تحت الرماد.
كانت الأسئلة تتصارع في صدره،
والسماء تلوّح بوميض فجرٍ جديدٍ لا أحد يعرف إن كان وعدًا... أم إنذارًا.

نهاية الفصل الرابع – ظلال المشرق

- [ ] الفصل الخامس: فجر المشرق – قرار يوهان

لم ينم أحد تلك الليلة.
تثاقل الصمت فوق جدران المشرق كعباءةٍ من رصاص،
والنيران التي كانت تُدفئ المعسكر تحوّلت إلى ظلالٍ متراقصةٍ تُشبه أعينًا تراقبهم من بعيد.

في إحدى الغرف الحجرية المنزوية خلف القاعة الكبرى،
جلس ثيودور وأنطونيوس والكفيف، والسكون بين أنفاسهم أثقل من الحديد.
لم يتكلم أحد طويلاً، فالليل كان يحصي أنفاسهم كما يُحصي القبرُ نبضات الموتى.

قال أنطونيوس وهو يحدق في الباب المغلق:

"القرية أُغلقت... وكل الممرات تحت الحراسة.
إن لم يقتنع يوهان بكلام والده الكبير، فلن يمرّ الفجر إلا ونحن في القيود،
أو رمادًا مع أول ضوء شمس."

أومأ الكفيف برأسه، ووجهه متعب من التفكير،
كان يهمس كمن يخاطب الغيب:

"يوهان ليس شريرًا يا ولدي...
إنه ممزق بين قسمٍ قديمٍ لأوغسطين، وصوت الحقّ الذي سمعه من أبيه الليلة.
إن هو لم يُصدّق الآن، فلن يُصدّق أبدًا."

أما ثيودور، فظلّ جالسًا على الأرض،
يده تلامس المخطوطة كمن يستمد منها صبرًا.
صوته خرج هادئًا، لكنه يقطر يقينًا:

"لن أهرب بعد الآن.
إن كانت هذه نهاية الطريق، فلتكن هنا... في أرض المشرق التي بدأ منها كل شيء.
لكني أثق أن النور لا يُغلق ببابٍ من حديد."

خارج الغرفة، كانت الريح تصفر في الممرات،
وصوت الحرس يتبدّد بين الحجارة:
"لا أحد يغادر... لا أحد يقترب من قاعة الشيوخ..."
كلّ شيء يوحي بأن الفجر سيحمل معه قرارًا لا رجعة فيه.

⊡

اللقاء المنفرد

مع أول خيط من الضوء،
فتح الباب فجأة، ووقف عنده جنديٌّ شابٌّ، قال بصوتٍ مقتضب:

"الراهب يوهان يطلب لقاء الراهب ثيودور... على انفراد."

نهض أنطونيوس فورًا، لكن الكفيف أوقفه بيده المرتجفة:

"دعه... هذا اللقاء لابد أن يحدث."

سار ثيودور بخطواتٍ بطيئةٍ في ممرات الحجر الرمادي،
الهواء بارد، والشموع في الممرات تترنّح كأنها توشك على الانطفاء.
وحين وصل إلى القاعة الصغيرة التي فُتحت له،
وجد يوهان واقفًا قرب النافذة،
وأمامه والده — الرجل ذو اللحية البيضاء — يجلس بصمتٍ مهيب.

تبادل الثلاثة النظرات الأولى بصمتٍ طويلٍ أثقل من أي حوار.
ثم قال الشيخ الكبير بنبرةٍ هادئةٍ حاسمة:

"ابني، طلبت أن تجلس معه على انفراد... لكني لن أتركك وحدك.
سأكون شاهدًا على ما يُقال، لا متحدثًا باسم أحد."

أومأ يوهان بإيماءةٍ خفيفة،
اقترب خطوة من ثيودور، وصوته ارتجف بين الشكّ والدهشة:

"كل ما سمعته عنك... كل ما رأيته الليلة...

لا أدري أهو حلم أم كابوس؟
أبي يقول إنك تحمل النور، وأوغسطين قال إنك جلبت اللعنة...
فأيّكما أصدق؟!"

رفع ثيودور رأسه بهدوء،
عيناه كانتا كسماءٍ تُطفئ عاصفةً بكلمة،
وقال بصوتٍ منخفضٍ عميق:

"صدق ما ترى، لا ما يُقال.
اللعنة لم تأتِ منّي، بل من الذين جعلوا الإيمان سلاحًا والرحمة قيدًا.
لم آتِ لأقاتل الكنيسة، بل لأُنقذها من يدٍ تلوثت بالدم."

سكت لحظة، ثم أخرج من عباءته ورقةً قديمة —
كانت إحدى صفحات ماركوس الأصلية،
التي كتب عليها بخط يده قبل موته جملةً واحدة:

"من أراد أن يعرف النور، فليبحث عنه في المشرق، لا في القصور."

أمسك يوهان الورقة بيدٍ مرتعشة.
قرأها أكثر من مرة، وصوت أنفاسه يتسارع.
أما والده، فظلّ يراقبه بعينين دامعتين،
كأنه يرى في ولده صراع أجيالٍ بأكملها بين الحقيقة والولاء.

أخيرًا قال يوهان بصوتٍ متهدّجٍ خافت:

"أحتاج إلى وقتٍ... لا أستطيع الحكم الآن.
سأسمعك ثانيةً مع الغروب."

ابتسم ثيودور لأول مرة منذ دخوله الأرض المقدسة،
وقال بصوتٍ عميقٍ حزين:

"الغروب يا يوهان... هو أكثر الأوقات وضوحًا،
لأنه آخر ما يفعله النور قبل أن يسلّم نفسه للظلام."

تبادل الثلاثة نظراتٍ طويلة،
ثم غادر ثيودور القاعة بخطواتٍ هادئةٍ نحو الخارج.
الريح كانت تحمل صوت الطائر من بعيد،
كأنه يعلن أن الفصل لم يُكتب بعد...
وأنّ الغروب القادم سيحمل قرارًا يُبدّل مصير المشرق بأكمله

ظلال الشك – رسائل نحو الدير الأكبر

خرج ثيودور من القاعة بعد لقائه بيوهان ووالده،
وجهه متصلّب، وعيناه الزرقاوان تشعّان في الظلّ كوميضٍ غامضٍ يعكس ضوء الفجر البارد.
كانت السماء تميل إلى الرماد، والضباب يلفّ المعسكر كوشاحٍ ثقيلٍ من الخوف.
سار بخطواتٍ بطيئة، يتلفّت كمن يسمع نداءاتٍ لا يسمعها أحد سواه،
حتى بلغ الساحة الصغرى حيث تنتشر نوبات الحرس في تبديلهم الصباحيّ.

هناك... لمح أحد الحراس جسده الممشوق،
وفي تلك العيون الزرقاء المألوفة،
تذكّر فورًا ما تردّد في الدير الأكبر منذ أسابيع —
عن الراهب الملعون ذي العينين الزرقاوين،
الذي يقوده طائرٌ غامضٌ، فيظهر أينما حلّت اللعنة.

اقترب الحارس منه بارتباك، قبضته تمسك رمحه بقوةٍ ظاهرة.
قال بصوتٍ حادٍ لكنه متردّد:

"أيها الراهب... لم أرَ وجهك من قبل هنا،
ومنذ متى يخدم في المشرق راهبٌ بعينين زرقاوين؟ لأيّ ديرٍ تتبع؟"

توقف ثيودور لحظة،
رفع رأسه ببطءٍ، وفي نظراته بريقُ ماضٍ ثقيل.
صوته خرج عميقًا، كأن الريح تنقله من زمنٍ آخر:

"أتبع الدير الأكبر... جئت في مأمورية تخصّ القداس القادم.
أنت تؤدي عملك بإخلاص، لكن هناك أعمالٌ لا تُسأل عنها."

غير أن الحارس لم يطمئن،
كانت يداه ترتجفان على مقبض رمحه،
كأنه يرى أمامه صورةً حيّةً من الروايات التي تملأ الجدران.
وفي اللحظة التي همَّ فيها بالكلام،
شقَّ السماء صُراخٌ حادٌّ للطائر — الحدأة.

كانت صرخةً تشبه الانفجار،
ارتعدت لها أركان المعسكر،
وارتفعت رؤوس الجنود جميعًا نحو السماء.
انخفض الحارس فجأة وهو يبحث عن مصدر الصوت،
لكن حين رفع رأسه ثانيةً...
كان ثيودور قد اختفى في الضباب كأن الأرض ابتلعته.

⊡

وقف الحارس مذهولًا،
عيناه الزرقاوان الباهتتان تقابلان أثر العيون الزرقاوين الأخريين في مخيلته.
همس لنفسه بخوفٍ مكتوم:

"إنه هو... الراهب الملعون... الطائر لم يُخطئ الهدف."

لم ينتظر طويلًا،
أسرع إلى الإسطبل وامتطى حصانه،
اندفع في الطريق الموحل المؤدي إلى الدير الأكبر.
الريح صفعت وجهه والبرد نخر عظامه،
لكنه لم يتوقف وهو يقول بصوتٍ متقطعٍ تغمره الرهبة:

"لابد أن يعرف الأنبا أوغسطين بما رأيت...

لابد أن تُقال الحقيقة قبل أن تُفلت من أيدينا."

وفي الأعالي،
كان الطائر يحلّق فوقه، جناحاه يقطعان الضباب بصرخاتٍ متتالية،
يتبعه بخطوطٍ دائريةٍ كأنه يرسم قدره...
قدرًا يقترب من الدير الأكبر كعاصفةٍ مقدّسةٍ تحمل الهلاك.

⊡

في الجانب الآخر من المشرق،
كان الكفيف يجلس مع الرجل ذي اللحية البيضاء — والد يوهان —
في غرفةٍ مظلمةٍ إلا من شعلةٍ ضعيفةٍ ترقص على الجدار.
صوته المبحوح اخترق السكون وهو يقول بهدوءٍ حزين:

"آن لك أن تعرف يا سيدي،
ثيودور ليس خائنًا ولا حامل لعنةٍ كما يزعمون.
إنه ابن إيليا، آخر من حمل سرّ النور.
لقد قتلوا ماركوس من أجله،
لأن ماركوس آوى أمَّه حين مرضت وهربت من بطش أوغسطين."

جلس الشيخ في صمتٍ مهيب،
عيناه الغائرتان تراقبان اللهب كمن يقرأ فيه تاريخًا من الندم.
همس بعد لحظةٍ طويلة:

"ماركوس... كان أطهر من أن يخطئ،
وها أنا أسمع أنهم محوا اسمه من الصلوات.
كيف يجرؤون على طمس البرّ ليقيموا عرش الشر؟"

تابع الكفيف، والدمعة تتلألأ في عينيه المعتمتين:

"أما رومان،
فقد جعلوه أداة إسحاق، خائنًا يُستحق النار،
لكن النار لم تأكله، بل صقلته كما تصقل السماء الحديد.
إنه اليوم مع ثيودور، يكملان ما بدأه إيليا وماركوس.
والحقائق التي دفنت تحت الحجر قد بدأت تتنفس من جديد."

رفع الشيخ رأسه نحو السقف،
وقال بصوتٍ هادئٍ تملؤه المهابة:

"أوغسطين بنى صرحًا في أقل من شهرين،
صرحًا من الحجارة والرماد،
لكن أساسه من دماء من ظلمهم.
سيأتي يومٌ تنشق فيه الحجارة وتصرخ بأسمائهم."

ابتسم الكفيف بمرارةٍ وقال:

"ذلك اليوم لن يتأخر يا سيدي.

فالنور لا يُدفن مهما طال ليله...
والبداية ستكون من هنا، من أرض المشرق ذاتها،
التي أرادها أوغسطين قبرًا للنور."

خارج الغرفة،
كانت الرياح تمرّ حاملةً من بعيد صرخة الحدأة الثانية،
أشدّ وأعمق من الأولى —
كأنها تنذر بأن الغد لن يحمل سلامًا... بل كشفًا مرعبًا جديدًا

– لقاء الغروب

(الجزء الثالث من رواية الراهب الصامت)

كانت شمس المشرق تميل إلى المغيب،
والأفق يغمره لونٌ نحاسيٌّ يشبه رماد نارٍ خمدت لتوّها.
النسيم يهبّ من بين النخيل، يحمل معه رائحة الأرض المبللة والانتظار الطويل.
في ساحةٍ صغيرةٍ خلف المعسكر، جلس يوهان وثيودور وحدهما،
بينما وقف الحُرّاس بعيدًا في صمتٍ يليق بالمساء الذي يوشك أن ينغلق على سرٍّ جديد.

رفع يوهان نظره إلى الراهب الصامت،
ثم قال بصوتٍ فيه مزيج من الحذر والصدق:

"لطالما كنت غامضًا بالنسبة لي، يا ثيودور.
صامتٌ لا تتكلم، تخفي وجهك عن الجميع،
ومع ذلك... كل من رآك من قبل قال إنك حسن الوجه،
ذا ملامحٍ تنطق بالسكينة.
لِمَ كنت تُخفيها؟ أتخشى الناس أم نفسك؟"

ساد لحظة من الصمت.
الريح مرّت بين الشجيرات،
والطائر – الحدأة – وقف على عمودٍ قريب، رأسه مائلٌ نحو الراهب كأنه يصغي أيضًا.

تنفّس ثيودور ببطء، ثم أزاح القناع عن وجهه للمرة الأولى منذ زمنٍ بعيد.
انعكست خيوط الشمس الأخيرة على عينيه الزرقاوين،
فبدتا كبحرٍ صغيرٍ يحمل في أعماقه ألف حكاية دفينة.
قال بصوتٍ مبحوحٍ متعب:

"لم أختفِ عن الناس يا يوهان... بل عن نفسي.
تربّيت وحيدًا، لا أعرف عن أهلي إلا أسماءً متناثرة.
قيل لي إنهم ضحّوا بي، ثم قيل إنهم باعوني،
فكبرت بين الظلال، لا أصدق أحدًا، ولا أجد وجهًا يشبه وجهي."

توقّف لحظة، ثم أضاف بصوتٍ أعمق،
كأن الكلمات تنزف من ذاكرته:

"حتى دخلت الدير الأكبر...
وهناك، وجدت المخطوطة، وكانت بداية اللعنة، أو ربما بداية الحقيقة.
في صفحاتها وجدت سيرة أبي إيليا،

الرجل الذي قالوا إنه تمرّد، لكنه في الحقيقة رفض أن يسجد للباطل.
وعرفت كيف ماتت أمي مريضة، بعد أن خبّأتني عن أعين من أرادوا موتي،
وكيف حمل ماركوس سرّها، وضحّى بنفسه كي لا يُكشف أمري.
ذلك الرجل... كان بطلًا صامتًا كما كنت أنا راهبًا صامتًا."

انحنى يوهان للأمام، عيناه تتسعان بدهشةٍ ووجعٍ في آنٍ واحد.
لكن ثيودور لم يتوقف:

"حتى إسحاق... الرجل الذي اتهموه بالتمرّد،
لم يكن إلا صوتًا يقول (لا) حين سكت الجميع.
قتلوه هو ورجاله لأنهم قالوا لا للقوة على الضعفاء،
وها هو رومان، صبيّ صغيرٌ كان يمكنه أن يهرب،
لكنه بقي، ضحّى بكل شيءٍ لجميل إسحاق عليه،
وكاد يموت ليحفظ سرًّا ليس له.
هؤلاء هم من علموني أن النور لا يُخاف،
وأن الصمت لا يعني الجبن... بل الصبر."

لم يجد يوهان جوابًا.
كانت كلماته تسقط في قلبه كحجارةٍ في بحيرةٍ هادئة،
كلّ واحدةٍ منها تثير دوائر أعمق من الوعي.

خفض رأسه،
وعيناه تتنقلان بين الأرض ووجه الراهب الذي كان يظنه أسطورة للعنه .
همس لنفسه:

"أبي كان على حقّ... لم تكن لعنة، بل مظلمة كبرى."

وبينما كان الليل ينزل ببطءٍ كستارٍ أسود،
دخل الرجل ذو اللحية البيضاء – والد يوهان – من خلف الشجيرات،
تتبعه رومان والكفيف بخطواتٍ بطيئةٍ كأنهم يدخلون محرابًا مقدّسًا.

وقف الجميع في دائرةٍ صغيرة،
وفي وسطهم ثيودور،
عيناه الزرقاوان تلمعان تحت ضوء الشعلة.
اقترب الشيخ من ابنه، وضع يده على كتفه وقال برقةٍ عميقة:

"الحق لا يُقال بالعصا يا يوهان، بل بالصدق.
هذا الرجل لم يأتِ ليدمّر، بل ليُنقذ ما تبقّى من النور."

عندها لم يتمالك يوهان نفسه،
اقترب بخطواتٍ مترددةٍ ثم عانق والده عناقًا طويلاً كأنهما ودّعا أعوامًا من الشك.
ثم التفت نحو ثيودور ومدّ يده قائلاً:

"لقد ضعت بين كلام أوغسطين وخوفي منه...
لكني اليوم أسمع الحقيقة من أفواهٍ لا تكذب.
سأكون معكم، لا ضدكم."

في تلك اللحظة دخل أنطونيوس،

وقف عند الباب يراقبهم بصمتٍ وقوة،
وفي عينيه مزيج من الفخر والقلق.

قال الشيخ بصوتٍ مهيبٍ هادئ:

"اجتمع النور من جديد... فلنحافظ عليه قبل أن تنفخ الريح رماده."

أما في البعيد،
فكان الحارس – ذاك الذي رأى ثيودور فجرًا –
قد وصل إلى أبواب الدير الأكبر،
غارقًا في الطين والعرق،
يرفع صوته للحراس وهو يصرخ:

"أريد مقابلة الأنبا أوغسطين...
وجدتُ الراهب الملعون... إنه هنا، في المشرق!"

وانغلقت الأبواب خلفه،
لتبدأ من تلك اللحظة أعظم مواجهةٍ بين الحقّ والسلطة،
بين النور والستار الذي يحاول خنقه.
وهكذا اتى غروبٍ لم يعرف بعد هل هو غروب نهار... أم غروب عهدٍ كامل

- [ ] الفصل السادس – حوار النورين

(الجزء الثالث من رواية الراهب الصامت)

كان الليل ساكنًا كأن الجبال نفسها تنصت.
في خيمةٍ صغيرةٍ على أطراف المعسكر،
جلس الرجل ذو اللحية البيضاء، والد يوهان، أمام ثيودور.
بينهما شعلةٌ خافتة، تترنح كأنها تخاف أن تنطفئ من ثقل ما سيُقال.

كان الشيخ يحدّق في وجه ثيودور طويلًا،
تلك العيون الزرقاء التي أرهقها الصمت،
والسكون الذي يحيط به كستارٍ من الحزن والسكينة معًا.

قال الشيخ بصوتٍ هادئٍ عميقٍ، فيه هيبة السنين:

"يا ثيودور... لقد سمعت عنك أكثر مما رأيتك.
قيل لي إنك قضيت عمرك في العزلة، بين الكتب والصلوات،
وإنك لم تترك أثرًا إلا في عقول من عرفوك... ثم اختفيت.
فقل لي، على ماذا أفنيت شبابك؟ ما الذي كان يُبقيك حيًّا في هذا الصمت؟"

رفع ثيودور رأسه ببطء،
كانت عيناه تلمعان في الضوء الضعيف كمرآتين غارقتين في الذكرى.
ثم أجاب بصوتٍ عميقٍ هادئٍ:

"قضيت عمري في طلب الفهم، لا المجد.
كنتُ أبحث عن الله في العقل، كما أبحث عنه في الصلاة.
درستُ لغاتٍ لم يتقنها أحد في ديري، قرأت مخطوطاتٍ نُسيت،

وتعلمتُ كيف أترجم الرموز القديمة التي لا يعرفها إلا من عاش عمرًا بين السطور."

توقف لحظةً، وراح ينظر إلى الشعلة كمن يرى فيها ماضيه:

"كنتُ أقرأ للفلاسفة والعلماء...
أرسطو، وأوغسطين الأول، وإيليا الحكيم،
كنتُ أستيقظ قبل الفجر لأكتب ما يفلت من عقلي قبل أن يستيقظ الجسد.
لم يكن لي رفاقٌ ولا إخوةٌ في الطريق،
كانت وحدتي هي أماني، وعملي هو عزائي."

تنهد الشيخ ببطء، وقال بنبرةٍ فيها إعجابٌ وشفقة:

"أضعت وحدتك في العمل إذًا؟"

ابتسم ثيودور ابتسامةً باهتة، وقال:

"بل وجدت فيها معنى العمل.
فالعالم لا يُفتح بالسيوف فقط، بل بالمعرفة أيضًا.
ولو علم الناس ما في العلم من خلاصٍ،
لما خافوا من الحكمة، ولا حاربوا من يطلبها."

سكت الاثنان طويلًا،
كأن الزمن توقف بين أنفاسهما،
ثم رفع الشيخ عينيه نحو السماء وقال بهدوءٍ يشبه الدعاء:

"ربما جمعنا الله يا بنيّ لا لنكشف السر، بل لنُعيد للحقيقة صوتها بعد طول صمت."

أطرق ثيودور رأسه احترامًا،
ولم يقل شيئًا...
لكن في أعماقه كانت النار تشتعل من جديد،
نار العِلم، والإيمان، والواجب.

وهكذا انتهت تلك الجلسة الأولى،
جلسةٌ لم يُرفع فيها سيف،
لكنها كانت أثقل من ألف معركة.
ففيها بدأ الضوء يلتقي بالضوء،
والحكمة القديمة تُسلِّم وصيتها إلى من سيُكمل الطريق

نُذر الدماء في المشرق

(الجزء الثالث من رواية الراهب الصامت)

كان الفجر في الدير الأكبر ثقيلاً، كأنه ينهض على جثث أحلامٍ متيبّسة.
استيقظ الأنبا أوغسطين باكرًا على غير عادته، وجهه متعب لكن عيناه تشتعلان بقلقٍ خفيّ.
طرق الباب ثلاث مرات، ودخل القائدُ بخطواتٍ حادةٍ كالسيوف.
كان يحمل نظرات رجلٍ يعرف أن الليلة الماضية لم تكن هادئة كما بدت.

رفع أوغسطين رأسه وقال بصوتٍ منخفضٍ، فيه غضبٌ مكتوم:

"أحضروا الجندي الذي عاد من المشرق... الآن."

دخل الجندي، ثيابه مبللة بالمطر ، وجهه شاحب،
لكنه كان يحمل في عينيه بريقَ مَن رأى شيئًا يفوق قدرته على الاحتمال.

تقدّم وانحنى أمام الأنبا، وقال بصوتٍ مضطربٍ:

"سيدي... لقد رأيتُ الراهبَ... الراهبَ الصامت... والطائرَ كان فوقه.
جلسوا في بيتٍ صغيرٍ في أرض المشرق، ومعهم رجلٌ كفيف...
ومعهم أيضًا الراهب يوهان ووالده ذو اللحية البيضاء أب المشرق القديم ، وأحد أشراف الوفد الكنسي."

تجمّد القائد في مكانه، بينما انحنى أوغسطين للأمام ببطءٍ كمن يتذوق كلمة "يوهان".
ثم رفع رأسه وابتسم ابتسامةً باردة، وقال بنبرةٍ كأنها نصلٌ يخترق الصمت:

"إذًا... الرجل ذو اللحية البيضاء من الأشراف هو من جعله يخون.
لن ننتظر أن تصل أخبارهم إلى الكنيسة، ولا إلى الأشراف.
أريد أن يُمحى أثرهم قبل أن يُشرق النهار."

أومأ القائد وقال بحزمٍ حديديّ:

"سأجمع أقوى جنودي... وكتائب كاملة.
سنطوّق أرض المشرق من كل اتجاه، حتى لو احترقت الأرض بمن فيها."

ابتسم أوغسطين وهو يضم يديه، كمن يبارك الشرّ بصلاته،
ثم قال:

"ليُختم هذا الصمت بالدماء... فالصمت لا يُغسل إلا بالنار."

⊡

سماء المشرق – نذير الطائر

في تلك الساعة نفسها، كان الطائر – الحدأة يحلّق فوق أرض المشرق.
صوته اخترق السماء كصفّارة حربٍ لا يسمعها إلا من اقترب من قدره.
حلّق في دوائر واسعة، ثم انقضّ فجأة من ارتفاعٍ شاهق،
حتى أصبح ظلّه يخترق الخيام والساحات كرمزٍ من نارٍ على التراب.

رفع ثيودور رأسه، وشعر بقلبه يخفق بقوة.
لم يكن نداء الطائر هذه المرة مثل كل مرة...
كان حادًا، مُرتبكًا، كأنه إنذارٌ شديد اللهجة.

فتح ثيودور المخطوطة على عجل،
فما إن فتحها حتى وقف الطائر على كتفه بهدوءٍ مهيب،
كأنهما كيانٌ واحد – الحكمة والقدر في جسدٍ واحد.
كانت العيون الحمراء للطائر تعكس ضوء الفجر الجديد،
وفي الصفحة المفتوحة من المخطوطة ظهر رسمٌ لم يفهمه أحد من قبل:

رمزٌ لسفينةٍ تتحرك باتجاه ماءٍ غامق، وحولها خيوطٌ من الدم.

تمتم الكفيف بصوتٍ مرتجف:

"الرمز واضح... الدماء ستسيل... والبحر سيبتلع من تبقّى من الصادقين."

أما أنطونيوس، فقبض على سيفه وقال بصرامة:

"إن كان الطائر نذيرًا، فالنذير لا يُخطئ. أوغسطين قادم، وعلينا أن نتحرك قبل أن يُغلق علينا الفخ."

⊡

التحذير الأخير

في تلك اللحظة، اقترب والد يوهان بخطواتٍ سريعةٍ رغم وقاره،
وجهه شاحب، وصوته يحمل خوفًا لم يعرفه من قبل.
قال وهو يلهث:

"لقد وصل الخائن إلى أوغسطين... هناك من أرسل إليه رسالةً بأنكم هنا.
لن تمرّ ساعات حتى يُحاصر المكان من كل اتجاه."

أمسك ثيودور بيده، وقال بجديةٍ هادئة:

"هل من طريقٍ آمن؟ لن نترك من معنا يُبادون من أجلنا."

أجاب الشيخ بنبرةٍ قاطعةٍ:

"هناك ممرٌّ قديم خلف الجبال، لا يعرفه إلا الرهبان الأوائل.
يؤدي إلى أرض البحيرات، أرضٌ بعيدة لا تصلها كتائب القائد.
ستخرجون الليلة دون علم أحد من أهل المشرق.
اذهبوا الآن، فالوقت لم يعد لنا."

نظر ثيودور إلى الطائر، ففتح جناحيه فجأة وانطلق نحو الشرق،
كأنه يرشدهم إلى الطريق، أو كأنه يودّعهم قبل العاصفة.

وبينما كانت المجموعة تتحرك في الظلام،
ارتفعت من بعيد أصوات الطبول والخيول —
كتائب أوغسطين كانت بالفعل في الطريق،
تسير على صدى نبوءةٍ قديمةٍ كتبتها النار:

"من سار ضد النور، تلتهمه الظلال."

هكذا انتهى اليوم على مشهد خروجهم من ممرّ المشرق نحو أرض البحيرات،
فيما السماء من فوقهم تشتعل بضوءٍ أحمر،
والطائر يختفي في الأفق كعلامةٍ أخيرة قبل بدء الحرب الكبرى

✨ انتهى الفصل الخامس

- [ ] الفصل السادس – أرض البحيرات
: تأسيس الملجأ

خرجت المجموعة من الممرّ الضيّق مع أول خيوط الفجر، والندى يلمع على الصخور كحبات زجاجٍ باردة.
من خلفهم كانت ظلال الجبال تتراجع، ومن أمامهم امتدّ عالمٌ جديد — أرضٌ تملؤها البحيرات، يتصاعد منها بخارٌ أبيض كأنها أنفاس الأرض نفسها.
الماء يحيط بالمكان من ثلاث جهات، والضباب يغطي الأفق حتى تبدو الأشجار البعيدة كأشباحٍ صامتة.

هناك، عند التقاء ضفّتين، قرّروا أن يجعلوا هذه الأرض موطنًا لهم، مكانًا لا تصله الأيدي ولا العيون.
أرض البحيرات كانت موحشة، لكن في وحشتها أمان.
صوت الطائر كان يأتي من بعيد، لا يُرى إلا كشبحٍ أسود في سماءٍ رمادية، وكأنّه يبارك هذا الاختيار أو يختبره.

بأمر من والد يوهان، أُرسل عدد من الجنود الأوفياء إلى تلك البقعة، رجالٌ يعرف ولاءهم ولا يشكّ في نياتهم.
سلّمهم لقيادة أنطونيوس، الذي صار القائد العسكري للمجموعة، حازمًا في قراراته، لا يتحدث كثيرًا، لكن صمته وحده كان كافيًا لإلهام الطاعة في القلوب.

أما ثيودور، فقد صار الأب الروحي لهم، يُرشدهم ويُنظم حياتهم داخل تلك الأرض.
كلماته لم تكن أوامر، بل كانت كتعويذات تحفظ القلوب من الخوف، تزرع فيهم يقينًا بأن هذه الأرض لن تكون هروبًا... بل بداية جديدة.

عمل الجميع بجدٍ صامتٍ لأيامٍ متواصلة.
قطعوا الأخشاب من الغابة المحيطة، وأقاموا الأكواخ الأولى فوق المرتفعات الصغيرة، ثم حفروا خندقًا دائريًّا حول المكان ليصبح كالحصن وسط الماء.
أقاموا برجًا خشبيًّا صغيرًا للمراقبة، ووضع أنطونيوس فيه رجلين بالتناوب كل ليلة.

الجنود الهاربون وجدوا في هذا المكان معنى جديدًا للانتماء، أما رومان فكان بين الناس لا يفارقهم، يعمل، يضحك، ويخفي في عينيه خوفًا لا يراه أحد.

في نهاية اليوم الرابع، وقف ثيودور عند حافة البحيرة، الماء يلمس قدميه، والطائر يحلّق في الأعالي فوق رؤوسهم،
نظر إلى انعكاس وجهه في الماء، وهمس بصوتٍ خافتٍ كأنه يصلي:

"ليكن هذا ملاذنا... وموضع عهدٍ جديد، ما دمنا نحمل السر ونحيا لأجله."

وبذلك أصبحت أرض البحيرات حصنهم الأول،
ملجأً لا تدخله جيوش أو لصوص،
بل تُظلّله روحٌ واحدة — بين الإيمان... والانتقام

النار في المشرق

كانت شمس المشرق تغيب بلونٍ دمويّ، كأنها تُمهّد لمشهدٍ لا يليق إلا بالعاصفة.
هدير الطبول يملأ الأفق، وجلبة الخيول تصمّ الآذان.
كتائب أوغسطين وصلت...
صفوفٌ متتابعة من الجنود المدججين بالسلاح، دروعهم تلمع كأنها جدارٌ من حديدٍ يطوّق السماء، وأعلام الدير الكبير تخفق فوقهم.

خلال ساعاتٍ قليلة، كانت أرض المشرق — رغم اتساعها وقوّتها — محاصرة من كل الجهات.
البيوت أُغلقت، الأسواق فرغت من الناس، وصوت الأوامر يعلو في الساحات:

"لا أحد يغادر! لا أحد يتكلم باسم الكنيسة إلا بإذن الأنبا أوغسطين!"

في ساحةٍ فسيحة أمام بوابة الدير، وقف حرس المشرق بصفوفٍ متراصةٍ في مواجهة القائد ورجاله.
الهواء مشحونٌ بالكهرباء، والعيون متقابلة كالسيوف قبل الارتطام.
كان منظرهم مهيبًا — رجالٌ يحملون سيوفًا قديمة لكنها ثابتة بين أيديهم، يقفون لا من أجل النصر، بل من أجل الكرامة.

تقدّم أوغسطين ببطءٍ متعمد، عباءته السوداء تجرّ خلفها تراب الساحة.
وعلى بعد خطوات، كان يوهان ووالده، الرجل ذو اللحية البيضاء، ينتظرانه بثباتٍ مهيب، بينهما صمتٌ أثقل من الحديد.
أما يوهان، فقد بدا كمن يقف بين عالمين — بين الوفاء القديم لأستاذه، والإيمان الجديد بصوت الحق الذي بدأ يراه في والده وثيودور.

رفع أوغسطين صوته القوي، صدى كلماته ارتطم بجدران الدير:

"أيها الأشراف... جئت لأستعيد النظام لا لأقاتل! جئت لأن الخيانة تسرّبت إلى بيت الرب. راهبٌ ملعون، وطائرٌ رجيم، وكفيفٌ يضلّل الأبرياء، وابنك يا رجل اللحية البيضاء تجرّأ على حماية هؤلاء. أين إيمانك بالكنيسة؟!"

لم يردّ الشيخ فورًا.
تقدّم خطوة، عصاه تضرب الأرض كأنها تصحّح نغمة الكون، وصوته خرج عميقًا مزلزلًا:

"إيماني بالحقّ لا بالأشخاص، يا أوغسطين.
أنتَ تنطق باسم الكنيسة، لكنك دنّستها بدماء الأبرياء.
ما جرى لماركوس لم يكن قضاء الربّ، بل طغيانك أنتَ.
قلتَ إنك تبني صرحًا، لكنك لم تبنِ إلا مقبرةً من الخوف."

ارتجف وجه القائد بجواره، لكن أوغسطين لم يتحرك.
ابتسم ببرودٍ يثير القشعريرة وقال:

"كلامك جميل يا شيخ، لكنه لا يُنقذ الخائنين.
من في قلبه نارٌ غير نار الإيمان، فالنار ستأكله.
والكنيسة لا تعترف بدموع الرجال، بل بطاعتهم."

في تلك اللحظة، أشار القائد بيده، فجُلِب الجندي الذي رأى ثيودور والطائر.
كان شاحب الوجه، يده ترتجف، عيناه تبحثان عن مخرجٍ من الجحيم.
صرخ فيه أوغسطين:

"قل لهم ما رأيت! أمام الأشراف والآباء!"

أجاب الجندي بصوتٍ متقطعٍ من الرعب:

"رأيته بعيني... الراهب الصامت، كان هناك... في بيتٍ هنا ومعه الطائر، عيناه زرقاوان كالنار الزرقاء.كانو مع السيد يوهان .. هو الملعون بعينه!"

دوّى همسٌ بين الصفوف، وارتفعت بعض الصرخات الخافتة.
لكن الشيخ ذو اللحية البيضاء مدّ يده رافعًا صوته:

"كفى!
لا تذكر اسم الربّ وتخلط به الأكاذيب!
هذا الجندي رأى ظلًّا، لا روحًا.

واللعنات لا تنزل إلا على من صنعوها.
أنت من خلقت اللعنة يا أوغسطين، بيدك لا بيد غيرك!"

كان الصراع قد بلغ ذروته.
وجوه الجنود توترت، بعضهم تراجع خطوة، والسماء بدأت تغيم من جديد كأنها تتهيأ للمطر أو للنار.
يوهان وقف بين أبيه وأوغسطين، عيناه تمتلئان بالدموع — لم يعد يدري إلى أي طريقٍ ينتمي.
أبيه يناديه باسم النور، وأوغسطين يذكّره بعهده القديم... عهد الطاعة والقداسة المزيّفة.

أوغسطين اقترب من الرجل العجوز حتى صارت أنفاسهما تتلاقى،
وقال بصوتٍ منخفضٍ لكنه كالسيف:

"تذكّر هذا اليوم يا شيخ،
فاليوم ستعرف من يحكم المشرق... ومن يكتب التاريخ."

ردّ عليه العجوز دون خوف:

"والتاريخ لا يكتبه إلا من عاش بعد العاصفة، وأنتَ لن تعيش طويلاً يا أوغسطين."

ساد صمتٌ رهيب، لا يُسمع فيه إلا أنين الريح.
العيون التقت، والسماء اشتعلت بوميض برقٍ مفاجئٍ كأنه نذير غضبٍ سماوي.
أما يوهان، فظلّ واقفًا بينهما، صامتًا، رأسه منحنٍ، كأنه ينتظر أن تنشقّ الأرض وتبتلع هذا الصراع بين النور والظلام

؛ميل الكفّ نحو الظلام

سكنت الساحة لحظاتٍ، كأن الهواء ذاته توقف ينتظر قرار السماء.
وقف الجميع في صمتٍ مريب، لا يسمع سوى صرير الدروع، وأنفاس الخيول، وصرير رياحٍ ساخنة تمرّ كأنها تحكّ جدار الزمن.
أوغسطين لم يتحرك، عيناه تلمعان كالحديدة المسنونة، بينما العجوز ذو اللحية البيضاء ظلّ شامخًا أمامه لا يلين.

لكن في تلك اللحظة، حدث ما لم يتوقعه أحد —
أوغسطين رفع يده ببطءٍ شديد، ثم أمال كفّه إلى اليسار إمالةً بسيطة...
إشارة قصيرة، لكنها كانت كافية لتتحوّل الساحة إلى جحيمٍ حيّ.

دوّى صوت الأبواق من كل الجهات،
واندفعت الكتائب الحديدية كالموج،
اصطدمت الصفوف، وتعالت الصرخات،
تطاير الغبار، وارتجّت الأرض تحت وقع الأقدام.

القائد صاح بأوامر سريعة:

"أغلقوا البوابة الشرقية! لا تدعوا أحدًا يفرّ!

السماء انشقت بالمطر، والعاصفة تزمجر فوق أرض المشرق كأنها تصبّ غضبها على الجميع.
لم تكن معركةً بل طوفانًا من الحديد والنار.
تشقّقت الأرض تحت سنابك الخيول، وتطاير الشرر من السيوف حين اصطدمت كأنها برقٌ يضرب قلب الجبل.

في وسط هذا الجنون، كان أوغسطين واقفًا كتمثالٍ شيطانيٍّ من الصخر،
عباءته السوداء تلتصق بجسده المبتلّ،
وعيناه – السوداوان الواسعتان – تلمعان ببرودٍ قاتلٍ لا تعرف الخوف ولا الندم.

كلّ من يراه يدرك أنه لا يقاتل من أجل الرب، بل من أجل أن يصبح هو الربّ فوق هذه الأرض.

رفع يده ببطءٍ، ومال بكفّه إلى الجانب...
فانفجر الجحيم.

صاح القائد بصوتٍ يخترق الرعد:

"اقتلوا كل من يعترض طريقكم! لا أسرى اليوم!"

الكتائب تدفقت من كل الجهات،
النار أكلت الخيام، والدم اختلط بالطين والماء.
تساقط الرجال كالأوراق في ريحٍ غاضبة،
وصارت الساحة بحرًا من الصراخ والرماد.

في تلك اللحظة، استغل الرجل ذو اللحية البيضاء الفوضى،
كان يعرف جيدًا أي بوابة لم تصلها بعد يد القائد،
البوابة الجنوبية التي احتفظ بجنودٍ أوفياء له يحرسونها في صمتٍ بأمرٍ قديم.
شقّ طريقه بصعوبةٍ وسط الدماء، يحمل صليبه الصغير في صدره كأنما يحمل وطنًا من الذكريات.
وحين وصل، فتحت البوابة أمامه دون صوت،
ومن هناك فرّ مع رجاله إلى الطريق المؤدي للكنيسة الكبرى،
قسمٌ في قلبه يحترق: أن يُخبر العالم كله بالحقيقة،
عن المجزرة، عن الدم، عن الراهب الصامت، وعن الوجه الحقيقي للقدّيس الزائف أوغسطين.

أما يوهان، فقد كان القدر أكثر قسوة معه.
التفّ حوله جنود القائد، أمسكوا به من ذراعيه،
سحبوه على الأرض الموحلة حتى وقف أمام أوغسطين.
المطر كان يضرب وجهه، شعره يلتصق بعينيه،
لكنه لم يرَ سوى تلك النظرات السوداء التي تُميت القلوب قبل الأجساد.

لم يتكلم أوغسطين أولاً.
اقترب بخطواتٍ بطيئة، والماء يتقطر من أطراف عباءته.
تأمل يوهان طويلاً، ثم قال بصوتٍ يشبه حفيف المقابر:

"كنتَ رسولي، يا يوهان... حملتَ رسائلي، وأطعمتَ يديّ بما أردت.
فمنذ متى بدأ الإيمان عندك يتحدث بلغة العصيان؟"

ارتجف الشاب، نظر إلى الأرض، ثم إلى السماء التي لا تجيب.
كل شيءٍ فيه كان يريد أن يصرخ "كفى"،
لكن بين الرعد والسيوف، لم يسمع إلا صوته الداخلي يهمس بخوفٍ من النهاية:

"إن لم أنحنِ... سأُقتل."

رفع رأسه أخيرًا، وصوته خرج ضعيفًا، مبللاً كالندى فوق رماد:

"أنا خادمك، يا أبي... وسأبقى طائعًا ما حييت."

ابتسم أوغسطين، ابتسامةً باردة، أقرب إلى جرحٍ في وجه الليل،
ثم مدّ يده، ووضعها على كتف الشاب، وقال:

"الولاء لا يُقال يا يوهان... الولاء يُبرهن بالدم."

من حولهم كانت الجثث تتناثر كالحجارة،
والعاصفة لا تهدأ،
والقائد ينفّذ أوامره بلا رحمة – لا أسرى، لا صوت يعلو فوق صرخة الموت.

وحين حلّ المساء،
كانت المشرق قد سقطت تحت سيطرة أوغسطين الكاملة،
كأن الظلام نفسه قد بايعه.
لكن بين صفوف الموتى، كانت هناك أعينٌ لا تزال حيّة،
ترى، وتنتظر...
ربما لليوم الذي تُقلب فيه الكفّ مرة أخرى — هذه المرّة، نحو النور
✨ انتهى الفصل السادس

- [ ] الفصل السابع: معالم الفجر

لم يكن فجر المشرق فجرًا كأي فجرٍ مضى.
السماء رمادية، محمّلة ببقايا العاصفة،
والأرض تئنّ تحت أقدام الجنود وهم يعيدون ما تهدّم بالأمس القريب.
الماء جرف الدماء، والريح حملت رائحة الحريق بعيدًا،
لكن ما لا يُمحى كان الخوف — الخوف الذي صار يسكن في كل زاويةٍ من أرض المشرق.

وقف الأنبا أوغسطين على شرفة القاعة العالية،
ينظر إلى جنوده المنتشرين بين السهول،
وإلى الأعلام الجديدة التي تُرفع في كل ساريةٍ فوق المعابد والمزارع.
كان يعلم أن الأرض التي أُريق فيها الدم قد أصبحت له.
رفع يده وقال بصوتٍ كمن يُقسم عهدًا مقدسًا:

"من هذا اليوم، أرض المشرق تحت ولايتي،
باسم الدير الأعظم، وباسم الكنيسة التي أخلصتُ لها حياتي.
سأجعلها صرحًا جديدًا، شاهدًا على ولاء من بقي، وعبرةً لمن خان."

ومن هناك، أعلن ضمّ أرض المشرق رسميًا إلى ديره،
وجعل عليها قائدًا جديدًا — رجلًا من أكثر رجاله قسوةً وولاءً،
يدعى فان.

كان فان أشبه بنسخةٍ باهتة من القائد القديم،
لكن في عينيه بريق طاعةٍ مطلقةٍ لا يلين،
وقلبه غليظ لا يعرف الرحمة.
أقسم أمام أوغسطين بأن يجعل المشرق حصنًا لا يخترقه أحد،
وأن يُطهّرها من "بقايا اللعنة" كما سماها أوغسطين.

أما قائد الحرس القديم،
فبقي في موقعه المقرّب من أوغسطين — ذراعه اليمنى التي لا تُستبدل.
كانت الأوامر بينهما لا تحتاج كلامًا؛ نظراتٌ فقط تكفي لتتحرك الجيوش.

وفي الوقت نفسه...
كان الرجل ذو اللحية البيضاء، والد يوهان،
قد فرّ بالفعل من المشرق قبل ساعاتٍ من شروق الشمس،
يحمل ما استطاع من الحقائق، متجهًا نحو الكنيسة الكبرى
ليفضح أوغسطين ويكشف جرائمه

في ممرٍ جبلي ضيق، وبين صخورٍ غارقةٍ في الطين والدم،
كان الرجل ذو اللحية البيضاء – والد يوهان – يحاول الهرب من أرض المشرق،
قاصدًا الكنيسة الكبرى ليحمل إليها الحقيقة الكاملة عن أوغسطين وخداعه.

لكن سهمًا غادرًا لحقه أولًا،
ثم رمحًا أصابه في جنبه الأيمن، اخترق جسده ومزّق ردائه.
لم يسقط فورًا... بل تمايل وهو يقاوم الألم،
عيناه لا تزالان تبحثان عن النور وسط عتمة المطر.

تقدّم نحوه أحد الصيادين الذين أرسلهم فان – القائد الجديد لأرض المشرق –،
كانت مهمتهم واضحة:

"إن وُجد ذو اللحية البيضاء... يُقتل فورًا، ويدفن بعيدًا عن العيون."

لكن القدر كان أسرع من الرمح.
إذ انزلقت قدماه على صخرةٍ مبللة، فسقط إلى أسفل المنحدر،
حيث جرفته مياه البحيرات الجانبية، الباردة والموحلة.
كان جسده يتلوى وسط الطين والماء،
عيناه تلمعان بالرجاء الأخير في أن يصل لأحد... لأيّ أحد.

وفي تلك اللحظات،
كان أحد رجال أنطونيوس يجمع الموارد من أطراف أرض البحيرات.
سمع صوت ارتطامٍ، فركض نحو مصدره،
ليجد جسدًا نصف غارقٍ في الماء،
ورجلًا ذا لحيةٍ بيضاء طويلةٍ مغطاةٍ بالدم والطين،
يحاول أن يرفع رأسه بصعوبةٍ بالغة.

اقترب منه، حمله على كتفيه رغم ضعفه،
وسار به في المطر مسافات طويلة،
كل خطوةٍ منه كانت كأنها صراعٌ بين الحياة والموت.

لكن حين وصل أخيرًا إلى أطراف المعسكر،
تجمّد الجسد بين يديه،
وهمس الرجل ذو اللحية البيضاء بصوتٍ مبحوحٍ بالكاد يُسمع:

"أخبِر... ثيودور... سقط المشرق ...بيد الكاهن... أوغسطين..."

ثم سكنت أنفاسه.
انطفأت عيناه، وارتخت ذراعاه.
سقط رأسه إلى الخلف كمن ألقى بكل ما فيه من ألمٍ إلى السماء.

ركض الجندي إلى خيمة أنطونيوس وهو يصرخ:

"لقد حاولت... حملته... لكنه مات بين ذراعي."

خرج ثيودور، ورومان خلفه، والكفيف يجرّ أنفاسه الثقيلة.
نظروا إلى الجسد الملفوف في العباءة،
وخيّم الصمت —— صمتٌ فيه حزنٌ، وندم، ووعدٌ بالانتقام.

أمر ثيودور بدفنه قرب ضفة البحيرات،
وقال بصوتٍ متهدجٍ وهو يضع على صدره علامة الصليب:

"نم بسلام، أيها الرجل النقي... ستُقال كلمتك، وإن تأخّر صداها."

⊡

النقطة الثانية – أرض المشرق تنهض من رمادها

في تلك الأثناء، كانت أرض المشرق تتبدل كأن شيئًا لم يحدث.
أوغسطين، بوجهه الهادئ الماكر، عاد يسير بين صفوف العمّال والجنود،
يحمل في يده عصًا مزخرفة برمز الدير الكبير،
وعيناه تتفحصان كل حجرٍ يُبنى وكل علمٍ يُرفع.

الصرح الجديد الذي كان يومًا ساحةً للمعركة،
تحوّل خلال أيامٍ إلى مدينةٍ منظمةٍ من الطاعة والخوف.
الشوارع نُظفت من الدم،
الجدران طُليت بالشعارات،
والناس أجبروا على ترديد تراتيل الولاء صباحًا ومساءً.

في قاعة المجلس،
وقف أوغسطين يخطب أمام رجاله، صوته يجلجل كالأجراس:

"لقد طهّرنا الأرض من الملعونين.
واليوم، تعود المشرق إلى نور الرب،
وتحت ظل الكنيسة، لا فساد بعد اليوم!"

صفّق الحاضرون كأنهم لا يملكون إلا التصفيق،
لكنّ نظرات الخوف كانت أقوى من أصواتهم.

⊡

– ميلاد فان، ذراع الظلام الجديد

في وسط القاعة،
تقدّم رجلٌ ضخم الجسد، عريض المنكبين،
ملامحه قاسية كأنها منحوتة من الحديد —— فان.

أمسك أوغسطين بيده ورفعه أمام الحشود قائلاً:

"هذا هو القائد الجديد لأرض المشرق،
من اليوم، يُنفذ إرادتي،
وتكون له السلطة المطلقة على الأرض والناس."

انحنى فان باحترامٍ زائف،
وعيناه لا تحملان إلا الطاعة العمياء.
كان يشبه القائد القديم في شدته،
لكنّ قلبه أكثر قسوة، ولسانه أقل كلامًا

رواية الكذب الكبرى

سبق أوغسطين الجميع،
غادر المشرق متجهًا إلى الكنيسة الكبرى،
حاملاً معه تقارير مكتوبة وممهورة بخاتم الدير.

وقف أمام الشيوخ والعلماء والآباء،
وجهه مشرق بالنفاق المقدس،
وصوته يفيض ورعًا وهدوءًا:

"أرض المشرق عادت للكنيسة،
ولكن بثمنٍ باهظٍ...
فقد خانني أحد الأشراف، الرجل ذو اللحية البيضاء.
صدّق الراهب الملعون وتبع لعنتهم،
فحلّت عليه اللعنة ومات كما يموت كل خائن."

تبادلت الوجوه النظرات،
والشيوخ أومأوا بحزنٍ مفتعلٍ وهم يتمتمون بالصلاة.
أما أوغسطين،
فرفع رأسه بثقةٍ وقال وهو يغادر القاعة ببطء:

"اللعنة لا تُصيب إلا من تبع الملعون."

وخارج أسوار الكنيسة،
كانت الحدأة تحلق في السماء البعيدة،
تصرخ بصوتٍ غامضٍ لا يسمعه أحد،
إلا ثيودور، في مكانٍ آخر من البحيرات،
حين رفع رأسه وقال في صمتٍ حزين:

"اللعنة الحقيقية... هي أن يصدّق الناس الكاذب."
✨ انتهى الفصل السابع

- [ ] الفصل الثامن – أرض البحيرات

كانت أرض البحيرات قد تغيّرت ملامحها كليًا منذ أن استقر فيها الناجون.
فبعد الهروب الطويل من المشرق، صارت هذه الأرض الهادئة — التي تحيطها المياه من كل الجهات — أشبه بحصنٍ طبيعيٍّ تحميه الطبيعة قبل السيوف.

تحت راية القائد أنطونيوس، بدأ النظام يتشكل من جديد:
الخيام نُصبت على هيئة صفوفٍ مرتبة،
الأبراج الخشبية بُنيت على التلال لمراقبة الممرات،
وصوت المطرقة فوق الخشب كان لا يتوقف — علامة حياةٍ وسط الخراب.

أما ثيودور، فقد أصبح القلب الروحيّ للمكان.
كل من نجا من بطش اوغسطين أو من دمار المشرق، وجد فيه ملاذًا وسندًا.
كان يجلس في منتصف المعسكر، وجهه مغطى جزئيًا كعادته،
لكن صوته الهادئ كان يبعث الطمأنينة حتى في أحلك اللحظات.

في الليل، حين تسكن الرياح وتنعكس نار الحراسة على صفحة البحيرة،
كان الجنود يلتفون حوله يستمعون إلى صلواته وكلماته عن الصبر والإيمان،
بينما أنطونيوس يتفقد الحراسة،
وعيناه تتأمل الماء الذي صار حدودهم وسجنهم في آنٍ واحد.

لقد أصبحت أرض البحيرات تحت حكمٍ مزدوجٍ من القوة والإيمان:
قوة أنطونيوس الحديدية،
وروح ثيودور التي تضيء بين الظلال.

وكلّ من فيها — من الجرحى، والجنود، والرهبان الهاربين —
كان يعلم أن هذه الأرض لم تعد مجرد مأوى مؤقت،
بل صارت آخر بقعةٍ يقف عليها الأحياء من أتباع الحق،
في انتظار العاصفة القادمة.

وهنا... توقّف الزمن قليلًا، كأن البحيرات نفسها تحبس أنفاسها لما هو آتٍ

: إشاره الطائر

حلّق الحدأة فوق البرج بحركاتٍ غير متوقعة — دوائرٍ متقاربة ثم مفاجِئ انزلاقٌ جهة الشرق، فأربك حارسي المراقبة. رفع أحدهما الصافرة تنبيهًا، لكن صوت الريح غطّى على الصخب. لم يكن ذلك مجرد طائر، بل إشارةٌ تفتّق عن رمزٍ قديمٍ تعلمه ثيودور من صفحات المخطوطة.

اقترب ثيودور من حافة البرج، عيناه تتابعان مسارات الطائر بدقّة، ثم همس لأنطونيوس بهدوءٍ صارم:

"الرموز تقول إن حلّقته بهذه الصورة ليست نذير حربٍ قادم، بل رسالة: القادم لنا — إما من أبناء دارنا أو من غريب لا يعلم شيئًا عن الحشود هنا. لا نعلن العداوة فورًا. دعونا نختبرهم."

ركّب أنطونيوس خطّةً بسيطة: استقبال حيادٍ أولًا، مراقبة ردود الفعل، ثم الكشف التدريجي. نزل رجال الاستطلاع إلى الضباب، اقتربوا من الظلال التي تراكمت عند شَطّ الغابة، ونادوا بصوت خافتٍ: "من أنتم؟" — فأجابهم رجالٌ مرهقون، أصواتهم معلّلة بالخوف والحنين: "جنودٌ... آخر كتيبةٍ بَقيت من رجال ذو اللحية البيضاء... هربنا من فان... ومن أوغسطين."

اللقاء تحوّل إلى مجلس سردٍ حول النار. جلست الوجوه المتباينة: من نجا من بطش فان، ومن أتى هروبًا من سطوة أوغسطين، ومن ضاع في طرقات المشرق حتى وجده الطائر هذا المساء. حكوا كيف تسلل فان بعد انسحاب أوغسطين بطريقةٍ تكاد تقول إنّ الأرض صارت له، كيف رفعت رايات دير أوغسطين فوق الساحات كما لو لا أثر للمعركة، وكيف غيّر فان وجوه القرى بوحشيّةٍ لا ترحم الذكرى — هدموا بيوتًا، مزقوا رموزًا، طمسوا أي أثرٍ لاسمٍ يقود للحرية.

أنصت أنطونيوس وغاص ثم بكى بلا صوت على حكاية الدم هذه، ثم قال بحزمٍ طويل:

"لقد دُفن ذو اللحية البيضاء... وجدنا جثمانه بالقرب من البحيرة النافعة، دفناه هناك لئلا يعثر عليه فان ويجعل منه عبرةً من الخزي. حمل الجندي الذي عثر عليه رسالةً ممزقةً، كلماتها الأخيرة كانت نداءً للحقيقة... لقد حاول أن يوصل ما عجزنا عن قوله بصراخ سيفٍ."

رفع أنطونيوس الورقة المبلّلة، قرأ منها عباراتٍ قصيرةٍ ملفوفةٍ بالغبار: نداءٌ لثيودور كي لا يثنيَه الخوف، تذكيرٌ باسم ماركوس وإسحاق، وتحذيرٌ من استكانة القاصي والداني أمام وجه السلطة. كانت كلمات الرجل الأخير وثيقة عهدٍ جديدة؛ صارت شرارةً بردائه القديم يلبسها أنطونيوس الآن كقميصٍ من نار.

هنا، ازداد صمت المكان ثقلاً، والرجال يحيطون بالنار، عيونهم تلمع في الظلمة كالشرر.
قال ثيودور بصوتٍ خافتٍ لكنه ممتلئ بالإيمان والعزم:

"لن تكون هذه الأرض تحت راياتهم بعد اليوم. ما بُني بالدم لا يُخلّد، وسنحرر يوهان مهما كان الثمن."

تبادل الجميع النظرات، وجلس الكفيف قرب النار يتمتم بدعاءٍ غريبٍ قديمٍ بلغةٍ منسية، بينما كان الطائر يحوم فوقهم في دوائرٍ بطيئة، كأنه يرسم فوقهم هالة من عهدٍ جديد.

هكذا انتهى المحور: أرض البحيرات الآن تحت قيادة أنطونيوس وضمير ثيودور، الناجون المتّحدون حول وعدٍ واحد — تحرير يوهان.
كانت تلك بداية الخطة الكبرى، التي ستكسر لأول مرة صمت الأرض التي ظنّها أوغسطين قد خضعت إلى الأبد

هذه الخطة كانت خليطًا من معرفةٍ محلية، وجرأةٍ محسوبة، وتضحيةٍ مقصودة — نفّذها رجالٌ عرفوا كل خبايا أرض المشرق، وعَرَفَ أنطونيوس كيف يحوّل العتمة نفسها إلى ستارٍ يغطي فرارَ يوهان.

أولًا — الإعداد السري (منذ أيام):

١. اختار أنطونيوس ثلاثين رجلًا من أتباعه وأوفياء ذو اللحية البيضاء الذين نجو، كلّهم يعرفون "الدِيهاليز" — ممرّاتٍ قديمة سوداء بين العوارض، أنفاق التهريب، بقايا ممرّات تجارية تحت الأساسات. هؤلاء الرجال مرّوا بالممرّات منذ الصغر، يعرفون كل سقوط، كل حجر مُتفلت، وكل شجرةٍ تطل على مدخلٍ سري.
٢. على مدار ليالٍ، عملت فرق صغيرة تحت الظلام على تنظيف المسارات؛ استبدال الألواح المتهالكة، تحريُك الحصى حتى لا تُصدر أصواتًا، وضع إشاراتٍ صامتة من رموزٍ صغيرة يعرفونها فقط (شريحة قماش على حافة، نقطةٍ من الطين على صخرة).
٣. جهّز أنطونيوس مخارجٍ بديلة عند نقاط بعيدة عن الصرح: مداخل قنواتٍ مائية صغيرة تؤدي إلى الخور البحيري، وقواربٍ مخبأة تحت طياتِ الخشب عند حافةِ البحيرة، وكلٌّ ذلك مُغطّى بطبيعةٍ ممطرة وغطاءٍ نباتي.

ثانيًا — دور جنودُ الاسترداد (الوجوه المعروفة):

١. عاد مجموعة صغيرة (٦–٨ رجال) بملامحٍ متعبة لكنهم يحملون هدوء الخبرة، وهم مُكلّفون بالدخول إلى داخل المشَرق كـ"عمال صيانة" — أقمشة قذرة، سلال طعام، أوضاع خدم؛ ذريعةٌ تسمح لهم بالاقتراب من الجدران دون لفت الانتباه.
٢. هؤلاء الرجال ليسوا مستكشفين جددًا؛ هم من يعرفون مفاتيحَ الزنازين القديمة: نافذة مهملة في قاعة نسخ المخطوطات، درجٌ خلف مكتبةٍ خشبية، فتحة تهوية تُغلق بالحصى من الخارج وتُفتح من الداخل.

ثالثًا — فتحة التشتيت والتضحية المحسوبة:

١. عند منتصف الليل، شنّت فرقةٌ صغيرة (٣ رجال) بقيادة أحد قدامى الجنود هجومًا مُصغّرًا على الجناح الجنوبي، أشعلوا حريقًا متواضعًا في مستودعٍ للقمح، وأطلقوا صيحة مدوّية.
٢. الغاية: سحب دوريات الحراسة لمكان الحريق، إجبار القوّات على التجمّع هناك، وإحداث فوضى منظّمة تُقلّل الرقابة على الجهة الشمالية حيث الممرّات السرّية

٣. تضحِّيَة: الرجلان اللذان أسسا هذا التشتيت (الأخوان مارك) علما مسبقًا أن احتمال عودتهما ضئيل، فاتجها بكامل العزم نحو الحريق ليثبتاه ويؤخروا الدورية. لقد دفعا حياتهُما ثمنًا لنجاة الخطة — فمات أحدهما ممزقًا في اللهب، وثانيهما حاول الهرب فانهالت عليه السيوف حتى لحق بأخيه
لكنه ثمنٌ مقصود لنورٍ قد يولد لاحقًا

رابعًا — التحرك الرقيق داخل الجدران:
١. بينما يجري التشتيت، تتسلّل فرقةُ "التمويه" (٦–٨ رجال) عبر البوابة الثانوية المزيفة — أفرادٌ متنكرون كخدمٍ ومعاونين — ويصلون إلى زاوية السجون القديمة. هناك يفتحون فتحةً صغيرة تُوصل إلى زنزانةٍ داخل صوامع قديمة كانت سابقًا مخزن حطب.
٢. في هذه اللحظة الحاسمة، يستخدم رومان وبعض الرجال مفاتيح صغيرة وقطعٍ من خيطِ حبلٍ مرن لقطع القيود بهدوء، وبموسيقى تنفسٍ خفيّ تقطع ببرودة الليل. الرجلان اللذان ضحيا يهبطان آخرًا لإلهاء الحارسات إذا لزم، وكانت عين أنطونيوس على كل مجرى.

خامسًا — الخروج عبر الماء والتمويه اللاحق:
١. فور تحرير يوهان، يُحمل على حمالةٍ خفيفة محاطة بمتطوّعين. يتحرّكون على مهل نحو نقطة المخرج السوداء — قناةٌ تحت الأرض تُخرج إلى بحيرةٍ صغيرة. القوارب المعدّة هناك تنتظر، كلّ قارب يحمل اثنين أو ثلاثة.
٢. يبحرون بصمتٍ عبر المياه المغطاة بالضباب، أُطفئت الشموع، وصوتُ المجاديف صارِهسًا مخنوقًا تحت وطأة الخوف. وصولهم إلى ضفةٍ مخفية عند البحيرات يعني بداية الأمان المؤقت.

سادسًا — إغلاق المسارات (خدعةُ الانحراف):
١. بعد اجتياز المجموعة الحدود والابتعاد، أفعَل أنطونيوس خطته الماكرة: فرقٌ صغيرة تعمل بسرعة لردمِ الممرّات التي استُخدمت أثناء الهروب (تحريك أحجار، طمر فتحات بخِرَسِة ترابية)، وضع فخاخٍ لوضع آثار مزيفة تُدل على أن الهروب اتجه نحو الشرق أو الغرب — أي جعل أي أثرٍ يقاد من البحث إلى طريقٍ آخر.
٢. الهدفان: أ) أن يجعل البحث الرسمي متوهِمًا ويضيّع وقت الدورية؛ ب) أن يُظهر أن المهاجرين اتجهوا بعيدًا عن البحيرات فلا يتربّص أحدٌ لمخيمهم هناك.

سابعًا — التغطية والتوزيع:
١. فور وصول يوهان إلى المخيم، وُضِع في سريرٍ دافئ؛ الكفيف والعجائز والعاملون بدؤوا يداوونه ويخفون أثار القيود. ثيودور ظلّ مع احد الحراس يرصد أي إشاراتٍ من الخارج.
٢. رسائل مُقطعة بعين الحذر ذُكرت تُرسَل لعدة قُرى لتشعر العيون بأنّه لا أثرٌ لليوهان هنا، وتوزيع أخبارٍ زائفةٍ مفادها أن الهاربين فرّوا شرقًا عبر طرق مَعلَنة.

نتيجةُ التنفيذ:
- نجاحٌ مُكلّلٌ بتضحياتٍ: يوهان مُحرر ويُخفَى، لكن بحجم الخسائر — اثنان من الرجال دفعوا حياتهم لمّا تحقق .
- خداعٌ استراتيجي: حجب المسارات وترك أثارٍ مزيفة ألقى رجال فان في دوامةٍ من البحث الخاطئ عن أثرٍ لا وجود له.
- الاستمرار: الهوامش لم تُغلق نهائيًا — فان وحكامُه قد لا يتوقفون، لكن الخطة أعطت المجموعة نافذة زمنية ثمينة لبناء تحصينات، لشفاء الجرحى، ولإعادة تشكيل القوة.

الحذر والسرية لا يزالان مفتاح النجاة. الخطة كانت عمليةً من لحمٍ ودمٍ: ليست بطوليّةً في كل مشهدٍ لكنها عمليةٌ برّاقةٌ وذكية، اعتمدت على الذاكرة المحلية، التضحية، وحِيلةٍ بسيطة جعلت من بحيراتهم ملاذًا وممرًّا واحدًا لمستقبلٍ آخر

عودة يوهان... وسكون ما قبل الدم

كانت أرض البحيرات صامتة كقلبٍ أنهكه الفقد، والسماء تعكس وجه الماء الرمادي كأنها مرآة حزنٍ معلّقة بين الأرض والغيوم.
عاد يوهان مجهدًا، وجهه شاحب وملامحه كأنها ظلال رجلٍ آخر. حمله بعض الجنود على أكتافهم عبر ممرٍّ ضيق حتى بلغوا خيمةً كبيرة نصبوها قرب الضفة، حيث يختلط نداء الطيور بصوت الريح المتقطّع.
هناك كان أنطونيوس يترقّب، وثيودور يجلس متأمّلًا في صمتٍ ثقيل، والكفيف يحدّق بعينَيه المطفأتين نحو الصوت لا المشهد، كأنه يرى ما وراء الكلمات.

جلس يوهان وقد غمره التعب، أنفاسه متقطعة، نظراته شاردة في السقف الخشبي للخيمة.
قال بصوتٍ مبحوح:
– «كل شيءٍ أصبح رمادًا... حتى الحروف التي في رأسي صارت رمادًا.»

اقترب منه ثيودور، وضع كفّه على كتفه وقال برفقٍ عميق:
– «لكن الرماد يا بنيّ... هو ما تنبت منه النار من جديد.»

عندها تنفّس يوهان ببطء، ثم نظر إلى الكفيف كأنه ينتظر شيئًا يعرف أنه سيقتله سماعًا.
فهم الكفيف الإشارة، وبلع ريقه قبل أن يتكلم بصوتٍ مبحوح:
– «رأيناه، والدك ذو اللحية البيضاء، كان في طريقه إلى الكنيسة... أراد أن يكشف حقيقة أوغسطين للعالم. رمحٌ في صدره أوقف رحلته، لكنه لم يسقط في الوحل، بل في البحيرات. حاول أحد رجال أنطونيوس إنقاذه، حمله على كتفه حتى أوصله إلينا، لكنه لفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يلمس الأرض. مات والدك يا يوهان، لكنه مات واقفًا، شاهداً لا تابعاً.»

تصلّب وجه يوهان، لكن الدموع خذلته. سقطت ببطءٍ من عينيه دون صوت، كأنها تعمدت أن لا تُحرج كبرياءه.
قال أخيرًا، بنبرةٍ ثقيلةٍ كأنها صدى من قبرٍ مفتوح:
– «إذن... لا بقاء للسكوت بعد اليوم.»

جلس طويلًا بعدها لا يتكلم، يستمع فقط إلى صرير الخشب في الخيمة، وكأنّه يحاور الصمت نفسه.
وفي فجر اليوم التالي، نهض بثوبٍ رماديٍّ داكن، كأنه نزع جلده القديم. دخل على ثيودور وأنطونيوس وقال بثقةٍ هادئة:
– «لن نحارب بعدُ وحدنا. سأخرج إلى القرى القريبة، هناك من يعرف أبي ومن يخاف أوغسطين. هذه القرى تائهة بين الكنيسة الكبرى وبين بطش أوغسطين وتوسّعه. يجب أن يعرفوا الحقيقة... عن فان، وعن الراهب الذي أسموه ملعونًا.»

قال أنطونيوس وهو يعقد ذراعيه:
– «فان؟ سمعت أنه قائد جديد للمشرق، رجل بلا عهد ولا دين، غوغائيّ لا يعرف الرحمة إلا لرئيسه.»

أجاب الكفيف بصوتٍ حزينٍ مطفأ:
– «نعم، فان... ذراع أوغسطين الجديدة. لا يُرى وجهه إلا حين يعاقب، ولا يسمع صوته إلا في الموت. قلبه لا يعرف إلا الطاعة.»

غادر يوهان المعسكر عند الغروب مع رجلين من أوفيائه. كانت الرياح تدفع عباءاتهم كأجنحةٍ سوداء، والبحيرات خلفهم تعكس لون السماء الدمويّ قبل العتمة.
وفي تلك اللحظة، على الجانب الآخر من المشرق...
كان فان واقفًا أمام طاولته الخشبية، والمصباح يتراقص فوق وجهه كأنه يضيء ظلالًا لا ملامح.
دخل أحد الجنود مذعورًا، انحنى وقال:
– «سيدي، يوهان... هرب.»

لم يتحرك فان.
ظلّ صامتًا لثوانٍ طويلة، حتى إنّ العرق تساقط من جبين الجندي رغم البرد.
ثم قال فان ببرودٍ مميتٍ ونبرةٍ تنزف بطشًا خفيًا:
– «دَعْهُ يهرب... سيعود إليَّ. وإن لم يعد... سأحضره أنا، ولكن برقبته.»

ابتسم بعدها ابتسامة قصيرةً بلا روح، وغادر الغرفة ببطءٍ ثقيلٍ، تاركًا وراءه رائحة الحديد والرماد.
كان الليل في المشرق يهبط ككفنٍ على الأرض، والسماء تمطر مطرًا خفيفًا يشبه دموعًا معلّقة بين الفقد... والانتقام القادم

:رحله العوده ورحله الخداع

١. رحلة يوهان

كانت الأيام السبعة الماضية كأنها سبع سنوات من العذاب والسفر المضني.
يوهان سار مع رجاله بين القرى الصغيرة المنتشرة حول أرض البحيرات، يحمل رسالة واحدة لا غير: الاتحاد أو الفناء.
لكن الطريق لم يكن سهلًا.

القرية الأولى أغلقت أبوابها في وجوههم، معلنة الحياد، وأرسل شيوخها كلماتٍ باهتة:

"نحن لا نحارب الكهنة ولا الملوك، لن نُفتح أبوابنا لمن يحمل لعنة الطائر."

القرية الثانية كانت أكثر دهاءً؛ رحّبت بهم نهارًا، وقدّمت لهم الماء والطعام، ثم في الليل بعثت جواسيسها إلى فان في المشرق تُخبره بكل ما دار.
أمّا الثالثة والرابعة، فكانتا من القرى التي ظلّت تدين بالولاء لذو اللحية البيضاء، رجالها يعرفون تاريخه ووقفاته، فاستمعوا إلى يوهان باحترامٍ وحذر.
هناك وقف في ساحةٍ ترابيةٍ صغيرة، المطر يهطل على كتفيه، وقال بصوتٍ هادئٍ لكنه غائر بالمرارة:

"إننا لا نحمل لعنة، بل نحمل ميراث الحقّ. إن أوغسطين لم يأتِ ليقيم كنيسة، بل ليبني مملكةً من رماد الناس."

كلماته لامست القلوب؛ أربعة من القضاة العجائز، حلفاء والده القدامى، خرجوا من صمتهم وأعلنوا تأييدهم إن اجتمع باقي القرى، لكنهم رفضوا الدخول وحدهم في حربٍ مفتوحة.
أحدهم قال له وهو ينظر في عينيه العسليتين:

"يا ابن الرجل الصالح، ما بيننا وبين أوغسطين ليس سيفًا... بل هو زمن. اجمع الجميع، وسنقف."

كان ذلك أصعب ما في الرحلة؛ الإقناع دون قتال.
عاد يوهان إلى أرض البحيرات بعد أسبوعٍ طويلٍ مرهق، جسده مثخن بالجراح، وروحه مثقلة بالخذلان، لكن بريق الإصرار في عينيه لم ينطفئ.

⊡

٢. خطة فان الخبيثة

وفي الوقت نفسه في المشرق، كانت أنياب فان تُزرع في الأرض كما تُغرس المسامير في تابوت.
بعد أن تركه أوغسطين قائمًا مقامه، بدأ فان بتنفيذ خطته الخاصة، تلك التي لا يعلمها حتى سيده نفسه.

جال بين القرى، اقتحم البيوت دون إذنٍ أو احترامٍ لحرمة، وجعل كل بيتٍ مركزَ مراقبةٍ صغيرًا، وزرع في كل قرية رجالًا يسمّون أنفسهم "عيون فان".
جمع الناس في الساحات، ووقف يخطب بصوته الجهوريّ القاسي:

"من خالف أمر الأنبا أوغسطين، فقد خالف إرادة السماء. ومن أعان الهاربين، صبّت عليه اللعنة، ولن يُرى له قبر."

لكن ما كان خفيًّا في خطته أدهى.
لقد حشد رجاله نحو الشمال، فتح الممرات التي كانت مهجورةً منذ عهد طويل، وجعلها طرقًا للحاميات ونقاطًا لحصارٍ صامتٍ من الخلف.
بينما جهة البحيرات، تلك التي خشيها، تركها مغلقة كما رآها:
فقد ردم أنطونيوس كلّ الممرات المؤدية إليها بالحجارة القديمة والطين المتيبّس، فبدت كما لو أنها مغلقة منذ عقودٍ طويلة، لا أثر فيها لحركةٍ أو حياة.
ولم يجرؤ أحدٌ من رجال فان على الشك في ذلك، إذ اعتقدوا أن تلك الطرق سقطت منذ سنين في باطن الأرض.
ظنّ فان أن لا مهرب لأحدٍ إلى هناك، وأن كل هروبٍ سيأتيه من شمال المشرق فقط، فشدّ قبضته من تلك الناحية، وأغفل الجنوب كلّيًا.

ثم أتمّ خديعته الكبرى.
في قلب المشرق، داخل سجنٍ حجريٍّ عتيق، وضع فان أسيرًا من "اللصوص القدماء" يشبه يوهان في الملامح والطول.

كبّله بالسلاسل، وغطّى وجهه بخرقةٍ مبلّلةٍ بالدماء، ثم أشاع الخبر:

"يوهان بين أيدينا، من يجرؤ على الكذب فليأتِ ويراه."

وهكذا استقرّ الظنّ في كل الأديرة أن يوهان أُسر ولم يهرب قط، وصدّق أوغسطين نفسه ذلك، فهدأ غضبه مؤقتًا.
وبينما كان فان يثبّت رايات دير أوغسطين على كل بوابةٍ من بوابات المشرق، كانت الحقيقة تبتعد عنه شيئًا فشيئًا، تطفو على سطح بحيراتٍ لا يعلم عنها شيئًا
✨ نهايه الفصل الثامن

🕯️ الفصل التاسع

: البئر والطائر والمخطوطة

كان الليل ساكنًا على غير عادته فوق أرض البحيرات.
السكون لم يكن هدوءًا، بل انتظارًا... كأن كل شيء في الطبيعة يتربص بكلمةٍ من ثيودور.
جلس هو والكفيف قرب نارٍ هادئة، ألسنتها تتمايل مع الريح كأنها تكتب على وجه الظلام رموزًا غير مفهومة.
أما الطائر، فكان على صخرةٍ قريبة، يحدّق في النار بعينٍ واحدةٍ حمراء، كأنها عينُ قدرٍ ينتظر من يوقظه.

قال الكفيف بصوتٍ خافتٍ رزين:

"كنتَ تحدّق في النار كما كنتَ تحدّق في البئر... كأنك تنتظر منها أن تُجيبك."

رفع ثيودور عينيه الزرقاوين إلى صديقه العجوز وقال:

"كنتُ أنتظر أن أفهم، لا أن أُجاب. المخطوطة لم تعد كسابق عهدها، يا شيخ. كانت يومًا تُحدّد المصائر، تُري من يكتبها ما سيحدث قبل أن يقع.
لكن الآن... صارت تُريني الصدى فقط، لا الحدث. كأن شيئًا انكسر في توازنها."

أطرق الكفيف برأسه، ومرّر أصابعه على الخشب قربه كمن يتحسس أثرًا خفيًا، ثم قال بهدوءٍ عميق:

"لأن رموزها ناقصة، يا بني. الناقص فيها هو البئر... البئر الملعونة كما سماها الناس، لكنها لم تكن لعنة قط. كانت البئر المضيئة، المرآة الحقيقية للعالم.
هناك وُلدت المخطوطة، وهناك تعمّد الطائر. ومنذ أن رُدمت بعد الفيضان الأول، توقفت الدورة... دورة البئر والطائر والمخطوطة."

تجمّد ثيودور للحظة، كأن كلمات الكفيف أخرجت من داخله ذكرى بعيدة.

"أوغسطين ردمها بيده بعد الفيضان، ظنًّا منه أنه يغلق الشرّ. لكنه أغلق النور، أليس كذلك؟"

ابتسم الكفيف بمرارة:

"بل أغلق الباب على نفسه. أتدري؟
أوغسطين يملك ورقةً من المخطوطة القديمة، ورقةً واحدة فقط، تملك طاقةً مضادة.
لكنها لا تُنذر، لا تُرشد، لا تنبئ... كل ما تفعله أنها تُعطّل.
ورقته تبطل دائرة البئر ما دامت بعيدةً عنها، أما إن اقتربت، فلا سلطان لها أمام مخطوطتك أنت."

سكت ثيودور لحظة، وراح ينظر إلى الطائر فوق الصخرة، ثم قال ببطءٍ كمن يستعيد سرًّا مدفونًا:

"إذن هو من عطّل المصائر... لقد ربط الأحداث ببعضها دون أن يدري.
أوقف طاقة البئر حين ردمها، ثم عطّل سريان المخطوطة في البشر، فصاروا يعيشون دون هدى.
لا يرون طريقهم، ولا يعرفون مصيرهم، إلا ما يرسمه هو بسيفه وكهنوته."

اقترب الكفيف منه ووضع يده على كتفه، صوته صار حزينًا كترنيمةٍ قديمة:

"ما قاله والدك إليا لي منذ زمنٍ بعيد كان صحيحًا:
المخطوطات ليست شقيقات، بل خصومٌ متعادلات.
كل مخطوطة تُبطل الأخرى، كما يتقابل النور والظلمة.
أوغسطين استخدم ورقته ليوقف النور، لكنك تملك ما يعيده — إن عرفت كيف."

رفع ثيودور رأسه نحو السماء المظلمة، والنجوم تتناثر فوقها كحروفٍ منسية من مخطوطةٍ أخرى، وقال بصوتٍ خافتٍ أقرب إلى النذر:

"البئر... الطائر... والمخطوطة. هذه هي السلسلة.
ثلاث مفاتيحٍ لمصيرٍ واحدٍ مكسور.
وأنا... من سيعيدها، ولو احترق بها جسدي."

صمت الكفيف لحظة، ثم قال بنبرةٍ كمن يشهد قدرًا لا مهرب منه:

"لقد بدأت، يا بني. المخطوطة الآن ليست فقط لتحديد المصائر، بل لتصحيح التاريخ نفسه.
إنها لن تكتب ما سيأتي... بل ستعيد كتابة ما كان."

وهنا، في تلك اللحظة التي امتزج فيها ضوء النار بصوت الريح،
ارتفع الطائر من فوق الصخرة، دار ثلاث مراتٍ حولهما، ثم هبط على ذراع ثيودور بخفةٍ مهيبة،
نظر إليه نظرةً طويلةً بعينه الحمراء،
فأدرك ثيودور أن السلسلة عادت تتحرك، وأن الساعة اقتربت

الطائر والرسائل المزدوجة ()

⍰

وصول القضاة الثلاثة إلى أرض البحيرات

كان الليل قد بسط ظلاله على أرض البحيرات، والضباب يزحف فوق سطح الماء كأنّه أنفاسُ الأرواح الهاربة من المشرق.
الريح تُصدر صفيرًا خافتًا، والطيور اختبأت بين الأغصان.
في تلك العتمة، سُمِع وقعُ أقدامٍ متعبةٍ تقترب من برج المراقبة.
أمر أنطونيوس جنوده بالاستعداد، ورفع شعلةً عالياً حتى ظهر أمامهم ثلاثة رجالٍ أشعثين، ملابسهم ممزقة ومبتلة.

كانوا القضاة الثلاثة، حلفاء والد يوهان القدامى، وقد وصلوا أخيرًا بعد رحلةٍ داميةٍ هربًا من بطش فان.
استقبلهم ثيودور بنفسه، وجلسوا قرب النار يلتقطون أنفاسهم، والقلق على وجوههم أكبر من التعب.

قال أحدهم بصوتٍ مرتعشٍ:

"لقد وصل فان... جاء كالطوفان، يحتل القرى واحدة تلو الأخرى.
يزعم أنّه يحميها من لعنة الراهب الملعون، لكنه ينهبها باسم أوغسطين.

من رفض الخضوع... صُلب على الأبواب.
والآن يزحف نحو آخر قريتين، اللتين وعدتا يوهان بالاتحاد إن توحّد الجميع."

ساد الصمت.
ثيودور أطرق برأسه، الكفيف شبك أصابعه بعصاه، وأنطونيوس وقف كمن يسمع نبأً كان يخشاه منذ زمن.

قال الكفيف أخيرًا، بنبرةٍ تخلط بين الحكمة واليقين:

"إذا كان فان يسير باسم أوغسطين، فلابد أن تصل رسالة إلى الاثنين معًا... واحدة تُضل، وأخرى تُزلزل."

عندها رفع ثيودور رأسه وقال ببطءٍ:

"إذن... الطائر من جديد."

⊡

الطائر – رسول الظلال

خرجوا جميعًا إلى الساحة الموحلة، المطر يتساقط برذاذٍ بارد، والبحيرة أمامهم تشعّ كمرآةٍ من فضةٍ غامقة.
الطائر – الحدأة – كان يقف على صخرةٍ مرتفعة، جناحاه منكمشان، وعيناه الحمراوان تبرقان كجمرتين في العتمة.

اقترب منه ثيودور بخطواتٍ بطيئة، همس إليه كأنّه يخاطب روحًا لا جسدًا:

"رسالتان، يا صديقي القديم...
واحدة لمن ظنّ أنّه أصبح إلهًا على الأرض، وأخرى لمن أرسل الوحوش لتنهش القرى."

رفع الطائر رأسه، وصدر منه صوتٌ عميقٌ كأنّه زئيرُ ريحٍ من باطن الأرض.
في اللحظة نفسها، دوّى الرعد فوق الجبال، والبحيرة اهتزّت كأنها تستجيب لأمرٍ خفيٍّ.

أعطاه ثيودور اللفافتين، كلّ واحدة مختومة برمزٍ مختلف من رموز المخطوطة، ثم أشار بإصبعه نحو الأفق الغارق في الغيوم:

"اذهب... نصف نهار، وكن عين السماء."

رفرف الطائر بجناحيه، واندفع في الهواء كرمحٍ من نارٍ وسط المطر، تاركًا خلفه دوّامةً من الغبار والريح،
حتى غاب بين الغيوم تمامًا، كأنّه انشقّ عن العالَم إلى عالمٍ آخر.

⊡

الرسالة الأولى – إلى فان

فان كان على وشك الزحف نحو القرى السفلى،
الريح في ظهره، والرعد يقرع فوقه كطبول حربٍ سماوية.
وقف في قلب السهل الواسع، رايات أوغسطين ترفرف خلفه، والجنود يصطفّون في طوابير طويلة لا نهاية لها.

وفجأة... سقطت ورقة من السماء أمام حصانه مباشرة.
رفعها أحد الجنود بسرعةٍ وخوف، ثم ناولها لقائده.
فان فتح الرسالة بحذرٍ شديد، والكتابة عليها بلونٍ غامقٍ من الحبر، كأنها كُتبت بدمٍ بارد:

"يوهان لم يمت، ولم يُؤسر.
إنه بين القرى القريبة منك، يجمع من تبقّى من رجال أبيه.
احذر أن تهاجم قبل أن تتأكد ممّن حولك،
فاللعنة الحقيقية هي أن تثق بمن معك."

تجمّد فان، عيناه الضيقتان تومضان بالشكّ والغيظ،
ثم نظر للسماء فلم يرَ شيئًا سوى ظلٍّ بعيدٍ لطائرٍ يحوم ببطء.
قال بصوتٍ حادٍّ:

"الخيانة من الداخل... لا أحد يُهاجم حتى أتحقّق من الأمر.
شدّدوا الحراسة على المعسكر. من يتكلم باسم يوهان يُشنق فورًا."

لكن في داخله، كان يعرف أن الخوف بدأ ينخر صفوفه قبل أن يبدأ القتال.

⊡

الرسالة الثانية – إلى أوغسطين

في الدير الأكبر، بينما كانت الأمطار تهطل كغضبٍ سماوي، كان الأنبا أوغسطين يتهيأ لصلاته الصباحية.
لكن صرخة الطائر دوّت في الساحة كنداءٍ من العدم،
وانقضّت الحدأة من السماء لتلقي رسالة أمام المذبح مباشرة، ثم ارتفعت واختفت.

تقدّم أوغسطين ببطء، التقط الرسالة، فتحها...
كانت كلماتها كطعنةٍ باردةٍ في قلبه:

"فان خُدع.
يوهان حيّ، يسير نحو القرى متحدًا مع الراهب الصامت.
ما بُني على الدم، لا يقوم إلا على الرماد."

اهتزّ وجه الأنبا، وارتجفت أصابعه.
نظره القائد المرافق له بخوفٍ وقال:

"مولاي... أهذه نبوءة؟"

فصرخ أوغسطين بصوتٍ مبحوحٍ:

"بل خيانة!
الخيانة عادت من المشرق، وستلتهم من أرسلناه ليحكمها!"

ثم أشار بعصاه وأمر بأعلى صوته:

"أعدّوا رسولًا... أسرع الخيول فورًا إلى أرض السهول!
ليوقف فان الحرب.
لن أسمح أن تشتعل قبل أن أعرف من الذي يحرك الطيور والسماء ضدي!"

انطلق الجندي المرسال كالإعصار، يختفي في عتمة المطر متجهًا نحو فان،

بينما ظلّ أوغسطين واقفًا أمام المذبح،
الورقة في يده ترتجف...
وكأنها لا تحمل كلماتٍ، بل لعنةً تنبض بالحياة.

▫

وهكذا، كانت الرسالتان كحدّين لسكينٍ واحدة:
الأولى غرست الشكّ في صدر فان،
والثانية أيقظت جنون أوغسطين.

أما في أرض البحيرات، فكان ثيودور ينظر للسماء التي عادت صافية بعد المطر،
ويهمس بصوتٍ خافتٍ إلى الكفيف:

"لقد تحركت الحجارة الأولى في رقعة الشطرنج...
الآن، لن يعود أحد إلى مكانه القديم.

لخيط الرفيع بين الولاء والجنون
النقطة الأخيرة

كان الليل يهبط ببطء على أرض البحيرات، والهدوء يلف المكان كستارٍ ثقيلٍ يخفي ما وراءه.
اجتمع القضاة الثلاثة وأنطونيوس والكفيف قرب النار، اللهيب ينعكس على وجوههم المرهقة، والعاصفة تتكوّر بعيدًا فوق الجبال كوحشٍ نائمٍ ينتظر الأمر بالهجوم.

بعد لحظة صمتٍ طويلة، قال أحد القضاة بصوتٍ متهدّجٍ وهو ينظر إلى الكفيف:

"أيها الأب... خطّتكم جريئة، لكن أخبرني... كيف تنجح؟
كيف تنطلي الخدعة على فان وأوغسطين؟ كلاهما أذكى مما نظن، وأشدّ بطشًا مما يحتمل أحد."

ابتسم الكفيف ببطء، وكأنّ السؤال أيقظه من صمته القديم، ثم أمال رأسه نحو أنطونيوس وقال:

"قل لهم يا قائد، ما الذي يقتل الغوغائيّ قبل السيف؟"

أجاب أنطونيوس بثباتٍ:

"الشكّ."

هزّ الكفيف رأسه مؤيدًا، ثم تابع بصوته العميق المبحوح:

"فان غوغائيّ القلب، تربّى على الشكّ أكثر من الإيمان.
لا يثق بأحد، لا يرى في الناس إلا خونة محتملين.
كلّ من حوله أدوات، حتى قادته.
قوّته في بطشه... وضعفه في خوفه من الخيانة."

تقدّم قاضٍ آخر، وقال:

"وماذا عن أوغسطين؟ إنه ليس غوغائيًّا، بل وحشًا ذا عقل.

ألن يرى من رسالتكم الحقيقة؟"

ابتسم الكفيف ابتسامةً غامضة، وأجابه:

"أوغسطين يعلم أن الرسالة صادقة، لكنه لا يحتمل فكرة أن يُخدع.
كبرياؤه لعنةٌ أكبر من لعناته التي زرعها بين الناس.
سيصدقها، ثم يُكذّبها، ثم يُعاقب من يخدعه، فقط ليؤكد لنفسه أنه لا يُجهل عليه أمر."

ساد الصمت للحظةٍ طويلة، لا يُسمع إلا طقطقة النار وصوت الريح على سطح الماء.
رفع أنطونيوس رأسه وقال بصرامةٍ:

"لهذا ستنجح خطتنا.
فان سيغرق في الشكّ، وأوغسطين في غروره.
وبينهما... سيمرّ يوهان من بين اللهب دون أن يراه أحد."

نظر القضاة الثلاثة إلى بعضهم، والرهبة تمتزج بالإعجاب في عيونهم.
أما الكفيف، فرفع وجهه نحو السماء المظلمة وقال كمن يهمس لنبوءةٍ قديمة:

"ومن صدّق الكذب هذه المرة...
سيُكتب اسمه على أول صفحةٍ من النهاية."

وسكنت النار لحظةً كأنها أصغت،
ثم اشتعلت من جديد،
تعلن ختام ليلةٍ أخرى من ليالي المشرق الملعون

✨ نهايه الفصل التاسع

الفصل العاشر:
ضياع الأمل وبدء الخلاص

·

: رسول الظلال

كان الفجر رماديًّا مريضًا حين وصل رسول أوغسطين إلى معسكر فان في سهول المشرق.
الخيول منهكة، والجنود مرهقون، والسماء تحجبها سحابةٌ كثيفة كأنها كفنٌ للأرض.
دخل الرسول بخطى مضطربة إلى خيمة فان الكبيرة، والعرق يغمر وجهه.
انحنى وهو يمدّ الرسالة المختومة بخاتم الدير الأكبر:

"من الأنبا أوغسطين... إلى القائد فان.
أمرٌ مباشر: عد فورًا إلى الدير الكبير، واترك أرض المشرق لحين إشعارٍ آخر.
لا تقترب من القرى، ولا تُصدر أمرًا إلا بعد المثول أمامي."

ارتجف فان، وارتجف معه جنوده.
عيونه الصغيرة الغائرة اشتعلت غضبًا، لكن تحت ذلك البريق الوحشي كانت هناك رهبةٌ دفينة من اسم أوغسطين.
مزّق جزءًا من الرسالة بين أصابعه، وصرّ بأسنانه قائلاً:

"أمرٌ من الراهب الأكبر لا يُناقش."

ثم صرخ:

"استعدوا للعودة!
القريتان الواقعتان في طريقنا تُغلقان تمامًا، لا أحد يدخل ولا يخرج.
ومن يتحدث باسم الملعون... يُقطع لسانه في الساحة."

تحرّك الجيش مع غروب الشمس،
الخيول تضرب الأرض بقسوة، والأعلام السوداء ترفرف،
كأنّ الظلام نفسه يسير معهم عائدًا نحو الدير الكبير.
كانت القرى التي تركها خلفه كمن مرّ بها إعصارٌ من نارٍ وصمتٍ... لا صوت فيها سوى بكاء الريح.

▫

:يد الكنيسة الملطخة

في الدير الكبير، جلس أوغسطين على كرسيه الحجريّ العالي،
وبين يديه الرسالة القادمة من الكنيسة الأمّ.
كان ختمها الذهبي يلمع كعينٍ شيطانية،
ومضمونها أكثر سُمًّا من الحبر الذي كُتب به.

"بناءً على التقارير، يُمنح الأب أوغسطين كامل الصلاحيات في إدارة أراضي المشرق وما حولها.
لقد ثبت أن الرجل ذو اللحية البيضاء قد خان قَسَمه، وتعاطف مع الراهب الملعون،
وضلّ الطريق القويم.
تُرفع رايات دير أوغسطين فوق المشرق والسهول رسميًا."

ابتسم أوغسطين، ابتسامةً باردة لا روح فيها، وقال بصوتٍ خافتٍ يسمعه القائد بجانبه فقط:

"لقد صدّقونا... كما خطّطنا."

ثم نهض، وعيناه الواسعتان السوداوان تشعّان جنونًا ودهاءً:

"من اليوم، لن تُذكر المشرق إلا باسمنا.
ومن يقف بيننا وبين المخطوطة، فدمه أول الحبر الذي نكتب به عهدنا الجديد."

في تلك اللحظة، كان كل من في الدير يشعر بشيءٍ غريب...
كأن جدرانه تتنفس كراهية، وكأنّ الصلوات القديمة قد استُبدلت بعهدٍ من الظلام.
ومن بعيد، في السماء، صرخ الطائر — حدأة ثيودور — صرخةً خافتة لم يسمعها أحد،
لكنها كانت التحذير الأول من الفجر القادم.

▫

: نهوض الأرض الميتة

في الوقت ذاته، كانت القرى التي لم يحتلها فان تعيش في رعبٍ مشؤوم.

الناس بين متردّدٍ وخائف، والأنباء تتضارب عن انضمام المشرق الكامل لأوغسطين.
أرسل أنطونيوس أحد القضاة الثلاثة، وهو الأكبر سنًّا والأكثر حكمة،
برفقة رجلٍ يعرفه الجميع — قائد قطاع الطرق السابق،
ذلك الذي أقسم أمام ثيودور يومًا: "المن معنا يعيش... ومن ضدنا يموت."

تحرّكوا مع فجرٍ مضطرب، عبر الممرات الخفية التي لا يعرفها سوى اللصوص والغرباء.
كان الرجل يعرف كل طريقٍ وسرٍّ بين الصخور،
يتسلّل من خلف الجبال لا من فوقها،
ويعبر من جوار الأنهار التي لم تدلّها الخرائط يومًا.

وصلوا إلى القرية الثالثة قبل الغروب،
فوجدوا أهلها في فوضى وارتباك، لا يعرفون من يصدقون:
الكنيسة أم الملعون؟ فان أم يوهان؟
وقف القاضي بين الناس، ورفع صوته بنبرةٍ تهزّ القلوب:

"اللعنة ليست من الراهب... اللعنة من الطمع!
لقد باعكم أوغسطين وسيسلخ أرضكم كما سلخ أرواح إخوانكم!
من أراد النجاة فليلحق بثيودور... بأرض البحيرات التي لا تُغرق مؤمنيها!"

وبينما كانت كلمات القاضي تتردد في الساحة،
حلّق الطائر في السماء، يرسم دوائر كأنها رموزٌ خفية من المخطوطة نفسها.
في تلك اللحظة، تدفقت الحشود — رجالٌ ونساءٌ وأطفال — نحو الطرق المؤدية إلى البحيرات.

أرسل ثيودور الطائر، فبدأت رموز المخطوطة تضيء على صفحاتها الغامضة،
كأنها تُرشد الرياح نفسها لتفتح الطريق.
الناس شاهدوا المستحيل:
الأنهار تنكمش عن مسارهم، الأشجار تُمهد طريقًا ضيقًا كالممر،
الليل يضيء كأنه فجرٌ من داخل الظلام.

كانت تلك المعجزة الأولى للمخطوطة والطائر،
وفيها تحقق ما كتب ثيودور منذ زمن:

"حين تتحد الكلمة بالطائر، تنجو الأرض من الظلام، ويُولد الأمل من الخراب."

وصلت القريتان الثالثة والرابعة إلى أرض البحيرات،
وبدأ الناس في بناء بيوتٍ صغيرة، ومدّ الطرق الطينية بالحجارة القديمة،
وغُرست البذور الأولى في الأرض التي كانت بالأمس مواتًا.

وقف أنطونيوس على التلة ينظر إلى ما صار،
وقال لرومان والكفيف بصوتٍ متهدّجٍ:

"ربما... هذا ما عنته المخطوطة حين قالت:
إن النور يولد في قلب الماء، لا في سمائه."

أما ثيودور، فجلس على صخرةٍ قرب الماء،
الطائر على كتفه، والمخطوطة على ركبته،
وعيناه الزرقاوان تلمعان بين الضباب،
كأنهما تُبصران شيئًا لا يراه أحد —

الفجر الذي سيفتح صفحة النهاية

قرار الرحلة والبوابة المغلقة

ركب القضاة الثلاثة في صباحٍ رماديّ، الندى يبلّل عباءاتهم، وقلوبهم محمومةٌ بمسؤوليةٍ أثقلت أعناقهم. قرّروا أن يذهبوا معًا — الأكبر منهم سِيدنا الكبير ، والرجلان الآخران بجانبه — إلى الكنيسة الأم لحمل خبرِ لمّ الشمل، ولطلب شفاعةٍ رسميةٍ تقفُ أمام مطامع أوغسطين.
كان هدفهم واضحًا: أن ترفع الكنيسةُ لواءَها كقوةٍ عليا، وتُنقذَ المشرقَ وأراضيَه من قبضةِ سيفٍ استبدّ باسم الدين.

وصلوا إلى قاعة المجلس في الصرح الكبير، حيث تباركت الجدرانُ بالقداسة، والأنوارُ المذهّبة تُنيرُ وجوهَ الولاة. قدموا قضيتهم بلهفةٍ وصدق: أنّ أرض البحيرات قد اتحدت، وأن شعبَ القرى في الضواحي للمشرق قد لجأوا إلى ثيودور وأنطونيوس، وأن هناك حركةً شعبيةً حاصَرَتْ جبروت أوغسطين. طلبوا أن تُعتَرف أرضُ البحيرات رسميًا كمنطقةٍ محميةٍ، وأن تُعلَن هيئةُ القضاء الثلاثي وصيّةً عليها، فتصير الجهةُ المسؤولة قانونيًا عن تنظيم شؤونها وحمايتها.

المجلس الأعلى للاستماع تجمّد أعضاؤه لحظة، ثم صار الضجيجُ كهمٍّ بين أعمدةِ الرخام. لقد انهالت عليهم تقاريرٌ سابقةٌ عن تقلبِ وحِدَةٍ في المشرق — وأغسطين قد كسب مؤخرًا ثقةَ كثيرين في الكنيسة. قُدمت وثائقٌ، وأرسلت رسائلٌ، والحبر الرسميّ فيه ثقلٌ لا يُنقَل بسهولة.
في تلك اللحظة، كان السكونُ يكاد يبتلع صدى الكلمات. الكنيسةُ — بمجلسها الأعلى — احتاجت إلى برهةٍ، ثم أعلنت قرارها بصوتٍ رسميٍّ: تُسند إدارةَ أرض البحيرات إلى القضاء الثلاثي. تصبح الأرضُ بمثابةِ محميةٍ تحت رقابتهم؛ وهم المسؤولون الوحيدون عن حمايتها وتقديم تقاريرٍ دورية إلى الصرح. هكذا تمنع الكنيسة تصعيدًا فجائيًا، وتضع أمام الجميع إطارًا قانونيًّا جديدًا.

لكن القبولَ هذا لم يأخذْ مسرحَهُ بلا ثمن. في الأروقة، تسرّب خبرُ التعرية: رجالُ أوغسطين لم يتوانوا عن إطلاقِ دعايةٍ سوداء تُعلنُ أن أرضَ البحيرات أصبحت أرضَ الملعون، وأن كل من لجأ إليها تلطّخ باللعنة. انتشرت الهمسات في الأسواق، واللافتاتُ الملصوقةُ على أبواب الكنائس الصغيرة تُعيد سردَ نفس الخطاب: الخلاصُ في طاعةِ السلطة، والخارجون عنها هم جندُ الفتنة. كانت هذه حملةٌ نفسيةٌ محكمة؛ هدفها تهشيمُ ثقةِ الناس وإعادةِ ترتيب الولاءات.

في غضون أيامٍ قليلةٍ وصل نبأٌ آخرٌ إلى أسماع أوغسطين: ثيودور والمخطوطة والطائر — وكل من حماه — موجودونٌ فعلاً في أرضِ البحيرات. لم يكن الخبرُ جديدًا بالنسبة له، لكنه كان تهديدًا يُقاربُ الوجود. اجتمع أوغسطين مع فان وقائده العسكري في خيمةٍ مظلمةٍ، وجلسوا يتبادلون الخطط كما يتشارك صيادو الفخاخ أصعب الأسرار. فان — الذي كان يمثّل اليدَ الحازمة — أخبرهم كيف أن احتلالَ القرى الأربع كان صائبًا؛ لقد قلب المعادلة، وقطّع أوصالَ التحالفات. اقترح أن يُكمل زحفه حتى يُمسك القريتين المتبقيتين ويقطع دابر كل أملٍ بالتوحد.

أوغسطين نظر إليهم بعينٍ باردةٍ كالحديد، ثم قال بصوتٍ خافتٍ لكنه راسخ: «لن نندفع الآن؛ علينا أن نمسّح أثرَ الصخب، ونحشد القوة. لكن عندما يحين الوقت — وسنصنعه — سنقضي على المخطوطة، وعلى من يلتفون حولها. سنجعلُ منهم عبرةً حتى لا يبقى لأحدٍ جرأةُ التحدّي.»
كان قرارهم واضحًا: لا انقلابٌ علنيّ الآن، بل حركةٌ ممنهجةٌ لإجهاضِ الخطر من جذوره — المخطوطةُ وصدورُها. سيجعلون من محوِها مشروعًا مقدّسًا في أعينِ الرتب الأعلى: استئصالُ بذورِ الهرطقة وختمُها إلى الأبد.

لكن الخُطةَ هذه حملت معها تلميحًا مرعبًا: حين تُقنِعُ السلطة نفسها بأنها فوقَ المحاسبة، فإنها تُصبحُ أكثرَ عنفًا وأقلّ رحمةً. وبهذه الخطةِ، قرّر أوغسطين وفان وقائده أن يكون لهم ما يريدون: سلطةٌ مطلقةٌ على مصائر الناس، وقرارٌ نهائيٌّ في أسماءِ من يبقون ومن يُمحون.
في المقابل، جلس القضاة الثلاثة عائدين إلى أرضِ البحيرات، وقلوبهم تمتلئُ قلقًا وحزنًا، لكنهم أحاطوا بشعورٍ واحد: أن صوتَهم قد بلغ مذبحَ الكبار، وأن حربًا أعمقَ وأبشعَ الآن محتومة — حربُ الإيمانِ بالحقّ ضدّ إيمانِ الجلادين.

وهكذا : الكنيسةُ منحت نجاحًا شكليًا — حمايةً مؤقتةً لأرضِ البحيرات — لكن في الخفاء اشتعلت نوايا أقسى؛ نيةُ استئصالِ المخطوطةِ وصدورها. والأفق أمام الجميعِ يظلّله سؤالٌ واحد: هل تنجحُ قوةُ القِدْرِ والمخاوف في كسرِ إرادةِ من يجرؤون على أن يكتبوا مصائرهم بأنفسهم
انتهى الجزء الثالث

الجزء الرابع : أرض البحيرات🔥

الفصل الأول: مجلس البحيرات

مرّ شهرٌ كامل على قرار الكنيسة الأم باعتبار أرض البحيرات منطقةً تابعةً للقضاء الثلاثي، شهرٌ ثقيل كأنه عام، لم يعرف فيه الناس سوى الصمت المترقب والهمس المتسرب في الأزقة عن "اللعنة" و"الراهب الصامت" و"أرض الملعونين".
لكن شيئًا فشيئًا بدأ النظام يعود، وبدت الحياة تُطلّ بخجلٍ من بين الرماد.

في قاعةٍ حجريةٍ تطل على صفحة البحيرات، اجتمع رجال الأرض الجدد:
القاضي الأكبر سِيدنا، والرجل الكفيف، وأنطونيوس القائد العسكري، وثيودور الأب الروحي، ورومان الذي صار راهبًا كاتبًا بعد أن كان عامل نظافةٍ بسيط.
كان الجوّ مشحونًا بمزيجٍ من الهيبة والرهبة، فالأرض هذه صارت رمزًا للمقاومة، ومصدرًا للخوف أيضًا لمن يراقبها من بعيد.

بدأ سيدنا الحديث بصوتٍ هادئٍ لكنه حازم:

"لقد مرّ شهر، والأوضاع ثابتة. الكنيسة لم ترسل أحدًا بعد، وأوغسطين لم يتحرك. هذا الصمت ليس طمأنينة، بل انتظار لما بعده. نحتاج إلى قيادةٍ واضحة لأرض البحيرات، قبل أن يبدأ الخطر في العودة."

أنطونيوس جلس في صدر المجلس، سيفه إلى جواره، نظر إلى ثيودور وقال:

"الجميع هنا يرى أنك أنت من أنقذت هذه الأرض، يا ثيودور. الناس يعتبرونك الراهب الذي رُدَّت عنه اللعنة، ومنهم من يراك علامةً لنا . عليك أن تكون قائدنا."

رفع ثيودور رأسه ببطء، عيناه الزرقاوان انعكست فيهما نار المشاعل المحيطة، ثم قال بصوتٍ هادئٍ متزن:

"القوة ليست لي، يا أنطونيوس. لست قائداً، ولا أريد أن أكون. كنتُ راهبًا يبحث عن الخلاص، وما زلت. هذه الأرض تحتاج إلى من يحميها لا من يحكمها. أنا لست سوى صوتٍ روحيّ، لا سلطة لي إلا على نفسي. اجعلوا القيادة لك، فأنت من يقود الرجال ويعرف أرض المعارك، وسيدنا من يُصلح بين القلوب، والكفيف من يُبصر بعين الحكمة ما لا يُرى."

ساد الصمت لحظة، ثم انحنى سيدنا موافقًا، وقال:

"فلنجعلها إذًا شورى، لا سلطة فيها لفرد. أنطونيوس يقود العسكر، وثيودور الأب الروحي، وأنا للقضاء، والكفيف للعقل والمشورة. ليكن هذا مجلس البحيرات، مجلس الحرية الأولى بعد الظلم الطويل."

هنا ابتسم رومان للمرة الأولى منذ زمنٍ بعيد.
كان يجلس في آخر القاعة، قلمه بيده وأمامه رقٌّ قديم من أوراق ماركوس التي احتفظ بها منذ نجاته من الدير الكبير.
كتب في الهامش بخطٍ صغيرٍ متقطع:

"في هذه الليلة، تشكل مجلس البحيرات. صار أنطونيوس القائد، وثيودور الروح، وسيدنا الحكم، وأنا... الراهب الكاتب الذي يروي ما لا يُروى."

عند المساء، حين هدأت الرياح فوق سطح الماء، خرج ثيودور وحده نحو ضفة البحيرة.
الطائر — الحدأة — كان جاثمًا على صخرةٍ عاليةٍ يراقبه بصمتٍ مطبق.
تأمل وجهه المنعكس على سطح الماء وقال:

"لم أطلب سلطةً يا رب، بل أن أُكمل الطريق. إن كانت هذه الأرض هي البداية، فاجعل نهايتها سلامًا لا لعنة."

من خلفه ظهر الكفيف بخطواتٍ هادئة، وقال بصوتٍ مبحوحٍ خافت:

"السلام لا يُمنح يا ثيودور، بل يُنتزع. كن مستعدًا... فالصمت الذي يسبق العاصفة ليس هدوءًا، بل فخًّا ينتظر أن يُفتح."

وفي تلك اللحظة، في مكانٍ بعيدٍ من المشرق، كان أوغسطين يُعيد ترتيب أوراقه، وفان يُنقّح صفوفه، والليل يُخفي في طياته ما لا يعلمه أحد...
لكن في أرض البحيرات، كان فجرُ جديدٍ يُرسم — فجرٌ تحكمه الشورى لا السيف، والإيمان لا اللعنة.
وهكذا بدأت قيادة البحيرات

الفصل الثاني: رومان... صوتٌ من الماض

في ليالي أرض البحيرات الهادئة، حين ينام الجنود وتخفت أصوات النيران، كان رومان يجلس وحيدًا عند طرف المعسكر، يخطّ على رقٍّ قديم حروفًا متشابكة، لا يعرف إن كان يكتب التاريخ أم يكتب نفسه.
كان الليل يهبط عليه ببطء، كأنه يذكّره دومًا بأنه آخر من تبقّى من عائلةٍ محاها القدر.

لم يعرف رومان يومًا دفء الأم، فقد ماتت عند ولادته.
كان يقول في نفسه كلما نظر إلى السماء:

"ربما كانت أمي أول من علّمني التضحية... ماتت لأحيا."

أبوه، قائدٌ عسكريٌ قديم، من رجال الشرف والولاء في الحروب القديمة، قاتل لأجل البلاد حتى آخر رمق.
كان رومان صغيرًا حين رأى أباه يُحمل على الأكتاف ملفوفًا برايةٍ قديمةٍ مزّقتها المعارك.
لم يبكِ يومها... وقف صامتًا كما يفعل الرجال، وفي قلبه وعدٌ لم ينطق به قط:

"سأكون مثلك... حتى وإن لم أحمل سيفًا."

أما إخوته، فقد سلكوا طرقًا بعيدة.
تجّارٌ في بلادٍ لا تُشبه موطنهم، باعوا ذكرياتهم بثمن الحياة، واستقروا هناك، تاركين رومان خلفهم في البلاد، يعمل في الدير الكبير عاملَ نظافةٍ صغير، يحمل الجرادل ويكنس الأروقة، لا يلحظه أحد.
لكن الصمت الطويل علمه ما لم يتعلمه غيره.

في الدير، كان يسمع تراتيل الرهبان فيحفظها، ويرى المخطوطات فيتعلم منها، يلمح الرموز في الجدران فيحاول فكها في الليل حين يخلو المكان.
كان منظفًا، نعم... لكنه كان عينًا يقظة تتعلم في الخفاء.
رآه ماركوس يومًا، ذاك الراهب الطيب الذي آمن به، وقال له وهو يناوله ورقةً صغيرة:

"النظافة لا تكون في الأرض فقط، يا رومان، بل في القلب. يوماً ما، سيحتاج هذا الدير إلى قلبٍ نقيّ أكثر من حاجته إلى سيفٍ حاد."

ومن يومها، تغير رومان.
لم يعد الصبي الذي يحمل الماء، بل صار التلميذ الذي يحمل السر.
وحين اندلعت النيران في الدير وسقطت الجدران، لم يمت كما ظن الجميع... بل وُلد من جديد من رحم الرماد.

الآن، في أرض البحيرات، كان رومان الراهب الكاتب، يجلس إلى جوار الكفيف يدوّن كل ما يراه، وكل ما يسمعه من ثيودور وأنطونيوس وسيدنا.
كان يحفظ وجوه الجنود، أسماء القرى، وأسرار المخطوطات.
وحين يسأله أحدهم عن سبب تعلقه بالمخطوطات والماضي، يبتسم ابتسامته الصغيرة ويقول:

"من يجهل الماضي، يُقتل به مرتين... مرةً بالجهل، ومرةً بالندم."

وفي قلبه، كان يسمع صدى صوت والده، ذاك القائد الذي رحل منذ زمن:

"التضحية لا تكون في الموت يا بُني، بل في أن تبقى حيًّا وأنت تحمل وجعَ من ماتوا."

ورومان... بقي حيًّا، يحمل الوجع ويكتب الحكاية.
فكل ما كتبه رومان صار بعد ذلك سفر البحيرات — الكتاب الذي سيُروى منه كل ما جرى، عن الراهب الصامت، والطائر، والمخطوطة... وعن شابٍ بسيطٍ بدأ حياته منظفًا في ديرٍ كبير، وانتهى شاهدًا على قدرٍ أعظم من الملوك أنفسهم

الفصل الثالث: عهد السلام

مرَّت عدة أشهر على أرض البحيرات...
بدت كأنها استراحةُ مقاتلٍ قبل العاصفة، أو نَفَسُ الأرض بعد أن نزفت كثيرًا.
سُميت بأشهر السلام، لا لأن الحرب انتهت، بل لأن القلوب وجدت لأول مرة ما يشبه السكون.

في تلك المده ، انشغل أنطونيوس بإعادة تشكيل ما تبقّى من الرجال، نظمهم كمن ينسج نسيجًا من ذهبٍ على قماشٍ قديم.
قسّمهم إلى فرقٍ صغيرة:
– فرقةٌ للحراسة على أطراف البحيرات،
– وأخرى للطرق والممرات،
– وثالثة تتولى إصلاح الأبراج القديمة التي بقيت منذ زمن الرهبان الأول.

كل حجرٍ كان يُرفع في مكانه بدا كأنه شهادة ميلادٍ جديدةٍ للأرض.
وكان ثيودور، الأب الروحي، يتابع بصمتٍ كل شيء، صلاته لا تنقطع، وعيناه الزرقاوان لا تغفلان عن أي حركةٍ في الأفق، كأنهما ميزانٌ يزن الخير والشر في كل قرارٍ يُتخذ.

أما القضاة الثلاثة، فقد جعلوا من أرض البحيرات قريةً ذات نظامٍ دقيق.
أعادوا بناء بيوتها وفق خرائطٍ قديمة كانت محفوظة في المخطوطة، نظموا الساحات، زرعوا الحقول القريبة، وأقاموا المجالس اليومية لبحث شؤون الناس.
لم تعد أرض البحيرات مجرد معسكرٍ أو مخبأٍ للمطاردين... بل صارت قريةً عامرةً بالحياة، تمتزج فيها أصوات الأطفال بتراتيل الرهبان، وصوت المطرقة على الخشب بصوت الماء الجاري من النبع الجديد.

الناس الذين نزحوا إليها من القرى المهددة وجدوا فيها ملاذًا يشبه الوطن المفقود.
رجالٌ بنوا الأكواخ، نساءٌ نسجن الأقمشة، رهبانٌ علّموا الأطفال القراءة والتراتيل.
أنطونيوس كان يمرّ كل صباحٍ يتفقد الصفوف، يربّت على أكتاف الجنود ويقول لهم:

"لن نُهزم ما دمنا نبني. الحرب تبدأ حين نتوقف عن البناء."

في الليل، كان الكفيف يجلس جوار النار، يحكي للصغار عن القرى التي احترقت، وعن البئر التي كانت تُنير القلوب قبل أن تُردم.
أما ثيودور، فكان يقضي ليله أمام المخطوطة، يقرأ رموزها ببطءٍ وهدوءٍ لا يشبه أحدًا، والحدأة تجلس على سقف كوخه كأنها حارسٌ من نورٍ ودمٍ معًا.

شيئًا فشيئًا...
تحولت أرض البحيرات إلى مأوى منظّم، له قوانينه وروحه، كأنها ديرٌ من نوعٍ جديد — ديرٌ يحيا فيه الناس بالحبّ والولاء لا بالأوامر والخوف.
ورغم هدوء الأيام، لم يغب عنهم الإحساس بأن السلام هذا هشّ كزجاجٍ مبللٍ بالندى، وأن خلف الأفق، هناك من ينتظر اللحظة المناسبة ليرمي أول حجر.

لكنهم لم يخافوا...
لأنهم علموا أن هذا السلام مهما قصر، كان بداية أرضٍ جديدة،
أرضٍ وُلدت من الحرب... لتصبح أول خليةٍ للحرية

الفصل الرابع: اتفاق الدم المقدّس

لم يكن أحد يتوقع أن يأتي هذا الخبر مع أولى نسائم الخريف.
حين وصل المرسال من الكنيسة الكبرى إلى أرض البحيرات، كانت الساحة تعجّ بالعمال والفلاحين والجنود،
لكن حين نطق الرجل بجملته الأولى، سكن كل شيء... حتى الطائر على السقف توقف عن الحركة.

"سِيدنا القاضي الأكبر... يطلب الصلح مع الأنبا أوغسطين،
بمباركة البابا والأشراف.
وبتحديد حدود كل أرض، لتستقر البلاد... ويُغلق باب الفتنة."

ارتفع همسٌ مضطرب بين الحضور.
أنطونيوس قبض على سيفه دون وعي،
ورومان حدّق في المرسال كأنه يسمع نكتةً ثقيلة،
أما ثيودور فظلّ صامتًا، وجهه لا يُقرأ، لكن عينيه الزرقاوين تلتمعان كبحيرةٍ قبل العاصفة.

•

في المساء، اجتمع القضاة الثلاثة ومعهم أنطونيوس وثيودور والكفيف.
المجلس انعقد في القاعة الحجرية القديمة، حيث تتدلّى المشاعل على الجدران،
وصوت المطر في الخارج يضرب الأسقف الخشبية كقرع الطبول البطيء.

قال سِيدنا الكبير بصوتٍ هادئٍ مشوبٍ بالقلق:

"الكنيسة قررت أن توقف النزاع...
أوغسطين وسّع أرضه حتى مشارف الجبال.
والبابا نفسه بارك ما سماه اتساع الإيمان.
لقد أصبح له نفوذٌ لا يمكن كسره الآن إلا بحربٍ تُشعل الأرض من جديد.
فخيرٌ لنا الصلح المؤقت... على أن نحفظ أرضنا من الدمار."

صاح أنطونيوس غاضبًا:

"الصلح مع من لوّث اسم الكنيسة؟ مع من باع الرهبان وأحرق الأبرياء؟
أهذا ما تُريده الكنيسة الأم؟!"

أجابه القاضي الأكبر بنبرةٍ حزينةٍ متعبة:

"نعم... هذا ما قرروه في المجمع.
نحن أمام رجلٍ لم يعد مجرد قسّ أو أنبا، بل قوة سياسية وعسكرية...
البابا يريد تهدئة الممالك، لا إشعالها."

تدخل الكفيف بصوتٍ خافتٍ كأنه ينطق من ظلامٍ بعيد:

"الصلح مع الذئب لا يمنع افتراسه حين يجوع،

ولكن ربما يمنح الحمل فرصةً لينجب قبل أن يُؤكل."

نظر إليه ثيودور، ثم قال بهدوءٍ عميقٍ كمن يعرف النهاية سلفًا:

"سيُعقد الصلح... نعم.
ولكن أوغسطين لا يعرف من الصلح سوى اسمه.
هو لا يوقّع اتفاقًا إلا ليخون غدًا،
كما خان من قبله ماركوس وذو اللحية البيضاء وكل من وثق به."

رفع القاضي رأسه وقال بحسمٍ متردد:

"الكنيسة أرسلت موعد الاجتماع... بعد سبعة أيام،
في دير الحجر الأبيض عند حدود المشرق.
وستُقرأ هناك وثيقة الصلح المقدّس،
بحضور ممثلي البابا والأشراف."

صمت الجميع لحظةً طويلة.
الرياح صفّرت بين الفتحات كأنها تهمس بتحذيرٍ غامض.

أخيرًا قال أنطونيوس وهو ينهض:

"إذن فلتكن سبعة أيام نستعد فيها... لا للصلح، بل للغدر."

⊡

في تلك الليلة، حين هدأ المطر،
وقف ثيودور أمام نافذته، والطائر فوق كتفه،
وقال للكفيف بصوتٍ منخفضٍ كأنه يحدث نفسه:

"الكنيسة لا تعلم أنها باركت أكبر خدعةٍ في التاريخ...
فكلما ظنّ الناس أن الدم سيجف،
كان أوغسطين يُعدّ سكينًا جديدة."

وفي الأفق، بعيدًا، كانت نيران دير المشرق تشتعل كأنها تومض وعدًا...
وعدًا بأن الصلح القادم سيكون بداية الحرب الكبرى

الفصل الخامس: الإعداد للصلح — خطة سيدنا وهدوء العاصفة

لم يكن قرار الكنيسة بصلحٍ رسميٍّ سوى شرْخٍ جديدٍ في قشرة السلام الهش. لما رأى سيدنا بنفسه امتدادَ قوةِ أوغسطين وكيف استغل كلامَ الكنيسة ورفعَ راياتِها ليملأ المشرق ثكناتٍ عسكريةً صخريةً، قرّر أن لا يترك مصيرَ أرض البحيرات بأيدي من يظنّون أن السلطة تُستعادِ بالقمع.

في مجلسِ الشورى — بعد أن أقرّ الجميع رسمياً قيادةَ أنطونيوس العسكريّة ودورَ ثيودور الروحيّ — تولّى سيدنا بنفسه مهمةَ الترتيب للتصدي السياسي والعملي. لم يرضَ أن تظلّ الشورى رمزًا بلا فاعلية؛ جعلها جهازًا يُجهّز الأرض للسلام المشروط، وأرضَ البحيرات للامتحان القادم.

خطته كانت مركّبة:

١. ترتيب المظاهر الدبلوماسية: إرسال وفدٍ مدوَّرٍ إلى دير الحجر الأبيض، يضمّ من يُثبِتُ طابعَ الشرف أمام البابا والأشراف — رجالٌ يتكلمون لغة البابا ويعرفون ما يرضيه. هذا الوفد هو غطاءُ العمل الحقيقيّ، لاخراج الصلح بأفضل صيغة ممكنة.
٢. الاستعداد العسكريّ البسيط والمدروس: أنطونيوس يقوّي خطوط الحماية حول البحيرات، يُعيد بناء أبراج المراقبة، ويُعلّق شبكةً من العيون والتغاريد (رسائلٌ سرّية) على امتداد الطرق القديمة. المجندون يتدرّبون على حراسةٍ لا تمثل استفزازًا، بل ردعًا رشيقًا.
٣. خطةُ الإخلاء والملاذ: وضعوا خرائطٍ تؤدي إلى مخارجٍ سريةٍ مُعدّةٍ في القيعان والأدغال، ومخازن طعامٍ مؤقتةٍ وبيوتًا خشبيةً قابلةً للتجميع عند الحاجة.
٤. شبكة الاستخبارات المحلية: الكفيف وجنوده من الروّاد عملوا على بناء قناة معلومات بسيطة في القرى المتحالفة — رسائل شفاهية، رموز في النوافذ، وإشارات في أعمدة الطرق — لمعرفة تحرّكات فان وقوات أوغسطين قبل أن تظهر.
٥. الغطاء الدينيّ: ثيودور جهّز خطبةً عامةً تُقرأ أمام البابا إن اقتضى الأمر، تُذكر الطاعةَ لكن تُطالبُ بحمايةَ الضعفاء وحقوقَ الأقليات، لتكون حجّةً قانونية في حال تلاعب أوغسطين بصيغة الصلح.

لم يغب عن بال سيدنا أن أوغسطين قد بنى ثكناتٍ صلبةً حتى حول الأرض التي هُجرَت من قِبل أهلها، وأن رسائلَ الخوف عن «لعنة الراهب الملعون» قد أصبحت أداةً سياسويةً — فخطته إذن لا تُعنى فقط بالمواجهة المسلحة، بل بالمَنع الدبلوماسيّ الذكيّ: يأخذ الصلح على ورقٍ يُحفظ حقوقَ البحيرات، وفي الوقت نفسه يبني صَفًّا داخليًّا قويًّا على الأرض.

أمضى سيدنا الأيام الثلاثة التي سبقت الرحلة إلى دير الحجر الأبيض في لقاءاتٍ مغلقة: مع أنطونيوس صيغت نقاطُ القوة والانسحاب الطارئ، ومع الكفيف تُركّت إشاراتٌ مشفّرةٌ في السوق، ومع رومان رُتِّبت دفاترُ السرد لتوثيق كلّ حدثٍ إن ساءت الأمور.

حين انتهت التحضيرات، خرج الوفد — ثلاثيّ الشكل: وجوهٌ رسميةٌ تُبدي طاعةً ومهابةً في الممرّات، وعيونٌ سريّةٌ في الظلّ — متجهين نحو مكان اللقاء. الهواء ثقيل، السماء رمادية، والمشاعر مختلطة بين أملٍ حذرٍ وخشيةِ فخٍ.

وبينما كانوا في الطريق، تهيّأ ثيودور للقاءٍ صار له وحده: لقاءٌ مباشرٌ مع أوغسطين لتوقيعِ ما ستُسمّى لاحقًا «وثيقةَ الصلح الأبوي». كان يعلم أن توقيعه لن ينهي شيئًا، لكنه كان يعرف أيضًا أن غيابَه عن الطاولة سيمنح أوغسطينَ حريةً مطلقةً.

هكذا انتهى الإعداد: مَشيةٌ دبلوماسية على حبلٍ رفيع، وخرائطُ إحتمالاتٍ مُرسومةٌ بدقّة، وقلوبٌ في أرض البحيرات متأهّبة — لا للسلاح فقط، بل للمشهد الكبير الذي سيكسر السكون أو يُرسّخه

الفصل السادس: اللقاء المهيب – وثيقة الصلح الأبوي

كان اليوم مهيبًا، كأن الزمن نفسه وقف على أطراف أصابعه مترقبًا ما سيحدث.
في قاعة الدير الكبير — دير الحجر الأبيض — تدلت المشاعل في صفوفٍ طويلة، والنوافذ الملونة تلقي ألوانها على الأرض الرخامية كأطيافٍ متكسّرة بين النور والظلال.
في صدر القاعة جلس الأنبا أوغسطين، مرتديًا عباءته السوداء المطرّزة بخيوطٍ فضية، وعلى وجهه ابتسامة هادئة لا تخفي ما وراءها من جمرٍ يشتعل في الأعماق.
إلى يمينه القائد، صامتٌ كتمثالٍ من الحديد، وإلى يساره كبار الكهنة والموفد البابوي الذي جاء يحمل رسالة البابا.

دخل الوفد القادم من أرض البحيرات في صفٍّ مهيب.
يتقدمهم سيدنا بثباتٍ يشبه السكينة، يليه أنطونيوس بملامح حازمة، ووراءهما الكفيف ورومان وبعض من القضاة المرافقين.
كان الهمس يملأ القاعة، كلٌّ يتهامس باسم الراهب الملعون والبحيرات البعيدة التي أصبحت حديث الناس، حتى ساد الصمت فجأة حين أعلن حاجب الدير بصوتٍ جهوريّ:

"حضرة الأنبا أوغسطين، وحضرة الأب سِيدنا، يلتقيان الآن في صلحٍ مباركٍ برعاية الكنيسة الأم."

▯

رسالة البابا

وقف الموفد البابوي، رجل نحيل ذو صوتٍ رخيم، وأخرج من حقيبته رقًّا مختومًا بالشمع الأحمر، ثم قرأ بصوتٍ واضحٍ يجلجل في القاعة:

"باسم الكنيسة الأم، وبسلطة الكرسي المقدّس،
نُقرّ بما يلي:
أن تُحفظ حدود أرض البحيرات تحت وصاية القضاء الثلاثي،
وأن تُبسط يدُ الأنبا أوغسطين على أرض المشرق وما يليها،
وأن يُمنع القتال بين الرهبان وتُقطع ألسنة الفتنة،
ويُعدّ هذا الصلح وثيقةً أبويّة تحفظ الإيمان والوحدة.
والسلام."

انحنى الموفد، وطوى الرقّ ببطء، وارتدّ صدى كلماته في القاعة كصوتٍ لجرسٍ بعيدٍ يُعلن نهاية معركةٍ لم تبدأ بعد.

·

حوار سِيدنا وأوغسطين

اقترب سِيدنا بخطواتٍ ثابتة، وعيناه تتأملان وجه أوغسطين الذي لم يتغير كثيرًا... نفس الهدوء الماكر، نفس النظرات التي تُخفي نوايا لا تُقرأ.
قال سِيدنا بصوتٍ منخفضٍ لكنه واضح:

"جميل أن نلتقي بعد كل هذا... كنت أظن أن السلام لن يجد طريقه إلينا."

ابتسم أوغسطين تلك الابتسامة الباردة التي اعتادها الجميع:

"السلام يا سيدنا ليس ما نطلبه، بل ما نصنعه.
أما أنتم، فقد صنعتم لأنفسكم بحيرةً في أرضٍ ميتة.
أنتم تزرعون الطمأنينة في الوحل، وتسمّونها حرية."

تأمل سِيدنا في كلماته لحظة، ثم قال بهدوءٍ حكيم:

"حتى الوحل يُثمر إن سُقي بالصدق.
أما الصخر، فلو نزل عليه المطر، لا ينبت إلا الغرور."

سرت همهمةٌ خفيفة بين الحضور، لكن أوغسطين ظلّ مبتسمًا، رفع كأسه الرخاميّ وقال:

"إذن، لنجعل هذا السلام صدقًا لا وهماً.
لنوقّع وثيقة الكنيسة، ونترك الكلام للزمن، فهو وحده القاضي بيننا."

·

توقيع الصلح

امتدّت الرقعة على الطاولة الرخامية الكبرى، وبدأت الأيادي تُوقّع عليها بخطوطٍ ثقيلة.
وقّع أوغسطين أولًا، ثم القائد، ثم الموفد البابوي، وبعدهم سِيدنا وأنطونيوس.
وبين كل توقيعٍ وآخر، كانت الرياح في الخارج تزداد عصفًا، حتى بدا كأن السماء نفسها تراقب هذا المشهد بنَفَسٍ محبوس.

حين أُغلق الرقّ بالشمع من جديد، ساد القاعة صمتٌ غريب... لا هو سلام، ولا هو تهديد.
مجرد سكونٍ يتأرجح بين الحذر والريبة.

⊡

اللقاء المنتظر — ثيودور وأوغسطين

وعند انصراف الوفود، أُغلق الباب الكبير، ولم يبقَ سوى ثلاثة:
الأنبا أوغسطين، القائد، وثيودور الراهب الصامت.

وقف ثيودور في مواجهةٍ مباشرةٍ معهما لأول مرة منذ سنواتٍ طويلة.
وجهه لم يعد ذلك الوجه الخائف، بل مزيجٌ من الصبر والعزم، وعيناه الزرقاوان تلمعان بضوءٍ باهتٍ كوميضِ فجرٍ يسبق العاصفة.

قال أوغسطين، وهو يطوي يديه خلف ظهره:

"ها أنت ذا... الراهب الملعون كما يسمّونك.
ما أكثر ما حيكت من أساطيرٍ باسمك.
والآن جئت لتبارك صلحي؟ أم لتفتح صفحة جديدة من جنونك؟"

لم يتحرك ثيودور خطوةً، ولم يردّ فورًا، بل رفع عينيه نحو المشاعل المعلّقة وقال بصوتٍ هادئٍ مهيب:

"ما يُسمّى باللعنة يا أنبا... ليست سوى أثرٍ من خطيئةٍ لم تُغسل بعد.
أنت من فتح البئر... وأنت من ردمها.
وما بين الفتح والردم وُلدت اللعنة.
أما أنا... فلا أحملها، بل أحمل خلاصها."

تصلّب وجه القائد، وبدت على أوغسطين لحظةُ ارتباكٍ عابرة، لكنه سرعان ما استعاد ابتسامته وقال ببطءٍ:

"الخلاص؟ أم الكارثة؟ سنرى... حين نبدء من جديد."

في تلك اللحظة، مرّت الحدأة — الطائر — فوق نوافذ القاعة، ظلّها الأسود يغطي وجوههم للحظةٍ خاطفة، ثم اختفى.
سكت الجميع.
أما ثيودور، فاكتفى بأن قال بنبرةٍ هادئةٍ لكنها مشبعةٌ بالرهبة:

"الفجر لا يأتي إلا بعد أشدِّ ساعات الليل ظلمةً، يا أنبا."

وغادر القاعة، تاركًا أوغسطين والقائد خلفه في صمتٍ ثقيلٍ...
كأنهما يسمعان في البعيد صوت الطائر يعود، ينذر بأن هذا الصلح ليس إلا هدوءًا ما قبل الطوفان

الفصل السابع: الصلح البارد – بداية الحرب الخفية

مرّت أسابيع بعد اللقاء المهيب، وانشغل الجميع بما ظنّوه سلامًا طويلًا.
لكن السلام الذي يفرضه الخوف لا يُزهر سوى نارًا تحت الرماد.
في تلك الأيام كان يوهان قد تعافى من جراحه القديمة، جسدًا وروحًا، وبدأ يتحرك بين صفوف الجنود والكهنة في أرض البحيرات بخطواتٍ تشبه خطوات من استعاد قلبه بعد فقدٍ طويل.

•

مجلس القادة في البحيرات

في صباحٍ غائمٍ مائلٍ إلى الصمت، اجتمع القادة في القاعة الجديدة المطلة على البحيرة.
جلس سِيدنا في صدر المجلس، وإلى يمينه أنطونيوس، وإلى جوارهما الكفيف، وثيودور في المقعد المقابل، ساكنٌ كتمثالٍ من نورٍ رمادي.
حين دخل يوهان، وقف الجميع احترامًا، فوجهه لم يعد وجه الفتى المرسل الخائف، بل وجه رجلٍ عركته التجارب، وملأ قلبه غضبٌ صامت من نارٍ لا تنطفئ.

قال بصوتٍ هادئ لكنه حاد كحدّ السيف:

"سمعت أنكم وقعتم الصلح مع أوغسطين... مع قاتل أبي، ومُهدم المشرق، وسارق البئر، ومُطفئ نور ماركوس وإسحاق.
كيف تصالحون من جعل الدماء صلاةً جديدة على مذابح طغيانه؟!"

ساد الصمت.
نظر إليه سِيدنا طويلًا بعينٍ حزينة، ثم أطرق وقال بصوتٍ متزنٍ يحمل ثقل السنوات:

"يا ابن الرجل الصالح... يا من فيك أثر أبيك وعقله الرازن، لا تحكم قبل أن ترى.
الصلح يا يوهان ليس ضعفًا، بل ترتيبٌ للأوراق.
نحن نعيد الزمن إلى نصابه، لا نستسلم له."

ضرب يوهان بيده على الطاولة، فتردّد الصوت في أرجاء القاعة كقصفٍ خافت:

"الزمن؟!
أي زمن؟!
زمنٌ يقتل فيه الصالحون ويُرفع فيه الظالمون؟
هل نسيت دماء ماركوس؟ هل نسيت رقاب إسحاق ورجاله؟
أم تراها لم تكن كافية ليكتب بها التاريخ وجوه الملعونين؟!"

لم يرد سِيدنا فورًا، بل أدار وجهه نحو النافذة المطلة على البحيرة، ثم رفع يده ببطءٍ نحو وجهه ومسح بها كمن يطفئ نارًا خفية في صدره، ثم قال بهدوءٍ غريبٍ يشبه صوت الأب حين يؤدب ابنه بالرحمة:

"يا ابن الرجل ذو اللحية البيضاء...
لو كنت هنا لرأيت كيف يُطفئ الصبر نار الغضب.
اجلس، واستمع لأنطونيوس... فقد أعدّ ما لا يخطر لك على بال."

•

خطة أنطونيوس – الحرب الباردة

تحرّك أنطونيوس بخريطةٍ واسعةٍ على الطاولة، عيون الجنود تتابع كل حركةٍ من يده.
كانت الخطة جريئة، ماكرة، لا تشبه الحرب المفتوحة بل حربًا في الظلّ، تُستنزف فيها قوة العدو دون طلقة واحدة.

قال أنطونيوس بنبرةٍ ثابتةٍ عسكرية صارمة:

"منذ الصلح، أوغسطين يظن أنه أمَّن طرقه من الشرق إلى الغرب.

لكننا نملك العصب الذي يربط تلك الطرق.
قوافل تجارته تمرّ عبر خمس مساراتٍ أساسية — اثنان في الجنوب، وثلاثة في الشمال.
سنقطعها كلها... لكن دون أن يرانا أحد."

اقترب الكفيف وهو يلمس أطراف الخريطة بعصاه، قائلاً:

"الحرب الباردة... حرب العقول لا السيوف.
لا يُهزم أوغسطين بالدم، بل بالحرمان من الذهب والغذاء."

ابتسم سِيدنا نصف ابتسامةٍ وقال:

"سنخنق صرحه دون أن نكسر حجرًا فيه."

⊡

تكليف يوهان — قائد الكشّافين

حين انتهى أنطونيوس من الشرح، التفت إلى يوهان وقال:

"أنت أكثرنا علمًا بالطرق، كنت مرسال أوغسطين، تعرف مداخله ومخارجه، تعرف حراسه وممراته الخفية.
باسم المجلس، نعينك قائدًا للكشّافين.
كل طريقٍ تمرّ به قافلة، سيكون لك فيه عينٌ وسمع."

رفع سِيدنا يده مؤكدًا القرار:

"هذه ليست حربًا بالسيوف يا يوهان، بل حربٌ بالذكاء والصبر.
ستكون عيوننا في أرض المشرق.
من هناك... تبدأ النهاية."

تأمل ثيودور المشهد بعينٍ حزينة، ثم قال بصوتٍ خافتٍ عميق:

"احذروا أن تتحولوا إلى ما تحاربونه.
فالظلام لا يُهزم بظلامٍ آخر."

لكن كلمات الراهب الملعون لم تُطفئ الحماسة التي ملأت القاعة.
كان القرار قد صدر:
حربٌ باردة، ذكية، صامتة.
تبدأ بالكشّافين، وتنتهي بإضعاف أوغسطين قبل أن يدرك ما يحدث.

⊡

مع مغيب الشمس، خرج يوهان من القاعة، خلفه الطائر يحوم في السماء بصرخاته المقطّعة.
كان يعلم أن ما ينتظره ليس طريقًا للانتقام فقط، بل طريقًا نحو قلب لعبةٍ أكبر من الجميع.
أما في الدير البعيد، في مكانٍ يملؤه الدخان والبخور، كان أوغسطين يجلس في عتمة قلايته، يبتسم بهدوءٍ كمن يشعر بشيءٍ يتحرك في الظلال.
قال بصوتٍ خافتٍ للقائد بجانبه:

"الريح تغيّر اتجاهها يا صديقي...
لكني ما زلت من يتحكم في العاصفة."

وصدى صوته انطفأ تمامًا كما انطفأ آخر خيطٍ من ضوء الغروب،
ليبدأ زمن جديد...
زمن الصلح البارد والحرب الخفية

الفصل التاسع: بصمة الفيل — خريطةٌ في الدم
الفصل الأطول
جلس ثيودور وحيدًا أمام مصباح الزيت في كوخه الصغير على حافة البحيرة. خارج النافذة، كان الشتاء يحمِلُ نَفَسَهُ الحادّ: رياحٌ تزمجر، قطرات مطرٍ مختلطةٍ بطينٍ تعزف موسيقىً وحيدة على أسطح الخشب. الطائر — الحدأة — جاثمٌ فوق عودٍ خشبيٍّ بالقرب من الباب، عينه الحمرا تلمع كما لو أنها تواطأت مع الظلام.

شغفُه بالمخطوطة لم يَنَم منذ أيام. بين طيات الورق المصفر، كان يقرأ ويعيد القراءة، يحكّ ظهر قلمه بعصبية، يتهيّب من كل رمز وكأنه كلمة حُرِّمت للنطق. ثم، في لحظةٍ يقظةٍ دافقة، حدث ما لم يتوقعه: الرموز — واحدة تلو الأخرى — بدت كأنها تتنفس.
لم تكن عيناه تخدعه؛ الحبر القديم، في ضوء المصباح الخافت، بدأ يتحرّك. خطوطٌ كانت ثابتةً تبدلت إلى خيوطٍ من الضباب ثم تكوّنت إلى أشكالٍ متقاطعة، تعلو وتغيب، كأن المخطوطة نفسها تُعيد رسم العالم على صفحاتها.

تابع ثيودور بقلبٍ يقرع في صدره. تشكّلت علامةٌ كبيرةٌ شبيهة برمز اللانهائية — ∞ — لكنها لم تكن مجرد رمز ، بل طريقٌ ملتفٌ يمتد من بحرٍ صغير إلى تلّةٍ عالية، ومِن عند تلك التلّة خطوطٌ تتفرع إلى خرائط صغيرة لطرقٍ ونقاطِ تلاقي. بين تلك الخطوط، تحرّكت صورةٌ صغيرة: طائرٌ يطير في مسار حلزوني، ثم تختفي، ثم تظهر مرةً أخرى، ويرافقها خطٌّ أحمرٌ يجري عبر الخرائط كأنه سيلٌ من الدم.

عاد قلبه ليقفز — الطائر والرمز والمخطوطة؛ كلهم كانوا جزءًا من خريطةٍ حيةٍ. ثم، فجأةً، انفتحت الصفحة على مشهدٍ واحدٍ قاسٍ: في حبرٍ أسودٍ ثخين، رسمت يدٌ قديمةٌ عملاقةٌ شكل فيلٍ غاضب، ضخم العهد، يرفع قدمه الأمامية ويَدهسُ — لا يقتل بل يدكّ — فهدًا بشراهةٍ حتى يطحنَ عظامه. المشهد تحوّل إلى حركةٍ، وكأن الفيل الحقّي خطا على رقعةٍ من جلد الخريطة، فسالت خطوط الدم من تحت قدميه وخَرَجت أصواتٌ مكتومة — صفيرٌ، نباحٌ، صدى أقدامٍ يقترب.

وقف ثيودور وقد التقطت أصابعه برعدةٍ باردة. شيءٌ في داخله أدرك الحقيقة قبل أن تتكلّم الشفاه: أرض الأفيال ليست أسطورةً فقط، بل قبائلٌ حقيقية — لا قبائل حربٍ فقط — بل قوافلُ ضخمةٌ من التجار والمحاربين تحمل معهم طعامًا وبضائع في ذروة الشتاء. في المخطوطة، الفيل ليس رمزًا للخشونة وحدها، بل رمزٌ للقوة التي تَمرّ عبر الأرض وتحطّم كل من يقف في طريقها. الفهد الذي دُسّ كان رمزًا لسرعة ومكر — ربما لصقورٍ سريعةٍ أو كتيبةٍ خاطفة. الفيل دكّها، وكأن الخريطة تُنذر: من يجرؤ على مواجهة هذا السيلّ سيُدهس قبل أن يعقل ما حلّ به.

تذكّر ثيودور في خاطره ما أخبَرَه يوهان قبل أيام: بعض القوافل — تلك القادمة من أرض الأفيال — كانت تقنعُ بالانحناء، وبعضها تُعطّل عمدًا لتكسب الوقت. الآن ربط ثيودور الخيوط معًا: إن لم تقع تلك القوافل تحت جناح أوغسطين، فسيكون أوغسطين هو من يلتقيها عند الحدود ويستغل وصولها ليشدّد قبضته؛ وإن التقى فان بها فستُستخدم مواردها لإدامة آلة الحرب. الفيل في المخطوطة لم يكن تهديدًا عسكريًا فحسب، بل كان مفتاحًا لاقتصادٍ كامل، ومَن يملكه يشتري ولاءاتَ القرى أو يخنقها جوعًا.

بصق ثيودور في يده وغمرته يقظةُ الخطة. هدأ، جمع الأوراق، وخرج مسرعًا إلى خيمة أنطونيوس حيث يجتمعون سريعًا في الليالي الطوال. عند المدخل، لم يبدُ الطائر متضايقًا؛ كان كما لو أنه يوافق.

في الاجتماع، عرض ثيودور ما رآه: الرسوم المتحركة في المخطوطة، رمز اللانهائية الذي يربط طرقًا لا تُرى بالعين المجردة، ومشهد الفيل الذي يدهس الفهد. شرح بلغةٍ قصيرةٍ قاطعةٍ ما يعنيه ذلك — وصول قافلةٍ ضخمةٍ من أرض الأفيال في ذروة الشتاء، محمّلةٍ بالحبوب والمواد، ومعها فرصةٌ لأغسطين أن يثبت نفوذه أو لعكس الأمور لصالحهم إن وصلوا إليها أولًا.

أنطونيوس رفع حاجبه، الكفيف ضغط عصاه على الأرض كمن يؤكد:

«إنها إمداداتٌ ستُشبع الجيوش وتدفع القرى إلى الولاء. إن وصلت إلى أوغسطين فهو النبض، وإن توقّف وصولها فهو خناق.»

رومان، الذي رتب دفاتره ودوّن كل هذا بسرعة، قال بصوتٍ ملفوفٍ بالخوف والمثابرة:

«موعدها عند ذروة الشتاء — أي قبل أسبوعين من الآن. أوغسطين لديه موفد لاستقبالتها عند أول الحدود. إن وصلنا قبل الموفد، فثمة مجالٌ لثنيها أو لقطع اتصالهم.»

نظر الجميع إلى ثيودور. كان الطقس قاسياً، والقوافل بين جبالٍ ووديان، وموعدُها يقترب.
ثم قال ثيودور بهدوءٍ جليٍّ كمن يقطع قيدًا:

«خطتنا: نصل إلى نقطة اللقاء قبل أن يبلغهم موفد أوغسطين. نودّع القافلة مجازًا — لا نهبًا — ونقنع قادتها بأن طريقها دومًا إلى البحيرات الحرة، لا إلى معسكرات الطغاة. إن رفضت، نُعرّض طرقها لشبكات تعطيلٍ مُحَدَّدة: مساراتٌ تبدو مسدودةً بأحجارٍ قديمةٍ وعبّاراتٍ مفتعلة. نُحرّم عليها المرور بأمان مع قافلةً مسروقةٍ إلى أوغسطين. وإن لزم الأمر، نُقَرّر إطلاق صراعٍ محدودٍ يشتّت موفد أوغسطين ويمنع التقاءهما.»

أنطونيوس وضع كفه على الطاولة وقال بصراحةٍ عسكرية:

«سنُرسِلُ كتيبةً من الكشافين بقيادة يوهان. الطائر سيكون عيننا، وكفيفُنا سيبقي شبكةَ الإشارات. رومان يوثق، وسأُبقي فرقة احتياطٍ جاهزة لإغلاق الطريق إن اقتضى الأمر. نصل قبلهم — نتحدث قبل أن يَسمعوا. وإلا... فليكن صراعٌ يُضعف إمكاناتهم.»

ودون تردد، اتفقوا على السرعة: نقطة اللقاء الأولى ستكون عبر ممرٍ جبليٍّ ضيقٍ تَعرفه الخريطة على شكل حلقةٍ للانهائية، حيث تُظهر المخطوطة مسار الفيل يتجه عبره عادةً.
انطلقوا فورًا — أربعةٌ أو خمسةٌ رجالٍ مُتخفّون — يجرّون خلفهم الطائرَ وحبر المخطوطة في جيوبهم، وكلّ ما بقي هو أن يسبقوا ظلالَ فان وموفده قبل أن تصل القافلة.

وفي لحظةٍ قصيرةٍ، بينما كانت عتمة الليل تلتهم رحيلهم، رأى ثيودور خيال الفيل مجددًا في صفحةٍ أخرى من المخطوطة، فحبس أنفاسه وقبل بصمتٍ على الورق كما يُقبلُ كاهنٌ أيقونته.
قال في نفسه بصوتٍ مكتومٍ:

«إنه اختبارٌ آخر. فلنرَ من يجنحُ الفيلُ برحمته، ومن يدوسُ الفهدَ بقدمه»

هطلت أمطارٌ كقِبَابٍ غضبٍ لثلاثة أيام متوالية، ثم تبعتها أسابيع من شتاءٍ قاسٍ كأنه يختبر عظام الأرض. مرّ أسبوعان منذ أوّل إشارتهم إلى القافلة، وقد أمضت أرض البحيرات كل يومٍ في تجهيزٍ لا يُرى سوى في صنوف الرجال المتمرّسة: أحذيةٌ مُغطّاة بالطين، حبالٌ مدبّلة، حصائرٌ مُطوية، وأخشابٌ قصيرةٌ تُستعمل لردمٍ مؤقتٍ أو لنسجٍ مفاجئ فوق مجرىٍ طيني.

كان يوهان قد وصل قبل الأيام القليلة الماضية، ومعه كتيبةٌ صغيرةٌ من الكشّافين — رجالُ طرقٍ عرفاء، لا يُبهرهم المطر ولا يخشون انزلاقَ الحجارة. نُصِبَ المعسكر في أوّلِ رُكنٍ صخريٍّ يطلُّ على الممر؛ موقعٌ يُمكّنهم من رؤية القافلة قبل أن تُطلّ على الكمين، مع ممرٍّ جانبيٍّ صغيرٍ يتيح الانسحاب أو الاقتحام على نحوٍ مُفاجئ.

شرح يوهان الطريق أمام رفاقه في الليلة الأولى، بصوتٍ هادئٍ مبنيٍّ على سنوات المراس:
"الممر الذي ستعبره القافلة ليس طريقًا واحدًا، بل سلسلةُ مساراتٍ متشابكةٍ بين الحجارة. هناك قناتان ضيقتان للمياه، وعرضهما يكفي لعربةٍ واحدةٍ فقط. بعد الفجوةِ الثالثة، تنحرف القافلة إلى يسارٍ نحو وادٍ مُغطّى بأشجار صنوبرٍ صغيرة؛ ومن هناك تبدأ هضبةٌ قصيرةٌ تنتهي بمنحدرٍ حادٍّ قبل أن تفتح على السهل. إن أردتم وقفهم، فهنا نقطتان: الأولى عند المُنحدر حيث نغلقُ الطريق بحجارةٍ متدفّقة، والثانية عند الفجوة الثالثة حيث نهدمُ بعضَ العُوارض القديمة فتتباطأ السرعة ويحدثُ تشتّتٌ — هذا وقتنا."

صعوبة الطريق كانت فيخدعها المطر: الطينُ يلتصق بالعجلات، الحبل المنسوج للمرور يُصبح زلقًا، والأدلة الخفيّة على الطريق — آثار أقدامٍ قديمة، علاماتُ عصيٍ على جذوع الأشجار — تختفي تحت الطين. ولذلك كان الطائر — الحدأة — أعينهم في الجو:

لا يرى كما ترى العيون البشرية، بل يقرأ الريحَ والبوحَ والصدَى. عندما يصرخ الطائر ثلاثَ صرخاتٍ متتابعةٍ ــــ قصيرةٍ، حادةٍ، ثم طويلة ــــ فالنداء يعني "اقتراب"، أما حين يقفز نحو الشمال ثم يلوح بجناحه، فذلك "التوجُّه"، وحين يدور في حلقةٍ منخفضةٍ فذلك "قافلةٌ على هيئةِ مسارٍ حلزوني".

في فجر اليوم الثالث بعد وصول يوهان، دوّى الصوت الذي كان يخشاه الجميع ــــ صفيرٌ بعيدٌ، تلاه صوتُ حوافرٍ وثقلٌ متكرر: القافلة تقترب. تسلّقوا إلى نقاط الرصد، أنفاسهم متقطعةٌ بين بردٍ وإثارة، والحدأة تحومُ فوقهم كأنها كاشفةٌ للقدر.

من بعيدٍ، بين خطوط المطر والضباب، ظهرت ظلالٌ متحركة: أقمشةٌ مبللةٌ تشعُّ بألوانٍ باهتة، أعلامٌ صغيرةٌ ترفرف، وأطرافُ عرباتٍ خشبيةٍ حافةٌ تعانق الأرض. انفتحت المسافة ببطءٍ وكأنها تُقدّمُ شيئًا غريبًا للكائنات التي تترصّدها. رُكابٌ وآخرون على ظهورِ حميرٍ وجمالٍ، ووجوههم محنطةٌ من الزمن والأشغال، لكن هنالك رجلًا واحدًا كاد أن يقاطع المشهد: قائدُ القافلة.

كان طويلًا، قامةٌ ممتدةٌ كالنخلة، عريض الكتفين كصخرةٍ مصبوبة. جلده أسمرٌ مظلمٌ من شمسٍ لم تُطفئها أية سماوات، وعضلاته تتلألأ تحت قميصٍ رطبٍ مبللٍ بالطين. تعامله غليظٌ ووجهه قاسٍ لا يُعرف له ابتسامةٌ حقيقية؛ عيناه ضيقتان تحسّان كل حركةٍ، وكأنّ كل نظرةٍ منه تزن قرارًا بالموت أو الحياة. كان رمزًا لمن عرفوا التهريب: لا يرحم، لكنه ملتزمٌ بعقدٍ مع نفسه ــــ نظامُه؛ لا يُحادث إلا بالضرورة، لا يبدّلُ وعدَه.

تقدّم على عربته الأماميّة، رأسه يواجه الريح، وفي يده سوطٌ طويل وكرّبونٌ مُعطّنٌ من رائحةِ توابلٍ بعيدة. عندما رآهم من قريبٍ، لم يُبدِ دهشةً، بل رمقهم بنظرةٍ مختصرة، ثم أمر بصوتٍ حادٍّ: "خذوا مَنْ يخدم الطريق، وارفعوا الأرصفة إن استوجب الأمر." لم يخلُ ذلك من تهديدٍ واضح: كان يرسل إشارةً لمن حوله أن لا تُضايقوه، وأن أي محاولةٍ مراوغةٍ ستُقابلُ بالقسوة.

تبادل يوهان ونظره الخفي مع أنطونيوس؛ الرجل على العربات ليس مجرد تاجرٍ بل قائدٌ لنوعٍ من النظام الخشن ــــ سمسارُ بلادٍ وممرّاتٍ، يعرف كيف يحمّل ويحيط نفسه بعُرفاءٍ لا يسألون. في عين يوهان شعورٌ ببرودةٍ: "هذا الرجل لا يُباع ولا يُشترى بسهولة" همس، ثم أومأ لفرقه الصغيرة: "انتظروا إشارتي. لا تندفعوا قبل أن تفشل محاولتنا أولًا في الكلام."

اقتربت القافلة أكثر، والخطر صار واقعًا ملموسًا: الطائرات الصغرى للحدأة حولت دوائرها، ونزلت بلمحةٍ أمام القائد ــــ إشارةُ مراقبةٍ منه أو أمرٌ من الطائر؟ لم يُدرِك أحد. أمطرَ الجو بصوتٍ غائرٍ، وبدأت الحكاية التي قد تنقلب إلى نصرٍ أو إلى دكٍّ تحت أقدام الفيل

كانت السماء كأنها بحرٌ مقلوب، والمطر يهوي على الأرض كسياطٍ من نارٍ باردة.
صوت الرعد يتردد بين الصخور كأن الجبال نفسها تغلي، وفوق الممر الضيق توقفت القافلة بعد أن سُدّ الطريق بأحجارٍ انزلقت "مصادفةً" من فوق التلة.
صرخ أحد رجال القافلة:
ــــ "توقّفوا! الطريق انسدّ!"

في تلك اللحظة، خرج يوهان من بين الظلال، يرفع يده علامةً للسلام، يغطّي رأسه بردائه الغارق بالماء.
بجانبه وقف اثنان من رجاله، لا يحملون سيوفًا مسلولة، بل عصيًا طويلة غُرست أطرافها في الطين.
كان وجهه هادئًا رغم العاصفة، وصوته حادًا كالسيف:
ــــ "لا خطر عليكم، لسنا لصوصًا ولا نطلب شيئًا إلا اللقاء."

تأهّب رجال القافلة فورًا، وأصوات السيوف المجرودة اختلطت بصوت المطر.
لكن قبل أن يُصدر أحدهم أمرًا، سُمع صوتٌ أجشّ قادمٌ من مقدّمة القافلة:
ــــ "اهدأوا."

خرج مهربان.
الرجل الأسمر الطويل الذي بدا كأنه قطعةٌ من ليلٍ تسير على قدمين.
نظراته ثقيلة، وصدره العريض يهتز مع كل نفسٍ كأن بداخله رعدًا آخر.
تقدّم بخطواتٍ بطيئة، والسوط في يده يضرب الهواء بخفةٍ تحذيرية،
ثم أشار بيده إلى رجاله أن يخفّضوا أسلحتهم دون أن يُنزلوها تمامًا.

قال بصوتٍ أجشّ عميقٍ غارقٍ بالريبة:
ــــ "من أنتم؟ نحن على عتبة أرض أوغسطين، وحدودها لا يجرؤ أحدٌ على المساس بها منذ أعوامٍ طويلة.
منذ عهدٍ لم تَجسُر فيه يدٌ على عرقلة قافلةٍ واحدةٍ من أرض الضيّ... فمَن أنتم؟ وكيف تجرؤون؟"

تقدّم يوهان خطوتين وسط المطر، حتى صار بينه وبين مهربان أقل من ذراعين،
وقال بهدوءٍ مطلقٍ لا يناسب العاصفة المحيطة بهما:
ــــ "لسنا أعداءك يا مهربان، ولسنا من رجال أوغسطين أيضًا.
نحن فقط نطلب مجلسًا صغيرًا، وساعةً من الأمان حتى تهدأ السماء.
لن نمنع قافلتك من المرور، بل نطلب منك أن تتوقف قليلًا، فقط كي لا يبتلعها الطين."

ساد الصمت لوهلة.
كان المطر يضرب خوذات الرجال، ورائحة الطين المبلول تملأ الهواء.
تأمل مهربان الشاب الواقف أمامه؛ لا يرتجف، لا يتراجع، ولا تظهر عليه علامات الخوف التي يعرفها في وجوه اللصوص.
ثم قال بصوتٍ خافتٍ كأنه يختبر نفسه:
ــــ "تقول إنك لست من أوغسطين... ولا من قطاع الطرق... إذًا من تكون؟"

أجابه يوهان بثقةٍ هادئة:
ــــ "نحن من أرضٍ لم تُذكَر بعد في خرائطكم... أرض البحيرات.
مررنا برسائلٍ كثيرةٍ من الدم والدمار.
نحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه قبل أن يبتلع الجميعَ جنونُ أوغسطين ورجاله.
أنت تاجرٌ، وأنا أعرفك من الاسم قبل أن أراك.
قوافل الضيّ تمر كل عام، لكن هذا العام مختلف...
هناك من ينتظر قافلتك على الحدود ليأخذها رهينةً باسم الحماية، باسم الدين، باسم اللعنة.
وأنا جئت أحذرك."

تغيّر وجه مهربان.
لمعت عيناه للحظة، ثم نظر نحو الغرب، حيث الأفق مختبئ تحت المطر، كأنّه يبحث عن الحقيقة في العاصفة.
أشار إلى رجاله قائلاً بصرامة:
ــــ "احتموا بالعربات، اجمعوا البضائع تحت الأغطية، ولا تقتربوا من أحد."

ثم عاد إلى يوهان، يحدّق فيه بتمعّنٍ طويلٍ كمن يرى شيئًا لم يتوقعه، وقال:
ــــ "ما الذي تريد؟"

ابتسم يوهان ابتسامةً صغيرةً بالكاد تُرى تحت المطر، وقال:
ــــ "سأقول لك ما لا يقوله رجال أوغسطين... العاصفة هذه ليست فقط من المطر.
الطائر الذي رأيته يحوم منذ ساعة هو إنذار، لا يخطئ.
اترك طريق الحدود، وسِر في طريقنا نحن.
سيكون لك ولرجالك أمانٌ وطعام، ونحمي قافلتك حتى تنقضي العاصفة."

ظلّ مهربان صامتًا لثوانٍ طويلة، ثم مدّ يده القوية إلى يوهان وقال:
ــــ "كلامك أشبه بالمطر... ثقيلٌ لكنه صادق."

صافحه بقبضةٍ قويةٍ جعلت الماء يتناثر من بين أصابعهما،
وعندها خرج أنطونيوس من خلف الصخور، ملامحه ثابتةٌ، لكن في عينيه دهشةٌ حقيقية.
اقترب ببطء، يراقب المشهد وكأنه يرى معجزةً صغيرة.

قال بصوتٍ مبحوحٍ يخاطب يوهان:

— "ما فعلته بكلماتٍ لا تفعله الجيوش.
هذا الرجل لو شعر بشبهةِ تهديدٍ واحدة، لرفع السيوف واسال الدماء دون أن يرمش."

نظر إليه يوهان بثقةٍ هادئة وقال:
— "الكلمة تُوقف السيف يا أنطونيوس... حين تُقال في وقتها."

وبينما اختبأت القافلة تحت الأغطية الثقيلة من المطر،
جلس الرجال على حواف الطريق حول نارٍ صغيرةٍ تُقاتل الرياح،
وكانت تلك الليلة بداية تحالفٍ لم يكن في الحسبان —
تحالفٍ سيقلب الموازين بين المشرق والبحيرات

وصل الوفدان إلى حافة أرض البحيرات حين تهافت المساء فوق مياهها، وحين انحنى المطر قليلاً كأنه يطلب الإذن بأن يخفّ. كانت عربات المهربان تقف عند مصبّ الطريق الطيني، ورجاله يمدّون أغطية القماش فوق البضاعة، وأبصارُ الحرس تتفحّص الأفق كلما رمق الرعدُ سماءَ الليّة.

لم يكن اللقاء بعيدًا عن أعين سِيدنا الكبير؛ فقد أُعدتْ له مرابعٌ بسيطةٌ قرب ضفة الماء — كرسيّ خشبيّ، نار صغيرة تتقي المطر، ومائدات متواضعة تعكس رغبة المضيف في الحفاوة دون بروز قوة. حين نزل المهربان من عربته، تقدّم سِيدنا لاستقباله بنفس الهدوء المهيب الذي يملكه، ولم تكن هناك صيحات الاستعراض، بل مصافحاتٌ قوية قصيرة، ونظراتٌ توازن حساباتِ الحياة والموت.

جلسوا سريعًا إلى الطاولة، وبدأ الحديث بنبرةٍ عملية:
المهربان أول من شكّل شروطه بحزم:
— «أنا تاجر، لا أعبد إلا الربح والأمان. إن لم أتمكّن من العبور بأمْنٍ وبتكلفةٍ مجزية، فلا معنى لأن أخاطر ببضاعتي أو برجالي. طريقكم أقصر إلى الدير الكبير، لكنكم تخبرونني بأنه محفوفٌ بالصعاب. أخبروني: لماذا أُغيّر مساري؟ وما مقابل ذلك؟»

نظر سِيدنا إلى أنطونيوس، فابتسم الأخير ابتسامة رجل حربٍ يعرف لغة الأرقام والجنود، ثم تكلّم يوهان بهدوءٍ وثقة:
— «طريقنا أقصر لأنّه لا يمر عبر مراكز السيطرة التقليدية. سوف نوفّر لك ممرًّا يخفَى عن أعين الموفدين؛ سنرشدك نقاطًا آمنة، ونرافقك قسمًا من الطريق حتى تبتعد عن أول حدٍ حيث يترصّد الرجال. مقابل ذلك، نحفظ لك بضاعتك وسمعتك — وسنمنحك شهادة حماية موقعة من مجلسنا. هذا التوقيع سيسمح لك بتجارتك أمام قوافلٍ أخرى؛ سيحميك من اتهاماتِ الخيانة التي يزرعها الخوف في صدور الناس.»

تغيّر وجه المهربان قليلًا وهو يزن الكلمات: الربح، السمعة، الخطر.
ثم قال:
— «إن جئت بكلامٍ عاطفيّ لأقنعني، فسأضحك. أريد ضمانًا عمليًا. إن قبل أوغسطين أن يلتقي بي أمامك ومع إقرارٍ من قِبله بأن القافلة تحت حمايةٍ معترف بها، فسأخوض الطريق. إن لم يأتِ ذلك، فأنا أفضّل المسار المعروف لي، ولو طُلب مني أن أدفع ثمناً أكبر فأنا أفعل.»

تدخّل سِيدنا بصوتٍ هادئٍ ممتلئ بالحكمة:
— «سأمنحك ضمانَ أرض البحيرات: ختمي وتوقيعي، وتعهُّدُ أنطونيوس أن يرافق جزءًا من طريقك. أما أمرُ أوغسطين، فننظّم لقاءً رسميًا عند نقطةٍ محايدةٍ — إن رغبت — بعد أيامٍ قليلة؛ سيُدعى ممثّلٌ عنه. هذا التعهّد يظلّ ورقةً رسمية يمكن عرضها على التجّار والقوافل.»

هنا تبدّى الحذر في عين المهربان للحظة، لكنه وجد في هدوء سِيدنا ومظاهر المنظمة ما يماثل الضمان، فأومأ موافقًا بشرط واحد أخير:
— «إن حضر ممثل أوغسطين، فذلك خير. لكن إن خُنْتُم العهد، سأكون لكم خصمًا لا يلين.»

وقّعوا — ختم سِيدنا، توقيع المهربان، وتعهد أنطونيوس — ووُضعت الورقة في غلافٍ مُختومٍ. ثم أمر يوهان بأن تهيأ القافلة لليلةٍ آمنة تحت الظلال، وأن يُخاطَب التجّار بكلامٍ يزرع فيهم طمأنينةً لا خوفًا.

بعد تلك المباحثات، خرج المهربان وحده قليلًا عن مجموعة الضيوف ودار بجانب ماءٍ قليلِ الأنفاس، هناك اصطدم بظلٍّ أسودٍ هبط فجأة على صخرة قريبة: كانت الحدأة — الطائر — قد اختار أن يهبط على كتف ثيودور. تقدم المهربان بجفاءٍ طبيعيّ، لكن ببطءٍ لاحظ المخطوطة التي كانت بين يدَي الراهب، ولفت نظره رسمٌ قديمٌ مطبوع بالحبر الداكن.

نظرت عيون ثيودور إلى صفحةٍ مفتوحة، وقال بصوتٍ لا يعلو:
— «انظر... هذه صورة قديمة. في المخطوطة تُرسم مخلوقات وقبائل. هذا الرمز — انظر إلى الفيل، وانظر إلى الفهد الذي يدوسه — هذا وصْفُ قائد الأفيال. يقولون إن من يملك طريق الأفيال يملك مفاتيحَ الحقول والمخابز. إن وصل القائد إليه، سيسحق من يشاء كالرِّيح.»

تبدّلت ملامح المهربان، انقبضت شفتاه، ثم قال بكلامٍ أطرى من كلامه التجاري المعتاد:
— «هذا أمرٌ لا أستهين به. إن كانت هذه علامة لقائدٍ يقود الفيل ويُمسك طرقًا وقلوبًا، فهذا يفسّر الكثير. إن مررتُ معكم، فلن أخضع لأحدٍ قبل أن أرى صكّ الحماية الذي وعدتم به.»

هنا، وجدت المخطوطة والطائر والورقة المكتوبة موضعها: اتفاقٌ مبدئيٌّ، موعد لقاءٍ بعد أيام مع ممثلٍ من أوغسطين، وتعهدٌ رسميّ على ضمان مرورٍ آمن. الطائر جلَس بهدوءٍ على يد ثيودور، وكأنما يُباركُ بداية صفحات جديدة من لعبةٍ أكبر، حيث كانت صورة الفيل المهيب فتيلَ القلق في عيون الجميع — علامةٌ أن القادم من أرض الأفيال ليس مجرد تجارة، بل قدر ربما يدهس الفهدَ قبل أن يبرح

دخل ممثلُ أوغسطين القاعةَ متأخرًا، رطبًا من المطر ووجهاً متحفّظًا، حاملًا ورقًا رسميةً ومظهرًا دبلوماسيًا يهدف لطمأنة القلوب قبل أن يسرق الثقة. استقبله سِيدنا بابتسامةٍ هادئةٍ احتضنت الجدية، وأشار له المقعد بقليلٍ من اللطف، بينما كان أنطونيوس يراقب بحدةٍ كلّما حرك الرجلُ يدهُ نحو حقيبته.

جلس الممثلُ وقرأ بنبرةٍ رسميةٍ مختصرة ما جاء به من أوامرٍ وتوجيهات: ضرورةُ الحفاظ على النظام، وحرصُ الكنيسة على أمن القوافل، وتعهدٌ ضمنيٌّ من جانب أوغسطين بعدم المساس بمن يمرّ تحت حماية صكّ الحماية الموقّع الذي وقّعته أرض البحيرات.
كانت الكلماتُ قادرةً على طمأنة التجّار، لكنها لم تطوِ كلَّ المخاوف؛ فالصمت بين الفقرات كان أبلغ من النطق، والعيون في القاعة كانت تدرّس كل انزلاقٍ في الشفاه.

عند نهايته، نهض المهربان ببطءٍ، وتقدم بخطواتٍ ثابتة نحو المائدة. تحدث بعباراتٍ قليلةٍ، صارمةٍ كما عهده الجميع منه:
— «هذا كلامٌ يسدّ الجوع عن الشعب، لكنه لا يضمن الحضور في الميدان. إن وعدتمُ بالاجتماع الرسمي مع ممثلٍ أعلى، وحصلت على تأكيدٍ أمامكم، فسأجعل قافلتي تعلن بصوتٍ جهوريٍ أن أرض البحيرات هي الوجهةُ الآمنةُ المقدمة منّي للتجارة. سأعطيكم سندي هنا، وسأترك رسالةً تحمل توقيعي لتنتشر في المشرق: من يرد الأمان فليأتِ إلى هنا.»

ثم، أمام الحضور، وضع المهربان ورقةً مختومةً بخاتمه الخاصّ، ووقّع عليها توقيعًا بحبرٍ كثيفٍ يكادُ يلطخُ كفَّه. كانت الرسالةُ قصيرةً: «أُقرّ أمام أهل المشرق أن أرض البحيرات ممرّ آمن، وأنّي أضمن مرور القوافل إليها تحت حماية مجلسها. — توقيع: قائدُ قافلة الضيّ». ساد لحظةُ صمتٍ تلتها همهمةٌ خفيفة كأنها تصديقٌ عمليّ لا يحتاجُ لفتوىٍ أكبر.

أعلن المهربان بعد ذلك اختيارهُ العلنيّ: «القافلةُ تتّجه إلى أرض البحيرات». خرجت العبارةُ من فمِه ثقيلةً على الهواء، لكنها حملت معها ارتدادًا سريعًا في نفوسِ التجّار الذين اعتادوا أن يخطّ لهم الخطرُ طريقهم. ارتفعت أصوات التصفيق الخافت، وأُسرّت الأغطية فوق البضائع استعدادًا للمسار الجديد، وكان في ملامح بعضِهم خوفٌ ممزوجٌ بأملٍ لا يبدو قابلاً للقياس.

اقتربَ المهربانُ من ثيودور ثانيةً قبل أن يركب عربته. التفت إليه بنظرةٍ لم تخفِ إعجابًا فعليًا برجلٍ لم يبدُ طاغيًا ولا ضعيفًا، ثم قال بكلماتٍ نادرةٍ من ضئيلِ لسانه:
— «يا راهبُ، لم أنتظرْ أمانًا أكثر من ذلك الذي وجدته اليوم عندكم. سأعلّم الأميرَ الأول — ابنَ الملك — بأنّ أرضَ البحيرات توقّفت عن كونها رقعةَ خوفٍ، وأنها صارت محورَ ممرٍّ تجاريٍّ حيّ. إن قبل الأميرُ أن يضع ختمَهُ على اتفاقيةٍ، فستنطلق قوافلُكم عاجلاً إلى ديرِ الديو والكنيسةِ الأم.»

ثيودور قبِلَ الكلامَ بصمتٍ تعلوهُ ملامحُ اتفاقٍ حذر. كان يعلم أن كلمةَ رجلٍ مثل المهربان قد تُحرّكَ ممالكَ ومجاميعَ، وأن إقناعَ الأميرِ قد يُعدُّ نقطةَ التحوّل في ميزانِ النفوذ. ثبتَ الثقةُ بينهما بلمسةِ يدٍ قصيرة، وقد بدا الطائرُ — الحدأة — جاثمًا هادئًا على كتفِ ثيودور، كأنه شاهِدٌ قديم على هذا الوعدِ البسيط والضخم في آنٍ معًا.

وبينما استعاد التجّارُ أنفاسَهم، وتحركت عرباتُ المهربانِ مبتعدةً نحو ممرٍّ قريبٍ، كانت الرسالةُ الموقعة تُحمَل على عربةٍ صغيرةٍ تُرسَلُ إلى المشرق لتعلِنَ الأمر رسميًا: «أرض البحيرات — الآن — ملاذٌ آمن». وسرعان ما انتشرت الأنباءُ كما تنتشرُ النيران في حقلٍ جافّ، فتدفّقَ بعضُ التجّارِ يعلنون ولاءهم للممر الجديد، وآخرون سارعوا لحجز وقتٍ على طريقٍ يبدو الآن أقصرَ وأكثرَ بركة.

قبل رحيلِ القافلة، مرّ المهربانُ على ثيودور مرةً أخيرةً؛ أمسك بطرفِ العباءة، ونظر إلى عينيه قائلاً بنبرةٍ تختزلُ وداعًا:
— «سأقنع الأميرَ. أنا رجلُ مصالحٍ، لكن مصالحُي معروفةٌ بالوفاء. إن نجحتُ، فستُفتحُ لكم طرقُ الكنيسةِ الأمّ. وإن لم أفعل... فالحصنُ لديكم يظلّ بيتًا للواشي والمستضعفين.»

غابت القافلة في المطر، وتركَت وراءها أثرًا من الوعدِ والورق الخاتم، بينما وقف ثيودور على ضفة البحيرة، والطائر على كتفه يرفرف برفقٍ كأنّه يُحني رأسه لتحيّةِ بدايةِ طريقٍ جديد. في الأفق البعيد، بدا ضوءٌ واحدٌ خافتٌ كأنه يشير إلى بدايةِ رحلاتٍ ستُعيد شبكةَ التجارةِ القديمةَ إلى مسارها، وستجعلُ من أرض البحيرات محطةً لا غنى عنها بين الدير والكنيسة الأم — لكن مع كل خطوةٍ فيها، ظلَّت ظلالُ أوغسطين تتربّص

كان أوغسطين جالسًا في قاعة الدير الكبرى، خلف مكتبه الحجري الثقيل الذي تحفّه المشاعل، حين وصله تقرير ممثله الذي عاد من أرض البحيرات. كانت الأمطار تضرب النوافذ، والريح تصفّر عبر الممرات الحجرية كأنها تذكّره بأن الشتاء يقترب — وأن البرودة لا تأتي فقط من الخارج.

قرأ الرسالة ببطء، شفتاه تتمتمان الكلمات كمن يتذوّق سمًّا قبل ابتلاعه:

«تمّت المفاوضة... واستُقبلت القافلة في أرض البحيرات بسلام... توقيع قائد القافلة المهربان بختم رسمي... إعلان أرض البحيرات ممراً آمناً للتجارة... وبموافقة سِيدنا الكبير ورجاله...»

تجمّدت يد أوغسطين فوق الورقة. سُمعت زفيراته الخفيفة في القاعة، حتى القائد عند الباب لم يجرؤ على الحركة. ثم ضرب المكتب بكفه، فاهتزّت المشاعل، وانسكب الحبر على أوراقٍ مرمّقة.

— «ممرّ آمن؟» قالها بنبرةٍ قاطعةٍ، لكنها تحمل تحتها حممًا تغلي. «يُعلنون أرض البحيرات ممرًا للتجارة دون إذني؟ دون توقيعي؟»

اقترب القائد بخطوات محسوبة:
— «سيدي... لم يخالفوا علناً، إنما أرادوا فقط إثبات حسن النية أمام الكنيسة الأم. سِيدنا الكبير يرسل تقاريره يوميًا إلى المجلس الكنسي الأعلى... كأنه يختبرنا.»

رفع أوغسطين رأسه ببطء، عيناه تلمعان بظلال النار، وقال بنبرةٍ مملوءةٍ بالخبث المكتوم:
— «يختبرنا؟ لا يا صديقي... هو لا يختبرنا، هو ينصب لنا الفخّ. يريد أن يوقعني في المحذور، في فترة السلام التي فرضتها الكنيسة... لا يستطيع مهاجمتي، فيرسِل مراسلاته اليومية ليحاصرني بالحبر لا بالسيف.»

ابتسم ابتسامةً باردة، كمن يتهيأ لسيناريو طويلٍ مدروس، ثم أكمل:
— «دعوه يكتب. دع الكنيسة ترى أنه رجل السلام، ودع البحيرات تتزيّن بالأسواق. حين تحين الساعة، سأقلب هذه الصفحات كما تُقلب راهباتٌ صفحات المزامير — في صمتٍ تام.»

تقدّم القائد متردداً:
— «وماذا نفعل الآن يا سيدي؟ الكنيسة تراقب... وكل خطوة تُسجَّل.»

أجاب أوغسطين وهو يعيد ترتيب الأوراق ببطء متعمّد:
— «الكنيسة تنظر إلى السلام، ونحن نصنع الظل تحته. أخبر فان أن يهدأ، لكن ليضاعف العيون حول القرى القريبة من البحيرات. كل من يحمل أوراقًا من القوافل أو يهمس باسمِ سِيدنا أو يذكر الراهب ثيودور أو ذلك الطائر — يكتب اسمه في القائمة السوداء. من يذكرهم فليُحسب أنه معادٍ للنظام. لا نريد فوضى، نريد صمتًا مميتًا.»

العبارة الأخيرة وضعت ثِقلاً في الهواء؛ كان المقصود واضحًا: التضييق على أي حديث عن التحالف، على أي سندٍ قد يثير الشكّ في سلطتهم. القائمة السوداء لم تكن مجرد تهديدٍ بل أداةُ إخافةٍ رسمية: من يذكر أسماء الحلفاء أو حتى يتساءل عنهم يعرّض نفسه للملاحقة، لعزلته، ولحرمانه من المرور والحماية وحتى من التجارة.

نهض أوغسطين وتقدّم نحو النافذة المطلة على الساحة، حيث يتدرّب الجنود تحت المطر. نظر إليهم بصوتٍ كأنه وعدٌ مظلم:
— «ليكن السلامُ ظاهرًا، ونحن نصنع تحته حربًا لا تُرى. حين يظنّون أن البحر هادئ، ستكون الأعماق قد امتلأتُ بغدرٍ موجَّه.»

ثم أضاف بهدوءٍ قاطع، مخاطبًا القائد:
— «اجعل القائمة جاهزة، وسجّل جميع الأسماء: من يسأل عن سِيدنا، من يُشير إلى ثيودور، ومن يذكر الطائر — جميعهم يُعاملون كتهديدٍ محتمل. نحرّم كلامهم قبل أن يولّد فعلهم.»

وهكذا بدأت خيوط خطة أوغسطين الجديدة: لا مواجهةٍ علنيّةٍ الآن، بل شبكة من الصمت المدبّر. ورقٌ يتكوّن في الظل، قوائمٌ تُعدّ بسرية، وأمرٌ واضح — لمن يرفع صوته باسم سِيدنا أو الراهب أو الطائر فمصيره السكون قبل السقوط

الفصل العاشر
بوادر الإنتقام:

الليلُ يهبطُ على الدير الأكبر كسيفٍ من رماد،
الرياح تعوي في الممرات الحجرية، تلامسُ التماثيل المكسّرة وتُسقطُ أوراق المراسلات التي كانت تُكتب باسم "الكنيسة الأم".
وفي قاعة الحكم، جلس الأنبا أوغسطين متكئًا على عرشه الحجري، تحيط به الشموع المتراقصة كأنها تُنذر بدماءٍ قريبة.

·

: القائمة السوداء

تسقط ورقة من يده، ممهورة بختمٍ أحمر داكن.
يقرأها القائد وهو يقف بخشوعٍ مُفتعل.
كانت قائمة بأسماء من يُمنع ذكرهم في أي صلواتٍ أو اجتماعات أو أسواق:

"سِيدنا الكبير، ثيودور الراهب الصامت، الكفيف، الطائر ذو العينين الزرقاوين، ويوهان بن ذي اللحية البيضاء..."

يرتفع صوته الأجش:

"من يتفوّه بأحد هذه الأسماء... فليُعلّق من قدميه أمام مذبح الدير."

في الخارج، كانت أجراس الإنذار تدقّ في منتصف الليل.
الجنود يسحبون التجار من خيامهم، يُغلقون الحوانيت، يفتشون الكتب القديمة عن أسماءٍ مكتوبة بخطٍ عابر.
وفي الزوايا، يهمس الرهبان لأنفسهم، بينما أحدهم يرفع نظره للسماء قائلاً:

"اللعنة... بدأت حقًا."

كانت الظلال تراقب كلّ شيء — رجال فان الجدد، بعيونٍ زجاجية، يكتبون أسماء من تحدّث، ومن صمت.

:
: دماء القوافل

بين الجبال الباردة، في الطريق المؤدي إلى المشرق،
تحرّكت قافلة تحمل مؤن الدير وأعشاب الكنيسة وأقمشة الكهنة.
صوت حوافر الخيول يتردد في الممر الحجري الضيق...
وفجأة، صفيرٌ حادّ — ثم صرخة.

يظهر يوهان من بين الصخور، وجهه مغطّى بطين الليل،
يأمر رجاله بالصمت التام.
كانت الكتيبة من "الكشّافين" تتحرك كالأشباح — لا صوت، لا نور، سوى وميض الشفرات القصيرة في أيديهم.

في لحظة، تُطفأ مشاعل القافلة.
تُفتح العربات... تُؤخذ الصناديق الذهبية... وتُترك رسالة محفورة على لوحٍ خشبي، ملقاة وسط الطريق:

«من أجل الدماء التي سالت، سيُقطع عنكم الضوء كما قُطع عن الأبرياء.»

ثم، يُشعل أحدهم الشعلة —
لهبٌ أحمر يمتدّ من الأرض إلى السماء،
والريح تعصف فتخنق اللهب بنصفه، كأنها تبتلع الصراخ في جوف الجبل.

وفي الصباح التالي،
تصل الأخبار إلى أوغسطين.
يضرب بقبضته على المائدة حتى تتناثر الشموع.

"يوهان... لعنة الله على ذكائه! مازال حيًّا!"

لكنه لا يعلن ذلك لأحد...
بل يأمر بالهدوء، وأن تُكمل القوافل القادمة مسيرها، وكأن شيئًا لم يكن.
فهو يعلم أن الحرب الباردة بدأت، ولا يريد أن يُظهر خوفه.

:
؛ بعثة أرض الأفيال

في أرض البحيرات،
تجلس القيادة في خيمةٍ كبيرةٍ تحيط بها المشاعل.
ثيودور يمدّ المخطوطة على المائدة الخشبية، والطائر فوق كتفه ينظر بعينيه الحمراوين إلى اللهب،
وأنطونيوس يراقب صمتهم الطويل.
الكفيف يتمتم بصوتٍ خافت:

"هناك أرض بعيدة... تحمل مفتاحًا قد يُسقطه."

يشير بإصبعه إلى نقشٍ في الصفحة: "أرض الأفيال".
يرفع ثيودور رأسه ببطء، عيونه الهادئة تشعّ رهبة:

"الرمز الثالث... تحرّك أخيرًا."

يتقرر إرسال بعثة إلى هناك،
يوهان يتقدّم أولًا، وجهه مغطى برداء السفر، يحمل خريطة الطُرق،
ووراءه خمسة من أفضل رجاله، ورومان يودّعهم بعينين دامعتين.
يُغادرون قبل الفجر، في ضبابٍ أبيضٍ يبتلعهم كما يبتلع الحلمُ صاحبه عند الموت.

🞔

: نبوءة الطائر

في تلك الليلة نفسها،
حلّ الطائر فوق برج الدير الأكبر —
أغمض أوغسطين عينيه وهو يسمع صوته يصرخ ثلاث صرخاتٍ متتالية،
كأنها نذير النهاية.
يفتح عينيه مذعورًا، لكنه يتماسك، يضحك، ثم يهمس للقائد:

"دَعهم يأتون... لست من يخاف من الطيور، بل الطيور هي من تخاف أن تحلّق فوقي."

في أرض البحيرات،
كان الطائر نفسه يعود إلى كتف ثيودور،
ينقر على المخطوطة مرتين،
فتتوهّج حروفها كأنها تكتب وحدها:

«عندما تُفتح العيون، يُغلق الباب.»

يسود صمتٌ رهيب.
الجميع ينظر إلى ثيودور...
الريح تشتدّ، والبحيرة تضرب شواطئها كما لو كانت تُصفّق لنبوءةٍ قادمة.

ثيودور يتمتم بهدوء:

"لقد بدأت الحرب، لكن ليس بيننا وبينهم... بل بين المصيرين نفسِهما."

وتُغلق على صوت الطائر وهو يحلّق في عتمة السماء،
وصدى جناحيه يرتطم بصدى أجراس الدير الأكبر،
لتبدأ مرحلة الانتقام الحقيقي... التي لا عودة منها

الفصل الحادى عشر
– طريق الأفيال

ثلاثةُ أيّامٍ كاملة، قطع فيها يوهان ورجاله مسافاتٍ طويلة عبر غاباتٍ كثيفة تتبدّل فيها الروائح كما تتبدّل الظلال.
الأرض كانت مبلّلة بالمطر، والهواء ثقيل برطوبةٍ تجعل التنفّس جهداً.
لم يكن أحدهم يتكلّم إلا عند الضرورة؛ فكل خطوة في تلك الأرض الغريبة كانت تحملُ احتمال الخطر.

على أطراف اليوم الثالث، بدأت الأرض تتّسع، والظلال تخفت، فظهرت أمامهم ساحةٌ منبسطة يحدّها جدارٌ من الأشجار العتيقة، وهناك... ارتفعت راياتٌ ذات نقوشٍ غريبة، ترفرف فوق أعمدةٍ خشبية ضخمة — كانت تلك هي بوابة قبائل الضيّ، الممالك التي تابعة لأرض الأفيال.

خرج إليهم رجالٌ متوسطو القامة، أقوياء البنية، سُمر البشرة كأنّ الشمس سكبت لونها في عروقهم.

كانت حركاتهم صامتة ومنظّمة، ووجوههم بلا انفعال.
وقفوا أمام يوهان وجنوده نظراتهم حادّة، حتى شقّ صفوفهم رجلٌ طويل القامة، عريض المنكبين، أسود البشرة كقطعةٍ من ليلٍ كثيف — إنه مهربان، كبير تجّار القبائل وقائد القوافل العظمى.

اقترب بخطواتٍ واثقة، وتوقّف على بُعد خطواتٍ قليلة من يوهان، ثم قال بصوتٍ منخفضٍ عميق:

"لم أتوقّع أن أراك هنا أيها المرسال القديم... أين الراهب الصامت؟"

انحنى يوهان تحيةً بسيطة، وردّ بهدوء:

"ثيودور ما زال في أرض البحيرات، الطائر هناك لا ينام. جئتُ نيابةً عنه، أحمل اسمه ورسائله."

نظر مهربان إلى رفاق يوهان، ثم رفع يده فأشار لجنوده بالتراجع خطوة واحدة.
سكنت الأجواء قليلاً، ثم سأل:

"ولِمَ الآن؟ قدومك المفاجئ لا يخلو من غايةٍ خفيّة. هذه الأرض لا تستقبل الغرباء إلا في مواسم التجارة، وأنت جئت قبلها بأسابيع."

تنفّس يوهان بعمق، ثم قال بثقةٍ هادئة:

"جئتُ أطلب طريقاً لا يمرّ عبر أوغسطين ولا تحت رايته. جئتُ أبحث عن العدل في أرضٍ لم تلوثها لعنة الشمال. نريد أن نفتح طريقاً جديداً... بين أرض البحيرات وملككم."

ساد الصمت لحظة.
كانت عيناهما متقابلتين كحدّين من فولاذ.
ثم أطلق مهربان ضحكة قصيرة، فيها صدى تهكّمٍ وإعجاب معاً:

"تطلب العدل؟ والعدل لا يسير في القوافل إلا إذا حُمِل بالذهب... أنا رجل تجارة لا حرب، وما يهمّني هو الأمان والمقابل."

اقترب يوهان خطوة وقال بصوتٍ أقرب للهمس:

"الأمان أضمنه أنا. والمقابل... سيأتي من أرضٍ ما عرفت الغدر يوماً."

صمت مهربان لحظة، ثم أومأ برأسه ببطء، وقال:

"حسنًا... سنرى صدقك. ستقابل الأمير أولاً، فإن اقتنع، فلك طريق إلى الملك.
لكن احذر، فطريق القصر ليس كطريق الغابة — فيه ما يُبهِر، وفيه ما يُميت."

ثم التفت إلى رجاله وأمرهم بفتح الطريق.
سارت القافلة في صمتٍ نحو الداخل،
وكان المطر قد بدأ من جديد — خفيفًا، لكنه كافٍ ليخفي ارتجاف أصابع يوهان،
الذي كان يعلم أن الخطوة القادمة لن تكون مفاوضة تجارة... بل مفاوضة مصير

قاعة الأمير

حين عبر يوهان الممرّ الحجري الطويل المؤدّي إلى قاعة الحكم، شعر وكأنّ الجدران نفسها تتنفس.
كانت جدران القصر محفورة بنقوشٍ لوجوه الأفيال وأنيابها،
وعلى السقف الممتدّ فوقه كانت الألوان تتلألأ بأشعة المشاعل، ترسم دوائر من نارٍ وذهب.

تقدّم مهربان بخطواتٍ ثابتة، صوته يملأ الفراغ بصدى سلطويّ وهو يقول:

"أيها الأمير، هذا هو المرسال من الشمال. جاء باسم الراهب الصامت، حاملاً رسائل من أرض البحيرات."

جلس الأمير على عرشٍ من العاج، شابّ في الثلاثين من عمره، بشرته داكنة كالبرونز،
عيناه واسعتان كأنّهما تريان ما لا يُقال.
على عنقه طوقٌ ذهبي يرمز لوراثة الدم الملكيّ من أرض الأفيال القديمة.

تأمّل يوهان قليلاً، ثم قال بصوتٍ باردٍ عميق:

"يُقال إنّ أرض الشمال تُحرق منذ زمنٍ بعيد... وإنّ لعناتٍ تهبط من طيورٍ تتكلّم."

انحنى يوهان باحترامٍ شديد، ثم أجابه:

"نعم يا سيدي، النار اشتعلت، والطائر صرخ، والناس بين من خاف ومن كذّب.
جئنا لا نحمل لعنةً، بل نطلب طريقاً لسلامٍ جديد... طريقاً يُفتح بالعدل لا بالسيوف."

نظر الأمير إلى مهربان وكأنه يختبر رأيه، ثم قال ببطءٍ:

"لقد حدثتني عنك يا مهربان... قال إنك رجل صادق لا يُشبه بقية من خدم أوغسطين.
لكنّي أراك تحمل ظلالهم في عينيك، كأنك تعرف أكثر مما تقول."

أخفض يوهان رأسه، وصوته انخفض كهمسٍ عبر الريح:

"كنت واحداً من رُسُله، نعم، لكنّي الآن من التائبين.
رأيت ما فعله، ورأيت الدماء التي غمرت المشرق، ورأيت كيف يرفع راياته على قبور الأبرياء.
لهذا جئتكم، لأنّ ملككم لم يتلطخ بعد بلعنة الشمال،
ولأننا نعلم أن القوافل وحدها تستطيع أن تكسر الحصار وتُعيد التوازن."

سكن المكان.
لم يعد يُسمع سوى صوت المطر يضرب السقف البرونزيّ كأنه طبول حربٍ بعيدة.

أومأ الأمير بيده أخيرًا وقال:

"إنّ العدل في أرض الأفيال يُكتب بالعهود لا بالكلمات.
ستقابل الملك بنفسك، فهو وحده من يُقرّر إن كنتم تستحقون طريقنا أم لا.
أنت يا مهربان، كن شاهدًا على ما يُقال.
ويا رسول البحيرات... تذكّر أن طريق الملوك ليس فيه رجعة لمن يُخفق."

انحنى يوهان ثانيةً وقال بصوتٍ ثابت:

"أدرك ذلك يا سيدي.
لكن ما أحمله ليس رسالة رجل... بل إرث شعبٍ لم ينسَ ظلمه."

رفع الأمير يده، فأصدر أمرًا بتهيئة مجلس اللقاء الملكي في الغد عند الفجر.
ثم نظر إلى مهربان بنظرةٍ صامتة فهمها الأخير تمامًا، فاقترب من يوهان وهمس له وهو يخرج من القاعة:

"الملك لا يرحم الكاذبين... ولا يحبّ من يخاف.

نم الليلة كأنها آخر ليلٍ في حياتك، فقد تكون كذلك."

خرج يوهان إلى ردهةٍ يملؤها بخورٌ حارق ورائحة المطر.
لم يكن خائفًا، لكنه أحسّ بثقلٍ غريبٍ في صدره،
كأنّ الطائر فوق البحيرات شعر بالاضطراب ذاته...
وكأنّ المخطوطة، في مكانٍ بعيدٍ، ارتجف سطرٌ جديد فيها لم يُكتب بعد

عرش الفيل

لم يكن فجر اليوم التالي كغيره.
السماء بلون الحديد، والرعد يتردّد بين الجبال كأنّها طبول جيوشٍ خفيّة.
على أبواب قصر العاج اصطفّ الحرس في صفوفٍ مزدوجة، يحملون رماحًا طويلة رؤوسها لامعة كالبرق.
في وسط الممرّ الحجريّ، تقدم يوهان بخطواتٍ بطيئة، يرافقه مهربان، حتى وصل إلى البهو العظيم.

الملك كان يجلس على عرشٍ مهيب محفور من عاج الأفيال العملاقة،
خلفه خرائطُ ضخمةٌ مرسومة بالذهب والرماد تُظهر أراضي الجنوب والشمال،
وعيناه السوداوان تلمعان كبئرٍ عميقٍ من الأسرار.

حين دخل يوهان، شعر كأنّ الهواء نفسه توقف.
لا أحد يتكلّم، فقط همهمة الرياح في الممرّات.
ثم ارتفع صوت الملك، عميقٌ ومهيب، كأنه يأتي من جوف الأرض:

"من أرضٍ يحكمها اللعنة، جئت تطلب طريق السلام؟
قيل إنك خادم لأوغسطين، ثم تمردت عليه... فقل لي، ما الذي يمنعك من أن تخونني غدًا كما خنته؟"

رفع يوهان رأسه بثبات، لم يبدُ عليه خوف، بل وجعٌ قديمٌ في نبرة صوته:

"لأن من يخون ظالمًا لا يُسمّى خائنًا، بل شاهدًا على الحقيقة.
لقد رأيت في دير المشرق دماءً تسيل على يد القدّيس المزيّف،
ورأيت شعبًا يخضع باسم الربّ، ويُقتل باسم الطاعة.
جئتكم لا لأجل نفسي، بل لأجل الأرض التي لفظت أبناءها،
لتعرفوا أن هناك من لم يمت بعد."

تبادل الملك ووزراؤه النظرات، ثم رفع الملك يده فسكت الجميع.
تقدّم بخطوة، وصوته أكثر هدوءًا هذه المرّة:

"تقول الحقيقة بثقة من لا يملك شيئًا يخسره...
لكن أرض الأفيال لا تعرف الضعفاء.
إن كنت تحمل راية البحيرات، فأين قائدكم؟ أين الراهب الصامت الذي تتحدث عنه القصص؟"

قال يوهان بصدقٍ لا لبس فيه:

"سيأتي، حين يحين الوقت.
الراهب الصامت لا يتكلم، لكنه يسمع النداء حين تناديه الأرض.
هو لا يسعى إلى الحكم، بل إلى الخلاص."

ضحك الملك ضحكةً قصيرةً لكنها ثقيلة، ثم نظر إلى مهربان وقال:

"لقد قلت إن هذا الرجل يشبه من يحمل الريح في جيبه...
والآن أرى صدق قولك.
ليكن، يا يوهان، لن نرفض التجارة ولا العهود، لكن طريق الأفيال لا يُعطى مجانًا.
ستمرّ قوافلنا عبر أرض البحيرات في حماية رجالنا، وسنرسل بعثة دبلوماسية لنرى أرضكم بأعيننا.
إن كانت حقًا كما تقول — أرض سلام لا سيوف — فسيُكتب بيننا عهدٌ جديد."

انحنى يوهان وقال:

"سيجد رجالكم الضيافة التي تليق بملوك الجنوب.
لن نغدر بمن مدّ يده للعدل."

وقف الملك من عرشه، وأشار إليه أن يقترب، ثم وضع يده الثقيلة على كتف يوهان وقال ببطءٍ كمن يُلقي نبوءة:

"اذهب الآن، يا ابن الشمال.
لكن تذكّر... من يوقظ النائمين، عليه أن يضمن ألا تنهض الوحوش معهم."

تراجع يوهان بخطواتٍ ثابتة، وقلبه يرتجف من وقع الجملة الأخيرة.
كان يشعر أن الملك عرف أكثر مما قال —
عرف أن الطائر الملعون لم يكن لعنةً... بل علامة.

خارج القاعة، وقف مهربان ينتظره تحت الأمطار المتقطعة.
قال بصوتٍ خافتٍ، وعيناه تتجنبان النظر مباشرة إليه:

"الملك وافق... لكني رأيت في عينيه خوفًا لم أره من قبل.
ربما فتحنا طريقًا لا عودة منه."

يوهان ابتسم ابتسامةً باهتة:

"كل طريقٍ نحو النور يبدأ بخطوةٍ في الظلام، يا مهربان."

ومن خلف الغيوم،
حلّق الطائر — الحدأة — عالياً،
صوته لا يسمعه سوى من يعرف المعنى الحقيقي للقدر...
كأنّه يُعلن أن التاريخ بدأ يتحرك من جديد

انتهى الجزء الرابع

—

الجزء الخامس :نيران الشرق
الفصل الأول: — عودة يوهان

كان فجر البحيرات مختلفًا تلك المرة.
الضباب يرتفع عن سطح الماء كستارٍ ثقيلٍ يخفي وراءه أسرارًا قديمة،
والطيور تصرخ بنغمةٍ تشبه نغمة النذير،
كأن الأرض تستعد لخبرٍ سيعيد كتابة تاريخها من جديد.

على حواف الأرض التي كانت يومًا مستنقعاتٍ طينية،
ثم تحولت إلى دروبٍ مرصوصةٍ بالحجارة القديمة،
عاد يوهان بعد رحلةٍ طويلةٍ ومرهقة،

يمتطي جواده وإلى جواره رجاله الذين يحملون ملامح الجنوب
ورائحة العرق والمطر والرماد.

استقبله أنطونيوس عند بوابة البحيرات،
رافعًا يده بتحيةٍ صامتةٍ يفهمها كل من عاش تحت رايات ثيودور.
أما الكفيف فكان ينتظره عند مشارف الجسر،
وجهه مبللٌ بالأمطار، وابتسامته هادئة كأنها تقرأ مافي العاصفة.

سلّم يوهان الرسالة مختومة بخاتمٍ من عاج الفيل،
وقال بصوتٍ خافتٍ كأنه يحمل في نبرته كل الطريق الذي قطعه:

"من ملك قبائل الضيّ، مملكة الأفيال،
إلى الكنيسة الكبرى، وإلى الموقّر الأنبا أوغسطين،
نعلن أن أرض البحيرات صارت ملاذًا آمنًا لتجارتنا،
وممرًا لتعاوننا القادم معكم،
فمن أراد السلام فليأتِ عبرها،
ومن أراد الحرب فليجدها في غيرها."

وقف ثيودور طويلاً أمام الختم،
يمرر أصابعه عليه كمن يقرأ نبوءة مكتوبة بالعاج لا بالحبر،
ثم رفع بصره إلى الطائر الجاثم فوق صخرةٍ سوداء وقال:

"ها هي النبوءة تكتمل...
المخطوطة لم تكتب فقط عن الخلاص، بل عن طريق التجارة والدم أيضًا.
كل سطرٍ دونته صار دربًا للناس."

من خلفه كان أنطونيوس قد أعدّ العدة منذ أيام،
بأمرٍ مباشر من ثيودور بعد أن أمضى ليلةً كاملة في قراءة المخطوطة.
حينها جاءه الإلهام باسمٍ منسيٍّ من صفحات التاريخ القديمة:
الياس — عالم التخطيط للطُرق ومخطط لطُرق وممرات داخل البحيرات قديماً
وهو رجل من كتيبة الأشراف فى السابق
التي خدمت تحت راية ذو اللحية البيضاء والشريف الأول منذ عقود.

تم استدعاؤه من عزلته في أطراف المشرق،
فعاد إلى البحيرات بعينٍ خبيرةٍ تعرف تضاريس الأرض كما يعرف الكف خطوط راحته،
وبدأ رسم الممرات القديمة التي كانت تمرّ من تحت الأرض،
تربط قلب البحيرات بالمشرق والغرب دون أن تراها العيون.

أشرف أنطونيوس بنفسه على العمل،
وراقب الرجال وهم يعيدون حفر الممرات المطمورة بالحجارة القديمة،
تحت المطر والبرد وضوء المشاعل،
كأنهم يوقظون جسد الأرض من سباته الطويل.

أما ثيودور فوقف على ربوةٍ مرتفعةٍ مع الطائر،
ينظران إلى الحفر والمشاعل التي تمتد كأوردةٍ مضيئةٍ في باطن الأرض.
الريح تعصف بردائه،
والكفيف يقف إلى جواره يتمتم بصوتٍ يشبه نَفَس الحكمة الأخيرة:

"هنا ستبدأ الحكاية الأخيرة يا ثيودور...
الملحمة لا تُكتب بالحبر، بل بالدماء."

وفي المشرق، في تلك الليلة نفسها،
كان أوغسطين يجلس في قاعةٍ عاتمةٍ لا يسمع فيها سوى صدى المطر على الحجر.
دخل عليه القائد وفان يحملان الرسالة ذاتها القادمة من مملكة الأفيال،
ممهورة بختم الملك الكبير.

قرأها أوغسطين بعينيه السوداوين حتى نهايتها،
ثم وضعها على الطاولة ببطءٍ قاتل.
صمت لحظة، ثم انحنى برأسه وقال ببرودٍ يملؤه السمّ:

"ها قد وصلوا إلى ما أرادوه...
أرض البحيرات صارت لسان الكنيسة، وسوقًا للملاعين."

رفع رأسه فجأةً وصرخ بصوتٍ جعل أركان القاعة ترتجف:

"اجمعوا كتائب فان،
أوقدوا النيران على الأبراج،
لقد حان موعد الشعلة الأخيرة...
العودة التي لا رجوع بعدها."

نظر إليه القائد بتردد:

"مولاي... الكنيسة باركت الاتفاق، والبابا صدّق عليه."

ابتسم أوغسطين ابتسامةً باهتةً،
كمن يضحك على فكرةٍ مجنونةٍ لا يصدقها أحد غيره:

"الكنيسة؟ سأجعلها تبارك الرماد يا قائد...
من أرادوا دفني أحياءً، سيشهدون ولادتي من النار."

وفي الخارج، كانت الريح تزمجر بين جدران الدير،
والطائر — الحِدَأة — يحلق عالياً في السماء،
لكن هذه المرة لم يكن نذيرًا،
بل شاهداً على بداية الملحمة الكبرى،
التي لن ينجو منها أحد... لا تاجر، ولا راهب، ولا قائد

الفصل الثاني: ألـعــاب أوغسطين

الليل كان ثقيلاً كالجمر،
والريح تهب من المشرق كأنها تحمل همسًا من تحت الأرض.
في الدير الكبير، جلس أوغسطين وسط أضواءٍ خافتةٍ،
ينظر إلى الخريطة المعلقة أمامه — خطوط من دماءٍ وأوراقٍ محترقة،
كل طريقٍ فيها يمتد نحو البحيرات كأفعى تلتف حول فريستها.

كان فان واقفًا أمامه، يلوح بيده اليمنى كمن يعزف على لحنٍ شيطاني:

"أُرسلت رجالي إلى الطرق يا سيدي،
الذين كنت تسميهم غوغاء الأمس صاروا عيون اليوم.
يتتبعون يوهان ورجاله في كل دربٍ يعودون منه من رحلاتهم،
يختبئون بين القوافل، ويزرعون الشك والخوف حيث يمرّون."

ابتسم أوغسطين، ابتسامةً فيها لؤم ودهاء،
وأجاب بنبرةٍ من يعرف أنه يلعب على أكثر من وترٍ في آنٍ واحد:

"لا أريد دماءً بعد، بل جروحًا مفتوحة لا تلتئم...
اجعلهم يشكون في أمانهم،
في طرقهم، في رجالهم، في طيورهم إن استطعت.
اللعنة لا تُقتل بالسيف، بل بالريبة."

ثم رفع رأسه إلى القائد الجالس على يمينه وقال ببطءٍ:

"أريد أن تصل الكنيسة الأم كل ليلةٍ بمعلومةٍ جديدةٍ،
أن سيدنا الكبير خرق الصلح الأبوي،
وأن الراهب الملعون يحرك القوافل ويقطع تجارة الكنيسة باسم العدالة.
قل لهم إنهم لا يلتزمون بالعهد،
وأن الأرض التي زُعمت سلامًا صارت وكراً للخيانة."

أومأ القائد، وخرج مسرعًا ليملي على كتبة الدير تلك الرسائل المسمومة،
بينما ظل فان واقفًا، يعبث بسيفه ويبتسم ابتسامةً باهتةً.

قال بصوتٍ خافتٍ، كأنه يختبر ردة فعل سيده:

"وماذا عن يوهان؟ لقد بدأ رجالي يقتربون منه.
الطريق بين المشرق والبحيرات صار ضيقًا كعنق،
وأول الخنق هو أن نُغلق عليه الهواء."

ردّ أوغسطين بنبرةٍ أشد برودًا من المطر:

"راقبه يا فان، لكن لا تقتله بعد.
أريد أن يتنفس الخوف...
كلما عاد من رحلةٍ ظنّ أنه نجا،
ثم يستيقظ ليجد ظلالنا على بابه.
حين يظن أن النور بجانبه، أطفئ له الفتيل ببطءٍ."

⊡

في اليوم التالي، كانت النيران تشتعل في أطراف السهول الشرقية،
حيث تمتد الغابات التي تغذي أرض البحيرات بالأشجار والموارد.
ألسنة اللهب ترتفع عالية،
والدخان يغطي السماء كوشاحٍ أسودٍ ثقيلٍ يلف المكان.

ركض الرهبان والجنود في كل اتجاه،
يحاولون السيطرة على النيران،
لكن الريح كانت حليفة فان هذه المرة.

من بعيد، وقف أحد رجال فان يراقب المشهد بابتسامةٍ منتصرةٍ،
بينما يدوّن في لوحٍ صغيرٍ بيده:

"السهول احترقت... الممرات احترقت... البحيرات الآن جائعة."

وفي المساء، حملت الحمائم رسائل أوغسطين إلى الكنيسة:

"لقد خرق سيدنا العهد...
الراهب الملعون قطع الطريق على تجارة الكنيسة،
والبحيرات صارت مأوى للخارجين عن الطاعة."

أما في أرض البحيرات،
كان ثيودور ينظر إلى الأفق البعيد،
حيث تتوهج السماء بلون الدم،
ويرفع صوته قائلاً للكفيف وأنطونيوس:

"لقد بدأت النار التي كنا نخشاها...
لكنها ليست نار الهلاك،
بل أول لهبٍ في ملحمةٍ قادمة.

الفصل الثالث: لهيب السهول – المعركة الأولى

لم يكن الفجر فجرًا تلك الليلة...
بل لونًا من الجحيم يُولد في حضن الأرض،
تشق السماء صرخات الحديد والنار،
وتهتزّ التلال من دويّ السيوف التي تشتبك كأنها رعدٌ فوق الجبال.

أرض السهول التي كانت تُطعم البحيرات بالأشجار صارت رمادًا،
ودخانها يسوقه الريح نحو البحيرات كرسالةٍ من الموت.
في قلب السهل، ارتفع لواء أنطونيوس،
القائد الذي لا يبتسم إلّا وسط العاصفة،
وعيناه تتقدان كجمرتين خلف غبار المعركة.

كانت كتيبة البحيرات صفوفًا من الحديد،
وجوهٌ متجهمة، أكتافٌ عريضة،
رجالٌ تمرّسوا في الطين والمطر والظلام.
يقاتلون وهم يصيحون:

"للأرض التي آوتنا! للراهب الصامت!"

أما على الجهة الأخرى،
فكان رجال فان يزحفون من بين الدخان كالأشباح،
غوغائيون متوحشون،

لكنّهم يعرفون فنون الكرّ والفرّ كأنها دينهم القديم.
أجسادهم تلتف بالوشوم، وعيونهم كالنار لا ترمش.

اصطدمت الموجتان،
الحديد بالحديد، والدم بالتراب.
انفجرت الأرض، وارتجف النهار.
كانت الطعنات تُفتح كأبوابٍ للجحيم،
وكانت صرخات الموتى تصعد مع المطر.

⊡

أنطونيوس في قلب السهل،
يضرب بيمينه، يصدّ بيساره،
والطين يلتصق بدروعه كأنه دم ثانٍ لا يفارقه.
صرخ في جنوده:

"لا تتركوا صفوفكم!
هم أبناء الفوضى... ونحن أبناء النظام!
إذا انهارت الصفوف، انتهينا!"

وعلى مرتفعٍ قريب،
وقف يوهان مع كشافته يراقب المشهد من خلال المطر،
يصرخ في أحد رجاله:

"أرسل إشارة الطائر،
ليعرف ثيودور أن الحرب بدأت قبل أوانها!"

في السماء، حلق الطائر ذو العيون الحمراء فوق الدخان،
دوائره كانت تحرق الهواء،
وصوته يُسمع كالإنذار في قلب الجحيم.

⊡

تقدّم أحد رجال فان، ضخم الجثة، يحمل فأسًا بيدٍ واحدةٍ،
يضرب بها صفوف البحيرات كإعصار.
لكن قبل أن يُكمل ضربته،
هوت عليه رمح أنطونيوس، فشقّ صدره حتى انطفأت عينيه.

كانت الريح تعصف، والرعد يزمجر،
والنيران تمتدّ من السهول حتى مشارف البحيرات.
رجال البحيرات يتراجعون ثم يعودون،
يتساقطون ويقومون، كأن الأرض تُعيدهم من جديد.

الدماء صارت أنهارًا،
والأرض تبتلع أجسادًا بلا عدد،
لكن أنطونيوس لم يتراجع،
كان يجرح في كل خطوة،

لكنه ينهض في كل مرة كمن يحتمي بقسمٍ لا يُكسر.

□

حين مالت الشمس نحو الغروب،
كانت السهول نصفها رماد، ونصفها جثث.
أمر أنطونيوس بالانسحاب المنظم نحو البحيرات،
وعيناه تلمعان كمن لم يُهزم،
بل كمن أدرك أن المعركة الأولى كانت اختبارًا فقط.

قال وهو يجرّ سيفه المغطى بالطين والدم:

"فان لن يتوقف...
لكننا أيضًا لن نختفي...
هذه الأرض لنا،
ولن تمرّ عليها راية أوغسطين إلا غارقةً في دمها."

وفي السماء،
عاد الطائر ذو العيون الحمراء يدور فوق السهل،
يحمل رماد المعركة في جناحيه،
ويُطلق صرخةً طويلةً،
كأنها وعد... أو نبوءة لملحمةٍ قادمة

الفصل الرابع: ليل الدم والنذير

الليل سقط على أرض البحيرات كغيمةٍ من الرماد،
صمتٌ كثيف، لا يقطعه سوى صرير الحديد المكسور
وأنين الجرحى الذين يختبئون بين الصخور،
يتنفسون بصعوبة، كأن كل نفسٍ وصية.

أنطونيوس يجلس على صخرةٍ تغوص في الطين،
يده اليمنى مضرجة بالدم،
وعيناه معلّقتان في الأفق المظلم حيث احترقت السهول.
قال للكفيف بصوتٍ خافتٍ كأنه يخشى أن يسمعه الليل:

"خسرنا كثيرًا، لكن لم ننتهِ بعد...
الريح ما زالت معنا، والطائر ما زال يطير."

الكفيف رفع رأسه نحو السماء،
كانت الغيوم متراكمة كالجيوش،
والبرق يشقّها كأن السماء تُوقّع على ميثاق حربٍ جديدة.
همس الكفيف:

"الطائر ذو العيون الحمراء لا يصرخ عبثًا...
كل مرةٍ يعلو فيها صوته،
يولد نذيرٌ من الدم."

وفي تلك اللحظة،
عبر صدى الصوت فوق المعسكر ——
صرخةٌ طويلةٌ اخترقت الصمت،
ارتجفت لها القلوب،
وتساقط الرماد من على الخيام.

خرج ثيودور من خيمته، عباءته ترفرف كظلٍّ بين النيران،
الطائر على كتفه، عيناه تلمعان بلون الجمر.
قال بصوتٍ ثابتٍ كأنه يقرأ من المخطوطة نفسها:

"النذير أتى... ليس بالموت، بل بالتحول.
ما كان صراعًا على الأرض، سيصير صراعًا على الروح."

اقترب يوهان منه، جسده مغطى بالغبار والدم،
قال غاضبًا:

"كم من الدماء بعد؟
هل هذه رسالتك يا ثيودور؟ أن نموت لنُطهّر خطاياهم؟"

التفت إليه الراهب الصامت ببطءٍ،
ونظر إليه بعينيه الزرقاوين كسماءٍ في آخر الشتاء،
ثم قال بصوتٍ عميقٍ كأنما يخرج من باطن الأرض:

"الدم طريق، لا غاية...
ونحن الآن على بدايته فقط، يا يوهان."

في الجهة الأخرى من البحيرات،
عند أطراف السهل المحترق،
كان فان يسير بين الجثث بنظرةٍ فارغة،
وجهه ملوث بالسخام والدم،
وفي يده سيف لم يجفّ عليه أثر القتل بعد.

اقترب منه أحد قادته وقال بترددٍ:

"القائد أنطونيوس انسحب نحو البحيرات،
لكننا خسرنا نصف رجالنا، والريح لا تهدأ..."

فالتفت إليه فان ببطءٍ،
وفي عينيه بريق شيطانيّ، وقال:

"الخسائر لا تعني شيئًا...
الدم هو اللغة التي يفهمها هؤلاء.
غدًا سنحاصرهم من الشرق،
ونغسل السهول بدمائهم حتى تصير المراكب تطفو على أجسادهم."

⊡

في تلك الليلة،
لم ينم أحد في البحيرات.
ثيودور ظلّ جالسًا أمام المخطوطة،
الطائر ذو العيون الحمراء يلتف حوله كظلٍّ من نار.
كانت الرموز تتحرك فوق الورق،
تتوهج ثم تخبو، كأنها تنزف نورًا.

كتب الراهب بخطٍ ثابتٍ في نهاية الصفحة:

"عندما يشتعل الليل، سيولد النذير،
وإذا ولِد النذير، ستبدأ الملحمة."

⊡

قبل الفجر بقليل،
ارتفع صراخ من برج المراقبة.
أحد الكشافين رأى من بعيد نارًا ضخمة تتحرك في السهل،
لم تكن نارًا عادية،
بل صفوف مشاعل تمتد كأفعى من لهب،
تقترب من البحيرات.

قال أنطونيوس وهو ينهض ممسكًا بسيفه:

"الليل لم ينتهِ بعد...
ها هو فجر الدم قادم!"

وحين أطلقت الحدأة صرختها الثانية،
عرف الجميع أن النذير تحقق —
وأن الأرض تستعد للجولة التي لن ينجو منها أحد دون أن يترك أثرًا من دمه

حين اشتعل الشرق

كان الليل يختنق على أطراف السهل، والهواء مشبع برائحة المعدن والعرق والخوف.
من بعيد، كانت الأضواء تتحرك كأشباحٍ تخرج من رحم العتمة.
صفوفٌ من المشاعل تموج في الأفق الشرقي، تتحرك كأنها حيةٌ من نارٍ تزحف ببطءٍ نحو قلب أرض البحيرات.

وقف أنطونيوس فوق التل، المطر يتساقط على كتفيه،
وعيناه تراقبان الأفق المشتعل، بينما الريح تزمجر كوحشٍ محبوس.
قال أحد رجاله بصوتٍ مخنوق:

"سيدي... إنهم قادمون. إنهم يشعلون الأرض!"

لكن ثيودور، الذي كان يقف في الخلف، لم يتحرك.
حدّق في الطائر ذي العيون الحمراء وهو يدور في السماء بعصبيةٍ غريبة،
كأن شيئًا ما يستدعيه من البعيد.

مدّ الكفيف يده نحو المخطوطة وهو يتمتم:

"تحرّكت الرموز... أرى وهجًا في السطور... النذير بدأ."

□

في الأفق، كان فان يضحك —
صوتٌ أجشّ يخترق المطر والريح.
وقف وسط جيشه، والمشاعل تحيط به كحلقةٍ من لهبٍ أحمر.
صرخ بأعلى صوته:

"احرقوا الأرض حتى لا يختبئ فيها شيطانهم!
لن تبقى شجرة ولا ظلّ إلا رماد!"

وفي لحظةٍ واحدة،
اندفعت النيران من الشرق كوحشٍ مفترسٍ جائع،
تلتهم الأعشاب والحقول والأكواخ البعيدة،
السماء احمرّت، والريح دفعت ألسنتها إلى الداخل، نحو قلب البحيرات.

صاح أحد المراقبين من البرج الخشبي:

"النار تتقد نحونا! إنها تأكل الطريق!"

لكن الطائر — الطائر ذو العيون الحمراء —
أطلق صرخةً مدوّية هزّت الجبال،
وانقضّ من السماء كالسهم،
رفرف بجناحيه فوق اللهب،
فانقلبت الرياح فجأة!

دوّامةٌ من هواءٍ غاضبٍ دارت،
وأخذت النيران تلتف حول نفسها،
ثم حملها الطائر كمن يقبض على شيطانٍ من لهبٍ ويرسله من جديد.
اشتعلت السماء فوق فان وجنوده،
وأمطرت الأرض شررًا حارقًا من الجهة الشرقية.

صرخ جنوده، وارتبك الفرسان،
تحولت المشاعل إلى فخٍ قاتل،
فكل من حملها صار يشتعل معها!

قال أحد ضباط فان مذعورًا:

"الريح تخوننا! النار تعود علينا!"

لكن فان، بعينَيه الغارقتين في الجنون، صرخ:

"أطفئوها! أطفئوا النار اللعينة!"
ولم يكد يُكمل كلماته حتى ضربت عاصفةٌ هوجاءُ السهل،

تحوّلت السماء إلى نهرٍ من المطر،
وانطفأت النار تدريجيًا تحت الصواعق والبرق والرعد الذي مزّق الظلام.

⊡

في الأعلى، فوق الجبل،
وقف ثيودور والطائر بجانبه،
عيناه تلمعان بوميض المشاعل المنطفئة، وصوته بالكاد يُسمع وسط العاصفة:

"إنها العدالة...
النار التي أُشعلت ظلمًا لا تُطفأ إلا بالسماء."

وبينما كان المطر يغسل الأرض من الدم والرماد،
كانت الريح تعيد فان ورجاله أدراجهم.
سقط كثيرون في الوحل، فقدوا خيولهم، وبعضهم احترق بناره.
السهل الشرقي تحوّل إلى جحيمٍ هادئٍ بعد العاصفة —
رمادٌ أسود، وجثثٌ متناثرة، وأرضٌ تبخّر منها لون الحياة.

أما في معسكر البحيرات،
رفع أنطونيوس رأسه إلى السماء وهو يقول:

"نجونا الليلة... لكن الريح لن تهدأ طويلاً."

وفي البعيد،
أطلق الطائر ذو العيون الحمراء صرخةً أخرى —
صرخةً لم تكن نذيرَ هلاكٍ...
بل إعلانًا أن الانتقام بدأ حقًا من الشرق

الفصل الخامس – ما بعد الحريق

ألسنة الرماد، وصرخة البعيد

مع انبلاج الصبح، بدا الشرق كأنه فمُ جرحٍ مفتوحٍ على اتساع الأفق.
كل شيءٍ مغطّى بالسواد: الأرض، الماء، حتى السماء كانت رمادية كرمادٍ عالقٍ في صدر العالم.
لم يبقَ من النيران سوى خيوطٍ من البخار تتراقص في البرد كأرواحٍ لم تهدأ بعد.

أنطونيوس سار بين الجثث بصمتٍ ثقيل،
المطر ما زال يهمي على خوذته، يختلط برائحة الحديد واللحم المحترق.
خلفه كان رومان يرفع بقايا رايةٍ محترقة، وعيناه دامعتان.
أما ثيودور، فجلس عند حافة الهضبة،
والطائر ذو العيون الحمراء على كتفه، ساكنٌ كتمثالٍ من نارٍ مطفأة.

قال أحد الجنود وهو يتفقد الأرض:

"لم يبقَ من رجال فان سوى الهاربين...
وبعض الجثث لا يُعرف من أصحابها، ذابت مع لهبهم."

رفع أنطونيوس رأسه نحو ثيودور وقال:

"أخبرني يا أبانا... هل كانت هذه هي اللعنة التي يتحدثون عنها؟"

ابتسم ثيودور ابتسامةً باهتة، وقال بصوتٍ منخفضٍ كأنه يقرأ من صفحةٍ غير مرئية:

"اللعنة ليست نارًا تهبط من السماء...
بل ظُلمٌ يُشعل نفسه، حتى يحترق صاحبه."

⊡

لكنّ الأخبار كانت أسرع من الرياح.
في اليوم الثالث، خرجت الأحاديث من أفواه الناجين كدخانٍ لا يُحاصر.
قال البعض إن الراهب الصامت أطلق الشياطين من طائره،
وقال آخرون إن فان أحرق أرضه بنفسه بعدما تمرد عليه الجنود.
أما الفلاحون في القرى البعيدة، فصاروا يتهامسون في الأسواق:

"أرض المشرق لعنت نفسها،
والسماء ردّت النار بالنار،
ومن تبع أوغسطين، نال نصيبه من الجحيم."

حتى في أروقة الكنيسة الكبرى، وصل الهمس إلى آذان كبار الكهنة.
لم يعد أحد يعرف أين تبدأ الحقيقة وأين تنتهي الأسطورة.
لكن الاسم الذي تردّد على كل لسان كان واحدًا: ثيودور... الراهب الصامت.

⊡

وفي المساء نفسه،
وصل وفدٌ صغير إلى أرض البحيرات —
خمسة من فرسان مملكة الفيل، رجالٌ طوال، بشراتهم كأبنوسٍ لامعٍ وعيونهم كبريق السيوف في الظلام.
كانوا يحملون أختامًا مذهبة من مملكة "الضّى"،
التي جاء منها مهربان، رسول التجارة والاتحاد.

تقدّم قائدهم، وضرب رمحه في الأرض وقال بصرامةٍ تشبه العهد:

"نحن رسل الملك.
الأخبار وصلت إلى مملكة الأفيال.
قيل لنا إن السماء اشتعلت فوق أرض المشرق،
وإن اللعنة عادت تسري في الشمال.
فما حقيقة ما جرى؟
وهل ما زال الراهب الصامت حيًّا؟"

تبادل أنطونيوس ورجاله النظرات، بينما ظلّ ثيودور ساكنًا في مكانه،
الطائر يرفرف بجناحه مرة واحدة، ثم يسكن ثانيةً كمن يُعلن صمته المقدس.

اقترب أحد الفرسان من رومان وهمس له:

"لقد هزّ ما حدث أرض الملوك.
الملك نفسه قال: إذا صحّت هذه اللعنة... فربّما بدأ عصر النار الثانية."

صمت الجميع للحظات، ثم قال ثيودور بصوتٍ خافتٍ كأنه صدى من تحت الأرض:

"بل بدأ عصر الحقيقة."

وفي الأفق البعيد،
ارتفع دخانٌ آخر، لم يكن من نارٍ هذه المرة،
بل من قوافلٍ تتحرك بسرعةٍ نحو البحر —
الخبر وصل فعلًا إلى مملكة الفيل...
والعالم بدأ يتهيّأ لعاصفةٍ أكبر من كل ما احترق

الفصل السادس -رياح الملوك

السماء ما زالت ملبّدة بالغيوم، كأن المطر لم يغادرها منذ الحريق الأخير.
لكن هذه المرة لم يكن المطر نذيرًا للدم،
بل نذيرًا لخبرٍ سيهزّ الممالك البعيدة — خبر اللعنة التي قيل إنّها أحرقت المشرق،
وجعلت اسم "الراهب الصامت" يتردّد بين التجار والرهبان والملوك كأغنيةٍ قديمةٍ عادت للحياة.

·

كان الوفد القادم من مملكة الأفيال يسير في صمتٍ عظيم.
أصوات خطواتهم فوق الطين تشبه قرع الطبول،
وعلى وجوههم ثباتٌ لا يعرف الخوف ولا الانفعال.
أمامهم كان يقف يوهان، وقد تعافى من جراحه تمامًا،
يرتدي عباءته الرمادية وعيناه تشعّان بحذرٍ عسكريٍ يعرف أنّ كل كلمةٍ قد تشعل حربًا جديدة.

قال قائد الوفد — فارسٌ ضخم يحمل ندبةً على خده:

"جئنا بأمر الملك شخصيًا.
اللعنة وصلت إلى آذاننا،
وقيل لنا إن النار لم تكن إلا صدى لِسِحرٍ قديمٍ تحمله أرض البحيرات.
فهل هذه هي أرض السلام التي وعدنا بها مهربان؟
أم أنها فخٌّ صنعه أوغسطين ليبتلع من يقف في طريقه؟"

أجاب يوهان بثباتٍ كأنه يقف أمام محكمة التاريخ:

"لا نحن فخ، ولا نحن نار.
نحن أبناء الحقيقة التي أخفوها خلف الأختام.
وما جرى في المشرق لم يكن سحرًا، بل انتقام الأرض من الظلم."

تقدّم أحد الفرسان بخطوة وقال:

"كلماتك عظيمة، لكنها لا تشفي الخوف.
الملك يريد أن يعرف: هل الراهب الصامت ما زال يملك الطائر؟
وهل ما زال حيًّا؟"

أشار يوهان برأسه نحو الخيمة الكبرى حيث يقيم ثيودور، وقال بهدوءٍ مهيب:

"هو هناك. لكن لا تنتظروا منه كلمات كثيرة،
فالذي يملك الحقيقة لا يصرخ بها... بل يتركها لتتكلم من تلقاء نفسها."

⊡

حين دخل الوفد إلى الخيمة، وجدوا ثيودور جالسًا أمام المخطوطة،
والطائر ذو العيون الحمراء يقف على عمودٍ خشبيٍّ قربه،
أجنحته مطوية كمن ينتظر أمرًا من السماء نفسها.

قال قائد الوفد:

"يا من يسميك الناس بالراهب الصامت...
جئنا نسألك: هل النار التي أحرقت المشرق كانت بيدك؟
أم أنّها لعنة اوغسطين التي حكى عنها الشيوخ في مملكة الفيل منذ ظهورك؟"

رفع ثيودور رأسه ببطء،
كانت عيناه زرقاوين كسماءٍ عاصفة، وصوته هادئًا كالموت:

"النار يا سيدي لا تُخلق إلا من صدورٍ امتلأت بالكراهية.
أوغسطين أشعلها... والطائر فقط حمل رمادها."

ساد صمتٌ طويل.
لم يعرف رجال مملكة الفيل هل أمامهم قدّيس أم عاصٍ على القوانين.
لكن القائد قال بعد ترددٍ ثقيل:

"سأنقل كلامك للملك.
لكنه لن يرضى بالسكوت طويلاً.
إن كانت أرض البحيرات مأوى للعدل... فعليها أن تُثبت ذلك للملوك والكنيسة."

⊡

غادر الوفد بعد أيامٍ ثلاثة،
حاملين رسالة مختومة بخاتم سِيدنا تؤكد الصلح وتمجّد أرض البحيرات كمركزٍ للتجارة والعدل.
لكن في أعماقهم، كان الشكّ كالنار التي لا تخمد.
وفي طريق العودة، شاهدوا على قمم الجبال أعمدة دخانٍ جديدة...
كانت قادمة من جهة المشرق،
حيث بدأ فان يتحرك مرةً أخرى بأوامر أوغسطين.

الملوك سيسمعون عن ذلك خلال أيام،
والكنيسة ستبدأ بالتحقيق،
أما ثيودور فجلس تلك الليلة أمام المخطوطة والطائر إلى جواره،
وقال بصوتٍ مبحوحٍ خافت:

"اللعبة بدأت من جديد...

لكن هذه المرة، من سيحترق... لن يولد له رماد."

وفي الأفق،
أطلق الطائر صرخةً حمراءَ في وجه العاصفة،
كانت أشبه بإنذارٍ من السماء —
أن ملحمة البحيرات لم تعد حلمًا... بل على وشك أن تبدأ

- [ ] الفصل السابع

— استيلاء فان على القرى المتحالفة مع البحيرات

كانت الريح تمزق وجه الأرض كأنها تحمل نذرًا بالخراب، والسماء معلقة بين رمادٍ ورعدٍ مكتوم، لا يضيء منها إلا برق خاطف يلمع فوق رؤوس الجنود. في تلك الليلة التي لم يطمئن فيها قلب أحد، كان فان قد حشد رجاله في سرٍ تام، واختار طريقًا لا تسلكه القوافل، طريقًا وعِرًا يلتف حول السهول ويدخل من جهةٍ لا تتوقعها البحيرات ولا حلفاؤها.

كان يعلم أن ضرباته لن تكون في القلب، بل في الأطراف؛ فالطعن في الذراع يُشلّ الجسد كله.
أرسل أوامره على دفعات، لا بصوتٍ ولا برسائل مكتوبة، بل بإشارات النار، كأنهم ذئاب الليل يعرفون لغتهم الخاصة. كلّ فرقةٍ تعلم متى تتحرك ومتى تصمت ومتى تقتل، ومتى تترك الرعب وحده يقوم بالباقي.

مع الفجر الأول، كانت قرى التحالف الأولى – تلك التي أقسمت الولاء لأرض البحيرات – تغفو في أمانٍ كاذب.
الأطفال يلهون بالوحل، والرجال يتهيأون لجمع الحطب من الغابة، لكنّ الهدوء لم يدم.
من الجهة الشرقية، ظهر أول رتلٍ من رجال فان، يرفعون راياتٍ بلا لون. لم يدخلوا بالهجوم المباشر، بل تسللوا بين الحقول، يقطعون سبل الاتصال، يعزلون الحراس واحدًا تلو الآخر، حتى صارت القرية صمّاء لا تسمع إلا وقع أقدامهم.

حين ظهرت أول مقاومة، كان فان قد أحكم الطوق.
الرجال الذين خرجوا بالعصيّ والحجارة لم يجدوا أمامهم جيشًا، بل ظلالاً تتحرك كأشباحٍ تعرف موضع كل بيتٍ ومخزنٍ وسقيفة.
في لحظاتٍ، اشتعلت أطراف القرية بحرائق صغيرة متفرقة، لم يقصد منها الحرق بقدر ما قصد منها التخويف والاختناق بالدخان.
صوت الأبواق الغريبة اخترق الفجر، وأصوات الرعب انطلقت من كل صوب:
«اللعنة! رجال فان!».

الجنود الغوغائيون كانوا يتحركون بمهارةٍ مرعبة، مدرّبين على الكرّ والفرّ، يضربون ويختفون، لا يتركون خلفهم إلا رمادًا ونصف حياة.
كانوا يضحكون وهم يهاجمون، والضحك في أفواههم كان أقسى من الصراخ.
في بيوت القرية، ارتجفت النساء خلف الأبواب، بعض الرجال استسلموا، وآخرون حاولوا المقاومة فسقطوا على عتباتهم، لم تُسفك دماؤهم كلها، ولكنها أريقت بما يكفي ليُكتب الرعب على الجدران.

حين دخل فان بنفسه القرية، كان يحمل هدوءًا يشبه الموت.
وجهه لا يعبّر، صوته لا يرتفع، عيناه تدوران حول المكان كمن يُقيّم غنيمته.
قال لأحد جنوده:

«أطفئوا النار... أريد هذه الأرض أن تعيش لي، لا أن تحترق من أجلي.»

ثم أمر برفع رايات دير أوغسطين فوق أبراج الحراسة القديمة.
في لحظةٍ واحدةٍ، أصبحت القرية – التي كانت من حلفاء البحيرات – مستعمرةً جديدة تحت راية القائد الأسود.

لم تمضِ سوى أيامٍ قليلة حتى انتشرت أخبار سقوط القرية الأولى، فاهتزت الثانية خوفًا.
لكن فان لم يمنحهم الوقت.
تحرك بكتائب صغيرة، دقيقة التنظيم، كأن الأرض نفسها تخدمه.

القرية الثانية قاومت نصف يومٍ، ثم انهارت. لم تكن المعركة كبيرة، بل سلسلة ضرباتٍ خاطفةٍ أنهكت قلوب الناس قبل أجسادهم.
كان الجنود يدخلون المنازل لا ليقتلوا، بل ليجمعوا أسماء من تعاونوا مع البحيرات، وكل من ذُكر اسمه يُسحب عند الغروب ولا يعود أبدًا.

في المساء، جمع فان شيوخ القريتين في الساحة، وألقى خطبته الباردة:

«أنتم الآن تحت حماية دير أوغسطين. من يعارض،تقع عليه اللعنة التي أصابت الملعون وطائره. لا أحد ينجو من راية الدير.»

ثم التفت نحو الأفق حيث تلوح التلال التي تقود إلى البحيرات، وقال لجنده:

«احفروا خنادق على طول الطريق، وازرعوا العيون بين القوافل. من يخرج منها أو يدخل إليها، اقتلوه في الصمت ولا تتركوا جثته بين الناس.»

الليل نزل بثقله، والريح حملت معها رائحة الحريق والرماد.
كانت السماء ترعد، والطائر ذو العيون الحمراء يحلق بعيدًا في الأعالي، يراقب المشهد من فوق.
ثيودور في أرض البحيرات شعر بالاضطراب، نظر إلى الطائر وهو يعود بلا صوت، فتمتم قائلاً:

«لقد تحرك فان... بدأ يأكل القرى، قريةً بعد قريةٍ... كأنه ينفّذ وصية الشيطان.»

في تلك الليلة، اجتمع أنطونيوس ورجاله حول خريطةٍ منقوشةٍ على جلدٍ قديم، تتساقط عليها قطرات المطر من سقف الخيمة، والبرق يضيء وجوههم.
قال أنطونيوس بصوتٍ غليظ:

«لن نردّ بالحرب الآن... سنردّ بالحكمة. فان يريدنا أن نخطئ لنبرّر حربه.»

أما رومان، فكان ينظر نحو الظلام قائلاً:

«لكن إن لم نتحرّك الليلة، لن يبقى غدٌ نتحرك فيه.»

وفي الخارج، كانت الريح تزمجر، والطائر يدور في حلقاتٍ حمراء فوق السهول التي تشتعل من جديد...
نذير الحرب الكبرى يقترب، واللعنة التي أطلقها أوغسطين بدأت تحرق كل ما يلمسه فان، حتى ظلاله

- النار من الداخل

كانت الليلة أشبه بفم الجحيم، والسماء كأنها تمزّقت فوق أرض المشرق.
الريح تصفر من كل اتجاه، تحمل رماد الأيام الماضية وصوتًا بعيدًا للطائر ذو العيون الحمراء، كأنه نذيرٌ بما هو قادم.

جلس أنطونيوس داخل الخيمة الكبرى أمام الخريطة التي تغمرها بقع من الطين والدم، بجواره ثيودور والكفيف وروما.
الكلّ يعلم أن فان لم يتوقف، بل زحف نحو القرى المتحالفة مع البحيرات، يبتلعها قرية بعد أخرى، بوحشيّةٍ لم يُشهد لها مثيل.

لكن أنطونيوس لم يرسل جيشه، ولم يأمر بالمواجهة المباشرة، بل قال:

"سنُشعل قلبه من الداخل، لا حدوده. سنجعل النار تأكل جنوده وهو يظنّ أن العدوّ في صفوفه."

تسللت الأوامر في صمتٍ، وبدأت الخطة.
رجال من كشافات البحيرات تنكروا بملابس فان، تسللوا بين جنوده، تركوا أكياس الزيت المخلوط بالبارود بين المخازن والخيام، وبعضهم ألقى إشاعاتٍ عن خيانةٍ بين القادة.

وفي الفجر، بينما كان فان يُلقي أوامره، صاح أحد الحراس:

"قائد! هناك متسللون يرتدون زينا!"
"خيانة يا قائد! هناك حريق في المخازن!"

التفت فان بغضب، والشرر يشتعل في عينيه، ثم رأى ألسنة النار تمتد كأفاعٍ من طرف المعسكر، تتصاعد في السماء الحمراء.
الجنود يتقاتلون، كلٌّ يتّهم الآخر بالولاء للراهب الصامت.
الاضطراب يعصف بالمكان كإعصارٍ من نارٍ ودم، والمطر بدأ يسقط بلا رحمة، يزيد الدخان كثافةً وحرارة.

خرج فان من بين الخيام المشتعلة، سيفه في يده، وجهه ملوثٌ بالسخام، يصرخ بجنون:

"أين الخونة؟ من أشعل النار؟ من منكم يجرؤ على خيانة فان؟"

لكنّ الخوف كان واضحًا في صوته.
لم يعلم أن ذلك الانفلات كان بداية النهاية، وأن أحدهم قد استغل الفوضى ليدخل قلب المعسكر نفسه.

من بين الدخان، ظهر يوهان.
يقف بثبات، المطر يختلط بدمائه، والريح تلهب عباءته السوداء.
وقف فان أمامه، ثم ضحك بصوتٍ عالٍ:

"أخيرًا عُدت! المرسال السابق سيخرج من ظله! عدت لتسدد دينًا قديمًا لمن لوّث اللحية البيضاء!"

ردّ يوهان بهدوءٍ غاضب:

"لم أعد لأسدد دينًا... بل لأُنهي عهدكم بالدم وإنتقاما لروحه الطاهره."

اندفعت السيوف تصرخ.
الحديد يشتعل شررًا، والدماء تغسل الأرض.
كانت معركة دامية، لا يسمع فيها سوى صليل السيوف وصرخات الرجال المشتعلين بالنار من حولهم.

فان كان مقاتلًا جبارًا، عنيفًا كوحشٍ خرج من باطن الأرض، يضرب بعنفٍ قاتلٍ لا يعرف الرحمة.
أما يوهان فكان المراوغ الأذكى، سيفه يتحرك كوميض البرق، ووجهه لا يحمل سوى الغضب الهادئ، نار الانتقام تشتعل في عينيه.

ضربة قاسية من فان أصابت كتف يوهان فسال الدم بغزارة، لكنه صمد.
أدار جسده بخفةٍ خاطفة وغرس سيفه في كتف فان الأيمن.
صرخ فان وركل الأرض كمن أصابه البرق، وسيفه ارتدّ نحو يوهان فأصابه في جنبه الأيسر.
سقط الاثنان على الأرض الموحلة، يتنفسان كوحشين يقتتلان من أجل البقاء.

في تلك اللحظة، دوّى الرعد، واهتزّت السماء، وصرخ الطائر ذو العيون الحمراء من فوقهم صرخة اخترقت الصدور.
أدار فان رأسه نحو الصوت، فإذا باللهب يمتد نحوه، أصابته النار في جانبه، فصرخ وسقط أرضًا.
كانت الصرخة الأخيرة له قبل أن يُغشى عليه، بينما يوهان يجرّ نفسه مبتعدًا وسط المطر والنيران.

السهام بدأت تمطر حوله كجحيمٍ مفتوح.
إحدى السهام اخترقت كتفه، وأخرى استقرت في ظهره.
ركض يتعثر في الطين والدم، إلى أن لاحت أمامه رايات البحيرات، وجنود أنطونيوس يندفعون نحوه.
حملوه بسرعةٍ بين أذرعهم وهو شبه غائبٍ عن الوعي، والدم يسيل من جنبه الأيسر، والجراح تنزف بحرارة كالنار.

عادوا به إلى البحيرات تحت المطر الغزير، بينما الطائر يحوم فوقهم كظلٍّ واقٍ من السماء.

وفي الخلف، كان جنود فان يجرّون قائدهم المصاب خارج القريّة المشتعلة، يتخبطون بين الجثث والرماد.
صرخ أحد الجنود:

"القائد في خطر! يجب أن نغادر فورًا!"

غادروا المكان مسرعين نحو المشرق، تاركين خلفهم الأرض رمادًا والنار تلتهم الأطراف،
والمطر ــــ كما لو أنه أمرٌ سماوي ــــ بدأ يُطفئ ما تبقّى من الحريق،
فيما ظلّت الريح تصرخ، حاملةً صدى صرخة فان الأخيرة، وصوت الطائر يختفي في العتمة

الفصل الثامن – عودة الدم إلى البحيرات

هدأت السماء بعد أسبوعٍ من الجحيم.
المطر لم يتوقف، لكنه أصبح أكثر رحمة، كأنه يغسل الأرض من لعنة النار والدخان.
على أطراف القرى التي احترقت، كانت رائحة الرماد تختلط برائحة الطين، والغربان تحوم فوق الأطلال، تبحث عن ما تبقى من جثثٍ نصف محترقة، كأنها بقايا عهدٍ فاسد.

في تلك الساعات الرمادية، استغلّ أنطونيوس انسحاب قوات فان بعد سقوط قائدهم.
تحرك بسرعةٍ عسكرية مذهلة، قسم رجاله إلى ثلاث فرق:
الأولى لإخماد ما تبقى من حرائق القرى،
الثانية لتأمين الجسور والطرق،
أما الثالثة فكانت لاستعادة السيطرة على القرى التي فقدوها وإعادة الأمان إليها.

كان يسير بنفسه بين صفوف الجنود، وجهه مغطى بالوحل، وعباءته ممزقة من أثر المعارك،
لكن صوته ثابت كالصخر وهو يصيح:

"القرى لنا... البحر لنا... لا تتركوا جريحًا ولا مظلومًا... من بقي في بيته فليعلم أن البحيرات عادت حُرّة!"

الناس خرجوا من مخابئهم بخوفٍ وتردد،
نساءٌ يحملن الأطفال، رجالٌ فقدوا كل شيء إلا الأمل،
وعندما رأوا رايات البحيرات الزرقاء ترتفع من جديد،
ركعوا على الأرض يبكون، وكأن السماء نفسها بكت معهم.

في الجهة الأخرى، كانت خيام العلاج قد نُصبت على ضفة البحيرة العميقة،
هناك حيث يرقد يوهان،
جسده مغطى بالضمادات البيضاء التي تلطخت بالدم،
الطبيب يعمل ليل نهار، يغيّر الضمادات،
والكفيف يجلس بجواره، يقرأ عليه صلواتٍ قديمة بلغةٍ تكاد تُنسى.

كلما فُتح باب الخيمة، يدخل ثيودور صامتًا،
الطائر ذو العيون الحمراء يقف عند قدميه،
ينظر إلى يوهان بعينٍ غامضةٍ كأنه يحرسه من موتٍ يتربص به.

في إحدى الليالي، بينما المطر يطرق سقف الخيمة،
قال الكفيف بصوتٍ خافتٍ لأنطونيوس الواقف أمامه:

"حال يوهان بين الحياة والموت... لكن القلب الذي نجا من النار لن تهزمه السهام."
فأجابه أنطونيوس:
"إنه ابن ذو اللحية البيضاء... والدم لا يموت."

وفي الصباح التالي،
عاد سِيدنا من رحلته الطويلة خارج البحيرات.
دخل وهو يجرّ ثوبه المبتل بالمطر، وجهه متعب لكن عينيه تشعّان بصلابةٍ مقدسة.
اجتمع حوله الجميع في قاعة المجلس الخشبية التي أعادوا بناءها على عجل بعد الحريق.
وقف أمامهم، نظر إلى ثيودور وأنطونيوس والكفيف، وقال:

"سمعت عن الحريق، وعن فان... قيل إنه بين الحياة والموت."

أجابه أنطونيوس وهو ينظر إلى الأرض:

"انسحبوا قبل أن نصل إليه. النار أكلت نصف معسكرهم، والبقية فرّوا. لكننا لا نعلم حاله الآن."

حينها التفت سيدنا إلى الكفيف،
وقال بنبرةٍ حاسمةٍ هادئة:

"أرسلوا من يتأكد... أريد عيوننا في المشرق، وأذاننا في الدير الكبير.
اللعنة لم تنتهِ، وما زال أوغسطين في الظل ينتظر فرصته."

أومأ ثيودور برأسه، الطائر على كتفه يرفرف جناحيه ببطء،
وكأن الريح التي تمر في الخيمة كانت تجيب عن قسمٍ قديم لم يُكمل بعد.

في الليل،
اقترب الكفيف من خيمة يوهان،
وهمس له:

"نم بسلام يا ابن اللحية البيضاء... فالعاصفة لم تنتهِ،
لكننا الآن نملك ما لم يملكوه: الإيمان بأن ما نحميه ليس أرضًا... بل ذاكرة الدماء."

الطائر أصدر صرخةً منخفضة، ثم طار إلى الظلام،
متجهًا نحو المشرق،
يحمل رسائل خفية إلى العيون والجواسيس الذين أُرسلوا لمعرفة مصير فان...

وفي مكانٍ بعيدٍ،
تحت ضبابٍ كثيفٍ يغطي الجبال،
كان جسد فان مستلقيًا على سريرٍ من القشّ،
وجهه نصف محترق، وعيناه بالكاد مفتوحتان،
وحوله جنودٌ يهمسون:

"قائدنا ما زال حيًّا... لكنه يرى النار حتى وهو نائم."

وهكذا...
عاد الهدوء إلى البحيرات، لكن الهدوء هذه المرة لم يكن سلامًا،
بل استعدادًا لعاصفةٍ جديدةٍ لم تولد بعد

- [ ] الفصل التاسع – ظلال المشرق

كان الفجرُ غائمًا كأنّ الشمسَ ترفضُ أن تُشرق على أرضٍ نُزفَت حتى العظم.

في أحد معسكرات المشرق،
حيث خيام الجنود الممزّقة والدخان لا يزال يتصاعد من رماد الليالي الماضية،
تحرّك جسدٌ ثقيل فوق فراشٍ خشنٍ من القشّ...
كان فان يستيقظ للمرة الأولى بعد أسبوعٍ من الغيبوبة.

فتح عينيه نصف فتحة، فوجد العالم مُغطّى بضبابٍ أبيض،
الأصوات بعيدة، والروائح خليط من الدواء والدم،
كلّ نفسٍ يخرج منه كأنه سكينٌ يشق صدره.
حين حاول الجلوس، صرخ الجندي الواقف على بابه:

"ابقَ مكانك يا قائدي، الطبيب قال إنّك لم تُشفَ بعد."

لكن فان لم يسمع...
كان يسمع فقط همسًا من الماضي:
صوت الطائر يصرخ في السماء،
وصدى يوهان وهو يبتعد بين الظلال بعد أن تركه مثخنًا بالجراح...
شدّ قبضته على الغطاء حتى تقطّعت عروقه،
وهمس بصوتٍ مبحوح:

"يوهان... والراهب الصامت... لقد خدعتني البحيرات."

وفي تلك اللحظة،
كانت الأرض تهتزّ تحت وقع أقدام الخيول القادمة من بعيد.
الرايات السوداء للدير الأكبر تقترب،
وفي مقدمتها عربةٌ مصفّحة يجرها أربعة أحصنةٍ ضخمة.
وقف الجنود في صفوفٍ مرتعشةٍ على الجانبين،
الكل يعلم من القادم...
أوغسطين، الأنبا الذي تحرّك أينما شاء دون استئذان أحد،
ومعه القائد، ذراعه الحديدية وصاحب السيف الملطّخ بدماء عشرات الرجال.

دخل أوغسطين إلى خيمة فان،
الهواء صار أثقل من الرصاص،
الجنود خفّضوا رؤوسهم حتى لامست الأرض،
والقائد رفع الستار وأعلن بصوتٍ كالرعد:

"سيدنا الأنبا أغسطين... في معسكر المشرق."

كان فان نصف ميت، لكنه تظاهر بالقوة،
حاول النهوض، إلا أنّ أوغسطين رفع يده ليوقفه:

"ابقَ مكانك يا فان... لا تُتعب نفسك، فالخيبة تُرهق أكثر من الجراح."

جلس أوغسطين على الكرسي المقابل له،
أخرج من جيبه رقعةً صغيرة من الجلد،
عليها ختم الكنيسة الأم،
ورماها أمام فان قائلاً بنبرةٍ باردة:

"كنتَ نجمًا يلمع في ظلام هذا المشرق،

ثم اخترتَ أن تسقط لأنّك أردت أن تكون شمسًا...
الشمس يا فان لا تشرق إلا بإذني."

خفض فان رأسه، أنفاسه ثقيلة،
لكن كبرياءه لم يمت.
قال بصوتٍ متقطعٍ لكنه ثابت:

"سيّدنا... قاتلتُ باسمك، ورفعتُ راياتك على القرى التي خانتك.
لقد انتصرتُ في البداية، لكن النار كانت أدهى... الطائر ذي العيون الحمراء كان هناك... إنه لم يكن من بشر."

ابتسم أوغسطين ابتسامةً صغيرةً بلا دفء،
ثم نظر إلى القائد وقال:

"لقد صار الجنود يرون الشياطين في السماء ويصدقونها."
ثم التفت إلى فان من جديد، وصوته انخفض إلى همسٍ زاحفٍ كالسم:
"أنت لم تُهزم يا فان... أنت كُسرت.
والكسر لا يُصلح إلا بالدم."

أشار بيده للقائد، فاقترب رجلٌ يحمل إناءً صغيرًا من المعدن،
فيه بقايا رمادٍ داكن.
قال أوغسطين وهو ينظر إليه ببطء:

"هذا رماد معسكرنا القديم في المشرق قبل أن تُعيد بناءه.
اليوم، سيُعاد بناؤك أنت أيضًا، لكن بطريقةٍ مختلفة.
ستبقى قائدي، ولكن بعد أن تحرق ما تبقّى من ضعفك.
ارفع يدك."

مدّ فان يده المرتجفة،
سكب القائد الرماد على ذراعه،
والألم اشتعل في جلده كأن النار عادت إليه من جديد.
لكن فان لم يصرخ.
بل قال وهو يغرز أنظاره في عيني أوغسطين:

"إن عاد الراهب الصامت إلى المشرق... سأعيد له الموت نفسه."

ابتسم أوغسطين ببطء، ثم نهض وقال:

"إذن فلننتظر... لأنّ الصمت حين ينكسر، لا يُسمع له سوى صوت النهاية."

خرج الأنبا من الخيمة،
والقائد خلفه يحمل الخرائط الجديدة للمشرق.
كانت الأوامر واضحة:
إعادة تنظيم الجيوش،
نشر الرعب بين القرى التي تحالفت مع البحيرات،
ومحو كلّ أثرٍ يشير إلى اسم ثيودور أو يوهان.

وبينما كانت عربته تبتعد في ضباب الفجر،
كان فان يقسم في نفسه:

أنّه لن يشفى حتى يرى الطائر ذي العيون الحمراء جثةً معلّقة على أسوار المشرق.

لكن خلف السحب البعيدة،
كان الطائر نفسه يحلّق،
يحمل بين جناحيه رمادًا أسود من نفس معسكر فان،
يتركه يتناثر في الهواء...
وكأنّه يكتب على الريح نبوءة جديدة:

"الدم القادم من المشرق، لن يغسله المطر هذه المرّة.

الفصل العاشر

قرار سِيدنا الكبير

كان صباحًا غريبًا في أرض البحيرات؛
الضباب متكاثف حتى كاد يحجب السماء،
وصوت الطيور القادمة من المشرق يُشبه الهمس البعيد لأرواحٍ تحمل إنذارًا.

وقف سِيدنا الكبير أمام مجلس البحيرات،
وجهه شاحب من طول السهر، وعيناه يكسوهما بريقٌ من تصميمٍ لا عودة بعده.
من حوله، القضاه الثلاثه ، والرجل العجوز إلياس – عالم التخطيط والخرائط،
الذي أُعيد من عزلته بعد أن ظنّ الجميع أنّ زمنه انتهى،
لكنّ حكمته وخبرته في الممرات القديمة كانت الآن السلاح الأخير.

رفع سِيدنا رأسه وقال بصوتٍ غليظٍ لا يحتمل التردد:

نحن ذاهبون إلى الكنيسة الأم،"
لنُواجه ممثل البابا والأشراف،
لنعرض ما جرى ونُطالب بوقف هذا الطاغية قبل أن يحكم قبضته على الجميع.
هذه ليست حربًا على راهبٍ أو كنيسةٍ بعينها...
إنها حرب على الإيمان ذاته."

تحرّكت القافلة ببطء من أرض البحيرات.
الفرسان المرافقون كانوا من خيرة الرجال،
والممرات التي شقها إلياس في الماضي فُتحت من جديد أمامهم،
لتقودهم نحو قلب الكنيسة الأم — حيث يُكتب مصير الممالك

وصول الجواسيس

وفي ذات الوقت،
كانت السماء في البحيرات تمطر بغزارة، والرياح تعصف بالأكواخ.
من بين الغيوم، ظهر الطائر الداكن،
يهبط على سطح الدير الخشبي كرمزٍ للمصير المنتظر.

ركض رومان إلى الداخل،
يحمل الأنبوب النحاسي الصغير إلى ثيودور،
الذي كان يجلس بجوار الكفيف أمام نارٍ خامدة.

فتح ثيودور الرسالة،
تقلّصت ملامحه، وتبدلت نظراته إلى عمقٍ غامض.
قرأها بصوتٍ خافتٍ متقطعٍ كأن الكلمات تحترق في الهواء:

"الأنبا أوغسطين وصل المشرق.
فان حيّ لكنه جريح.
القرى الأربع تحت راياته،
والخرائط الجديدة تُرسم على أنقاضكم.
هناك حديثٌ في المعسكر عن محو البحيرات من الوجود."

صمت الجميع.
حتى الطائر ذو العيون الحمراء الذي كان على النافذة،
خفض جناحيه، كأنه فهم ما كُتب في تلك الأوراق.

بعد أيام،
وصل الجواسيس الثلاثة بأنفسهم، وجوههم منهكة،
أجسادهم تحمل آثار السهر والجوع والتخفي.
جلسوا أمام أنطونيوس وثيودور،
ورسموا على الأرض بخطوطٍ من الفحم شكل التحركات الجديدة لجيوش فان،
وكيف أنّ أوغسطين أعاد رسم الحدود ليجعل المشرق مركز قوته.

قال أحدهم بصوتٍ مرتعش:

"لقد شاهدناه بعينيّ...
أوغسطين يبتسم وهو يقول لقائده:
(قريبًا... ستنطفئ البحيرات إلى الأبد)."

رفع أنطونيوس رأسه ببطء،
وقال وهو ينظر إلى ثيودور:

"إذًا... بدأت النهاية.

🔥 صرخة سِيدنا الكبرى

السماء كانت ملبدةً بسحبٍ سوداء كأنها جراح الأرض وقد ارتدت لونها الأخير.
في الممر الحجري الطويل المؤدي إلى قاعة الكنيسة الأم،
دوى صوت خطواتٍ ثابتةٍ تُعلن قدوم رجلٍ يحمل في صدره كل ما تبقى من نور الحق.

دخل سِيدنا الكبير القاعة،
خلفه القضاء الثلاثي وإلياس العجوز،
وجوههم غارقة في التعب والعزم معًا.
كانوا قادمين من أرض البحيرات بعد أن فاض الكيل،
بعد أن سمعوا بأخبارٍ تشق القلوب:

"لقد خان فان العهد،
وهاجم القوافل،
وأحرق شرق البحيرات...

أنقذنا القرى التابعة بمعركةٍ دامية،
وخسرنا أرواحًا من الأبرياء هناك."

تقدّم سِيدنا نحو المنضدة الرخامية التي جلس خلفها ممثل البابا وعدد من الأشراف،
عيناه كأنهما جمرتان في عاصفةٍ لا تهدأ،
وصوته خرج كصوت ناقوسٍ من حديدٍ ينذر بالنهاية:

"لقد تمادَى أوغسطين...
استولى على نصف المملكة، أحرق العهود القديمة،
قتل الأبرياء، خوَّف الرهبان،
وحوَّل المشرق إلى ساحةٍ من الظلال والدماء.
كل من يقف في وجهه يُنعت بالراهب الصامت،
وكل من يصمت عليه شريكٌ في جريمته.
لا عودة بعد اليوم... فقد بدأت الملحمة الكبرى."

ارتجت القاعة.
حاول بعض الأشراف تهدئته، لكن سِيدنا تابع بصوتٍ أشدّ قوة:

"ذو اللحية البيضاء ــــ ذاك الرجل الذي كان يومًا من كباركم ــــ
مات وفي صدره الحقّ الذي خنقتموه.
ابنه يوهان بين الحياة والموت،
يقاتل الآن لإنقاذ ما تبقّى من الحقيقة.
أما أنا،
فقد جئتكم لا بطلبٍ، بل بقرارٍ.
إن لم تتحرك الكنيسة الآن،
فلن يبقى إيمانٌ تُحافظون عليه."

صمت رهيب عمّ المكان.
ممثل البابا انحنى برأسه قليلًا،
ثم قال بصوتٍ متردد:
"سنرفع ما قلت للمجمع الأعلى..."

لكن سِيدنا قاطعه:

"لا ترفعوه... احملوه في قلوبكم.
لأن النهايات لا تُكتب في أوراقٍ مختومة،
بل في دماء الذين صدقوا إيمانهم.
سأنتظر قراركم، ولن أعود إلا ومعي ردٌّ نهائي من الكنيسة الأم.
إن تأخّرتم، فالتاريخ سيحكم بيننا جميعًا."

ثم غادر القاعة إلى قاعةٍ جانبية في المبنى الحجري،
جلس هناك بصمت،
يحدق في النافذة التي تصفعها الرياح،
منتظرًا القرار الذي سيُغيّر كل شيء

سِيدنا والانتظار

وفي الكنيسة الأم،

مرّت الأيام ثقيلة كالرصاص.
سِيدنا الكبير لم يغادر مكانه،
رفض العودة رغم توسلات بعض الأشراف.
كان يقول بهدوءٍ ثابت:

"لن أعود إلى البحيرات إلا بقرارٍ نهائي.
إن صمتوا، سأعتبر صمتهم رفضًا،
وإن كتبوا، فليكن كلامهم عهدًا جديدًا بيننا وبين السماء."

جلس في القاعة الحجرية،
إلى جواره إلياس العجوز والقضاء الثلاثي،
وأمامه شمعةٌ وحيدةٌ تتراقص تحت الريح.
كان يعلم أن الرد سيأتي...
لكن أي ردٍّ سيكون؟
عهد سلامٍ جديد؟
أم ختمٌ نهائي على نهاية الإيمان

- [ ] الفصل الحادي عشر – صدمة القرار

كانت قاعة الكنيسة الأم تلك الليلة أشبه بمقبرةٍ مضاءة بشموعٍ خاوية.
جلس الأشراف صفوفًا متراصة، وجوههم مائلة نحو الأرض،
بينما وقف سِيدنا الكبير في منتصف القاعة،
تتساقط من ردائه قطرات المطر والبرد، وكأنها دموع السماء ترفض أن تجف.

تقدّم السيد فرانس، ممثل البابا، رجلٌ شاحب الملامح،
صوته يرتجف وهو يقرأ القرار بخجلٍ ظاهر،
يحاول أن يخفي ارتباكه بين الورق،
لكن كل كلمةٍ خرجت منه كانت كطعنةٍ باردة في صدر من يسمع:

"بسبب مرض قداسة البابا،
وحالة البلاد الطارئة،
وتربص الأعداء بالكنيسة الكبرى،
نأمر جميع الأطراف بالهدوء،
وتلزم الكنيسة الحياد التام،
على أن تُحلّ الخلافات بينكم بالحكمة لا بالسيف."

ساد صمتٌ ثقيلٌ كجدارٍ من الرعب.
نظر سِيدنا إلى فرانس نظرةً واحدة جعلته يكاد يسقط الورق من يده.
ثم قال بصوتٍ هادئٍ لكنه أشبه بصرخةٍ من تحت الأرض:

"حياد؟
والدم في الشوارع؟
والقرى التي احترقت شرق البحيرات؟
والعهود التي داسها أوغسطين بنعله؟
أهذا ما تُسميه الكنيسة حيادًا؟
أن تصمت على القتل وتدعو للسكوت؟"

لم يرد أحد.

الشموع ترتجف،
والهواء يختنق في صدر المكان،
ثم أكمل سِيدنا بصوتٍ متهدج:

"لقد بدأت الملحمة...
وأنتم شركاء فيها بصمتكم.
سيُكتب التاريخ أن الكنيسة شاهدت النار ولم تُطفئها،
وأنها اختارت الحياد بينما الحق يُذبح."

غادر المكان بخطواتٍ ثقيلة،
عيناه لا تنظران للخلف،
وخلفه تبقى إلياس العجوز وأحد القضاة الثلاثة،
بأمرٍ منه —
عينان للبحيرات داخل جدران الكنيسة،
ليعلما كل حركةٍ وكل خيانةٍ قد تُحاك في الظلال.

رحل سِيدنا الكبير محمّلًا بالخذلان،
عاد والليل يجلله بالحزن والمرارة.
كان وجهه شاحبًا كأنما انطفأ منه آخر نور.
قال لأنطونيوس عند دخوله أرض البحيرات:

"القرار أُعلن... الحياد للجميع.
لكننا نعلم أن الصمت خيانة،
والملحمة اقتربت، لا مفر منها."

⊡

رسائل الريح – عودة الجواسيس الثانية

في اليوم نفسه الذي عاد فيه سِيدنا،
وصلت إلى البحيرات قافلةٌ منهكة من الجبال.
رجالها جواسيس البحيرات الذين أُرسلوا منذ أسابيع.
وجوههم مغبرة، أنفاسهم ثقيلة،
يحملون أنباءً لا تقلّ ظلمةً عن السماء التي تسبح فيها الغيوم.

قال أولهم:

"فان... ما زال حيًا.
مريض، جراحه غائرة،
لكنه يستفيق ببطء، ويتابع كل صغيرةٍ وكبيرة.
يرسل أوامره من سريره كأنه لم يسقط قط.
حوله رجالٌ مخلصون،
وبعضهم لا يُعرف من أين أتوا،
وجميعهم ينتظرون أمرًا واحدًا من أوغسطين."

وتابع آخر:

"الأنبا أوغسطين أرسل إلى المشرق أمرًا خفيًا بتحريك القوات من جديد،
حركة لا يعلم بها أحد من الأشراف أو الكنيسة.
الهدف هذه المرة غامض،
لكن يُقال إن الريح ستحمل نيرانه إلى حيث لم تطأ جيوشه من قبل."

تبادل ثيودور والكفيف النظرات،
قال الكفيف بصوتٍ مبحوح:

"أوغسطين لا ينسحب... إنه يختبئ ليضرب."

⊡

ريح أخرى من الشمال

وبينما كانوا يقرأون الرسائل،
وصلت أنباء جديدة من الشمال،
رسالة قصيرة مختومة بختم قبائل الضي،
تحمل خبرًا آخر كالصاعقة:

"مهربان قادم إلى أرض البحيرات،
ومعه قافلة الملك...
يريدون العبور من الشرق."

نظر أنطونيوس إلى ثيودور بقلق،
قال بثباتٍ خافت:

"إنها ليست قافلة تجارةٍ هذه المرة...
بل نذرٌ من نوعٍ آخر."

⊡

الجرح العميق

في تلك الليلة،
استفاق يوهان من غيبوبته الطويلة.
العرق يغمر وجهه، وجسده مثقل بالجراح.
حاول أن ينهض،
لكن الألم غرز أنيابه في كتفه وجانبه الأيسر.
اقترب منه الكفيف وقال بهدوء:

"لا تتحرك يا بني، جراحك لم تُشف بعد."

أجابه يوهان بصوتٍ مبحوحٍ متقطع:

"لا وقت... فان حيّ... وأوغسطين يتحرك...
لن أنتظر أن يطرقوا أبواب البحيرات."

ابتسم الكفيف بحزنٍ وقال:

"ليس كل من يتحرك يربح الحرب...
أحيانًا من يصبر هو من يكتب النهاية."

لكن يوهان لم يُجب.
عيناه كانتا تشتعلان بتلك النظرة التي تُشبه اللعنة،
نظرة من يحمل في صدره نارًا لا يُطفئها إلا الدم.

وخارج الغرفة،
كانت الريح تعصف كأنها تنذر بأن فصلًا جديدًا من الظلام
قد بدأ يفتح أبوابه

- [ ] الفصل الثاني عشر – نذر العاصفة

الليلُ في أرض البحيرات لم يَعُد كما كان.
كأن كل نسمةٍ تحمل همسًا غريبًا...
كأن الريح تئنُّ تحت ثقلٍ لا يُرى.

في الأفقِ البعيد، كانت النيرانُ تُرى كخيوطٍ تمتدُّ من الشرق إلى الشمال،
كأنها أيدٍ شيطانية تُمزّقُ السماء ببطء.
الناسُ لا ينامون... والعيونُ تترقّب كل صوتٍ من بعيد.
الكلُّ يعلم أن شيئًا يقترب... شيئًا لا يشبه أي حربٍ من قبل.

⊡

في أعماق الدير القديم، جلس ثيودور أمام المخطوطة،
وجهه شاحبٌ كوجهِ ميتٍ عاد للحياة.
الأحرف تتحرك أمامه ببطءٍ،
كأنها تتنفس.
تتبدل الأشكال والرموز،
حتى ظهر شكلُ الطائر ذو العيون الحمراء،
يرفرف داخل الصفحة كأنه يريد الخروج.

همس الكفيف من خلفه:

"إنه ينذر لا يصف... لقد تحركت الرموز قبل أن تتحرك الجيوش."

رفع ثيودور رأسه،
صوت الطائر الحقيقي دوّى في الخارج،
صوت لا يُشبه أي طائرٍ في الأرض،
صوتٌ كالرعد المكسور، كأن الهواء نفسه يختنق به.

⊡

كانت الرسائل تتقاطر على طاولة أنطونيوس،
كلماتٌ سريعة، مختصرة، مضطربة:

"فان يستعد."
"أوغسطين أرسل فرقًا من الشمال."
"القبيلة وصلت حدود السهول."
"الوقت يضيق...."

ضرب أنطونيوس الطاولة بقبضته،
عيناه تبحثان عن أي بصيصٍ من خطة،
لكن الأرض ضاقت بما رحبت.
الجنود في تعب، القرى منهكة، المطر لا ينقطع،
وكل طريقٍ مفتوح صار فخًا.

⊡

في تلك الليلة، كان القمر محجوبًا بالسحب،
والبرق يشق السماء على فتراتٍ متقطعة،
كأنها ومضات سيوفٍ تُجرَّب قبل الحرب.

وقف ثيودور على شرفة الدير،
الطائر يحوم فوقه،
والمخطوطة ترتجف في يده.
تبدلت الرموز من جديد —
خطوط متشابكة، دوائر تلتف حول نفسها،
حتى ظهر شكلٌ واضح:
عينٌ حمراء وسط دائرةٍ من رماد.

همس الكفيف بصوتٍ خافتٍ خلفه:

"الزمن ينهار يا ثيودور... المخطوطة تقترب من نهايتها، كما لو أنها تتنبأ بنهاية كل شيء."

أغلق ثيودور الصفحة ببطء،
وقال وهو يحدّق في العتمة:

"اللغز لم يعد في الطائر... بل في من يراه."

⊡

في الخارج، كانت القبيلة القادمة من أرض الأفيال قد اقتربت من تخوم البحيرات.
صوت طبولهم يُسمع في الليل،
ضرباتٌ ثقيلة، متتابعة، كأنها دقات قلبٍ لشيءٍ عملاق ينهض من سباته.
الناس في البحيرات يتهيأون.
الأسوار تُقوّى، القوارب تُسحب للشاطئ،
والأطفال يختبئون تحت الأرض.

يوهان لا يزال على الفراش،
لكن عينيه لا تنامان.
كل صوتٍ في الخارج يشبه له وقع حوافر فان.

كل صرخة ريحٍ يسمعها وكأنها أنين أبيه.
الدماء التي نزفها لم تجف،
لكنها تغلي في صدره كبركانٍ ينتظر الأمر بالانفجار.

⊡

في فجر اليوم الثالث،
دوّى صراخُ الحراس من الأبراج العالية:

"النيرانُ تقترب من جهةِ السهول!"

ركض أنطونيوس بثيابه المبللة،
صوت الطبول من بعيد يتلاقى مع صفير الرياح،
وثيودور يخرج من الدير حاملاً المخطوطة والطائر فوق كتفه،
وجهه شاحب، وصوته كصوتٍ لا ينتمي للأحياء:

"كل الرموز اضائت...
واللغز لم يَعُد لغزًا...
إنها ساعة الموازنة، حيث يُختبر كل مصير."

⊡

في الأفق،
كانت ألسنة اللهب تصعد إلى السماء،
تختلط بالمطر،
تتحول إلى دخانٍ أسود كأن الأرض تلفظ أنفاسها الأخيرة.
القبيلة تقترب...
وفان يستعد...
وأوغسطين يراقب من بعيد...
والمخطوطة ترتجف كأنها على وشك أن تنزف.

وبين كل ذلك،
الطائر ذو العيون الحمراء يصرخ،
صرخةً تشقّ السكون،
صرخة كأنها إعلانٌ بأن الملحمة... بدأت

الفصل الثالث عشر – اقتراب القافلة والنار

كان الليلُ كأنه فمُ جحيمٍ مفتوح.
السماء تمطر نارًا لا ماء، والرياح تصفر من الشرق إلى الغرب،
تحمل رماد المعارك البعيدة نحو أرض البحيرات.

أبراج الحراسة اشتعلت بالنور،
والحراس يصرخون فوق الأسوار:

"ألسنة لهبٍ في الأفق... كأن الأرض تشتعل من تلقاء نفسها!"

ركض أنطونيوس بعباءته المبتلة،
يأمر بإغلاق الممرات القديمة،
ويصرخ بالجنود:

"لا نارَ دون خائنٍ يشعلها من الداخل!"

وفي تلك اللحظة،
دوّى صياحُ الطائر ذو العيون الحمراء،
صوتٌ يشبه انشقاق السماء.
هبط فوق برج المراقبة،
يصرخُ صرخةً جعلت الدم يتجمد في عروق الحراس.

دار الطائر في الهواء كمن يبحث عن شيء،
ثم انقضَّ فجأة على أحد الرجال فوق البرج،
فصرخ الرجل وسقط متدحرجًا من فوق الحافة،
وعندما أسرعوا إليه،
وجدوا في جيبه قطعة من ختمٍ عليه شعار فان.

همس ثيودور بصوتٍ خافت، وهو يراقب المشهد من بعيد:

"لقد بدأوا من الداخل... النيران لا تأتي إلا بخيانة."

⊡

في تلك الليلة ذاتها،
كانت قافلة قبائل الضي تقترب من حدود البحيرات.
هدير الطبول، وصهيل الخيول،
ودقات الطبول الحجرية التي تُستخدم في نداءات الحرب —
كلها كانت تُسمع في البُعد،
كأنها دقات قلبٍ واحدٍ عملاقٍ يقترب بخطواتٍ محسوبة.

في مقدمة القافلة كان مهربان،
طويل القامة، عضلاته تُرى من تحت العباءة السمراء،
وجهه أسمر كقطعة من الليل،
وعيناه لا تخشيان شيئًا.
كان يعرف الطريق جيدًا،
وكان يعرف أيضًا أن شيئًا ينتظره في البحيرات.

اقتربت القافلة في صمتٍ مهيب،
فخرج رجال أنطونيوس لاستقبالهم على أطراف السهل،
السماء تمطر بشدة، والرعد يتدحرج فوق الجبال.

همس أحد الحراس وهو يقترب من القائد:

"إنه مهربان... يريد مقابلة يوهان."

⊡

في داخل القاعة الكبرى،
كان يوهان جالسًا على مقعدٍ خشبي،
جراحه لم تلتئم بعد،
والطائر يقف فوق شباكٍ مفتوحٍ يقطر منه المطر.
حين دخل مهربان،
لم يتكلم أحدهما أول الأمر،
تبادل كلاهما نظراتٍ طويلة،
كأن حربًا قديمة قامت بين العيون قبل الكلمات.

قال مهربان بصوتٍ غليظٍ عميقٍ يشبه صدى البركان:

"الطريق إلى البحيرات لم يكن آمنًا كما وعدتني، يا يوهان.
النار في الشرق، والخيانة في الجنوب...
ومن بين قوافلي من لم يصل."

أجابه يوهان، صوته هادئٌ رغم الألم الذي يعتصره:

"كنا ننتظرك يا مهربان... ليس تاجرًا، بل شاهدًا على ما يُحاك ضدنا."

اقترب منه مهربان خطوة،
ارتفعت شعلة من المشعل القريب كأنها تسمع الحديث.
قال بصوتٍ منخفض:

"أريد أن أعرف، يا ابن الرجل الصالح ...
من الذي يُشعل النار؟ من الذي خان؟
وإن كنتَ بريئًا، فاحذر، لأن الريح تحمل اسمك مع كل لهبٍ يُشعلونه."

▫

خارج القاعة،
كانت الأمطار تزداد،
والطائر ذو العيون الحمراء يطير فوق الممرات،
يحوم فوق رؤوس الجنود،
ثم يختفي وسط الضباب،
ليعود من بعيد، يحمل في مخالبه شيئًا أسود محترقًا —
قطعة من وشاحٍ تحمل ختم أوغسطين.

رفعها أنطونيوس أمام الجميع، وقال بصوتٍ كالرعد:

"النار اقتربت... والمخطوطة أنذرت... والملحمة بدأت."

▫

في تلك اللحظة،
كان فان على فراشه في المشرق،
وجهه شاحب، لكن عينيه مفتوحتان على اتساعهما.

أخبره أحد رجاله بما يحدث في البحيرات،
فابتسم ابتسامةً باهتة وقال:

"لم تحرق النار ما فيه الكفاية بعد...
أرسلوا الريح القادمة."

وفى الخارج،
هبّت رياحٌ سوداء من جهة الشرق،
تحمل دخانًا كثيفًا،
وصوت الطائر في السماء يصرخ كأنه يبكي،
كأن العالم كله على وشك أن يشتعل من جديد

🔥 لهيب البحيرات

لم يكن الفجر قد اكتمل بعد،
لكن السماء بدت كأنها فُتحت على الجحيم.
الريح تعوي، والماء في البحيرات يرتجف،
وصوت الطائر ذو العيون الحمراء يشقّ الظلام صرخةً تزلزل القلوب.

استيقظت أرض البحيرات على الرعب.
الأبراج تهتز، النيران تتراقص على الأفق،
ورائحة الحديد المحموم والرماد تملأ الصدر.

هجوم فان لم يكن من الشرق، ولا من الشمال،
بل جاء من العمق... من داخل المستنقعات التي ظن الجميع أنها مانعة.
جنود فان خرجوا من بين الضباب كالظلال،
أشباح مدرّبة تعرف كيف تمشي فوق الطين دون أثر،
يذبحون الحراس صامتين،
يُسقطون الحواجز واحدًا تلو الآخر،
حتى صار الدخان يتصاعد من قلب المعسكر.

صرخ أحد الكشافين:

"لقد اخترقونا! من الداخل... من حيث لا يُرى!"

وفي لحظةٍ واحدة،
اشتعلت السماء بالسهام النارية،
تساقطت على البحيرات كالمطر الملعون،
تحرق البيوت الخشبية، والمراكب الصغيرة،
وتصنع في الماء دوائر من لهبٍ لا تنطفئ.

▫

أنطونيوس كان في الميدان،
يضرب بسيفه، يصرخ بالأوامر،
لكن الأعداد لا تُحصى.
كلما سقط عشرة من رجال فان، خرج عشرون من بين الدخان.

وفي الجانب الآخر، كان مهربان يقاتل كوحشٍ خرج من الأساطير،
يصدّ الهجوم برجاله من قبائل الضي،
أجسادهم السمراء تتلألأ تحت المطر والنار،
يتقدمون نحو اللهب لا يهربون منه.

صرخ مهربان بصوته الغليظ، كأنه زئير في العاصفة:

"من يهرب يُحرق، ومن يقاتل يحيا،
البحيرات بيتنا الآن... لا نارَ تعبرها!"

اندفع برجاله نحو الجهة الشرقية،
حيث تسلل فان بجيشه الخفي.
كانت معركة أشبه بالجنون —
الطين، والنار، والدم، امتزجت حتى لم يعد أحد يميز الأرض من السماء.

سقط المئات من الجانبين،
وانقسمت خطوط القتال إلى فوضى،
لكن عند آخر لحظة،
صرخ الطائر ذو العيون الحمراء من علوّ،
وانفجرت صاعقة هائلة في السماء،
أمطرت المطر على النيران، فأطفأها.

كانت تلك اللحظة الفاصلة...
الماء أنقذ البحيرات، كما لو أن السماء استجابت لصرخة الطائر.

□

في الساعات التالية،
اجتمع سيدنا وثيودور وأنطونيوس في القاعة المشتعلة بالدخان،
وجراحهم لم تُضمّد بعد.

قال سيدنا بصوتٍ متهدّج، عيناه تحملان بريقًا من يقينٍ لا يُكسر:

"اقتربت الملحمة يا ثيودور... لن أبرح مكاني حتى نعود،
وإن لم نعد، فالموت طريقنا إلى الخلود."

اقترب منه ثيودور، وجهه يقطر ماءً ودمًا،
وعيناه تلمعان تحت ضوء المشاعل.
حاول أن يتكلم، فلم يخرج من فمه سوى همسٍ يرتجف:

"يا سيدنا... إن غِبتَ أنت، فمن للبحيرات؟"

وضع سيدنا يده على كتف ثيودور،
ونظر إليه نظرة الأب لابنه، وقال بثباتٍ رهيب:

"إن سقطتُ، تتسلم أنت القيادة للمجلس.

البحيرات الآن صارت أرضًا للشمس،
لا يجوز أن تغيب عنها النور بعد اليوم."

ارتجف قلب ثيودور،
وشعر بثقلٍ لا يُحتمل على كتفيه،
لكنه انحنى برأسه وقال:

"ليكن... كما كُتب في لنا وماكتب فى المخطوطه ،الأرض لنا
حتى لو احترقنا معها."

⊡

في الخارج،
كان فان يُسحب من أرض القتال غائب الوعي،
جراحه غائرة، وصدره يعلو ويهبط بصعوبة.
رجاله يجرّونه نحو المشرق،
بينما الطائر يحلّق فوقهم،
يراقبهم من علوٍ كأنه يكتب آخر فصولهم بالنار.🔥

وفوق بحيراتٍ هادئةٍ كأنها تبكي،
وقف أنطونيوس ومهربان والجنود الباقون،
ينظرون إلى الأفق المحترق،
كأنهم يعلمون أن ما حدث الليلة
لم يكن سوى بداية النهاية

- [ ] الفصل الرابع عشر – ما بعد النار

: أصداء الهجوم الفجّ

كان الصباح مختلفًا عن أي صباحٍ مضى في أرض البحيرات.
الضباب لم يكن ضبابًا عاديًّا، بل دخانًا متبقيًا من ليلٍ احترق فيه كل شيء.
الهواء يختنق برائحة الرماد والحديد،
والطيور التي اعتادت الغناء فوق الأسوار
صمتت كأنها حدادٌ على من سقطوا.

امتزجت الأرض بالماء والدم،
وأشجار البحيرات المائلة إلى الشرق بدت كجثثٍ عالقة بين الحياة والموت.
كانت آثار الهجوم الفجّ كارثية ——
المعابد الصغيرة تهدمت، والمساكن التي شيّدوها منذ شهور صارت رمادًا،
والبحيرات نفسها كأنها تلونت بالدم.

في الساحة الكبرى، وقف مهربان شامخًا،
وجهه الصارم لا يخفي الحزن المتجذر في ملامحه.
تجول بين الأنقاض ببطءٍ،
يتفحص الجثث، يمد يده على وجوه المقاتلين الراحلين،
ثم يتمتم بصوتٍ خافتٍ بلغته القديمة:

"لم يكونوا عبيدًا للنار... بل حماة الماء."

كان بجواره يوهان، نصف حيٍّ ونصف ميت.
جراحه لم تُشفى بعد،
كل خطوةٍ منه كأنها نصلٌ يغرس في جسده،
لكنّ عينيه بقيتا مشتعِلتين بشيءٍ أكبر من الألم — الغضب.
كان يصرّ على الوقوف رغم أن طبيب البحيرات توسّل إليه بالراحة،
فيجيب بحدةٍ مكتومة:

"من يسقط الآن... يسقط للأبد. لن نمنح أوغسطين لحظة نصرٍ واحدة."

⊡

أما سِيدنا العجوز،
فقد خاض المعركة بنفسه،
يده لا تزال ترتعش من أثر السيف،
وجرحٌ عميقٌ في كتفه الأيمن لا يتوقف عن النزف.
كانوا يحاولون إجلاسه، لكنه يرفض بإصرارٍ مهيب.
يقول بصوتٍ مبحوحٍ كأن كل كلمة تخرج من قلب النار:

"ما دام فيّ نفسٌ... فلن تُهان البحيرات وأنا على قيد الحياة."

كان الجميع يهاب صلابته،
لكن أنطونيوس وحده كان يقرأ في وجهه شيئًا آخر —
إرهاق السنوات، واقتراب النهاية.

⊡

وفي قلب الفوضى،
وقف أنطونيوس، القائد الفعلي للبحيرات،
صدره العاري يغطيه الرماد ودماء رفاقه،
سيفه مغروس في الأرض،
وصوته الجهوري يتردد في الأنحاء وهو يصرخ بالجنود:

"من بقي حيًّا فهو درعنا.
لن ندفن موتانا حتى نؤمّن أرضهم!"

كان يقاتل حتى اللحظة الأخيرة من الليل،
وحين أشرقت الشمس،
وقف على قدميه يترنح من الإنهاك،
لكنه لم يسقط، لأن الجميع استمدوا قوتهم من صموده.

⊡

أما ثيودور،
فقد بدا في المعركة كمن خرج من ذاته.
لم يكن مقاتلًا، ولم تُخلق يداه للسيف،

لكن حين رأى الدماء تسيل من سيدنا وأنطونيوس،
وحين سمع صرخات النساء والعجائز عند البحيرة،
كسر حاجز الخوف الأبدي في قلبه.

حمل رمحًا مكسورًا،
قاتل به من اقترب، لا بحقدٍ ولا غضب،
بل بنظرةٍ باردةٍ، هادئةٍ، كمن يواجه قدرًا لا مهرب منه.
لكنّ الدماء التي لطخت ثوبه جعلته يرتجف،
وتكشف في وجهه مزيجًا من الشجاعة والرعب،
تلك الثنائية التي جعلته إنسانًا أكثر من أي وقتٍ مضى.

وبينما هو يلتقط أنفاسه،
رأى رومان الشاب يندفع وسط الجرحى،
يحمل الماء، يضمّد الجراح،
يمسك بيد الكفيف الذي يقوده بين المصابين،
والكفيف يصيح بصوتٍ قويّ:

"هناك! لا تدعوه يموت، إنه يتنفس بعد!"

كانت تلك اللحظات هي روح البحيرات.
رجالٌ ونساء، مبصرون وعميان،
كلٌّ منهم يقاتل بطريقته.

⊡

اقترب مهربان من ثيودور بعد أن هدأ القتال قليلًا،
وقال بصوتٍ خشنٍ كالحجر:

"رأيت ما فعل رجالكم الليلة...
حتى من لا يحمل سيفًا قاتل كأنه جيش.
لن أترككم بعد اليوم، يا راهب الصمت،
سأعود إلى مملكتي،
وأطلب من الملك رجالي... كتيبتي القديمة،
التي كنت قائدها يومًا."

رفع ثيودور عينيه نحوه وقال بهدوءٍ ثقيل:

"لكن ملك مملكة الأفيال لا يحارب خارج أرضه."

ابتسم مهربان ابتسامةً مرّةً، وقال:

"الملك لا يحارب...
لكن الرجال الأحرار لا ينتظرون إذنه."

ثم مد يده الملطخة بالطين إلى ثيودور،
فأمسكها هذا الأخير بثبات،
وشعر أن تلك اللحظة لم تكن وعدًا بالتحالف فقط،

بل بداية فصلٍ جديدٍ من الملحمة...
فصلٍ عنوانه:

"من الماء يولد الحديد، ومن الصمت تقوم العواصف.

شهادة العيون والقلوب

كان الشتاء يوشك على أن يهدأ،
لكن الثلوج لم تستطع أن تغطي كل الدماء بعد.
من بعيدٍ كانت قافلة صغيرة تشق طريقها عبر الممرات القديمة المؤدية إلى أرض البحيرات،
يتقدّمها العجوز إلياس — الذي لم يتبقّ من قوته إلا إصراره،
وبجانبه أحد القضاة الثلاثة،
وجسديهما يحملان آثار الطريق والهمّ والسهر الطويل.

لم تكن الرحلة عادية، بل كانت بأمرٍ خاصٍ من الكنيسة الأم،
بعد أن حصل إلياس والقاضي، بصعوبةٍ بالغةٍ،
على إذنٍ من البابا نفسه فور بدء تعافيه من مرضه.
تقدما إلى لقائه في صباحٍ رماديٍّ،
حين كانت أجراس الكنيسة تدقّ ببطءٍ كما لو أنها تُنذر بيومٍ مصيري.

جلس البابا في قاعةٍ صغيرةٍ مضاءةٍ بشموعٍ قليلة،
وجهه شاحبٌ من المرض،
لكن صوته عاد يحمل نبرته المهيبة القديمة.
قال لهم بصوتٍ متقطعٍ لكن حازم:

"اذهبوا، وانظروا بأعينكم.
الأرض ليست ملكًا لأحدٍ بعد الله.
من أهان الضعفاء فقد نزع عنه ثوب الكهنوت،
ومن كذب على الناس فحكمه عند الربّ وحده."

ثم التفت إلى ممثله فرانس الذي وقف خلفه صامتًا،
وأمره بمرافقتهم بنفسه إلى أرض البحيرات،
ليشهد، وليكتب، وليعود بالتقرير النهائي إليه شخصيًّا.

⊡

بعد أيامٍ طويلةٍ من السفر عبر الممرات الموحلة،
وصل الوفد إلى أرض البحيرات.
كان المشهد الذي رأوه أول ما نزلوا كفيلاً بأن يُخرس حتى أكثرهم جرأةً.
البيوت المحترقة، المياه الموحلة بالرماد،
والصمت الذي يسكن العيون أكثر مما يسكن الأفواه.

في مركز القرية، وجدوا سِيدنا جالسًا على مقعدٍ خشبيٍّ متهالك،
ملفوفًا بضماداتٍ من الكتان،
وجهه شاحب لكنه لا يزال يملك ذلك الهدوء المهيب الذي لا يُكسر.
وحين اقترب فرانس، قال له بصوتٍ عميقٍ كأنه صادرٌ من الأرض نفسها:

"هنا كانت الصلاة، وهنا كانت النار...
فهل ترى في وجهي من بدأها؟"

صمت فرانس، ولم يُجب،
لكنّ نظرته كانت مضطربةً، كمن يرى ما لا يريد تصديقه.

ثم التفت إلياس ليشير إلى يوهان الراقد على الفراش،
ذراعه مربوطة، وجانبه الأيسر مغطى بضماداتٍ غارقةٍ بالدم.
اقترب فرانس ببطءٍ، وقال القاضي هامسًا:

"ذاك ابن الرجل ذي اللحية البيضاء... الذي كنتم تذكرونه في صلواتكم."

تجمّد وجه فرانس لحظةً،
كأنه رأى شبح الماضي، ثم قال بصوتٍ خافتٍ خجلٍ:

"كان أبوه من خيرة الأشراف..."
فردّ عليه سيدنا بصرامةٍ ممزوجةٍ بالألم:
"ومات لأن الشرف لا يُشترى بختم الأساقفة."

⊡

في المساء، جلس الجميع حول نارٍ صغيرةٍ يشعلها رومان،
وجاء مهربان — قبل مغادرته بيومٍ إلى مملكة الأفيال —
ليشهد أمام فرانس بنفسه،
فقال بصوته العميق الجهوري:

"رأيت الهجوم بعيني،
كانوا يقتلون كل ما يتحرك...
أطفالًا، نساءً، حتى الكلاب.
لو لم نصل نحن، لاحترقت البحيرات كلها."

دوّن فرانس تلك الكلمات في سجله،
لكن حين أغلقه، أُطفئت النار فجأةً،
ورأى في وجوههم ما لم يجرؤ على كتابته.

⊡

عاد فرانس وإلياس والقاضي إلى أرض المشرق في قافلةٍ يملؤها الصمت.
وهناك، استقبلهم أوغسطين بابتسامةٍ باردةٍ،
يقف إلى جواره فان على مقعدٍ خشبيٍّ،
وجهه شاحب من المرض، وجسده محاطٌ بضمادات،
لكن عينيه السوداوين لا تزالان تحملان التهديد القديم ذاته.

قادهم أوغسطين إلى إحدى القاعات الواسعة،
وعرض أمامهم جثثًا لرجالٍ قال إنهم "من المهاجمين"،
ثم أشار إلى فان وقال:

"هؤلاء... هم من أنقذوا المشرق.
نحن ضحايا، ولسنا جناة."

كانت جثثًا نظيفةً أكثر مما ينبغي،
كأنها عُدّت بعنايةٍ لتروي قصةً جديدة.
فرانس لم يُعلّق، لكنه فهم.
وحين سأله أوغسطين:

"هل رأيت ما يكفي لتخبر البابا بالحقيقة؟"
أجاب فرانس بنبرةٍ باردةٍ:
"سأنقل ما يجب نقله... لا أكثر."

⊡

وبعد خروجه من مجلس أوغسطين،
جلس فرانس في عربته،
وجهه شاحبٌ كمن أدرك أنه لم يعد يملك السيطرة على ما يُكتب في التاريخ.
كتب بخطٍّ مرتجفٍ في دفتره الأخير:

"ينبغي أن يسود الهدوء حتى يشفى البابا تمامًا،
ثم يُحسم الأمر بعد ذلك..."

لكن أوغسطين لم ينتظر.
في تلك الليلة نفسها،
وقف أمام القائد وفان وقال بصوتٍ متجمّدٍ من الحقد:

"نهاية الشتاء... هي نهاية القصة.
بعدها لن يكون في الأرض لا بحيرات... ولا راهب صامت."

ثم أدار ظهره،
وغادر القاعة، تاركًا الريح الباردة تدخل من النوافذ،
كأنها نذيرٌ بأن الملحمة اقتربت...
وأن النار، وإن خمدت قليلًا،
فما زالت تحت الرماد تتنفس

: أملٌ أسودٌ في قلب الرماد

عندما رحل ممثل البابا وأعاد عربته خُطاه إلى المشرق، ترك وراءه أرضًا مُنهكةً، لكنها لم تَسقط.
كأن زيارة فرانس، رغم خِشونتها، كانت شرارةَ تذكيرٍ بأن العالم لا يزال يراقب — وأن الوقت لم ينقض بعد.

في الأيام التي تلت، انحسر الدخان قليلاً. تباطأت الأصوات الحادة، وبدأ الناس — من جبينِ الألم نفسه — يبحثون عن نبضة حياةٍ جديدة.
كانت لحظاتُ "التقاط الأنفاس" هذه مشحونةً بثقل العمل؛ لا احتفال هنا، بل فعلٌ صامت من الباقين:

- إعادة الأوراق:

افتُتحت صناديقُ المكتب القديم، وخرّ الألواحُ والوثائقُ من تحت غبار الليل.
سِجلاتٌ للسنين الماضية، قوائمٌ بالأسماء، خرائطٌ مرمّمة على عجل — كلُّ ورقةٍ كانت تُعيد لصاحِبها واجبًا أو وعدًا.

أنطونيوس وثيودور وقضاةُ المجلس جلسوا ليلًا إلى ضوء المصابيح، يقرءون ويعدّون، يعيدون تشكيل الروتَب، يعيدون فرض نظامٍ بسيطٍ في فوضى لا تُحصى.

- علاج المصابين:

تحولتِ القاعات الصغيرة إلى مستشفياتٍ مؤقتة؛ رومان يركض بين الأسرة، يضمّدُ جراحًا بسُرعةٍ وحنو، والكفيف يوجّهُ الأعينَ اليقظة.

أصوات الآلام تختلط بأنين الريح، لكن اليد التي تُسدّد الضمادة هي ذاتها التي تُعطي الرجاءَ: دواءٌ، ماءٌ، بسمةٌ مُتهرئة.

الجراحُ تُعالجُ بموادٍ بدائية، والنفسُ تُعالجُ بحكايا عن والدٍ لم يمت، عن بيتٍ سيُعاد، عن ولدٍ سيكبر ليحمي ما تبقّى.

- تدريب الجنود:

على الجانب الآخر من الدخان، تحولتُ الحقولُ إلى ساحات تدريب.

أنطونيوس،، صار يعلّم الرجال كيف يُقاتلون بلا جنون؛ كيف يُحافِظون على خطوطٍ، كيف يتصدون لتسَلّل؛ دروسٌ في البقاء تُلقن بين أثوابٍ مبتلة ويدينٍ متقرّحة.

لم يكن التدريبُ عن تهوّرٍ، بل عن صرامةٍ وعن خُططٍ بسيطةٍ تساوي الفرق بين الدمار والنجاة.

- فتح ممرات إلياس السرية:

إلياس، بيديه المرتعشتين وخريطةٍ قديمةٍ ملفوفةٍ حول صدره، كشف عن خفايا الممرات التي حفرها أهلٌ قبلهم.

تونلات ضيقة، ممرّات مُموّهة بين القنوات والبردى — طرقٌ لا تُرى على خرائط الحكّام، لكنها معروفة لمن عرف كيف ينجو.

بفضل هذه الممرات بدأوا يُعدّون خطةً لتهريبِ الأطفال والنساء والشيوخ إلى ملاذٍ مؤقّت؛ قواربٌ قديمة، أكواخ مهجورة، وحظائر تخفي خلف جدرانها قلوبًا مرتعشة.

- خطط عسكرية وتكتيكية ومناورات:

في غرفةٍ مغلقةٍ، وعلى طاولةٍ مرسومةٍ بالتراب، وضع القادةُ خرائطَ صغيرةً لخطوطٍ وهمية: كمينٌ هنا، سمّارة هناك، انسحابٌ مُمنهجٌ نحو السواحل إن اضطُرّوا.

لم يكن الهدف الانتصار الكامل الآن، بل إجبارُ العدو على أن يدفع ثمنًا باهظًا مقابل كل خطوة.

كانت المناورات تمتحن الولاء، وتُظهر منْ يبقى في محنه، ومن يترك الأرض لسطوةٍ لا تعرف الرحمة.

- رسائل للقبائل وطلب المعونة:

بعثوا رسائلَ قصيرةٍ ومكثفة إلى القبائل المجاورة: نداءٌ لمدّ يدٍ بالعون — موادٌ، رجالٌ، زرّاعٌ يعودون لحرث الأرض.

كُتبت الرسائل بلغةِ الواقعِ والاحتياج، لا بلغةِ الوعيد: "ساعدوا الباقين، وأعيدوا معنا الديار."

فجاءت بعض الردود متردّدة، وبعضها بدفءٍ غريب؛ فهناك قبائلٌ ما تزال تربطها ذمّةٌ قديمة، وهناك من عاد بالجنود وبالقناديل والغذاء.

- انتظار مهربان:

وخلف كل ذلك، ظلّ اسمُ مهربان يعلو كبصيصٍ من الرجاء.

كان موعده مع البحر قريبًا؛ قدومه — بجنوده الذين عرفوا حياة الطُرق — يعني توفيرَ درعٍ بشريٍّ جديد، وعقدةً في شبكة الأمل التي بدأوا نبشُها من تحت الرماد.

الناسُ جمعوا قواهم، جهّزوا المنافذ، وعلّقوا على أبوابِ البيوت ثِيابًا تُدلّ على أنّ المكان مأهولٌ — إشارةٌ إلى أن هنالك من يحميه ويُقاتل من أجله.

·

في تلك الساعات التي بين الليل والفجر، كانت المشاعرُ عاشت حالةً مزدوجة: ألمٌ أسودٌ لا يَغيب، وأملٌ رقيقٌ لا يموت.

الأملُ لم يكن ضوءًا ساطعًا، بل همسةٍ في العتمة: إعادة بناء، إنقاذ، استعادة.

ثيودور، وهو يحمل المخطوطة تحت رداءٍ مبتل، نظر إلى الطائر حين ارتد على كتفه، فتراءت له جملةٌ واحدة:

«حتى في قلب الرماد، تنبت بذورُ الأيام القادمة.»

وهكذا، بينما أعادوا الأوراق وترقّوا الصفوف وعادت الأنامل لتضمّد الجراح، كانت البحيرات تلوذ بصبرٍ مهيبٍ — تستعدّ لمرحلةٍ جديدةٍ قد تحمل النصر أو الموت، لكنها لم تَرتدع.

كان الأمل هناك، محدودًا وصامتًا، لكنّه — وإن أسودّ بالصبر — ظلّ أملًا

الفصل الثالث عشر

والاخير من الجزء الخامس

عودة النبض إلى البحيرات —

كانت الأسابيع الثلاثة التي تلت زيارة ممثل الكنيسة كأنها ثلاثة فصولٍ من القيامة،
كل يومٍ فيها يحمل وجهاً من النار ووجهاً من النور.
وعد أوغسطين باقتراب النهاية، لكن البحيرات أبت أن تموت... بل بدأت تحيا من رمادها.

⊡

في الأسبوع الأول،
كان صوت المطرقة يعلو فوق أنين الجرحى.
الرجال أعادوا ترميم الجدران، والنساء نظّفن ما تبقى من الحقول،
حتى الأطفال حملوا الأحجار الصغيرة ليبنوا بيوتهم بأيديهم.
أنطونيوس وقف وسط الساحة، صوته يجلجل:

"كل حجرٍ يُرفع اليوم هو عهدٌ بالثبات."

القوة العسكرية عادت، صغيرة العدد، عظيمة العزم.
جنود فقدوا إخوتهم وأصدقاءهم، لكنهم استيقظوا كأن الألم سيف جديد في صدورهم.
تدرّبوا ليلاً في صمت، كأنهم أشباحٌ تتهيأ لمعركة القدر.

⊡

وفي الأسبوع الثاني،
جاءت المفاجأة التي لم يتوقعها أحد...
على مشارف البحيرات ظهرت قوافلٌ قادمة من قريةٍ كانت يوماً من رعاية ذو اللحية البيضاء.
رجالها كانوا تلاميذه، والنساء يذكرن صوته في الصلوات القديمة.
قالوا إنهم أتوا لأنهم لم ينسوا من علّمهم معنى الرحمة والحق.

"لقد كان يرعانا صغيراً وكبيراً، علّمنا، عالجنا،
ومن علمنا الحياة، لا نتركه للموت وحده."

كان يوهان واقفاً بجراحه بجوار سِيدنا الكبير الجريح ايضا حين سمع كلماتهم،
ووجهه الصامت تشقق بابتسامةٍ خفيفةٍ كأنها دمعة لم تسقط.
في عينيه بريق امتنانٍ غريب؛ لأن ما فعله والده لم يذهب هباءً.
عاد الأمل إلى صدره، ومع الأمل... بدأت جراحه القديمة تلتئم ببطء.

⊡

وفي منتصف الأسبوع، حدث ما يشبه المعجزة.
زوجة ماركوس — تلك التي هربت مع ابنها الصغير بعد مقتله —
عادت، وقد صارت امرأةً قوية الملامح، يرافقها ابنها الفتى وبعض من تلاميذ ماركوس القدامى.
كانوا جميعاً يحملون أدواتٍ وأقمشة وأخشاباً،
وقال الفتى بثباتٍ أمام ثيودور:

"أبي مات من أجل الحقيقة... وأنا جئت لأعيشها."

ارتجف ثيودور من الكلمات،
لأنها ذكّرته بمن ربّاه صغيراً، بالراهب الذي حمله إلى الدير وأخفاه عن العيون،
ذلك ماركوس البطل الصامت، الذي مات ليحيا الصدق.
حين رآهم، شعر أن ماركوس لم يمت، بل عادت روحه مع هذه الوجوه الشابة التي تعلمت على يده.

تحرك الناس، بعضهم للقتال، وبعضهم للبناء، وبعضهم لحفر الأنفاق السرية استعداداً لأي هجوم.
كانت البحيرات تتحول من جراحٍ مفتوحة إلى جسدٍ جديد ينبض بالقوة.
صارت الأرض نفسها تتنفس، وكلّ نسمة هواء تحمل رائحة الشجاعة.

•

وفي الأسبوع الثالث،
خرج سِيدنا ويوهان من عزلتهما الطويلة.
كانا قد مكثا أياماً في خيمتهما للعلاج،
لكن عندما رأى الناس حركتهما، كأن البحر نفسه تحرك من السكون.
يوهان كان يسير متكئاً على رمحه، وسِيدنا يتكئ على عصاه،
لكنهما كانا يقفان في مقدمة الجمع،
وجوههما منهكة، لكن العيون فيهما لا تعرف الانكسار.

وقف سِيدنا على مرتفعٍ صغير وقال بصوتٍ يشقّ الضباب:

"لقد ذُقنا النار، لكننا لم نحترق.
ذقنا الحزن، لكننا لم نمت.
من بكى اليوم سيضحك غداً،
لأننا ما زلنا هنا... والبحيرات ما زالت تتنفس."

•

في تلك الليلة،
بين الخيام التي تلتمع بوهج المشاعل،
نظر ثيودور إلى الطائر ذي العيون الحمراء،
يحوم حوله في دوائر بطيئة كأنه يرسم على السماء عهداً جديداً.
رفع يده نحوه وقال همساً:

"أبي... ماركوس... ذو اللحية البيضاء...
إننا لم نعد وحدنا، فذكراكم تحارب معنا."

الريح كانت باردة، والظلام كثيف،
لكن وسطه كان يشتعل نور صغير من المشاعل،
نور لم يعد يخاف العاصفة...
لأن أرض البحيرات وُلدت من النار، ولن تُطفأ بعد اليوم

تحت الجراح، وعودة فان من ظلال الموت

كانت القاعات الحجرية في الدير الكبير غارقةً في صمتٍ خانق،
لا يُسمع فيها سوى أنينٍ متقطعٍ من الغرفة التي وُضع فيها فان، القائد الحديدي الذي لم يُكسر قط.

وجهه محروق، نصفه طُمس بالنار، والجانب الآخر مشدود كقناعٍ من الجلد اليابس.
ذراعه اليسرى مربوطة بضماداتٍ سميكة، وصدره يتنفس ببطءٍ من جهةٍ واحدة لان الاخرى طعنه يوهان التى لاتهدء— كأنه يعيش بنصف جسدٍ فقط.

الريح التي كانت تضرب شبابيك الدير تُصدر صفيراً كأنها نواحُ جنديٍّ ميت،
والقائد الثاني — ذلك الصارم الصامت الذي يتبع أوغسطين كظله —
وقف عند الباب يراقب فان القادم بخطوات ثابته رغم الجراح ورغم نصف القناع فينظر اليه ويقول

"لقد سقطت من قبل... وسقط غيري كثيرون...
أما أنا، فلن أسقط مرتين."
وقال:

"أين هو؟... أين أوغسطين؟"

لم تمضِ لحظات حتى دخل الأنبا أوغسطين نفسه.
كان يرتدي ثوبه الأسود الطويل، وجهه هادئ لكن عينيه تشعان كجمرٍ تحت رمادٍ كثيف.
جلس بجوار فان دون أن يلمسه، كأنه يخشى أن تحرقه حرارة الحقد في جسده.
نظر إليه طويلاً، ثم قال ببرودٍ فيه احتقارٌ خفي:

"لقد كنتَ سيفي... فانكسر السيف، ولم ينكسر العدو."

فان عضّ على شفته الجافة، ونظره شرٍ من عينه المصابة.
قال بصوتٍ متقطعٍ لكنه واضح:

"سأعيد لهم الحريق، وسأجعل البحيرات رماداً.
حتى وإن سرت على ركبةٍ واحدة، سأعود."

أوغسطين لم يبتسم، لكنه أدار وجهه نحو القائد وقال جملته التي دوّت في أرجاء الدير كحكمٍ ملكى مظلم:

"لقد منحنا فرانس، ممثل الكنيسة، الفرصة الأخيرة.
البابا في مرضه بارك صمتنا،
والكنيسة الآن تُباركنا... بحرق البحيرات واخذها نصف المملكة صار لنا رسمياً،
والنصف الآخر... سنأخذه بالنار."

ثم وضع يده فوق صدر فان وقال ببطءٍ كمن يزرع لعنة:

"استعد، أيها السيف المحروق...
لقد اقتربت الملحمة الأخيرة،
ولن يبقى فيها رحمةٌ لأحد."

في تلك اللحظة،
خارج الجدار السميك،
سمع الحراس صوتَ الطائر ذي العيون الحمراء يصرخ من بعيد،
صرخةً قصيرةً كإنذارٍ من الغيب...
لكن أحداً لم يجرؤ على تفسيرها.

أما فان، فابتسم لأول مرة منذ احتراقه،
وقال بصوتٍ خافتٍ لا يسمعه إلا أوغسطين:

"لقد سمعتُ نعيب الطائر من قبل...
هذه المرة، سيكون صمته هو الموت

عودة مهربان

كانت السماء رمادية كأنها تستعد لبكاءٍ آخر،
والبحيرات ساكنة تُصغي لأنفاس الريح.
في الأفق البعيد، ظهرت رايات غريبة اللون،
أعلام داكنة تعلوها صورة فيلٍ أبيضٍ ضخم.

صرخ أحد المراقبين من برج الحراسة:
"رجلٌ قادم... إنها رايات الأفيال!"

اندفع أنطونيوس والجنود إلى الساحة،
وما هي إلا لحظات حتى دوّت حوافر الخيل على الأرض المبتلة،
ودخل مهربان — قائد القوافل العظيم —
تسبقه نظرات رجاله السمر الأقوياء،
أجسادهم كأنها نُحتت من الحديد، وأعينهم تلمع ببريق المعركة.

ترجّل مهربان عن فرسه، ووقف أمام أنطونيوس وثيودور وسِيدنا،
وصوته كالرعد في قلب المطر:

"وعدتكم... وها أنا أوفي بوعدي.
لن أترك أرضًا قاتلت من أجل النور تسقط في الظلام."

كانت كتيبته خلفه — مئات من المقاتلين الذين خبروا النار والحديد،
جاؤوا محمّلين بالمؤن والسلاح والطعام.
من بينهم صيّادو الفيلة، ورماة السهام،
رجالٌ لا يعرفون الخوف ولا التعب.

نظر إليه ثيودور بعينين دامعتين،
وقال بصوتٍ خافتٍ يحمل الامتنان:

"قدرك ليس التجارة يا مهربان، بل الخلود في صفحات الصدق."

ردّ مهربان بابتسامةٍ عريضةٍ وقال:

"وأنا اخترت أن أكون في صفّ من لا يبيع النور بثمنٍ بخس."

كان وصوله كأنه نَفَسُ الحياة في صدرٍ يحتضر،
بشّر بعودة الأمل وسط الخراب،
وبأن الملحمة لم تنتهِ... بل بدأت الآن حقًّا.

▫

نُذُر النهاية

في تلك الليلة، حين هدأ المطر وسكن ضجيج السيوف،
جلس ثيودور وحده في قلب القاعة الحجرية.
المخطوطة أمامه، والطائر ذو العيون الحمراء يقف على حافة النافذة،
ينظر نحوه كما لو ينتظر أمرًا من القدر.

فتح ثيودور المخطوطة بيدٍ مرتجفة،
الرموز بدأت تتحرك بين الصفحات،
تتوهج بالضوء، كأنها تنبض بالحياة.
أصواتٌ خافتة خرجت منها — أصوات الماضي،
ماركوس... إيليا... ذو اللحية البيضاء...حتى إسحاق ورهبانه الضعفاء
وكلّ من ضحّى من أجل النور.

وفجأة، ارتسمت رموز ثلاث:
الفيل، والنار، والبوق.
قرأها ثيودور بصوتٍ متهدجٍ وقد اتسعت عيناه:

"النار... من المشرق،
والبوق... من البحيرات،
والفيل... من الجنوب.
إذا اجتمعوا، تحرّكت الشمس من جديد،
لكن قبل النور... دماء كثيرة ستُراق."

هنا ارتفع الطائر من مكانه،
دار في السماء ثلاث دوراتٍ صامتة،
ثم صرخ صرخةً طويلةً اخترقت الليل،
كأنها نذير الملحمة الأخيرة.

خرج ثيودور من القاعة والبرد يلسع وجهه،
وقف أمام البحيرة المظلمة وقال بصوتٍ خافتٍ سمعه كل من في المعسكر:

"اقتربت النهاية...
فإن لم ننتصر، فليعلموا أننا قاتلنا حتى آخر نفسٍ من أجل النور."

ارتفعت المشاعل،
وتحركت الظلال في الجبال البعيدة،
كأنها أجنحة القدر تتهيأ للانقضاض...
لقد بدأت النذر تُعلن عن نفسها،
والبحيرات تستعد لاستقبال فجرٍ لن يكون بعده فجرٌ آخر
✨ انتهى الفصل الخامس
—-
الجزء السادس : الملحمه 🔥

الفصل الأول – سقوط قمم الحماة

كان فجر اليوم الأول يشبه نزيفًا بطيئًا على أطراف السماء.
الشمس لم تشرق تمامًا، بل كانت تُطلُّ من خلف الغيوم كعينٍ حمراء مرهقة،

تراقب الأرض التي تستعد للانفجار.
أرض البحيرات صامتة...
صمتٌ يشبه ما قبل البكاء،
حين يُحبس الألم في الصدر قبل أن يصرخ.

على التلال الشرقية، اصطفّت كتائب الحماة —
أقوى فرق أنطونيوس، وأقدمهم عهدًا بالدفاع.
كانت قمم التلال تُشبه السيوف المنتصبة،
ومن فوقها رفرفت رايات البحيرات بلونها الأزرق والرمادي،
تتراقص في الرياح كما لو كانت تستعد لوداعٍ أخير.

قال أنطونيوس بصوته الغليظ الثابت،
والعرق يلمع على جبينه رغم البرد:

"تلك القمم هي القلب، إن سقطت... سقطت البحيرات.
لا تسمحوا للظلال أن تصعد الجبل."

وراءه وقف سِيدنا الكبير،
يلف جسده بعباءةٍ ثقيلةٍ من الصوف،
وعينيه تشعّان بصفاءٍ عجيب وسط الدخان المتصاعد.
أما ثيودور فجلس عند قاعدة الجبل،
مخطوطته مفتوحة على حجرٍ أملس،
وطائره ذو العيون الحمراء يحوم حوله في دوائر،
ينثر الريش كأنما يرسم به رموزًا في الهواء.

⊡

من جهة الجنوب، بدأ هديرٌ كالبحر.
غبارٌ يتصاعد، كأن الأرض تلفظ بطنها من الثقل.
جيش فان قادم،
جحافل سوداء تملأ السهل،
يقدّمهم فرسانٌ بأعلامٍ داكنةٍ لا يُرى فيها إلا رمز الصليب المائل،
رمز النار والدم. ورمز الصخر الاسود

فان كان في المقدمة،
وجهه نصفه مغطّى بوشاحٍ أسود يخفي الحروق،
وعيناه تشتعلان كجمرتين في الليل.
حين رأى قمم البحيرات، ضحك ضحكة قصيرة مبحوحة وقال:

"ها هي البحيرات، الهدية التي وعدني بها اوغسطين.
سأُطفئها بالنار... وسأسقي الأرض من دمائهم."

⊡

مع أول هجومٍ، اهتزت الأرض تحت الأقدام.
انطلقت المجانيق تصبّ نارها على قمم التلال،
ألسنة لهبٍ تنفجر بين الصخور،

وصوت الحديد على الحديد يصنع موسيقى الجحيم.
صمد رجال أنطونيوس يومهم الأول،
كأنهم جدار من صخرٍ ونار،
لا يتراجعون، لا يصرخون.

في المساء، أمطرت السماء مطرًا كثيفًا،
اختلط بالماء والدم،
وابتلّت الأرض حتى صارت طينًا يبتلع الأقدام.
لكن فان لم يتوقف،
بل أمر بإشعال المشاعل وإكمال الزحف ليلًا.
في الليل اشتعلت القمم كالجمر،
وسُمعت صرخات المقاتلين مع الرعد،
كأن السماء نفسها تصرخ معهم.

⊡

اليوم الثاني كان يوم الغضب.
البرق ضرب إحدى القمم،
فتحولت إلى لهبٍ ناري،
وسقطت صخورها على معسكر فان،
فدُمّرت كتيبة كاملة من جنوده.
ظنّ رجال البحيرات أن السماء ناصرتهم،
لكن فان زأر كوحشٍ جريحٍ وقال:

"إن كانت السماء ضدّي، فسأحرقها أيضًا."

هجم برجاله في جنونٍ لم يُعرف مثله،
موجة بشرية من الحديد والنار،
حتى سقطت القمّة الأولى – قمّة الحماة،
بعد قتالٍ دامٍ امتد يومين بلياليهما.

عندما وصلت أنباء السقوط إلى أنطونيوس،
أغلق قبضته على سيفه وقال بهدوءٍ مخيف:

"سقوط القمة ليس النهاية،
بل هو إعلان بدء الملحمة."

ثم التفت إلى جنوده وصاح:

"اسحبوا المصابين،
أغلقوا الممرات الجبلية،
سنجعلهم يدفعون ثمن كل صخرةٍ سقطت منا بدمائهم."

⊡

في اليوم الثالث،
تغيّر وجه المعركة تمامًا.

هبت عاصفة رعدية هائلة،
ظنها الجميع نذير نهاية العالم.
السماء انشقت بالبرق،
والمطر نزل كالسياط،
حتى صارت النيران تتراقص وسط المطر في مشهدٍ لا يصدقه عقل.

في قلب هذا الجحيم،
ظهر الطائر ذو العيون الحمراء من جديد.
حلق فوق رؤوس الرجال،
وصاح صرخةً هزّت المعسكرين معًا.
نظر ثيودور إليه وقال للكفيف بصوتٍ مرتجفٍ ولكنه ثابت:

"الطائر لا يصيح إلا إذا اقترب الظل...
والظل الآن على مقربةٍ منّا."

⊡

طوال أسبوعٍ كاملٍ لم تهدأ الحرب.
النهار نار، والليل مطر،
والجبال تنزف، والبحيرات تغلي بالبخار.
سقط المئات من الطرفين،
وتحوّلت القمم إلى رمادٍ ودخان.
لكن رغم ذلك،
بقيت الراية الزرقاء مرفوعة على أعلى تلٍّ في الغرب.

أنطونيوس وقف تحتها،
وجهه مغطى بالدم والتراب،
وصاح بصوته الجهوري:

"من أراد النجاة فليصمد،
ومن أراد الخلود فليقف بجانبي!"

ارتفعت صيحات الرجال كالرعد،
ودوّى صوت الطائر في السماء ثانيةً،
كأنها إشارة من القدر:
أن الملحمة الحقيقية لم تبدأ بعد

الفصل الثاني – يوم الرماد: انقلاب الموازين

لم تكن البحيرات في ذلك الصباح سوى مرآةٍ للدم.
الماء تحوّل إلى لون النحاس،
والسماء إلى رمادٍ كثيفٍ يغطي كل الأفق.
الريح تصرخ في وجوه الجنود،
كأنها نذيرٌ غاضب من السماء.

كانت كتائب فان قد وصلت إلى التخوم الأخيرة،
قمم الحماة صارت رمادًا، والممرات انكسرت،

وأنفاس رجال البحيرات اختلطت بالغبار.
انطونيوس وُجد عند خط الدفاع الثالث،
سيفه مثقّب من كثرة الضربات،
ودماؤه تخالط المطر الذي لا يتوقف.

صرخ أحد رجاله:

"لقد اخترقوا الممر الشرقي يا قائد!
الرايات السوداء تقترب من السهل الغربي!"

رفع أنطونيوس رأسه نحو السماء،
البرق يشق الغيوم كخنجرٍ مضيء،
ثم قال بصوتٍ أقرب إلى الصلاة:

"إنها لحظة النَفَس الأخير...
ولكن حتى آخر نَفَسٍ، سنقاتل."

اندفع بجنوده إلى الأمام كأنهم موجةٌ بشريةٌ هائلة،
صدّوا زحف فان للحظاتٍ قليلة،
تلك اللحظات التي صارت كأنها قرون.
تطايرت السيوف، تصادمت الدروع،
وصار الصهيل والصرخات لحنًا من الجنون.

فان من على حصانه صرخ:

"اسحقوهم!
لم يبقَ بيننا وبين النصر سوى خطوة واحدة!"

ارتفع الغبار، واشتعلت السماء بالمشاعل،
كان النصر يُغري فان... يلمع أمامه مثل سرابٍ قريب.
لكن ما لم يدركه أن القدر، في تلك اللحظة بالذات،
كان يجهّز قلب المعركة ليقلبها رأسًا على عقب.

⊡

في الجهة الغربية، عند تخوم السهل الرملي،
سُمع صوت كالرعد يقترب من بعيد...
صوت خطواتٍ ثقيلةٍ متتابعة،
كأن الجبال تتحرك على الأرض.

رجال فان توقفوا، التفتوا إلى الأفق.
الغبار تصاعد من هناك،
وبين الغبار بانت رؤوس ضخمة،
ثم ارتفعت صيحاتٌ من الفزع:

"الأفيال! أفيال الحرب قادمة!"

كانت كتيبة مهربان –
رجال مملكة الأفيال،
أجسادهم مسوّدةٌ كالفحم من رماد المعارك،
عيونهم كالجمر تشتعل في الظلال.
في المقدمة، يقودهم مهربان على حصانٍ عظيم أسودٍ ببُقع بيضاء ناصعه ،
رمحه أطول من رجلٍ، وصوته كهدير المطر.

دخلت الكتيبة الميدان كعاصفةٍ من الحديد.
صوت قرون الأفيال دوّى في السماء،
فاهتزّ قلب فان للمرة الأولى خوفًا.
قال وهو يشدّ لجام حصانه:

"من هؤلاء؟!
لا أحد أخبرني أن للأرض صوتًا كهذا!"

أجابه أحد جنوده بصوتٍ مرتجف:

"إنهم رجال الفيل... من مملكة الضي،
جاءوا من وراء المطر، يا قائد."

ابتسم مهربان في الجهة المقابلة،
أطلق صيحته المعهودة:

"من أراد النجاة فليتراجع،
ومن أراد المجد فليتقدّم!"

ثم اندفعت الأفيال الحربية
كأنها موجٌ جارف،
تهدم صفوف فان واحدةً تلو الأخرى،
تسحق الحديد واللحم معًا،
وتقذف الجنود في الهواء كما لو كانوا دُمى من قشّ.

⊡

أنطونيوس رأى المشهد من بعيد،
فرفع سيفه عاليًا وصاح:

"النجدة وصلت! إلى الهجوم!"

تحوّلت ساحة الموت إلى صراعٍ كونيّ،
البرق يضرب، المطر يهطل،
وصوت كتيبه الأفيال يمتزج بصرخات الرجال.
حتى الطائر ذو العيون الحمراء
حلق فوقهم في دوائرٍ ضارية،
ينذر ويصرخ كأنه يبارك الملحمة.

التقت كتيبة البحيرات بكتيبة الضّي،

صفًّا واحدًا في وجه جيش فان.
تقهقر جنوده، صرخوا،
وسقطت راية القائد المساعد عن حصانه.

لكن فان نفسه لم يتراجع،
بل نزل من حصانه،
واندفع بسيفه الكبير نحو مهربان.
تلاقت العينان:
واحدة يشتعل فيها الغضب، والأخرى البأس.

كان اللقاء أشبه بالبرق،
ضرباتٌ متتالية، شررٌ يتطاير،
رمحٌ يصدّ سيفًا، وسيفٌ يجرح درعًا.
كلّ منهما وحشٌ في هيئته،
لكن الأرض نفسها لم تحتمل ثقل غضبهما.

صرخ فان:

"ها أنت يا ابن الرمال!
لن تنجو هذه المرة!"

ضحك مهربان وهو يدفعه إلى الخلف بقوة:

"أنا من أتى بك إلى الرماد،
وسأردّك إلى الرماد ذاته!"

⊡

في ذروة المعركة،
اهتزّ السهل تحت الأقدام،
انشقّت الأرض كما لو انفجر جوفها،
وسقط فان ومهربان معًا في انهيارٍ رمليٍّ مفاجئ.

الجنود هرعوا لإنقاذ قائديهم،
لكن العاصفة غطّت كل شيء بالغبار والماء.
لم يُعرف مصير أحدهما...
فقط بقيت صرخات الجنود،
ورائحة الموت التي غطّت كل الأفق.

في تلك اللحظة،
وقف أنطونيوس وسط السهل الموحل،
رفع سيفه الملطّخ بالدماء،
وصاح بأعلى صوته:

"تلك لم تكن معركة...
تلك كانت قيامة!"

ثم انحنى المطر كأنه انحنى احترامًا،
وغابت الشمس خلف الغيوم،
والبحيرات أطلقت بخارها إلى السماء،
كأنها تصعد بأرواح المقاتلين الذين سقطوا هناك.

الملحمة لم تنتهِ بعد —
لكن الرماد الأول كُتب،
وبدأت صفحة النهاية تُفتح ببطءٍ في كتابٍ من نار

الفصل الثالث – اليوم الثامن: الاستراحة المؤقتة

كانت البحيرات في اليوم الثامن ساكنة كجثةٍ ضخمةٍ بعد نزيفٍ طويل.
الريح خمدت،
السماء رمادية تترقّب،
والأرض تئنّ من ثقل الدم والمطر والرماد.

لم يعد أحد يعرف من انتصر،
فالنصر نفسه بدا تائهًا بين الطين والصرخات المبتورة.
الرماد غطّى كل شيء،
كأن الأرض أرادت أن تُخفي بشاعتها عن السماء.

⊡

من قلب السهل الغارق،
تحرّك شيء تحت الركام.
كانت صخرةٌ رمادية تهتز، ثم انفجرت فجأة عن جسدٍ بشريٍّ مغطى بالطين.
رفع رأسه ببطء،
عينيه متورمتان من الدخان،
دمٌ جافٌّ على ذقنه،
ورمادٌ يلتصق بجلده الأسمر.

إنه مهربان.

يتنفس بصعوبة،
يُزيح الرماد عن صدره،
ويزحف إلى الأعلى حتى تثبّتت قدماه.
وقف شامخًا، رغم الجراح التي تمزق جسده.
دمه يسيل على كتفه،
ورمحهِ مكسور من النصف،
لكنه ما زال قابضًا عليه كما يقبض على كبريائه.

نظر حوله...
كانت رجال الأفيال مبعثرة،
رجاله بين قتيلٍ وجريح،
وصوت الماء يهمس كأن الطبيعة تترحّم على من رحل.
أغمض عينيه، وقال بصوتٍ مبحوح:

"لم نُهزم بعد...
ما دام في صدري نفس، فللقتال بقية."

⊡

في الجهة المقابلة،
كان فان يغرق في الوحل العميق،
وجهه نصفه محروق،
جلده مسلوخ من الكتف حتى الصدر،
وسيفه مغروس إلى جانبه كأنه شاهد قبرٍ حي.

تحركت أصابعه أولًا، ثم رفع رأسه،
أنفاسه متقطعة،
صوتها كحشرجة وحشٍ جريح.
كل شيء من حوله رماديٌّ وباهت،
لكن في عينيه فقط... نارٌ لا تنطفئ.

وقف بصعوبة،
يتمايل كمن خرج من بطن الجحيم.
رفع يده المحروقة على وجهه،
أزاح الطين عن عينه الوحيدة التي ما زالت ترى،
ونظر نحو الأفق الشرقي حيث انسحب أنطونيوس ورجاله.

ابتسم،
تلك الابتسامة التي لا تحمل سوى الجنون والعزم.
ثم قال بصوتٍ أجشّ:

"لن أتراجع...
النصر أو الموت.
لا مجال للرحمة بعد الآن."

⊡

من بعيد،
كان الطائر ذو العيون الحمراء يحلّق في السماء الرمادية،
يدور فوق الرماد والدخان،
كأنه يبحث عن صاحبه،
أو يرسم بصرخاته حدود المعركة القادمة.

نظر مهربان إلى الأفق وقال:

"إن عادوا، سنعود.
وإن اشتعلت البحيرات، سنمشي فوقها."

أما فان،
فشدّ وشاحه فوق وجهه المحترق،
وتقدّم بخطواتٍ بطيئةٍ نحو معسكره،

خلفه رجالٌ لا يعرفون إن كانوا ينتصرون... أم يُساقون إلى الجحيم.

وهكذا،
بعد ثمانية أيامٍ من الجحيم المتواصل،
خمدت المعركة فقط لتلتقط أنفاسها.
لم تكن نهاية الحرب،
بل كانت استراحة الموتى قبل الجولة الأخيرة.

كانت الرياح في المساء تحمل معها رائحة الحديد والرماد...
وفي السماء،
الطائر ما زال يصرخ،
كأنه ينذر الجميع:

"ما حدث لم يكن النهاية... بل بداية النهاية.

- [ ] الفصل الرابع – السهم الأخير وغياب سِيدنا الكبير

كان النهار الثامن من ملحمة البحيرات يشرق بلونٍ رماديٍّ ثقيل،
والأرض ما زالت تمتلئ بأنين الحديد وصرير الجراح.
لكن شيئاً مختلفاً كان يسري في صدور الرجال ذلك اليوم،
فـ أنطونيوس ومهربان استطاعا أخيراً قلب الموازين بخطةٍ عجيبة
وُلدت من رموز المخطوطة القديمة التي فكّ شفراتها ثيودور،
ثم صاغها أنطونيوس بدهائه العسكري،
ونفّذها مهربان برجاله من أبناء مملكة الأفيال بدقةٍ مدهشة.

تحركت الجيوش كالأطياف وسط الضباب،
جنود البحيرات من الشرق،
وكتيبة مهربان من الغرب،
ضربةً واحدةً باغتوا بها رجال فان،
فحُشروا بين اللهب والطين.

ارتفعت صيحات النصر،
والعدو بدأ يتراجع،
السهول امتلأت بجثث الغوغائيين،
والتلال صارت تلمع بسيوف رجال أنطونيوس اللامعة تحت المطر.
حتى ظنّ الجميع أن النهاية اقتربت،
وأن النصر أخيراً صار للبحيرات.

⊡

لكن فان، الوحش المحترق، لم يكن ليسمح بالهزيمة.
كان وجهه نصفه رماد ونصفه لهب،
عينيه تقدحان شرراً من بين دخان المعركة.
جلس على ركبتيه وسط الطين،
نظر إلى الغرب حيث ترتفع رايات البحيرات،
ثم رفع يده المرتجفة وصاح:

"لم تنتهِ بعد...
إن لم أَحْيَ لأراهم يسقطون،
فليكن سهمي آخر ما يراهم."

أشار فان بإصبعه،
وأطلق أمره الأخير —
إرسال كتيبة السهام،
آخر ما تبقّى من نخبة جنوده،
فرقة خفية مكوّنة من رماة الليل الذين لا يخطئون هدفهم.

⊡

على قمة التل،
كان سِيدنا الكبير يراقب الميدان بعينيه المرهقتين،
والطائر ذو العيون الحمراء يحوم فوقه في دوائرٍ لا تهدأ،
كأنه يحذر من شيءٍ قادم.
اقترب منه ثيودور،
وقال بصوتٍ متقطع:

"سيدنا... لقد نفذت الرموز ونجح رجالك

لكني أشعر أن الريح تحمل نذيراً غريباً."
فابتسم الشيخ ابتسامةً واهنة وقال:
"النصر يا بني ليس أن تبقى حياً...
بل أن تموت واقفاً."

⊡

دوّى الصوت...
سهمٌ واحدٌ اخترق سكون المساء،
اخترق صدر الشيخ كما يخترق الخنجر صفحة ماء.
تراجع سِيدنا الكبير خطوتين،
الريح رفرفت بردائه الأبيض،
ثم هوى على ركبتيه والسماء تمطر فوقه.

صرخ أنطونيوس وهو يندفع من بين الجنود،
وتبعه مهربان،
أما ثيودور فقد سقط إلى جواره ممسكاً بيده،
والدم يختلط بماء المطر.

ارتفع صوت الطائر عالياً،
صرخةٌ مدوّية جعلت الرجال يجمدون في أماكنهم،
ثم دار فوق الجسد ثلاث مراتٍ
واتجه نحو الغرب، كأنه يودّع الأب الأخير.

⊡

أما كتيبة السهام التي نفذت أمر فان،
فقد سُحقت عن آخرها على يد رجال مهربان الغاضبين،
لكن السهم كان قد أصاب قلب البحيرات قبلهم.

وقف أنطونيوس يصرخ،
صوته يجلجل في السماء:

"سقط الأب...
سقط من كان نور هذه الأرض!"

جثا الرجال على الأرض،
السماء تمطر ناراً وبكاءً،
والبحيرات كلها بدت وكأنها تودع شمسها الأخيرة.

لقد كان النصر قاب قوسين،
لكن السهم الأخير قلب الطاولة،
وأعلن بداية الظلام قبل فجرٍ جديد لم يولد بعد

الفصل الخامس – رحيل الأب وصرخة الطائر

الليلة التي انكسرت فيها البحيرات

رغم الوجع، رغم الدخان والدماء،
وقف أنطونيوس وسط الميدان، وجهه مغطى بالرماد،
وعيناه لا تفارقان الجبل الذي سقط فوقه سِيدنا الكبير.
كان الألم يمزق صدره،
لكن القائد لا يملك رفاهية البكاء.
جمع رجاله بصوتٍ مبحوح:

"الدموع تُسكب لاحقاً... الآن نجمع الجراح."

⊡

بدأ أنطونيوس يُعيد الصفوف،
يُنادي أسماء المصابين والناجين،
يمر بين الأجساد كما لو كان يبحث عن روحه المفقودة.
إلى جواره كان مهربان،
يده اليسرى مغطاة بالضمادات، وصدره ينزف،
لكن صلابته لا تهتز،
صاح بصوتٍ جهوري وسط الضباب:

"لن نترك أرض البحيرات تموت مرتين،
من بقي فليقف،
ومن مات فليقف اسمه معنا في القتال القادم!"

⊡

وفي الجانب الآخر من الميدان،
كان يوهان يمسك سيفه بيدٍ مرتجفة،
ملابسه ملطخة بالدماء والدموع ويجر قدمه المصاب
وجهه شاحب كالقمر بعد العاصفة.
تقدّم نحو الجبل الذي سقط عنده سِيدنا،
غرس سيفه في الأرض وهمس:

"بدم أبي... بدم سيدنا... لن تنطفئ هذه الأرض ما حييت."

ثم رفع رأسه نحو السماء،
والطائر ذو العيون الحمراء يدور فوقهم
كأنه يرسم دوائر الوداع والنذير في آنٍ واحد.

⊡

أما ثيودور، فجلس قرب الجسد المغطى برداءٍ أبيض.
في يده المخطوطة،
صفحاتها تتقلب وحدها مع الريح،
تظهر فيها رموز غامضة لم يرها من قبل.
كانت سطورها تنزف نوراً خافتاً،
تكوّن كلمات مبعثرة:

"من سقط، لم يمت...
ومن صمت، صارت كلمته ناراً."

رفع ثيودور نظره إلى السماء،
والغيوم تتبدد ببطء،
كأن البئر القديمة في قلب الأرض تناديه من جديد.
همس:

"يا رب البحيرات... دلّني على طريق الخلاص."

⊡

وقف أنطونيوس خلفه،
ووضع يده على كتفه قائلاً:

"الوقت لا ينتظرنا يا ثيودور،
من أجل سيدنا، من أجل كل دم سُفك،
سنعيد ترتيب الأرض...
ونستعد لما هو آتٍ."

ارتفعت صيحات الجنود من بعيد،
والسماء تمطر مطراً دافئاً كأنه بكاء الأرض،
أما الطائر ذو العيون الحمراء
فصرخ مرةً واحدةً، طويلةً ومدوّية،
قبل أن يختفي بين الغيوم...

صرخةٌ فهمها الجميع:
الملحمة لم تنتهِ بعد

الفصل السادس – فجر بعد الرماد

حين ظنّ فان أن النهاية كُتبت... فعادت البحيرات من الموت

كانت الليلة التالية لرحيل سِيدنا الكبير أشبه بجوف مقبرةٍ مفتوحة.
الريح تصرخ بين بقايا الأسوار،
والأرض لا تزال ترتجف من صدى السهام والنيران.
في الجانب الشرقي،
كان فان يزحف بين الوحل، نصف وجهه محترق،
وصدره ما زال يحمل أثر جرح يوهان الذي لم يندمل.

وقف وسط جنوده،
صوته متقطع بين الألم والغضب:

"لم يمت أحدٌ فينا بعد...
سيدنا سقط؟ هذا يعني أن البحيرات بلا رأس!
اليوم ننهبها، ونرفع راية أُوغسطين فوق رمادها."

⊡

بدأت صفوف فان تتحرك من جديد.
السهام تلمع تحت المطر المتساقط،
والنيران تُشعل على التلال البعيدة.
استغلّ انهيار الصفوف بعد سقوط سيدنا،
ودفع بآخر ما تبقى من قوته نحو القرى المتاخمة للبحيرات،
يأمرهم:

"من يقاوم يُحرق...
من يهرب يُسحق...
ومن يستسلم، يُرسل لأوغسطين شاهدًا على سقوطهم."

كانت عيناه كجمرتين تتقدان في الظلمة،
وكلما رأى الرماد تذكّر جرحه القديم وصاح:

"هذا دَيني من الراهب الصامت ويوهان
سأرده نارًا تلتهم كل من نطق اسمه."

⊡

لكن البحيرات لم تمت.
في قلب العتمة، كان أنطونيوس يجمع من تبقّى من رجاله،
يمشي بخطواتٍ ثابتة رغم الدماء التي تنزف من ساقه،
وصوت ثيودور يأتيه من بعيد كصلاةٍ لا تنكسر:

"سِيدنا لم يمت، كلماته فينا...
قفوا، فكل قطرة دمٍ سقطت ستُثمر شجاعة."

ارتفع صوت الطائر ذو العيون الحمراء،
يحلق فوق خطوط فان،
ينعق بصوتٍ غريب كأنه نداءٌ من الأعماق.
فجأةً ارتبكت صفوف فان،
خيولٌ تفرّ، وحرّاسٌ يصرخون بأن النار اشتعلت خلفهم من جديد!

·

في تلك اللحظة،
أطلّ مهربان من بين الدخان،
وجهه مغطى بالغبار، ودرعه نصف محطّم،
لكنّ صوته كان صاعقة:

"من ظنّ أن البحيرات سقطت، فليتذوق طعم الغرق!"

أعاد رجاله تشكيل الصفوف،
وبخطةٍ سريعةٍ من أنطونيوس،
أُغلقت الممرات الخلفية على كتيبة فان،
وانهالت السهام من التلال.

رأى فان المشهد بعينيه المشتعلتين،
وعرف أن الانهيار لم يكن إلا فخًا للانبعاث.
صرخ بجنونه:

"قاتلوا! حتى الرمق الأخير!
إن سقطتُ، فلتُدفنوا معي في الوحل ذاته!"

·

تجمعت البحيرات كلها في صرخةٍ واحدة،
صرخةٍ حملها الطائر إلى السماء.
عاد الأمل، واشتعلت الأرض من جديد بالقتال والرجاء.
أنطونيوس يقود،
يوهان ينهض رغم جراحه،
وثيودور يمسك بالمخطوطة ويهتف وسط المطر:

"اللعنة لم تُكسر... لكنها بدأت ترتدّ!"

وهكذا،
في فجر اليوم التاسع،
أعلنت البحيرات أنها لا تموت مرتين.
ومن رماد سِيدنا...
وُلِدَت الملحمة

الفصل السادس – من رماد سيدنا إلى انتظار الحسم

من يظفر بالفجر... فان أم البحيرات؟

سكنت العاصفة فجأة، كما لو أن السماء التقطت أنفاسها الأخيرة بعد يومٍ من الهلاك.
تحت المطر البارد، كانت الأرض تغصّ بجثثٍ لا تُحصى،
وأصداء المعركة تهمس في كل زاويةٍ من البحيرات:
من الذي انتصر؟
ومن الذي ما زال على قيد القتال؟

•

في الطرف الغربي من السهل،
وقف أنطونيوس، وجهه مغطى بالتراب،
عيناه لا تفارقان الأفق المشتعل.
رجاله مرهقون،
لكنهم صامدون، يحرسون التلال كما يحرس الجندُ آخرَ بابٍ للحياة.
إلى جواره، مهربان، جرحه مفتوح على صدره،
لكن صوته ما زال كالرعد يقول:

"لم ننتهِ بعد... فان لم يمت."

رفع أنطونيوس رأسه نحو السماء،
يرى الطائر ذا العيون الحمراء يدور في دوائر مضطربة،
كأنه يبحث عن شيءٍ لا يُرى،
أو كأنه يُحذّر من مأساةٍ قادمة.

•

في الجهة الأخرى من الوادي،
تتحرك ظلالٌ ثقيلة وسط الدخان والدم،
كان فان يقف فوق كومةٍ من الجثث،
وشمسه المشتعلة على وجهه نصف المحروق تلمع كجمرٍ خافت.
بيده سيفٌ مكسور،
لكن قبضته عليه أقوى من الفولاذ.
همس بصوتٍ خشنٍ متقطع:

"لم يسقط أحد... أنا لم أسقط بعد...
لن يكتب أحد نهاية البحيرات سواي."

وراءه، القائد إيمار،
آخر من تبقى من الصف الأول،
ينظر إليه بخوفٍ صامتٍ بينما الريح تقتلع راياتهم واحدة تلو الأخرى.
قال بصوتٍ مرتجف:

"جنودنا تاهوا بين النار والطين...
لا نعرف من معنا ومن ضدنا بعد الآن."

فردّ فان ببطءٍ قاتل:
"من يتردد... يُدفن هنا."

⊡

في قلب البحيرات، كان ثيودور جالسًا قرب الجرحى،
المخطوطة بين يديه ترتعش كأنها تنزف هي الأخرى.
الرموز تشتعل وتخبو،
كأنها تُعيد كتابة المصائر أمام عينيه.
همس الكفيف من خلفه:

"ما ترى يا ثيودور؟ من سينجو؟"
فأجاب بثباتٍ غامض:
"لا أدري... المخطوطة صامتة، والطائر لا يقترب...
كأنها تنتظر القرار منَّ السماء ."

⊡

الليل يهبط على الميدان،
الريح تهبّ من جهة الشمال كأنها نَفَس الموت الأخير،
وكل معسكر ينتظر الآخر ليبدأ.
لم يعد هناك صلح، ولا عهد، ولا حياد.
الكل يترقب لحظة الانفجار القادم.

في الأفق،
تُرى نارٌ بعيدة تشتعل ثم تختفي،
كأنها إشارة خفية من القدر.
رفع أنطونيوس سيفه المكسوّ بالدم وقال:

"غدًا... إما أن تكون البحيرات وطنًا،
أو تصبح ذكرى في فم التاريخ."

أما فان، فكان يحدّق في السماء ذاتها،
يبتسم رغم الألم، ويهمس:

"الفجر القادم لي،
وإن أشرقت شمسه على دمي."

⊡

هكذا انتهت الليلة العاشره ،
لا غالب ولا مغلوب،
الكل ينتظر طلوع الفجر ليعرف:
من الذي فاز؟
ومن الذي سيُمحى اسمه مع أول ضوء؟

وفي الأفق البعيد... حلّق الطائر ذو العيون الحمراء،

صامتًا، كما لو كان يحمل نبوءة النهاية

الفصل السابع – سقوط الظلال ودم الفجر

السماء كانت تموج بلونٍ رماديٍ باهت،
كأنها تُخفي خلفها شيئًا ينتظر الانفجار.
ريحٌ باردةٌ تهبّ من جهة الشرق، تحمل معها رائحة الحديد والرماد.
في معسكر البحيرات، وقف يوهان صامتًا...
كتفه مضمّد، وساقه ما زالت تؤلمه كلما تحرك،
لكن الألم لم يعد يهمّ.
كل ما في صدره نار واحدة... الانتقام.

⊡

نهاية الوحل وبداية المطاردة

كانت السماء رمادية، ملبدة بالدخان والرماد، رائحة الحديد والنار في الهواء، والبحيرات من بعيد تئنّ بصوت الريح.

تحرك يوهان ومهربان قبل الفجر، بخطّة سرّية لم يعلم بها أحد — لا أنطونيوس ولا ثيودور.
تسلّل الاثنان بين الصخور والوديان الموحلة، يعرفان أن فرصتهما الوحيدة هي أن يضربا رأس الأفعى قبل أن تعضّ.
الهدف واحد: فان.

كان فان وقتها يعيد تنظيم صفوفه، وجهه نصف محترق، يغطيه بوشاحٍ أسود يلتصق بلحمٍ ذاب، وصدره مازال يحمل أثر طعنة يوهان القديمة.
لكنّه، رغم كل هذا، ظلّ كالوحش الجريح — لا يموت، لا يتراجع، ينتظر اللحظة التي يثأر فيها.

تسلل يوهان بخطى ثابتة، كأنّه يختبئ بين أنفاس الريح، ومعه مهربان من جهة أخرى.
في لحظةٍ واحدة، التقت العيون:
فان يبتسم، نصف ابتسامةٍ من وجهٍ نصفه رماد.
قال بصوتٍ أجشّ كالنار في الحلق:

«ها قد عدت يا ابن ذو اللحية البيضاء... جئت تُكمل ما بدأته؟»

ردّ يوهان بصوتٍ لا يخلو من الألم:

«جئت لأنهيه. من أجلي... ومن أجلهم جميعًا.»

اندلعت المعركة بينهما، صراعٌ بين نارين.
سيفان يتصادمان، شررٌ يتطاير، كلّ ضربةٍ تحمل وجع السنين والانتقام.
مهربان يقاتل رجاله من حول فان، والظلام يشتعل بسيوفٍ ودماءٍ مختلطة بالمطر.
يوهان كان يقاتل بروحٍ منكسرة، لكنّها لا تعرف السقوط؛ كل جرحٍ يفتح فيه نافذةً لغضبه.

حتى تلك اللحظة — صرخةٌ عالية دوّت في المكان، الطائر ذو العيون الحمراء حلق فوقهم، وصرخته كانت كصفير القدر.
في لحظة الارتباك تلك، طعن يوهان فان في ذراعه مرة أخرى، طعنةً غائرة جعلت جسده يتهاوى مع الحصان، وسقط الاثنان في الوحل.
لكن فان جرّ يوهان معه، وخيّم الظلام.

انقشع الدخان بعد دقائق.
وجد رجال فان قائدهم قد اختفى.
اختلطت صيحات الخوف بالارتباك، وتفرّق الجنود كالجراد، لا يعرفون إن كان فان قد مات أو عاد إلى الأرض التي أنجبته.

في نفس الوقت، كانت كتيبة أنطونيوس تقترب من الجهة الغربية.
لم يكن يعلم شيئًا عن خطة يوهان ومهربان، لكن عندما وصل، رأى المشهد:
الطريق ممهد، المعسكر ممزق، الجنود في فوضى، والهواء ملوث بالرماد.
صرخ أنطونيوس يأمر رجاله بجمع الأسلحة والخيول والعتاد، قائلاً:

«لا نضيع لحظة، كل سلاحٍ هنا لنا، وكل طريقٍ يُغلق عليهم!»

استغلّ الفرصة، جمع الباقين، وحصّن الطرق، بينما كان الظلام ينذر بأن فان مازال حيًّا في مكانٍ ما.

لكن المشهد الذي أوجع الجميع كان بعد ساعات:
في أحد الممرات، وُجد مهربان مصابًا، سهمٌ غرس في كتفه، والدم يسيل على صدره،
وبجانبه يوهان بين الحياة والموت، صدره مثقوب من السقوط، وسهم آخر في جنبه.
أنقذهما أنطونيوس بنفسه، وحملهما على حصانٍ واحدٍ وهو يصيح لجنوده أن يغلقوا الطرق خلفهم.

حين وصل إلى البحيرات، كان ثيودور في استقباله، وجهه شاحب، والطائر على كتفه يحدق في السماء.
وما إن رأى يوهان جريحًا، حتى قال بصوتٍ باردٍ كالماء:

«نحن والكفيف ورومان سنبقى هنا... سنرعاهم حتى يفيقوا.
أمّا أنت يا أنطونيوس، فخذ كتيبة مهربان وما تبقى من الرجال...
واذهب. حطّم كل طريقٍ لهم. لا تجعلهم يعودون من حيث أتوا.»

هزّ أنطونيوس رأسه بعزم، أمسك سيفه، وقال:

«اليوم لن ننتظر أن يأتوا... نحن من سيذهب إليهم.»

تحرّك مع رجاله كالعاصفة، تاركًا وراءه ثيودور جالسًا بجوار الجريحين،
وعيناه تتبعان الطائر الذي حلق في السماء، يدوّر فوقهم كأنه يرسم دوائر النهاية.
كانت البحيرات على وشك أن تشهد فصلها الأخير،
فلا أحد يعرف بعد...
هل اختفى فان في الوحل، أم أن الوحل نفسه سينجب منه شيئًا أسوأ

- [ ] الفصل التاسع: صمت الوحل... وقيام البحيرات
اختفى فان
وانتهى كل شيء فجأة.
الصرخات خمدت، النار صارت رمادًا، والوحل ابتلع الدماء كأنه يريد أن يمحو الذكرى.
في السهول القريبة، لم يبقَ سوى صدى الريح وهي تمر بين الخيام الممزقة، كأنها ترثي جيوشًا لم يُعرف لمن قاتلت.
فان... اختفى. لا جثة، لا صوت، لا أثر.
كأن الأرض قررت أن تبتلع الشر كما تلفظ الجسد الميت.

وقف أنطونيوس على حافة التل،
ينظر إلى الأفق، ويداه مغطّيتان بدمٍ جفّ على جلده،
حولَه رجالٌ متعبون، منهكون، لكن عيونهم مشتعلة كجمرٍ في رماد.
قال بصوتٍ ثابتٍ رغم الألم:

«اختفى فان، نعم... لكن لا تنخدعوا، غيابه لا يعنى النهاية.
الآن فقط تبدأ معركتنا الحقيقية — مع ما تركه خلفه.»

في تلك اللحظة، اجتمع قادة البحيرات،
ثيودور الصامت أمام المخطوطة،
مهربان يضمد جراحه ويفكر فى رجاله الذين سقطوا،
يوهان يرقد نصف وعيه، يحاول النهوض،
وروmان والكفيف ينقلان الأخبار بين المعسكرات.
كان المشهد أقرب إلى جيشٍ من الأشباح تنهض بعد الموت.

أمر أنطونيوس بتقسيم الكتائب:
بعضها لتعقّب فلول فان، وبعضها لتمشيط الطرق ونسف الفخاخ التي زرعها،
أما البقية فكانت لمطاردة الظلال، لجمع الأسرى وسحق كل من تبقّى من الغوغاء.

امتدّت الأيام التالية كأنها صراع بين الحديد والنار:
معارك خاطفة على أطراف البحيرات،
رجال فان يفرّون متخبطين فى الليل،
والبحيرات تضرب من كل اتجاه —
بخطة دقيقة وضعها ثيودور ونفذها أنطونيوس،
فلا صوت سوى صفير السهام وصليل السيوف.

وفي الصباح الرابع،
كانت أعلام البحيرات ترفرف على كل معسكرٍ كان يومًا يحمل راية فان.
الأسوار عادت، الخنادق امتلأت،
والرجال الذين كانوا أسرى بالأمس صاروا يقاتلون مع البحيرات طوعًا،
كأنهم وجدوا في قتالهم هذا خلاصًا من عارهم القديم.

جلس أنطونيوس عند بحيرة الدم القديمة،
ينظر إلى الماء وقد صار لونه داكنًا من الرماد والدم،
ثم قال بصوتٍ خافتٍ، وهو يربّت على كتف مهربان:

«كل فخٍّ، كل طريق، كل أثرٍ تركه فان... أُزيل.
البحر الآن لنا، والريح لنا... فلتستعد البحيرات للنصر الأخير.»

رفع ثيودور نظره عن المخطوطة،
كانت الرموز تتحرك كأنها تتنفس،
وفي سكون الليل، دوّى صوت الطائر ذي العيون الحمراء فوق رؤوسهم،
صرخة واحدة اخترقت السماء ثم سكنت.
فهم الجميع معناها دون أن تُقال:
الليل انتهى... وغدًا يبدأ الفصل الأخير من الدم

- [ ] الفصل العاشر: النصر المُرّ

لم يكن الفجر هادئًا كما تعوّد الناس.
كانت السماء بلون الحديد، والمطر يضرب الأرض كطبول حربٍ لم تنتهِ بعد.
في الأفق، ألسنة الدخان ترتفع من كل اتجاه،
كأن الأرض تلفظ آخر أنفاسها بعد معركةٍ دامت دهورًا.

عادت البحيرات أخيرًا تحت رايتها،
لكن الطريق إليها كان مفروشًا بجثث الأبرياء والجنود على حدٍّ سواء.
الريح تهمس بأسماء من سقطوا،
والبحر يردّد أصداء الحرب التي لم ينجُ منها سوى القليل.

في السهل الأوسط،
وقف أنطونيوس يراقب رجاله وهم يرفعون الرايات من جديد،
بينهم مهربان يعرج وهو يبتسم رغم جراحه،
ويوهان الذي نهض أخيرًا من بين الموتى،
يحمل على كتفه ضماداتٍ كثيرة لكن عينيه تلمعان بعزمٍ غامض.

قال أنطونيوس وهو ينظر نحو الأفق الملبّد:

«لقد انتهت الحرب... لكن السلام لن يأتي سريعًا.
فان اختفى، لكن ظله باقٍ في القلوب.
علينا أن نطهر الأرض، لا من دمه، بل من فكره.»

تقدّم ثيودور بخطى متثاقلة،
الطائر ذو العيون الحمراء يحوم فوقه كأنه يحرسه.
فتح المخطوطة، فانبثقت منها خيوط من نورٍ شاحبٍ رسمت رموزًا على صفحة السماء.
قرأها بصوتٍ هادئ:

«حين يسقط الظل، تُولد الشمس من رماد البحيرات.»

في تلك اللحظة،
انحنت الرؤوس، وساد الصمت كأن الكون نفسه يصغي.
كانت كلمات المخطوطة كالوعد الأخير،
أن النور سيعود — ولكن بثمنٍ لا يُمحى.

في المعسكرات، بدأ الرجال يجمعون ما تبقّى:
الجرحى يُحملون على الأكتاف،
النساء ينظفن الأرض من بقايا الحرب،
والأطفال يرفعون الحجارة ليبنوا من جديد.
لم يعد أحد يتحدث عن النصر...
بل عن البقاء فقط.

في المساء، جلس ثيودور قرب الماء،
المخطوطة أمامه والطائر يرقب الظلام.
قال بصوتٍ بالكاد يُسمع:

«سِيدنا. ماركوس . أبى . ذو اللحيه البيضا .
... رحلتَم ولم ترَوا هذا اليوم.
لكننا فعلناها. البحيرات عادت.
وسأحفظ العهد حتى لو متُّ وأنا أكتبه.»

اقترب يوهان، وضع يده على كتف ثيودور، وقال:

«النصر ليس أن نحيا، بل ألا ننسى من ماتوا.

وأقسم أن دم أبي وأبيك ، ودم سيدنا وكل من ضحى ، لن يذهب هباءً.»

وفي البعيد،
كانت السماء تنشق عن برقٍ أحمر كدمٍ يتوهّج في الظلام،
والطائر ذو العيون الحمراء يصرخ صرخةً أخيرة كأنها إنذارٌ للعالم بأسره:

«الملحمة لم تنتهِ بعد... إنما غيّرت شكلها.

- [ ] الفصل الحادى عشر
مابعد الملحمه

رماد النصر

لم تمضِ سوى أيّامٍ قليلة بعد صرخة الطائر الأخيرة،
حتى بدت أرض البحيرات وكأنها خرجت من فم النار إلى فجرٍ رماديٍّ جديد.
الماء اختلط بالرماد، والدخان ما زال يتصاعد من بقايا الأكواخ،
لكن بين الركام كانت الحياة تُعيد نفسها — ببطءٍ عنيدٍ لا يعرف الاستسلام.

جلس أنطونيوس وسط رجاله، على صخرةٍ كبيرةٍ تعلوها آثار الرماد والدم،
كان وجهه مجهدًا، وذراعه مضمدة،
لكنه تكلّم بصوتٍ يشبه حفيف الحديد على النار:

"احصوا ما تبقّى من رجالنا... ومن أرواحنا.
كل من رحل، ترك وراءه عهداً... لن نخونه ما حيينا."

وصلت قافلة مهربان من الجنوب،
رجاله الذين صمدوا في جحيم المعركة كانوا يجرّون أقدامهم،
عيونهم متعبة لكن في داخلها بريق العزة.
وقف مهربان، مغطى بالغبار والجراح، وقال بصوتٍ جهوريٍّ فيه فخر:

"قاتلنا كما لم نقاتل يومًا، وسقط منا من لا يُعوّض،
لكننا لم ننكسر... ما دام هناك من يقف فوق هذه الأرض."

أومأ له أنطونيوس بعينٍ يملؤها الامتنان والصلابة، وقال:

"أنتم لم تكونوا نصيرًا لنا فقط... كنتم معجزة هذه الأرض.
سيُذكر اسمكم كما تُذكر المعارك الكبرى،
في كل زمنٍ يأتي من بعدنا."

وفي دير البحيرات،
كان يوهان يفتح عينيه بعد ان شعر لحظات بتعب شديد
أنفاسه ثقيلة، جراحه ما زالت مفتوحة،
لكن حين رأى ثيودور وورومان والكفيف إلى جواره،
ابتسم رغم الألم وقال بصوتٍ مبحوح:

"أخبروني... هل انتهت الحرب؟"

اقترب ثيودور، وضع يده على كتف يوهان وقال:

"انتهت معركة... لا الحرب.
العدوّ اختفى، لكنه لم يمت...
أوغسطين ما زال هناك، ينتظر أن تنطفئ عزيمتنا."

ابتسم يوهان بمرارة:

"إذن فلن نعطه ما ينتظر.
ما زال فينا من يحمل سيفًا... ومن يحمل إيمانًا."

صرخ الطائر ذو العيون الحمراء فجأة من نافذة الدير،
كأنّه يعلن القسم من جديد،
صرخةٌ اخترقت السكون وسقطت في قلوبهم كوميضٍ من وعدٍ قديم

قاعة المؤتمرات الكبرى — قرار الظلال

القاعة كانت مُظلمةً جزئياً، النوافذ مغلقةٌ عن ضوء الصباح، والمصابيح تتلوى بشعلاتٍ هادئةٍ كأنّها تتثاءبُ قبلَ جُلطةٍ من القرار. على طاولةٍ عريضةٍ فُرِشت عليها خرائطُ المناطق وحدودُ القرى، جلس أوغسطين في صدرها، بوقارٍ باردٍ وعينين تُخفيان ألف حسابٍ وحساب. إلى جانبه وقف القائد —

قال أوغسطين بصوتٍ هادئٍ لكنه يقطّع الهواء كالسيف:

"فان... لقد اختفى. وجيشه الأقوى، كتائب الغوغائيين، تبخّرت.
الهزيمة ليست النهاية، بل بداية تصحيح."

اقترب القائد بخطوةٍ واحدة وقال بصوتٍ منخفضٍ خشن:

"الناس تتساءل يا سيدي... كيف سقط فان؟"

ابتسم أوغسطين ابتسامةً مائلة وقال ببرودٍ قاطع:

"سأسكتهم جميعاً.
فان لم يُهزم بسيوف الرجال، بل أصابته اللعنة.
لعنة الراهب الصامت، الذي واجهه في المعركة الأخيرة.
منذ تلك اللحظة، احترق وجهه، واشتعل جسده... إنه الدليل على من اقترب من الملعون أصابته اللعنه ."

ثم أشار إلى الأوراق المبعثرة أمامه:

"فان خان العهد، جند الغوغائيين دون إذنى، تحرّك من تلقاء نفسه.
خالف أوامرى ظنّاً أنه سيكسب المجد وحده.
لكنه جلب اللعنة على نفسه، وجعل من أتباعه عبرة.
هذه هى الرواية التى ستُقال فى كل مكان،
وسيرددها الناس كما أردت لهم أن يفعلوا."

صمت القائد للحظات، ثم قال:

"وماذا بعد؟"

أوغسطين، وهو يضم يديه ببطءٍ وثقةٍ قاتلة، قال:

"الآن نبدأ من جديد.
الخطة الأولى: لَمّ الشتات. نعيد تنظيم ما تبقّى من رجال فان تحت راياتنا،
ونبثّ الخوف بينهم بأن اللعنة تصيب كل من يخرج عن طاعتى."

"أما الخطة الثانية: جيش الظل.
كتائب سرّية تعمل فى الخفاء، لا اسم لها ولا راية.
مهمتها الضرب، الحرق، والاختفاء.
سنجعل كل مكانٍ يذكر البحيرات، يرتعد من الظلام قبل أن يرى جنودنا."

اقترب القائد، رأسه منحنٍ:

"سيصدقون اللعنة، فالدم والنار أقنع من الكلمات."

ضحك أوغسطين ضحكةً قصيرة خافتة:

"وسيصدقونها أكثر عندما أقولها أنا."

📜 عندها دقّ أحد الحرّاس الباب ودخل رسول يحمل ختم الكنيسة.
ركع أمام أوغسطين وقال:

"سيدي، جاء وفد الكنيسة الأم من العاصمة،
الممثل البابوي فرانس بنفسه، ومعه إلياس الكبير مخطط طرق البحيرات،
والقاضي الثالث من مجلس القضاء الثلاثي.
يريدون مقابلتك فوراً بشأن مقتل سيدنا الكبير."

أغلق أوغسطين عينيه لحظةً، ثم فتحهما وقال بهدوءٍ يخفى الطوفان:

"دعوهم يدخلون. إنهم لا يعلمون بعد... أننى أنا من يحدد ما يبقى وما يُدفن."

دخل فرانس بهيبته الكنسية، وخلفه إلياس الذى بدا عليه التعب من السفر،
والقاضى الثالث الذى يرمق الجميع بنظرةٍ صارمةٍ لا تخلو من الخوف.

قال فرانس:

"جئنا بأمر البابا نفسه.
لن يمر مقتل سيدنا الكبير دون تحقيق.
الكنيسة تريد الحق، والحق وحده."

أجابه أوغسطين ببرودٍ وثقةٍ شيطانية:

"الحقّ ستجدونه عندى يا سيادة الممثل.
البحيرات خرجت عن السيطرة، وسيدنا سقط ضحية فوضى صنعها الراهب الصامت وأتباعه.
اللعنة انتشرت فيهم، ونحن نحاول فقط احتواءها."

ردّ إلياس بحدةٍ مفاجئة:

"سيدنا مات برصاصةٍ من سهام فان!
وفان كان من رجالكم يا أوغسطين! كيف تبرّئ نفسك؟"

ابتسم أوغسطين دون أن يرمش:

"كان من رجالنا... ثم خرج من طاعتنا.
اللعنة لا ترحم من عصى أوغسطين."

ساد الصمت المطبق للحظات.
فرانس طأطأ رأسه قليلاً ثم قال:

"البابا مريض، والبلاد مضطربة.
الكنيسة تلزم الحياد الآن.
لن نحاسب أحداً حتى تهدأ الأمور... فقط التزموا الهدوء جميعاً."

ابتسم أوغسطين تلك الابتسامة التي لا روح فيها، وقال بصوتٍ خافتٍ كالسُمّ:

"الهدوء...؟ نعم، سيكون هدوء ما قبل العاصفة.
وسأجعلهم يظنون أنى نمت، بينما أنا أزرع الكوابيس فى كل أرض."

خرج الوفد من القاعة،
بينما القائد الوحش الصامت يرمق أوغسطين بنظرةٍ فهمت كل شيء:
أن الحرب لم تنتهِ... بل بدأت للتو

قاعة المؤتمرات الكبرى

اعتراف البحيرات... ولقاء الراهب الصامت

خرج وفد الكنيسة من القاعة، وظل أوغسطين جالسًا صامتًا،
أصابعه تتحرك فوق الطاولة كمن يعزف لحنًا خفيًّا لا يسمعه أحد.
القائد الوحش الصامت وقف بجواره، يترقب ما سيقول سيده بعد أن فُرض عليه لأول مرة أن "يلتزم الهدوء".

لكن الباب لم يترك للهدوء فرصةً.
فُتح مجددًا، ودخل الحارس بخطواتٍ سريعةٍ مرتبكة، وقال بصوتٍ يملؤه التوتر:

"سيدي... المبعوث البابوي لم يغادر بعد.
يقول إن أمرًا جديدًا صدر الآن من العاصمة... من مجلس القضاء الثلاثي ذاته."

رفع أوغسطين حاجبه، وعيناه تلمعان بفضولٍ وريبة:

"وما الأمر؟"

"إنهم يعترفون رسميًا بأرض البحيرات كإقليمٍ تابعٍ للكنيسة الأم،
يخضع لإشراف القضاء الثلاثي، وتحت لواء سيدنا الراحل.
وقد تم تعيين ممثلٍ جديدٍ عنها... راهبٍ يحمل توكيلًا رسميًا مختومًا بختم القضاء الثلاثي."

تبدلت ملامح أوغسطين فجأة،

ونبرة صوته انخفضت، كأن شيطانًا قد استيقظ داخله.

"ومن هذا الممثل؟"

ردّ الحارس بصوتٍ مبحوح:

"الراهب الصامت... ثيودور."

ساد الصمت الثقيل للحظةٍ خُيّل فيها أن جدران القاعة نفسها تتنفس رعبًا.
نظر أوغسطين إلى القائد وقال ببطءٍ متعمدٍ وكأن الكلمات تُقتلع من بين أسنانه:

"أحضروه إلى هنا... لكن اجعلوا الطريق طويلاً."

▫

دخول ثيودور

ذلك اليوم كان استثنائيًا في تاريخ الدير الكبير.
الأنوار المعلقة فى الممرات اشتعلت جميعها،
الطبول الخافتة قرعت إيذانًا بوصول ضيفٍ من مرتبةٍ عليا،
وكل الرهبان خرجوا إلى الممرات ليروا بأعينهم الراهب الصامت ——
الذي كانت تُروى عنه القصص كأنها أساطير بين جدران الأديرة.
ذاك الناسخ الوحيد المنبوذ والراهب الهارب الملعون
دخل ثيودور بهدوءٍ يليق بمَن لا يخشى شيئًا.
يرتدي ثوبًا بسيطًا رماديًا، يحمل بين يديه لفافة مختومة بختم القضاء الثلاثي،
وخلفه الحارس البابوي والمبعوث فرانس نفسه،
الذي كان يردد بخطواتٍ متوترةٍ فى أرجاء الصرح الكبير:

"بأمرٍ من الكنيسة الأم،
الراهب ثيودور ممثلٌ رسميٌّ عن مجلس القضاء الثلاثي،
يحمل لواء البحيرات، ويمثّل إرادتها أمام المشرق."

وقف الجميع مذهولين؛
الراهب الذى نُبذ يومًا، وعُدّ ملعونًا،
ها هو يعود اليوم لا كمنبوذٍ، بل كـ قائدٍ معترفٍ به من البابا نفسه.

▫

اللقاء داخل غرفة أوغسطين

كانت غرفة أوغسطين أشبه بغرفة عرشٍ أكثر منها مكتبًا.
الشموع تشتعل فى كل زاوية، والهواء مشبعٌ برائحة البخور والعطر الأسود.
جلس أوغسطين على كرسيه العالي،
بينما فتح ثيودور اللفافة وقرأ ببطءٍ أمامه:

"باسم الكنيسة الأم ومجلس القضاء الثلاثي،
تُمنح أرض البحيرات الاعتراف الكامل كإقليمٍ تابعٍ للقضاء،

ويُعتمد الراهب ثيودور ممثلًا رسميًا عنها،
حتى إشعارٍ آخر من الكرسي البابوي."

ثم رفع نظره نحو أوغسطين، وصوته الهادئ كالسيف حين يُسحب من غمده:

"جئت لا لأنتزع شيئًا، بل لأثبت أن ما بدأه سيدنا لن يدفن."
" ياسيد اوغسطين ايليا ماركوس واسحاق ورجاله وذو اللحيه البيضا وسِيدنا الكبير ارواحهم الطاهره لن تغادر المكان لنصرة الحق ولعنه على قاتليهم "

ردّ أوغسطين بابتسامةٍ باردة، لا هى سخرية ولا هى ترحيب:

"يبدو أن الكنيسة تُحب إعادة الموتى من قبورهم.
أهل البحيرات إذًا صار لهم قائد جديد...
مرحبًا بك فى المشرق يا ثيودور،
الأرض التى لا تبقى فيها القداسة طويلًا."

اقترب ثيودور خطوة واحدة،
وعيناه الثابتتان لم ترمشا لحظة، ثم قال بصوتٍ خافتٍ لكنه يزلزل القلوب:

"القداسة لا تغادر يا سيد أوغسطين...
إنها فقط تختبئ حين يحكم الشر."

سكتت القاعة بأكملها،
حتى الرياح العالية توقفت للحظة، كأن الزمن ذاته انحنى احترامًا لما قيل.

⊡

توقيع الاتفاق تم فى اليوم ذاته.
خُفر ختم الكنيسة فوق الوثيقة،
وسُجلت رسميًا كـ اتفاقية الاعتراف الأولى بأرض البحيرات.
خرج ثيودور من غرفة أوغسطين محاطًا بنظرات الرهبان،
بين من يخشاه... ومن يبكى سرًا لأنه رأى فى عينيه نور "ماركوس .وإسحاق "يعود من جديد
✨ انتهى الجزء السادس

الجزء السابع :☀️ شمس المشرق وجيش الظل

- [ ] الفصل الأول: عودة النور إلى البحيرات

خرج ثيودور من الدير الكبير فى الصباح التالي.
كان الضباب يلف الممرات الحجرية، والجرس العظيم يدقّ بنغمةٍ منخفضةٍ كما لم يفعل من قبل.
الرهبان اصطفّوا على الجانبين فى صمتٍ مهيب،
وجوههم مزيج من الدهشة والإجلال والخوف الخفيّ من القادم.

كان يمشى بخطواتٍ ثابتة، لا يلتفت يمينًا ولا يسارًا،
وثوبه الرمادي يتمايل كظلٍّ هادئٍ فى نهرٍ من الضوء المتسلل عبر النوافذ العالية.
فى يده لفافة مختومة بختم الكنيسة الأم،
وعلى وجهه سكينة من يعرف أن الطريق أمامه ليس سهلًا،

لكن لا بدّ أن يُسلك.

وحين وصل إلى الباب الرئيس للدير الكبير،
توقف لحظة، نظر إلى القبة العالية،
ثم رفع رأسه نحو التمثال الحجري للقديس الأنبا،
وقال بصوتٍ يكاد يُسمع:

"ليُباركنا الرب... فقد انتهى زمن الخوف."

فتحت الأبواب، واندفع النور من الخارج كأنه فجرٌ جديد.
صفّق بعض الرهبان سرًا، بينما انحنى الحراس احترامًا.
خرج ثيودور، وخلفه المبعوث فرانس والياس الكبير،
وبينهما اتفاق مكتوب سيُغيّر مجرى التاريخ.

⊡

إعادة بناء البحيرات

بعد أسابيع قليلة، عمّ خبر الاتفاق الأرض كلها.
الكنيسة الأم أعلنت رسميًا دعمها الكامل للبحيرات،
وأرسلت مساعدات مالية ومواد إعمارية،
وأُعيد فتح الممرات التي رسمها الياس قديمًا تحت إشرافه نفسه،
فصار الناس يعبرونها مرةً أخرى بعد أن كانت مسدودةً بالنيران والرماد.

تدفقت القوافل المحمّلة بالأخشاب والحجارة والزيوت،
وانتشرت الورش الصغيرة على ضفاف البحيرات،
وبدأت الأصوات تعود — صوت المطرقة، وصوت الدعاء،
وصوت الأطفال الذين لم يعرفوا يومًا معنى الضحك إلا الآن.

أما ثيودور، فقد جعل مقرَّه في الدير القديم قرب الشاطئ،
ينظّم العمل ويشرف بنفسه على كل بناء،
عيناه تتابع العمال والرهبان،
وصوته الهادئ يعيد للنفوس الثقة التي كادت تندثر.

⊡

مهربان وعودة العهد القديم

في اليوم السابع من إعادة البناء،
وقف مهربان عند بوابة البحيرات،
جسده الضخم ما زال يحمل آثار الجراح،
لكن عينيه تلمعان كمن يرى مستقبلًا لم يره أحد.

اقترب من ثيودور، ومدّ يده إليه قائلًا:

"الآن نبدأ من جديد...
سأعود إلى مملكة الأفيال، إلى قبائل الضيّ.

هناك من ينتظر كلمةً منى منذ المعركة الأخيرة.
سأجمع التجار، وسأعيد خط التجارة القديم،
من أراضي الأفيال حتى البحيرات.
سيكون هذا السور الجديد ليس من حجارة، بل من بشرٍ يعيشون معكم ويسكنون بينكم."

ابتسم ثيودور، وقال بهدوءٍ يشبه وعدًا قديمًا:

"لتكن البحيرات بيتًا لكل من لم يجد بيتًا."

انحنى مهربان احترامًا،
ثم غادر على صهوة جواده،
ووراءه كتيبته الصغيرة من رجال الأفيال،
يتلاشى صهيلهم في الأفق مع غبار الطريق،
بينما الموج يعكس صورهم كأشباح نورٍ تغادر نحو المجهول.

⊡

وفي المساء،
جلس ثيودور قرب ضفاف البحيرة،
الطائر ذو العيون الحمراء يحوم فوقه،
والريح تحمل رائحة المطر القادم.

تمتم بصوتٍ خافتٍ يسمعه وحده:

"البحيرات قامت من رمادها...
والشر ما زال هناك فى المشرق...
ويبدو أن ما نعيشه الآن ليس سلامًا، بل بداية الحرب الأخيرة."

ثم أنهى الفصل على جملةٍ كتبت فى سجل الدير بخط الراهب الصامت نفسه:

"ربما كانت هذه، حقًا... بداية تحرير المشرق."

الفصل الثانى: نهوض البحيرات

كانت البحيرات تتنفّس مجددًا.
الضباب الذى كان يغطيها صار يختلط برائحة الخشب الطازج وأصوات المطارق.
العمال والرهبان يتحركون كخلية نحلٍ لا تهدأ،
والأطفال يركضون بين الطرقات التى بدأت تتشكل من جديد تحت إشراف "الياس" العجوز،
الذى لم يفقد دقّته رغم التجاعيد التى حفرتها السنين فى وجهه.

الممرات القديمة التى طمرها الرماد عادت تُفتح،
تخرج منها المياه العذبة كأنها تُبارك الأرض التى نجت من الجحيم.
وفي قلب هذا البناء،
وقف يوهان على قدميه بعد أسابيع طويلة من الألم،
يتحرك بصعوبة، لكن فى عينيه بريق عنيد لا ينطفئ.

فى غرفته القريبة من الدير القديم،

كانت رسالة صغيرة موضوعة بعناية على الطاولة الخشبية.
فتحها بيدٍ مرتجفة،
وكانت بخطٍّ يعرفه جيدًا،
خطّ مهربان، ذلك الرجل الذى أنقذه وسط النيران والسهام.

"صديقي يوهان...
لن يطول غيابى. سأعود من مملكة الأفيال، ومعى رجال الضيّ وكتيبتى القديمة.
لقد وعدت الملك أن أبنى لكم هنا طريق النور، طريق التجارة والدماء الجديدة.
لن أتركك وحدك، فالأرض التى مات فيها رجالُنا لن تُترك للخراب.
حين أعود... سنكمل الطريق إلى المشرق، إلى أرض أبيك.
مهربان."

أغلق يوهان الرسالة ببطء،
ابتسم رغم الألم الذى يعصف بكتفه وصدره،
ثم تمتم وهو ينظر من النافذة نحو البحيرة التى تعكس شمس الظهيرة:

"سنكمل الطريق يا صديقى... وسنعود للمشرق كما وعدنا."

⊡

الفصل الثالث: عهدٌ جديد وقوةٌ تتشكّل

الأيام التالية حملت بشائر غريبة؛
القوافل بدأت تصل تباعًا من الجنوب والغرب،
قبائل "الضيّ" أرسلت رجالها المهرة فى التجارة والرماية،
ومعهم وفود من قبائلٍ أخرى لا تُعرف أسماؤها إلا فى كتبٍ قديمة.

جلبوا معهم أسلحة جديدة لم يعرفها أحد من قبل:
رماحٌ قصيرة ذات حدٍّ مزدوج،
ودروع مصنوعة من جلد الفيل،
وأقواسٌ ضخمة قادرة على اختراق الحديد.
كما حملوا معهم معارف من أرضٍ بعيدة —
عن الزراعة فوق الماء،
وبناء الأسوار بالحجر الممزوج برماد الجبال.

وتحوّلت البحيرات خلال أسابيع إلى ورشة حياةٍ عظيمة،
يجتمع فيها الرهبان والمقاتلون والتجار جنبًا إلى جنب.
لم تعد البحيرات مجرد أرضٍ للنجاة،
بل صارت قاعدةً تُرعب الشرق كلّه،
تاريخًا جديدًا يُكتب على ضفافها.

كان ثيودور يشرف بنفسه على التنظيم،
بينما تولى انطونيوس الجانب العسكرى،
وجعل يوهان قائدًا للكشّافين والمراقبين،
أما الياس فظلّ العقل الذى يرسم كل طريقٍ ويحسب كل احتمال.

فى إحدى الليالى،

اجتمع الأربعة فى قاعة الدير المضيئة بالمشاعل.
تحدث ثيودور بهدوء:

"لقد أعطانا الربّ فرصةً ثانية...
ولكن هذه المرة لن نُهزم فى الظلّ،
سنبنى الضوء هنا."

ردّ يوهان وهو ينظر إلى اللواء المعلّق على الجدار:

"ومهربان سيعود قريبًا... سيحمل معه ما يكمل هذا البناء."

ابتسم أنطونيوس قائلاً:

"حين يعود، ستكون البحيرات مستعدة للحرب... وللسلام أيضاً إن اختاروه."

ثم ختم ثيودور الاجتماع بكلماتٍ كتبها بعد ذلك فى سجل البحيرات الجديد:

"من هذه الأرض وُلد النور مرةً أخرى...
ومن هذه الأرض سيبدأ طريق تحرير المشرق.

الفصل الرابع: أوراق المشرق وإعادة الظلال

كان المشرق يختنق بالركود بعد أن اختفى "فان".
القرى التى كانت تضجُّ بصراخه وصليل سيوفه
صارت ساكنةً كأنها تستمع لخبرٍ لم يُعلن بعد.
على الطرق القديمة انتشرت شائعاتٌ غريبة،
منها من قال إن "فان" هرب من اللعنة التى أصابته،
ومنهم من زعم أن البحيرات ابتلعته كما ابتلعت من قبله.
لكن فى الدير الكبير، حيث يجلس أوغسطين فى قاعة المؤتمرات المهيبة،
كانت الحقيقة تُصاغ ببطءٍ ودهاء.

جلس أوغسطين خلف الطاولة الحجرية،
أمامه خرائط المشرق والبحيرات،
وحولَه القائد الجديد الذى استدعاه خصيصًا ليملأ فراغ "فان" مؤقتًا،
رجلٌ صامت القسمات، مدرّب على السمع لا على الكلام،
مكلفٌ بمهمة واحدة: إعادة التوازن دون ضجيج.

قال أوغسطين بنبرةٍ واثقة،
وصوته يملأ القاعة كأنه يُخاطب الممالك كلها:

"فان... كان جنديًّا شجاعًا
، لكنه اختار طريق النار.
خالف أوامرى، وأشعل حربًا لم تُكتب بعد فى دفاتر الكنيسة.
لقد خان العهد، وجرّ رجاله إلى الهلاك.احفظ هذا جيدا ولقنه لرجالك
أما أنا... فقد التزمت بالصمت، كما يليق بالتابعين للربّ."

ثم رفع بصره إلى القائد الجديد، وأضاف:

"الناس يجب أن تعرف الحقيقة كما أرويها أنا،
فان تمرد، والبحيرات فقط أنهت جنونه.
نحن لم نخن العهد، بل حفظناه.
انشر هذا بين الجنود، بين القرى، بين الرهبان.
ليعلموا أن أوغسطين لم يطلب الحرب."

هكذا، بدأت إشاعة "الرحمة الماكرة"،
تنتشر كالنار الهادئة بين أرجاء المشرق،
تغسل الدماء من يديه بالكلمات لا بالماء.

وفى خطوةٍ تالية،
أصدر أوغسطين مرسومًا جديدًا يعلن فيه:

"أن دير البحيرات أصبح تحت بركة الكنيسة،
وأن الراهب الصامت قد غُفر له،
وأن البحيرات الآن أرض تابعة للعهد المقدس."

كان هذا المرسوم بمثابة إعلان سلامٍ مزيّف،
سلامٌ يُخدّر العقول ويُسكت الألسنة.
الناس باركت أوغسطين،
والرهبان أعادوا ترديد اسمه فى صلواتهم.

أما هو، فجلس وحده فى المساء،
يُدوّن بيده اليمنى رسائل إلى قادة المشرق الجدد،
يأمرهم بإزالة قبضة "فان" الحديدية عن القرى،
لكن أن يُبقي أعينهم مفتوحة،
وأن تُزرع الجواسيس فى كل بيتٍ،
وأن يُحاط دير البحيرات بالعيون كما يُحاط الملك بالسيوف.

وبينما كان يكتب آخر سطرٍ فى رسائله،
وقف خلفه القائد وقال بصوتٍ خافت:

"وهل نُبقى البحيرات بلا حرب؟"

ابتسم أوغسطين ببطءٍ وقال:

"نعم... بلا حرب، ولكن ليس بلا خوف."

ثم نظر نحو خريطة البحيرات،
وأشار بإصبعه إلى حدودها الجنوبية،
حيث كتب ملاحظة صغيرة بالمداد الأحمر:

"حين يكتمل جيش الظل، يعود المشرق إلينا

الفصل الخامس: ماري... وجه المشرق الجديد

كان الصباح الرماديّ ينسدل على المشرق كوشاحٍ من الدخان.
القرى التي عرفت صليل السيوف صارت تتنفس ببطءٍ كأنها تخاف أن تُصدر صوتًا،

وفي الدير الكبير جلس أوغسطين وحوله صمتٌ ثقيل.
أشار بيده إلى رجلٍ يقف عند الباب —
رجلٌ مهيب، عريض الكتفين، عيناه لا تحملان الشك بل الصبر،
إنه القائد ماري،
من اختاره أوغسطين ليكون الوجه الجديد للمشرق.

قال له أوغسطين بلهجةٍ محسوبةٍ كمن يرسم على الماء:

"الناس تعبوا من الحروب يا ماري...
اجعلهم يرون فيك سلامًا، لا سيفًا.
كل ما نريده الآن أن يظن الجميع أن المشرق عاد إلى طاعة الكنيسة...
وأن الدم الذي سُفك كان لعنة فان وحده، لا غيره."

انحنى ماري احترامًا، وأجابه بهدوءٍ يشبه الخطر قبل الانفجار:

"سأجعلهم يرون النور، سيدي...
حتى لو كان النور يأتي من نارٍ أخفيتها في صدري."

غادر الدير الكبير ومعه ثلاثون من خيرة ضباط المشرق،
وفي أقل من أسبوع تغيّر وجه الأرض كلها:
توقفت الدوريات الثقيلة،
اختفى رجال التعذيب،
وانتشرت الوعود بالسلام وإعادة البناء.
عاد الناس إلى الأسواق،
والرهبان إلى صلواتهم،
وبدأت الممالك المجاورة تتنفس وتقول:
"انتهت الحرب... لقد رحل فان."

لكن الحقيقة كانت تسير تحت الأرض.

ففي الوقت الذي كان ماري يبتسم للناس في الساحات،
كانت رسائله السرّية تُرسل إلى أوغسطين كل مساء.
وفي كل رسالة كانت كلمة تتكرر في الخفاء:
"جيش الظل".

قبل أن يبدأ التنفيذ،
أرسل ماري بخط يده رسالةً صغيرة إلى أرض البحيرات،
مختومة بخاتم الكنيسة، موجَّهة إلى القائد أنطونيوس، جاء فيها:

"سلام الرب معكم،
باسم الكنيسة وأوغسطين الموقّر،
نعلن تعاوننا الكامل لتأمين الحدود الشرقية
من أي بقايا غوغائية أو أتباعٍ سابقين لفان،
ونبارك صمودكم في وجه الفتنة.
لنعمل معًا على إحلال الطمأنينة في أرض المشرق."

حين وصلت الرسالة إلى أنطونيوس،
قرأها بصوتٍ منخفض أمام ثيودور والكفيف،

وقال وهو يطوي الورقة بعناية:

"سلامٌ من أفواهٍ تلدغ... ومع ذلك، سنردّ بالهدوء.
لأن الحرب القادمة لن تُعلن... بل تُولد من الصمت."

⊡

وفي الليل ذاته، داخل قاعةٍ خفيةٍ في الدير الكبير،
جلس أوغسطين يقرأ تقارير ماري،
ثم مدّ يده على الخريطة وقال للقائد الصامت بجانبه:

"لقد بدأ ماري المرحلة الأولى...
الآن اجمع من بَقوا من جنود فان،
ومن اختفوا بعد الحرب،
من الغوغائيين والرهبان المطرودين،
من المرتزقة الذين يبيعون الدماء كما يبيعون الحديد.
نحن نعيد كتابة الظلال من جديد...
حان وقت جيش الظل."

رفع القائد رأسه، والشرر في عينيه يقول ما لم يقله فمه:

"سيظنون أننا نزرع سلامًا،
بينما نزرع شجرة موتٍ تمتد جذورها إلى البحيرات نفسها."

ضحك أوغسطين ضحكةً خافتة،
وقال وهو يطفئ الشمعة أمامه:

"دعهم يعيشون لحظتهم...
فالليل لم يبدأ بعد.

. لفصل السادس: ولادة الظلال

الليل في المشرق لم يعد هادئًا.
رغم أن الأجراس تُقرع كل صباح معلنة "السلام"،
إلا أن الصدى كان يرتدّ من الجبال بوقعٍ مختلف،
كأنه نذيرٌ خفيّ يقول: ليس بعد... لم ينتهِ شيء.

في قاعةٍ صغيرة داخل أحد الأديرة البعيدة،
جلس القائد ماري، والخرائط أمامه كشبكةٍ من العناكب.
كان وجهه ثابتًا، لا يبتسم ولا يعبس،
لكن عينيه تتوهجان بشيءٍ يشبه الغضب المقدّس.
أمامه رُسلٌ من قرى متفرقة،
رجالٌ فقدوا ذويهم في حرب فان،
وغوغائيون فقدوا قائدهم،
ورهبانٌ منفيّون من الكنيسة الكبرى.

قال ماري بصوتٍ هادئٍ يقطع الصمت كحدّ السيف:

"أنتم الظلّ، لا تُعرفون ولا تُذكرون.
أوغسطين يريد سلامًا أمام العيون،
وأنا أريد حربًا لا تُرى.
أنتم سيفه الخفيّ، فلا سيف يشهر قبل أوانه."

رفع أحد الرجال رأسه وسأله بتردد:

"ومن عدونا الآن يا سيدي؟
فان قد مات، والبحيرات تعيش في الصمت."

فأجابه ماري بابتسامةٍ باردةٍ كالموت:

"عدونا من يظن أن النور انتصر.
من يرفع راية البحيرات ويخدع الناس بقداسةٍ زائفة.
الراهب الصامت... ثيودور،
والذين معه من أنصار سيدنا الميت."

ثم أخرج من جيبه خريطةً صغيرة مرسومة بخطٍ أسود،
وضعها أمامهم وقال:

"من هذه النقاط نبدأ،
مخازن الغذاء، طرق القوافل، الممرات السرّية للياس.
لا حرب علنية بعد اليوم، بل ضرباتٌ خاطفة.
لتظن البحيرات أن لعنتها عادت،
وأن طائرهم ذا العيون الحمراء لم يعد يميّز بين عدوٍ وصديق."

⊡

في البحيرات، كانت الحياة تعود ببطءٍ،
الناس يبنون، والجنود يتدربون،
ويوهان يسير رغم جراحه القديمة كمن يطارد شبحًا.
أنطونيوس يقود بنفسه إعادة التنظيم،
وثيودور يجلس مع الكفيف أمام النار،
يمسكان المخطوطة التي لم تفتح منذ المعركة الكبرى.

قال الكفيف بثباتٍ غامض:

"أشعر بحركةٍ غريبة في الشرق يا ثيودور...
ليست رياحًا، بل أنفاس موتى لم يُدفنوا بعد."

تنهّد ثيودور، وصوت الطائر على الشرفة يرفرف بنذيرٍ ثقيل:

"أوغسطين لا ينام،
وما ولد من دمه لا يعيش في النور.
احذر من الليل، فربما لم ننتصر بعد."

وفي اليوم الثالث،
اختفى أحد حراس الممرات القريبة من التلال.
ثم سُمع انفجارٌ في أحد مخازن المؤن،
تلاه حريقٌ صغير عند أطراف الغابة.
أنطونيوس أمر بإغلاق الطرق،
لكن الحرائق كانت تنتقل كأنها تعرف الممرات القديمة.

أرسل يوهان كشافيه في كل اتجاه،
فعاد أحدهم مرعوبًا، قال وهو يلهث:

"إنهم كالأشباح يا سيدي...
يضربون ولا نراهم،
لا شعار لهم ولا راية...
لكنهم يهتفون باسم أوغسطين في الظل."

تجمّد الجميع، وعرف أنطونيوس حينها:
أن الحرب الجديدة لا تُعلن،
بل تتنفّس في الصمت،
وأن جيش الظل قد بدأ زحفه من العدم.

⊡

وفي المشرق،
وقف ماري أمام تمثالٍ حجريّ قديم في باحة ديرٍ مهدّم،
وقال لرجاله:

"المرحلة الثانية تبدأ غدًا...
النار ستعود، لكن هذه المرة لن تُطفأ بمطرٍ.

الفصل السابع

"أجنحة الظل"

الليل في البحيرات لم يكن كأي ليل.
كان السكون نفسه يختبئ خلف الأشجار،
كأنه يعلم أن شيئًا ما يُحاك في الظلام.
القمر نصفه غائب،
وكأن السماء تخشى أن تُضيء المشهد.

بدأت أول الهجمات بهدوءٍ تام،
عند حدود ممرّ الياس الشرقي —
الطريق الذي أعادوه للحياة قبل أسابيع فقط.
انفجرت عربات الإمداد هناك بلا صوتٍ تقريبًا،
ثم ظهرت ظلالٌ تتحرك كالأشباح،
تزرع الخوف في العيون قبل أن تزرع النار في الأرض.

صرخ أحد الحراس:

"العدو في الداخل! لا أحد يعلم من أين دخلوا!"

أُشعلت المشاعل في الممرات،
لكن الضوء لم يُظهر سوى الضباب...
وضباب المشرق ليس ضبابًا عاديًا؛
إنه ستارٌ وُلد مع لعنة فان القديمة،
يعود الآن مع رجاله الذين لم يموتوا كما ظنّوا.

⊡

في قلب البحيرات،
كان أنطونيوس يقف أمام خريطةٍ ضخمة،
كل خيطٍ فيها يمثل طريقًا أو ممراً سريًا.
بينما كان يوهان يجلس بجانبه، كتفه لا يزال ملفوفًا بالعلاج،
وعيناه مشتعلة بلهيبٍ لا يخمد.

قال أنطونيوس بصوتٍ خافت:

"إنهم يعرفون طرقنا يا يوهان،
أحدهم من الداخل يرشدهم...
لا يضربون صدفةً، بل بعقلٍ يعرف الأرض كما نعرفها."

أجابه يوهان وهو يضغط على قبضته:

"جيش الظل... مخلوق أوغسطين الجديد.
لن أسمح أن تتكرر مأساة فان."

⊡

كانت الليلة التالية أكثر رعبًا.
الظلال هاجمت مواقع الحراسة العليا.
أشعلوا النار في الخنادق،
ثم انسحبوا كما لو أن الرياح حملتهم بعيدًا.

لكن البحيرات لم تعد كما كانت.
هذه المرة، كان ثيودور مستيقظًا،
وبجانبه الكفيف ورومان،
يتتبعون حركة الطائر ذي العيون الحمراء في السماء.

كان الطائر يحلّق على ارتفاعٍ منخفض،
ثم يغيّر مساره فجأة،
فيصرخ الكفيف:

"من الجهة الغربية! الطريق الرابع!
إنهم هناك!"

تهتز الأجراس،
وتنطلق الكتائب الصغيرة نحو الجهة المحددة.
لم تمر دقائق حتى انقلبت الكفة —
الظل أصبح مطاردًا بدل أن يكون صيادًا.

وسط الفوضى،
أحد رجال أنطونيوس يصرخ:

"لقد أمسكنا بهم!
ليسوا أشباحًا... بل رجال،
عليهم وشم الصقر الأسود، شعار أوغسطين!"

⊡

لكن النصر لم يدم طويلًا.
بعد ثلاث ليالٍ فقط،
عادت الهجمات من الجهة الجنوبية،
حيث لا أحد يظن أن أحدًا يعرف الطريق إليها.
قُطعت الإمدادات مجددًا،
وسقط عدد من الجنود في كمائن غادرة.

أنطونيوس لم ينهزم،
بل ابتسم وهو يقرأ رسالةٍ جديدة من مهربان:

"اقتربتُ من الحدود الشمالية...
ومعي من الرجال من لا يخشون الموت،
سنصل قبل أن يغيب القمر الثالث."

حين قرأها، رفع رأسه وقال ليوهان:

"إذا كانت الظلال لهم،
فالنور هذه المرة لنا."

⊡

في الليلة التالية،
أمر ثيودور بتفعيل رموز المخطوطة،
التي لم يستخدمها منذ المعركة الأخيرة.
حروفٌ تتوهج على الجدران،
وأصوات الطائر تعلو مع الرياح.
وعندما دوّى أول صراخٍ في الغابة،
أدرك الجميع أن الطائر عاد —
ليس ليحذر، بل ليصطاد.

الظل يُضرب بالظل،
والبحيرات تردّ بالسكوت،
والسماء تمطر نارًا خفيفة كأنها دموعٌ من الرماد.

⊡

في النهاية،
انسحب جيش الظل بعدما خسر الكثير من رجاله،
لكنهم تركوا خلفهم جدرانًا مكتوبة بالرموز،
رسالةٌ غامضة، بلغةٍ لا يقرأها إلا ثيودور:

"النور لا يطفئ الظلال،
بل يولدها من جديد..."

تبادل ثيودور وأنطونيوس النظرات،
كأنهما يفهمان ما وراء الكلام —
أن المعركة القادمة ليست مع جيشٍ من رجال،
بل مع شيءٍ أكبر

الطائر والنار في العتمة"

لم يكن الليل تلك الليلة عاديًا.
الريح تعصف من جهة الشرق،
وصوت الأشجار كأنها تئن من وطأة ما سيحدث.
السماء مغلقة بالسحب، والظلام كأنه كائن حيّ يتنفس بين الصخور والممرات.

في قلب المعسكر، جلس أنطونيوس ويوهان وثيودور حول خريطةٍ مضاءة بشعلةٍ صغيرة.
الوجوه منهكة، والأجساد تترنح بين الجراح والتعب،
لكن العيون — تلك العيون وحدها — كانت مشتعلة.

قال أنطونيوس بصوتٍ خافتٍ متوتر:

"لا منتصر بعد... هم هناك، قريبون منا.
نسمع وقع أقدامهم، نرى ظلالهم بين الأشجار.
كأن الظلام نفسه أصبح سلاحهم."

يوهان ضغط على سيفه وغمغم:

"لم نولد لنهرب،
حتى لو صار الليل جيشًا في صفهم."

أما ثيودور، فكان صامتًا كالعادة.
عيناه تتبعان الطائر ذو العيون الحمراء وهو يدور فوق رؤوسهم.
تغيرت حركاته — لم تعد طمأنينة كما كانت،
بل تحذير صامت، كأنه ينذر بما سيأتي.

⊡

في الجهة المقابلة،
رجال جيش الظل يزحفون عبر الممرات القديمة.

وجوههم مطلية بالسواد، لا يُرى منهم سوى العيون.
كل خطوة محسوبة، كل همسة تُبتلعها الريح.
لكنهم لم يعلموا أن السماء نفسها أصبحت عينًا تراقبهم.

الطائر، من أعلى، كان يتحرك بدوائر متقاطعة،
كأنه يرسم رموزًا غير مرئية على الهواء.
وفي اللحظة التي رفع فيها ثيودور رأسه،
أضاءت المخطوطة التي بجانبه بخطوطٍ حمراء متوهجة.
قرأها بصوتٍ خافت:

"حين يدور الطائر ثلاثًا ثم يصمت... النار ستولد من الحجر."

⊡

في تلك اللحظة،
تغير كل شيء.
من قلب الممر، انطلقت شرارةٌ صغيرة —
لامست أحد الحجارة المبللة،
فتحولت الأرض كلها إلى وهجٍ من النيران الصامتة،
نيرانٌ لا تُصدر صوتًا،
لكنها تحرق كل ما يمر فوقها.

تراجع رجال الظل وسط صرخات مكتومة،
والسماء بدأت تمطر رمادًا لا مطرًا.
فجأة، دوى صوت البوق من بعيد —
بوقٌ ضخم قادم من جهة الشمال.

أنطونيوس رفع رأسه،
ابتسم لأول مرة منذ أيام وقال:

"هذا صوته... مهربان!"

⊡

اندفع الفرسان من بين الجبال،
رجال مهربان بوجوهٍ داكنة، وسيوفٍ لامعة كالبرق.
كانوا خمسين فارسًا فقط،
لكن وقعهم جعل الأرض ترتجف كأن جيشًا بأكمله عاد من تحت الرماد.

صوت مهربان يعلو فوق هدير الرياح:

"أيها الرجال! من ترك الحرب يموت مرتين!"

اصطدمت الكتائب وسط العاصفة،
الليل احمرّ بلون النيران،
والسيوف تتقاطع كأنها شرارات برقٍ أرضي.
يوهان قاتل رغم جراحه،

ورومان يمدّ له السهام ويعيد تعبئة القسيّ بيدين مرتعشتين.
أنطونيوس يقود بنفسه الهجوم الجانبي،
وثيودور يرفع يده ممسكًا بالمخطوطة كأنها راية نورٍ في هذا الظلام.

⊡

لكن ما يميز تلك الليلة
أنها لم تشهد نصرًا ولا هزيمة.
كانت ليلة توازن النار.
كل هجومٍ يُقابَل بردٍّ مماثل،
كل دمٍ يُراق يُقابله دم،
حتى صار الميدان نفسه لا يعرف من أي جهةٍ تأتي الصرخات.

مهربان يقاتل كالأسد،
وجهه يلمع بالعرق والدم معًا،
وعيناه تلمعان كجمرتين.
أحد جنود الظل يهجم عليه من الخلف،
لكن الطائر ذو العيون الحمراء يهبط كالسهم،
يضرب الجندي بمخالبه،
ثم يختفي في السواد من جديد.

أنطونيوس يصرخ وسط الجلبة:

"اثبتوا! الطائر معنا، لن نخسر ما دامت السماء لم تنطفئ!"

⊡

حين بزغ أول ضوءٍ من الفجر،
كانت الأرض ممتلئة بالرماد والجثث والدخان.
الهواء ثقيل، والرائحة خليط من الحديد والتراب والنار.
وقف أنطونيوس ومهربان جنبًا إلى جنب،
ويوهان خلفهم، جريح لكنه واقف.

قال مهربان بصوتٍ منهك:

"لم ننتصر، لكننا لم نسقط."

أجابه ثيودور وهو ينظر إلى المخطوطة المضيئة بخطٍ جديدٍ لم يره من قبل:

"أحيانًا... البقاء فقط هو النصر الحقيقي."

ثم نظر الجميع إلى الطائر،
كان يحلّق ببطءٍ شديد فوقهم،
ثم انطلق نحو المشرق،
كأنه يرشدهم إلى المعركة القادمة.

وهكذا...

انتهت ليلة النار الثانية،
التي لم يُعرف فيها من فاز ومن خسر،
لكنها كانت الليلة التي فهمت فيها البحيرات
أن الحرب القادمة لن تكون حرب سيوف... بل حرب مصير

الخطة الخبيثة وميلاد الحصار"

كان الفجر رمادياً على غير عادته،
شمسٌ باهتة تشق الضباب بكسلٍ كأنها مترددة في أن تشرق على يومٍ كهذا.
في معسكر المشرق، جلس ماري، القائد المؤقت الذي أوفده أوغسطين لترميم ما خلفه فان،
لكن ملامحه لم توحِ أبداً برجلٍ يسعى للترميم،
بل برجلٍ يحفر في الأرض طريقاً مظلماً لجحيمٍ جديد.

⊡

مع أول خيوط الضوء، أرسل ماري مبعوثه إلى أوغسطين.
الرسالة مختومة بخاتمٍ ذهبي عليه نقش "عين المشرق"،
تحمل في ظاهرها خبراً مفرحاً، وفي باطنها مؤامرة سوداء:

"تم القضاء على مجموعةٍ من الغوغائيين،
يحملون علامة النسْر الأسود — شعار فان القديم.
هم فلول تمردت، وجب علينا إبادتهم.
الأرض الآن نظيفة، والطرق آمنة."

أوغسطين، في ديره الكبير، قرأ الرسالة وابتسم ابتسامة خفيفة،
كأنها تُخفي أكثر مما تُظهر.
ثم كتب رداً بيده المرتعشة التي لطالما وقّعت قراراتٍ أشعلت الحروب:

"أحسنت يا ماري، ارسل لهم نفس الصيغه
وتابع التطهير... وقرّب القلوب.
لا نريد دماءً بعد الآن، فقط الولاء
اخبرهم ان هذه رسالتى لك وافعل الصحيح."

لكن ماري قرأ الرسالة وهو يضحك،
وقال لمساعده بصوتٍ منخفض:

"الولاء؟ الولاء الحقيقي سيولد الليلة،
من رماد البحيرات نفسها."

⊡

بدأ ماري تنفيذ خطته المزدوجة.
أرسل إلى أنطونيوس قائد البحيرات رسالةً لطيفة،
تحمل وعود السلام والتعاون:

"طرق المشرق آمنة الآن،
فلترسلوا جنودكم لحراسة الممرات وفتحها أمام القوافل القادمة.

الناس تحتاج أن ترى أن البحيرات بيتٌ آمن،
لا ساحة حرب كما يشيع البعض."

وفي الوقت نفسه،
أمر ماري سرا رجاله بالتحرك تحت جنح الليل،
لإقامة طوقٍ من الحصار حول البحيرات.
كتيبتان من الشرق،
وثالثة من الجنوب تتسلل بين الأشجار والمستنقعات.
كانت الأوامر واضحة:

"لا تقاتلوا بعد... فقط أغلقوا الدوائر."

الهدف كان محكماً:
أن تُخنق البحيرات دون طلقة واحدة،
حتى يأتي جيش الظل من الجهة الغربية،
ويُطبق كما الفكين على فريسةٍ تتنفس آخر أنفاسها.

⊡

وفي المساء نفسه،
وصل إلى ثيودور رسول من أوغسطين يحمل تعزية رسمية:

"باسم الكنيسة الكبرى،
نُعزيكم فيمن فقدتم،
ونستنكر ما فعله الغوغائيون الذين نسبوا أنفسهم للكنيسة زوراً.
سيطهر ماري الأرض منهم،
والكنيسة تدعوكم للهدوء والسكينة."

قرأ ثيودور الرسالة بصمتٍ عميق،
بينما الطائر ذو العيون الحمراء كان يدور فوقه ببطءٍ غير مطمئن.
رفع رأسه وقال بصوتٍ مبحوح:

"حين يُكثِرون الكلام عن السلام...
اعلم أن الحرب تقترب."

⊡

وفي الجهة الجنوبية من البحيرات،
كان مهربان يعاين التحركات بعين الجندي الخبير.
رأى الضوء المتكرر في أعالي التلال،
رموز الإشارات القديمة التي لا يعرفها إلا رجال الحرب.
اقترب من أنطونيوس وقال له:

"هم لا يحرسون الطريق... إنهم يغلقونه."

ثم أضاف بنبرةٍ حادة:

"لكنني لن أترككم وحدكم،
أرسلت رسولاً إلى عائلتي...
ومعهم خمسون من أمهر جنودي،
سيصلون خلال أيام من مملكة الأفيال.
جاؤوا من أجل التجارة والاستقرار،
لكنهم سيحملون السلاح إن اضطررنا."

أنطونيوس أمسك بيده بقوة وقال:

"مرحبا بهم في أرض الشمس،
فلتكن البحيرات آخر ما يبتلعه هذا الليل."

⊡

في تلك الليلة،
كانت الرياح تزمجر من بعيد،
والسماء تبرق بلا مطر.
في الأفق، ارتفعت أعمدة دخانٍ صغيرة متفرقة،
كأنها تحذير من نيرانٍ أكبر قادمة.
أمسك ثيودور بالمخطوطة التي كانت تهتز بخطوطٍ جديدة،
والطائر حط على كتفه بعينين تتقدان بالحمرة.

قال الكفيف وهو يقرأ الرموز بخوفٍ مكتوم:

"لقد بدأت اللعبة الخفية...
البحيرات ليست وحدها بعد الآن،
لكن العدو صار أقرب من أي وقتٍ مضى.

- [ ] الفصل الثامن: الرساله الماكره

في الساعات الأولى من الصباح التالي، وصلت إلى يد أنطونيوس رسالةٌ جديدة من ماري — مختومة بخاتم المشرق، مكتوبة بلغة رسميةٍ صارمة لا تخلو من برودة المقصود. مفادها باختصارٍ صادمٍ ومقنع:

«تم القضاء على مجموعةٍ مسلحةٍ كانت تتحرك من جهة البحيرات. عرفناهم من علاماتهم — صقرٌ أسود — هم فلولٌ عنيفةٌ انحاز لها فان سابقاً. المكان الآن تحت مراقبتنا، طرق المشرق كلها مؤمّنة بفرقنا. لغاياتٍ تنظيمية فتحتُ منفذاً واحداً فقط: الجنوب. احفظوا الحشود وأعلنوا أن الطرق آمنة.»

كان في الرسالة ما يكفي من ثقةٍ رسميةٍ ليقنع التجّار السذج، وما يكفي من خفاءٍ ليخيف العارفين: ماري لا يعلن الحرب صراحة، بل يهيئ لها قاعدةً إعلاميةً قبل ضربةٍ فعلية.

أنطونيوس قرأ الرسالة مرتين. من جانبه أعاد توزيع الحراسات وأمر بتمشيطٍ مكثفٍ على المحاور الشمالية والشرقية؛ لكنه شعر بالمؤامرة تلوح في الكلام: إغلاقٌ شكلي للبعض وفتحٌ مقصود للجنوب، ذلك المدخل الذي سيصبح فخّاً لجيش الظلّ.

وهكذا بدأ نمط الهجوم الذي أراده ماري — ليس تصعيداً مفتوحاً بل إيقاع حربٍ مُرهق:

- أسبوعٌ بعد أسبوع، على مدى أربعة أسابيع، كانت ضربات جيش الظلّ تأتي وفق إيقاعٍ متعمّد: يوم هجومٍ عنيف يليه يومان من التراجع والتجهّز، ثم يومان آخران من هجومٍ مباغت أعنف، وبعدها فترةُ راحةٍ قصيرة لإعادة الانتشار.

- هذا الإيقاع المضنّي جعل الردّ التقليدي صعباً: هل تُدافع بقوّة كبيرة فتنهكها كمائنهم؟ أم تُبقي وحدات متنقلة فتفقد الخطوط الثابتة؟

في اليوم الذي فتحت فيه القوافل الجنوبية الطريق وراحت تدخل البحيرات ظنّاً منها أن الأمان عاد، كانت المطبّات معدّة: فرق الظلّ استغلت لحظة التجمعات، فهاجمت نقاط الإمداد، أحرقت عرباتٍ، قطعت خط الإمداد، تغلّبت على حراسٍ هنا وهناك. النتائج كانت سريعة ودامية: خسائر في الرجال، أسرٌ لبعض الحراس، وتوقّف قوافلٌ جديدة عن التقدّم. الأخبار انتشرت كالنار: «البحيرات لم تعد آمِنة».

ومع تكرار الضربات ونجاح بعضها في قلب موازين الإمداد، تكاثرت الشائعات؛ بعض القرويين تكلّموا عن «لعنةٍ» أصابت المكان بعدما رأوا الطائر يحلّق عالياً قبل كل هجوم، والبعض شدّد على أن توقيت الهجمات يُظهر تنسيقاً داخلياً — أن هناك من يعرف الطرق السرية للبحيرات ويُرشّ الرماة في الظلّ.

ردّ أنطونيوس لم يتأخر: وحداتُ استطلاعٍ ليلية مكثفة، فرقُ تعبئةٍ سريعة، وفرقُ إغارة صغيرة تختبئ وتعمل على تعطيل خطوط العدو قبل أن يستقرّ. مهربان أرسل خمسينَ مهناً من مقاتليه ليعززوا نقاط الضعف، وثيودور راجع المخطوطة بحثاً عن علامةٍ أو رمزٍ يكشف توقيت الهجمات. لكنّ الخسائر كانت تُسجل، ومع كل تسجيلٍ يزيد همس الناس: «لم تعُد البحيرات كما كانت».

النتيجة في نهاية الأسابيع الأربعة كانت مزدوجة: ماري لم ينجح في احتواء البحيرات أو تدميرها، لكنه نجح في خلق حالةٍ من الاستنزاف والقلق — وإظهاره كقائدٍ قادرٍ على فرض «أمنٍ ظاهري» عبر فتح طريق واحد وإعلان السلام. أنطونيوس ومن بقي من قواه أحكموا دفاعهم تدريجياً، لكن الرسالة الأخطر بقيت معلّقة في الهواء: من داخل البحيرات مَن يعرف الطرق السرية؟ ومن الذي يسهل هذا الاختراق؟ ومن الذي يريد حقّاً أن يظلم هذه الأرض باسم «التنظيف»

اجتمعوا في خيمة القيادة عند منتصف الليل — ضوء فانوسٍ واحد يخترق دخان الحطب، والخرائط مفروشة فوق الطاولة، والوجوه متعبة لكن حادة التركيز. أنطونيوس جلس على رأس الطاولة، ومهربان بجانبه، وثيودور واقفًا بالقرب من المخطوطة، ويوهان يدخل من الباب وقد علت ملامحه علامات التعب وعيونُه تحمل خبرة الكشّافين.

بدأ الاجتماع بصمتٍ قصير، ثم قال أنطونيوس بصوتٍ منخفضٍ حادّ:
«الهجمات تتكرر على نفس المحاور. هناك من يعرف طرقنا السرية، ومن يفتح أبواب الخطة من داخلنا. لا بدّ أن نكشفه قبل أن يفتحوا الفخّ النهائي.»

عرضت فرق الاستطلاع تقاريرها: علامات أقدامٍ غريبة، إشارات عمودية على الأشجار كأنها علامات مرورٍ قديمة، ومسارٌ واحدٌ متكرر عند حافة المستنقع — المسار الذي استُخدم لمرور قوافل جنوبية بالأمس. قال واحدٌ من كشافِي يوهان: «رأيت رجلاً بين القوافل يتحدث بصمت مع قائد إحدى العوائل التجارية. له علامةٌ صغيرة على معطفه، لا تظهر إلا من قرب. لم يبدو رجلاً من هنا.»

ثيودور وضع يده على المخطوطة، ثم رفع رأسه ببطء:
«الطائر لم يصرخ الليلة الماضية بلا سبب. يلتفّ على من يلفّون الطريق من الداخل. سيمرّ على من يفعلون الخيانة قبل أن يفعلوا.»

أُطلق الطائر — هبط فجأة على إطار الخيمة، عيناه الحمراوان تشعّان في الضوء الخافت. كان صمتُه أكثر إخبارًا من كلام الرجال. نظر ثيودور في العيون، ثم قال: «هو دلّنا عليه الليلة الماضية. الطائر اختار ذلك الممر عند القافلة، وها قد رجع.»

أمر أنطونيوس بهدوءٍ مدوٍ: «أحضِروا كل الذين دخلوا مع القافلة؛ لا عنفٌ في اللحظة الأولى. سنجري فحصًا، وسنمنح القريبين فرصة الردّ. الخائن يُحبّ التهور؛ سيُظهِر عصبيته لو سألوه أمام رفاقه.»

أُحضِر الرجل — تاجرٌ وسيمُ الوجه، لكنّ عينيه تتفلّزان بالذعر. لم تكن علامةُ النسْر الأسود بين يديه، لكنه تلعثم عندما سُئل عن مساره ثلاث مرات متتالية. يوهان ركّزَ نظره عليه، ثم لامسَ خيطًا على معطف الرجل: خيطٌ صغير من لونٍ غريبٍ كان يُستخدم كوسيلةٍ لتمييزِ رجالٍ معينين في مملكةٍ بعيدة.

اندفع أحد الجنود: «هو هو! رأيناه يُشير لواحدٍ من الحرس ليلة الهجوم!»

تجمّع الرجال، وأخذوا الرجل بهدوءٍ لكن بحزم. في الخيمة بقي السؤال كبيرًا: من أرسله؟ وكيفية العمل؟

لم يضيعوا وقتًا. خطط أنطونيوس ومهربان لليلةٍ مزدوجة: نصفٌ من الرجال سيحاصرون المخيم الجنوبي — المكان الوحيد المتروك مفتوحًا من قبل ماري — ونصفٌ آخر سيستدرجون من خلال فخ مبطنٍ بمعلوماتٍ زائفة تُسرّب عن طريق الرجل الذي أُمسك به. ثيودور أعدّ طقوسَ رموزٍ سريعةٍ تُعين الطائر على تحديد نقطة التجمع؛ يوهان وضع خطّة وحدات الاقتحام الخفيفة والممرّات الخفية التي يعرفها من عمله السابق.

حين حان المساء، قُدّم الرجل للمواجهة. في وجهه الشاحب قابلَتْه نظراتٌ متلاحقة؛ حين ذكروا اسمَ العائلة التجارية التي كان يتعامل معها، تلعثم، وعند ضغطٍ خفيفٍ منهارًا اعترف: «أرسَلوني.. قالوا سيُدفع لأسرتي ما يكفي لسنوات.. قالوا إن ماري يريد تسهيل مرور القوافل.. لم أكن أعلم أنهم سيهاجمون رجالكم.»

لم يكن اعترافه إلا المفتاح: أشار إلى اسمِ قائدٍ فرعيّ في غربي المخيمات، ذكر موقعًا وقرب البركة الصغيرة التي تخدم المخيم الجنوبي. عندها ابتسم مهربان بمرارةٍ وحذّر: «هنا الخطر الحقيقي. إن أمسكناه مبكرًا، فكّ الحصار على البحيرات يبدأ.»

انطلقت العملية في منتصف الليل — دقيقةٌ مرتّبة كصفٍ حربي:

- وحدات الاستدراج بدأت بإشعال نارٍ صغيرة على الممرّ الواضح، سمعها من في المخيم فظنّوا أن القافلة قد حشدت هناك.
- في الوقت نفسه، زحفت فرقٌ خفية عبر ممرّاتٍ عرفها يوهان بصمتٍ مُذهل.
- الطائر دار فوق المخيم، كأنه يرشد خط الاجتياح؛ صرخته الأولى كانت إشارة الانقضاض.

المواجهة كانت قصيرة لكنها حاسمة. مفارزُ جيش الظلّ، التي اعتادت الظلال والكمائن، فُوجئت بوجود رجالٍ متخفّين في ظلالٍ لا تتوقعهم: مهربان يقود صولةً خاطفةً عبر خطّ النار، وأنطونيوس يقطع طريق الفرار، ويوهان يلتقط الرماة الذين حاولوا إعادة تنظيم صفوفهم. داخل المخيم، اشتعلت الحرائق، وبدت رعب وجوههم مكشوفة للمرة الأولى.

بعد ساعاتٍ من القتال، تمّ القضاء عمليًا على الحامية الجنوبية: القادة الأسرى، المخابئ مدمّرة، معرضُ السلاح محروَق أو مُمسَك. قوةُ الحصار الرئيسة — ذلك القُطْع الجنوبي المفتوح الذي كان يُغلق الطرق — تلاشت، وتحوّل الخطر إلى فوضى وفرار.

عند الفجر، وقف أنطونيوس ومهربان وثيودور ويوهان على تلةٍ تطلّ على ما تبقى من المخيم الجنوبي: دخانٌ يتلوّى في الصباح، وأجسادٌ مُعدّةٍ للدفن؛ لكن الأهم كان الصمت الجديد الذي حلّ على الممرّات: طرق البحيرات لم تعد محاصرة من هذا الجانب.

أنطونيوس نَفَس بعمق، وقال بصوتٍ جافّ: «دُمّرت فتيلتهم. الجنوب— انتهى.»
مهربان مرّر يده على جبهةٍ دامية: «لكنهم كانوا جزءاً من شبكةٍ أكبر. الماري الذي يصدّق نفسه ذكيًا سيعيد المحاولات. لم نفكك الرأس بعد.»

ثيودور أغمض عينيه للحظة، ثم نطق: «أزلنا الظلّ عن الجنوب، افتتحنا طريقًا واحدًا. الآن واجبنا أن نغلق كلّ المنافذ؛ من دخل منهم سيُقبَض عليه. المخطوطة تعطي خططًا للسدّ، وسأبدأ العمل عليها فورًا.»

في المساء نفسه، أُطلق خبرٌ مختصر: «الطريق الجنوبي محطّم، المحاولة فشلت، البحيرات تنقذ نفسها اليوم.» لكن الاحتفال لم يعلُ؛ لأن الحرب لم تنتهِ، والخيانة لم تُمحَ الجذور.

انتهت الليلة بوقفةٍ هادئةٍ على حافة النصر المؤقت: البحيرات استنشقَت هواءها من جديد، لكن كل واحدٍ منهم عرف أنّ المعركة القادمة ستكون أكثر خُبثًا، وأنّ الخائن قد يكون تحت قُبّةٍ يظنونها صديقة

الفصل التاسع

«القضاء على جواسيس ماري»

جلست الخيمة كأنها قلبٌ نابضٌ في منتصف الليل؛ نور فوانيس خافتة يرسم وجوهاً مشدودة، والخرائط ممتدة كخرائط جراح. فوق الجميع، بدا الطائر — الحدأة — وكأنه شاهدُ اللهب الوحيد: عيناه الحمراوان تلمعان، وصوته يتردد كناقوس إنذار.

ثيودور أمسك بالمخطوطة وقد ارتعشت صفحتها بين أصابعه. كانت الرموز التي حفظها منذ شهور تنبض الليلة بمعنى جديد — حروف متقاطعة، دوائرٍ داخل دوائر، وخطوطٌ تُشير إلى ممراتٍ مدفونة. بجانبه، الكفيف يقرأ بصوته الخافت، يحلل المعاني القديمة كما لو أنّه يفقهها منذ زمانٍ بعيد. رومان، الذي حمل في قلبه أثر ماركوس وذكرياته، أمسك ببقايا من حبلٍ أو شارةٍ صغيرة عثر عليها في مخيمٍ قديم — قطعةٌ بسيطة لكنها كافية لربط الخيط.

«الرمز هنا»، قال الكفيف وهو يشير بإصبعه المرتعش إلى دائرةٍ محرّكة، «هذا يعني: علامةُ المرور الداخلي. من يحملها يعرف الممرّات والرموز. إن هم حملوا الخيط الأزرق — فهم مشاركون في الشبكة.»

ثيودور رفع رأسه، وعيناه كاسرتان للنور: «الطائر لم يصرخ إلا عندما عبر أحدهم هذه النقطة. لقد دلّنا عليه — ومن دلّ، دلّ على رفاقه.»

هكذا بدأت عملية التعرّف. رسائل مخطوطة تمثلت على قطعة قماشٍ صغيرة، وخيوطٌ ملطخةٌ بالغبار، وأحجارٌ صغيرةٌ نُقِشَت عليها علاماتٌ كانت تُستعمل سابقًا لتعليم طرق الغربية. كل شيءٍ قادهم إلى ثلاثة أسماءٍ متداخلة: تاجرٌ وسيمٌ دخل معهم، قاطع طريقٍ سابق تظاهر بالتحول، وحارسٌ من جنود المشرق كان يظن الناس أنه رفيقٌ أمين.

الاقتحام الأول جاء بهدوءٍ كامل. في منتصف الليل خرجت فرق هجومية صغيرةٌ تحت إرشاد يوهان، وزحفت عبر الممرات التي أوضحها الثنائي — ثيودور والكفيف — بينما الطائر يحلق فوقهم، يقطع الظلام بصياحه الحاد. لم تكن هناك تسريحاتٍ أو ضجيجٌ مَرَضي؛ كانت حركةٌ دقيقة، تلميحٌ إلى أن الحرب قد أغفلها العدو.

القبض تمّ بسرعة. أحد الجواسيس حاول الركض، لكنه صرخ الطائر فوق رأسه فتوقف الجري في عينيه: الخوفُ من عيونٍ لا ترى إلا بالحمرة أقوى مما كانت يداه توثقان. في الخيمة الكبرى، اجتمعوا بهم — الرجال الثلاثة، متكاثرون في صفوفٍ طويلة، يرتعشون، يحدقون في وجوه الذين عرفوهم يوماً كجيرانٍ أو تجارٍ.

سؤالٌ واحدٌ قصيرٌ، ثم انكشافٌ طويل: الجاسوس تلعثم أولاً، ثم انهار واعترف. اعترف باسماءٍ، بمواقعٍ، بكيف حملوا رموز الصقر الأسود وأين خبّأوا سلاسل الرسائل. رومان أدار الورق أمام أنطونيوس؛ خيطٌ صغيرٌ برز على أحد المعاطف — نفس الخيط الذي وُجد في المخيم الجنوبي. ربطوا الخيطة بالدليل.

حينما صار الدليل واضحًا، ارتفعت يد مهربان؛ لم يبِتْ غضبه. روحه كانت بمثابة سيفٍ مُشتعل: لقد فقد رجالاً، ورأى وجوه الأقرباء تحت الرماد، فلم تُعد لديه رحمة للخيانات التي تقتل العشيرة من الداخل. أُحضر الخائن إلى ساحة الخيمة حيث اقتربت وجوه الرجال المتعبة، حيث كانت العيون منتبهة، والصمت جائعًا للكلمة.

مهربان لم يتهرب من القرار. وقف أمام الجميع وصاح بصوتٍ يجمع حشداً من الألم والعدالة: «من يبيع أخاه بالفضة، لا يستحق أن يعيش بيننا.»
لم تكن هناك محاكمة طويلة — كان الدليل قاطعًا والاعتراف واضحًا. أمرٌ واحدٌ أطلقه مهربان، وسيفه المسنّ لمع تحت ضوء الفانوس.

نفّذت العقوبة بسرعةٍ موجعة لكن بلا مشاهدٍ مروعة. قطع الرأس — كما تريد شريعةُ زمنٍ قاسٍ — تم بطريقةٍ سريعةٍ وحاسمة، بعيدًا عن أي وصفٍ دامٍ. لم يمتدّ المشهد إلى تفصيلاتٍ بذيئة؛ كانت النهاية إعلاناً صارخاً: الخيانة لا تمرّ دون ثمن. صرخاتٌ منخفضة، وأنفاسٌ محبطة، ثم ساد الصمت.

لكن مهربان لم يكتفِ بهذا. جمع بعض رجاله من الذين ثبت تورطهم وقيّدهم؛ كانوا أقلّ حظًا من الرجل الذي أعدم. نُهضوا وأُصفِدوا، وجُهّزوا للسفر — ليس لدفن ولا لصفح، بل لعرضهم على ماري، للقائد المؤقت الذي ظنّ نفسه لاعباً في صفه. كانت رسالةٌ واضحة تُسلم مرفقةً بالرؤوس والرُقع: «هذه ثمن الخيانة، وستُقدمون الحساب.»

طوال الليل، ثيودور والكفيف يعيدان قراءة الصفحات، يفكّان رموزًا إضافيةً تُشير إلى أسماءٍ أخرى ومواقعٍ أبعد. رومان يعيد ترتيب قطع ماركوس الصغيرة كخطوةٍ أخيرة لإغلاق الحلقة: كل دليلٍ كان يجمعه ماركوس قبل موته صار اليوم سلاحًا لرد العدوان.

مع فجرٍ باهتٍ، وقفوا على تلّة صغيرة يطلّون على المعسكرات الممزقة: جنوبٌ أُفشل، بعض قوافلٍ عادت، ونفوسٌ أقلّ رهبة.
أنطونيوس التفت إلى مهربان وقال: «قدّمنا رسالةً لماري. ليعلم أنه لن يجد عذرًا أو ممرًا إلى قلبنا.» مهربان أجاب بصوتٍ أملَسه الحزن: «ليعلم الجميع أن من خان لا يحيا بيننا مرتاحًا.»

النهار الجديد لم يكن انتصارًا مطلقًا، لكنه كان بدايةً لصفحةٍ أخرى: الصفقة الداخلية تمّت، الوشاية انتهت، والمسارات المجهولة أُغلقت جزءًا فجزءًا. المخطوطة أعطت ثيودور ما يكفي ليعيد ترتيب السدود الرمزية، والطائر — الحدأة — ظلّ يحوم كرمزٍ يقظٍ فوق البحيرات: حارسًا وصارخًا لكل من يفكّر في خيانتهم.

وفي آخر السطور، حين تُجهّز القافلة الأولى للسفر نحو رأس الوادي، قُيّد الأسرى، وحُمِلت رسالتهم إلى حيث يقيم ماري الآن: رسالةٌ من دمٍ ونار، تقول بلغةٍ لا تقبل الشكّ — لقد اكتشفوكم، وقد تمّ قَطْعُ عُنقٍ من باعكم

الفصل العاشر

«لقاء رأس الوادي – إنكار الظل»

كان الصباح باهت الضوء، والريح تسوق رائحة الحديد والرماد من جهة الجنوب.
تحرّكت القافلة التي تحمل الأسرى، مقيدةً بالأغلال، نحو رأس الوادي — تلك النقطة التي تلتقي عندها طرق المشرق القديمة بحدود أرض البحيرات.
خلفهم كانت العيون تتابعهم من الأبراج، والطيور تدور في دوائر واسعة كأنها تنتظر نذيرًا جديدًا.

لكن المفاجأة الكبرى لم تكن في القافلة، بل في قرار أنطونيوس ومهربان.
في فجر اليوم الثالث بعد كشف الخونة، غادرا المعسكر سراً ومعهما سبعة من الحرس، يرافقهم رسولٌ رسميّ يحمل ختم البحيرات وختم القضاء الثلاثي.
الهدف كان واحدًا: لقاء ماري — القائد المؤقت للمشرق، الرجل الذي بدأ الجميع يشكّون في أنه الرأس الحقيقي لخيوط الفوضى.

⊡

الطريق إلى رأس الوادي

كانت الطريق طويلة، محاطةٌ بجبالٍ رماديةٍ ووديانٍ مليئةٍ بالضباب.
أنطونيوس سار أمامهم بخطى ثابتة، ووجهه مغطّى بغطاءٍ رماديٍّ يخفف من أثر الشمس، بينما مهربان يراقب الأفق بعينيه السوداوين، كأنهما مرآتان للغيوم الثقيلة التي تراكمت فوق المكان.
لم يكن في القافلة حديثٌ إلا عن هذا اللقاء المنتظر، وعن ما إذا كان ماري سيجرؤ على الإنكار بعد أن وصلته رسالة الخيانة ممهورةً برموز ثيودور والطائر الأحمر.

حين وصلوا إلى رأس الوادي، كان معسكر ماري ينتظرهم؛ خيامٌ مرتبة بعنايةٍ عسكريةٍ، أعلام المشرق ترفرف فوقها، وجنوده يقفون كأنهم منقوشون في الحجر.
خرج ماري بنفسه لاستقبالهم — رجلٌ طويل، شعره الفضيّ مربوطٌ إلى الخلف، يرتدي درعًا نظيفًا أكثر مما ينبغي في زمن حربٍ مليءٍ بالطين.

رفع يده بتحيةٍ رسمية وقال بصوتٍ هادئٍ يشبه صفير الريح:

«قائد أنطونيوس... مهربان العظيم... شرفٌ أن أستقبلكما في أرضٍ ليست حربًا بعد.»

⊡

اللقاء داخل خيمة القائد

دخلوا جميعًا إلى خيمته الواسعة؛
في وسطها خريطة ضخمة للمشرق والبحيرات، مرسومة بدقةٍ على جلدٍ مشدود، وإلى جانبها طاولةٌ تلمع فوقها الأختام الحمراء.
جلس أنطونيوس أولاً، ووضع على الطاولة اللفافة التي تحمل ختم القضاء الثلاثي، وقال بنبرةٍ جافة:

«جئنا بخبرٍ لا يُكذّب. الجواسيس الذين دسّوا السمَّ فينا من جنودك، ومن رجالٍ يحملون شارة الصقر الأسود. بعضهم اعترف بلسانه أمام الجميع، وبعضهم مات بذنبه. نحن لم نأتِ لتهديدك، بل لإثبات الحقيقة.»

ماري ظلّ صامتاً للحظةٍ طويلة.
أخذ اللفافة بيده، فتحها بعنايةٍ شديدةٍ كمن يفتح نعشاً صغيراً، قرأ الحروف ثم أعادها مكانها بهدوءٍ مريب.
ابتسم، تلك الابتسامة الباردة التي لا تحمل معنى سوى الإنكار الكامل.

قال بصوتٍ ناعمٍ، فيه مسحةٌ من سخريةٍ:

«القائد أنطونيوس... أنتم رجال حرب، وتعلمون أن الغوغائيين يتنكرون في كل زيٍّ ليشعلوا الفتنة. من يحمل شعاري ليس بالضرورة أن يكون من جنودي.
نحن نقاتل الظل نفسه، وأحياناً يختبئ في وجوهٍ تشبهنا.
ما فعلتموه كان عملاً جليلاً، ولكن لا تربطوا اسمي بخيانةٍ لم أرها.»

مهربان ضرب بيده على الطاولة، فاهتزت الخريطة.

«إذن من أين جاؤوا بالعلامة؟! من يمدهم بالمال والسلاح؟!
لا تلعب معنا لعبة العمى يا ماري، فالخيانة رائحتها تشبه خيمتك، نظيفة أكثر من اللازم!»

اقترب أحد الحراس، لكن أنطونيوس رفع يده مانعاً الاشتباك.
ثم نظر في عيني ماري وقال:

«لو كان صدرك بريئًا كما تدّعي، أرسل معنا رجالًا من عندك للتحقيق. دعنا نرى من يزرع الظل في أرضنا.»

ابتسم ماري مرةً أخرى، نفس الابتسامة الزاحفة:

«أرض البحيرات؟ البحيرات الآن جزء من سلطتنا الكنسية، أليست كذلك؟
لا نرسل جنودنا لنتحرى أمورًا تخصنا.
لكن... سأرسل برقيةً لممثل البابا، ليطّلع على ما حدث. نحن أبناء الكنيسة، لا أعداءها.»

⊡

نهاية اللقاء

خرج أنطونيوس ومهربان من الخيمة بخطواتٍ متوترة، والغيوم فوق رأس الوادي ازدادت سوادًا.
قال مهربان بصوتٍ خافتٍ كأنما يكتم الغضب في صدره:

«هذا الرجل يُنكر لأنه يخاف من شيءٍ أكبر... جيش الظل الذي يُعده أوغسطين لم يظهر بعد، لكنه يتحرك في صمته.»

أنطونيوس ردّ دون أن ينظر إليه:

«الإنكار أقسى من الحرب.

الآن فقط تأكدت... أن الظلام قادم.»

في تلك اللحظة، طار الطائر ذو العيون الحمراء من فوقهم، دائرًا حول الرأس الجبلي ثلاث مراتٍ قبل أن يختفي في الضباب.
كان صراخه كأنه نذيرٌ جديد، يقول لهم ما لم يقله ماري بلسانه:

«الهدوء قبل العاصفة... والبحيرات في مرمى الظل.»

وهكذا انتهى لقاء رأس الوادي، بإنكارٍ هادئٍ أشدّ وقعاً من الاعتراف، وبوعدٍ خفيٍ بأنّ الحرب لم تنتهِ بعد

الفصل الحادي عشر

زيارة الأنبا أوغسطين – عودة الظل إلى النور

كان الصباح ثقيلاً على أرض البحيرات، السماء محملة بالغيوم، والريح القادمة من الشرق تحمل نَفَساً غريباً كأنها تُنذر بقدومٍ غير مألوف.
الناس في الساحة الكبيرة أمام المعبد الجديد توقفت عن العمل حين دوّى صوت الأبواق من أبراج الحراسة.
الطائر ذو العيون الحمراء حلق ثلاث دوراتٍ فوق المكان، ثم اندفع عالياً نحو الشمال... وكأنه يصرخ بالتحذير.

همس أحد الحراس وهو يركض نحو أنطونيوس:

«مرسال من الدير الكبير يا سيدي... يحمل راية الأنبا أوغسطين نفسه!»

تجمعت الوجوه المندهشة.
لم يكن أحد يتخيل أن أوغسطين — حاكم المشرق وصاحب اليد الحديدية — سيأتي بنفسه إلى أرضٍ اعتبرها يومًا موطناً للّعنة.

⊡

دخول المرسال

كان المرسال يرتدي ثوبًا أبيض مزيّنًا بختمٍ ذهبيٍّ يحمل رمز الكنيسة الأم، وفي يده لفافة مختومة بالشمع الأحمر.
ركع أمام أنطونيوس، وقرأ بصوتٍ واضحٍ يسمعه الجميع:

«باسم السلام المقدس، وبأمر من الأنبا أوغسطين،
يصل راعي المشرق بنفسه إلى أرض البحيرات المباركة،
ليشهد ميلاد عهدٍ جديدٍ بين أبناء الكنيسة،
وليطّلع بعينه على ما بُني من مجدٍ بعد سنوات النار والدم.
فاستقبلوه بسلام، كما يُستقبل الأب أبناؤه.»

سكتت الساحة لحظةً، ثم تعالت الهمسات كأنها ريحٌ تموج بين الوجوه.
أنطونيوس تبادل نظرةً مع الكفيف، ثم نظر إلى ثيودور، الذي كان جالساً بجوار المخطوطة.
لكن قبل أن ينطق أحد، جاء صوتٌ من الخلف...
صوتٌ متهدّجٌ، غاضبٌ، ممتزجٌ بألمٍ دفين:

«لن أقابله... لا أستطيع.
لقد قتل أبي، وذبح إسحاق، وأهلك سيدنا الكبير...
فكيف أمد يدي إليه بالسلام؟!»

كان يوهان، واقفاً بثوبه الأسود، عينيه تلمعان بدموعٍ مكبوتة، ويده ترتجف على مقبض سيفه القديم.

اقترب منه أنطونيوس، ووضع يده على كتفه قائلاً:

«اعلم يا يوهان أن الغضب نار، إن تركناها وحدها أحرقتنا قبل أعدائنا.
نحن لا نستقبل قاتلاً، بل نستقبل رسالة القدر نفسها.
قد يكون لقاؤه بداية نهايةٍ أخرى... أو ولادة طريقٍ جديد.»

ردّ يوهان بعينين زائغتين:

«أنا لا أرى فيه إلا الظلم والدم.
لو جاءني السلام على يديه، لأعاد لي أبي من التراب أولاً!»

تدخل الكفيف بصوتٍ واهنٍ لكنه حادّ:

«يا بني، ربما لا تُدرك أن المخطوطة لم تُكمل حروفها بعد...
لا أحد يعرف في أى وقت كتب الرب الخلاص،
قد تكون زياره اوغسطين سطرا لم نقرأه بعد "

-زيارة الظل والهيبة

كان صباح البحيرات ساكنًا، تغطيه غشاوة رمادية من ضبابٍ بارد، حين دوّى صوت الأبواق على مشارف الأرض الهادئة.
خرج الرهبان والجنود من أماكنهم، أعينهم تتسع دهشةً وريبة، فالضباب انشقّ عن موكبٍ ملكيٍّ ثقيلٍ يسير بخطواتٍ منتظمةٍ كجدارٍ متحركٍ من الحديد.
عند المقدمة، كان راية الأنبا أوغسطين ترفرف ببطءٍ فوق رمحٍ طويلٍ مرصعٍ بالفضة.
أما المرسَال، فكان يرتجف وهو يعلن الخبر الذي جمد الدم في العروق:

"الأنبا أوغسطين بنفسه... قادم إلى البحيرات."

تبدلت الملامح في لحظة.
ثيودور اكتفى بنظرةٍ صامتةٍ للطائر الذي دار في السماء بحركاتٍ متوترة.
أما يوهان، فصاح بصوتٍ مخنوقٍ بالغضب:

"لا أراه ولا أسمع صوته... قاتل أبي، قاتل إسحاق، قاتل سيدنا الكبير، لا يُقابَل بالسلام!"

لكنّ أنطونيوس وضع يده على كتفه قائلاً بهدوءٍ حازم:

"لن نغلق الأبواب في وجه عدوٍّ جاء باسم الكنيسة... سنسمع ما يقول، ثم نحكم."

وقبل أن يكتمل الحوار، كان الموكب قد وصل.
جنود أوغسطين اصطفّوا ككتلةٍ من الفولاذ، دروعهم تبرق كالمرايا، ووجوههم جامدةٌ كالصخر، لا حركة ولا همسة، كأنهم تماثيل من حديدٍ أُحييت بأمرٍ خفي.
وفي وسطهم، ظهر أوغسطين، متوشحًا برداءٍ داكنٍ يخالطه خيوطٌ من ذهبٍ باهت، وجهه لا يحمل غضبًا ولا رضى، بل مزيجًا غامضًا من الوقار والكبرياء والدهاء.

دخل إلى قاعة البحيرات بخطواتٍ واثقةٍ، دون أن ينحني أو يلتفت.
جلس أمامهم كمن يجلس على عرشه، وقال بصوتٍ عميقٍ هادئٍ يخفي وراءه بحارًا من السمّ:

"جئتكم لا بحربٍ ولا بسلام... بل بصدقٍ ونصح.
إن البحيرات أصبحت مطمعًا لكل ظلال الأرض،
ورجال فان لم يُبادوا بعد... بل انشقّوا وصاروا جيش الظل،
يعملون في الخفاء، ينهبون القوافل، ويقتلون التجار،
ويُقسمون باسمكم أنكم من أمرتم بذلك.
فان لم يمت... أو مات ففكره باقٍ.
واللعنة التي أصابته تمتدّ الآن إليكم، شيئًا فشيئًا."

ساد الصمت.
حتى المطر توقف وكأنه يُصغي.
رفع أوغسطين يده قليلاً، فتقدمت فرقة من جنوده في صفٍ واحدٍ مهيبٍ، دروعهم تصدر خشخشةً خافتة كأنها أنين الحديد.
قال بصوتٍ رخيمٍ مخيف:

"أنا وحدي أستطيع حمايتكم من الظلام.
فان كان لعنةً، فاعلموا أنني من قاتل اللعنات،
ورجالي هم حُرّاس الليل الذين لا ينامون.
أعلنوا ولاءكم لدير الأنبا أوغسطين،
تصبح البحيرات محصّنة، لا يمسها أحد.
وإن رفضتم... فأنتم وحدكم، والظلال كثيرة."

تبادل ثيودور وأنطونيوس النظرات.
الهواء ثقيل، والرعب يسري بين الصفوف،
لكن الطائر – الطائر ذو العيون الحمراء – حلق فجأةً فوق القاعة، وأصدر صرخةً قصيرةً تشبه الرفض.
رمقه أوغسطين بنظرةٍ حادةٍ، وقال بابتسامةٍ باردة:

"حتى طائرك يعرف أن الظلام أقرب إليكم مما تظنون."

ثم نهض، ورتّب رداءه، وغادر كما أتى...
هادئًا، مهيبًا، تاركًا وراءه رائحةً من الخوف والريبة،
وسؤالًا واحدًا في عقول الجميع:
هل جاء أوغسطين ليحميهم... أم ليُكمل ما بدأه !؟

- [ ] الفصل الثانى عشر

عودة مهربان وصدى الزيارة الغامضة

كانت البحيرات لا تزال تتنفس بصعوبةٍ بعد زيارة أوغسطين.
ذلك الصباح كان ثقيلاً، لا يُسمع فيه سوى صرير الريح بين الأخشاب المبتلة وأصداء وقع الخطوات فوق الممرات الطينية.
وبينما لا يزال الناس تحت وطأة الصمت المربك الذي خلفه موكب الأنبا،
عاد مهربان أخيرًا، بعد رحلةٍ دامت ثلاثة أيام نحو أرضه البعيدة في مملكة الأفيال.

دخل البحيرات فوق جواده الأسود، والغبار يغطي كتفيه، وعيناه تلمعان كمن عاد من صراعٍ لم يُحكَ بعد.
استقبله أنطونيوس عند البوابة، لكن مهربان لم ينطق بكلمة.
نظر حوله، رأى العيون الحائرة والوجوه المتوترة، فهتف بصوتٍ أجش:

"سمعت بالأنبا... جاء بنفسه إلى أرضكم؟!"

أجابه يوهان بحدةٍ مكتومةٍ وهو ينهض رغم جراحه القديمة:

"جاء يطلب ولاءنا، باسم الحماية.
لكنه لا يريد إلا ما تبقّى من المخطوطة... ومنّا."

في المساء، اجتمع الأربعة في القاعة الحجرية: ثيودور، أنطونيوس، يوهان، ومهربان،
وبجوارهم جلس الكفيف، يسمع كل همسةٍ كما لو كانت نصلًا يُسحب من غمده.
الريح تئنّ في الخارج، والمشاعل تتراقص على الجدران كألسنةٍ من دمٍ متوهّج.

قال مهربان بعد لحظة صمتٍ طويلة:

"إن أوغسطين لا يجيء بلا سبب.
الزيارة ليست عرض حماية، بل جسّ نبض.
أراد أن يرى من بقي حيًّا بعد معارك فان... ومن يمكنه أن يُعيد الحرب إن أمر."

ردّ أنطونيوس بصوتٍ خافتٍ يشوبه الغضب:

"كل كلمةٍ قالها كانت سُمًّا مغلفًا بالوقار.
جيشه اصطفّ كالعقارب... وجنوده لم يأتوا لعرض ولاء، بل لقياس الأرض وعدّ السيوف."

رفع ثيودور رأسه، الطائر فوق كتفه يحدّق بعينيه الحمراوين في شعلةٍ ترتجف، وقال بهدوءٍ مرّ:

"الرموز في المخطوطة تغيّرت ليلة قدومه.
الطائر صرخ فجأة، ثم سكت... كأن المخطوطة نفسها تخاف اقتراب شيءٍ لا يُرى.
أوغسطين ليس وحده... هناك من يتحرك في الخفاء معه."

في تلك الليلة، لم يذق أحد النوم.
وفجر اليوم التالي، ظهر على مدخل البحيرات موكب جديد يحمل راياتٍ صغيرة بلون الكنيسة الأبيض،
يتقدمه الياس الكبير – العجوز الذي رسم ممرات البحيرات قديماً –
ومعه القاضي الثالث، أحد وفود سِيدنا الراحل إلى الكنيسة الأم.

أُدخل الوفد إلى المجلس الكبير، وهناك أعلن الياس بصوتٍ متعبٍ لكنه واضح:

"إن صدى زيارة الأنبا أوغسطين وصل إلى أروقة الكنيسة الأم.
البابا، رغم مرضه، علم بالزيارة ورضي عنها،
وقال إنها علامةُ توبةٍ من الأنبا، وبدايةُ عهدٍ جديدٍ من السلام."

ساد القاعة وجومٌ رهيب.
حتى مهربان، الذي خاض معارك الرمال والنار، بدا مذهولًا.
نظر إلى ثيودور وقال بخفوتٍ كأنه يُناجي نفسه:

"رضا البابا؟! وهل لا يرى البابا أن الظلام نفسه يسير في هيئة رجل؟"

أضاف الياس ببطءٍ، وعيناه الزجاجيتان تتحركان بين الحضور:

"لكن، خلف هذا الرضا... توترٌ عظيم.
لا أحد في الكنيسة يعلم، هل جاء أوغسطين فعلاً ليستعرض قوته... أم ليُمهّد لغدٍ أشدّ سوادًا؟"

تبادلوا النظرات الثقيلة، وكل منهم يشعر أن شيئًا ما يتشكل في الأفق،
شيئًا لا يشبه الحرب القديمة ولا السلام الجديد...
بل عاصفة ثالثة، لن ينجو منها أحد.

- [ ] الفصل الثالث عشر – التحركات الخفيّة بعد الزيارة

منذ أن غادر أوغسطين أرض البحيرات،
لم تهدأ العيون، ولم تسكن الظنون.
كانت زيارته كريحٍ عبرت على جمرٍ خافتٍ فأحيت ناره،
ترك خلفه كلماتٍ ناعمة كالعسل... لكنها تحمل طعم السمّ.

أمر أنطونيوس بتعزيز المراقبة على الممرات،
بينما جلس ثيودور والطائر فوق كتفه على ضوء المخطوطة العتيقة،
يتأمل الرموز التي بدأت تتبدل كل ليلةٍ منذ مغادرة الأنبا.
الرموز صارت تُظهر وجوهًا غير مألوفة، وأطيافًا تقترب من البحيرات كأنها ظلال تسير فوق الماء.

في اليوم الثالث بعد الزيارة،
ظهرت أخبار غريبة من القرى القريبة من حدود المشرق:
قوافلٌ تحمل راياتٍ لا تُعرف، تمر ليلاً بلا صوت،
وعيونٌ تتجسس على الطرق القديمة التي رسمها الياس الكبير منذ عقود.
حتى الصيادون الذين اعتادوا الإبحار في أطراف البحيرات
أقسموا أنهم رأوا نارًا تشتعل في الضباب ثم تختفي في لحظة.

قال يوهان في اجتماعٍ مغلقٍ جمعه بـ أنطونيوس ومهربان وثيودور:

"أوغسطين لم يأتِ للحماية... بل جاء ليفتح الباب من الداخل.
كل القوافل التي تمر الآن، تمر بأمرٍ من رجلٍ واحد: ماري،
القائد الجديد للمشرق، المكلَّف بتهدئة الأرض.
لكنه في الحقيقة يُعدّها للحصار."

ردّ أنطونيوس وهو ينظر إلى خارطةٍ مرسومةٍ على طاولةٍ من الخشب الخام:

"القائد ماري... يتحرك بهدوءٍ مريب،
يرسل رسائل سلامٍ للبحيرات، ويزرع خلفها رجالاً يراقبون،
لا يهاجم، بل يقترب. إنها خطة ذكية لقتلنا دون حرب."

أطرق ثيودور رأسه،
وأصابعه تتحرك على سطح المخطوطة كمن يقرأ ما لا يُكتب.
قال بصوتٍ غريبٍ، كأنه قادم من مكانٍ بعيد:

"الظلّ تحرك.
جيش الظل بدأ يتكوّن تحت الأرض...
لا نراه، لكنه يرانا."

في اليوم الرابع، وصلت رسالة مختومة بخاتم الأنبا إلى البحيرات،
يحملها فارسٌ غريب الملامح، لا يتكلم إلا كلماتٍ قليلة.
كانت الرسالة قصيرة، لكنها غامضة ومخيفة:

"البحيرات بحاجةٍ إلى حماية.
جموعٌ من المرتزقة والمنبوذين تتحرك من المشرق نحوكم.
ستجدون جيش الظل عند حدودكم... إن احتجتموه."

عندما قرأها أنطونيوس، تجمدت ملامحه.
قال يوهان غاضبًا:

"جيش الظل؟!
إنه جيشه هو... ليسوا إلا قتلة فان ورجاله الملعونين!"

قال مهربان بهدوءٍ حذر:

"إنها ليست حماية، بل طوق من نار.
حين يصل جيش الظل... لن يخرج أحد من البحيرات حيًّا."

أدرك الجميع أن أوغسطين لم يغادرهم،
بل ترك خلفه شِراكًا تمتد في كل اتجاه.
كان يُظهر الهدوء للعالم،
بينما يُحرّك خلف الستار جيشًا من الظلال والمرتزقة والتابعين القدامى،
يعدّون العدة لهجومٍ صامتٍ لا صوت له...
كأن الليل نفسه صار جيشه.

في تلك الليلة، صرخ الطائر ذو العيون الحمراء فجأة،
ورفرف بعنفٍ فوق رأس ثيودور حتى انطفأت كل الشموع.
وعلى المخطوطة، ظهر رمز جديد لم يره أحد من قبل:
دوائر تتشابك في قلبها خنجر،
وتحتها كلمة واحدة: "الممر الأخير".

قال الكفيف بصوتٍ مرتجف:

"لقد بدأوا يا ثيودور...
جيش الظل يتحرك بالفعل.

الليل كان ثقيلاً فوق البحيرات،
هدوءٌ مريب لا يُسمع فيه إلا صفير الرياح وهي تمسح وجه الماء كأنها تتحسس نبض الأرض.
في أعماق ذلك السكون، جلس أنطونيوس يحدّق في النار المشتعلة وسط المعسكر،
شعلات صغيرة تشتعل وتنطفئ كأنها أنفاس مرهقة لجسدٍ أنهكه الانتظار.

اقترب يوهان ببطء، ما زال كتفه يئن من أثر الجراح القديمة.
قال بصوتٍ خافتٍ لكنه ثابت:

"لن ننتظر حتى يأتينا جيش الظل...
إن كان الظل يتحرك نحونا، فنحن من سنضيء النار في وجهه."

رفع مهربان رأسه من بين الخرائط، كانت عيناه تقدحان شررًا من الحذر والخبرة.

"نحتاج خطة لا تُرى، مثل خطتهم تمامًا.

سنحاربهم بأسلوبهم... بالظلام."

ابتسم أنطونيوس، نظرة القائد العارف بثقل ما سيأتي،
ثم أشار إلى ثيودور الذي كان يجلس في زاويةٍ بعيدةٍ يكتب شيئًا على صفحة المخطوطة القديمة.
الطائر ذو العيون الحمراء يقف على كتفه يحدّق في السطور،
كأنما يقرأ معه تلك اللغة الغامضة التي لا يفهمها أحد سواه.

قال أنطونيوس بحزمٍ وهو يقترب من الطاولة:

"قل لنا يا ثيودور، ما الذي تخبرك به الرموز هذه المرة؟"

رفع الراهب الصامت رأسه ببطء،
وجهه شاحب كمن خرج لتوّه من عالمٍ آخر،
ثم قال بصوتٍ غريبٍ هادئ:

"الممر الأخير... هو طريق النور من قلب الظلام.
هناك طريق تحت الأرض، من ممرات القديسين المنسيين القديمة
يصل بين البحيرات ومشارف المشرق.
إن سلكوه، وصلوا إلينا من حيث لا نراهم.
لكن إن سلكناه نحن أولاً... انقلبت الموازين."

صمتت الوجوه للحظاتٍ طويلة،
حتى قال مهربان بحدةٍ عسكرية:

"إنها مخاطرة كبيرة، لكننا اعتدنا الموت أكثر من الانتظار.
سأرسل فرقة من رجالي، خمسون مقاتلاً من رجال الضي،
يختفون في الليل ويتحركون عبر الممرات.
لن ننتظر جيش الظل ليهاجمنا، سنخرج نحن إلى ظله."

ابتسم يوهان رغم الألم الذي يسكن جسده:

"أنا أعرف تلك الممرات، كنت أرسل منها الرسائل أيام كان أبي حيًّا.
سأكون دليلهم."

اعترض أنطونيوس بغضبٍ مكتوم:

"أنت ما زلت مصابًا، دمك لم يجف بعد!"

لكن يوهان اكتفى بالنظر إلى الأفق،
حيث ينعكس القمر على سطح الماء، وكأنه عينٌ تراقبهم من السماء.

"لقد قتله سهامهم يا أنطونيوس... قتلوا سيدنا، وأحرقوا كل ما أحب.
فكيف أشفى وأنا لم أردّ الدين بعد؟"

سقط الصمت كستارٍ ثقيلٍ على الجمع،
إلا من همهمة الريح وضجيج الطائر الذي بدأ يدور في السماء بشكلٍ دائريٍ متسارع،
ثم فجأة انقضّ على الأرض تاركًا أثرًا من رمادٍ أسود على صفحة المخطوطة.

اقترب ثيودور، لم يلمسها،
لكن الكلمات بدأت تُكتب من تلقاء نفسها:

"احذروا فجر الغدر... سيخرجون من الأرض كما تخرج الجذور من التراب."

تنفس الكفيف ببطء، وصوته يرتجف كمن تذكّر شيئًا مرعبًا:

"إنها ليست حربًا فقط يا أبنائي...
إنها بداية ما بعد النور... الظل الذي يمشي على الأرض."

في تلك اللحظة، دوّى نباح الكلاب من جهة الغرب،
تلاه صوت صفيرٍ طويلٍ آتٍ من الأبراج البعيدة.
أمسك أنطونيوس سيفه وصرخ:

"إنهم هنا... جيش الظل بدأ حركته!"

رفع يوهان سلاحه،
والطائر الأحمر حلق فوقهم كجوهرةٍ داميةٍ وسط الليل،
بينما فتح مهربان خريطته، وأشار نحو الممرات القديمة قائلاً:

"سنخرج لهم من حيث لا ينتظرون... من الممر الأخير."

وهكذا، بدأت أرض البحيرات أولى ليالي المواجهة الكبرى مع جيش الظل،
حربٌ في العتمة، لا يُرى فيها العدو ولا يسمع إلا صوت الدم والحديد.
أما ثيودور، فجلس وحده على ضوء القمر،
يمسك بالمخطوطة التي بدأت تضيء ببطءٍ غامضٍ،
وعيناه تتبعان الطائر وهو يصعد في السماء...
كأنه يستدعي شيئًا أكبر من الحرب نفسها.

لقد بدأت ملحمة الظل والنور

- [ ] الفصل الرابع عشر – الممر الأخير والمخطوطة الحية

كان الليل في أشدِّ سكونه،
والسماء ملبدة بغيومٍ سوداء تلامس القمم كأنها جيوش نائمة تنتظر إشارة الهجوم.
وفي أسفل تلك القمم، كانت الفرقة الخاصة للبحيرات تتحرك بخطى صامتة،
يتقدمهم أنطونيوس، وعلى يمينه يوهان بوجهٍ شاحبٍ وجراحٍ لم تلتئم بعد،
وخلفهما ثيودور، الراهب الصامت،
يحمل تحت ردائه المخطوطة ...
سرُّهم الأعظم منذ بدء الحكاية.

أما مهربان، فكان كعادته يسير في المؤخرة،
عيناه لا تهدآن،
يتفقد رجاله ويهمس لمن يضعف منهم بكلماتٍ قصيرة، كأنها قسمٌ خفيٌّ يردّ العزيمة إلى الدماء.

كان الطريق الذي يسلكونه ممرًّا جبليًّا قديماً
يشق بين الصخور كأفعى ملتوية،

يُقال إن من يعبره دون "إذنٍ من المخطوطة"
يختفي فيه إلى الأبد.

وقف أنطونيوس فجأة،
رفع يده فأشار للصمت،
ثم التفت نحو ثيودور وقال بصوتٍ خفيض:

"الظلام هنا ليس طبيعيًّا... حتى الريح تهاب أن تتنفس."

أومأ الراهب الصامت برأسه،
وأخرج المخطوطة ببطءٍ من كيسٍ جلديٍّ غليظ،
كانت تتنفس كأنها كائن حيٌّ يئنّ من وطأة القرون،
وحين فتحها، انبعث منها وهجٌ ذهبيٌّ خافت،
لم يكن ضوءًا... بل لغةٌ تتحرك.

امتدت الأحرف القديمة على الصفحات كأنها تتبدّل وتُعيد ترتيب نفسها.
اقترب الكفيف، تحسس الكلمات بأصابعه المرتعشة،
وقال بصوتٍ واثقٍ عميقٍ:

"إنها تُحدّثنا... ترسم خريطة الطريق."

تحركت أنماط الضوء على الأرض،
تشكلت خطوطٌ تمتد أمامهم داخل الممر،
كانت المخطوطة تقرأ الأرض نفسها،
تكشف الممرات الآمنة وتُضيء مواضع الكمائن،
وترسم رموزًا فوق الصخور كأنها وشومٌ من نورٍ تخبرهم كيف ينتصرون قبل أن يبدأ القتال.

تمتم يوهان، وهو يحدّق في الضوء الذهبي المتراقص:

"إنها ليست خريطة حرب فقط... إنها عقل البحيرات وقصص القديسين المنسيين ."

تقدموا بخطى ثابتة،
يتبعون أثر الضوء حتى وصلوا إلى مفترقٍ تتفرع فيه ثلاثة طرق.
أشار أنطونيوس إلى أحدها وقال:

"هنا كان فان ينصب فخاخَه في الحروب الماضية."
لكن المخطوطة أضاءت الطريق الآخر،
بلونٍ أحمر يشبه الدم.

قال ثيودور:

"الطريق الأحمر هو طريق الخلاص...
الدم سيُراق، لكنه سيُعيد للبحيرات حياتها."

كان صوته غريبًا، كأن شيئًا آخر يتكلم من خلاله.
أحنى مهربان رأسه، وقال بصوتٍ خافت:

"فلنمضِ إذًا، لا نملك رفاهية الاختيار."

تحركوا بخطواتٍ محسوبة،
لكن الهواء بدأ يثقل أكثر،
حتى أحسّوا كأن الظلال نفسها تراقبهم.
وفجأة سمعوا صدى حوافر خيلٍ قادم من الأعماق.

رفع يوهان سيفه،
فانشقّ الظلام عن وميضٍ باردٍ،
ومن أعماق الممر خرجت أشباحٌ بشرية بوجوهٍ مغطاة،
يحملون راياتٍ سوداء عليها رمز الصخر الأسمر —
شعار جيش الظل.

صرخ أنطونيوس:

"كمين! إلى الجدران!"

لكن قبل أن يصيبهم الرعب،
فتحت المخطوطة صفحاتها بنفسها،
وانبعث منها شعاعٌ أزرقُ قويٌّ امتدّ على طول الممر.
تحوّلت الرموز في الضوء إلى نقوشٍ حربية،
تعليماتٍ تكتيكية تُعيد ترتيب صفوفهم كما لو أن روحًا عسكرية قديمة عادت تقودهم من جديد.

صرخ مهربان برجاله:

"اتبعوا الضوء! الضوء يرشدكم للمواقع!"

بدأت معركة في الظل،
لا يرى فيها أحدٌ الآخر إلا من خلال وميض المخطوطة.
كانت الأحرف تشتعل على الجدران،
كل حرفٍ يضيء ثغرة أو ينذر بخطرٍ قادم.

اندفع يوهان يقاتل في الصدارة،
سيفه يلتقي مع سيوف رجال الظل،
يتحرك بخفةٍ رغم جراحه،
وعيناه لا تفارقان الطريق المرسوم بالنور.

أما أنطونيوس فكان ينسق الصفوف،
يأمر بالكرّ حين يشتد الخطر،
وبالفرّ حين تنغلق الممرات.
كل تحركٍ منهم كان وكأن المخطوطة تُملي عليهم الخطط لحظةً بلحظة.

وبين صدى السيوف وصرخات الرجال،
رفرف الطائر ذو العيون الحمراء من فوقهم،
صرخ صرخةً مدوّية فاشتعلت النقوش على الجدران كأنها شعلات من نارٍ مقدسة.
اهتزّ الممر،
وانقلب الظلام على نفسه،
فانهار السقف على رجال الظل، وابتلعتهم الأرض كأنها تقتصّ لقرونٍ من الدم.

حلّ الصمت بعد العاصفة،
لم يبقَ سوى صدى أنفاسٍ مرهقة ورائحة الحديد والرماد.

جلس ثيودور على صخرةٍ منهكةٍ،
والمخطوطة بين يديه،
صفحاتها تعود إلى سكونها،
لكنها كانت تتوهج بخفوتٍ كأنها حيّة ما زالت تتنفس.

اقترب يوهان،
ووضع يده على كتف الراهب وقال:

"الطريق دلّنا على النصر... لكنها لم تقل لنا بعد من سيبقى للنهاية."

رفع ثيودور عينيه نحو السماء التي بدأت تفتح أول خيوط الفجر،
وقال بصوتٍ عميقٍ وهادئٍ كأنه يسمع ما لا يُقال:

"المخطوطة ما زالت تتحدث...
والنور القادم، يا يوهان، ليس فجرًا... بل نذير معركةٍ أخرى."

وبينما تشرق الشمس على الممر الأخير،
كانت الجبال ترجع صدى أصواتٍ بعيدةٍ كأنها نُذر جيشٍ يتحرك في الأفق —
جيش الظل... يعود من جديد

الفصل الخامس عشر – حصار الجنوب: نيران الظلال

كانت البحيرات في فجرٍ رماديٍّ ثقيل،
الضباب يزحف على صفحة الماء كأن الأرض تحاول أن تُخفي نفسها قبل أن يبدأ الغضب.
من بعيد،
ارتفعت أول صرخة بوقٍ من أبراج المراقبة الجنوبية،
تلتها صفارات التحذير،
ثم ارتجَّت الأرض تحت أقدام الرجال.

كان أنطونيوس أول من خرج من مقره،
صدره ما زال مضمّداً بجراحٍ لم تلتئم،
لكن صوته صلبٌ كصخر الجبال:

"استعدّوا! الجنوب يشتعل!"

أمسك ثيودور بالمخطوطة،
فتحها على عجلٍ فوق مائدةٍ من الخشب،
فانبعث من صفحاتها وهجٌ أحمرُ قاتمٌ،
تتراقص عليه رموزٌ كأنها طلاسم حربٍ قديمة.
قال الكفيف بصوتٍ مرتعشٍ وهو يتحسس الأحرف:

"إنها نيران الظلال...
جيشٌ لا يُرى إلا في الضوء المنعكس،
يزحف من بين السراب والغبار."

خرج يوهان إلى الساحة،
يمسك سيفه الثقيل بيدٍ واحدةٍ واليد الأخرى مشدودة إلى صدره المربوط.
اقترب منه مهربان،
وعلى كتفه آثار الجراح القديمة،
لكن عينيه تشتعلان كجمرٍ من صبرٍ لا ينطفئ.

"لقد عادوا يا يوهان... رجال الظل."
"إذن فليكن، سنحرق الظلام بالنار ."

في تلك اللحظة، انطلقت الأسهم الأولى من جهة الجنوب،
تلتها ألسنة النار التي اخترقت الضباب.
سقطت على أبراج المراقبة فأضاءت السماء كأنها فجرٌ من جحيم.
ارتفعت صرخات الجنود،
واشتعلت الحقول التي كانت تحيط بالبحيرات كدروعٍ خضراء.

تقدم أنطونيوس بين الصفوف،
يرسم خطوط الدفاع الأولى،
يقسّم الرجال إلى مجموعاتٍ صغيرة،
كل فرقةٍ تعرف مهمتها كأنها خُطّت على أجسادهم منذ الولادة.
كانوا يقاتلون وهم يغنون أغاني البحيرات القديمة،
الأغاني التي لا تُغنّى إلا حين يكون الموت قريبًا.

في الخلف، كان ثيودور يتابع تحركات الضوء على صفحات المخطوطة،
كل رمزٍ يتحول إلى أمرٍ عسكريٍّ جديد:
"اسحب الفرقة الثالثة."
"افتح الممر الغربي."
"أطلق الطائر."

وفجأة، ارتفع الطائر ذو العيون الحمراء في السماء،
صرخ صرخةً مدوّية فارتجَّت البحيرات كلها،
وانعكست صورته في الماء كأنه شهابٌ من نارٍ يهوي على الجحيم.
أينما طار، انكشفت مواقع جيش الظل،
كان ضوء عينيه يكشفهم واحدًا تلو الآخر،
كأن اللعنة نفسها تفضح أبناءها.

لكن العدو لم يكن عاديًا...
رجال الظل لا يخافون الضوء،
بل يختفون فيه،
يتبددون بين ومضاته ثم يظهرون خلف ظهور المقاتلين.
بدأت المعركة تتحول إلى جحيمٍ من الكرّ والفرّ،
صراخٌ، نارٌ، ورائحة لحمٍ محترق.

اندفع مهربان بسيفه العملاق،
يضرب في صفوفهم كإعصار،
وعندما سقط أحد رجاله بجانبه،
صرخ غاضبًا:

"من أراد أن يعيش، فليحمل سلاحه...

نحن لا نموت قبل أن نحرق من جاء ليطفئنا!"

وفي الجهة المقابلة،
كان يوهان يقاتل بثباتٍ صامت،
وجهه مغطى بالدماء،
وعيناه مثبتتان على الجنوب كمن يرى شيئًا لا يراه أحد.
اقترب منه أنطونيوس وهو يصرخ:

"الخط الأوسط يتهاوى! افتح الممر الغربي!"

أشار يوهان إلى الطائر،
فانطلق في السماء كالشهاب،
ثم عاد يرفرف فوق المخطوطة،
فانفجر ضوءٌ قويٌّ أعمى الأعين للحظات.

وفي وسط هذا الضوء،
انكشفت خطة الأعداء:
كانت مجموعة من جيش الظل تحفر خندقًا تحت الأرض،
تحاول الالتفاف للوصول إلى قلب البحيرات،
حيث المخطوطة نفسها.

صرخ ثيودور بأعلى صوته منذ بدء الحرب،
كان صوته للمرة الأولى يحمل الغضب الإلهي:

"احموا النور... لا تدعوه يسقط!"

تقدمت كتيبة مهربان الأخيرة،
رجال الضي من مملكة الأفيال،
مضوا بخطى بطيئة لكن ثابتة نحو الخندق،
كأنهم ذاهبون إلى موتٍ مقدّس.
اندفعوا داخله وهم يصيحون بلغتهم القديمة،
وانفجرت الأرض تحتهم جميعًا.

توقفت المعركة للحظة،
ثم ساد الصمت إلا من صوت الماء يغلي،
والريح تهمس في أذن البحيرات:

"الجنوب احترق."

وقف أنطونيوس بين الرماد،
ينظر نحو الأفق المشتعل،
وقال بصوتٍ خافتٍ:

"لم ينتصر أحد اليوم... لكننا لم نسقط."

رفع ثيودور المخطوطة،
كانت تشعُّ من بين يديه بخفوتٍ مطمئن،
كأنها تقول: الطريق لم ينتهِ بعد.

أما في البعيد، خلف الجبال،
فكانت نيرانٌ أخرى تشتعل في الأفق الشمالي...
نيرانٌ لا يعلم أحدٌ لمن تُشعل هذه المرة —
هل هي للظلال التي تعود؟
أم للبحيرات التي تستعد للانتقام

الفصل السادس عشر – الشمال يشتعل: يوم الانبعاث الأخير

لم يكد رماد الجنوب يبرد،
حتى دوّى صهيل الخيل من جهة الشمال،
صوتٌ كأنه نداء من الماضي، أو لعنات لم تُغفر بعد.
كانت السماء تموج بسحبٍ رماديةٍ تتوهج بين حينٍ وآخر بوميض البرق،
ومع كل ومضة، كان يُرى هناك، بعيدًا على التلال،
ظلّ جيشٍ يتقدم في صمتٍ مريب،
راياتٌ سوداء لا تتحرك مع الريح،
وجنودٌ لا يُسمع لهم نفس،
كأنهم أرواح خرجت من جوف الأرض لتُعيد ما بدأه فان.
جيش الظل يعود من جديد، ولكن هذه المرة... أكثر دهاءً، وأكثر ظمأً للدماء.

في مجلس البحيرات،
وقف أنطونيوس شامخًا رغم الجراح،
درعه مكسور عند الكتف، ووجهه تغطيه آثار السهر والدماء.
إلى جواره مهربان،
عيناه تقدحان شررًا من الغضب، وصوته عميقٌ كقصف الرعد.
جلس ثيودور أمام المخطوطة،
وإلى جواره الكفيف ويوهان،
والطائر ذو العيون الحمراء يحوم فوق رؤوسهم كأنه ظلّ النبوءة نفسها.

قال أنطونيوس بصوتٍ خافتٍ كمن يتحدث في طقسٍ مقدس:

"الجنوب دافعنا عنه، لكن الشمال الآن يتحرك.
هذه ليست معركة أخرى... هذا اختبار النور الأخير."

مدّ ثيودور يده على المخطوطة،
رموزٌ غريبة بدأت تتحرك ببطءٍ كأنها تتنفس،
تتوهج كل واحدة منها بنورها الخاص،
ثم تتصل بخطوطٍ مضيئة،
تشكل خريطةً للشمال والسهول والطرق الخفية بين التلال.

لم يخرج نور إلى الخارج...
بل ظلّ النور حبيس الرموز،
يتوهج كقلبٍ نابضٍ فوق الورق،
وفي كل نبضةٍ، كانت الرموز تتبدل وتعيد ترتيب نفسها،
حتى ظهرت دائرةٌ في المنتصف،
ومنها انطلقت أسهمٌ صغيرة تشير إلى نقاطٍ متفرقة حول البحيرات.

همس الكفيف وهو يتلمس الرموز بأصابعه:

"إنها خطة... طريق النصر محفور في داخلها، لا في نورها."

ابتسم أنطونيوس وقال بثقةِ قاتلٍ متمرّس:

"إذن سنسير كما تقول الرموز...
لن نحارب الضوء بالظلام، بل بالدهاء."

هكذا بدأت الخطة.
قسم أنطونيوس الجيش إلى ثلاث كتائب،
الأولى تحت قيادة مهربان تهاجم من الغرب وتوهم العدو بأنها القوة الكبرى،
الثانية بقيادة يوهان تنفذ انسحابًا مموّهًا لتجر جيش الظل نحو الممرات،
أما الثالثة، بقيادة أنطونيوس نفسه،
فكانت تنتظر في الشمال بين التلال،
حيث أشارت الرموز إلى فخٍ لم يُكتشف منذ عقود.

في منتصف الليل،
السماء تنفجر بالرعد،
البرق يضرب الأرض كالسيوف،
والبحيرات تعكس وهج النار كأنها بحرٌ من دماءٍ ساكنة.

تقدمت كتيبة مهربان أولًا،
رجال قبائل الضي يقاتلون بصمتٍ رهيبٍ كأنهم خرجوا من عالمٍ آخر،
يضربون ثم يتراجعون بخفةٍ مدروسة،
حتى يظن العدو أنهم ينهزمون.
في تلك اللحظة،
اندفع جيش الظل خلفهم كأمواجٍ من الظلام،
لكن الأرض كانت تنتظرهم.

في الممرات الخفية التي دلّت عليها المخطوطة،
تربصت كتيبة أنطونيوس،
أمر رجاله بالانتظار حتى يدخل العدو كاملًا،
ثم رفع يده إشارة البدء.

انفجرت التلال حولهم.
انفتحت الأرض كفمٍ غاضبٍ،
وخرجت منها سيوفٌ ونبالٌ وجنودٌ يصرخون باسم النور.
اشتعلت السهول بنيرانٍ من فحمٍ وزيت،
تحولت الليلة إلى جحيمٍ أسود يلتهم كل ما أمامه.

جيش الظل بدأ يتراجع،
ثم تفرّق كأن لعنةً حلّت عليه،
تضربهم سهامٌ لا يرون مصدرها،
وصيحات البحيرات تهدر في الأفق:

"من أجل ماركوس وذو اللحيه البيضاء واليا من اجل سيدنا الكبير! من أجل النور والبحيرات!"

كان يوهان يقاتل بجنونٍ بين الممرات،

دمه ينزف، لكن عينيه تشعان بقوةٍ لا تُقاوم،
أطاح بعدة من قادة الظل،
حتى انحسر الهجوم شيئًا فشيئًا،
وسقط قائد الظل على ركبتيه والدماء تغمر الأرض من حوله.

حين بزغ الفجر،
كان كل شيءٍ ساكنًا.
النار ما زالت تشتعل في أطراف الممرات،
لكن جيش الظل اختفى كأنه لم يكن.
سكونٌ غريبٌ عمّ المكان،
ورائحة الموت تملأ الهواء.

جلس ثيودور أمام المخطوطة مرة أخرى،
نظر إلى الرموز فوجدها قد تغيّرت،
أصبحت أكثر هدوءًا،
خطوطها لا تشتعل بل تتوهج كأنها تتنفس بعد معركةٍ طويلة.
قرأ بصوتٍ خافت:

"حين يسقط الظل في فخ النور، تتطهر الأرض بالماء والدم."

رفع أنطونيوس رأسه، والعرق يمتزج بالدماء على جبينه،
وقال بصوتٍ مبحوح:

"لقد انتهت معركة الشمال...
لكن اللعنة لم تمت بعد."

أما الطائر ذو العيون الحمراء،
فدار فوق المخطوطة ثلاث مرات،
ثم استقر فوقها كأنه يحرس سرّها الجديد،
السر الذي لم يُفهم بعد...
وهو أن الظلام لا يموت، بل ينتظر شكلاً جديدًا يولد فيه

الفصل السابع عشر نَذير الشَّمس — فكّ الحصار وسقوط جيش الظلّ

لم يكن أحد في البحيرات يظنّ أن فجر ذلك اليوم سيحمل في جوفه النهاية.
فبعد أسابيع من الحصار والدم والليل الطويل، بدت السماء وكأنها جدارٌ ثقيل من الحديد، لا يخترقه ضوء.
وفجأة — دون إنذار — وصل خبرٌ صاعق: القائد ماري، رجل أوغسطين في المشرق، فكّ الحصار من الجهة الشرقية من تلقاء نفسه.

كا قرار صادما لكنه كان الشرارة التي انتظرها الجميع.
رأى أنطونيوس في ذلك الفتح المفاجئ فرصة لا تُفوّت، فصرخ بأوامره، والتحم مع مهربان وكتيبته في خطةٍ جريئةٍ وضعتها عقول البحيرات.
رموز المخطوطة التي فكّها ثيودور لم تكن خطوطًا على ورق، بل مسارات موتٍ ونجاة، خطة من نورٍ خافت أضاء طريق الفجر الأخير.

انطلقت الصفوف، رجالٌ أنهكتهم المعارك لكن أرواحهم تشتعل.
مهربان في المقدّمة، يقود رجاله كالبرق، لا صوت إلا أنفاسهم ووقع خطواتهم الثقيلة في الطين المبتل.
وأنطونيوس من الجانب الغربي يطبِق بخطته المحكمة؛

الهجوم جاء كالموج من جهتين، حتى بدا لجيش الظل أنّ الأرض قد انقلبت عليهم.

صرخات، صليل سيوف، دخان يرتفع كالأفاعي.
سقطت رايات الظلّ واحدةً تلو الأخرى، وأدرك الجميع أن النهاية اقتربت.
حاول القائد الميداني لجيش الظل أن يجمع فلوله، لكن السيوف كانت أسرع من نداءاته، والسهام أغلقت السماء فوقه كسقفٍ من الجمر.
لم يَثبت أحد أمامهم. انهار جيش الظل كما ينهار جدار من رماد، وتحوّل إلى كومةٍ من أجسادٍ ممزقة وسيوفٍ مطفأة.

خسرت البحيرات الكثير، نعم — لكن ثمن الخلاص لا يُدفع إلا بالدم.
سقط بعض من أقوى رجال مهربان،
وابن القاضي الثاني خرّ صريعًا وهو يصدّ هجومًا مباغتًا،
وابنُ أخ يوهان لقي مصرعه وهو يرفع راية البحيرات وسط النار.
كثير من الرجال لم يعودوا، وكثيرون جُرحوا، لكنّ الأرض نفسها بدت وكأنها تميل احترامًا لهم،
لأنهم أثبتوا أن البحيرات — مهما احترقت — لا تُطفأ.

أما جيش الظل، فاندثر كما يُمحى الحبر من صفحةٍ غمرها المطر.
لم ينجُ منهم إلا القليل، عراةً من السلاح، هائمين كالأشباح في الممرات القديمة.
لم تبقَ رايةٌ لهم، ولا قائدٌ ينادي، ولا اسمٌ يذكرهم إلا في كوابيس الليل.

حين حلّ السكون، خرج ثيودور من خيمته، والمخطوطة بين يديه.
لم تصدر عنها أضواء أو أصوات، بل لمع في خطوطها بريقٌ خافت كنبضٍ حيٍّ في الظلام،
تتراقص رموزها كأنها تكتب بيد القدر: "لقد تمّ ما كان مكتوبًا."

رفع أنطونيوس رأسه نحو السماء،
ووقف مهربان على ركبته، مغطّى بالرماد والدم،
ويوهان يضمّ جرحه، لكنه ينظر بعيدًا نحو الأفق.
الطائر ذو العيون الحمراء حلقَ فوقهم في صمتٍ تام،
كأنه يعلن انتهاء ليل الظلال وبداية فجرٍ جديدٍ تحرسه الدماء.

وهكذا... انتهى جيش الظلّ.
لم يبقَ منه إلا الرماد،
ولم يبقَ في البحيرات إلا رجالٌ يعرفون أن النصر ليس نجاة، بل بقاء

نهايه الجزء السابع
—-
الجزء الثامن: عودة المشرق👑

الفصل الأول – قرار التوسّع

كانت البحيراتُ بعد الحرب الأخيرة كجسدٍ نجا من الموت بأعجوبة. رمادٌ يغطي أطرافها، لكن تحت الرمادِ جمرةٌ حية تنبض.
جلس ثيودور في قاعة المجلس العليا، الطائر ذو العيون الحمراء يقف على عتبة النافذة، والمخطوطة أمامه مفتوحة على رموزٍ تشبه الموج الممتد شرقًا.
الوجوه من حوله مرهقة، ولكن في أعينهم شعلة الأمل الأولى منذ شهور.

قال ثيودور بصوته الهادئ الصارم:

"لقد صمدنا، ودفعنا ثمن الأرض دمًا، والآن حان وقت البناء. لن تبقى البحيرات منعزلة بعد اليوم، المشرق أرضنا الأولى، وعلينا أن نمد إليها اليد لا السيف."

كان القرار صادمًا للجميع، جريئًا بعد حربٍ التهمت كل شيء.
أعلن عن إرسال رسلٍ إلى القرى الواقعة على الضفة الشرقية من البحيرات، وإلى كل من بقي من القرى القديمة على حافة المشرق، يعرض عليهم الانضمام إلى البحيرات تحت راية مجلسها الجديد، لا بقوة السلاح بل بالعهد والعدالة.

أما الكنيسة الأم، فقد أرسل إليها رسالة رسمية صيغت بخط رومان نفسه، تُقرّ بأن البحيرات ما زالت تابعة لسلطة الكنيسة، لكنها تطلب إدارة ذاتيةً للقرى الجديدة حفاظًا على أمنها من فلول فان وجيش الظل المنهار.

اختار ثيودور بنفسه الرسل الثلاثة:

- إلياس العجوز، العارف بخفايا الطرق القديمة والممرات المنسية.
- القاضي الثالث، لتمثيل العدالة أمام الشعوب الجديدة.
- رومان، رفيق البحيرات الأول، وشاهدها على النهوض بعد الجراح.

خرج الرسل الثلاثة عند الفجر، الطائر يحلق فوقهم، ورياح الصباح تحمل بين طياتها رائحة المطر القديم، كأن الأرض تستعد لعودة المشرق إلى الحياة
- [ ]
– حيرة القائد ماري

في المشرق، بعد أيامٍ قليلة من فكّ الحصار الغامض،
جلس القائد ماري في خيمته الكبيرة على أطراف السهل، النار تتراقص أمامه، والدخان يلتف حول وجهه الحادّ كأنها غلالةُ الشكّ نفسها.
جنوده من حوله يهمسون، تعبون من معركةٍ لم تقع، انسحابٍ لم تُفهم أسبابه.

رفع رأسه نحو السماء الملبدة بالغيوم وقال بحدةٍ لنائبه:

"من الذي أرسل تلك الرسالة قبل لحظاتٍ من الهجوم؟"

النائب يرد بخوفٍ:

"الختم، يا سيدي، ختم القائد الأعلى نفسه... ختم الأنبا أوغسطين."

ساد الصمت، وانعكس اللهيب في عيني ماري كمرآةٍ تحاول أن تكشف الغدر.
كيف؟ ولماذا الآن؟!
لقد كانت الخطط مرسومة بدقةٍ، والرماح مصقولة، وجيش الظل مستعدًا ليقضي على آخر ما تبقّى من البحيرات.
لكن الأمر بالانسحاب جاء كطعنةٍ في الظهر، قبل الضربة بلحظات،
فانكفأ الهجوم إلى تراجع، والجنود فقدوا حماسهم، والظلال التي كانت تخيف الجميع بدأت تتبدد.

جلس ماري وحده بعد أن صرف الحراس، قلبه يغلي بالحيرة والغضب.
هل تغيّر رأي أوغسطين؟
أم أن في الدير الأكبر من يعبث بالأوامر؟
لقد كان يعرف أوغسطين رجلاً لا يتراجع،
فإن أرسل أمرًا بالانسحاب فلابد أن وراءه خطة أخرى... خطة لا يعرفها أحد.

مدّ يده نحو خريطة المشرق الموضوعة على الطاولة،
وتأمّلها طويلاً،
ثم قال بصوتٍ خافتٍ، كأنه يحدّث نفسه:

إن لم أفهم هذا السر... فسيبتلعني الظلام كما ابتلع فان.
– رحلة الرسل الثلاثة

على طريقٍ يمتدّ بين رماد المشرق وضفاف البحيرات المبتلّة بندوب المعارك،
انطلقت القافلة الصغيرة التي تحمل راية البحيرات،
يتقدّمها الياس العجوز، وقد بدت عليه علامات الكِبر والتعب،
وإلى جواره القاضي الثالث، رجلٌ شديد الانضباط، وجهه كالحجر،
وخلفهما رومان، بثيابه البسيطة التي التصقت بها آثار الغبار والسفر.

لم تكن الرحلة رحلةَ رسلٍ عاديين،
بل كانت بداية عودةٍ إلى المشرق — عودة يُراد بها إعادة الروابط، أو اختبار الولاء.
فالطرق بين القرى لم تعد آمنة كما كانت،
والناس يتحدثون عن جنودٍ غرباء يمرّون ليلًا بلا رايات،
وعن ظلالٍ تتحرك على أطراف الحقول، لا يُعرف إن كانت من البشر أم من اللعنة التي خلّفتها الحروب.

كان الياس يسير مستندًا إلى عصاه الطويلة،
صوته واهن لكنه ثابت:

"لابد أن نُعيد الثقة، البحيرات صارت رمزًا... لكن الرموز وحدها لا تبني الأوطان."

القاضي الثالث يجيبه بنبرةٍ حازمة:

"الثقة تحتاج إلى حماية، والناس يحتاجون إلى من يُنصت إليهم قبل أن يأمرهم."

أما رومان، فكان يراقب الطريق بعيونٍ متوترة،
كل ظلٍّ يظنه كمينًا، وكل نسمةٍ يراها إنذارًا.
كانت ذكريات الحرب لا تزال محفورة في ذهنه —
الدماء، الحريق، سقوط مهربان في المعركة الأخيرة، وصرخة يوهان الجريحة.

مرّ الرسل بالقرية الأولى عند مشارف المشرق،
كان أهلها متوجسين، ووجوههم شاحبة من الجوع والخوف.
لكن حين رفع الياس راية البحيرات،
خرج شيخ القرية واستقبلهم قائلاً:

"ظننا أنكم هلكتم جميعًا... ماذا تريدون من أرضٍ لم تبقَ فيها إلا الأطلال؟"

فردّ القاضي الثالث بصوتٍ مهيب:

"نريد أن نعيدها لكم، لا أن نأخذها منكم.
الكنيسة اعترفت بالبحيرات أرضًا للسلام،
ونحن نعرض عليكم أن تكونوا جزءًا منها،
بعهدٍ يضمن لكم الأمان، والعدل، والحق في العبادة والعمل."

ساد صمتٌ طويل، ثم ارتفعت همهمات الناس بين قبولٍ وريبة،
حتى تقدّمت امرأةٌ عجوز وقالت:

"إن كنتم صادقين، فابنوا أولاً كنيسةً في قريتنا،

مكانًا نصلي فيه بلا خوف، كما كنا قبل أن تحرقنا حروب أوغسطين وفان."

انحنى الياس برأسه وقال:

"سيُبنى بيت الرب من جديد، بأيديكم أنتم، وبدمائنا نحن إن لزم الأمر."

غادر الرسل القرية وسط دعواتٍ مترددة،
ثم واصلوا رحلتهم نحو الشمال،
إلى القرى التي لم تعد تذكر من المشرق سوى اسمه،
حيث الرياح تعوي في الأنقاض،
وحيث العيون تراقبهم من بعيد، بين الولاء والخوف.

في كل قريةٍ مرّوا بها،
كانوا يتركون خلفهم بذرة أملٍ صغيرة،
كأنهم يزرعون الأرض بالثقة بعد أن رُويت طويلاً بالدم.

وفي نهاية الأسبوع الثالث من الرحلة،
حين كانت الشمس تميل نحو الغروب،
قال رومان وهو ينظر إلى الأفق المائل للنار:

"لقد عدنا إلى المشرق يا سيدي... لكنه ليس كما كان،
الظلال ما زالت هناك، تنتظر من يُنيرها."

فردّ عليه الياس بنبرةٍ خافتةٍ كالنسيم :

"حين نعود... سيكون على ثيودور أن يقرأ من المخطوطة مرةً أخرى.
ربما حان وقت السطر الأخير في النبوءة القديمة.

النقطة الرابعة – طريق العودة إلى الكنيسة الأم

بعد أسابيعٍ من السير بين القرى، عاد الرسل الثلاثة نحو الجنوب،
حاملين معهم رسائل العهد، وأختام القبول من بعض القرى،
وصمتًا مطبقًا من قرى أخرى رفضت الحديث أصلًا، كأنها تخشى أن يسمعها الشيطان.

كانت الرحلة عودة إلى منبع كل شيء...
إلى الكنيسة الأم التي بدأت منها النبوءة، والتي تفرّعت منها اللعنة.

في الطريق، بدا الياس العجوز أكثر صمتًا من أي وقتٍ مضى،
كان يسير على خطاه كأنه يتتبع آثار نفسه القديمة،
وحين سأله رومان:

"أتخشى لقاءهم يا سيدي؟"
أجابه بصوتٍ كالموج الهادر في صدر الليل:
"لا أخشى اللقاء... بل أخشى أن نعود كما ذهبنا،
أن يسمعونا ولا يُصغوا، أن يروا ولا يبصروا."

اقتربوا من بوابات الكنيسة الكبرى عند الغروب،
كانت الأبراج شاهقة كأنها تخترق الغيوم،

والأجراس تدقّ ببطءٍ ثقيلٍ يشبه دقّ القلوب قبل الاعتراف الأخير.

استقبلهم الحرس بوجوهٍ باردة،
اقتادوهم إلى الردهة الكبرى التي تكسوها الزخارف المذهبة،
لكن خلف تلك الزخارف كان الصمت قاتلاً،
صمتٌ يشبه انتظار الحكم لا الترحيب.

وقف القاضي الثالث يتحدث باسم الوفد:

"جئنا باسم البحيرات، باسم الأرض التي قاومت اللعنة،
نطلب من الكنيسة المباركة أن تدعم طريق الصلح الحقيقي،
وأن تُثبت القرى التي اختارت السلام تحت راية مجلس البحيرات."

سكت، فدوّى صدى كلماته في القاعة،
ثم خرج السكرتير البابوي فرانس من خلف الستار الأحمر،
وجهه شاحب، عيناه مطفأتان من السهر أو التردد،
وقال بنبرةٍ فيها من البرود أكثر مما فيها من الإيمان:

"سمعنا أخبارًا عن تحركاتكم... وعن رسائل أنطونيوس وثيودور.
لكن الكنيسة تمرّ بمرحلةٍ حساسة، والبابا ما زال طريح الفراش.
قرارات كبرى كهذه تحتاج لموافقة المجلس البابوي،
والمجلس الآن... لا يرى أن الوقت مناسب لأي توسّعٍ جديد."

انحنى إلياس قليلاً، لكنه لم يتراجع خطوة،
وقال بصوتٍ خافتٍ عميق:

"نحن لا نطلب توسّعًا، بل نجاة.
المشرق يحترق من جديد،
وإذا سقطت البحيرات... فلن يبقى إلا الرماد، حتى على عتباتكم."

ساد التوتر في القاعة،
وانخفضت الإضاءة من نوافذ الزجاج الملون حتى صار المشهد أشبه بطقسٍ جنائزي.
تبادل فرانس والقضاة الكبار نظراتٍ غامضة،
ثم قال أحدهم بنبرةٍ متحفظة:

"الكنيسة الأم لا تتدخل في صراعاتٍ جانبية.
صلّوا لأجل المشرق... وربما ترسل السماء رحمةً جديدة."

كان الردّ أقسى من الرفض.
شعر الياس كأن شيئًا ينكسر في صدره،
بينما أطبق القاضي الثالث قبضته على مقبض سيفه القديم وكاد يتكلم،
لكن رومان وضع يده على كتفه يمنعه،
وقال بصوتٍ متماسك:

"السماء أرسلت رحمتها بالفعل... اسمها البحيرات،
ولن نسمح لأحد أن يطفئ نورها."

غادر الثلاثة الكنيسة بخطى بطيئة،

خلفهم الباب الضخم يُغلق بصوتٍ كأنّه يغلق على زمنٍ كامل.
كانت العيون تراقبهم من النوافذ،
لكن لا أحد تجرّأ أن يتحدث.

وفي الخارج، حين لامسوا هواء الليل البارد،
قال إلياس وهو ينظر إلى الأعلى:

"الكنيسة لن تتحرك... لكن الرب لا يترك الصامتين،
احفظوا ما رأيتم، فربما نُستدعى قريبًا... لا للسؤال، بل للشهادة."

تحرّك الثلاثة بصمتٍ في الطريق المظلم العائد نحو البحيرات،
وفي صدورهم إحساسٌ واحد:
أن الكنيسة، التي كانت بيت النور،
أصبحت الآن جدارًا يحجب النور عن العالم

– عودة الرسل إلى البحيرات وصدمة الصمت

كانت الليلة الثانية من اكتمال القمر حين ظهر الياس العجوز ورفاقه على ضفاف البحيرة،
خطواتهم كانت ثقيلة كأن كل واحدة منها تحمل خيبة وطنٍ بأكمله.
الريح الباردة القادمة من الشرق صفّرت بين القصب كأنها تهمس بما لم يقال في قاعة الكنيسة الأم.

خرج أنطونيوس ويوهان لاستقبالهم عند البوابة الشرقية،
ومن خلفهم كان ثيودور واقفًا بصمته المعتاد،
وجهه يكسوه النور الفضي للقمر، وعيناه تتبعانهم في سكونٍ يقطر انتظارًا.

ما إن اقتربوا حتى قال أنطونيوس بقلقٍ ظاهر:

"أين ردّ الكنيسة؟ هل حُسم الأمر؟ هل قبلوا بالعهد؟"

لم يُجب الياس على الفور.
تقدّم بخطواتٍ بطيئة، ووقف أمامهم ثم قال بصوتٍ متعبٍ متكسر:

"لم يرفضوا... ولم يقبلوا.
قالوا لنا: صلّوا لأجل المشرق،
وكأن الصلاة وحدها ستوقف الحديد والنار."

انحنى ثيودور برأسه، وكأن السكون في صدره تحوّل إلى زلزالٍ مكتوم.
اقترب منه رومان وهمس:

"لقد كانوا يسمعوننا يا ثيودور... لكن لم يُصغوا."

عندها رفع ثيودور نظره نحو السماء،
كانت السحب تتلبد على ضوء القمر كأنها تستعد للعاصفة،
وقال بهدوءٍ مزلزلٍ غيّر ملامح الحاضرين:

"إذن لن ننتظر أحدًا بعد اليوم.
الكنيسة اختارت الصمت... ونحن سنختار النور."

ثم التفت إلى أنطونيوس ومهربان:

"ابدؤوا من الغد،
أعيدوا بناء الأبراج على حدود الشرق،
افتحوا الممرات نحو القرى شمالا وجنوبا ،
وابعثوا إلى القرى التي ساندتنا في الحرب.
لن تكون البحيرات مجرد ملجأ بعد الآن...
بل فجرًا جديدًا للمشرق كله."

ساد الصمت بينهم للحظات،
ثم قال مهربان بنبرته القوية التي اعتادوا سماعها في المعارك:

"إنها ليست حربًا بعد الآن... إنها بعثة خلاص."

جلس الياس على صخرةٍ قريبة،
أخرج من جيبه رقعة صغيرة عليها ختم الكنيسة الأم،
رمى بها في النار المشتعلة أمامهم،
وقال وهو ينظر إلى اللهب المتصاعد:

"لقد طهّرناهم من عار الصمت... فلنطهّر أنفسنا من انتظارهم."

احترقت الرقعة، وارتفعت شرارة صغيرة في السماء
كأنها إعلان غير مكتوب لبداية مرحلةٍ جديدة،
مرحلةٍ لا تعتمد على الوعود ولا البركات،
بل على الإيمان الذي يولد من الجراح.

وبينما النيران تشتعل،
كانت البحيرات تغفو تلك الليلة بهدوءٍ مريب،
هدوءٍ يشبه السكون الذي يسبق العاصفة...
العاصفة التي سيُعرف بعدها اسم ثيودور في سجلات المشرق،
ليس كراهبٍ صامت،
بل كقائدٍ أضاء الصمت بالنور

– عهد البحيرات الجديد

مع بزوغ فجرٍ رماديّ فوق مياه البحيرات، كان كل شيء هادئًا...
هدوءٌ غريب لا يحمل سكون السلام، بل يقين البداية.
وقف ثيودور على الشرفة الحجرية المطلة على الممرات الجديدة التي شُقت بعد الحرب،
تحته كانت أصوات العمال، وصوت المطرقة على الصخر، وأصوات الجنود يعيدون بناء الأبراج القديمة،
كأن البحيرات تستعيد أنفاسها بعد قرونٍ من الكتمان.

اقترب منه أنطونيوس، درعه ما زال يحمل أثر الرماد والعرق،
وقال وهو ينظر نحو الأفق الشرقي:

"الطريق إلى المشرق بدأ يتفتح يا ثيودور،
لكننا بحاجة إلى حراسٍ أقوياء... وجنودٍ يعرفون الظلال كما يعرفون النور."

التفت ثيودور إليه بهدوءٍ وقوةٍ ممزوجتين بالإيمان وقال:

"الظلال لن تزول إلا عندما نحكم قبضتنا على النور،
أريد كل طريقٍ أن يُفتح باسم البحيرات،
كل قريةٍ أن ترى رايتنا وتعلم أننا لم نعد نحتمي... بل نحمي."

في الوقت ذاته، كان مهربان يجتمع برجاله وتجار قبيلته من أرض الأفيال — قبيلة الضّى —
جلس بينهم فى القاعة الخشبية الكبرى على ضفة البحيرة الثالثة،
أمامه خريطة كبيرة من جلود الحيوانات، وعلى مائدته رموزٌ رسمها بخط يده.

رفع رأسه وقال بصوتٍ جهوريٍ يشبه زئير الأسد:

"لن أعود إلى موطني إلا كتاجرٍ في مواسم التجارة.
هنا الآن بيتي، وأرضي، وأهلي.
من أراد منكم العودة فليعد، ومن أراد المجد فليبقَ معي."

ثم أشار إلى الخريطة حيث تقاطعت خطوطٌ حمراء مع ممراتٍ مائية صغيرة:

"سنجعل البحيرات مركزًا للتجارة بين الشرق والجنوب.
ستعبر القوافل من هنا بدلًا من طرق المشرق القديمة التي دمرها فان.
أخي سيقود تجار الضّى هناك، وأنا سأقودهم هنا...
لتصبح البحيرات القلب الذي يربط كل نبضة في هذه الأرض."

تصفيقٌ حادٌ دوّى في القاعة،
وامتزجت أصوات قبائلٍ مختلفة في هتافٍ واحدٍ لأول مرة:

"للبحيرات... وللنور!"

في المساء، اجتمع ثيودور وأنطونيوس ومهربان في قاعةٍ صغيرةٍ داخل الدير الجديد الذي أُعيد بناؤه فوق أنقاض الدير القديم.
وضع ثيودور أمامهم المخطوطة القديمة — تلك التي فُكَّت رموزها بالنور لا بالنار —
وأشار إلى سطرٍ صغيرٍ كتب بخطٍ غامضٍ منذ قرون:

"من هنا تبدأ العودة، لا إلى الأرض... بل إلى الحق."

قال أنطونيوس:

"إذن، الهدف ليس المشرق وحده، بل توحيد الأرض من جديد."

ابتسم ثيودور وقال بصوتٍ فيه صدى النبوءة:

"المشرق سيعود، لكن لا تحت صولجان أوغسطين،
ولا بخيانات الظل،
سيعود عندما يعرف الناس أن البحيرات لم تكن ملجأً... بل وطنًا."

ثم نظر إلى مهربان وقال:

"أنت ستكون جسرنا إلى الجنوب.
القوافل، والتجار، والممرات... كلها تحت إدارتك.
لن تمرّ سلعةٌ في الأرض إلا بإذنٍ من البحيرات."

رفع مهربان كأسه الخشبيّ، وقال بابتسامةٍ فخورةٍ:

"ومن يعبر دون إذننا... فليستعد ليواجه طوفاننا."

ضحك الجميع للحظةٍ قصيرةٍ كأنهم نسوا الحروب والجراح،
لكن تلك الضحكة كانت بداية فصلٍ جديدٍ تمامًا...
فصلٍ اسمه عودة المشرق.

وخارج القاعة،
كان الطائر — ذاك الكائن الغامض ذو العيون الحمراء —
يحلق فوق البحيرة الكبرى، يدور حولها ثلاث مراتٍ قبل أن يختفي في السحب،
كأنه يبارك العهد الجديد،
أو كأنه ينذر بأن القادم... أعظم

الفصل الثاني – تحرّكات البحيرات وردود الأفعال

(من الجزء الثامن: عودة المشرق)

مع انقضاء الأسبوع الأول من العهد الجديد،
كانت البحيرات تتحرك ككائنٍ واحدٍ استيقظ من نومٍ طويل.
الجنود، البنّاؤون، الكهنة، التجار، وحتى الأطفال...
الجميع يعملون في صمتٍ عجيبٍ يشبه النبوءة قبل أن تنطق.

عند الفجر، كانت صفوف القوارب الصغيرة تشق الماء في نظامٍ دقيق،
تحمل الرسل، والمهندسين، والخرائط.
رايات البحيرات البيضاء ذات الرمز الذهبي الجديد — الشمس تتوسّط الماء —
ترتفع على كل قارب، لتُعلن ميلاد عصرٍ جديد.

في القاعة العليا المطلة على الممرات،
وقف ثيودور ومعه أنطونيوس ومهربان والكفيف ورومان،
يتابعون خريطة التوسع الأولى على جدارٍ حجريٍّ عظيمٍ نُقشت عليه رموز المخطوطة القديمة.

قال أنطونيوس وهو يشير إلى المشرق الشرقي من الخريطة:

"هذه القرى كانت تحت حماية فان...
الآن بلا قيادةٍ ولا قانون.
إن دخلناها بقوةٍ، سنُتَّهم بالاحتلال،
لكن إن دخلناها بالعدل، فستدخلنا القلوب قبل الأسوار."

ردّ مهربان بنبرةٍ هادئةٍ حادةٍ في الوقت ذاته:

"العدل وحده لا يكفي يا أنطونيوس،
القوافل تُراقب، والطرق القديمة تُفتح من جديد.
من المشرق يأتينا الذهب، ومن الجنوب يأتينا الطعام.
الهيمنة لا تُؤخذ بالكلام، بل بالإقناع... وبالسوق."

أما ثيودور فظل صامتًا لوهلة،

ثم رفع رأسه وقال بصوتٍ منخفضٍ لكنه ملأ المكان:

"لن نحكمهم بالقوة، بل بالماء.
كل من يشرب من بحيراتنا... يصبح منّا.
سنرسل إليهم الماء والدواء والتعليم...
ثم نرسل إليهم رجالنا ليبنوا لهم الدير والكنيسة.
ومن أراد السلام فليأتِ، ومن أراد الحرب... فليحارب ظلاله."

في اليوم التالي، خرجت أولى قوافل التوسّع نحو الشرق.
قادها الياس العجوز ومعه القاضي الثالث وروما حامل رسائل مجلس البحيرات.
كانت الرسائل مختومة بختمٍ ذهبيٍّ جديدٍ يحمل توقيع ثيودور نفسه،
وفيها كلماتٌ لم تُسمع من قبل:

"البحيرات لم تعد أرضًا للمنفى،
بل وطنًا لكل من يريد الحق،
تحت راية القضاء الثلاثي والكنيسة الأم،
نمدّ أيدينا لا للحرب... بل للعودة."

مرّت القوافل على القرى المنهكة بعد الحروب،
قرى نُهبت، وأُحرقت، وفقدت رجالها وأطفالها.
وحين رأوا راية البحيرات البيضاء،
خرجوا بوجوهٍ مذهولةٍ كأنهم يرون النور بعد عتمةٍ طويلة.

امرأة عجوزٌ من قرية إسير ركعت أمام رومان،
وقالت بصوتٍ مرتجفٍ:

"قل لسيدك... كفانا ظلالًا.
نريد أن نعيش، ولو يوماً واحداً، في ضوءٍ لا يحرقنا.

صمت المشرق

في المقابل، لم يكن مارى في المشرق صامتًا.
فحين وصلته أنباء القوافل ورؤية رايات البحيرات،
اشتعلت الحيرة في صدره أكثر من الغضب.
كان يجلس في خيمته محاطًا بالقادة،
أمامه خريطة ممزقة نصفها منسية، ونصفها الآخر مغطى بالتراب.

قال أحد ضباطه بخوفٍ:

"يبدو أنهم يتوسّعون، يا قائد.
القُرى تتبعهم طوعًا... لا بالسيوف."

أطرق مارى رأسه،
ثم تمتم كأنه يكلّم نفسه:

"أوغسطين أمرنا بالصبر...
لكنه لم يقل شيئًا عن الصمت.
من يمنع النور إن كان يأتي من الماء؟"

ومع ذلك، لم يتحرك مارى... بعد.
ظل يراقب من بعيد، ينتظر أوامر سيده،
أو لعله ينتظر سببًا يخبر به نفسه لماذا لم يعد بإمكانه النوم دون أن يسمع في الحلم صوت الطائر ذي العيون الحمراء.

وفي البحيرات،
توسعت الحدود يومًا بعد يوم،
الرايات البيضاء صارت تُرى من المشرق حتى أطراف الشمال.
الناس يتحدثون، التجار يبتسمون،
والكهنة يقولون في صلواتهم:

"الحق عاد من الماء، والنور سيعود من الشرق."

لكن خلف هذا النور،
كان هناك ظلٌّ جديد يتحرك في صمت،
أشد هدوءًا من مارى... وأخطر من فان.
ظلٌّ لم يظهر بعد... لكنه بدأ يكتب اسمه في الظلام

قلق الكنيسة الأم

لم تمضِ سوى أسابيع قليلة على توسّع البحيرات،
حتى بدأ صدى ما يحدث هناك يصل إلى الكنيسة الأم كهديرٍ بعيدٍ من وراء الجبال.
في البداية، كانت الأخبار تُنقل على استحياء،
ثم تحوّلت إلى همساتٍ بين الكهنة،
ثم إلى جلساتٍ مغلقةٍ في الأروقة العليا،
وأخيرًا... إلى جلسةٍ طارئةٍ في القاعة الكبرى حيث يجلس البابا العجوز مريض الجسد، قويّ البصيرة.

دخل المبعوث فرانس وهو يحمل في يده لفائف مختومة بختم البحيرات.
تقدّم بخطواتٍ بطيئةٍ كأن الأرض تحت قدميه تتفكك.
في اللفائف رسائل من ثيودور باسم القضاء الثلاثي،
يعلن فيها استقلال البحيرات إدارياً تحت مظلة الكنيسة،
ويطلب الاعتراف بها كإقليمٍ تابعٍ للمشرق... لكن بحكمٍ ذاتي.

تبادل الحاضرون النظرات القلقة،
وانتشر في القاعة همسٌ يشبه أنين الخشب تحت المطر.
قام أحد الأساقفة، وقال بصوتٍ مرتعشٍ:

"إن تُركوا يتمددون أكثر، فلن تبقى للمشرق حدود!
منذ متى يقرر الرهبان مصير الأرض دون إذن الكنيسة؟"

أجابه آخر بنبرةٍ أهدأ لكنها أعمق:

"لكنهم قاتلوا عنا، وحموا حدودنا من الظلال...
سيدنا الراحل مات على تلّ النور وهو يرفع رايتنا.
كيف نوبّخ من أنقذ اسمنا من العار؟"

أما فرانس، فظل صامتًا للحظاتٍ طويلة،
ثم قال وهو يحدّق في الخريطة المعلقة على الجدار:

"أوغسطين يتحرك في صمت،
والبحيرات تتحرك في العلن...
والبابا في فراشه، ينام نصف نومٍ ونصف يقظة.
كلهم يظنون أنهم يخدمون الكنيسة،
لكن من فيهم يُنقذها فعلاً؟"

ساد الصمت،
ثم نادى الحاجب بصوتٍ متهدّجٍ:

"قداسة البابا يريد أن يتكلم."

ارتفعت الستائر الثقيلة عن الجهة الشرقية من القاعة،
وظهر البابا جالسًا على كرسيه،
وجهه شاحبٌ كالقمر في آخر الشهر،
لكن عينيه تشتعلان ببريقٍ لم يُرَ منذ سنين.

قال بصوتٍ ضعيفٍ، لكنه اخترق جدران القاعة:

"لقد سمعت بما يجري...
ثيودور لم يعلن العصيان، بل أعلن العودة.
لكن كل عودةٍ تحمل في طيّاتها خطر الفراق.
إن تُرك النور دون ظلٍّ، سيحترق.
ابعثوا برسالةٍ إلى أوغسطين...
واسألوه: أين يقف؟
مع الكنيسة... أم مع نفسه؟"

نظر فرانس نحو البابا محاولًا فهم ما وراء كلماته،
لكن البابا أغمض عينيه وقال جملةً أخيرةً قبل أن ينسحب الحضور بصمتٍ:

"المشرق عاد يتنفس...
لكن أحيانًا، عندما يعود التنفّس... يبدأ النزيف."

وفي طريقه إلى خروجه من القاعة،
همس فرانس في أذن أحد القساوسة الكبار:

"إنهم يجهزون لحربٍ جديدة...
لكن هذه المرة، لن تكون بالسيوف،
بل بالعقول... وبالأسرار التي لم تُكشف في المخطوطة بعد."

وفي تلك الليلة،
أُضيئت نوافذ الكنيسة الأم حتى الفجر،
كأنها تصلي خوفًا من أن يتحول نور البحيرات إلى نارٍ لا تُطفأ

الفصل الثالث – نُذر الظلّ من جديد

(من الجزء الثامن: عودة المشرق)

في مساءٍ ثقيلٍ يختنق فيه الهواء،
بدت سهول المشرق كأنها رماد معركةٍ لم تُدفن بعد.
داخل قاعة المؤتمرات الكبرى في دير الأنبا أوغسطين،
ارتفعت ألسنة الشموع على الجدران الحجرية،
لكن ضوءها لم يبدّد العتمة،
بل جعل ملامح أوغسطين أكثر قسوة،
وعينيه أعمق ظلامًا من الليل نفسه.

وقف القائد، ذراع أوغسطين اليمنى، صامتًا كتمثالٍ من الفولاذ،
يحمل في يده تقريرًا مختومًا من ماري، قائد المشرق المؤقت.
مدّه إلى سيده ببطء، وقال بصوتٍ خافتٍ يقطر رهبة:

"وردنا من المشرق، يا سيدنا، أن ماري نفّذ الأمر...
أوقف الهجوم، ثم فكّ الحصار بأمرٍ غامضٍ وصل إليه في اللحظات الأخيرة."

رفع أوغسطين رأسه ببطء،
وعلى شفتيه ابتسامةٌ تشبه تلك التي تسبق العاصفة.
أخذ الرسالة، فكّ ختمها بعناية،
قرأ السطور الأولى، ثم همس كمن يخاطب نفسه:

"أمرٌ غامض...؟ بل إرادة القدر."

اقترب القائد، مترددًا في السؤال،
لكن أوغسطين كان قد بدأ يحدّق في خريطةٍ ضخمةٍ نُشرت على الطاولة أمامه.
كانت تمتد من المشرق حتى أرض البحيرات،
وقد غرز فيها خناجر صغيرة تُشير إلى النقاط التي فقدها أو كسبها خلال الحروب الأخيرة.

قال القائد:

"إنهم يعيدون البناء في البحيرات، يا سيدنا.
أرسلوا الرسل شرقًا وغربًا،
وبدأوا بجمع القرى المنهكة تحت رايتهم.
والكنيسة الأم... تبدو قلقة من توسّعهم."

ضحك أوغسطين ضحكةً قصيرةً جافة،
ورفع نظره نحو سقف القاعة العالي:

"الكنيسة خائفة من ظلّها، لا من البحيرات.
البحيرات تظنّ أنها نجت من اللعنة،
لكنها نسيت أن الظلّ لا يُهزم... بل يُبدّل وجهه فحسب."

أشار إلى النقطة الفاصلة بين البحيرات والمشرق بخنجره،
ثم أكمل:

"هناك... عند هذا الحدّ،

ستولد من جديد يدُ الظلام.
ماري ليس سوى أداة.
لقد نفّذ ما أردته دون أن يعلم.
والآن... حان دورنا لإعادة التوازن."

اقترب القائد خطوة، وقال بنبرةٍ خشنةٍ يسكنها القلق:

"أتأمر بتجهيز الجيوش؟"

أجاب أوغسطين بصوتٍ خافتٍ لكنه قاطع،
كأن كل كلمة منه سيفٌ يُغرس في الأرض:

"ليس جيشًا واحدًا، بل جيش الظلّ الجديد.
نُعيد بناءه في الخفاء، لا في الساحات.
نزرع رجاله بين القوافل، بين التجار، بين الرهبان أنفسهم.
من لا يُرى... لا يُهزم."

ثم استدار نحو القائد وقال:

"أرسل رسالةً إلى الكنيسة الأم.
لتكن ممهورة بختم السلام،
وقل لهم إن أوغسطين يبارك توسّع البحيرات طالما هو تحت رعاية الكنيسة.
فليظنّوا أنني رجلُ سلام."

توقّف لحظة، ثم همس في أذن القائد بصوتٍ منخفضٍ كالسمّ:

"وفي الخفاء، أرسل الرسالة الأخرى إلى ماري...
وقل له: آن أوان جمع ما تبقّى من رجال فان،
فالظلّ لا يُدفن، بل ينتظر من يوقظه."

ارتجف القائد،
لكنه انحنى مطيعًا، وخرج من القاعة تاركًا سيده وحده أمام الخريطة.
مدّ أوغسطين يده إلى الشموع، وأطفأ إحداها بإصبعه العاري،
فصعد دخانها كأنفاسٍ تموت.

قال بصوتٍ لا يسمعه أحد:

"ها قد عاد المشرق إلى داري...
وسأعلّمهم أن النور نفسه لا يشرق إلا بأمر الظل."

وفي تلك الليلة،
خرج فارسٌ ملثّمٌ من دير أوغسطين،
يحمل رسالتين:
إحداهما مختومةٌ بختم السلام إلى الكنيسة الأم،
والأخرى مختومةٌ بختمٍ أسود... إلى قائد المشرق ماري،
تحمل عنوانًا واحدًا فقط:

"استيقظ يا ظلّ فان، فالليل لنا من جديد.

-استيقاظ الظلّ من جديد

)

في فجرٍ باردٍ غمرته غيومٌ رمادية،
جلس ماري في خيمته الكبيرة على أطراف المشرق،
أمامه خريطةٌ ممزقة الأطراف،
تحمل آثار الحروب الأخيرة التي أنهكت الأرض والرجال.
كانت الرياح تعصف بالأعلام فوق أسوار معسكره،
وصوت الجنود في الخارج كهديرٍ مكتومٍ من الخوف والتعب.

دخل إليه رسولٌ مقنّع يحمل ختم الأنبا أوغسطين الأسود.
انحنى، ثم قدّم الرسالة بخضوعٍ عميقٍ وقال:

"من سيدنا الأنبا، رسالةٌ عاجلة يا مولاي القائد."

أخذها ماري بعينين متعبتين،
فتح الختم بهدوء، وقرأ السطور القليلة المكتوبة بخطٍ يعرفه جيدًا:

"يا ماري،
لا تترك المشرق يستيقظ قبل أن تعيده إلى قبضتك.
هناك رجال من فان تائهون، اجمعهم.
هناك قوافل تمرّ، ازرع فيها رجالك.
وإن سُئلت، قل إنك تحمي البلاد من غوغاء الظلّ.
أنت ظلّي الآن، وإن أخطأت الطريق...
فلتبتلعك الظلمة التي صنعتها بيديك."

ارتعشت أصابعه،
لكن شيئًا من الحماسة المظلمة عاد يشتعل في صدره،
كأن النار القديمة لم تنطفئ بعد.
رفع رأسه وقال لمن حوله من الضباط:

"من اليوم... نُعيد النظام.
لن تُعرف الرايات ولا الوجوه،
سنُقاتل كما يقاتل الظلّ، لا يُرى ولا يُمسك."

في تلك الليلة، بدأت الحركة في صمت.
أُعيد توزيع الكتائب،
جنودٌ جدد وصلوا من الشمال ومن القرى المدمّرة،
ومن بقايا رجال فان الذين تاهوا بين الجبال،
عادوا يبحثون عن قائدٍ يملأ الفراغ الذي خلّفه سيدهم المفقود.
وماري فتح لهم الأبواب،
وأقسموا أمامه بأنهم سيُعيدون الهيبة للمشرق...
لكن ما لم يدركوه هو أنهم أعادوا معه لعنة الظلّ.

في اليوم الثالث،
وصلت أخبارٌ غريبة إلى معسكره:
حرائقٌ في أطراف الطرق المؤدية للبحيرات،
اختفاء قوافل تجارية،
واشتباكات صغيرة في القرى التي أعلنت ولاءها لمجلس البحيرات.

جلس ماري أمام مرآته البرونزية،
يتأمل وجهه الشاحب ويهمس:

"هكذا يبدأ كل شيء...
لا بالمدافع، بل بالظلال."

ثم أمسك بريشةٍ حبرها أسود،
وكتب رسالة قصيرة إلى الأنبا أوغسطين:

"تمّ جمع بقايا جيش فان.
رجالٌ بلا أسماء، بلا رايات،
جاهزون ليقاتلوا تحت أمرك... لا باسمهم، بل باسم الظلّ.
المشرق يهدأ من الخارج،
لكنه يغلي من الداخل كما أمرت."

في المساء،
بينما كان يُراجع أوامر انتشار الكتائب،
دخل عليه أحد الحُرّاس مذعورًا وهو يقول:

"مولاي... هناك أصواتٌ تُسمع من داخل الجبال،
كأن الأرض تنادي باسم فان!"

تجمّد ماري في مكانه،
ثم رفع رأسه ببطء وقال ببرودٍ قاتل:

"فليكن...
حتى إن عاد فان من موته،
فلن يجد إلا جيشه قد عاد قبله."

وبينما غابت الشمس عن المشرق،
كانت أعلامٌ سوداء صغيرة تُرفع في الخفاء فوق الأبراج،
تحمل نقشًا لا يعرفه إلا أوغسطين وماري:

عينٌ مفتوحة داخل صخرٍ أسود.

الرمز الذي سيُعلن للعالم —
أن جيش الظلّ الثاني قد وُلِد من رحم الخيانة من جديد استيقاظ الظلّ من جديد

في فجرٍ باردٍ غمرته غيومٌ رمادية،

جلس ماري في خيمته الكبيرة على أطراف المشرق،
أمامه خريطةٌ ممزقة الأطراف،
تحمل آثار الحروب الأخيرة التي أنهكت الأرض والرجال.
كانت الرياح تعصف بالأعلام فوق أسوار معسكره،
وصوت الجنود في الخارج كهديرٍ مكتومٍ من الخوف والتعب.

دخل إليه رسولٌ مقنّع يحمل ختم الأنبا أوغسطين الأسود.
انحنى، ثم قدّم الرسالة بخضوعٍ عميقٍ وقال:

"من سيدنا الأنبا، رسالةٌ عاجلة يا مولاي القائد."

أخذها ماري بعينين متعبتين،
فتح الختم بهدوء، وقرأ السطور القليلة المكتوبة بخطٍ يعرفه جيدًا:

"يا ماري،
لا تترك المشرق يستيقظ قبل أن تعيده إلى قبضتك.
هناك رجال من فان تائهون، اجمعهم.
هناك قوافل تمرّ، ازرع فيها رجالك.
وإن سُئلت، قل إنك تحمي البلاد من غوغاء الظلّ.
أنت ظلّي الآن، وإن أخطأت الطريق...
فلتبتلعك الظلمة التي صنعتها بيديك."

ارتعشت أصابعه،
لكن شيئًا من الحماسة المظلمة عاد يشتعل في صدره،
كأن النار القديمة لم تنطفئ بعد.
رفع رأسه وقال لمن حوله من الضباط:

"من اليوم... نُعيد النظام.
لن تُعرف الرايات ولا الوجوه،
سنُقاتل كما يقاتل الظلّ، لا يُرى ولا يُمسك."

في تلك الليلة، بدأت الحركة في صمت.
أُعيد توزيع الكتائب،
جنودٌ جدد وصلوا من الشمال ومن القرى المدمّرة،
ومن بقايا رجال فان الذين تاهوا بين الجبال،
عادوا يبحثون عن قائدٍ يملأ الفراغ الذي خلّفه سيدهم المفقود.
وماري فتح لهم الأبواب،
وأقسموا أمامه بأنهم سيُعيدون الهيبة للمشرق...
لكن ما لم يدركوه هو أنهم أعادوا معه لعنة الظلّ.

في اليوم الثالث،
وصلت أخبارٌ غريبة إلى معسكره:
حرائقٌ في أطراف الطرق المؤدية للبحيرات،
اختفاء قوافل تجارية،
واشتباكات صغيرة في القرى التي أعلنت ولاءها لمجلس البحيرات.

جلس ماري أمام مرآته البرونزية،
يتأمل وجهه الشاحب ويهمس:

"هكذا يبدأ كل شيء...
لا بالمدافع، بل بالظلال."

ثم أمسك بريشةٍ حبرها أسود،
وكتب رسالة قصيرة إلى الأنبا أوغسطين:

"تمّ جمع بقايا جيش فان.
رجالٌ بلا أسماء، بلا رايات،
جاهزون ليقاتلوا تحت أمرك... لا باسمهم، بل باسم الظلّ.
المشرق يهدأ من الخارج،
لكنه يغلي من الداخل كما أمرت."

في المساء،
بينما كان يُراجع أوامر انتشار الكتائب،
دخل عليه أحد الحُرّاس مذعورًا وهو يقول:

"مولاي... هناك أصواتٌ تُسمع من داخل الجبال،
كأن الأرض تنادي باسم فان!"

تجمّد ماري في مكانه،
ثم رفع رأسه ببطء وقال ببرودٍ قاتل:

"فليكن...
حتى إن عاد فان من موته،
فلن يجد إلا جيشه قد عاد قبله."

وبينما غابت الشمس عن المشرق،
كانت أعلامٌ سوداء صغيرة تُرفع في الخفاء فوق الأبراج،
تحمل نقشًا لا يعرفه إلا أوغسطين وماري:

عينٌ مفتوحة داخل صخرٍ أسود.

الرمز الذي سيُعلن للعالم ـــ
أن جيش الظلّ الثاني قد وُلِد من رحم الخيانة من جديد

الفصل الرابع – تحرّكات الظلّ الجديدة

لم يمرّ سوى ثلاثه أشهر على الهدوء الخادع،
حتى بدأت الأرض نفسها تهمس بما يُشبه النذر.
كان الناس في قرى المشرق يروون حكاياتٍ عن رجالٍ بلا وجوه،
يمشون تحت المطر كأنهم ظلالٌ تمشي فوق الماء.
الخيول تُرى في الفجر بلا فرسان،
وأصوات الأبواق تُسمع من بعيد ثم تختفي في الضباب.

في قلب تلك الفوضى،
جلس ماري قائد المشرق في قلعته الصغيرة قرب الحدود الشرقية،
وأمامه خرائطُ جديدة رسمها بنفسه،

فيها خطوط متشابكة تمتدّ من السهول حتى البحيرات.
كان يُعيد تشكيل الأرض كما يشاء،
يرى في كل طريقٍ فرصة،
وفي كل قريةٍ سلاحاً،
وفي كل إنسانٍ احتمالاً للخيانة أو الولاء.

من أوغسطين وصلته أوامر صريحة:

"ابدأ بما لا يُرى، ودع صدى أفعالك يسبق ظلك."

فنفّذها ماري بحذافيرها.
أرسل وحدات صغيرة،
تتحرك ليلًا بين القوافل،
يتركون رموزًا محفورة في الصخور:
رمز العين داخل الصخر الأسود — شعار فان القديم —
ليبدو وكأنّ "رجال فان" قد عادوا من الموت.

كان الهدف واضحًا:
زرع الرعب في القلوب،
ودفع البحيرات لرفع سيوفها قبل أن تعرف مَن عدوّها.

في اليوم الرابع من الشهر،
قُطعت ثلاث طرقٍ رئيسية تربط المشرق بالبحيرات،
واختفت قافلة محمّلة بالقمح والحديد،
ثم ظهرت عرباتها في الصباح التالي محترقةً بالكامل،
ورُسم على الرمال حولها ذلك الرمز نفسه.

وفي المساء، اجتمع ماري مع ضبّاطه،
وعلى الطاولة خريطة كبيرة مضاءة بمشاعل الزيت.
قال بصوتٍ ثابتٍ، لكنّ الشرّ كان يقطر من كلماته:

"الآن يظنّ الجميع أن فان قد عاد...
وأن أوغسطين يُقاتل اللعنة من جديد.
هذا ما نريده.
دعوا الناس يخافون من شبحٍ غير موجود،
وسنحاصرهم بخوفهم قبل أن نحاصرهم بسيوفنا."

تحركت وحدات "الظلّ الجديد" من ليلٍ إلى آخر،
رجالٌ يرتدون السواد الكامل،
يستخدمون طرقًا سرية وضعها الياس قديمًا،
لم يعرف عنها أحدٌ سوى الرهبان الأوائل.
لم يُشعلوا نارًا، لم يتحدثوا بصوت،
كانت أعينهم تلمع فقط كعيون الذئاب في الغابات.

وفي المقابل،
كانت البحيرات تراقب بصمتٍ،
الطائر ذو العيون الحمراء يحلّق فوق الممرات الشرقية،
ينقل إلى ثيودور إشاراتٍ غريبة،

رموزٌ تظهر في المخطوطة كلّما اقترب ظلّ من جهة المشرق.

بدأت المخطوطة تكتب نفسها من جديد.
والكفيف قال بهدوءٍ وهو يلمس الرموز:

"الظلّ الجديد لا يبحث عن النور... إنه يسعى لابتلاع النور."

في تلك الليلة الأخيرة قبل المطر،
كانت كلُّ الطرق تؤدي إلى مواجهةٍ لم يُعلن عنها أحد،
لكنّ الجميع شعر بها في قلوبهم،
كأنّ الهواء نفسه صار أثقل،
والسماء حبلى بصوت الحرب القادم

– اكتشاف البحيرات

في فجرٍ غامضٍ كئيب،
حين كانت الضبابات تزحف من فوق سطح المياه لتغطي البحيرات ككفنٍ أبيض،
استيقظت الأبراج على صرخات الحراس.
شيء ما يتحرك في الظلام.
لم تكن خيولًا ولا قوافل.
كانت ظلالًا بشرية تتسلّ بين الصخور ثم تختفي...
تُشعل نارًا صغيرة في البعد ثم تُطفئها في اللحظة التالية.

أسرع رومان إلى برج المراقبة الشرقي،
والطائر ذو العيون الحمراء يدور فوقه في دوائر متقطّعة،
ينعق بصوتٍ خافتٍ كأنّه إنذار.
نادى على ثيودور، الذي كان ساهرًا قرب المذبح الصغير يقرأ الرموز.
وعندما صعد،
أشار إليه رومان إلى جهة المشرق وقال:

"انظر... لم يعودوا أشباحًا، بل رجالٌ من لحمٍ ودم."

رفع ثيودور عينيه نحو الأفق،
ورأى في البعيد وهجًا خافتًا يتحرك ببطءٍ على الأرض كأنها نارٌ تمشي.
فتح المخطوطة،
فلمعت رموزٌ غريبة، ترسم شكل دائرةٍ داخلها خطوط متكسّرة.
همس الكفيف من الخلف:

"هذه ليست نارًا يا ثيودور... هذا ضوءُ من يبحث في العتمة عن قلب النور."

أرسل انطونيوس على الفور كتيبة من خمسين رجلًا،
يتقدمهم يوهان رغم جراحه القديمة،
للاستطلاع عبر ممرّات "الياس" القديمة.
كانت الرياح تعوي في وجوههم،
ورائحة الرماد والحديد تملأ الهواء.

مرّوا بقرى مهجورةٍ ظنّوا أنها آمنة،
لكنهم وجدوا على جدرانها رمز الصخر الأسود محفورًا بعناية،

نفس الرمز الذي رأوه في حرب فان.
وعند أطراف السهل الكبير،
وجدوا العشرات من الجثث بلا رؤوس...
رجالًا من البحيرات، وتجارًا من قبائل "الضّي"،
كأنّ أحدهم أراد أن يقول:

"الطريق مغلق... لا عبور بعد اليوم."

عاد يوهان في المساء وجهه متجهم.
وفي قاعة المجلس اجتمع الجميع – ثيودور، انطونيوس، الكفيف، ورومان.
قال يوهان وهو يضع سيفه على الطاولة:

"لم يعودوا أشباحًا، بل جيشٌ يسير خلف دخانٍ من أكاذيب."

أجاب الكفيف بصوتٍ كأنه قادم من الماضي:

"جيش الظلّ... لا يقاتل ليكسب، بل ليُطفئ نورنا."

وقف ثيودور أمامهم والمخطوطة في يده،
ورموزها تشتعل بخطوطٍ حمراء متداخلة،
وقال بهدوءٍ كمن يتنبأ بما سيأتي:

"إنهم يقتربون...
والمشرق لن ينهض إلا إذا أُغلِق باب الظلّ إلى الأبد."

وساد الصمت.
حتى الطائر ذو العيون الحمراء،
توقف عن الدوران،
وجثم على السارية الخشبية كأنه يترقب...
فالجميع أدرك أن الحرب التي أُغلِقت صفحتها يومًا،
بدأت تُكتب من جديد

الفصل الخامس – انفجار الحرب الخفية

من الجزء الثامن: عودة المشرق

لم يكن الفجر تلك المرة سلامًا،
بل كان صوت الحديد على الحديد،
ورائحة الرماد تمتزج بندى الصباح،
كأنّ السماء نفسها سقطت على الأرض تصرخ.

بدأ الأمر بخيوطٍ صغيرة من الدخان تتسلل من ناحية المشرق،
ثم دوّت صرخة الحراس من أبراج الحراسه :

"النار... النار قادمة من تحت الأرض!"

كان جيش الظلّ الجديد قد تحرك قبل الشروق بدقائق،
يقوده رجالٌ بوجوهٍ محروقةٍ نصفها رماد ونصفها بشر،
كأنهم خرجوا من جحيم فان نفسه.
لم يُرَ قائدهم،
لكنهم حملوا رايته القديمة:
"رمز الصخر الأسود" الذي عاد يشتعل على دروعهم.

أمر انطونيوس بقرع الطبول،
وانتشر المقاتلون من البحيرات بين الحقول والممرات المائية،
يركضون كما لو أن الأرض كلها تدافع عن نفسها.
السماء رمادية، المطر خفيف،
لكن كل قطرة كانت كأنها نغمة في سيمفونية الحرب.

في تلك اللحظة خرج ثيودور من قاعة المجلس،
وفي يده المخطوطة.
الرموز تتحرك كأنها تنبض بالحياة.
قرأها بصوتٍ خافتٍ بينما الطائر ذو العيون الحمراء يحلق فوقه في دوائر متقطعة،
حتى لمع الرمز الأخير على الورق كوميض برقٍ سريع،
وأدرك ثيودور ما تعنيه الجملة القديمة التي حُفرت على الصفحة:

"حين يبتلع الظلّ نوره، أطلق النور من بين العيون."

أرسلها إلى يوهان ومهربان عبر الرسل،
أن ينفذوا خطة "الانعكاس"،
التي كان قد خططها مع انطونيوس منذ معركة فان القديمة:
سحب جيش الظلّ إلى الأراضي الطينية،
حيث لا تثبت فيها الخيول،
ولا يعلو فيها الدخان إلا ويغرق في الطين.

وبينما اندفعت صفوف جيش الظلّ نحو السهل،
أطلق انطونيوس الأمر:

"افتحوا البوابات السفلى للمياه!"

فانفجرت البحيرات القديمة من باطنها،
واندفعت المياه كوحشٍ حر،
تحمل في طريقها الأشجار والجثث والنار.
صرخ رجال الظلّ،
تعالت صرخاتهم واختلطت بزئير الطائر،
بينما انقضّ مهربان من الجهة الشرقية بكتيبته الحديدية،
رجال "الضّي" الذين صاروا أبناء البحيرات،
يضربون بسيوفٍ قصيرةٍ تشق الهواء كصوت الغضب القديم.

سقط العشرات من الطرفين،
لكن الظلام بدأ يتراجع.
صرخ يوهان وهو يرفع سيفه الملطخ بالطين والدم:

"لأجل أبي... لأجل سيدنا الكبير!"

وردد الجنود خلفه كأنهم صدى الجبال،
فيصير صوتهم زئيرًا واحدًا يخترق الضباب.

في أعلى التل،
وقف ماری القائد المؤقت للمشرق،
ينظر إلى المشهد بعينين متوترتين.
لم يفهم كيف انقلبت الموازين بهذه السرعة.
الرسائل التي أرسلها عن "تأمين الطرق"
تحولت إلى لعنةٍ على رجاله أنفسهم.

أما ثيودور،
فقد جلس على ركبتيه أمام المخطوطة،
يقرأ الرموز من جديد بصوتٍ مرتجف:

"حين يسقط الظلّ، لا تنظر إلى الأرض... بل إلى النور الذي تتركه خطواته."

ومع آخر حرفٍ نطق به،
ارتفع الطائر ذو العيون الحمراء عاليًا،
ثم انقضّ على قائدٍ من قادة الظلّ فانتزع منه رايته،
وطار بها نحو الغرب...
إشارة النهاية.

⊡

كان الغروب تلك الليلة مختلفًا،
ففيه لم يُعلن نصرٌ، ولم يُرفع رايةٌ.
لكن الجميع شعر أن الظلام بدأ يتراجع أخيرًا،
وأن البحيرات، التي كانت يومًا منفى،
أصبحت الآن قلب المملكة النابض

الفصل السادس – نهوض المشرق من رماده

من الجزء الثامن: عودة المشرق

⊡

□ 1 التحرك نحو القرى القديمة والمشرق

في صباحٍ ثقيل برائحة الحديد المبتلّ،
وقف انطونيوس أمام خريطةٍ عُلّقت على جدارٍ من الطين،
إلى جواره يوهان بكتفه الملفوف بضمادةٍ ما زالت تنزف قليلًا،
ومهربان بعيونه الداكنة التي تحمل شغف المقاتل وتعب الرحّالة.
أما ثيودور فكان يجلس بصمتٍ إلى الطاولة،
وفي يده المخطوطة التي ما زالت تُلقي ظلال رموزٍ خافتة كأنها تتنفس.

قال ثيودور بصوته الهادئ الذي يقطّع الصمت:

"الرموز تتحدث الليلة... إنّ الطريق شرقًا انفتح."

فتح انطونيوس عينيه بدهشةٍ وارتجف صوته:

"المشرق؟ بعد كل هذا؟!"

أومأ ثيودور، والريح تمرّ من بين الخيام كهمسٍ غامضٍ يحمل وعدًا بعيدًا:

"المشرق... وطنهم القديم. أرض ماركوس وسيدنا الكبير، هناك بدأت اللعنة... وهناك يجب أن تنتهي."

وهكذا بدأت التحركات.
انطلقت الرسل نحو القرى القديمة الممتدة على ضفاف المشرق والضفة الشمالية،
يحملون رسائل مختومة بختم مجلس البحيرات،
تقول إن عهدًا جديدًا قد وُلد،
وأن الأرض التي نزفت دماءها لن تكون بعد اليوم ساحةً للملعونين،
بل بيتًا لمن يريد السلام.

تجاوبت بعض القرى،
خرج شيوخها من بين أنقاض بيوتهم،
ومعهم رجالٌ يحملون أسلحةً صدئةً وقلوبًا مخلصة.
أما القرى التي خافت، فكانت تنتظر،
تترقب من يملك الكلمة الأخيرة بين نور البحيرات وظل المشرق.

وفي فجر اليوم الرابع،
أمر انطونيوس بحركةٍ عسكريةٍ واسعة.
المشاعل اشتعلت في صفوفٍ متوازية،
وأصوات الطبول ارتدت بين الجبال،
كأن الأرض نفسها تصرخ: لقد عادت البحيرات لتُعيد المشرق إلى الحياة.

⊡

□ 2 الهزيمة المدوية لجيش الظل الثاني

لم يكد أسبوع يمرّ على حركة البحيرات شرقًا،
حتى خرجت من بين رماد السهول كتائب جديدة تحمل راية الصخر الأسود.
كانوا بقايا جيش الظلّ الثاني،
جنودٌ بلا ملامح، وجوههم كأنها مسحوبة من جحيمٍ قديم.

تقدّموا تحت غطاء الضباب،
وصار الهجوم ليلًا...
لكن انطونيوس كان قد تنبّه من الرموز الأخيرة التي فسّرها ثيودور.
ففيها قال الرمز:

"إذا تحرك الظلّ من الشرق، فأشعل النور في الغرب."

فأمر أن تُضاء القرى الغربية بمشاعلٍ ضخمة،
تنعكس ألسنتها على مياه البحيرات فتبدو كبحرٍ من نار.
ظنّ جيش الظلّ أنهم حُوصِروا من الخلف،
فدبّ الرعب في صفوفهم، وتراجعوا إلى منطقة المستنقعات.
هناك كانت الخطة الأخيرة بانتظارهم:
مهربان ورجاله من قبائل الضّي أغلقوا الممرات،
ويوهان من جهة الجنوب أطلق سهامه في الظلام،
وانطونيوس بنفسه تقدّم من المقدّمة كإعصارٍ من الفولاذ.

كانت معركةً بلا أصوات أوامر،
فقط قرقعة السيوف وأنين الطين تحت الأقدام.
عندما بزغ فجر اليوم التالي،
لم يتبقّ من جيش الظلّ الثاني أحدٌ يحمل رايته،
فقد ابتلعتهم الأرض كما تبتلع اللعنة صداها.

⊡

☐ 3 محاولة اغتيال ماري القائد المؤقت للمشرق

في المقابل، وفي الدير الكبير في المشرق،
جلس ماري القائد المؤقت خلف مكتبه الحجريّ،
يحدّق في الرسائل الكثيرة التي وصلته من أوغسطين.
كانت كلماته متناقضة:
"احمِ القرى... لا تثق بأحد... استعد للقاء الأخير."

أحسّ ماري بثقلٍ على صدره،
كأنّ ظلّ فان عاد يسكن خلف جدران الدير.
وفي تلك الليلة،
حين خرج يتفقد أسوار المشرق بنفسه،
أُطفئت المشاعل فجأة.
صوت طعنةٍ اخترق الهواء،
وسقط أحد حرّاسه مضرجًا بدمه،
وسيفٌ لامع مرّ أمام وجه ماري كبرقٍ قاتلٍ قبل أن يصده حارسه الشخصي.

اختفى المهاجم بين العتمة،
ولم يُرَ وجهه أبدًا،
لكنه ترك خلفه خنجرًا يحمل رمز الظلّ المحترق،
الرمز ذاته الذي خُتمت به أوامر فان القديمة.

جلس ماري بعدها على ركبتيه بين الدماء،
عيناه ترتجفان، وصدره يضيق بالذعر والشك:

"من الذي يعرف طريقي؟ من الذي أرسل هذا؟
هل فان حيٌّ فعلًا... أم أن أوغسطين بدأ يستبدلني؟"

لم يجرؤ أحد على الرد.
كانت الريح تعوي خارج الجدران،

كأنها تسخر من الجميع قائلة:

"الظلال لم تمت بعد... إنها فقط تنتظر من يُوقظها.

الفصل السابع — عرش أوغسطين المفقود

من الجزء الثامن: عودة المشرق

⊡

كان الليل ثقيلاً على جدران الدير الكبير،
والبرد يعضّ الحجر كما يعضّ الخوف القلوب.
في قاعة المؤتمرات الواسعة،
أضاءت الشموع أركان الغرفة بعناء،
وأمامها جلس أوغسطين في صمتٍ يشبه العاصفة قبل انفجارها.

على يساره جلس القائد، الذراع الحديدي،
وجهه غائر، عيناه لا تعرفان الرحمة،
وعلى يمينه بعض من مستشاري الكنيسة الذين لم يعودوا يعلمون إن كانوا رجال دين أم رجال حرب.

قال أوغسطين بصوتٍ عميق، كأنه يخرج من قاع بئرٍ قديم:

"لقد بلغني خبر محاولة اغتيال ماري... لم يفشل فحسب، بل كشف لنا من بقي من جيش الظل.
الآن، آن وقت الحسم.
إن لم أملك الكنيسة، فلن أملك المشرق،
وإن لم أملك المشرق، فلن أملك شيئًا."

رفع القائد رأسه، وقال بنبرةٍ خالية من الانفعال:

"هل تأمرني بالتحرك يا مولاي؟"

ابتسم أوغسطين ابتسامةً باهتة،
ثم قال ببطءٍ كأنه يُملِي قَسَمًا على التاريخ:

"لن نتحرك بالسيوف بعد... بل بالكلمة.
الكنيسة الأم تعبت، والبابا مريض،
وفرانسيس لم يعد يملك سوى صوته...
سنُعيد صياغة التاريخ قبل أن يُكتب ضدنا."

مدّ يده إلى خزانةٍ خشبيةٍ خلفه،
وأخرج منها وثيقة مختومة بالشمع الأسود،
رمز الظل القديم، لكنه هذه المرة بحدودٍ مذهّبة.

"هذا مرسومٌ جديد، سيُعلَن باسم البابا نفسه.
أرض المشرق وقرى الضفة تابعة للكنيسة،
لكن إدارتها الروحية والعسكرية تحت رعايتي أنا، أوغسطين،
إلى أن يشفى البابا أو يأتي عهدٌ جديد."

تبادل المستشارون النظرات،
بعضهم أدرك أن هذا يعني الاستيلاء الكامل على الكنيسة،
لكن لم يجرؤ أحد على الكلام.

أكمل أوغسطين، وصوته يزداد قسوة:

"القائد ماري سينفّذ الخطة دون أن يدري.
سيُعيد الأمن، وسينشر المراسيم في كل قرية باسم البابا،
بينما أنا أزرع في قلب كل راهب، وفي أذن كل جندي، أن خلاص المشرق لا يتم إلا بي."

سكت لحظة، ثم تابع وهو ينظر إلى صورةٍ معلقةٍ على الجدار ـــ صورة ذو اللحية البيضاء الذي قتله يومًا بدمٍ بارد:

"حتى ذلك العجوز لم يفهم أن الإيمان وحده لا يُحكم به العالم...
الآن سيعرف الجميع من هو خليفة الرب في الأرض.

في الليلة ذاتها،
جلس أوغسطين في غرفته الخاصة،
أمامه صندوقٌ قديم أُحضر من أرشيف المشرق،
وفي داخله ورقة من المخطوطة الأصلية ـــ الورقة التي لم يُكملها ثيودور.
كانت باهتة اللون، لكن رموزها بدأت تتحرك ببطءٍ تحت ضوء الشموع،
وكأنها تُذكّره بأن النار التي بدأها قبل سنوات لم تنطفئ بعد.

ابتسم وقال بصوتٍ خفيضٍ كأنّه يخاطبها:

"الطائر... المخطوطة... والراهب الصامت...
لن أتركهم حتى أُعيد كتابة القدر بأيديّ.

الفصل السابع عشر – المخطوطة الملعونة

من الجزء الثامن: عودة المشرق

▫

كانت الأخبار تنتشر في أرض المشرق كما ينتشر الرماد بعد حريقٍ عظيم.
كل قريةٍ، كل ديرٍ، كل بيتٍ كان يتحدث عن أمرٍ واحد:
أوغسطين أعلن المشرق تحت وصايته باسم البابا المريض.
لكن أهل قرى الضفة ـــ التي أصبحت الآن تحت راية البحيرات ـــ
لم يُصدقوا هذا الخبر بسهولة، بل رأوه إنذارًا جديدًا بأن الحرب لم تنتهِ بعد.

من هناك، من بين طرقٍ صنعها بيديه قبل سنوات،
كان الياس الكبير يسير مع القاضي الثالث ورومان،
يحملون معهم رسائل عاجلة إلى البحيرات.
فما سمعوه في المشرق لم يكن إشاعة عابرة،
بل يقينًا مؤكدًا بأن أوغسطين بدأ يتحرك من جديد،
وأن ظلال جيشه الملعون لم تُدفن بعد.

قال القاضي الثالث وهو يسير إلى جوار رومان:

"أوغسطين لا يرحم... حتى بعد هزيمته يزرع الخوف كما تُزرع النار في الحقول اليابسة."

ردّ الياس، وعيناه تلمعان بقلقٍ خفي:

"لقد سمعتُ أن معه ورقة من المخطوطة القديمة... ورقة وحيدة، لكنها تكفي."

توقف رومان لحظة، ثم قال بصوتٍ مرتجف:

"المخطوطة؟! لكن ثيودور يمتلك النسخة الوحيدة!"

ابتسم الياس بأسى وقال:

"ربما لم تكن الوحيدة... ربما هناك ما خفي عنا منذ البداية."

⊡

في البحيرات،
كان الكفيف يجلس قرب الطائر الذي عاد منذ أيامٍ يحمل أثر الحبر المحترق على جناحه.
أمامه المخطوطة الأصلية مفتوحة،
رموزها ترتجف، تشتعل ثم تخبو كأنها تحاول التحذير من شيءٍ ما.

دخل رومان مهرولًا، ومعه رسائل المشرق.
قرأ ثيودور الخبر، ووقف صامتًا طويلًا،
بينما الكفيف كان يُمرر أصابعه على الرموز المتبدلة في الصفحة الأخيرة.
ثم قال بصوتٍ متهدّجٍ من الخوف والدهشة:

"لقد استفزّها...
أوغسطين لم يستخدم الورقة التي وجدها كمرشدٍ أو سلاحٍ، بل كعقدٍ عكسيّ.
لقد فعّل الوجه المظلم من المخطوطة،
كما لو أنه يعيد اللعنة التي عطلناها عند البئر القديم!"

تبادل الجميع النظرات المذعورة.
قال ثيودور بجمود:

"إنها لا تعمل كالسحر، بل كالعقل... إذا أُسيء استخدامها،
تعطل ما حولها.
لقد بدأت المخطوطة الأصلية تضعف، رموزها تختفي شيئًا فشيئًا."

تقدّم رومان، وقال:

"هل هذا يعني أن جيش الظل سيعود؟"

ردّ الكفيف بصوتٍ خافتٍ كأنه نذير:

"ليس يعود... بل يتبدّل.
من الرموز التي تقرأ النور، إلى رموز تعمل في الخفاء.
هذه المرة، الظلّ لن يُرى بالعين."

⊡

في الجهة الأخرى،
في قصرٍ حجريٍ عظيمٍ مطلٍ على المشرق،
جلس أوغسطين أمام الورقة التي نُزعت من المخطوطة الأصلية.
كان ينظر إليها بعينٍ واحدةٍ متقدة،
وفي يده قطعة من شمعٍ أسود يمررها على الحروف الغامضة،
فتنطفئ سطور وتُولد أُخرى مكانها.

قال لنفسه مبتسمًا:

"لن أُحاربهم بسيفٍ أو بجيش... بل بما كُتب قبل وجودهم.
المخطوطة كانت سلاحهم، والآن ستصبح لعنتهم."

⊡

وفي الليلة التالية،
وبينما العاصفة تعصف بجبال المشرق،
ظهر في الممر الخلفي للدير رجلٌ متهالكٌ يسحب رجله الميتة خلفه،
عيناه تغرقان في الظلال،
وفي يده لفافةٌ صغيرة من جلدٍ قديم.

اقترب من الحراس، وقال بصوتٍ مبحوحٍ مبحرٍ في العجز:

"أبلغوا أوغسطين أن... يوشع العجوز قد آتى
ومعه الورقة التي لم تُكملها الأزمنة.

⊡

كان الليل خانقًا على الدير الكبير،
والعواصف تضرب أسطحه كما لو أنّ السماء تُحذّر من أمرٍ يوشك أن يُولد من رحم الظلام.
في غرفته الواسعة، جلس الأنبا أوغسطين أمام موقدٍ خافت اللهب، يقرأ تقارير مارى عن تحركات البحيرات وامتداد نفوذها شرقًا.
لكن عينيه لم تكن على الورق، بل على جدارٍ خلفه،
حيث علّق خريطة قديمة محفورة بخطوطٍ ملتوية تشبه رموزًا نُسيت منذ قرون.

مدّ أوغسطين يده، ودقّ الجرس ثلاث مرات.
دخل القائد – الوحش الصامت – في صمتٍ كامل، كعادته.
قال أوغسطين دون أن ينظر إليه:

"هل وصل المبعوث؟"

أومأ القائد برأسه.

ثم فُتح باب القاعة ببطء،
ودخل رجلٌ أشعث، منحني الظهر، يجرّ قدمه كأنّه يخرج من قبرٍ قديم.
كان هو يوشع بن عازر، اليهودي العجوز، آخر نُسّاخ العهد الأول...
الذي أمرت الكنيسة بنفيه قبل ثلاثين عامًا بتهمة الكفر وتحريف النصوص.

رفع أوغسطين عينيه نحوه وقال بصوتٍ منخفضٍ كالسيف حين يُسحب من غمده:

"يا يوشع... قلتُ لك يومًا إننا سنلتقي حين أحتاج نارك القديمة.
وقد جاء وقتها."

اقترب العجوز وهو يضحك ببطء، ضحكةً مبحوحة تشبه احتكاك العظام، ثم قال:

"أعلم، يا سيد الدير.
لقد شعرتُ بالحروف تناديك من بعيد.
كل من يقترب من المخطوطة لا ينجو منها."

مدّ يوشع يده المرتجفة وأخرج من جيب ردائه قطعة قماشٍ كتانية، فتحها بعناية،
فانكشفت ورقة صغيرة بلون العاج القديم، محفورة عليها رموز تتحرك بخيوطٍ داكنة كأنها دماء تجفّ.

اقترب أوغسطين منها، نظر طويلاً ثم همس:

"هل هذه هي الورقة التي حُذفت من الأصل؟"

ردّ يوشع وهو يحدّق في الرموز:

"هي تلك التي لم يُكملها الناسخ الأول... الورقة التي كتبت اللعنة ولم تختمها."

صمتت القاعة لحظةً، إلا من صوت المطر الذي يسيل على النوافذ كدمٍ بارد.
قال أوغسطين بهدوءٍ مرعب:

"أريدها.
أريد أن أفهم كيف استطاع الراهب الصامت أن يُحرك طائره.
أريد أن أُخمد تلك النار بنفس رموزها."

ضحك يوشع، ثم قال:

"من يفتح رموزها سيُفتح عليه بابٌ لا يُغلق.
الورقة لا تطيع أحدًا... إنها تختار."

لكن أوغسطين كان قد قرّر.
مدّ يده بخفة، وانتزع الورقة من بين أصابع العجوز.
حين لامستها أصابعه، اهتزّ الضوء في القاعة وارتجفت الجدران كأنها تتنفس.
سقطت بعض الشموع، وانطفأ بعضها الآخر،
وظهرت على الجدار المقابل ظلالٌ تشبه وجوه فان، وسيدنا الكبير، وذو اللحية البيضاء،
كأن الماضي نفسه يرفض أن يُمحى.

تراجع القائد نصف خطوة، أمّا أوغسطين فابتسم ببرودٍ وقال:

"سنرى، يا يوشع...
إن كانت اللعنة تخدم أحدًا، أم أنني سأجعلها تسجد لي."

ثم التفت إلى قائده وأمره:

"من هذه الليلة، لن نحارب بالسيوف.
سنحارب بالرمز ذاته... بالخطأ الأول الذي بدأ كل شيء."

أما يوشع، فحين خرج من القاعة تمتم بصوتٍ مبحوح:

"احذر، أيها القديس الزائف...
من يمسك النار بيده لن يعرف الفرق بين الضوء والاحتراق."

وفي تلك اللحظة نفسها،
في البحيرات، صرخ الطائر ذو العيون الحمراء صرخةً مدوّية،
استيقظ ثيودور مذعورًا، والرموز في المخطوطة أمامه بدأت تتغيّر.
مدّ يده على الصفحات، وقال للكفيف بصوتٍ مرتجف:

"لقد تحرّكت الرموز...
أوغسطين فتح الباب الذي أغلق منذ زمن.

الفصل التاسع عشر – انبعاث العين وعودة جيش الرموز

كانت الليالى الأخيرة فى دير أوغسطين تشبه الفجر المريض،
ضوءٌ بارد يخرج من النوافذ الحجرية، وصدى خطواتٍ فى الممرات لا مصدر له.
جلس أوغسطين أمام الجدار الذى حمل رموز يوشع،
عينٌ كبيرة محفورة فى قلب الطين الأسود،
تحدّق فيه حتى كأنها تراه لا العكس.

قال بصوتٍ خافتٍ إلى يوشع:

"لقد استجابت، لقد فُتحت العين."

لكن يوشع، الذى صار ظلًّا من الخوف، تمتم وهو يرتجف:

"سيدي، العين لا تُفتح إلا إن وُجد دم.
من تراها تطلب هذه المرة؟"

لم يُجب أوغسطين، بل غمس إصبعه فى إناء من الرماد،
ورسم على الأرض دائرةً تحيط بالرموز،
ثم نطق بالعبارات القديمة التى لم يسمعها أحد منذ عصور.
الهواء تغيّر، والجدران نبضت كصدرٍ ينهض من قبر.

⊡

ميلاد جيش الرموز

في المشرق، حيث المعسكرات الهادئة بقيادة مارى،
بدأت الظواهر الغريبة تُربك الجنود.
رجالٌ يسيرون فى الليل بلا وجوه،
خيامٌ تُفتح من تلقاء نفسها،
جنودٌ يستيقظون ليجدوا على أذرعهم رموزًا من دمٍ جاف.

أحد الحراس صاح:

"الظلّ يتحرك، إنه معنا!"

وفى اليوم الثالث، عند شروق الشمس،
خرج من بين صفوفهم جيشٌ لا يُشبه البشر:
أجسادهم كالعظام المغلّفة بالرماد،
عيونهم كأنها الثقوب التى نُزعت منها الروح.
كانوا رجال المشرق الذين ماتوا فى معارك فان وجيش الظلّ القديم،
قد عادت أجسادهم بإرادة العين التى أيقظها أوغسطين.

مارى، الذى لم يفهم ما جرى،
ظنّها معجزة،
وراح يأمرهم بالتحرك نحو الشرق.
لكن كلما أصدر أمرًا، مات أحد جنوده الأحياء.
كلما تحرّك صفٌّ، انطفأ سراج فى المعسكر.

حتى فهم متأخرًا أن هذا الجيش لا يسمع له...
إنما يسمع لصوتٍ آخر قادم من الدير الكبير.

وفى ليلٍ مروّع،
هجم جيش الرموز على بعض جنود مارى أنفسهم،
كأنهم يُعيدون ترتيب الولاء. دمرت لعنه اوغسطين رجاله هو فى المشرق
عند الفجر، كانت أرض المشرق مغطاةً برمادٍ رمادى،
هو بقايا أولئك الذين لم يعرفوا لمن يُطيعون.

⊡

الفصل العشرون – صراع البحيرات واللعنة

بينما كانت اللعنة تمتدّ عبر المشرق،
كانت البحيرات تُحارب على جبهتين:
جبهةٍ من الظلال، وأخرى من الخوف.

السماء فوقهم لم تعرف صفاءً منذ أسابيع،
الطائر ذو العيون الحمراء يدور بلا توقف،
يحوم حول ضوءٍ غامضٍ فى مركز البحيرة الكبرى،
حيث كان ثيودور يقف أمام المخطوطة،
ينتظر رموزها أن تُجيب كما أجابت أوغسطين من قبل.

قال الكفيف بصوته العميق:

"المخطوطة لا تقاتل بالسيف... بل بالنية.
ما كُتب بالنور يُمحى بالدم،
وما خُطّ بالدم لا يُمحى إلا بالنور."

حينها، انشقّ نورٌ خافتٌ من المخطوطة،
ليس كوميضٍ خارجيٍّ بل كوميضٍ داخليٍّ فى صدور من حولها،
رأى كلٌّ منهم طريقه:
انطونيوس إلى الجنوب،
يوهان إلى الشرق،
ومهربان إلى الضفة البعيدة.

بدأت حربٌ من نوعٍ آخر:
ليست فيها طعناتٌ أو دماء،
بل حربُ رموزٍ تتصارع فى الصمت.

فى المشرق، كانت الرموز السوداء تحرق الأرض من الداخل،
وفى البحيرات، كانت رموز النور تُكتب على الماء،
كلما اشتعلت نارٌ هناك، أطفأتها البحيرات من هنا.
صراعٌ عصبيّ، نفسىّ، وتكتيكيّ لم تعرفه الجيوش من قبل.

⊡

– بوادر العهد الجديد

بعد أربعين يومًا من المعارك غير المرئية،
انطفأت العين فى دير أوغسطين،
وتكسّرت الرموز على جدرانه كما تتكسر الزجاجات بعد صرخة.
اللعنة التى أطلقها يوشع لم تمت،
لكنها عادت إلى صاحبها الأول.

وفى فجرٍ غامض،
رفرفت راية البحيرات على حدود المشرق كاملة.
لم يعلن أحد النصر،
لكن الكلّ علم أن الشرق قد عاد.

كان ثيودور يقف عند ضفة البحيرة،
المخطوطة فى يده، والطائر على كتفه،
وقال بصوتٍ يسمعه الماء ولا يسمعه البشر:

"كلما سقط ظلٌّ فى المشرق...
نهض نورٌ فى البحيرات.

الليل تلك الليلة لم يكن ككل الليالى،
هواء المشرق تحوّل إلى صريرٍ من نارٍ خفيّة،
والأجراس فى الدير الكبير قرعت من تلقاء نفسها،
كأنّها تُنذر بولادةٍ ثانيةٍ للّعنة... أو موتها الأخير.

داخل قاعة المؤتمرات المظلمة،
كان أوغسطين جالسًا وحيدًا،
وأمامَهُ الورقة القديمة، ورقة العين،
التى كانت من نفس أصل المخطوطة التى يملكها ثيودور.
كانت ترقد على المائدة الحجرية،
تحمل رموزًا صارت تتحرّك كأنّها تتنفّس.

أخذ أوغسطين يهمس،
كلماتٍ كان قد سمعها من فم يوشع قبل أيام:

"النور يُطوى فى الظل،
والظلُّ يُحرق بالنور."

لكن الرموز لم تَطِعْه هذه المرة.
ارتفعت الورقة من فوق الطاولة،
اشتعلت بلهيبٍ أزرق مائلٍ إلى الأسود،
وانفجرت بنيرانٍ لم تُصب شيئًا سوى صدر أوغسطين نفسه.

صرخ صرخةً أرعبت الدير بأكمله.
هرع الجنود والحرس، فلم يجدوا سوى رمادٍ أسود
يغطّى المائدة، ورائحة لحمٍ محروقٍ ممزوجٍ بالدم.
الورقة تحولت إلى رماد،
لكن أثرها ظلَّ يلمعُ كنجمةٍ سوداء على راحة يده.

وقف يوشع فى الظلّ يراقب ما جرى،
عيناه الزجاجيتان تلمعان كالخوف،
تمتمَ بصوتٍ أشبه بنشيجٍ شيطانى:

"لقد تجاوز النور حدَّه... سيولد غيره."

ثم اختفى من الدير كما يختفى الدخان من بين الأصابع،
لا أثر له إلا بابٌ مفتوحٌ على ليلٍ أبديٍّ فى الجهة الشرقية من الممرّ.

⊡

الهروب إلى المنفى

كانت الريح تصرخ بين الصخور كأنها تلعن كل من مرّ من هنا،
يوشع واقف عند باب المنفى، جسده يرتجف بين خوفٍ ويقين،
والورقة الصغيرة في يده بدأت تتوهّج بنورٍ داكنٍ كأنها تنبض بالحياة.

من أمامه، خرج الوحش المقيّد،
خطواته تُحدث صدى عميقًا في الأرض،
سلاسله تجرّ خلفه صرير الحديد على الحجارة،
وعيناه تحترقان بضوءٍ أحمر كجمرٍ في جليد.

تبادل الاثنان نظراتٍ طويلة،
فيها ماضٍ ثقيلٌ لم يُقال،
وصوت الوحش خرج كصوت جرحٍ قديمٍ يُفتح من جديد:

"يوشع... أتيتَ أخيرًا؟ أكنتَ تظن أن المنفى مقبرة؟"

أجابه يوشع وهو يرفع الورقة أمامه،
والرموز تتحرّك ببطءٍ كأنها تستيقظ من نومٍ طويل:

"لم آتِ للدفن، بل للإفراجِ... لقد حان وقت الخروج."

تقدّم الوحش خطوة، فانكسر الضوء على جسده،
وانتشرت الظلال من حولهما كأنها تتنفس،
ثم قال بصوتٍ أخف:

"هل تعرف ما تفعل يا يوشع؟ ما تخرجه لن يعود إلى القيد."

أغلق يوشع عينيه،
ورفع الورقة نحو السماء،
فانطلقت منها ومضةٌ حمراء اخترقت الظلام،
يوشع :"استعد ساحضر المفاتيح لفك الاغلال
حان موعد عوده الظلام

قال يوشع آخر كلماته، صوته ممتزج بالريح والنار:

"لقد تأخر الزمن كثيرًا... الآن فقط، يبدأ العدّ العكسي.
حان وقت الخروج."

ثم انطفأ كل شيء.
سكونٌ ثقيلٌ لفّ المكان...
قبل أن يُسمع في البعيد صدى زئيرٍ عظيم،
كأن الأرض نفسها تنذر بميلاد جديد للظلام

▫

إرث المشرق الأخير

مع شروق اليوم التالى،
كان يوهان يقف عند بوابة المشرق،
حيث بقايا القلاع التى بناها ذو اللحية البيضاء.
ريحٌ باردةٌ تمرّ على وجوه الجنود الذين وجدهم بعد بحثٍ طويل،
كانوا رجال أبيه،
أولئك الذين أسرهم فان ومارى بامر اوغسطين منذ استيلائهم على المشرق
والذين ظنّ الجميع أنهم ماتوا فى وقت محرقه المشرق

قال يوهان بصوتٍ خافتٍ،
كأنه يحدّث أطياف الماضي:

"لم يمت أبي... ولا سِيدنا... ولا ماركوس.
ولا إيليا ..ولا إسحاق ..ما دام فينا رمق، ستعود المشرق.
نحن الإرث الأخير... وسنكتب البداية من جديد."

الطائر ذو العيون الحمراء حلق فوقهم،
وأصدر صرخةً تشقّ السماء.
الماء فى البحيرات اهتزّ كأنّه يسمعها.
اللعنة انطفأت مؤقتًا،
لكن الرماد لا يزال ساخنًا...
ينتظر من ينفخ فيه

انتهى الفصل الثامن

—-
الجزء التاسع ؛قيامه المشرق🌞 وحرب الظلام

الفصل الأول: نهوض الراية القديمة

كانت السماء مغيمه كأنها تتهيأ لولادة عاصفةٍ جديدة،
والريح تعبر أراضي المشرق الحزينة، تمرّ فوق الخرائب والمعابد المهدّمة،
فترتجف جدرانها وكأنها تتذكر صدى الحروب القديمة.

عند تخوم الواد المقدّس، وقف يوهان،
ابن ذو اللحية البيضاء، على صخرةٍ عاليةٍ تطل على المدى البعيد،
ومن خلفه أنطونيوس وثيودور والكفيف ومهربان،
تنتشر خلفهم رايات البحيرات وقد عاد إليها اللون الأزرق،
لون الحياة بعد الخراب.

أمسك يوهان بحدّ سيفه العتيق، السيف الذي ورثه عن أبيه،
ذلك السيف الذي شهد أول دمٍ أُريق دفاعًا عن الحق،
وقال بصوتٍ حمل رنين التاريخ:

"من هنا بدأ أبي طريقه... ومن هنا سنعيد المشرق إلى النور.
اليوم لا نغزو، بل نُعيد الأرض لأصحابها.
المشرق لن يُحكم بعد الآن بالخوف ولا باللعنة."

أشار ثيودور نحو الأفق،
حيث تتلألأ الضفة الشرقية بنور المعسكرات الجديدة،
جنود البحيرات يرفعون رايةً جديدة
نُقش عليها شعار الشمس فوق الماء،
رمز التحالف المقدّس بين البحيرات والمشرق.

في تلك اللحظة، وصلت رسائل الياس الكبير والقاضي الثالث من الكنيسة الأم:
تُعلن اعترافًا مبدئيًا بتحالف المشرق والبحيرات
تحت مظلة السلام الجديد،
لكنها تحذّر أيضًا من أن "الظلال لم تمت بعد،

وأن المشرق ما زال يخفي في جوفه رماد اللعنة القديمة."

ردّ يوهان بهدوءٍ وحزمٍ أمام الجميع:

"اللعنة وُلدت من الخيانة،
ونحن سنقتلها بالوفاء.
هذه الأرض لأهلها،
ولن يبقى بعد اليوم من يحكم باسم الظلام."

ارتفعت الرايات،
وهتف الجنود باسم البحيرات والمشرق معًا،
بينما الطائر ـــ طائر النبوءة ـــ
دار في السماء فوق رؤوسهم،
يحمل بين جناحيه بقايا رمادٍ من زمنٍ مضى،
كأنه يُعلن أن القيامة قد بدأت.

وبينما تقدّمت الجيوش نحو أول قرى المشرق،
كانت العيون تراقب من بعيد...
من فوق جبلٍ غارقٍ في الضباب،
حيث يقف رجلٌ ذو وجهٍ مغطّى بالسواد،
وصوته المبحوح يتمتم في الريح:

"عادوا... لكن المشرق لا يُعطى بسهولة.
فالنور دائمًا يولد من بطن الجحيم."

وهكذا بدأت قيامة المشرق ـــ
حربُ الظلال الأخيرة بين أبناء النور وورثة اللعنة

⚔️ الفصل الثاني: صدى اللعنة

لم يكن الفجر قد اكتمل بعد،
حين سقطت آخر رايةٍ من رايات جيش مارى أمام الرياح القادمة من المشرق.
كان مارى يجلس وحيدًا أمام خيمته الكبيرة،
وجهه مغطّى بالرماد، وذراعه تدمى من جرحٍ لم يُشفى بعد.

جيشه تحوّل إلى رمادٍ من جديد...
جيش الرموز ـــ الذي صنعته يد أوغسطين، عاد عليه كاللعنة.
تبدّلوا إلى وحوشٍ بوجوه بشر،
قاتل بعضهم بعضًا، وسقطت الخيام كأنها عروشٌ من رمال.

في الدير الكبير، وقف أوغسطين في قاعته الحجرية المظلمة،
والبرد يملأ المكان رغم نيران المشاعل.
كان أمامه المقعد الخالي ليوشع ـــ ذاك الذي هرب بورقته،
وحين مدّ يده نحو الصندوق الحجريّ، وجد الورقة قد احترقت تمامًا،
وانبعث منها رمادٌ أسود خفيف كأنها أنفاس شيطان.

ضرب بيده على الطاولة فاهتزت أركان القاعة، وقال بصوتٍ يشبه الرعد:

"اللعنة عادت إلينا...
والرموز لم تُخلق لتُستخدم بل لتُفهم!
من لم يدرك هذا، فليُدفن مع رماده."

أمر أوغسطين أن يُغلق الحديث عن جيش الرموز،
وأرسل رسالة سريعة إلى مارى في المشرق:

"ثبّت رجالك، وأعد بناء الطرق،
دع البحر يهدأ والناس تنسى.
أنت ظلّي في المشرق، فابقَ ظلًّا لا يراك أحد."

لكنّ مارى لم يكن قادرًا حتى على لملمة أشلاء رجاله،
كانت الأرض تصرخ تحت قدميه من شدة ما أراق من دمٍ فيها.

وفي تلك الليلة نفسها، على الضفة الأخرى من البحيرات،
جلس ثيودور في معبدٍ صغيرٍ من الخشب،
وبجانبه يوهان يحمل سيف والده القديم —— السيف الذي شهد سقوط فان.

قال ثيودور بصوتٍ هادئٍ، لكن فيه حِدةٌ تشبه النصل:

"اللعنة التهمت الرموز، ودمّرت جيشهم،
والمشرق الآن بلا حاكمٍ حقيقي.
إنها الفرصة التي انتظرناها منذ مقتل سيدنا."

ردّ يوهان بنظرةٍ ثابتةٍ ووجهٍ مثقلٍ بالجراح:

"المشرق... أرض أبي،
لن أتركها ظلاً لأوغسطين ولا مقبرةً لماري.
إذا كان الطريق مفروشًا باللعنة،
فليكن، وسنسير فوقها حفاة حتى نبلغ النور."

رفع أنطونيوس رأسه من خلفهما وقال:

"لدينا الخريطة، ولدينا الرموز،
وكل ما نحتاجه الآن...
أن نُشعل الحرب مرةً أخيرة باسم الحقّ."

مدّ ثيودور يده على المخطوطة،
فلمعت الرموز بخفوتٍ كأنها تنبض للمرة الأولى منذ زمنٍ بعيد.
كانت تشير إلى طريقٍ جديد...
طريقٍ يمر عبر البوابات الشرقية للمشرق

⚔️ الفصل الثالث: مفاتيح المشرق

تحركت القوات من البحيرات مع أول ضوءٍ من الشمس،
خمسة ألوية من المشاة، وثلاث سرايا من فرسان مهربان،

ومجموعة الكشافين بقيادة رومان،
الذي كان يردد دائمًا:

"من لم يَعُد، فليعد كريحٍ تحمل ذكرى النصر."

كانت القرى الشرقية المضطربة تحت قبضة ماري تترقب.
رجاله المنهكون من رماد الرموز ما زالوا يحاولون إعادة النظام،
لكن الخوف كان أقوى من الطاعة،
فقد رأوا رجالهم يشتعلون بالنار دون سبب،
ويُسمعون صرخاتٍ في الليل لا يراها أحد.

وفي اليوم الثالث من السير،
وصلت جيوش البحيرات إلى بوابات المشرق،
حيث انتصب سورٌ حجريٌّ قديم،
وخلفه جيش ماري الذي لم يبق منه سوى بضعة آلافٍ خائفين.

أرسل أنطونيوس رسولاً يحمل راية بيضاء.
فتح ماري خيمته ببطء،
وفي عينيه بقايا كبرياءٍ لم تمت بعد،
قرأ الرسالة:

"جئنا لا نطلب حربًا، بل عودة الأرض لأصحابها."

خرج ماري بنفسه إلى الميدان،
كان يجرّ قدميه جراً، والعرق يختلط بالدم على جبهته،
ورأى يوهان من بعيد، يحمل سيف أبيه،
فأدرك أن القدر قد دار دورةً كاملة.

اقتربا حتى تلامست نظراتهما،
الواحد يمثّل المشرق، والآخر يحمل تاريخه.

قال ماري بصوتٍ مبحوحٍ.لايدرى من امامه :

"أوغسطين وعدني بالملك...
لكنه أرسل لي لعنةً في صورة جيشٍ من الرموز.
هل جئتم تُكملون ما بدأه؟"

ردّ يوهان بثباتٍ قاتل:

"جئنا نُكمل ما انقطع من النور.
المشرق لا يُحكم بالحديد،
بل بالعهد الذي وُضع عليه اسم ذو اللحية البيضاء."

في تلك اللحظة، دوّت صيحات الجنود في المشرق،
من بين الأزقة والأسوار والبوابات القديمة،
الناس خرجت تحمل مشاعل وتصرخ:

"ذو اللحية البيضاء عاد!"

"ابنه بيننا!"

تشتتت صفوف ماري تمامًا،
جنوده ألقوا سلاحهم واحدًا تلو الآخر،
وبعضهم ركع على الأرض كمن ينتظر خلاصًا.

تقدم ماري ببطءٍ نحو يوهان،
نزع سيفه من غمده، ثم ألقاه عند قدميه،
ومد يده وفيها مفاتيحٌ حديدية قديمة.

"المشرق لك...
لم أُخلق لأكون ملكًا على لعنة."

أخذ يوهان المفاتيح،
ورفعها نحو الشمس التي كانت تخرج من خلف الغيوم،
فانطلقت صيحات النصر من كل أرجاء المشرق،
تتردد بين الجبال والوديان كأنها قيامة ثانية.

وفي أعلى الهضبة،
وقف ثيودور والمخطوطة بين يديه،
الرموز تلتمع من جديد،
وفيها جملةٌ جديدة لم يرها من قبل:

"من استعاد الأرض... فليحذر أن تُطالبه السماء بثمنها."

وهكذا،
انتهت لعنة الرموز مؤقتًا،
وارتفعت راية البحيرات والمشرق معًا،
لكن في أعماق الأرض...
كان شيءٌ آخر قد بدأ يتحرك

الفصل الرابع: اعتراف المشرق وقيامة الرايات

كان الصباح مختلفًا...
الضوء يخرج من قلب البحيرات كأنه بشارة، والماء يعكس لون الشمس الذهبية، والرايات البيضاء ترتفع من قلب الضفة، تُعلن بدء عهدٍ جديد.
وقف الكفيف جوار ثيودور، والريح تحرك أطراف عباءتهما المبللة، وقال بصوتٍ خافت كأنه قادم من الماضي:
"أتذكر يا ثيودور... حين هربت من قوة العمال، ورومان وأنطونيوس إلى جوارك؟ كانت المخطوطة تقول: من المشرق يبدأ الطريق."
صمت قليلًا، ثم أكمل:
"ها نحن عدنا... لنبدأ النبوءة كما وُعدنا بها."

ثيودور رفع رأسه نحو الأفق، والمخطوطة بين يديه تتلألأ رموزها لا بنورٍ خارجي، بل بوميضٍ داخليٍّ يُشبه أنفاس الأرض.
الرموز ترتّبت أمامه كأنها ترسم خريطة النصر القادم.
رومان يقف خلفه ممسكًا بسيفٍ صنعه بيديه، يقول بلهجة حاسمة:
"لن تكون البحيرات مجرد أرض، ستكون وعدًا... راية الشمس الذهبية والرايات البيضاء ستظل مرفوعة حتى آخر العمر."

وفي تلك اللحظة، دوّى صدى النصر الأول في أرجاء الأرض.

المشرق تحرّر من الظلّ، وصوت الشعب هناك يرتفع لأول مرة منذ سنوات:
"ذو اللحية البيضاء عاد... عاد الحق من جديد!"

لكن في الجانب الآخر من الأرض،
جلس أوغسطين في ديره الكبير — دير الظلال كما يسميه أتباعه — عيناه غارقتان في الذهول، أنفاسه ثقيلة، ويده ترتعش فوق الطاولة الحجرية.
كل شيء من حوله بدا جامدًا...
كأن العالم قرر فجأة أن يتركه خلفه.

دخل القائد، ذراعه اليمنى، رجل صامت كالفولاذ، لا يتكلم إلا حين يطلب منه.
قال وهو ينحني أمامه:
"سيدي... المشرق خرج من قبضتنا. يوهان، ابن اللحية البيضاء، سيطر على الضفة الشرقيه والمشرق كاملاً. الناس هناك يرفعون رايته، والكنيسة أعلنت دعمها لعودة العبادة في معابد المشرق."

لم يجب أوغسطين...
ظلّ ينظر في الفراغ حتى وصلت رسالة مختومة بختم البابا نفسه.
فتحها ببطء، وقرأ الكلمات التي كانت كطعنة في كبريائه:
"استدعاء عاجل إلى الدير الأم، اجتماع البابا، ومجلس الأشراف. الوضع في المشرق يتطلب تفسيرًا منك شخصيًا، أيها الأنبا أوغسطين."

أغلق الرسالة بيده المرتجفة، ورفع نظره إلى القائد الصامت وقال بصوتٍ خافتٍ لكنه كالنار:
"كل هذا من أجل اللعنة... من أجل الراهب الصامت ومخطوطته. لقد زرعوا في البحيرات حياة، وسلبونا سلطاننا في المشرق."

في تلك اللحظة، وقف القائد وقال لأول مرة منذ سنوات بصوتٍ جافٍ كحدّ السيف:
"سيدي، لا جدوى من إنكار ما حدث. علينا الاعتراف... وعلينا أن نتحرك نحو الهدف الأكبر، قبل أن يكتب التاريخ نهايتنا بيد غيرنا."

في البحيرات، كان ثيودور يجلس أمام الماء، والمخطوطة مفتوحة بين يديه.
قال بهدوءٍ يشبه صمت القديسين:
"لن نحمل السلاح بعد اليوم من أجل الدم، بل من أجل الأرض... سنعيد المشرق إلى وجه النور."

وفي اليوم نفسه،
أُقيم في البحيرات دير الشمس،
ديرٌ جديد باسم "سيدنا الكبير"، ليكون بيت السلام بعد الحرب،
وثيودور أصبح الأب الروحي له، القائم مقام الأنبا،
يحكم بروح الراحل... وبهدي المخطوطة التي صارت كتاب العهد الجديد للبحيرات.

أما أوغسطين، فجلس في ظلمة ديره، لا يسمع إلا صوت الريح وهي تصرخ في أروقة الحجر.
لأول مرة منذ زمن، شعر بالخسارة.
كانت البحيرات تكبر، والمشرق يعود، والكنيسة تستيقظ من خوفها،
أما هو... فكان يسقط في الظلال.

في تلك الليلة، قال القائد الصامت:
"سيدي... القيامة بدأت من المشرق، فهل ندفن نحن في الغرب؟"

أجاب أوغسطين بصوتٍ كمن يهمس لليل:
"الليل لم ينتهِ بعد... وسأجعلهم يرون كيف تولد الظلال من النور نفسه.

الفصل الخامس: سقوط السلطان وزرع العهد الجديد

سار أوغسطين في ممرات الدير الأم كمن يسير في جنازته.
الأجراس لم تُقرَع ترحيبًا به، والوجوه التي اعتادت الانحناء أمامه كانت تنظر إليه هذه المرة بخوفٍ وريبةٍ وصمتٍ لا يُحتمل.
خطاه على الرخام البارد كانت تُحدث صدىً يُذكّره بكل من سقطوا في طريقه: فان، سيدنا الكبير، ذو اللحية البيضاء، بل وحتى ظله القديم الذي تركه خلف جدران ديره الكبير في المشرق.

دخل القاعة الكبرى، حيث يجلس البابا على كرسيه العالي، تحيط به هيئة القضاء الثلاثي،
ومن بينهم الياس العجوز، والقاضي الثالث، وقد غدت وجهيهما أكثر صلابةً من الجرانيت، يراقبانه دون انفعال.

انحنى أوغسطين ببطء،
لكن صوته حين تكلّم كان لا يزال يحمل بقايا الكبرياء الذي لم يمت فيه بعد:
"قد جئتُ بدعوةٍ من قداستكم، لأبرّر ما حدث في المشرق، ولأعرض عليكم ما يُعيد النظام إلى الكنيسة والبلاد معًا."

رد البابا بصوتٍ مريض لكنه نافذ كالسيف:
"النظام؟ لقد أعدتَ الظلال، يا أوغسطين... لا النظام.
المشرق تحرّر دون إذنك، والبحيرات رفعت راية الكنيسة من جديد،
بينما ديرك صار وكرًا للغوغاء، وملاذًا لمن فقدوا الإيمان."

أخفض أوغسطين رأسه، والعرق يسيل من جبهته.
وقبل أن يتكلم، تدخّل الياس العجوز وقال بنبرةٍ هادئةٍ تخفي تحتها لهيبًا من الغضب:
"لقد حان الوقت لتحجيم سلطتك، أيها الأنبا.
أمر البابا واضح: تبقى ديرك الكبير وقريتك – قرية الظلال – فقط تحت رعايتك،
ولا تتجاوزها خطوة واحدة. المشرق للبحيرات الآن، والكنيسة ستراقبك مراقبة دقيقة."

ساد القاعة صمت طويل.
حتى الهواء بدا متجمداً.
رفع أوغسطين رأسه ببطء، وفي عينيه نارٌ مظلمة لم تُطفأ بعد.
قال ببطءٍ كمن يتذوق السمّ:
"قرية الظلال... ستكون شاهدة على من يُضيء ومن يحترق."

لكن البابا أشار له بيده المرتجفة علامة الانصراف، قائلاً:
"انصرف يا أوغسطين، فزمن الظلال انتهى. وإن بقيتَ فيه، فلتتحمّل ما سيأتيك من ليله الطويل."

خرج أوغسطين من القاعة، كمن يسير في ممرٍ من جليد،
وهو يدرك أن الكنيسة التي صنعها بيده قد بدأت الآن تكتب نهايته.

▫

وفي البحيرات، كان النهار مختلفًا.
الهواء يحمل نسيم الهدوء بعد ليالي من جحيم من الحرب.
في الدير الجديد — دير الشمس — جلس ثيودور إلى مكتبه، يطالع المخطوطة القديمة،
ثم أشار إلى الشاب الذي يقف أمامه بثباتٍ وحياءٍ معًا:

"يا رومان، كنتَ رفيقاً للوجع خادمًا للأرض صديقًا للإيمان، والآن ستكون كاتب دير البحيرات.
سجّل كل ما نعيشه، لا كقصصٍ من بطولات، بل كدروسٍ للأحياء بعدنا."

انحنى رومان وقبّل يد ثيودور، وقال بصوتٍ مملوءٍ بالعزم:
"سأكتبها كما تراها السماء يا أبانا، لا كما يرويها البشر."

ثم التفت ثيودور إلى أنطونيوس، الجالس بجواره، يلف كتفه بضمادة قديمة من معارك لا تُنسى، وقال له:
"من اليوم، أنت القائد العام،
لك كل الصلاحيات العسكرية في البحيرات والمشرق،
ولك القرار الأول في الدفاع عن الأرض والشعب.
الآن يبدأ عهدٌ بلا دماء... لكنه لا يخلو من الاستعداد."

أنطونيوس اكتفى بإيماءةٍ ثقيلة، ثم قال وهو ينظر نحو الأفق:
"السلام يحتاج إلى سيوفٍ جاهزة، كما يحتاج الليل إلى نجومٍ تحرسه."

⊡

وفي المشرق،
كان مهربان يقف على تلٍ مرتفع، يراقب حدود البلاد التي كانت بالأمس ميادين حرب.
اقترب منه يوهان، وقال مازحًا بصوته الخافت المتعب:
"ألن تعود إلى أرض الأفيال يا مهربان؟
لقد أديتَ ما يفوق واجب الرجال، وعاد المشرق لأهله."

ابتسم مهربان، تلك الابتسامة التي يخفي خلفها وجعًا عميقًا، وقال:
"كيف أعود، وها هنا وُلدت حربنا، وهنا بدأنا عهدًا جديدًا؟
سأبقى معك، يا يوهان، حتى ترى الأرض التي حَلم بها والدك.
أخي سيقود تجار الضيّ في أرض الأفيال، أما أنا...
فقد صرتُ من أهل البحيرات، وسيفي هنا، حتى النهاية."

صافحه يوهان بحرارة، والريح تعصف برايات الشمس والبحيرات من خلفهم.
ثم قال:
"إذن، يا صديقي، فلنبدأ نحن من حيث انتهى الآباء.
لننهي ما بدأه ذو اللحية البيضاء... ولنكتب أول فجرٍ للمشرق الحرّ."

وهكذا،
بينما كانت الكنيسة تُحجّم أوغسطين في قرية الظلال،
كانت البحيرات والمشرق تُعلنان فجرًا جديدًا،
وفي الأفق...
كان الظلّ البعيد يتحرك ببطءٍ، كأنّ أوغسطين نفسه لم يقل بعدُ كلمته الأخيرة

الفصل السادس: البحث عن الظلّ المفقود

منذ عودته من الكنيسة الأم، لم يذق أوغسطين طعم النوم.
جدران ديره الكبير في قرية الظلال لم تعد تُنصت له كما كانت، والصلبان المعلقة فوق الممرات بدت كأنها تراقبه بصمتٍ ساخرٍ.
الورقة التي احترقت في يده منذ أسابيع لا تزال تُطارده ككابوسٍ، ورائحة الرماد لا تفارقه.
لكن ما يُشغله الآن ليس الورقة، بل الرجل الذي كان آخر من لمسها قبل أن تختفي: يوشع.

جلس أوغسطين في قاعة المؤتمرات، وقد لفَّ حول كتفيه عباءته السوداء الثقيلة،
أمامه القائد رجل لا يضحك، لا يرحم، لا يتراجع.
مقاتلٌ شامخ، طويل القامة، عريض الكتفين، وجهه كأنه نُحت من صخرٍ، وعيناه لا تنطقان إلا بالأوامر.

لم يُعرف له اسمٌ حقيقي، لكن الجميع كانوا يهابونه كما يهابون العاصفة التي لا تُنذر بقدومها.

قال أوغسطين بصوتٍ منخفضٍ لكنه يقطّع السكون كالسيف:
"لقد اختفى يوشع، حتى من غرف المنفى. لم يعد له أثر لا في السهول ولا في السجون.
أريدك أن تجده، حيًّا أو ميتًا.
ذلك العاجز يحمل مفتاحًا لم نفتح به بعدُ أبواب اللعنة... وربما الخلاص."

انحنى القائد دون كلمة، ثم رفع رأسه وقال بنبرته الحادة التي لا تعرف المساومة:
"إن كان في هذا العالم أنفاسٌ بعد، فسأجدها على أثره يا سيدي."

ثم غادر القاعة، والريح تدور حول عباءته الحديدية كأنها تخاف الاصطدام به.

⊡

بعد أيام قليلة،
كانت رياح الجنوب تحمل أخبارًا مقلقة.
المشرق يتغير،
وجيوش البحيرات تُعيد تنظيم صفوفها بسرعة غير مسبوقة،
بينما القرى الشرقية تنضم واحدة تلو الأخرى تحت راية الشمس الذهبية.

في ذلك الوقت، قرر أوغسطين خطوة جريئة:
أرسل قائده — الصامت — لمهمة أخرى،
لكن هذه المرة إلى قلب العدو نفسه: أرض البحيرات.

⊡

كان اللقاء الأول بين القائد وأنطونيوس يشبه التقاء السيفين على حافة الجحيم.
مكان اللقاء كان على أطراف الممر القديم بين البحيرات والمشرق،
حيث كانت الأشجار اليابسة تصدر صريرًا يشبه أنين الموتى.

وقف أنطونيوس في مواجهة القائد،
رجلان يحمل كلٌّ منهما ماضٍ أثقل من الحديد.
كان القائد هو من أشرف على تدريب أنطونيوس حين كان شابًا في دير الظلال،
قبل أن يهرب الأخير يوم مقتل اسحاق وانقلابه على جبروت هذا القائد ثم هرب مع ثيودور ورفاقه إلى البحيرات،
حينها كان يُلقَّب أنطونيوس بـ سيف الدير، أحد أقوى مقاتلي أوغسطين.

الآن، الزمن يدور،
والتلميذ أصبح سيدًا على أرضه،
والمعلم جاء من عالم الظلال ليعيد اختباره.

قال القائد بصوتٍ خافتٍ، لكنه يحمل ثقلَ الجبال:
"لم أتوقع أن أراك واقفًا أمامي حيًّا بعد كل ما كان.
كنتَ يومًا من صفوفنا، أنطونيوس،
والآن تقف تحت راية الراهب الصامت... هل هذا اختيار أم ندم؟"

رد أنطونيوس بابتسامةٍ باهتةٍ من رجلٍ رأى الموت ألف مرة:
"حين يضيع النور من الدير، يصبح الهرب فرضًا لا خيانة.

كنتَ تعرف هذا قبل الجميع، لكنك بقيت في الظلّ."

اقترب القائد خطوة واحدة،
عيونه تنعكس فيها صورة النار البعيدة القادمة من المخيمات القديمة، وقال ببطءٍ:
"أوغسطين يريد السلام... بطريقته الخاصة.
هو لا يبحث عن حربٍ جديدة، لكنه سيُشعلها إن فُرضت عليه."

ضحك أنطونيوس بمرارة، وأجاب:
"السلام الذي يأتي من الظلال ليس إلا غفوة قبل الذبح.
عود إلى سيدك، وقل له إن البحيرات تعرف طريقها الآن،
ومن يقترب منها، سيغرق في صمتها كما غرق فان في الوحل."

لم يرد القائد، فقط أدار ظهره، وترك وراءه أثرًا من الغبار والرهبة.
لكن في قلبه، كان يعرف أن اللقاء هذا لم يكن نهاية شيء،
بل بداية أخرى أعمق، وأخطر.

فثيودور حين علم أن القائد عاد،
تغيّر وجهه للحظةٍ كأنما رآى طيفًا من ماضيه،
وقال للكفيف بصوتٍ متهدّجٍ خافت:
"لقد عاد... ذلك الرجل الذي يعرف أبواب الدير كما يعرف أنفاسنا.دائما سبب الرعب للجميع
الظلال لم تمت بعد، بل تسير نحونا بخطى بشرية."

وهكذا،
بدأت المرحلة الجديدة من الصراع —
حرب العقول لا السيوف،
حيث الضوء والظلال يختبران بعضهما في صمتٍ ثقيلٍ،
قبل أن تُشرق شمسٌ لا يعلم أحد إن كانت فجرًا جديدًا...
أم بداية النهاية

الفصل السابع: ظلال النور الأخيرة

جلس أوغسطين في قاعة العرش الحجرية داخل ديره الكبير،
النوافذ العالية تعصف منها الرياح، والمشاعل تتراقص على الجدران كأنها أرواح تُنذر بدماءٍ قريبة.
الهدوء كان ثقيلًا... حتى دقّت الأبواب الحديدية ثلاث دقاتٍ متتابعة،
ودخل القائد في عباءته الداكنة التي لم تزل تفوح منها رائحة البارود والرماد.

تأمل أوغسطين وجهه المتعب، وقال بنبرةٍ هادئة لكنها تخفي زئيرًا مكتومًا:
"عدتَ إذًا... وما جئتني بجسد يوشع، ولا بورقته.
أين اختفى الرجل؟ أم أن الظلال ابتلعته كما ابتلعت كل أسراري؟"

رفع القائد رأسه ببطءٍ، عيونه لا تعرف الخوف، وقال بصرامةٍ جليدية:
"بحثتُ في كل مكان يا سيدي.
المنفى فارغ، والسجلات محيت، وحتى رهبان الصحراء لم يروه منذ رحل.
لكن هناك همسًا عن رجلٍ مُسلسل، يسير وحده بين الخرائب،
ومن يراه... يختفي بعد يومٍ وليلة."

سكت أوغسطين طويلًا، ثم قال ببطءٍ كمن يتذوق السمّ:
"إذن لم يمت...

الورقة التي أحرقتُها لم تُطفئ لعنته بعد،
والظلال التي أعددناها لم تكتمل."

اقترب القائد خطوة، ونبرته صارت أكثر حزمًا:
"لكن كتيبة الأنبا أصبحت جاهزة، يا سيدي.
أقوى رجال البلاد الآن تحت رايتك.
لقد درّبناهم على القتال في الظلام، في الطين، في الجحيم نفسه.
الظلال تتأهب كما لم تتأهب من قبل."

ابتسم أوغسطين بخفةٍ، وقال:
"الظلال لا تكفي، يا قائد.
أريد أن يعود الخوف إلى القلوب... أريد أن يشعروا أن الشمس لا تُشرق إلا بإذني."

ثم نهض، وسار بخطواتٍ بطيئة نحو الشرفة المطلة على ساحة الدير.
في الأسفل،
كانت كتيبة الأنبا تصطف صفوفًا متناسقة،
دروعهم تلمع تحت القمر كصفائح من الفولاذ الملطخ بالدماء،
وأصوات قرع الحديد تتداخل مع تراتيل الرهبان،
في مشهدٍ يجمع العبادة بالحرب... والإيمان بالرعب.

قال القائد وهو ينظر للأسفل أيضًا:
"لقد عاد النظام، يا سيدي.
البلاد تستعد، والجنود ينتظرون إشارةً منك فقط."

رد أوغسطين وهو يشد عباءته حول كتفيه:
"البلاد لا تنتظر الإشارة... البلاد تنتظر النار."

ثم استدار فجأة، وصوته يرتفع كعاصفةٍ تقتلع السكون:
"أكملوا البحث عن يوشع.
وإن لم تجده بين الأحياء... فابحث عنه بين الموتى."

⊡

وفي تلك الأثناء،
كانت البحيرات في الجهة المقابلة تزدهر من جديد.
المشرق بدأ يستعيد أنفاسه بعد عقودٍ من الظلال،
العمل هناك صار يوميًّا، والرجال يعرفون أن لهم دورًا في المعركة القادمة.

جيش البحيرات تحت يد أنطونيوس صار أقوى من أي وقتٍ مضى،
صفوفٌ متراصة، انضباط حديدي، تدريبٌ لا يتوقف.
الرجال يعودون من ساحات الحروب ليجدوا العمل ينتظرهم لا الموت.

مهربان، القادم من مملكة الأفيال، صار قائدًا لكتيبة المشرق،
كتيبةٍ جمعت ما تبقّى من رجاله،
ورجال ذي اللحية البيضاء القدامى،
وأبناء القرى التي عانت من الظلم والنار.
أصبحوا جميعًا تحت رايةٍ واحدة،

راية الشمس الذهبية ـــ راية البحيرات.

في المساء،
حين تهدأ الأرض بعد نهارٍ طويل من البناء والتدريب،
كان ثيودور يقف أمام شرفة دير البحيرات،
يتأمل الأفق حيث تمتزج نار الغروب بماء البحيرة العميق.
قال بصوتٍ خافتٍ إلى الكفيف الواقف بجانبه:
"كل شيء بدأ يميل نحو النور...
لكن الظل لا يرحل أبدًا، بل يختبئ حتى يجد عينًا جديدة يرى بها."

ابتسم الكفيف،
وقال وهو يرفع رأسه إلى السماء:
"إذن علينا أن نُبقي أعيننا مغلقة... لنرى أبعد مما يرون."

وهكذا،
كانت البلاد كلها تستعد ـــ كلٌّ بطريقته:
أوغسطين في الظلال،
وأنطونيوس في النور،
ومهربان بين النار والماء،
وثيودور على حافة النبوءة ينتظر...
العلامة التي ستكسر الصمت للمرة الأخيرة

⚔️ الفصل الثامن : ولادة الظلال الجديدة

كانت قاعة الدير الكبير تغصّ بالدخان والحديد.
المشاعل المعلقة على الجدران تئن تحت وطأة البرد،
وأوغسطين يجلس على كرسيه الحجريّ، عيناه غائرتان،
وصوت الريح من النوافذ المفتوحة يُذكّره بأن المشرق ضاع منه إلى الأبد.

أمامَه وقف القائد ـــ
في درعه الأسود الثقيل،
وجهه بلا ملامح، كأنما صيغ من الصخر نفسه،
والسكين المعلّقة على صدره تعكس وهج النيران على شكل صليبٍ مائل.

قال أوغسطين بصوتٍ هادئٍ، لكنّه يقطّع السكون كالسكين:
"الذين فقدوا الإيمان لا يُعاد بناؤهم بالوعظ يا قائد،
بل بالخوف... الخوف وحده يُعيد الطاعة."

أجابه القائد بنبرةٍ حازمةٍ وباردة:
"الرجال جاهزون يا سيدي،
لكننا لن نهجم على البحيرات مباشرة،
فالحرب المكشوفة خسرناها مرتين.
الوقت الآن للحرب الخفية... حرب الظلال."

ابتسم أوغسطين ابتسامةً صغيرة،
وقال وهو ينهض من مجلسه ويمشي ببطءٍ في الممر الحجريّ:
"أريد رجالًا لا يصرخون، لا ينامون، لا يرحمون.

كتيبة الأنبا ستكون سيفي الجديد.
اجعلهم يدخلون القرى في صورة الحُرّاس والتجّار،
كأنهم يؤمّنون الطرق، يحرسون القوافل،
لكنهم في الحقيقة... يبذرون الخوف ويغرسون الطاعة."

اقترب القائد خطوتين وقال بثباتٍ:
"الرجال الذين اخترناهم ليسوا من العامة،
بل من المحكوم عليهم، من الذين ذاقوا أقصى حدود الألم،
أجسادهم كالفولاذ، عيونهم لا ترى النور إلا كهدفٍ يُقتَل."

أومأ أوغسطين برأسه، وابتسم تلك الابتسامة التي لا يراها أحد إلا ويشعر بالقشعريرة:
"اللعنة لا تُحارَب يا قائد، بل تُستَخدم.
فلنستعمل رماد الماضين لصنع جيشٍ لا يُرى في الضوء...
جيشٍ حين يسير بين الناس، لا يُميزونه إلا حين يفوت الأوان."

رفع القائد يده بالتحية، وانحنى:
"أوامرك يا سيدي ستُنفّذ الليلة."

⊡

وفي فجر اليوم التالي،
تحركت أولى القوافل من قرية الظلال باتجاه الشرق.
عربات محمّلة بالبضائع، وبجوارها رجالٌ في ثيابٍ داكنة،
وجوههم ساكنة لا تبتسم ولا تتكلم،
لكن تحت العباءات، الحديد ينتظر أن يُكشف عن أنيابه.

في الطرق الجبلية، كان الناس يرحبون بالقافلة ظنًّا أنها قادمة لتأمين الطريق،
لم يعلم أحد أن الظلال تسير وسطهم.
كانوا يفتحون الأبواب، يقدمون الماء،
بينما رجال أوغسطين يزرعون عيونهم في كل ممرّ،
يسجلون الطرق، يحصون المداخل والمخارج،
ويُرسلون الرسائل السرية ليلاً عبر الحمام الأسود الذي لا يُرى إلا في العتمة.

كل قريةٍ يمرون بها، كانوا يتركون فيها رجلين فقط،
رجلًا في السوق، وآخر في الكنيسة...
يبدوان كالتجار والعبّاد،
لكنهم في الحقيقة أوتادٌ صغيرة في شبكةٍ ضخمة تُخنق من الداخل.

⊡

وفي البحيرات،
كان ثيودور يشعر بشيءٍ غريبٍ في الهواء،
قال لأنطونيوس وهو يقلب صفحات المخطوطة:
"الرموز تتحرك من جديد...
كأن شيئًا في الأرض استيقظ ولم يُعرّف نفسه بعد."

أنطونيوس، الجالس قرب نافذة الدير،

كان يراقب الأفق بعينين حادتين وقال بجديةٍ:
"الهدوء الذي يسبق العاصفة، يا أبانا.
طرق القوافل لم تعد كما كانت،
ووجوه الحُرّاس تتغير كل أسبوع...
هناك من يزرع الظل في ضوء النهار."

·

وفي الليلة ذاتها،
وصلت إلى البحيرات رسالةٌ مجهولة، مختومة بختمٍ أسود على شكل صليبٍ مائل.
قرأها الكفيف بصوتٍ مرتجفٍ أمام ثيودور:
"ليسوا تجارًا... بل عيونٌ في جسدٍ من نار."

سكت الجميع.
أنطونيوس قبض على سيفه ببطء،
و رفع رأسه وقال بصوتٍ غليظٍ:
"إذن بدأوا اللعب في الظلام...
فلنُريهم كيف تحارب البحيرات حين تطفئ نورها بنفسها.

⚔️ الفصل العاشر: نارٌ تحت الماء

في المشرق، كانت الليلة ساكنة أكثر من اللازم.
الريح لا تتحرك، والقمر محجوبٌ خلف غيومٍ كأنها من رماد الحروب القديمة.
في غرفةٍ صغيرة داخل حصنٍ حجريٍ على تخوم السهل، جلس يوهان إلى طاولةٍ خشبيةٍ عتيقة،
وأمامه خرائطٌ ممزقة، مرسومة بالحبر الأسود والرموز القديمة التي نقلها من المخطوطة.
إلى جواره، وقف مهربان، عاري الصدر إلا من الجراح التي تشبه خطوطَ معاركٍ لم تنتهِ بعد.

قال يوهان بصوتٍ منخفضٍ وهو يتتبع بخنجره خطًّا على الخريطة:
"الطرق إلى المشرق الشرقي كلها أصبحت تحت سيطرتنا،
لكن القوافل التي تأتي من جهة الجنوب... تحمل شيئًا مريبًا."

ردّ مهربان وهو يشعل مصباح الزيت، لتنعكس النار على وجهه الغارق في الظلال:
"رجالي راقبوا القوافل يا يوهان، ليست قوافل تجارية عادية.
الرجال فيها لا يشترون، لا يبيعون، ولا يتحدثون.
عيونهم جامدة كالحجر، وخطاهم كأنها مدروسة.
من علّمهم السير هكذا؟"

أغلق يوهان الخريطة بيده وقال بنبرةٍ حادة:
"أوغسطين... أو من بقي من ظلاله."

تقدّم مهربان، ووضع سيفه على الطاولة:
"إنها كتيبة جديدة إذن.
يبدون كالتجار، لكن تحت الثياب... حديدٌ ينتظر الأوامر."

سكت يوهان لحظة، ثم قال ببطءٍ كمن يزن الزمن نفسه:
"لا نكشفهم بعد.
نتركهم يدخلون أكثر... حتى نظهر نحن في المكان الذي لا يتوقعونه."

رفع مهربان رأسه وقال بابتسامةٍ خفيفةٍ تخفي قسوة الحرب:
"الظل حين يقترب من الماء... ينسى أنه سينعكس."

⊡

وفي تلك اللحظة نفسها،
في البحيرات، على الضفة المقابلة من النور والماء،
كان ثيودور يجلس في قاعة الدير الجديد — دير الشمس —
المخطوطة أمامه، تتوهج رموزها بوميضٍ خافتٍ كأنها تتنفس.

دخل أنطونيوس بثوبه العسكريّ المغبر،
وراءه رومان يحمل لفائف الخرائط،
والكفيف يقف إلى جوار المذبح،
وجهه نحو الجدار كأنه يسمع ما لا يُقال.

قال أنطونيوس بقلقٍ واضح:
"الطرق تتغير كل يوم يا أبانا.
قوافل تأتي وتغادر دون أثر، والناس في القرى يتحدثون عن رجالٍ بلا ظلّ."

أجاب ثيودور وهو يمرّر يده على الرموز في المخطوطة:
"الرموز تقول ذلك أيضًا.
منذ أيامٍ بدأت تتبدّل... لا تضيء كما كانت، بل تحترق ببطءٍ كأنها تحذّرنا."

رومان تقدّم بخريطةٍ جديدة وقال:
"هذا الخط يا سيدي، هو الطريق الذي سلكته آخر القوافل القادمة من المشرق.
توقفت في أربع قرى... وفي كل قرية بعدها، اختفى أحد رهباننا."

سكت الجميع.
أنطونيوس شبك ذراعيه وقال بحدةٍ عسكريةٍ حاسمة:
"لا مزيد من الانتظار.
سأرسل فرق الاستطلاع الليلة، وسنقطع تلك القوافل قطعةً قطعة."

لكن الكفيف رفع رأسه فجأة، وصوته جاء كريحٍ باردةٍ من مكانٍ بعيد:
"لا تهاجموا الظل في الظلام، يا أنطونيوس.
فحين تظن أنك تطعنه... تكون قد غرست سيفك في الضوء نفسه."

ثيودور أومأ برأسه ببطءٍ وقال بنبرةٍ حازمةٍ هادئة:
"الكفيف محق.
لسنا في معركةِ سيوفٍ بعد، بل في حربِ رموزٍ وعقول.
لن يخرجوا من بيننا إلا حين نعرف من أين يدخلون إلينا."

أنطونيوس تنفّس بعمقٍ، ثم قال بثبات:
"إذن نبدأ من هنا، من البحيرات نفسها.
من يعرف طريق الظلال، سيجد النار التي تتخفى خلف الماء."

⊡

وفي نهاية الليلة،
حين سكنت الأصوات وغرق الجميع في صمتٍ ثقيل،
كانت العيون ذاتها ـــ عيون الظلال ـــ
تراقب من بين الممرات والمياه،
تعدّ الأنفاس،
وتنتظر اللحظة التي تُطفئ فيها البحيرات شمسها بنفسها

⚔️ الفصل العاشر: نارٌ تحت الماء

⊡

الفصل الأول: دخان القوافل

كان المشرق هادئًا على غير عادته...
هدوءٌ ثقيل كأن الأرض تحبس أنفاسها قبل الانفجار.
الليل يلفّ الوديان بردائه الرمادي، والقمر نصف وجهٍ مطعونٍ يراقب من فوق،
أما الريح فتجلب من بعيد رائحة الحديد والرماد.

في حصنٍ حجريٍّ قديم عند أطراف المشرق،
جلس يوهان يحدّق في خرائطٍ مبعثرةٍ على طاولةٍ خشبيةٍ مُحترقة الأطراف،
بجانبه مهربان، عيونه متيقظة كذئبٍ في غابةٍ لا تعرف السكون.

قال يوهان وهو يرسم بخنجره على الخريطة:
"القوافل تتزايد من الجنوب،
تقول إنها تجارة، لكنها لا تبيع شيئًا ولا تشتري.
رجالهم لا يبتسمون، ولا ينظرون في العيون...
خطواتهم كأنها صدى واحد."

أجاب مهربان وهو يضيق عينيه:
"رجالي تبعوهم ثلاثة أيام...
يتوقفون في الليل ولا يوقدون نارًا.
من بعيد، تراهم يتحركون في صفٍ واحدٍ كأنهم ظلّ طويل."

أغلق يوهان الخريطة ببطء، وقال بصوتٍ حذر:
"أوغسطين يرسل عيونه قبل جيوشه.
ربما هذه كتيبته الجديدة ـــ جيشٌ يسير في صمت."

اقترب مهربان من النافذة الحجرية،
ورأى أضواء القوافل من بعيد تلمع وسط الظلام مثل عيونٍ خبيثةٍ في الوادي.
قال ببطءٍ كأن الريح تنقل صوته:
"الظلّ عاد يا يوهان... لكنه هذه المرة يلبس وجه البشر."

رد يوهان وهو يشد عباءته:
"إذن لن نحاربه في الطريق...
سندعه يدخل إلى النور أولًا، ثم نحرقه من الداخل."

⊡

؛همس البحيرات

في البحيرات، حيث الماء يعكس شمس الصباح كأنه وجه النعمة،
جلس ثيودور داخل دير الشمس، والمخطوطة أمامه.
رموزها كانت تشتعل بخفوتٍ غير مألوف، كأنها تحترق من الداخل.

دخل أنطونيوس، جسده مغطى بغبار التدريب،
وراءه رومان يحمل خرائط الدير،
والكفيف يتلمّس الممر بعصاه الخشبية.

قال أنطونيوس بصوتٍ منخفضٍ فيه توتر:
"القوافل الغريبة اقتربت من حدودنا.
رجالها لا يتحدثون، ولا يتركون أثرًا بعد رحيلهم.
في القرى التي يمرّون بها، تختفي الأصوات، كأن الناس تبتلعهم الأرض."

رفع ثيودور نظره إلى المخطوطة وقال ببطء:
"منذ ثلاثة أيام، الرموز تغيّرت.
تذوب في الضوء ثم تعود رمادًا،
وكأنها تحذّرنا من نارٍ تختبئ في أجسادٍ بشرية."

قال رومان وهو يفرش خرائطه على الطاولة:
"أرسلنا عيوننا على الطريق الجنوبي،
كل من رآهم شعر بالبرد... حتى في النهار."

ضحك الكفيف ضحكة قصيرة وقال:
"من يسير بلا ظلّ، لا يسير وحيدًا.
إنهم يحملون معهم الليل أينما ذهبوا."

قبض أنطونيوس على سيفه، وقال بصرامة:
"سأرسل الدوريات الليلة.
لن يدخلوا أرضنا بخداعٍ أو تجارةٍ زائفة."

لكن ثيودور أشار بيده في هدوءٍ يشبه الأمر:
"لا، لا نحارب الظلّ في الظلام.
دعه يقترب من النور أولًا... حينها سيفنى وحده."

ابتسم الكفيف وقال:
"النور لا يقتل، لكنه يكشف... ومن يُكشف يموت خوفًا."

⊡

: كتيبة الظلال

في تلك الليالي، بدأت القوافل تدخل حدود المشرق ببطء.
وجوه رجالها رمادية،

وعيونهم تلمع كجمرٍ في الرماد.
يتحركون كأنهم نفسٌ واحدة،
لا يتحدثون، لا يأكلون، لا ينامون.

هؤلاء كانوا جنود الظلال،
من صنع أوغسطين بنفسه،
يمزج فيهم الحديد بالإيمان الفاسد،
ويزرع على أجسادهم رموزًا محروقة،
تضيء تحت الجلد كلما اقتربوا من الضوء.

كل واحدٍ فيهم كائنٌ نصفه لحم ونصفه رماد،
يتقن القتال في العتمة،
ولا يسمع سوى أمرٍ واحدٍ يُتلى في صدره:
"تقدّم."

لم تكن كتيبة حربٍ عادية،
بل طوفانًا من أجسادٍ تتحرك كما لو أن روحًا واحدةً تقودها من الظل.
كانت مهمتهم أن يدخلو

⚔️ الفصل الحادي عشر: الاشتباك الأول — ليل البحيرات

🜂

: نُذر النار

كانت الليلة ثقيلة، السماء مشققة بالبرق،
كأنها تعرف أن الدم سيختلط بالماء قبل الفجر.

على ضفة البحيرات الجنوبية،
تحركت القوافل الغامضة ببطءٍ وسط الضباب،
رجالٌ بوجوهٍ مغطاةٍ بوشومٍ رمادية،
يحملون سيوفًا مغموسةً في الطين،
ويتنفسون كأنهم كائن واحد.

من بعيد، راقبهم رومان من برج المراقبة الحجري،
عيناه تتابعان حركتهم بتوترٍ صامت.
همس وهو ينحني على قرن الإنذار:
"إنهم لا يسيرون كالتجار... إنهم يصطفّون كالعسكر."

ثم أطلق صفارةً طويلة مزّقت سكون الليل.

🜂

: انكشاف الظلال

في الدير، استيقظ أنطونيوس على الصافرة،

قفز من فراشه ممسكًا بسيفه،
دخل عليه أحد الفرسان يصرخ:
"القوافل وصلت إلى الحاجز الشرقي! لا إشارات تجارة، ولا سلام!"

خلال دقائق، كانت الأبواق تُدوّي في البحيرات كلها.
الرجال خرجوا من البيوت كأنهم في يوم القيامة،
النساء يسحبن الأطفال نحو المعابد الخشبية،
والماء يرتجف على سطحه من وقع الأقدام والحديد.

عند الحاجز، ظهرت كتيبة الظلال بالكامل.
مئات الرجال، بلا صوت، بلا شعار،
عيونهم تلمع تحت البرق كأنهم مصنوعون من شيءٍ غير بشري.

تقدّم قائدهم، ضخم الجسد، وجهه لا يُرى إلا نصفه،
وقال بصوتٍ أجوفٍ كأن الهواء يتكلم مكانه:
"نحن قوافل القدّيسين... جئنا ننشر النظام في أرض الفوضى."

صرخ أحد جنود البحيرات:
"اذكر اسمك إن كنت من البشر!"

لكن الرجل لم يجب.
رفع يده فقط — إشارةٌ واحدة —
وفي اللحظة التالية، انطلقت النيران من أطراف القافلة.

اشتعلت البحيرات بالنار،
صارت السماء برتقالية كالجحيم،
وصوت الحديد يعلو فوق صوت الريح.

⊡
: أنطونيوس والنار

قاد أنطونيوس الصفوف بنفسه.
درعه مغطى بالطين، ووجهه يلمع بالعرق والدم.
صرخ في جنوده:
"احموا المعابد أولًا! لا تتركوا الظلال تلمس الماء!"

اندفعت الصفوف الأولى من البحيرات،
سيوفهم تلمع كخطوط برقٍ بين الدخان.
لكن حين اصطدموا بكتائب الظلال،
حدث ما لم يتوقعه أحد —
الظلال لا تصرخ، لا تتألم،
وحين تُقطع أجسادهم... يعودون للوقوف كأن شيئًا لم يكن.

قال رومان من الخلف وهو يراقب المشهد:
"هؤلاء ليسوا بشرًا يا أنطونيوس! اللعنة تعود!"

ردّ أنطونيوس وهو يطعن أحدهم في صدره:

"حتى اللعنة تموت حين تجد النور في عيني من يقاتلها!"

رفع سيفه عاليًا،
وفي اللحظة التالية، اخترق البرق السماء،
فسقط نوره على صفوف الظلال،
فتراجعت صفوفهم خطوةً إلى الوراء،
كأن الضوء يُحرقهم من الداخل.

صرخ الكفيف من أعلى أسوار الدير:
"وجّهوا النار نحوهم! النور يحرق ما لا يملك ظلًّا!"

بدأ جنود البحيرات يشعلون المشاعل ويرمونها في الماء،
النار انعكست على سطح البحيرات كالمرآة،
وصار الضوء محاصرًا الظلال من كل الجهات.

⊡

: سقوط الليل

حين بدأت النيران تشتد،
تراجع ما تبقى من كتائب الظلال ببطء،
يتساقطون في الماء فيصير الدخان رماديًّا كالغبار.
لكن من بين صفوفهم،
ظهر رجلٌ واحدٌ أطول من الجميع،
يحمل درعًا أسود عليه ختم الصليب المقلوب،
رفع رأسه نحو أنطونيوس وقال بصوتٍ أجوف:
"بلغ سيدك ثيودور... أن الظلّ لم يأتِ بعد،
ما رأيتَ الليلة مجردُ صدىً من القادم."

ثم ألقى بنفسه في النار.
اختفى صوته، لكن رماده ظلّ يطفو فوق الماء،
يرسم شكل جناحٍ أسودٍ يتلاشى ببطء.

في الصباح، كان الدخان لا يزال يتصاعد،
والأرض تفوح منها رائحة رمادٍ ودمٍ بارد.

جلس ثيودور أمام الماء،
والمخطوطة بين يديه، تتلألأ رموزها باللون الأحمر لأول مرة.
قال بهدوءٍ حزينٍ:
"النبوءة لم تنتهِ... لقد بدأت من جديد.

الفصل الثاني عشر: لهيبٌ فى المشرق

كانت الشمس حمراء، تغيب على أفقٍ ممتلئٍ بالدخان،
حين دوّت الأبواق في سهل المشرق معلنة بداية المعركة الأولى.

وقف يوهان على ربوةٍ مرتفعةٍ، إلى جانبه مهربان،
وخلفهما صفوفٌ طويلة من جنود المشرق، أبناء القرى والوديان،
وجوههم مغطّاةٌ بالتراب، وقلوبهم لا تعرف إلا فكرة واحدة:
"لن نعود عبيدًا للظلال."

من بين الغبار ظهرت كتائب الظلام الأولى،
صفوفٌ من رجالٍ بعيونٍ ميتة، دروعهم تلمع بلونٍ باهتٍ كأنها صدأُ الأرواح.
كانوا يتحركون بصمتٍ تام،
كأنهم جدارٌ يسير على الأرض.

صرخ يوهان بصوتٍ هزّ الوادي:
"هذه أرض آبائنا، لا تُقدّس الظلام فيها!"

واندفع الفرسان من المشرق،
صليل السيوف يمتزج بصوت الطبول،
والسماء تمطر رمادًا ودخانًا.

مهربان قاد فرسانه من الجناح الأيسر،
يتحرك بخفةٍ بين الخيول،
يضرب، ثم يختفي، ثم يعود من الظلّ كأنه صاعقة.
لكنّ جيش الظلام كان مختلفًا، لا يصرخ، لا يتراجع.
كلّما سقط رجلٌ منهم، نهض آخر في موضعه.

حين غربت الشمس،
كانت الأرض قد تحولت إلى بحرٍ من الجثث.
ورغم الخسائر الكبيرة،
نجح يوهان ومهربان في صدّ الموجة الأولى من الظلام،
لكن مهربان شعر في قلبه أن ما هُزم اليوم ليس سوى مقدمةٍ لما سيأتي.

قال له يوهان وهو يمسح الدم عن وجهه:
"إنهم لا يقاتلون لينتصروا... بل ليبقوا."

⊡

الفصل الثالث عشر: صدى البحيرات

في الغرب، كانت البحيرات تستعد لمعركتها الكبرى.
وقف ثيودور على سور الدير الحجري،
والمخطوطة القديمة بين يديه،
تتوهج رموزها باللون الذهبي ثم تخبو كأنها تتنفس.

قال للكفيف وهو يراقب الأفق:
"أشعر أن الرموز تحذرنا الليلة...
النور سيواجه النور، لا الظل فقط."

في تلك اللحظة، ظهر أنطونيوس يقود كتائب البحيرات.
أكثر من ثلاثة آلاف مقاتلٍ مدرّب،

دروعهم تعكس ضوء المشاعل كبحرٍ من شمسٍ سائلة.
كانوا يُعرفون باسم كتائب الرايات البيضاء —
أقوى جيشٍ خرج من البحيرات منذ قيامها.

زحف الظلام عليهم من بين الغابات،
رجالٌ بأجسادٍ مشوهة، يحملون فؤوسًا وسيوفًا مكسورة.
كانت اللعنة تأكل في ملامحهم كأنهم يذوبون أثناء القتال.

صرخ أنطونيوس:
"احملوا النار على صدوركم، لا على سيوفكم**!**
الضوء لا يقتل إلا حين يسكن القلب**!"**

واندفعت الكتائب كأنها موجةٌ مضيئة،
تشقّ صفوف الظلام بالسيوف والمشاعل.
الهواء امتلأ بالصراخ، بالرماد،
وبرائحة الحديد المحترق.

عند منتصف الليل،
تقدّم رجلٌ ضخم من صفوف الظلال —
قائدٌ جديد، وجهه نصفه بشريّ ونصفه كالقناع المعدني،
قال بصوتٍ غليظٍ يخترق الصدور:
"أخبروا ثيودور أن النور سيحترق كما احترقت الورقة."

ثم اندفع نحو الصفوف،
لكن أنطونيوس واجهه بنفسه،
والتقى السيفان، فاهتزّت الأرض.
اشتعلت الشرارات بينهما،
كلّ ضربةٍ كانت كأنها صاعقةٌ تمزّق ليل البحيرات.

استمر القتال حتى انكسرت سيوف الجنود،
وتحولت البحيرات إلى مرآةٍ للنار والدم.

وفي النهاية، انسحب الظلال،
لكن أنطونيوس أدرك — من نظرات قائدهم —
أن المعركة الأخيرة ما زالت تنتظر في المشرق.

⊡

الفصل الرابع عشر: معركة النهاية — سقوط الليل

كان الصباح رماديًا حين وصلت أخبار البحيرات إلى المشرق.
أمر يوهان بتوحيد الجيوش،
فتقدّمت كتائب المشرق بقيادة مهربان،
والبحيرات بقيادة أنطونيوس،
في جيشٍ واحدٍ هو الأكبر في تاريخ البلاد.

اصطفّوا على حدود الصحراء السوداء،

حيث كان جيش الظلام الأخير ينتظر —
عشرة آلاف ظلٍّ بلا ملامح،
يتقدّمهم القائد الصامت، ذراع أوغسطين اليمنى.

صمت الجميع للحظة،
حتى صرخت الأبواق من خلف البحيرات،
وانطلقت السهام كالعواصف،
ثم اصطدمت الجيوش كأن الأرض انفجرت.

كان القتال رهيبًا،
النور والظلال يمتزجان في عاصفةٍ من الدم والرماد.
مهربان في المقدمة،
يضرب بلا توقف،
لكن سهمًا أسود اخترق صدره،
فسقط على ركبتيه، والدم يغمر يديه.

ركض نحوه يوهان،
أمسكه قبل أن ينهار وقال:
"لا تسقط الآن يا مهربان، النور ما زال يحتاجك."

ابتسم مهربان بضعفٍ وقال:
"النور لا يحتاجني... هو فقط يمرّ بي."
ثم أغلق عينيه.

انفجر الغضب في صفوف المشرق،
وأنطونيوس رأى القائد الصامت يقف بين الظلال،
فاندفع نحوه كالسهم.

قال له بصوتٍ عميقٍ يشبه الرعد:
"كُنت تلميذَك في الدير... لكن اليوم، أحدنا فقط سيخرج آيها القائد "

الضربة الأولى كانت كالبرق،
والثانية كانت كالرعد،
والثالثة كسقوط جبلٍ في بحر.

الحديد اشتعل بالنار،
حتى انكسرت سيوفهم،
فأمسك أنطونيوس بخنجرٍ صغيرٍ من حزامه،
وغرسه في صدر القائد حتى اخترق قلبه المعدني.

سقط القائد على الأرض،
وفي اللحظة التي لفظ فيها أنفاسه،
تلاشت كتائب الظلام كلها،
كأنها كانت متصلةً به بخيطٍ واحدٍ من اللعنة.

سكنت الأرض.
وساد الصمت.

رفع ثيودور المخطوطة نحو السماء،
وهي تلمع للمرة الأخيرة.
قال بصوتٍ خافتٍ:
"انتهى الظلّ... لكن الثمن سيُكتب في النور."

وفي ذلك اليوم،
سُجّل في كتب البحيرات والمشرق:

"في معركة سقوط الليل، احترق آخر أثرٍ للظلال،
وسقط مهربان بطل المشرق،
وبقي النور واقفًا، لكن مثقّبًا بالدماء.

⚜️ الفصل الخامس عشر

جنازة مهربان... آخر أبطال المشرق

كانت السماء ملبدة بالغيوم،
والهواء ساكنًا كأنه يخاف أن يمرّ على الأرض التي سال فوقها دم الأبطال.

في سهل المشرق،
حُفر قبرٌ واسع في قلب التل المطل على الوادي،
حيث كان مهربان قد خاض أول معركةٍ له .
اجتمع الجنود، والرهبان، ورجال القرى من كل أطراف البلاد،
يحملون المشاعل في صمت،
بينما ارتفعت رايات البحيرات والمشرق معًا،
تُرفرف فوق نعشه المصنوع من خشب أشجار البحيرة المقدسة.

وقف يوهان عند رأس القبر،
عيناه دامعتان لا تبكيان،
وصوته مبحوح من كثرة الأوامر والصراخ والندم.
قال بصوتٍ يملأ الوادي كله:

"هنا يرقد رجلٌ لم يولد في أرضنا،
لكنه أحبها أكثر من أبنائها.
قاتل من أجلنا، ومات دون أن يطلب شيئًا.
من أرض الأفيال جاء غريبًا،
ومن المشرق رحل خالدًا."

ثم تقدّم ثيودور،
وجهه هادئ كأنما يعرف أن الوداع ليس نهاية الطريق.
وقف فوق التلة، والمخطوطة القديمة بين يديه،
وقال بصوتٍ ثابتٍ رغم ما في عينيه من وجع:

"هزمنا آخر وأقوى أسلحة أوغسطين،
لكننا خسرنا رجلًا صنع من دمه جسرًا نحو النور.
لم يكن من أبناء البحيرات...
لكنها كانت في قلبه.

وبه صار المشرق لنا، والنور لنا، والحياة لنا."

تقدّم رومان ووضع خوذة مهربان فوق النعش،
بينما أنطونيوس غرز سيفه في الأرض جوار القبر،
ثم رفع يده يؤدي التحية العسكرية الأخيرة.
وفي تلك اللحظة، دوّت الأجراس من البحيرات،
وصوت الكفيف يتلو من بين الجمع تراتيل السلام:

"من سار في الظلّ دفاعًا عن النور...
فليكن له مقام بين الخالدين."

وانحدر النعش ببطء إلى جوف الأرض،
وساد الصمت في أرجاء المشرق.
حتى الطائر — ذلك الذي كان دائم التحليق فوق المعارك —
دار دورةً واحدة في السماء، ثم اختفى في الغيوم

"الظلّ الذي لم يمت بعد"

في عمق دير الظلال،
جلس أوغسطين وحده، بين جدرانٍ لم تعد تعرف غير الصدى.
النيران في المداخن خافتة، والهواء يعبق برائحة الرماد والحديد البارد.
أمامه خريطة المشرق القديمة، وقد صار عليها رمادٌ كثيف من أثر الشموع المنطفئة.

كانت الأخبار تصل إليه تباعًا:
مهربان، ذلك التاجر القادم من أرض الأفيال،
الذي ظنّ أنه مجرّد رجلٍ عابر —
تحوّل إلى سيفٍ من نورٍ قاد البحيرات والمشرق نحو النصر.
الآن سقط مهربان ، ميتًا في أرضٍ لا يعرفها،
لكن في سقوطه خسر أوغسطين آخر فرصه لاستعادة المشرق.

ضرب بيده على الطاولة حتى ارتجفت الخرائط،
وصاح بصوتٍ خافتٍ كأنما يخاطب شبحًا أمامه:

"ذلك الغريب... حطّم آخر بواباتي.
لم يكن من رجالهم، لكنه كان قلبهم.
لقد ظننت أني سأهزمهم بالظلّ،
لكنهم قاتلوني بالوفاء!"

اقترب منه مارى — آخر رجاله، قائد المشرق المقهور —
وجهه شاحب، وصوته مرتجف من ثقل الهزائم المتتالية.
قال ببطءٍ، محاولًا كسر الصمت:

"سيدي... انتهت الحروب، والناس هناك يرفعون رايات الشمس.
ربما حان وقت الصلح، لا النار."

نظر إليه أوغسطين بعينين كالجمر تحت الرماد،
وردّ بصوتٍ يخرج من قاع اليأس:

"الصلح؟ لا صلح مع من سلبوا نوري.
أنت آخر من تبقّى من رجالي يا مارى،
لكنك لن تكون القائد الذى كان يفهمنى دون كلام ،
ولا حتى ظلّ فان.
سأعيدهم إلى الركوع... ولو بيدي وحدي."

ابتلع مارى صمته، ثم انحنى وغادر القاعة ببطء،
والأبواب الحديدية تُغلق خلفه كأنها تُغلق فصلًا من الجحيم.

بقي أوغسطين وحيدًا.
الظلال تتكاثر حوله، والريح تعوي بين نوافذ الحجر،
حتى لمح على الطاولة ظرفًا صغيرًا مختومًا بخاتمٍ أسود غير مألوف.
مدّ يده المرتجفة وفتحه،
فانسكبت منه رائحةٌ غريبة كأنها قادمة من أرضٍ بعيدة.
كان الخط على الورقة مائلًا مهتزًّا، لكن الكلمات واضحة كالنار:

"إلى الأنبا أوغسطين...
لم أنتهِ بعد.
ما احترق يمكن أن يُكتب من جديد.
سأعود، والورقة معي.
— يوشع."

تجمّد أوغسطين مكانه،
نظراته ثابتة على الحروف الأخيرة كأنها لعنة جديدة تولد أمامه.
تمتم بكلماتٍ أشبه بالصلاة المعكوسة:

"عاد يوشع... والورقة لم تمت."

ثم رفع رأسه ببطء نحو النافذة،
كان القمر ينعكس على الزجاج المعتم،
وفي عمق الظلال خارج الدير،
شخصٌ آخر يقف بعيدًا... يراقب المكان بصمتٍ ثقيل.
لم يتحرك، لم يتكلم،
لكن عينيه كانتا تلمعان كبريق سيفٍ في الظلام.

لم يكن يوشع...
بل شيءٌ آخر،
من نوعٍ لم تعرفه الأرض بعد.

هدأت الريح فجأة،
وسقطت آخر شمعة في القاعة.
لم يبقَ سوى صدى أنفاس أوغسطين المتقطعة،
وصوتٌ خافتٌ في العدم يقول:

"الظلال لم تمت بعد... إنها فقط تنتظر أن تُبعث.

✨ انتهى الجزء التاسع

—

⚜️ الجزء العاشر: ليلُ الظلال ونورُ العهد

الفصل الأول: اعتراف النور... وانكسار الظلال

كان الليلُ يأتي على المشرق ببطءٍ هذه المرة،
ليس كلصٍّ يخنق القرى، بل كشيخٍ مُتعبٍ يجلس على أنقاض معركةٍ انتهت.
ريحٌ باردةٌ عبرت بين أطلال الحروب، تحمل معها رائحة الحديد والدم والرماد...
لكن هذه المرة، امتزجت بها رائحة البخور والصلوات من معابدٍ فُتحت من جديد.

على الجانب الآخر من الأرض،
في أعماق دير الظلال،
جلس أوغسطين في صمته الثقيل،
عيناه زائغتان نحو الجدار الحجريّ المعلّق عليه خريطة قديمة،
كل النقاط التي كانت ترمز إلى سيطرته أُطفئت كنجومٍ انطفأت في سماءٍ مظلمة.

مارى يقف أمامه، رأسه منحنٍ، لا يجرؤ على النظر في عينيه.
لم يكن شجاعًا كفان، ولا وفيًا كالقائد القديم...
كان رجلًا مُنهكًا، ممزقًا بين الخوف والطمع.

قال أوغسطين بصوتٍ خافتٍ لكنه يقطّع السكون كالسيف:

"انهار جيشك أمام العهد الجديد، لا لأنهم أقوى... بل لأنك أضعف.
أرسلتُك لتكون ظلّي، فعُدتَ خيالًا هزيلًا يخاف من النور."

تراجع مارى خطوةً إلى الخلف، يحاول التماس العذر:

"سيدي... الناس هناك تخلّوا عنا، الكنيسة نفسها باركتهم.
يوهان صار أبًا للمشرق، وثيودور صار أبًا للبحيرات.
حتى الكهنة في الجنوب يصلّون لهم، لا لك."

ضحك أوغسطين ضحكةً قصيرةً باردةً، وقال بمرارةٍ تكاد تلسع الجدران:

"كنيستي... باركت قاتليّ.
يظنون أن الصلاة تطهّر الدم... لكن الدم لا يُغتسل بالصلاة، بل بالاعتراف."

ثم وقف ببطءٍ، وعباءته السوداء تنساب كظلٍّ طويلٍ خلفه.

"اذهب يا مارى. عد إلى المشرق. راقبهم، لا تُقاتلهم.
الثقة بك لم تعد كما كانت... لكن ربما تخبرني الأرض يومًا،
من يستحق أن يكون ظلّي القادم."

غادر مارى القاعة بصمتٍ، والريح تغلق الأبواب خلفه كأنها تصرخ وداعًا باردًا.

في المشرق، كانت الأجراس تُقرَع لأول مرة منذ زمن .
الناس تخرج للصلاة، والأطفال يلعبون عند أطراف الحقول التي أكلتها الحرب.
في ديرٍ جديدٍ بُني فوق أنقاض المعبد القديم،
وقف يوهان بثوبه الأبيض،
وحوله رجال الكنيسة، والوفد القادم من الكنيسة الأم بقيادة فرانس ومعه القاضي الثالث والياس العجوز.

رفع القاضي يده بصوتٍ عالٍ أمام الجموع:

"باسم الكنيسة الأم، وبمباركة البابا نفسه،
نعلن المشرق أرضًا طاهرة، يحكمها ابن العهد: يوهان بن ذي اللحية البيضاء،
أبًا للمشرق، وحارسًا لعهد النور."

سجد الناس على الأرض،
والدموع تختلط بالتراب،
بينهم من فقد أبناءه في الحروب، ومن عاش ليرى يوم القيامة يشرق عليه بلا نار.

في الجانب الآخر،
في أرض البحيرات،
وقف ثيودور بثوبه الرمادي، والمخطوطة بين يديه،
تحيط به رايات الشمس البيضاء،
وفي صفوفه أنطونيوس، ورومان، والكفيف —
الذين قاتلوا معه حتى اللحظة الأخيرة من الظلام.

تقدّم وفد الكنيسة إليهم أيضًا،
وقال فرانس بصوتٍ مهيبٍ أمام الجميع:

"وباسم الكنيسة الأم أيضًا، نبارك البحيرات،
ونمنح الراهب الصامت — الأب ثيودور —
عهد القيادة الروحية، خلفًا لسِيدنا الكبير،
ليكون أبًا للبحيرات كما كان الأول أبًا للنور."

صفّق الناس، وارتفعت الصلوات،
بينما كان أنطونيوس يركع أمام ثيودور،
فينحني الأخير ويضع على كتفيه درع الكنيسة،
درعًا من الفولاذ الفضيّ، نُقش عليه الصليب والشمس،
علامةً على عهدٍ جديدٍ يُولد بعد الدماء.

قال ثيودور وهو يضع الدرع على كتف قائده:

"احمل هذا لا لتقتل، بل لتحمي.
فالسلام الذي يُصان بالسيف، هو أقرب للعدل من الاستسلام."

أومأ أنطونيوس بعينين دامعتين، وقال:

"أعدك يا أبانا... لن تُخترق هذه الأرض بعد اليوم إلا بالنور."

في تلك الليلة، اجتمع رجال المشرق والبحيرات في صلاةٍ مشتركة،
تُتلى فيها أدعية للسلام ولروح مهربان —
ذلك الغريب الذي صار رمزًا للوطن،
الرجل الذي جلب من أرض الأفيال ذهب التجارة،
ثم مات ليزرع ذهب العهد الجديد.

رفع يوهان صوته بالدعاء:

"اللهم اقبل روح مهربان بين الأبطال،
فقد حمل سيفه لا ليُغزو، بل ليُضيء الطريق.
وإن مات جسده، فاسمه باقٍ في قلوبنا كالشمس على الماء."

ارتفعت أصوات الناس بالصلاة،
وتحوّل المساء إلى لحظةٍ بين الحزن والفخر،
بين الفقد والنور،
كأن السماء نفسها تبكي وتبتسم في آنٍ واحد.

⊡

أما في دير الظلال...
كان أوغسطين يقف أمام مرآةٍ صدئةٍ في غرفته الحجرية،
وجهه شاحب، وعيناه غائرتان،
وكأن أرواح الذين قتلهم —
إيليا، ماركوس، ذو اللحية البيضاء، سيدنا، وكل من سقط بأمره —
تتجمع خلفه كظلالٍ لا تنام.

قال لنفسه بصوتٍ متقطعٍ كمن يناجي عذابه:

"كلهم عادوا في الذاكرة... حتى الصمت يلومني."

ثم ضرب المرآة بقبضته،
فتناثرت الشظايا، وانعكست فيها صور وجوهٍ كثيرة...
وجوهٌ يعرفها، وجوهٌ دفنها بنفسه.

جلس على الأرض،
والليل يزحف حوله كزحف الرماد،
وقال بصوتٍ مبحوحٍ، كأنه اعترافٌ أخير:

"اللعنة لم تكن في المخطوطة...
كانت في قلبي."

⊡

في الخارج،
بدأ المطر يهطل على دير الظلال للمرة الأولى منذ سنين،
كأنه غُسلٌ بطيءٌ للخطايا التي تراكمت.

لكن في أعماق الممرات،
كانت هناك شمعةٌ صغيرة لا تزال تشتعل...
شعلةٌ باهتة، لا تُنذر بنورٍ جديد،
بل بظلٍّ قادم

⚜ الفصل الثاني: ظلال التاج الذهبي

لم يكن في تاريخ الكنيسة أن قامت أرضان متناقضتان ——
أرض البحيرات وأرض المشرق ——
تحت رايةٍ واحدةٍ تُضيء بالشمس الذهبية.

المجد الذي بدأ كسلامٍ صغيرٍ بعد حربٍ طويلة،
صار اليوم اتساعًا يثير القلق في القصور،
ويوقظ شكوك الكهنة في القاعات الحجرية للكنيسة الأم.

في روما البعيدة،
جلس الكاردينال فرانس في قاعةٍ ضيقةٍ من الضوء،
أمامه مراسلات البحيرات والمشرق،
وبجانبه مبعوثو البابا وكبار القساوسة.
كانت أوراقهما تحمل أسماء:

"يوهان ابن ذو اللحية البيضاء – ثيودور الراهب الصامت – مجلس البحيرات والمشرق."

قرأ فرانس السطور الأولى بصوتٍ بطيءٍ كأنه يتذوّقها:

"تحت راية الشمس الذهبية،
توحّد الشعبان، وتوارت الظلال عن الأرض."

ثم رفع نظره وقال بحدةٍ خافتة:

"الظلال لا تتوارى... بل تنتظر.
إنهم الآن أقوى مما كنا نتوقع،
لديهم الأرض، والرجال، والذهب،
والآن حتى صوت الناس معهم.
من يملك هذا... يملك الكنيسة دون أن يجلس على كرسيها."

ساد القاعة صمتٌ طويل.
لم يجرؤ أحد على الرد.
حتى قال أحد المبعوثين بصوتٍ مرتجف:

"لكن يا سيد فرانس... لقد بارك قداسة البابا هذا الاتحاد."

رد فرانس بابتسامةٍ قصيرةٍ تشبه طعنةً صغيرةً في قلب جدارٍ قديم:

"البركة لا تعني الثقة.
البابا باركهم لئلا يُعلنوا استقلالهم الكامل...
لكنه لم يُسلّمهم زمام الكنيسة بعد."

ثم تابع وهو يضغط على الخاتم الذهبي في إصبعه:

"علينا أن نُعيد التوازن،
لا بالسيوف... بل بالأسماء.
أوغسطين ما زال في الظلال،
ورجاله ما زالوا يسمعون صوته.
سندعوه، لا ليحارب، بل ليذكّرهم أن الظلام ما زال يخصّنا نحن."

⊡

وفي المقابل، في قلب البحيرات،
كانت المدينة تحتفل بالنور الجديد.
الأسواق ممتلئة، والموانئ مفتوحة،
وصوت الأجراس يعلو كل صباحٍ معلنًا عهدًا جديدًا.

ثيودور يجلس في دير الشمس،
وعلى الطاولة أمامه رسالة مختومة بشعار الكنيسة الأم.
قرأها بهدوءٍ، ثم قال للكفيف وهو يضعها جانبًا:

"الكنيسة تباركنا... لكنها تخافنا.
وكل من يبارك خوفًا، يبارك سيفًا في غمدٍ لا نراه."

اقترب أنطونيوس وقال بصوتٍ حازمٍ:

"سنحافظ على العهد، لكننا لن نسمح لهم أن يعيدوا لنا الظلام بحجة النظام."

ابتسم ثيودور وأجاب:

"لهذا خُلقت البحيرات...
لتبقى نورًا لا يُباع، وسيفًا لا يُشترى."

وفي المشرق،
كان يوهان في معبده الحجريّ القديم،
ينظر إلى تمثال صنعوا لأبيه ذو اللحية البيضاء،
ويقول لنفسه بصوتٍ متعبٍ يشبه الحنين:

"يا أبي، عدنا كما وعدنا،
لكن النور لا يرتاح... فكلما أضاء مكانًا،
ظهرت له ظلال جديدة."

⊡

وفي الظلال، في أقصى الغرب،
جلس أوغسطين في ديره الكبير – دير الظلال –
حين جاءه رسولٌ يحمل ختم الكنيسة.
فتح الرسالة ببطءٍ، فابتسم لأول مرة منذ شهور.

كانت الرسالة من فرانس نفسه،
وفيها كلمات قليلة لكنها كافية لإعادة إيقاظه:

"الكنيسة تحتاج صوتك من جديد،
لا للحرب... بل للتوازن."

قرأها أوغسطين مرتين، ثم قال للحرس الواقف بجانبه:

"لقد عادوا يستنجدون بالظلّ ليحكم النور.
أخبرهم... أن الظلّ لم يمت،
إنه فقط ينتظر من يستدعيه."

⊡

هكذا،
بينما يحتفل المشرق والبحيرات بوحدتهما،
كانت الكنيسة الأم تُعيد ترتيب أوراقها،
وتستدعي رجلًا من الماضي ليكبح مجد الحاضر.

النور بدأ يُنير السماء،
لكن الظلال عادت تتحرّك في الأرض —
هادئة... صبورة...
تنتظر لحظة العودة

⚜ الفصل الثالث: همسٌ في البحيرات

كانت الليالي في البحيرات أكثر هدوءًا من المعتاد،
لكن ذلك الهدوء لم يكن سلامًا...
بل سكونًا مريبًا، يشبه الهدوء الذي يسبق المطر أو الحرب.

في القرى وعلى المرافئ، بدأت الهمسات تسري بين الناس:

"الكنيسة لم تُباركهم بعد..."
"ثيودور صار أنبا دون إذن..."
"الراية الذهبية ليست مقدّسة."

في البداية ظنّوا أنها شائعات،
لكنها تكرّرت بنفس الكلمات في أماكن متباعدة،
حتى صار من الواضح أن أحدهم يهمس للعامة من وراء الجدران.

دخل أنطونيوس على ثيودور في قاعة الدير،
الشموع تهتزّ من رياح الليل،
وقال بصوته الجادّ:
"الكلمات يا أبانا، صارت كالسمّ.
كلما أطفأناها في موضع، اشتعلت في آخر.
من ينشرها يعرف أرضنا جيدًا... ويعرف كيف يخيف الناس دون سيف."

رفع ثيودور رأسه عن المخطوطة،
وصوته خرج هادئًا لكنه يحمل عمقًا غامضًا:
"الظلال لا تأتي من الخارج، يا أنطونيوس...
بل من داخل النور نفسه.
هناك من يزرعها بيننا بأسماءٍ تشبهنا،
وبأصواتٍ تحفظ التراتيل وتخفي خلفها الخيانة."

صمت لحظة، ثم قال:
"راقب الموانئ والكنائس الصغيرة ومجالس التجار.
الكنيسة الأم تراقبنا... لكن لها أعين هنا أيضًا."

▫

وفي المشرق،
جلس يوهان في قاعةٍ من الحجر المضاء بالمشاعل،
إلى جواره سيلفان، الراهب الشاب الذي اتخذه معينًا له في شؤون المشرق،
وجهه يحمل نقاء الرهبان، وصوته فيه صلابة لا تشبه سنّه.

كان أمامهما خريطةٌ تمتد من حدود البحيرات حتى أطراف الصحراء،
وعلى الطرف الآخر وقف القائد كريس،
أحد رجال أنطونيوس الذين أرسلهم إليه ليقود جيش المشرق بعد مهربان،
شابٌ ذو شعرٍ أسود قصير، وندبةٍ طويلة على ذراعه اليسرى،
يحمل ملامح الجنود الذين وُلدوا للحرب أكثر من الكلام.

قال يوهان وهو يطالع الخريطة:
"أخبار البحيرات تقلقني يا سيلفان،
إن انقسموا هناك، فسيسقط المشرق وحده في أول عاصفة."

ردّ سيلفان وهو يرفع عينيه بثقةٍ هادئة:
"المشرق أقوى من أن يسقط، يا سيدي.
أبوك زرع فينا إيمانًا لا تمحوه الشائعات،
والنور الذي خرج من البحيرات لا ينطفئ بسهولة،
لكنه يحتاج من يحرسه من الداخل."

تقدّم القائد كريس خطوة وقال بصوتٍ عسكريٍّ جاف:
"رجالي جاهزون، يا مولاي.
نحن لا نحارب بالعدد، بل بالنية.
لكن... إن كانت البحيرات تهتزّ، فعلينا أن نهيّئ السلاح، لا الكلام."

ابتسم يوهان بخفوتٍ وقال:
"لسنا نريد الحرب يا كريس،
لكن من يعرف الظلال... لا ينام قبل أن يُشعل ناره."

▫

وفي قرية الظلال،
كان أوغسطين جالسًا في صمتٍ ثقيلٍ أمام نارٍ خامدة.

لم يبق معه أحد من رجاله سوى مارى،
الذي صار ظلّه الوحيد، وسيفه حين يشتدّ الخطر.

قال أوغسطين وهو يحدّق في الجمر الباهت:
"كل ما سقط يمكن أن يُبعث من جديد... حتى الظلال.
أهل البحيرات يظنون أن النور حماهم،
لكن النور حين يغفل، يخلق ظلّه بيده."

ردّ مارى، وصوته يحمل تعب الرجال الذين نجوا من كل شيء إلا الخوف:
"الرجال جاهزون يا سيدي،
لكننا أقلّ من أن نحاربهم كما كنّا.
ربما نحتاج إلى طريقٍ آخر."

ابتسم أوغسطين ابتسامةً باردةً، وقال:
"لن نحارب بالحديد الا بعد ان نعيدها
سنعود لنحاربهم بالكلمة، بالهمس، بالشك.
سيشكّون في بعضهم، ثم في أنفسهم،
وحين يختلف النور على نفسه...
تعود الظلال لتحكم."

·

في الليلة التالية،
دخل رومان مسرعًا إلى قاعة ثيودور،
وقال وهو يلهث:
"أبانا، وجدنا أحد الرهبان يكتب على الجدران:
(النور خان السماء).
يقول إن البحيرات خرجت عن البركة."

سكت ثيودور لحظة،
ثم وضع يده على صدره وقال بهدوءٍ مؤلم:
"السماء لا تلعن يا رومان...
البشر هم من يكتبون لعناتها بأيديهم."

اقترب الكفيف، وقال بصوتٍ عميقٍ مبحوح:
"الليل بدأ يتكلم
فهل نصمت نحن أم نردّ؟"

أجاب ثيودور، وعيناه تتوهجان بضوءٍ غامض:
"لن نصمت... لكننا لن نحارب بالكلمة.
من خرج من الظلال لا يعود إليها مرتين."

·

وهكذا،
بدأت نارٌ خفية تتوهّج في أعماق الأرض من جديد ——
حربٌ لا تُخاض بالسيوف،

بل بالهمسات، والشك، والعيون التي تراقب في الظلام.
لم يعد أحد يعرف من يزرع النور... ومن يسقي الظلال،
لكن الجميع شعر أن شيئًا آتٍ،
شيئًا لا يشبه الحروب القديمة،
بل يشبه انتقام الليل من الفجر نفسه

الفصل الرابع: رقعة الشطرنج الأولى⚜️

لم يكن في الأرض صوت حربٍ بعد عامٍ من الصمت،
لكن الهواء نفسه صار يحمل رائحة المؤامرة،
كأنّ كل حجرٍ في المشرق والبحيرات ينتظر أن يُزاح عن موضعه.

في دير الظلال، جلس الأنبا أوغسطين على عرشه الحجريّ،
وجهه شاحبٌ من السهر، وصدره يعلو ويهبط كبركانٍ خافتٍ لم ينطفئ بعد.
إلى جواره، وقف مارى
قال أوغسطين بصوتٍ خافتٍ كأنه حديث نفسه:
"كنا نملك المشرق...
كنا نُمسك بالبحيرات من أعناقها.
الآن، صار كل شيء تحت راية واحدة... رايتهم، لا رايتي."

اقترب مارى بحذر، عيناه تحملان خوفًا وفضولًا في آن:
"سيدي، البحيرات تبني المعابد، والمشرق يعيد الزراعة.
الكنيسة الأم أرسلت بعثتها بقيادة فرانس،
وفرانس لا يخفي كرهه لك...
إنهم يريدون تجريدك من كل نفوذٍ سوى ديرك."

ضحك أوغسطين ضحكةً متقطعة، وقال بنبرةٍ لاذعةٍ كالسمّ:
"فرانس؟ ذلك الراهب ذو الابتسامة المزيّفة؟
إنه لا يرى إلا بعيون البابا... وأنا كنتُ من صنع عيني الكنيسة يومًا.
سيأتي اليوم الذي تُصلي فيه البحيرات باسمنا من جديد،
حتى لو اضطررتُ إلى إعادة اللعنة بيدي."

أطرق مارى رأسه، ثم قال بخفوتٍ:
"الناس لا يصدقون بعد ما حدث في المشرق،
لكن الخوف ما زال يسكن القلوب.
لو بثثنا بعض القصص القديمة عن عودة الظلال،
ربما يعود الولاء إلينا كما كان."

التفت إليه أوغسطين بعينين متألقتين كالجمر:
"افعل ذلك...
ابذر الخوف من جديد،
لكن دون أن يعرف أحد أنك أنت من فعل.
كل شيءٍ يجب أن يبدو طبيعيًا،
حتى تعود العتمة طوعًا لا قسرًا."

ثم نهض ببطء، وسار نحو النافذة العالية المطلة على الوادي المظلم، وقال:
"سنة واحدة فقط...

سنة من الحروب الهادئة، والمناورات الصامتة،
ثم نُسقطهم من الداخل قبل أن نُهاجمهم من الخارج."

·

وفي الجهة المقابلة،
في قصر البحيرات الجديد
كان ثيودور جالسًا في قاعة المجلس الحجريّة،
حول طاولةٍ عليها خرائط المشرق والبحيرات،
وبجواره يوهان وأنطونيوس والكفيف.

قال يوهان بصوتٍ حازمٍ:
"الكنيسة الأم تُرسل كل أسبوعٍ وفدًا للتفتيش،
وفرانس يراقب تحركاتنا كأننا تلاميذ تحت التجربة.
أوغسطين فقد قوّته، لكنّه لم يمت بعد.
أشعر أنه يتحرّك في الخفاء."

ردّ أنطونيوس، وهو يشير إلى النقاط على الخريطة:
"المشرق آمن، لكن الحدود الغربية مفتوحة.
أي حركة صغيرة من دير الظلال قد تُربكنا،
خصوصًا إن عاد أوغسطين لاستعمال أتباعه القدامى."

قال الكفيف وهو يبتسم ابتسامةً غامضة:
"أوغسطين لا يقاتل بالسيوف، بل بالعقول...
وحين تصمت الحرب، يبدأ هو في الكلام."

تبادلوا النظرات،
ثم قال ثيودور بنبرةٍ خافتةٍ لكنها حازمةٍ كالسيف:
"إذن فلنصمت نحن أيضًا... لكننا سنفكر قبله بخطوة.
اللعنة وُلدت من فكرٍ، لا من نارٍ،
وسنقتلها بالعقل قبل أن نحاربها بالسلاح."

·

في الليلة نفسها،
اجتمع فرانس ممثل الكنيسة الأم في معبد البحيرات،
وحوله رجالُ الدين الجدد الذين بايعوا ثيودور ويوهان.
قال بصوتٍ باردٍ وهو يقرأ رسالة البابا:
"الكنيسة تُبارك اتحاد البحيرات والمشرق،
لكنها تُحذر من التوسع غير المصرّح به،
وتمنع اتخاذ أي قرارٍ دينيّ دون مراجعة المقرّ الأم في الغرب."

همس أحد الرهبان:
"إنهم يخافون أن نصبح كنيسةً أقوى منهم."

لكن فرانس اكتفى بالردّ بنظرةٍ حادةٍ وقال:
"من يخرج عن طاعة الكنيسة...

تبتلعه الظلال، حتى لو كان من أبناء النور."

⊡

وهكذا بدأت الحروب الهادئة،
حروب السياسة والولاء والمال والدين،
التي دامت عامًا كاملًا دون سهم واحد
لكنها تركت القلوب تنزف أكثر من أي سيف.

في دير الظلال،
كانت النيران تُضاء كل ليلة في القاعات،
رجالٌ جدد يتوافدون — لا رهبان ولا جنود،
بل غرباء بوجوهٍ جامدةٍ وأجسادٍ هائلةٍ كأنهم صُنِعوا في الظلام.
كان أوغسطين يكوّن شيئًا جديدًا...
شيئًا لم يكن جيشًا فقط،
بل لعنةً تمشي على قدمين.

الفصل الخامس: لعبة الهدوء المرّ

عامٌ كامل مرّ دون صليل سيفٍ أو صرخة حرب،
لكن الأرض لم تعرف السكون قطّ.
كانت الصراعات تدور في القاعات لا في الميادين،
والقرارات تقتل كما كانت تفعل الرماح من قبل.

في دير الظلال، جلس أوغسطين أمام خرائطه القديمة،
وعلى وجهه مزيجٌ من الغضب والحساب.
كل ما خسره في الحرب الماضية،
يحاول الآن أن يستعيده بالقلم والذهب بدل الدم.

إلى جواره مارى .
وجهه شاحبٌ من القلق والإنهاك.
قال بهدوءٍ خائف:
"سيدي، فرانس يستغل سلطته الجديدة.
يراقب البحيرات والمشرق معًا،
ويُرسل التقارير إلى البابا وكأنه الحاكم الحقيقي.
أما الكنيسة، فهي تُقلّص نفوذك شيئًا فشيئًا."

رفع أوغسطين نظره،
وفي عينيه بريقٌ داكن لا يُطمئن:
"الكنيسة نسيت أني أنا من صاغ النظام القديم.
الذي خلق المشرق قادر أن يخلخل البحيرات."

ثم أضاف ببطءٍ:
"فرانس لا يريد سوى أن يجعل من ثيودور ويوهان أدواته.
لكنّهما سيعلمان قريبًا أن الماء لا يطيع من لا يعرف أعماقه."

ابتسم مارى بتردد، وقال:

"المشرق الآن تحت حكم يوهان.
الراهب الشاب سلفان صار ذراعه اليمنى،
وكريس — جندي البحيرات — أصبح قائد حرسه.
كلهم يتكلمون باسم السلام."

ضحك أوغسطين ضحكةً جافة وقال:
"السلام؟ كلمة اخترعها الضعفاء ليغسلوا بها خوفهم.
دعهم يبنون ما شاؤوا...
سأجعل الأسس نفسها تنهار تحت أقدامهم."

⊡

وفي المشرق،
كانت الشمس تعلو فوق الأسوار الجديدة،
بينما يسير يوهان في أروقة المعبد الكبير،
إلى جواره سلفان، وجهه يشرق بإيمانٍ جديد.

قال سلفان وهو ينظر إلى الناس في الساحات:
"لقد صارت المشرق حيّة من جديد، يا سيدي.
القرى تعود للعبادة، والناس يزرعون الأرض بأمان."

أومأ يوهان دون أن يبتسم، وقال:
"نعم، لكن الأمان لا يدوم ما دام هناك ظلّ.
أوغسطين لم ينسَ المشرق، بل ينتظر اللحظة."

اقترب منه كريس، القائد العسكري الجديد،
درعه الفضيّ يعكس نور الصباح، وقال:
"طرق المشرق مؤمّنة بالكامل.
أقمتُ نقاط حراسة على الحدود الغربية،
لكن هناك حركة غريبة حول دير الظلال."

ردّ يوهان بلهجةٍ ثابتةٍ حذرة:
"راقب... لا تهاجم.
دعهم يظنون أننا نائمون."

⊡

وفي البحيرات،
جلس ثيودور إلى مكتبه الخشبي،
وحوله أنطونيوس والكفيف وروما.
كان يتصفح رسالة مختومة بختم الكنيسة الأم.

قرأها بصوتٍ منخفض:
"الكرسي الرسولي يرحّب بالاستقرار في البحيرات والمشرق،
لكنّه يحذّر من أي توسّعٍ أو تحالفٍ دون موافقة البابا."

أطرق أنطونيوس وقال ببرودٍ عسكري:

"تحذير... يعني مراقبة.
وفرانس هو عين البابا التي لا تغمض."

ردّ ثيودور، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة:
"فليفتح عينه جيدًا إذن...
لأن ما سيراه قريبًا لن يكون كما يظن."

رفع الكفيف رأسه وقال بصوتٍ غامضٍ كعادته:
"حين يسكن الظلام القلوب،
لا يحتاج الضوء إلى إذنٍ ليعود."

⊡

وفي تلك الليلة،
عقد أوغسطين اجتماعه السري الأول منذ سقوط فان.
تجمّع رجالٌ غرباء في القاعة الحجرية،
وجوههم مغطاة، أصواتهم متقطعة.
كانوا نواة كتائب الظلّ الجديدة،
رجالًا بلا هوية،
ووحوشًا تربّت على الكراهية.

قال أوغسطين لهم بصوتٍ خافتٍ مخيف:
"لقد خسرنا المشرق... لكننا نملك ما هو أخطر.
الفكر لا يُقتل بالسيوف،
واللعنة التي تنام في الأرض... أنا من سيوقظها."

⊡

وهكذا انتهى عام السلام المزيّف،
وبدأ عهد الصراع الخفي —
حيث الكلمة خنجر، والمجلس ساحة قتال،
والأصدقاء يتحولون إلى بيادق على رقعةٍ
تحرّكها يدُ أوغسطين من الظلال

🕯️ الفصل السادس: ظلال العروش

لم تكن الحروب تندلع بعد،
لكن رائحة الحديد والدماء بدأت تتسلل إلى المكاتب قبل الساحات.
الكنيسة الأم شدّت قبضتها على البحيرات والمشرق،
وفرانس صار عينها ولسانها،
أما أوغسطين فكان الظلّ الذي يتحرك في صمت خلف الستار.

⊡

في دير الظلال،
جلس أوغسطين على المائدة الطويلة، أمامه خرائط متهالكة
تحمل خطوطًا قديمة لممالكٍ سقطت منذ عقود.

إلى جواره مارى، ينصت دون أن يجرؤ على المقاطعة.

قال أوغسطين بصوتٍ هادئٍ وباردٍ كالماء الراكد:
"فرانس يظنّ أنه كبحني بتحجيم سلطتي داخل الدير والقرية،
لكن الكنيسة التي تبني الجدران تنسى أن الخراب يولد من داخلها."

أخرج ورقة قديمة ومرّر أصابعه عليها كما لو كانت كائنًا حيًّا:
"سننشر ما يزعزع ثقتهم.
قصصٌ عن فسادٍ بين رهبان البحيرات،
وهمسات عن أن يوهان باع المشرق للبابا."

تردّد مارى، ثم قال بخوفٍ:
"لكن يا سيدي، الناس تعبوا من الدم...
سيشمّون رائحة المؤامرة."

نظر إليه أوغسطين نظرةً واحدة كانت كافية لإسكاته، وقال:
"الخوف لا يحتاج إلى دليل،
يكفي أن تهمس، والبشر يصنعون الصرخة بأنفسهم."

ثم أضاف بعد لحظة صمتٍ طويلة:
"راقب سلفان، راهب يوهان الجديد.
عيناي تقول لي إنه ليس كما يبدو.
في المشرق، يبدأ الشكّ... ومنه تُشعل الحروب."

⊡

وفي المشرق،
اجتمع يوهان وكريس وسلفان داخل قاعةٍ حجريّة صغيرة
تتدلّى فيها رايات البحيرات والمشرق معًا.
كانت الرطوبة تتسرّب من الجدران، كأنها تذكّرهم بماضٍ لا يُنسى.

قال كريس وهو يضع تقريره أمام يوهان:
"انتشرت شائعات بأنك تلقي الأوامر من الكنيسة الأم مباشرة،
وأن البحيرات لم تعد تثق بالمشرق."

قطّب يوهان حاجبيه:
"من قال هذا؟"

ردّ كريس:
"الناس... لكنني أشكّ أن مصدرها قادم من دير الظلال."

أومأ سلفان، وجهه المتعب يحمل نظرة مترددة:
"سمعتُ في السوق من يقول إن أوغسطين عاد لاستدعاء تلاميذه القدامى،
وأن الظلال تتحرك مرة أخرى."

سكت يوهان طويلًا، ثم قال بصوتٍ ثابتٍ:
"إذن فلنتركهم يتكلمون.

الكلمة التي لا نرد عليها... تموت وحدها."

ثم التفت إلى كريس:
"شدّد الحراسة على الحدود مع الغرب،
ولا تتحرك إلا بأمرٍ مباشر مني.
لن نمنحهم حربًا يريدونها... سنجعلهم ينتظرونها حتى يتعفّنوا."

□

وفي البحيرات،
كان ثيودور يعقد اجتماعًا مغلقًا مع أنطونيوس والكفيف ورومان.
الخرائط تغطّي الطاولة، والشموع تتراقص على أطرافها.

قال أنطونيوس بصوتٍ عسكريٍ صارم:
"الكنيسة فرضت مراقبين على كل كتيبة،
وفرانس أرسل مندوبًا للإشراف على توزيع المخصصات.
الناس بدأت تتذمّر."

ابتسم الكفيف، عينيه المطفأتين تتجهان نحو الضوء:
"فرانس يريد أن يُشعرنا أننا نعيش بنعمته.
لكن من يراقب النور، ينسى أن الظلام أوسع منه."

رفع ثيودور رأسه وقال بهدوءٍ عميق:
"سنصبر... الصبر هذه المرة ليس ضعفًا،
بل سلاحًا آخر لا يفهمونه.
حين يشتد خناقهم، سيظنون أنهم كسبوا،
لكننا نحن من نغلق الحبل حولهم."

□

في الغرب البعيد،
جلس فرانس في قاعةٍ فخمة داخل المقرّ الكنسي،
وأمامه رسائل من البحيرات والمشرق.
كان يقرأها بعينٍ باردةٍ، ثم يوقّع على كل واحدة بختم البابا.

قال أحد الكهنة بجانبه:
"يبدو أن الأمور تستقر هناك، سيدي."

ردّ فرانس دون أن يرفع رأسه:
"الاستقرار الحقيقي هو الذي نملكه نحن لا هم.
ثيودور يظنّ نفسه راعي النور،
وأوغسطين لا يزال يظنّ نفسه إلهًا من الطين.
كلاهما سيعود إلينا... إما بالولاء، أو بالدم."

□

وفي تلك الليلة،

تسلّل رجل غامض إلى أحد الممرات الخلفية في دير الظلال،
وقف بعيدًا يراقب قاعة الاجتماعات من بين الأعمدة،
وجهه نصف مغطى بقناعٍ حديديّ داكن،
وصوته الخافت تمتم بكلماتٍ غريبةٍ لا يسمعها إلا الظل.

يتابع أوغسطين بصمتٍ،
كأن اللعنة القديمة عادت لتتنفّس مرة أخرى.

⊡

وهكذا بدأت رقعة السياسة تتّسع،
كل طرفٍ يحفر حفرةً للآخر،
بينما الأرض نفسها — المشرق والبحيرات —
تنتظر من يسقط أولًا

الفصل السابع: السلام الصامت ⚜

كانت السنة الأولى من السلام تمضي ببطءٍ ثقيل.
لا حرب تُرفع فيها السيوف، ولا راياتٍ تُنزل على الحصون،
لكن كلّ خطوة في المشرق والبحيرات كانت تُدار كأنها حركة في رقعة شطرنجٍ لا يرى أحد نهايتها.

⊡

في دير الظلال،
كان الأنبا أوغسطين يجلس في قاعته العالية، تُحيط به خريطة واسعة للبلاد،
نُقشت عليها علاماتٌ صغيرة بالرماد والدم الجاف.
إلى جواره وقف مارى، وجهه شاحبٌ من قلة النوم،
وعيناه تتبعان نظرات سيّده في خوفٍ وتوترٍ كأنهما تتوقعان انفجارًا في كل لحظة.

قال أوغسطين وهو يحدّق في الخريطة:
"الكنيسة أرسلت فرانس ليقيدني بسلاسل القانون،
لكن السلاسل لا تقيّد الظلال، يا مارى.
إنهم يتحدثون عن النور، بينما لا يرون أن النور نفسه يولد من الظلام."

تردد مارى قليلًا ثم قال:
"سيدي... الأخبار من المشرق تقول إن البحيرات والمشرق أصبحا كيانًا واحدً وهذا مايقلق الكنسه توسعهم كانهم دوله بداخل دوله
يوهان يُحكم هناك كأبيه، وثيودور صار الأب الروحي للبحيرات.
الكنيسة تباركهم علنًا، لكنها تخشاهم سرًّا.
النفوذ يتسع... وهم لا يتركون لك موضعًا في الخريطة."

ابتسم أوغسطين ابتسامة باردة:
"المواضع لا تُمنح، بل تُنتزع.
دع فرانس يُراقب، ودعهم يفرحون بانتصاراتهم.
نحن سنبني جيشنا من الصمت،
فحين ينام الملوك، تولد اللعنات."

سكت لحظة، ثم أضاف وهو يحدق في نار المشعل:
"اللعنة لا تموت يا مارى، إنها تتنفس تحت الرماد.
ويوشع... إن عاد، سيعيد لنا مفاتيح الرماد نفسه."

خفض مارى رأسه دون أن يتكلم،
لكن نظراته حملت سؤالًا لم يجرؤ على نطقه:
هل ما زال أوغسطين يبحث عن شيءٍ لم يعد موجودًا؟

▫

وفي المقابل،
كانت البحيرات تعيش زمن التنظيم والنهضة.
ثيودور يكتب العهود الجديدة بيده،
وأنطونيوس يشرف على تدريب الجيش المشترك الذي توحد فيه أبناء المشرق والبحيرات.
أما يوهان، فكان في المشرق يدير شؤون الأرض والناس،
وبجواره الراهب الشاب سلفان، مساعده ،
ومعه قائد كتيبة المشرق كريس

في إحدى الليالي، وقف سلفان أمام يوهان وهو يقول:
"المعابد ممتلئة، والناس يرددون اسم أبيك كما لو كان قد عاد.
لكنّ العيون الغربية تراقبنا.
الكنيسة تريد أن نطلب الإذن حتى في صلواتنا."

أجاب يوهان بثباتٍ حزين:
"نحن لا نتمرد، يا سلفان،
لكننا نصلي بلغتنا، كما علّمنا الآباء.
وإن كانت الكنيسة تخاف صلاتنا... فليكن خوفها قرباننا الجديد."

▫

في تلك الأثناء، كان فرانس في البحيرات يكتب تقريره الأسبوعي للبابا.
القلم يرتجف في يده وهو يدوّن:

"ثيودور أبٌ للبحيرات، يوحّد القلوب بالكلمة،
ويوهان يحكم المشرق بالحكمة،
غير أن تأثيرهما معًا صار أكبر من سلطة الكنيسة نفسها."

رفع رأسه نحو النافذة،
رأى الشمس تغيب خلف الماء، وهمس لنفسه:
"إن لم نحكمهم بالعقيدة، سيحكموننا بالإيمان."

▫

وهكذا،
كانت البلاد تعيش حربًا لا تُرى،
كلماتٌ تُلقى كالسيوف، وقراراتٌ تُشبه الطعنات،

بينما أوغسطين في الظلال ينسج خيوط جيشٍ جديد،
وجنوده يزدادون عددًا في الخفاء، رجالٌ بلا أسماء ولا وجوه،
يتدرّبون في أقبية الدير على الصمت،
كأنهم أُعدّوا ليكونوا صدىً لأوامره فقط.

وفي كل ليلة،
كان أحدهم يهمس للآخرين:
"سيدي يرى كل شيء... حتى من بعيد."

ومازال ذلك الشخص الذي يراقب في صمتٍ من بعيد،
كظلٍ ينتظر أن يتحرك العالم ليتكلم هو

الفصل الثامن: توازن النار والماء⚜

كان الصباح في المشرق مختلفًا.
لا غبار حربٍ في الهواء، ولا صرخاتٍ في الطرقات،
لكن شيئًا خفيًّا كان يتبدّل في روح البلاد.
الهدوء بدا كقشرةٍ فوق بركانٍ ينتظر لحظة الانفجار.

▫

في القصر الحجري بالمشرق،
جلس يوهان أمام خريطةٍ واسعةٍ تتوسطها شعلة صغيرة.
إلى جواره راهبه المساعد ومعه القائد كريس
قال يوهان وهو ينظر للخريطة:
"الحدود الشرقية آمنة، لكن الغرب لا يزال يختنق بالشك.
أوغسطين يتحرك في الظل، وفرانس في البحيرات يتحدث باسم الكنيسة.
نحن الآن بين سيفين، يا كريس، أحدهما يبتسم والآخر ينتظر."

ردّ كريس بصوتٍ منخفضٍ عميق:
"الكنيسة لا تخيفني يا سيدي،
لكن رجال الظلال يفعلون...
لقد اختفوا منذ عام،
والآن نسمع أصواتهم في الأسواق،
يبيعون الخوف كما تُباع الحبوب."

رفع يوهان رأسه ونظر إليه بثبات:
"إذن سنشتري منهم الصمت... لا الحرب."

ابتسم سلفان بخفةٍ وقال:
"السياسة يا سيدي تُشبه الترانيم القديمة،
كل كلمة فيها إن نُطقت خطأ تتحول إلى لعنة."

أجاب يوهان:
"إذن لنعزفها بحذرٍ حتى النهاية."

⊡

وفي البحيرات،
كان ثيودور يعقد مجلسه اليومي في دير الشمس،
وحوله أنطونيوس — القائد العام —
ورجال الكنيسة المحليون الذين يمثلون المشرق والبحيرات معًا.

قال أنطونيوس وهو يشير إلى الرسائل التي وصلت صباحًا:
"الكنيسة الأم تتحدث عن (تنظيمٍ إداريٍ موحد)،
لكننا نعرف ما تعنيه حقًا: مراقبة كل خطوة نقوم بها."

ردّ ثيودور بهدوءٍ شديدٍ وهو يغلق الرسالة:
"الذي يخاف من النور... لا بد أنه يعيش في الظلام.
ليباركوا ما شاؤوا، نحن نبني لا نحكم.
المشرق والبحيرات لا يحتاجان قيدًا جديدًا بعد أن انكسر القديم."

ثم نظر إلى أنطونيوس وأضاف:
"أنت القائد العام،
اجعل من الجيش درعًا للسلام لا سيفًا للدم.
الظلال تتحرك ببطء، وأنا أرى الدخان قبل النار."

انحنى أنطونيوس وقال بنبرةٍ ثابتة:
"كل كتيبة تعرف موقعها يا أبانا،
ورجالنا في المشرق على اتصالٍ دائمٍ بكريس،
لن يجرؤ أحد على المساس براية الشمس ما دمتُ حيًا."

⊡

أما في دير الظلال،
فكان أوغسطين يعيد بناء قوّته ببطءٍ مميت.
مارى— أصبح الآن ذراعه اليمنى،
يدير شبكات من العملاء والرهبان المتنكرين في الأسواق،
ينشرون القصص عن "اللعنة التي لم تمت"،
ويزرعون الشك في قلوب العامة عن البحيرات والمشرق.

في إحدى الليالي،
جلس أوغسطين أمام نارٍ متراقصةٍ في قاعته الضيقة،
وقال لمارى دون أن يلتفت إليه:
"كل شيءٍ يتحرك كما أردت...
فرانس يقيدهم باسم الكنيسة،
ونحن سنقيدهم باسم الإيمان نفسه."

ردّ مارى بخفوتٍ:
"والجيش، يا سيدي؟
رجالك في الكهوف يزدادون كل يوم،
لكنهم لا يعرفون لماذا يُقاتلون."

ابتسم أوغسطين ببطءٍ وقال:
"حين تأتي الساعة، سيعرفون.
لا حاجة للإيمان في البداية... يكفي الخوف."

⊡

وفي مكانٍ بعيدٍ عن كل ذلك،
كان هناك ظلٌّ يقف على مرتفعٍ صخريٍّ يطل على دير الظلال.
لم يكن يتكلم،
عيناه تلمعان في العتمة كوميضٍ بارد.
يتالع بصمت.!
⊡

وفي تلك الليلة نفسها،
دوّن الكفيف في سجلات دير الشمس:

"الظلال عادت إلى الأرض، لا كجيوشٍ بل كهمسٍ.
الحرب القادمة لن تشتعل من فوهة بندقية،
بل من كلمةٍ خاطئةٍ في مجلسٍ مغلق."

وهكذا،
بدأت الفصول السياسية تشتدّ،
والسلام الذي حَلَّ بعد الحرب صار هشًّا كزجاجٍ ينتظر الشقّ الأول.
المشرق يستعدّ،
البحيرات تُحصّن نفسها،
وأوغسطين يبتسم في العتمة...
منتظرًا اللحظة التي يُطفئ فيها النور من جديد

الفصل التاسع: دوائر النار الهادئة⚜️

السماء ملبدة، والماء في البحيرات ثابت كمرآةٍ تخفي تحتها زلزالًا.
عامٌ كامل مرّ منذ بدأ الصمت السياسي،
لكن الكل كان يعلم أن السلام ما هو إلا استراحة بين حربين.

⊡

في المشرق، جلس يوهان مع سلفان وكريس حول مائدةٍ ضيقةٍ تعلوها خرائط جديدة.
قال كريس وهو يشير بإصبعه إلى الحدود الغربية:
"رجال أوغسطين يتحركون في الأسواق، لا في المعسكرات.
يتحدثون عن نبوءة جديدة، عن ظلالٍ ستنهض من تحت الأرض."

ردّ سلفان وهو يقلب صفحاتٍ في سجل المراقبة:
"الخوف عاد أسرع من أي جيشٍ، يا سيدي.
والكنيسة الأم تكتفي بالمشاهدة، كأنها تنتظر من سيقع أولًا."

قال يوهان ببرودٍ وهو يشدّ قبضته على مقبض سيفه:

"لن ننتظر نحن.
أوغسطين يريد حربًا من الكلام، فلنخنقه بالصمت.
كل قريةٍ تتبعه ستُحاصر بالسلام، لا بالسيوف."

انحنى كريس احترامًا وقال بصرامة:
"رسائلك ستصل للبحيرات خلال يومين، يا مولاي.
أنطونيوس ينتظر إشارة واحدة ليرسم خطوط الدفاع."

□

وفي البحيرات، كان ثيودور يقرأ رسالة يوهان، بينما يقف أنطونيوس إلى جواره.
قال ثيودور وهو يطوي الورقة:
"أوغسطين لا يهاجم المدن، بل العقول.
سيزرع الكذب في الناس حتى يُقسموا أنفسهم دون حرب."

رد أنطونيوس وهو يتفحص الخريطة:
"لهذا السبب سندافع بالصمت أيضًا.
جيشنا لا يتحرك إلا إن تحركت الأرض أولًا."

أومأ ثيودور وقال:
"الصبر هو السيف الأخير."

□

أما في دير الظلال،
فكان أوغسطين يعقد اجتماعه الليلي مع مارى.
الشموع تتراقص، والهواء مشبع برائحة الحديد والرماد.

قال أوغسطين وهو ينظر إلى خريطةٍ مليئةٍ بالدوائر الحمراء:
"الكنيسة الأم تُراقب البحيرات،
وفرانس بدأ يكتب تقاريره ضدي بدل أن يكتبها لي.
لكننا نملك ما لا يملكونه... الوقت."

سأل مارى بحذر:
"ومتى نتحرك؟ الناس بدأت تشكّ، حتى في ديرك."

ابتسم أوغسطين بخفة وقال:
"حين يشكّ الناس، يسهل توجيههم.
ابثّ فيهم كلمة واحدة فقط:
إن البحيرات تحضّر لعقيدة جديدة...
وسنشعل حرب الإيمان من داخل الكنيسة نفسها."
□
وفي البحيرات، كتب رومان في سجله:

"لم تعد الحرب تُعلن بالطبول،
بل بالخطابات والرسائل،
والرجال صاروا يحاربون بالكلمات لا بالسيوف."

الأسابيع التالية كانت كالعاصفة البطيئة:
– الكنيسة الأم أرسلت قوانين جديدة لتقييد سلطات البحيرات.
– أوغسطين بدأ يُعيد تنظيم كتائبه تحت غطاء "الحراسة المقدسة".
– المشرق عزّز حدوده بقيادة كريس، وأغلق طرق التجارة القديمة خوفًا من التسلل.
– وأنطونيوس، في صمت، بدأ يبني ما سماه "خطّ النور"،
سلسلة حصونٍ تمتد من البحيرات إلى أول حدود المشرق،
كأنها جدار بين الإيمان والخداع.

لكن شيئًا واحدًا لم ينتبه له أحد...
أن الظلال، التي ظنوا أنها تراجعت،
كانت في الحقيقة تتحرك في قلب المدن،
تبتسم في الأسواق، وتصلي في المعابد،
تنتظر فقط الإشارة الأولى لتُغرق الأرض من جديد

الفصل العاشر: الانشقاق الصامت⚜

كانت البحيرات تبدو أكثر جمالًا من أي وقتٍ مضى،
لكن تحت صفاء الماء كان شيءٌ يغلي.
الهدوء لم يكن سلامًا، بل سكونًا يسبق الانفجار.

في صباحٍ رماديّ، وقف فرنس على شرفة دير الشمس،
ينظر إلى المعابد الجديدة التي رفعها الناس باسم "الإيمان الحرّ"،
العقيدة التي بدأها ثيودور قبل شهور،
تقوم على فكرة التطهير بالعمل والرحمة بدل الخضوع والخوف.
كانت كلمات بسيطة، لكنها زلزلت الكنيسة الأم في الغرب.

قال فرانس وهو يكتب في تقريره:

"إن البحيرات تنحرف عن الطريق،
الراهب ثيودور يزرع دينًا جديدًا تحت راية النور،
والناس بدأت تتبعه لا كقائد... بل كقدّيس."

اجتمع في الدير عددٌ من كبار الكهنة والرهبان،
بينهم الكفيف وأنطونيوس وسلفان،
وكان الحضور مثقلًا بالصمت.

قال الكفيف بهدوءٍ:
"ما يُنشر هنا ليس دينًا جديدًا،
بل فهمٌ جديدٌ لما نؤمن به منذ البداية."

لكن فرانس قاطعه بغضبٍ مكبوت:
"الفهم لا يُغيّر العقيدة!

أنتم تجعلون من البحيرات كنيسةً داخل الكنيسة،
والبابا لن يسكت عن هذا."

تدخل أنطونيوس بصوتٍ حادٍ يشبه نصل السيف:
"نحن لا نحارب أحدًا،
لكننا لن نسمح لأحدٍ أن يحكم الإيمان بالسوط."

غادر فرانس الاجتماع دون أن يودّع أحدًا،
وجهه شاحبٌ كمن رأى لعنةً تتشكّل أمامه،
وقبل أن يرحل إلى العاصمة كتب آخر سطرٍ في تقريره:

"الراهب ثيودور لم يعد تابعًا... بل منافسًا."

◌

في دير الظلال،
جلس أوغسطين يقرأ التقارير القادمة من مبعوثيه في البحيرات،
ابتسم ببطءٍ، وقال لماري الواقف أمامه:
"ها هم يفعلون ما كنتُ أريده منذ البداية.
سينقلبون على أنفسهم دون أن أحرّك إصبعًا."

سأله ماري:
"هل نتحرّك؟ الناس هناك بدأت تطلب عودة رجال الكنيسة القديمة."

رد أوغسطين بصوتٍ هادئ:
"ليس بعد... دعهم يغرقون أولًا في فكرة النور.
حين يختلف الضوء مع ظله،
نحن فقط نحتاج أن نرفع المرآة."

ثم أشار إلى رجاله الجدد —
كتائب الحرس الذين بدأ يجهزهم في الخفاء —
وقال بابتسامةٍ باهتة:
"أعدّهم...
حين يعود البابا غاضبًا من البحيرات،
سأكون أنا منقذ الكنيسة... مرةً أخرى."

◌

وفي البحيرات،
بدأ الناس يتحدثون في الأسواق عن اختلاف الصلوات.
بعضهم يقول إن صوت ثيودور يشبه صوت سِيدنا الكبير،
وبعضهم يرى أنه تجاوز كل شئ.
الكهنة الجدد من أتباع الكنيسة الأم رفضوا الطقوس الجديدة،
وسرعان ما انقسمت الصفوف:
نصفها للبحيرات، ونصفها للعقيدة القديمة.

بدأت الاجتماعات المغلقة تُعقد في المشرق،

وفيها تحدّث سلفان أمام يوهان قائلاً:
"إن فرانس غادر غاضبًا،
وسيعرض على البابا قرارًا بتحريم دير البحيرات.
إنها بداية الحرب القادمة... حرب الكتب والمعتقد."

أجاب يوهان بصرامةٍ حزينة:
"لن نحارب الكنيسة،
لكننا لن نعود إلى الظلال.
الإيمان الذي يولد من الخوف... ميت قبل أن يُولد."

⊡

في الليلة نفسها،
كانت الأجراس في العاصمة تدقّ بقوةٍ مع وصول فرانس.
اجتمع مجلس البابا حتى الفجر،
وبين أروقة الفاتيكان، سُمعت العبارة التي غيّرت وجه التاريخ:

"إن الراهب ثيودور خرج عن الطاعة...
وعلى الكنيسة أن تستعد لاستعادته أو محاكمته."

⊡

وفي الوادي البعيد،
كان رجلٌ يقف في الظلّ كالعادة،
ينظر نحو أضواء البحيرات،
وعيناه تلمعان كبريق الحديد في العتمة.
لم يتحرك، لم يتكلم... فقط ابتسم.

⊡

الفصل الحادي عشر: نذر الانفجار ⚜

مع فجر اليوم التالي،
انتشرت شائعاتٌ في المشرق بأن البحيرات ستُغلق حدودها بأمرٍ من ثيودور.
الناس بدأت تخاف من القادم،
والتجار توقفوا عن السفر بين المنطقتين،
حتى الجنود صاروا يتبادلون نظراتٍ صامتةٍ كأنهم يتهيأون لحربٍ جديدة.

في دير البحيرات،
جلس ثيودور مع الكفيف وأنطونيوس،
وأمامهم مراسلات من الكنيسة الأم تُهدّد بقطع الدعم.

قال أنطونيوس بقلقٍ ظاهر:
"إنهم يريدون عزلك عن المشرق، يا ثيودور."

ابتسم الراهب الصامت وقال:
"لن يعزلوا إلا أنفسهم.

من يؤمن بالنور، لن يعيش في ظلّ أحد."

•

في دير الظلال،
كان أوغسطين يقرأ تقارير البابا بابتسامةٍ خبيثة:
"ها هو النور يحرق أصحابه.
حين يتقاتل الإيمان مع نفسه،
تولد الظلال من جديد."

رفع رأسه نحو ماري وقال بهدوءٍ بارد:
"استعد...
حين تصل أول أوامر الحرمان من البابا،
سننزل نحن باسم الكنيسة لنحمي الناس من ضلال البحيرات.
وسيعود الجميع إلى بيتهم الأول... دير الظلال."

•

وفي المشرق،
أرسل يوهان إلى ثيودور يقول:
"الكنيسة تستعد للانقضاض،
وفرانس يقود بعثة جديدة،
وأوغسطين يحشد رجاله باسم الطهارة.
لكننا سنكون مستعدين... النور لا يخاف العاصفة."

وهكذا بدأ الجزء الجديد من الحرب —
لا سيوف، لا دماء...
بل مؤامرات، تحالفات، وشكوكٌ تُغرس في القلوب.

كانت الأرض كلها تُعاد رسمها من جديد،
كأن العالم نفسه صار رقعة شطرنجٍ،
يُحركها أوغسطين من الظل،
ويحاول ثيودور ويوهان الحفاظ على ضوءها
قبل أن يُطفأ آخر شعاعٍ من شمس البحيرات

الفصل الثاني عشر: سقوط الصرح المقدّس⚜️

لم يعد الصراع خفيًا.
الخطابات توقفت، والصلوات تحولت إلى نداءاتٍ للحرب.
في العلن كانت الكنيسة تدعو للوحدة،
لكن في السرّ كانت تصيغ خططًا لتقسيم الأرض من جديد.

في العاصمة،
كان فرنس يجلس أمام قداسة البابا في آخر اجتماعٍ يجمعهما.
وجه البابا شاحب، وصوته يتهدّج وهو يقول:

"أوغسطين يجب أن يُراقَب، وثيودور يجب أن يُعاد إلى الحظيرة."

لكنّ فرانس كان يحمل في قلبه شيئًا آخر.
منذ لقائه بأوغسطين في دير الظلال، شعر بأن هذا الرجل لا يُهزَم بالكلمات.
تذكّر قوله له في الخفاء:

"الكنيسة تصنع القديسين... وأنا أصنع ما يعبدونه."

وبعد أيام قليلة،
انتشر الخبر كالصاعقة — موت البابا.
قيل إنه مات في نومه، وقيل إنه مات مسمومًا،
لكن أحدًا لم يجرؤ على التحقيق.

في تلك الليلة،
تحرّك أوغسطين بخطواتٍ ثقيلة نحو شرفته في الدير،
نظره إلى الأفق وقال لماري بنغمةٍ لا تعرف الرحمة:
"السماء فتحت لنا الطريق، يا ماري...
القيود انكسرت، والكنيسة بلا رأس.
الآن سيأتي الجميع ليبحث عن منقذ،
وسيرونه فينا."

⊡

في البحيرات،
وصل الخبر إلى ثيودور أثناء اجتماع المجلس.
وجوه الرهبان اتشحت بالذهول،
والكفيف قال بصوتٍ خافتٍ وهو يلمس الطاولة بيده:
"الكنيسه فقدت رأسها،
لكن الأرض لم تُقرر بعد من سيحمل التاج."

قال أنطونيوس:
"الفراغ أخطر من الحرب.
سيتحرك أوغسطين الآن، لا محالة."

نظر ثيودور نحو النافذة وقال:
"إذن، لن ننتظره.
سنتحرك نحن قبل أن تُغلق الظلال علينا الطريق."

⊡

وفي المشرق،
كان يوهان يتلقى رسالةً عاجلة من كريس، قائد الميدان:
"حشود تتحرك من دير الظلال باتجاه الغرب،
بعضها بزيّ الكنيسة، وبعضها بزيّ الجنود.
يبدو أن الحرب القادمة ستبدأ بصلواتٍ، لا بأسلحة."

رفع يوهان رأسه وقال بصرامةٍ:
"إذن، فلتكن صلواتنا نحن... صلاة النور."

أما في العاصمة،
فكان فرانس قد اتخذ قراره الأخير.
بعد وفاة البابا وانقسام المجالس،
لم يعد هناك من يردعه عن التحالف مع أوغسطين.

في قاعةٍ مظلمةٍ من دير الظلال،
جلس الاثنان وجهاً لوجه.
فرنس بملابسه البيضاء، وأوغسطين بعباءته السوداء.
النقيضان اتفقا على هدفٍ واحد:

"إعادة النظام... ولو بالحديد والنار."

قال فرانس:
"دعني أكون لسان الكنيسة، وأنت سيفها.
سنعيد للعالم طاعته القديمة."

ابتسم أوغسطين بخفةٍ وقال:
"ولن يعلم أحدٌ أن من في العتمة... هو من يقود النور."

لكن القدر لم يمهلهما.
في فجر اليوم الرابع من التحالف،
انقسام مجلس الكرادلة بين من يتهم أوغسطين، ومن يباركه.

هرب فرانس عائدًا إلى العاصمة قبل أن تُغلق عليه أبواب دير الظلال،
وبقي أوغسطين وحده،
في مواجهةٍ مفتوحة مع المشرق والبحيرات.

وفي تلك الليلة،
اشتعلت أول نارٍ على الحدود —
نارٌ بلا إعلان، بلا راية، بلا مقدمة.

كانت الحرب قد بدأت.

الفصل الثالث عشر: لقاء المشرق والظلال

على ضفة نهر المشرق،
تجمّعت جيوش البحيرات والمشرق تحت رايةٍ واحدة،
راية الشمس الذهبية.
كان كريس يقود صفوف المشرق،
وإلى جواره يوهان بعيونه التي تشبه عيون أبيه في زمن الحرب.

من الناحية الأخرى،
تقدمت كتائب أوغسطين —— رجال بوجوهٍ مقنّعة،
دروعهم سوداء كالفحم،
وصمتهم أشدّ من هدير الطبول.
كانت هذه بداية ظهور "كتائب الأنبا"،
التي سماها الناس فيما بعد جيش الظلال الأخير.

قال كريس بصوتٍ خافتٍ ليوهان:
"الظلام يتحرك مثل الماء... لا صوت له."

أجابه يوهان وهو يحدّق في الجهة المقابلة:
"لكن الماء يعكس النور مهما كان عكرًا."

⊡

في منتصف النهار،
خرجت عربةٌ بيضاء من معسكر الظلال،
وعليها راية الكنيسة الأم.
توقفت عند منتصف الجسر الحجريّ،
ومنها خرج رجلٌ في عباءةٍ داكنة —— أوغسطين نفسه.

تجمّد الجنود في أماكنهم.
لم يكن أحد يتوقع أن يأتي بنفسه.

تقدّم يوهان نحوه بخطواتٍ ثابتة،
وراءه أنطونيوس وكريس،
والهواء بينهما يضرب كحدّ السيف.

قال أوغسطين بابتسامةٍ هادئةٍ غريبة:
"لم أرك منذ كنت مقيديا هل تذكر يابن ذو اللحية البيضاء.
ها أنت تقف في المكان الذي مات فيه أبوك."

شدّ يوهان على سيفه وقال:
"أبي مات ليُنقذ الإيمان من أمثالك."

ضحك أوغسطين ضحكةً خافتةً وهو يرفع نظره نحو السماء:
"الإيمان؟ أنا من صنعه لك...
كل ما تعرفه عن النور خرج من رحم الظلام الذي خلقته."

اقترب كريس وقال بحزمٍ قاطع:
"انتهى زمن الخداع يا سيد أوغسطين.
هذه الأرض لا مكان فيها لمن يعبد نفسه."

لكن أوغسطين لم يتحرك.
نظر إلى يوهان نظرةً طويلة، وقال بصوتٍ يشبه النبوءة:

"ستعرف يومًا أن اللعنة لا تموت،

بل تغيّر وجهها فقط."

ثم استدار وغادر ببطءٍ،
ورجاله ينسحبون خلفه كظلالٍ تبتلعها الأرض.

⊡

في تلك الليلة،
كتب ثيودور في سجلّ الدير:

"اللقاء وقع...
والظلام تراجع، لكنه لم يختفِ."

ثم أغلق المخطوطة،
وقال للكفيف وهو يحدّق في وهج الشموع:
"اللعنة تنتظر نفَسًا جديدًا...
ومن ينفخ فيها هذه المرة، لن يكون أوغسطين وحده."

وبينما هدأ الليل على ضفاف المشرق،
كانت عينٌ تراقبهم من بعيد،
تلمع في العتمة كجمرةٍ ما زالت تبحث عن وقودها

الفصل الرابع عشر: مجمع الحديد والنور ⚜️

لم تكن أجراس الكنيسة الأم تُقرع بذلك الشكل منذ قرون.
صوتها تلك المرة لم يكن للعبادة... بل للإنذار.
اجتمع المطارنة والكرادلة من كل أنحاء البلاد،
وفي وسط القاعة الكبرى جلس على العرش الجديد رجلٌ لم تعرف له الكنيسة مثيلًا من قبل:
قداسة البابا "أورليانوس الأشدّ"،
رجلٌ حديديّ الملامح، عيونه رمادية كالحجر،
وصوته حين يتحدث يُسكت القاعات كما لو أن الريح نفسها تُنصت.

كان وجهه جامدًا وهو ينظر إلى الجمع،
وفي يده صليبٌ أسود صغير، يضربه بإبهامه ببطءٍ كلما فكر.
قال بصوتٍ عميقٍ كصوت الحديد إذا انكسر:

"الكنيسة ليست بحيرة، ولا واديًا، ولا ديرًا في الظلال.
الكنيسة أمّ، ومن لم يحترمها... فلا حقّ له في نورها."

سكت الجميع، حتى أنفاسهم تلاشت.
ثم تابع بصرامةٍ مطلقة:

"من هذا اليوم، تكون البحيرات والمشرق ودير الظلال تحت مظلةٍ واحدةٍ،
تُدار من مقرّنا في الغرب.
ولا سلطان فيها إلا للبابا.
أما أوغسطين، وثيودور، ويوهان...
فإن تجاوزوا أوامر الكنيسة الأم،

فسيُعاملون كمن خانوا العهد المقدّس."

رفع أحد المطارنة رأسه وقال بخوفٍ مكتوم:
"قداستكم، ماذا لو رفضوا؟"

ابتسم أورليانوس ابتسامةً لا تحمل دفئًا وقال:
"حين يرفض أحدهم يدَ الكنيسة،
فهو يختار بنفسه أن يُقصم عموده الفقري."

دوّت القاعة بهمسٍ خافتٍ كالرعد البعيد.
لقد فهم الجميع:
العهد القديم انتهى، والكنيسة بدأت عصر القبضة الحديدية.

⊡

في ذلك الوقت،
كان أوغسطين في دير الظلال، جالسًا إلى خرائطه القديمة.
الخبر وصل إليه بعد أيامٍ قليلة،
وجلس يستمع إلى ماري وهو يقرأ المرسوم البابوي بصوتٍ متردد.

أنهى ماري القراءة،
وبقي أوغسطين صامتًا للحظاتٍ طويلة،
ثم قال وهو ينهض ببطءٍ كأن الأرض كلها تثقل فوقه:
"الكنيسة تُعيد بناء نفسها على أنقاضي...
لكنها نسيت أنني أنا من علّمها كيف تنهض من الرماد."

اقترب ماري بخطواتٍ حذرة:
"سيدي، ما الذي تأمرنا به؟
الكنيسة تستدعيك رسميًا لتأكيد الولاء."

ضحك أوغسطين بخفوتٍ، ضحكةً تشبه زفير الحمم:
"الولاء؟ سيأتون به إليّ راكعين...
لكن قبل ذلك، هناك ما يجب أن أراه بعيني."

⊡

في الليل،
اتت رساله الى اوغسطين بان يوشع عادى للمنفى
ركب أوغسطين جواده الابيض الخاص ، وسار في طريقٍ مهجورٍ نحو الجنوب.
لم يكن معه سوى ماري وخمسةٍ من حرسه الخاص،
رجالٍ لا يعرفون الخوف، وجوههم مغطاة بالدروع.
كانت وجهتهم وادي المنفى...
لايجاد يوشع بعد بحث طويل منذ اكثر من عامٍ كامل.

حين وصلوا إلى أطراف الوادي،
هبّت عليهم رياحٌ ساخنة تحمل رمادًا كأن النار ما زالت مشتعلة تحت الأرض.
وقف أوغسطين أمام مدخلٍ صخريٍّ ضيق،

وقال بصوتٍ خافتٍ كأنما يخاطب الموت نفسه:
"هنا انتهى كل شيء... وهنا سيبدأ من جديد."

التفت إلى ماري وقال:
"من هذه الكتيبةِ الصغيرة، اختر من رجالنا من لا يعرف الخوف ولا الكلام.
ستذهب إلى عمق الوادي... وتبحث لي عن يوشع.
إن كان حيًّا، فأتِني به.
وإن كان ميتًا... فأتِني بما تركه وراءه."

انحنى ماري، وفي عينيه مزيج من الرعب والطاعة:
"أمرك، سيدي الأنبا."

·

وفي الوقت نفسه،
في البحيرات، كانت الأخبار تصل إلى ثيودور.
وقف أمام شرفة ديره المطلّة على الماء،
ومعه يوهان وأنطونيوس وسيلفان.
قال ثيودور بصوتٍ عميقٍ يشبه تلاوة صلاةٍ حزينة:
"البابا الجديد أعلنها حربًا باردة...
سيجعل منّا عبيدًا إن خضعنا، وكفارًا إن صمتنا."

رد يوهان:
"إذن لا خضوع... ولا صمت."

ابتسم الكفيف وقال وهو يخطو بين الظلال:
"من يظن أن النور يخضع، لم يرَ كيف يُولد من قلب الجحيم."

·

وهكذا،
بعد مرور اكثر من عام ظنّ الناس أن السلام قريب،
بدأت مرحلة جديدة —
مرحلة مجلس الحديد والنور.

فيها تلبس الكنيسة تاجًا من نار،
ويغادر أوغسطين ظلاله نحو وادي المنفى،
بحثًا عن شيءٍ أقدم من اللعنة نفسها...
شيءٍ اسمه: يوشع

🕯️ انتهى الجزء العاشر

—-

الجزء الحادى عشر : صراع العروش ووحش اللعنه

الفصل الأول: ظلال المنفى

الريح في أرض المنفى كانت باردةً حدّ اللدغ،

تتحرك بين الصخور كأنها أنفاس موتى لم يجدوا قبورهم بعد.
وقف الأنبا أوغسطين على الرمال الرمادية،
وعيناه تلاحقان أفقًا مكسورًا لا نهاية له.
السماء هناك لا شمس فيها ولا نجوم، فقط غيمٌ كثيف يشبه الدخان.

كان يبحث عن يوشع — العجوز اليهودى—
تلك الورقة التي احتوت نصف سرّ المخطوطة،
النصف القادر على فتح أبواب القوة التي لم تطأها يد إنسانٍ من قبل.
بعد ان عادت المجموعه التى ارسلها مانى للداخل للبحث عن يوسع
ولم تجد أثر له

سار اوغسطين بإتجاه ذالك الوادى المسمى بالوادي الميت
ولكن توقّف أوغسطين أمام أطلالٍ مهجورةٍ على أطراف الوادي الميت،
حيث تهمس الرياح كأنها تنادي باسمه.
وفي منتصف الأنقاض جلس عجوزٌ غريب،
مُلتفٌّ بعباءةٍ من صوفٍ أسود، عيناه كفجوتي نار مطفأتين.

قال العجوز بصوتٍ أجشّ، دون أن يرفع رأسه:

"تأخّرتَ يا أنبا الظلال... كنتَ أسرع حين تتبع الدم."

اقترب أوغسطين منه بخطواتٍ بطيئة،
ثم قال وهو يُحدّق فيه بحدةٍ:

"أين هو؟ أين يوشع؟ إن أخفيتَه عني، سأحرق هذا الوادي بكل من فيه."

ضحك العجوز، ضحكةً متقطّعةً كصوت عظامٍ تتكسر:

"يوشع لا يُخفى...
سيأتيك بنفسه، ومعه ما تطلبه، أيها الأنبا...
ما كنتَ تبحث عنه منذ أن ردمت البئر ونصبت فوقها صرحك الحديدي."

تقدّم أوغسطين نحوه خطوة، وقال بارتباكٍ لم يعهده من قبل:

"كيف تعلم عن البئر؟ من أنت؟"

رفع العجوز رأسه ببطء، فانكشفت تجاعيده كخرائط قديمةٍ محفورةٍ في الرماد،
ثم قال بصوتٍ هامسٍ كأنه نبوءة:

"المنفى لا يُخفي الأسرار، بل يُعيدها...
سيصل يوشع في الوقت المناسب، ومعه ما تطلبه، أيها الأنبا...
لكن..."
وصمت، وعيناه تلمعان ببريقٍ مرعبٍ.

اقترب أوغسطين أكثر وقال بنفاد صبرٍ:

"لكن ماذا؟ تكلّم أيها الأحمق!"

قال العجوز ببطءٍ، وكأن كل كلمة تخرج من فمه تحمل وزناً من الدم:

"إن استطعتَ السيطرة عليه... فاحذر أن تنظر في عينيه."

ارتجف الهواء من حولهما،
وبينما رفع أوغسطين نظره نحو الأفق،
كان الغيم ينشقّ،
ومن بعيدٍ سُمِعَ صوتٌ غريب،
كصوت سلاسل تُجرّ في الظلام.

همس العجوز وهو يختفي بين العتمة:

"لقد بدأ الطريق، أيها الأنبا... لكنه ليس طريقك وحدك.

⚜ الفصل الثاني: ظلال العرش

كانت شوارع العاصمة الكنسية تموج بالجنود والرهبان، والطبول تدقّ ببطءٍ خلف الجدران العالية كأنها أنفاس مدينةٍ لا تنام.
قداسة البابا أورليانوس الأشدّ جلس على كرسيه العظيم، لا يرمش له جفن، والهواء البارد يمرّ بين أهدابه كالسيف. من اشد مناهضى سياسات أوغسطين رغم احترامه له
وهذا البابا منذ أن تولّى المنصب، أقسم أن يُعيد النظام إلى الكنيسة، وأن يخضع كلّ من نجا من الظلال لإرادته الحديدية.

وقف فرانس أمامه —— عائدًا من المشرق —— وجهه منهك من السفر، وملابسه ما زالت تحمل غبار الطرق الطويلة مُبرّئًا نفسه من أوغسطين
قال وهو ينحني بخشوعٍ:

"قداستكم، المشرق مستقرّ تحت حكم يوهان، والبحيرات تنعم بسلامٍ مؤقّتٍ تحت إشراف ثيودور،
لكن أوغسطين... ما زال يتحرك في صمت.
يُعيد بناء ديره، ويستدعي رجالًا من القرى البعيدة بحجّة العبادة."

ابتسم أورليانوس ابتسامةً باردة وقال:

"العبادة؟ الكلمة التي تُخفي وراءها ألف خيانة.
كلّ من يعبد لنفسه يُكفَر عن إيمانه.
أرسل له رسائلنا الأخيرة، ودعني أرى إن كان سيُطيع أو يتمرد."

ثم أشار بيده إلى الراهب الجالس على يساره، أحد سكرتاريته المخلصين، وقال:

"أريد رقابة على البحيرات والمشرق معًا.
لا أريد سلامًا يُزرع دون إذننا.
إنّ النور، حين لا يُباركه الكرسي المقدس، يصبح بدعة."

انحنى فرانس وقال بثباتٍ خافتٍ:

"كما تأمر يا قداسة البابا، ولكن أوغسطين أذكى مما يبدو.
لقد رأيت في عينيه طموحًا لا يُطفئه إلا الرماد."

صمت أورليانوس طويلًا، ثم قال ببطءٍ:

"إذن دع الرماد يبتلع الرماد."

⊡

وفي دير الظلال،
كانت النيران تشتعل داخل قاعاتٍ حجريةٍ شاسعة،
وأوغسطين يجلس أمام خريطةٍ ممزقةٍ للبلاد،
يرسم عليها خطوطًا خفية تصل بين البحيرات والمشرق،
كأنه ينسج شبكةً من العنكبوت حول قلب الكنيسة نفسها.

دخل مارى، آخر رجاله، وقال بصوتٍ متهدّج:

"سيدي، وصلت رسائل البابا.
إنهم يطالبونك بالولاء الكامل، ويمنعونك من بناء كتائب جديدة دون إذن."

ضحك أوغسطين ضحكةً عميقة، صدى صوته ارتطم بالجدران كأنها تجاوبه من باطن الأرض.

"الولاء؟ لقد أعطيتهم حياتي يومًا... فأخذوا كل شيءٍ مني.
والآن يريدون أن يحددوا لمن أصلّي؟
سأُريهم أن دير الظلال لا يُطفئ نوره أمرٌ من بابا أو مَلَك."

ثم نهض، وصوته يدوّي في القاعة:

"ابلغ فرانس أنني سأرسل له هديةً من دير الظلال...
هديةً تُذكّره أن الظلام لا يخضع لأحدٍ سوى من صنعه."

⊡

وفي الليلة التالية،
أُرسلت قافلةٌ صغيرة إلى العاصمة الكنسية.
كانت تحمل صندوقًا حجريًّا مغطى بالأختام، لا يعلم أحد ما بداخله.
لكن حين وصل إلى قصر البابا،
انفتح الصندوق وحده قبل أن يلمسه أحد،
وانطلقت منه رائحةٌ كريهة تشبه الموت.
وفي قاع الصندوق...
كانت هناك يدٌ بشريةٌ متفحمة، تعلوها علامة الظلال القديمة.

تجمّد فرانس في مكانه،
بينما البابا أورليانوس يرفع رأسه نحو الصليب المعلّق أمامه،
ويقول بصوتٍ مبحوحٍ من الغضب:

"إذن... بدأ أوغسطين اللعب من جديد.

الفصل الثالث: الخيانة الأولى

الهواء في دير الظلال لم يعد يشبه هواء الأديرة،

بل صار خانقًا، يختلط فيه البخور برائحة الحديد والرماد.
جلس أوغسطين إلى طاولته العريضة، يخطُّ بخطٍ سريعٍ على رقٍّ أسود،
خطابًا لن يُرسل أبدًا إلى البابا، بل إلى رجلٍ آخر...
رجلٍ يعرف كيف تتحرك الأمور خلف الصلوات، وفي ظلال الكنائس.

دخل مارى، وجهه يحمل تعبًا وخوفًا، وسأل بصوتٍ خافت:

"سيدي، ما معنى الرسالة التي أمرتَني بإرسالها إلى فرانس؟
لقد وعدتنا الكنيسة بالعفو لو قدّمنا الطاعة..."

ابتسم أوغسطين ابتسامةً لا روح فيها،
وردّ وهو يُلقي نظرة على نيران الموقد التي انعكس لهيبها على وجهه الشاحب:

"العفو؟ هل يغفر الجلاد لمن أفلت من يده؟
فرانس لا يبحث عن السلام، بل عن اعترافٍ بالهزيمة.
لكنني لا أكتب إليه طاعةً... بل فخًّا."

تراجع مارى خطوة، والريبة تملأ وجهه:

"فخّ؟ لمن؟"

ردّ أوغسطين بهدوءٍ كالثلج:

"لفرانس نفسه."

ثم وقف أمام نافذة الدير العالية،
وعيناه تتابعان الدخان المتصاعد من قاعة التدريب،
حيث كان رجالٌ جدد — من الغرباء ذوي الأجساد الضخمة —
يتدرّبون في الظلّ على حمل السيوف والحراب،
كأنهم جاؤوا من باطن الأرض نفسها.

قال وهو يشير إليهم بعصاه الحديدية:

"الكنيسة تراقبني... ولكنها لا تعرف أنّ الظلّ أيضًا يراقبها.
هؤلاء هم رسالتي الحقيقية، يا مارى.
ليسوا جنودًا، بل جمرات ستشتعل حين تحين الساعة."

⊡

في تلك الأثناء،
كان فرانس قد وصل إلى أطراف المشرق في مهمة سرّية،
يحمل تعليمات البابا الجديد أورليانوس الأشدّ بنفسه:

"إخضاع البحيرات والمشرق للكنيسة الأم من جديد،
وإعادة ثيودور ويوهان إلى طاعة الكرسي المقدس."

لكن الطريق إلى المشرق كان مُظلَّلًا بخطرٍ غير مرئي.

في الليلة الثالثة، توقفت القافلة عند ديرٍ صغيرٍ بين الجبال،
حيث خرج إليهم رهبانٌ غرباء بملابس لا تحمل شعار الكنيسة.
اقترب منهم كبيرهم وقال بصوتٍ أجشّ:

"أحدكم يحمل ختم البابا، أليس كذلك؟"

تقدّم فرانس بحذرٍ وقال:

"نعم، أنا مبعوثه الشخصي."

ابتسم الراهب ابتسامةً ملتوية وقال:

"إذن اتبعنا، فالدير هنا يحرس طريق النور."

دخل فرانس مع رجاله... ولم يخرج منهم أحدٌ إلا هو.
حين عاد إلى معسكره، كانت نظراته شاردة، ووجهه شاحبًا،
وفي يده خاتمٌ ذهبيّ محفورٌ عليه رمز الظلال القديمة —
رمزٌ لا يوجد إلا في أديرة أوغسطين.

⊡

وفي الليلة التالية،
وصلت إلى دير الظلال رسالة مختومة بختم البابا،
لكن حين كُسِر الختم،
كانت الكتابة بخطٍ مختلف تمامًا... بخطّ أوغسطين نفسه.

كتب فيها:

"قداسة البابا،
لا تبحثوا عن الخونة خارج الكنيسة، فهم بين أيديكم.
كل من يرفع راية النور دون إذنكم، هو عدوكم.
دعوا لي مهمة تنظيف الطريق... وسأعيد النظام باسمكم لا باسمي."

وحين قرأ البابا الرسالة في صباح اليوم التالي،
قال بحزمٍ أمام مجلس الأساقفة:

"أوغسطين يتحدنا ويتحدث باسم الإيمان...
لكن الإيمان الذي يأتي من الظلّ، لا بد أن يُراقَب بالنار."

⊡

وفي تلك الليلة،
جلس فرانس في خيمته بالمشرق،
وأمسك بالخاتم الذي وجده في الدير الغريب،
ونظر إلى النار المشتعلة أمامه وقال بصوتٍ مبحوحٍ:

"لقد خانني... أنه لا يبحث عن الخلاص."

⚜ الفصل الرابع: بداية التمرد

كانت روما — مقرّ الكنيسة الأم — تغلي كما لو أن الجحيم فُتح تحتها.
الجرس العظيم في ساحة الكرسي المقدّس دقّ ثلاث دقاتٍ فقط،
إشارة إلى اجتماعٍ طارئ لا يُعقد إلا في الكوارث الكبرى.

جلس قداسة البابا أورليانوس الأشدّ في صدر القاعة،
هيئته صارمة، ، وعينان لا تعرفان الرحمة.
أمامه خرائط البحيرات والمشرق ودير الظلال،
وحول الطاولة جلس مجلس الكرادلة بوجوهٍ ممتقعةٍ من القلق.

ضرب البابا بيده على الطاولة الحجرية وقال بصوتٍ كالرعد:

"لقد تجاوز الجميع حدودهم.
البحيرات تبني كنائسها الخاصة بلا إذنٍ منا،
المشرق يرفع صلواتٍ باسم أبٍ جديد،
وأوغسطين... ذلك الانبا الملعون،
يتحدث باسم الكنيسة وكأنه ظلّ الله في الأرض!"

تبادل الكرادلة النظرات المرتبكة،
حتى تجرأ أحدهم وقال:

"قداستكم، لقد وصلنا تقارير مؤكدة من مبعوثكم فرانس،
تؤكد أن أوغسطين يستعيد نفوذه من جديد،
وأن رجالًا غرباء يتجمعون حول ديره.
إن لم نتحرك الآن، سنفقد المشرق إلى الأبد."

رفع البابا رأسه، ونظر نحو تمثالٍ رخاميٍّ ضخم ،
وقال بنبرةٍ حادةٍ تُقطّع السكون:

"إذن ليتحرك الإيمان بالسيف.
أعلنوا المرسوم الجديد:
كلّ من يتبع تعليم ثيودور دون إذن الكنيسة، هرطوقيّ.
وكلّ من يتبع أوغسطين، عدوّ الربّ."

سرت الهمهمات بين الأساقفة،
لكن البابا أضاف بصرامةٍ لا تُقاوَم:

"أرسلوا الرسل إلى البحيرات،
وليُدعى ثيودور ويوهان إلى المثول أمام الكرسي المقدّس خلال شهرٍ واحد.
وإن لم يأتيا... فليُعلن عليهما الحرمان المقدّس."

⊡

في البحيرات،
كان ثيودور يقرأ الرسالة بخطٍ واضحٍ ومختومٍ بختم البابا.

جلس إلى جواره أنطونيوس والكفيف،
وبينهم الصمت ثقيل كالغبار قبل العاصفة.

قال أنطونيوس وهو ينظر إلى الختم المحترق على الشمع:

"هم لا يطلبون المثول... بل الاستسلام.
إن ذهبنا، لن نعود."

ردّ الكفيف بابتسامةٍ خافتةٍ كمن يرى ما لا يراه الآخرون:

"أحيانًا يكون الصمت أقوى من الكلمات.
ربما حان الوقت لنتحدث بلغتهم... ولكن من بعيد."

رفع ثيودور رأسه وقال بهدوءٍ يشبه الصلاة:

"لن نحارب الكنيسة، ولكننا لن نركع.
البحيرات ليست ضد الإيمان،
بل ضد من حوّلوا الإيمان إلى عرشٍ وسيف."

⊡

وفي المشرق،
كان يوهان يجتمع مع مساعده سيلفان والقائد كريس.
الرسالة ذاتها وصلت إليهم،
لكنها كانت أشد لهجة، تبدأ بجملةٍ واضحة:

"أيها القائد يوهان، ابن ذو اللحية البيضاء،
إن لم تعد إلى طاعة الكنيسة،
فسيُعتبر المشرق أرضًا خارجةً عن النور."

قال كريس وهو يضرب الطاولة بقبضته:

"الكنيسة تريدنا عبيدًا.
إنهم لم ينسوا كيف هزمناهم حين حملنا راية البحيرات."

ردّ سيلفان، بصوتٍ أهدأ لكنه أكثر خطورة:

"والبابا الجديد ليس كسابقيه.
أورليانوس لا يفاوض... هو يحرق."

وقف يوهان، حمل سيف أبيه القديم،
ونظر من النافذة إلى شمس المشرق المشتعلة وقال:

"لن نحمل السيف ضد الكنيسة،
ولكن إن أتوا بسيوفهم... فلن نغمدها."

⊡

في دير الظلال،
كانت الحركات تدور بهدوءٍ تحت الأرض.
الليل يزداد ظلمة، والمشاعل في الممرات تُضيء الوجوه الغريبة
التي باتت تتدرب على الصمت أكثر من القتال.

دخل مارى على أوغسطين، وقال وهو ينحني:

"سيدي، البابا أعلن الحرب على الجميع،
لكنه أرسل أيضًا طلبًا للقاء خاص بك."

ابتسم أوغسطين بسخريةٍ مريرة وقال:

"يطلب اللقاء بعد أن طردني من الجنة؟
لا، يا مارى... لن أذهب إليه.
بل سأجعله هو من يأتي إلى جحيمي."

ثم رفع نظره إلى السقف الحجري،
حيث كان ينعكس ضوء المشاعل على رموزٍ منقوشةٍ قديمة،
وقال بصوتٍ مبحوحٍ كأنما يخاطب شيئًا في البعيد:

"يوشع... أين أنت الآن؟
لقد وعدتني أن تعود بما يغير وجه الأرض،
وأشعر أن الوقت قد اقترب."

⊡

وفي تلك الليلة،
بينما كان الدير ساكنًا،
كان في أقصى الأفق ظلٌّ لذالك الرجل يقف على قمة جبلٍ صخريٍّ،
ينظر نحو دير الظلال،
وصوت الريح ينقل همسًا خافتًا:

"اقترب الوقت... اقترب جداً.

⚜ الفصل الخامس: مرسوم النار الأخير

لم تكن الأجراس في الكنيسة الأم تدقّ للصلوات تلك المرة،
بل كانت تُنذر بولادة عاصفةٍ لا تشبه سابقتها.
السماء ملبّدة بالغيوم،
والهواء يحمل رائحة الحديد الممزوجة بالدم القديم،
كأنّ التاريخ نفسه يتهيّأ ليُعاد كتابته.

في الساحة الكبرى أمام الكرسي المقدّس،
اصطفّت كتائب الحرس البابويّ — دروعهم تلمع تحت المطر،
وعلى درجات المذبح، وقف البابا أورليانوس الأشدّ،
صوته يجلجل في القاعة المهيبة:

"لقد خرجت البحيرات والمشرق عن طاعة الكنيسة!
لقد أسّسوا لأنفسهم عهودًا وأديانًا باطلة،
ونزعوا التاج المقدّس من رأس الإيمان!
ومن يرفض العودة...
فليُقطع عنه نور السماء إلى الأبد."

ساد الصمت بين الحشود،
حتى سُمعت خطواتٌ بطيئة تشقّ الممرّ الحجريّ الطويل.
كان ثيودور يدخل القاعة بثيابه الرمادية،
يخطو بخطواتٍ واثقةٍ كمن يسير إلى محاكمةٍ يعرف حكمها مسبقًا،
وبجواره يوهان، يحمل سيف أبيه مغطّى بالقماش الأبيض،
رمز السلام، لا الحرب.

توقّف الاثنان عند أعتاب المذبح،
وانحنى ثيودور باحترامٍ دون خضوع، ثم قال بهدوءٍ جليدٍ:

"قداستكم، جئنا لا لنبرّر أنفسنا،
بل لنُعلن أننا ما زلنا أبناء الكنيسة.
لم نكسر الإيمان... نحن فقط نظّفنا وجهه من الدم."

تبدّل وجه البابا، واشتدّ صوته كالعاصفة:

"تنظّفونه؟ ومن أنتم لتغسلوا ما باركه الربّ؟
أنتم رهبانٌ من ماءٍ آسن، تريدون أن تُطفئوا النار المقدّسة!
البحيرات أقامت كنائس بلا إذن،
والمشرق صلّى بأسماءٍ لم تذكرها كتبنا!"

رفع يوهان رأسه، ونظر مباشرةً في عيني البابا،
وصوته خرج كالصخر الذي يشقّ الجبل:

"الربّ يسمع من القلب، لا من فمٍ مزيّن بالذهب.
كنائسنا من طينٍ، لكنّها طاهرة،
أما قصوركم فمِن حجرٍ باردٍ لا يعرف الرحمة."

تململ الكرادلة من كلمات يوهان،
لكن البابا أشار بيده، فخمدت الأصوات.
اقترب من حافة المذبح،
وقال بنبرةٍ بطيئةٍ كمن يُصدر حكمًا بالموت:

"ثيودور... يوهان...
لقد اخترتما طريقًا لا عودة فيه.
أمهلكما سبعة أيّامٍ لتعلنا توبتكما،
وإلا... فليُرفع عنكما النور إلى الأبد."

أطرق ثيودور رأسه قليلًا،
ثم رفع نظره وقال ببرودٍ مرعبٍ:

"النور لا يُرفع عن الأرض...
لأن الله لم يتركها لك وحدك."

ثم استدار مغادرًا القاعة،
وخلفه يوهان بخطواتٍ صامتةٍ كمن يعود من جنازةٍ طويلة.

⊡

وفي دير الظلال،
كان أوغسطين جالسًا أمام المذبح الحجريّ،
يشاهد من بعيد ألسنة اللهب تشتعل على الشموع الكثيرة،
لكن الضوء لا يصل إلى وجهه،
فبدا كأنه جزءٌ من الجدار.

دخل مارى على استحياءٍ،
عيناه تتجنبان النظر إلى سيده،
وقال بصوتٍ متردد:

"قداستكم... الكنيسة استدعت الجميع.
البحيرات والمشرق مثَّلا أمام البابا.
هل سنذهب نحن أيضًا؟"

ابتسم أوغسطين ابتسامةً خافتةً تشبه جرحًا قديمًا وقال:

"من يذهب إلى المشنقة وهو يعلم مصيره؟
دعهم يسيرون في الضوء...
فالضوء يحرق من لا يملكه."

اقترب منه مارى خطوة وقال بخوفٍ ظاهر:

"لكن إن لم تذهب، سيدي، سيظنون أنك تخفي شيئًا."

ضحك أوغسطين ضحكةً باردةً جعلت الشعلة تهتزّ فوق المذبح وقال:

"أنا لا أخفي شيئًا...
أنا فقط أنتظر أن يخرج ما أخفيه من تلقاء نفسه."

ثم نهض، وسار نحو الجدار الخلفي للدير،
حيث نقش قديم لرموزٍ كانت تُشبه ما في المخطوطة القديمة،
ومدّ يده يلمسها كمن يوقظ شيئًا نائمًا منذ قرونٍ،
وقال بصوتٍ مبحوحٍ كأنما يخاطب الظلام نفسه:

"ها قد عادوا إلى الصلاة... وأنا إلى الخطيئة.
فليغفر لي الربّ "

⊡

في الليلة نفسها،
وصل إلى دير الظلال رسولٌ من الكنيسة الأم يحمل مرسومًا مختومًا بختم البابا، بنفس الرساله

⊡

بعد أسبوعٍ فقط،
اجتمع مجلِس الكنيسة من جديد في روما،
لكن هذه المرة بلا حضورٍ من البحيرات ولا من دير الظلال.
أعلن البابا أورليانوس المرسوم الأخير:

"من هذا اليوم،
تُعتبر البحيرات والمشرق ودير الظلال ثلاث مناطق خارجة عن سلطة الكنيسة.
وكلّ من يتعامل معهم دون إذنٍ يُحرَم من الرحمة إلى الأبد."

⊡

وفي البحيرات،
حين وصلت الأخبار،
قال ثيودور بهدوءٍ قاتلٍ:

"لقد كفّوا أيديهم عنا...
فلتبدأ الآن أيديهم في الارتعاش."

بينما في دير الظلال،
كان أوغسطين يضحك في صمتٍ مخيفٍ،
النار ترتجف أمامه،
وهو يهمس لنفسه:

"سبعة أيّامٍ منحتَهم يا أورليانوس؟
حسناً... سأمنحك أنت سبعة ليالٍ فقط...
لترى ما لا يجب أن يُرى."

ثم أشار إلى مارى،
وقال بصرامةٍ شيطانيةٍ:

"استعدّ... لقد آن وقت الملعون الذي وعدنا بالعودة."

وها هناك، خلف جدران الدير السميكة،
في ظلمةٍ لا ترى النور،
بدأ الحجر يتحرّك،
وصوتٌ خافتٌ يشبه الأنين القديم عاد يعلو...
كأنّ شيئًا في الأعماق بدأ يستيقظ من نومه الطويل

⚜ الفصل السادس: اللعنة التي تنهض من الحديد

الليل كان خانقًا...
كأنّ السماء نفسها أغلقت أنفاسها،

والرياح تهب من جهةٍ واحدة — جهة دير الظلال.
في الداخل، كانت الشموع تذوب بسرعةٍ غريبة،
كأنها تخاف أن ترى ما سيحدث بعدها.

فتح مارى الباب الحجريّ وهو يلهث،
وصوت المفصلات الصدئة يئن كروحٍ تحتضر.
في آخر الممرّ الطويل، كان يوشع واقفًا،
نحيل الجسد، عيناه تحترقان بوميضٍ أصفر كالنار على وشك الانفجار.

قال بصوتٍ مشققٍ كأنه خرج من قبر:

"جئتُ لك بما انتظرته، أيها الأنبا... جئتُ لك باللعنة."

اقترب أوغسطين بخطواتٍ بطيئة،
عباءته تسحب الغبار خلفه، وصوته هادئ لكنه يقطّع الهواء:

"أعلم ما هي... لكنّي أريد أن أراها بعينيّ."

ابتسم يوشع ابتسامةً ملتوية، ومدّ يده بورقةٍ رمادية باهتة،
كانت ترتعش كأنها حيّة، والرموز المحفورة عليها تتوهج بخيوطٍ من نارٍ خافتة.

"في هذه الورقة... مفتاحُ الحديد والنار.
ما ستراه الليلة، لا تصفه الكتب، ولا ينجو منه العقل."

رفع يوشع رأسه، وحدّق في السقف المظلم وقال بصوتٍ عميقٍ منخفضٍ كأنه من عالمٍ آخر:

"سيظهر حين يسكت صوت النهار.
افتح القبو، وأبعِد جنودك... فاللعنة لا تحبّ العيون الكثيرة."

تردّد أوغسطين للحظة، ثم أشار بيده لمارى:

"نفّذ ما قاله."

تراجع الجنود إلى الممرات العليا،
وبقي الثلاثة وحدهم أمام الباب الحديديّ القديم،
بابٍ أكل عليه الصدأ وبقيت عليه آثار يدٍ بشريةٍ مطبوعةٍ بالدم.

دفع يوشع المزلاج بقوة،
وانفتح الباب على ظلامٍ كثيفٍ كأنه فم الأرض نفسها.
هبّت رائحةٌ ثقيلة من الحديد والرماد،
وجاء صوت... خافت في البداية،
ثم بدأ يكبر — كأن السلاسل تُسحب عبر جدران الزمن.

تراجع مارى خطوة،
ثم أخرى،
ثم سقط على ركبتيه والعرق يغمر وجهه:

"سيدي... هذا... هذا ليس من البشر!"

لم يجب أوغسطين.
كان يحدّق في الأعماق بعينين اتسعتا حتى كادتا تبتلعان الظلام.
ومن هناك، خرج أول صوتٍ للوحش —
أنينٌ معدنيّ، يتبعه زفيرٌ كالنار.

تقدّم جسدٌ عملاق، ملفوفٌ بالسلاسل،
كل خطوةٍ منه كانت تهزّ الأرض.
جلده رماديّ مشقّق، والحديد يغوص في لحمه كأنه جزءٌ منه.
لم يكن وجهه واضحًا،
لكن عينين حمراوين تشتعلان من تحت الظلّ كأنهما فم جحيمٍ مفتوح.

تراجع مارى إلى الحائط، صرخ وهو يسقط فاقدًا وعيه،
بينما رفع أوغسطين يده ليتّكئ على الباب الحديديّ،
يحاول أن يثبت جسده الذي يرتجف رغماً عنه.

همس بصوتٍ متقطعٍ، بالكاد يُسمع:

"هذا هو... هذا هو الذي انتظرناه..."

ضحك يوشع بجنونٍ وهو يمدّ ذراعيه نحو الوحش:

"انظر! لقد أطاعني! إنه يسمعني! الآن سنحكم الظلام والنور معًا!"

لكن الوحش توقّف.
رفع رأسه، كأن شيئًا أيقظه من وهمه.
ثم في لحظةٍ واحدةٍ،
ضرب الأرض بذراعه، فتكسّر الحجر،
وانقضّ على يوشع كما تنقضّ العاصفة.

صرخة واحدة فقط، ثم صمتٌ مطبق.
لم يبقَ من يوشع سوى الورقة تتلألأ بالنار على صدره،
قبل أن تختفي داخل الحديد الذي يغلّف الوحش.

اقترب أوغسطين ببطء،
عيناه لا تحملان خوفًا هذه المرة بل انبهارًا مريضًا، ثم قال:

"طمعٌ أعمى عيني يوشع... فلم يُكمل الرمز... فلم يَسُد."

في تلك اللحظة انحنى أوغسطين والتقط الورقة الرمادية المشتعلة،
رفعها أمام عينيه، ورسم بيده خط الرمز . احترقت الورقه
فانخفض الوحش على ركبتيه كعبدٍ أمام سيّده.

مدّ أوغسطين يده، همس بكلماتٍ لا تُفهم،
فأضاءت الرموز مرةً أخيرة ثم انطفأت.
توقّف الوحش، ثم تراجع خطوةً بعد خطوة،
واختفى في ظلال القبو العميق،
تمامًا كما أراد أوغسطين.

وقف الأنبا وحده وسط الظلام،
الهواء يبرد من حوله،
والصمت يبتلع آخر أصداء السلاسل.

ابتسم بخفوتٍ وقال لنفسه:

"الآن بدأت السكة... سكة الظلال التي أردتُها.

⚜️ الفصل السابع: عودة الظلال من الحديد

لم يخرج أوغسطين من القبو تلك الليلة.
ظلّ جالسًا أمام الباب الحديديّ،
ينظر إلى الأرض التي التصقت بها دماء يوشع،
والورقة التي صارت رمادًا في يده،
لكن الرموز المحفورة في ذهنه لم تختفِ...
بل ازدادت وضوحًا، كأنها تشتعل من الداخل.

كانت العتمة حوله ساكنةً لدرجة أن أنفاسه وحدها بدت غريبة،
ثم جاء من الأعماق ذلك الصوت...
صوت السلاسل وهي تُجرّ، لا بعنف، بل بإيقاعٍ بطيءٍ متزن،
كأنّ الوحش يتنفّس من باطن الأرض.

ابتسم أوغسطين ابتسامةً مائلة، وقال بصوتٍ خفيضٍ:

"أسمعك... أيها الحديد الحيّ،
لقد صار الليل بيتك، وأنا من يملك مفتاح الباب."

فتح يده، وبدأت خطوط الرمز تظهر على كفه بلونٍ رماديّ باهتٍ،
كأن الورقة التي احترقت قد تركت أثرها في جلده.
في اللحظة نفسها، ارتفع من القبو بخارٌ أسود كثيف،
وفي أعماقه تحرك الظلّ الكبير ببطءٍ كمن يتثاءب بعد نومٍ طويل.

ثم دوّى في المكان همسٌ معدنيّ،
ليس صوتًا، بل إحساسًا يخترق العظام:

"من يوقظ الحديد، يُلزم نفسه بثمن الدم."

أجاب أوغسطين بلا تردد،

"دفعتُ من قبل... وسأدفع مجددًا.
فقط أطعني، وسأمنحك الظلال جميعها."

هدأ الصوت،
ثم انطفأت المشاعل جميعها دفعةً واحدة.
حين اشتعلت من جديد، كان أوغسطين وحده.
لكن على جدار القبو العميق،

بقيت آثار أظافرٍ حديديّة طويلةٍ، محفورةً كرمزٍ جديدٍ لميلاد شيءٍ لم يعرفه العالمِ بعد.

▫

في صباح اليوم التالي،
كانت قرية الظلال تستيقظ على أصواتٍ غريبةٍ في الجبل المجاور.
أرضٌ تهتز، وصرخاتٌ تتردد في الممرات الحجرية القديمة.
ظنّ الناس أن زلزالًا ضرب الجبال،
لكنهم لم يروا شقوقًا في الأرض...
بل ظلالًا تمشي فوقها.

عند الغروب، عاد مارى إلى الدير، ووجهه شاحبٌ،
يداه ترتعشان وهو يحاول الحديث:

"سيدي... الجنود الذين خرجوا للحراسة لم يعودوا.
وجدنا دروعهم، ولكن دون أجسادهم.
لا دماء، لا آثار... فقط الأرض محروقة!"

وقف أوغسطين أمام النافذة العالية المطلة على الوادي،
صوته هادئ، لكنه مملوء بنغمةٍ جديدةٍ لم يعرفها من قبل:

"الليل استيقظ يا مارى...
وما يسقط في الظلام لا يعود كما كان."

حاول مارى أن يسأله:

"ما الذي أطلقته أيها الأنبا؟ أهو وحش ؟ أم لعنة؟"

لكن أوغسطين لم يُجب.
كان يراقب الأفق البعيد،
حيث كانت السماء تموج بضوءٍ أحمر خافتٍ كالنار البعيدة،
وهمس لنفسه:

"كلّ هذا ليس سوى البداية...
والبحيرات ستعرف قريبًا معنى السكون حين ينكسر الحديد."

▫

وفي البحيرات،
بين جدران ديرها الكبير،
كان ثيودور يشعر بقلقٍ لم يفارقه منذ ليالٍ طويلة.
قال لأنطونيوس وهو يقلب المخطوطة القديمة:

"ثمة شيء تحرك في الظلال...
شيء يشبه ما كتبه أبى إيليا في حواشيه وورق قديم له مع ماركوس قبل موته.
لعنة الحديد، والرمز الناقص."

أجابه أنطونيوس بنبرةٍ حازمة:

"سنضاعف الحراسة عند الحدود الغربية.
وإن عاد الليل، فلن يجد من يبتلعه."

لكن الكفيف، الجالس بصمت، تمتم بكلماتٍ خافتة:

"أنتم لا تفهمون...
ما خرج ليس جيشًا، بل إرادةٌ أُيقظت من نارٍ وسلاسلٍ.
من يوقظها، لا يستطيع أن ينام بعدها أبدًا."

تلك الليلة،
شوهدت أولى الجثث في أطراف المشرق،
أجساد مشوّهة، بلا دماء،
كأنّ الحديد مرّ بها ومضى.
والناس بدأوا يسمعون في الليالي الهادئة
صوت السلاسل يُجرّ عبر الجبال...
ثم صمتًا عميقًا، يليه صراخٌ لا يدوم أكثر من لحظة.

اللعنة عادت،
لكن هذه المرة لم تكن لعنة البئر...
بل لعنة الحديد والرمز،
التي حملها أوغسطين على كفه،
وأطلقها باسم النور... وهو يقودها إلى أحلك ظلال الأرض

⚜ الفصل الثامن: الليل الذى يبتلع الأصوات

لم يعد الليلُ ليلًا كما كان،
صار شيئًا ثقيلًا يهبط على الأرض ككابوسٍ لا ينتهي،
رائحته كالدخان والحديد،
وكل من سمع صوته... لم ينسه ما عاش بعده.

في البداية، لم يصدّق أحد.
حارسُ قريةٍ صغيرةٍ في الشرق، سمع حفيفًا في العتمة،
ثم دوّى صوت ارتطامٍ فوق سطح البيت،
قفزةٌ واحدةٌ فقط،
كأن جبلًا سقط من السماء.
وعندما خرجوا عند الفجر،
وجدوا السقف محطمًا، والجدران مخلوعة من أماكنها،
وجسد الحارس مسحوبًا في التراب بلا رأس.

قالت امرأةٌ عجوز وهي تبكي:

"لم أره... لكني سمعت السلاسل.
حين اقترب الصوت من بابي، شعرت أن قلبي توقف."

وماتت بعدها في اليوم نفسه دون جرحٍ واحد.
قالوا إن الخوف هو من قتلها.

▫

في الليلة التالية،
ظهر في مدينة "أركا"،
حيث كان الجنود يحتفلون بانتصارٍ قديم.
جاءهم كصوتٍ في العتمة،
ثم ارتجّت الأرض تحت أقدامهم،
قفز من فوق السور الحجريّ،
وهبط بينهم كعاصفةٍ من نارٍ وحديد.
لم يرَ أحد وجهه،
لكن الجميع أقسم أن سلاسله كانت وكأنها من النار،
تتوهجان في الظلام كأنهما مصباحا جحيم.

قتل عشرةً في لحظة،
بضربةٍ واحدة من يده غيّرت شكل أجسادهم،
ثم اختفى بين الدخان دون أثر.
حين جاء الصباح، كانت الأرض سوداء من رمادٍ لم يعرفوا مصدره.

▫

في اليوم الثالث،
وصلت الأخبار إلى البحيرات.
الناس يتحدثون عن "الوحش المقيّد"،
يقولون إن السلاسل تجرّ نفسها في الطرقات،
وأن صوته يُسمع قبل مقتله بيومٍ واحد.
ومن سمعه... صار ينتظر موته وهو حيّ.

قال الكفيف لثيودور بصوتٍ متعبٍ لكنه واثق:

"اللعنة خرجت من المنفى ياثيودور...
ليست بشرًا، بل وعدًا قديمًا نُكث."

أنطونيوس أمسك سيفه، وقال:

"إن كان من صنع البشر، فسنقطعه.
وإن كان من صنع الظلال، فسنحرقها."

لكنّ ثيودور ظل صامتًا،
ينظر إلى البحيرة المظلمة،
كأن الماء نفسه يخاف أن يتحرّك.

▫

في الليلة الرابعة،
ضرب الوحش المشرق.
قفز من فوق الأسوار العالية كأنه طائرٌ من جحيم،
سلاسلُه تجرّ الشرر خلفه،
صوته كهدير الحديد،
كل من رآه فقد صوابه قبل أن يُقتل.
البيوت تهدمت، والمعابد احترقت،
والناس هربت في كل اتجاه،
لكن الوحش لم يكن يطاردهم...
كان يقتل بلا هدف، كأنه ينتقم من الهواء.

قال أحد الشهود للجنود وهو يرتجف:

"رأيته يضرب الأرض بيده،
فاهتزت البيوت كلها.
لم يصرخ أحد... لأن كل من صرخ مات."

⊡

في اليوم الخامس،
وصل إلى أطراف الكنيسة الأمّ نفسها.
الليل هناك لم يكن ظلامًا بعد الآن،
بل لون الحديد المشتعل.
قفز الوحش فوق القباب،
وحين سقط على الأرض، تصدّع الجدار المقدّس.
صرخ أحد الكهنة: "إنه ليس بشرًا!"
لكن صوته اختفى قبل أن يكمل الكلمة.
حين دخل الرهبان في الصباح،
وجدوا الجدار مشقوقًا كأن شيئًا خرج من تحته إلى الداخل.

⊡

البابا أورليانوس الأشدّ جلس في قاعة الحكم،
وجهه غارق في العرق رغم البرد،
وصوته مبحوح كمن يتحدث من قبرٍ مفتوح:

"إنه لا يقتل الناس فقط...
إنه يقتل الإيمان نفسه.
من أطلقه من قيده... سيلعنه الله قبل البشر."

⊡

وفي دير الظلال،
كان أوغسطين يقف أمام النافذة الحديدية،
يشاهد اللهب البعيد في الأفق،
ثم يهمس بصوتٍ هادئٍ كمن يخاطب شبحًا:

"لقد وعدتني بالعودة...
وها أنت تملأ الأرض كما أردت.
امضِ أيها الحديد،
فالعالم لا يتطهّر إلا بالنار.

📜 الفصل العاشر – صرخة الطائر

كانت الليالي في المشرق والبحيرات أثقل من الجبال،
كأن الهواء نفسه يحمل أنينًا خفيًّا لا يسمعه إلا من اقترب من الموت.
لم تعد النار تُشعل في البيوت إلا من خوف،
فالوحش المقيَّد بالسلاسل صار حرًّا،
يتحرك في الظلام كظلٍّ من لحمٍ وحديد،
يقفز من فوق الأسوار العالية،
ويكسر الأبواب بضربةٍ واحدةٍ كأنها صاعقة من الجحيم.

كل من يراه يموت مرتين:
مرة من الرعب،
ومرة حين تلتف سلاسله حول عنقه أو صدره.
والمدهش أن بعضهم كان يسقط ميتًا حتى دون أن يُمسّ،
كأن الرعب نفسه صار قاتلًا.

وفي تلك الليالي الملعونة،
بدأ الناس يرفعون رؤوسهم نحو السماء،
حين سمعوا صرخة الطائر.

ظنوا انه نذير لعنه حتى فهمو
كلما حلَّ فوق قريةٍ وصرخ،
نجا أهلها من اللعنة في تلك الليلة،
بينما القرى التي لم يصرخ فوقها...
استيقظت على الموت.

صار الناس يقولون بينهم:

"إن صرخ الطائر فاشكر الرب، فهو يُحذّر من اللعنة."
"اللعنة تمشي خلفه، لكنه لا يحملها... إنه يحذر منها."

وفي الكنيسة الأم،
عُقد اجتماعٌ عاجل بقيادة قداسة البابا أورليانوس الأشدّ،
رغم أنه رجلٌ صارم لا يعرف الخوف،
لكنّ صوته في تلك الليلة كان يرتجف وهو يقول لمجلسه:

"إنها اللعنة ... ... لقد بدأت تتحرك."

فى قرى ضفاف نهر المشرق ، جلس أنطونيوس إلى جوار جثامين زوجته وابنه وأخيه،
يده تمسك سيفه ولا يريد أن يتركه.
وفي البحيرات، كان ثيودور ينظر إلى المخطوطة القديمة،
يرى رموزها تتوهّج بين أصابعه كأنها تستيقظ من سباتها،

كأنها تناديه ليكمل ما بدأه.

وفي السماء،
مرّ الطائر مرةً أخرى...
صرخته دوّت فوق الجبال والبحيرات معًا،
فتوقّف الجميع عن الحركة،
حتى الوحش نفسه التفت نحو السماء،
كأنه يسمع صوتًا لم يُولد للبشر.

وهكذا، عادت النبوءة من جديد...
اللعنة تسير على الأرض،
والنور يصرخ من السماء

🔥 الفصل الثاني عشر: صرخة الطائر ونار الظلال

كانت الأرض صامتةً كقبرٍ مفتوح،
والسماء فوق المشرق تشتعل بلونٍ نحاسيٍّ باهت.
لم يعُد الليل يرحل بسهولة،
كأن الشمس تخاف أن تشرق على ما يجري.

منذ أن بدأ الوحش يجوب البلاد،
والقلب البشري صار أضعف من أن يتحمل الصمت.
قرى تختفي في ليلةٍ واحدة،
وأخرى تستيقظ على رائحة لحمٍ محترقٍ دون نار.
لا أحد رآه كاملًا... فقط ظلاله، وصوت السلاسل،
وصرخة الطائر في السماء قبل كل موت.

⊡

في صباحٍ ملبّدٍ بالضباب،
دُعي ثيودور ويوهان وأنطونيوس إلى الدار الكبرى —
أعظم قاعة في الكنيسة الأم.
جلس قداسة البابا أورليانوس الأشدّ خلف المذبح،
وجهه شاحب لكن صوته يزلزل الحجر.

قال: " إن اللعنه من الجحيم ايقظها اوغسطين
الطائر كان ينذر بها لكن قليل من فهم "
رد رومان
"قداستكم
إن فى اوراق ماركوس المقطعه قصه عن الراهب إيليا والد ابانا ثيودور زميل اوغسطين قبل ان يصير عدوه بعد افعاله.
قوله ان لعنه السلاسل والدم لم تطفأ وتنفى الى بلهيب النيران اتحدوا ضدها بدائره من لهب "

قال البابا وهو ينظر إليهم بنظرةٍ حاسمة:

"هذه ليست لعنة من الأرض... بل من الظلال القديمة.
ما خرج من دير أوغسطين لا يُطفأ إلا بالنار المقدسة.
الوحش لا يختفي إلا إذا واجه لهيبًا لا يرحم.

عودوا إلى أرضكم، واتحدوا، ولا تجعلوا النار تنطفئ حتى يسقط."

▫

في طريق العودة من الكنيسة الأم،
ظلّ أنطونيوس صامتًا فوق جواده.
عينيه لا تفارقان الأفق،
وصوت البابا يرنّ في رأسه كصدى لا يموت.
كان الوحش قد سرق منه كل شيء —
زوجته، ابنه، أخاه —
وما بقي فيه إلا اللهب الذي ينتظر أن يخرج.

وحين صرخ الطائر فجأةً في السماء،
صرخةً طويلة مزّقت الغيوم،
قال أنطونيوس بصوتٍ خافتٍ لكنه كالسيف:

"إنه ينذرنا... هذا موعدي معه."

شدّ لجام حصانه،
وانطلق نحو الجهة التي صرخ منها الطائر،
بينما كانت الشمس تنكسر على درعه كوميضٍ من نذرٍ قديم.

▫

القرية التي وصل إليها كانت صامتةً كالمقبرة،
الهواء مشبع بالدخان والرماد،
والأبواب مفتوحة كأنها فمٌ يصرخ بلا صوت.
وفي آخر الطريق،
رآه.

كان الوحش يسير ببطءٍ في العراء،
ضخمًا كجبلٍ يتحرك،
جسده ملفوفٌ بسلاسل سميكة تلتف حول ذراعيه وقدميه،
وفي أطرافه أطواقٌ من الحديد المحمّى،
تصدر صوتًا كأنها أنينُ آلاف الأرواح.

وجهه مغطّى ب قناعٍ حديدي،
تنبعث من تحته أنفاسٌ حارّة كأنها من فرنٍ من الجحيم،
وعيناه حمراوان غائرتان كجمرٍ مطعونٍ بسكين.
كل خطوةٍ منه تُسقط الحجارة،
وكل نفسٍ يخرج منه يجعل الطير يهرب من السماء.

اختنق جواد أنطونيوس بالرعب وسقط،
فتدحرج القائد على الأرض،
لكنّه كتم أنفاسه بسرعةٍ واتخذ ساترًا خلف حائطٍ مهدّم،
يراقب الوحش يتحرّك نحو قبوٍ حجريٍ أسفل التلّة.
وحين دخل الوحش،

اختفى صوته... وعمّ الصمت من جديد.
حتى الجنود الذين تبعوه توقّفوا في أماكنهم،
لم يجرؤ أحد أن يتحرك.

□

عاد أنطونيوس إلى المعسكر مع شروق اليوم التالي،
وجهه رماديّ من الصدمة، وصوته يرتجف وهو يقول ليوهان وثيودور:

"ما رأيته ليس بشرًا...
إنه كتلة من الألم تمشي على الأرض.
يسير مقيدًا بسلاسله، لكنها كأنها من لحمٍ حي.
وجهه حديد، درع وعيون وكأنها مطعونه بدم
لو أن الموت له شكل، لكان هو."

تبادل القادة النظرات الصامتة،
حتى قال يوهان بثباتٍ:

"الطائر لم يصرخ عبثًا. لقد دلّنا على الجحيم نفسه."

هنا تدخّل كريس، وقال:

"لن نحاربه في الظلام، بل بالنور.
نحاصره بالنار، ونغلق عليه كل مخرجٍ حتى يسقط.
النار وحدها هي عدوه."

أومأ ثيودور برأسه، ثم رفع بصره نحو السماء الملبّدة وقال:

"حين يصرخ الطائر مرةً أخرى، ستكون تلك صرخة الحرب الأخيرة."

□

فى اللحظه ذاتها وصلت امدادات من جنود من الكنيسه ليسوا بالكثير ولكن من خيره جنود البلاد بدرع مقدسه

-
وبينما كان الليل يهبط ببطء،
انطلقت الصرخة...
أعلى من أي مرةٍ سابقة،
صرخةٌ جعلت الشموع تنطفئ في البحيرات،
وجعلت الأطفال يصرخون دون أن يعرفوا لماذا.

قال أنطونيوس وهو يلبس درعه ويشدّ سيفه:

"هذه ليست صرخة نذير... بل إعلان المعركة."

وتحركت الجيوش،
نحو دير الظلال،
حيث ينتظرهم الليل الأخير...

ليلة النار،
والدم،
ونهاية اللعنة

🩸 الفصل الثاني عشر: صليب النار – سقوط الوحش

قبل الشروق بساعتين فقط...
كان دير الظلال يشتعل من كل جانب.
صوت اللهيب يعلو على صرخات الجنود،
والزيت المغلي يُسكب من الأبراج فيحرق الأرض ومن عليها.
أوغسطين وقف فوق أسوار الحصن، عيناه كجمرتين،
يصرخ في رجاله:

"أحرقوا الأرض قبل أن يأخذوها! لا تتركوا لهم سوى الرماد!"

في الأسفل، كان كريس يقود الكتيبة اليمنى،
بينما انطونيوس يتقدم من الجهة المقابلة.
الخطة واضحة —
يُشغل كريس الحراس عند الأبراج،
ليندفع انطونيوس من الباب الرئيسي مباشرةً إلى الداخل.

السهام المشتعلة تتساقط كالمطر،
والأرض نفسها كأنها تغلي.
انهارت صفوف المهاجمين الأولى تمامًا،
احترق منهم العشرات،
وسُحب الباقون إلى الخلف لتضميد الجراح.

في تلك اللحظة، سقط يوهان بعد أن اخترق سهم ناري كتفه،
فسُحب أرضًا والدم يغرق يده،
والنيران تقترب منه ببطءٍ كأنها تريد التهامه،
حتى وجده بعض الجنود وأسروه داخل الحصن.

·

إتفق كريس وانطونيوس على خطه آخرى
حيث يقسم الجيش الا جبهتين ويدخل انطونيوس
الا البوابه

كان انطونيوس وحده يندفع من بين الدخان،
وجهه أسود من الرماد،
والعرق يمتزج بدمٍ على وجنتيه.
اقتحم البوابة المشتعلة بسيفه،
ودخل إلى الممر الحجري المظلم حيث اختفت الأصوات.

وهناك...
سمع ما لا يُنسى:
صوت السلاسل.
صوت ثقيل، معدنيّ، كأن الحديد يُسحب على الأرض.

ثم خرج الوحش.

ضخم... أعرض من الباب نفسه.
وجهه مغروسٌ فيه الحديد،
سلاسله تلتف حول كتفيه وذراعيه وقدمه
كل خطوةٍ منه تهز الجدران.
وعيناه... عينان حمراوان كدمٍ في جمر.

تراجع انطونيوس خطوة،
لكن الأرض نفسها لم تسمح له بالهرب.
رفع الوحش ذراعه الحديدية، فضرب الحائط فانفجر الحجر.
قفز على انطونيوس،
فكاد يُمزّقه لولا أنه تدحرج جانبًا وضربه بسيفه —
فانكسر السيف نصفين على صدره الحديدي.

من فوق الحصن، دوّى صوت الطائر.
صرخة عظيمة هزّت السماء.
هبط كالسهم من بين الدخان،
وانقضّ على الوحش،
غرز مخالبه في عينه اليسرى،
ثم دار حوله وضرب جرحا ف كتفه الخلفي بضربة خاطفة.
زمجر الوحش غضبًا،
واندفع إلى الأعلى فوق سور الحصن ليلحق بالطائر.

صعد انطونيوس خلفه والدماء تغطي ذراعه.
حين دار الوحش ليواجه الطائر،
صرخ الطائر مرةً أخرى ونفخ اللهيب،
فاشتعلت النيران في الوحل المحيط.
وصعدت السنه اللهب حول الوحش فبدء بالتراجع خطوتين للوراء
فكانت فرصه انطونيوس الأخيره
اندفع انطونيوس بكل ما تبقّى من قوة دفعه من الخلف،
دفعه قويه واحدة بقبضتيه في صدره،
فسقط الوحش للخلف —
على الحديد المصهور المنصوب تحت السور على شكل صليبٍ عظيم.

صرخةٌ هزّت الدير كله.
الحديد اخترق جسده،
والنار التهمته،
والدم الأسود سال من فمه كبركانٍ يحترق.
اهتزت الأرض تحته حتى انهار السقف،
وسقطت الأبراج كأنها تنحني للّعنة الأخيرة.

خرج انطونيوس مترنحًا،
جسده يحترق وجراحه تنزف،
لكن عينيه تبحثان عن يوهان —
وجده بين الركام، ممددًا والرماد يغطي وجهه، حيًّا بالكاد يتنفس.
اقترب منه وهمس:

"لقد انتهى... النار طهّرت اللعنة."

في الخلف، كان أوغسطين قد فرّ عبر الباب السري للقبو،
بينما الطائر يحوم فوق الدير المحترق،
صرخته الأخيرة كانت كنداءٍ للسماء...
إعلانًا أن الظلال سقطت —
لكن الحرب لم تنتهِ بعد

الفصل الثالث عشر: المرسوم المقدّس

انطفأت ألسنة النار، لكن رائحة الرماد بقيت في الهواء،
كأن الأرض نفسها لا تريد أن تنسى.
وفي اليوم الثالث بعد سقوط دير الظلال،
أُقيمت الصلوات في البحيرات والمشرق على أرواح من سقطوا،
من رجالهم ورجال دعم من الكنيسه بينهم من ذاب في النار ومن اختفى في العتمة دون أثر.وعلى كل روح وقرى دمرتها لعنه الوحش المتسلسل.

في قاعة الكنيسة الأم،
جلس قداسة البابا أورليانوس الأشدّ على عرشه الأبيض،
حولَه الكرادلة والكهنة وممثلو المشرق والبحيرات.
كان المشهد مهيبًا...
سكونٌ لا يُكسره إلا صوت ريشٍ يُكتب به التاريخ من جديد.

نهض البابا وقال بصوتٍ حازمٍ يملأ القاعة:

"لقد زالت اللعنة التي أطلقها المارق أوغسطين،
وسقطت الظلال التي دنّست اسم الربّ.
لذلك، تُعلن الكنيسة شكرها لأبناء المشرق والبحيرات
على شجاعتهم في وجه الظلام.
وشجاعه ذالك الطائر ذو العيون الحمراء
قالو عنه انه نذير لعنه لكنه كان انذار نجاه "

ثم التفت إلى يوهان الجالس على سريرٍ خشبيٍّ تحيط به ضماداتٌ ووجهه باهت من الألم:

"ابني يوهان، لقد خدمْتَ الكنيسة بإخلاصٍ لا يُقاس. كنتم على حق لكن ضلال اوغسطين كانت تُغشى العيون وتنشر الكراهيه
لقد أمرتُ بتكليف لجنةٍ من أمهر أطباء البلاد بعلاجك،
وسيُفتح لك بيت الراحة في الدار الكبرى حتى تعود كما كنت."

صفق الحضور بحرارةٍ خافتة،
ثم أشار البابا نحو انطونيوس الجالس بصمت، كتفه ملفوف بضمادٍ مدمى:

"وأما أنت يا قائد البحيرات،
فباسم الكنيسة نمنحك وسام الصليب المقدّس،
تقديرًا لشجاعتك التي أنقذت العالم من اللعنة.
فقدت اهلك وطُعنت فى قلبك ودُمك سال، لكنه صار ختمًا للنور فوق ظلالنا القديمة."

انحنى انطونيوس قليلًا، صامتًا كعادته،
بينما كان في عينيه بريق حزنٍ لا يخمد —

فقد دفن تحت رماد الوحش جثث أخاه وزوجته وابنه،
ولم يعد شيء يعوّضه مافقد .

⊡

لكن البابا لم يكن في مزاجٍ للعاطفة.
رفع يده مُعلنًا مرسومًا جديدًا:

"رغم شكرنا للبحيرات والمشرق،
فإن وحدة الكنيسة لا تُحكم بالعواطف.
لذلك أُصدر هذه القرارات باسم الربّ والقداسة العليا:

- يُرسل وفد مراقب دائم إلى المشرق والبحيرات لمتابعة أعمالهم باسم الكنيسة الأم.
- يُعيَّن راهب جديد لإدارة ما تبقّى من دير الظلال.
- ويُحذف اسم دير الظلال "دير اوغسطين من جميع سجلات الكنيسة ورواياتها المعتمدة،

فلا يُذكر بعد اليوم إلا كعظةٍ لمن ضلّ طريق النور.

- ويُشكَّل حرس كنسيّ جديد بديل عن حرس أوغسطين الذي فرّ وهرب مع سيده،

ومن يُقبض عليه منهم يُقدَّم للمحاكمة بتهمة الخيانة.

- وأما المدعوّ مارى، آخر خدام أوغسطين،

فيُسلّم إلى دير البحيرات للمحاكمة أمام مجمع الرهبان هناك."

ساد القاعة صمتٌ ثقيل،
والأنفاس تتردّد بين الخوف والارتياح.
لم يعرف أحد إن كانت تلك النهاية أم بداية حربٍ جديدةٍ باسم الإيمان.

⊡

وفي المساء،
حين خلت القاعة من الحشود،
وقف البابا وحده أمام النافذة المطلة على الشرق،
وقال لنفسه بصوتٍ خافتٍ لم يسمعه أحد:

"الظلال لا تموت... إنها تغيّر وجهها فقط."

وفي البعيد،
حلّق الطائر مرةً أخرى فوق أطلال الدير المحترق،
صرخته هذه المرة لم تكن نذير لعنة...
بل تحذيرًا جديدًا،
أن ما سقط اليوم في النار،
قد يقوم غدًا من الرماد

✨ انتهى الجزء الحادى عشر

—

الجزء الثانى عشر : عائداُ من الرماد

الفصل الأول: محاكمة في صمت الرماد⚖️

في قاعةٍ ضخمةٍ من الحجر الرمادي داخل دير البحيرات،
اصطفت المقاعد على شكل دائرة تحيط بالمنصّة الخشبية،
حيث يجلس القضاء الثلاثيّ ومبعوث الكنيسة الأم،
ينتظرون رجلًا واحدًا أُحضِر مكبّل اليدين، منهك الجسد، باهت العينين...
إنه مارى — آخر من تبقّى من رجال الأنبا أوغسطين.

كان وجهه صامتً،
كأنه عاد من المقابر ليعترف قبل أن يُدفن مجددًا.
سكونٌ رهيب، لا يُسمع فيه سوى احتكاك السلاسل بالأرض،
وصوت أنفاس الشهود خلف المقاعد؛
منهم ثيودور ورومان والكفيف،
الذين حضروا بطلبٍ مباشر من البابا أورليانوس الأشدّ.

اقترب المبعوث الكنسي،
رجلٌ يرتدي عباءة بيضاء مطرّزة بخيوطٍ ذهبية، وقال بصوتٍ صارمٍ:

"مارى... أجب باسم الحق.
من الذي أيقظ اللعنة؟
ومن الذي دعا الوحش إلى هذه الأرض؟"

رفع مارى رأسه ببطء، عيناه دامعتان،
ثم قال بصوتٍ مبحوحٍ كأنّه قادم من باطن قبر:

"كان اوغسطين يبحث عن اللعنه
وكان يوشع من أيقظه...
كنتُ أنا من فتح القبو.
أوغسطين هو من فعل وأراد كل هذا .
هو من أرسلني أبحث عن اليهودي العجوز...
هو من وعده بالخلاص مقابل اللعنة.
كنتُ أتبعه كما يتبع الكلب سيده...
حتى رأيت بعيني كيف خرج الوحش من الظلام."

ساد الهمس في القاعة،
لكن المبعوث رفع يده فأطبق الصمت من جديد.

"وهل كنتَ تعلم أن أوغسطين ما زال يُعدّ جيشًا؟"

أومأ مارى برأسه بثقلٍ وقال:

"نعم... جيشٌ آخر.
سمّاه كتيبة الأنبا.
جمع فيها من تبقّى من رجال فان،
أولئك الذين لم يُشاركوا في معارك الظلّ الأولى.
قال إنهم النواة الجديدة للعقيدة القادمة،
وإنهم سينهضون حين تسقط كل الأسماء القديمة...
لكن الكتيبة اختفت.
اختفت في الليلة نفسها التي قابل فيها يوشع،
الليلة التي خرج فيها الوحش."

عمّ السكون للحظةٍ طويلة،
قبل أن ينهض أحد القضاة ويقول ببرودٍ قاتلٍ:

"مارى... كنت قاتلًا.
وكنت شاهدًا على دماء الأبرياء.
وكنت خادمًا لمارقٍ حارب الربّ بيده ولسانه.
لهذا، تحكم الكنيسة الأم بقطع رأسك...
لتُطهّر الأرض من ظلّك كما تُطهّر النار من صدأ الحديد."

صرخ مارى وهو يُسحب نحو الساحة:

"أنتم لا تفهمون... لم ينتهِ بعد!
أوغسطين لم يَمُت... سيعود!
سيعود بوجهٍ لم تعرفوه من قبل!"

لم تمرّ لحظة حتى سُمِع صوت السيف يخترق الهواء،
ثم ارتطم رأس مارى بالأرض،
وبقي الجسد جاثيًا للحظةٍ كأنه لم يُدرك بعد أنه مات.

⊡

بعد تنفيذ الحكم، وقف رومان فجأةً،
تقدّم نحو ثيودور وقال بنبرةٍ يغلبها الحزن:

"يا أبانا... كم مرّةً سنحارب الظلال؟
كم لعنةً بعد هذه تنتظر أن تنهض من الرماد؟
لقد ضاع... ثم صمت وتنهد وقال :
إيليا . ماركوس . إسحاق . تلاميذه الثلاثة . سِيدنا الكبير . ذو اللحية البيضاء مهربان... قتل أهل أنطونيوس وخسر قلبه...
وها هو يوهان بين الحياة والموت للمرة الثالثة، وتلك القرى التى محيت .
والبحيرات تنزف، والمشرق يحترق... فماذا يريد هذا العالم منا بعد؟"

لم يُجِب ثيودور،
بل نظر إلى الكفيف الذي رفع رأسه نحو السقف،
وقال بصوتٍ هادئٍ كأنه قادم من غيبٍ بعيد:

"اللعنة لم تخلقها يد...
اللعنة خُلقت من قلبٍ لم يعرف النور بعد."

⊡

في تلك الليلة،
تبدّد الدخان فوق البحيرات،
لكن رائحة الدم لم تختفِ بعد.
وعند أطراف التلال السوداء،
تحرّك ظلّ رجلٍ ،

نصف وجهه مغطّى بقناعٍ
ونصفه الآخر تلتهمه الظلام.

توقّف على حافة الجبل،
ونظر إلى الدير البعيد الذي غمره السكون،
ثم قال بصوتٍ غليظٍ مبحوحٍ كأنّه يخرج من باطن الأرض:

"حان الوقت.

🕯️ الفصل الثاني: الأنبا الملعون ☠️

لم تمرّ سوى أسابيع على إعدام مارى،
حتى بدأت أخبارٌ غريبة تنتشر بين القرى البعيدة عن البحيرات.
همساتٌ عن رجالٍ يظهرون في الليل،
وجموعٍ تُقسم على الطاعة لاسمٍ واحد...
الأنبا.

لم يكن أحد يعرف أين يجتمعون،
لكن الحقيقة كانت أعمق من ظلال الشك.
ففي باطن الأرض، خلف بوّابة المنفى القديمة —
التي عرفها أوغسطين وحده —
كانت النار لا تزال مشتعلة.

هناك، في ممرّاتٍ رطبةٍ وضيّقةٍ محفورةٍ بالصخر،
اختبأ الأنبا أوغسطين منذ سقوط حصنه،
يراقب من بعيد، ويكتب خططه على الجدران كالمجنون.
لكنّه لم يكن وحده...
كانت كتيبة الأنبا قد أُعيد جمعها من جديد.

رجالٌ طوالٌ ضخامٌ،
أذرعهم كالأعمدة، وجلودهم مسوّدةٌ من أثر الحديد والنار.
هؤلاء كانوا من الحرس الخاص لفان،
الذين لم يشاركوا في معارك جيش الظل الأولى،
بل ظلّوا أوفياء للأنبا في الخفاء،
ينتظرون يومًا يأذن لهم فيه بالعودة.

وفي أعماق تلك المغارة المنفية،
وقف أوغسطين أمامهم،
وجهه شاحبٌ لكن عينيه تقدحان شررًا.
قال بصوتٍ خافتٍ، كأنّه صلاة مقلوبة:

"لقد فقدنا كل شيء...
لكننا لم نفقد الغاية.
من الرماد يولد الحديد،
ومن اللعنة تُصنع القوة."

رفع يده، فأحاطت به الوجوه الصامتة.

كلّهم كانوا يحملون الوشم نفسه على صدورهم:
رمز الدير القديم مشقوقٌ صليب بشكل مائلٍ إلى اليمين.
رمز الظل ... أو الولاء الجديد.

ثم دوّى صوتٌ من عمق الممرّات،
صوت خطواتٍ ثقيلةٍ تقترب،
كأنّها تعرف الطريق من الذاكرة لا من البصر.
توقّف أوغسطين، وعيناه تتسعان في ذهولٍ غريب.

ومن الظلام خرج رجلٌ ضخم الجسد،
يمشي بخطًى ثابتة،
والصمت ينكسر بصوت الحديد وهو يلمس الأرض.

وقف أمام الأنبا،
رفَع رأسه ببطء،
فانكشفت نصف ملامحه المحترقة تحت قناعٍ حديدي داكن،
والنصف الآخر مشوّهٌ بندوب كأنه يحمل جحيمه على وجهه.

كان هو فان.

لم يقل أحد كلمة،
حتى همّ أوغسطين بالكلام،
لكن فان سبقه بصوتٍ أجشّ، مبحوحٍ من الألم والرماد:

"اتهمتني بالعصيان،
قلتُ خرجتُ لأصنع مجدًا لنفسي...
ونسيتَ أنك أنت من أرسلتني!
لعنتَني أمام الناس لتُطهّر اسمك،
وأحرقتَ وجهي لتُطفئ خوفك...
لكن النار لم تقتلني، يا أنبا،
بل جعلتني أراك على حقيقتك."

تراجع أوغسطين خطوة،
صوته يرتجف بين الغضب والدهشة:
"كنتَ خادمي وأشد رجالى ، فان... وما زلتَ كذلك."

اقترب فان منه ببطء،
عينه السليمة تلمع ببريقٍ مميتٍ وقال:

"لا، يا أنبا...
كنتُ خادمك، والآن أنا لَعنتك."

تردّد صدى كلماته بين جدران المنفى كأنها نبوءة.
أما رجال كتيبة الأنبا،
فأحنَوا رؤوسهم دون أن يدروا لمن باتوا يطيعون...
للسيّد القديم، أم للّعنة التي عادت من الموت

—-

🔥 الفصل الثالث: رسائل العائد من الموت

كانت الرياح تعصف حول وادي المنفى، تُثير الغبار الرمادي فوق الصخور الجرداء، وكأن الأرض نفسها تنبض بذكرى اللعنة القديمة.
هناك، في قلب الوادي الموحش، بنى فان معسكره الحديديّ، صرحًا من الصخر والسلاسل والنيران الخافتة، جعل من بوابة المنفى حصنًا لا يعرفه أحد سواه.

تجمّعت حوله كتيبة الأنبا — رجاله القدامى، عمالقة الأجساد، حرس الظلال الأشدّاء الذين بقوا أوفياء له منذ معارك جيش الظل الأولى.
كانوا يظنون أنه مات، والآن يرونه أمامهم... نصف وجهٍ من لحمٍ محروق، ونصفه الآخر مغطّى بقناعٍ حديديّ داكن، عينٌ تشتعل كالجمر، وصوتٌ يُشبه هدير الحديد حين يغضب.

وقف فان أمامهم على ربوةٍ من الحجارة، ورفع صوته الجهوريّ قائلاً:

"ظننتم أن الموت نهاية... لكنه باب.
الأنبا أوغسطين أراد أن يُخمد ناري، فكان أول من سيحترق بها.
من اليوم، لن يسمع أحد باسم فان... بل سيعرفون صوت الأنبا العائد من الرماد!"

خلف جدران الحصن، كان أوغسطين نفسه مقيدًا داخل غرفةٍ ضيقةٍ من الحجر الأسود، أمامه طاولة نحاسية صغيرة، فوقها أوراقٌ مختومة بختمه الخاص.
كان فان يدخل الغرفة بنفسه، يُلقي أمامه الورق ويأمره بصوتٍ هادئٍ غاضب:

"اكتب كما كنت تفعل... بنفس خطك، بنفس ختمك، لتصدقهم الأكذوبة."

أمسك أوغسطين الريشة بيدٍ مرتعشة، بينما قال فان بابتسامةٍ مظلمة:

"ستكتب لهم أنك عدت... أنك جمعت رجال الظلال، وأن اللعنة لم تمت.
ستكتبها بيدك، حتى تصدّقها أنت أيضًا."

ومن وادي المنفى، خرجت الرسائل مختومة بختم الأنبا، متقنة الصياغة كأنها من أوغسطين نفسه، وصلت إلى القرى المجاورة أولاً، ثم إلى المشرق، والبحيرات، وحتى أطراف الكنيسة الأم في الغرب.
كل رسالة تحمل الجملة نفسها:

"لقد عدتُ، واللعنة لم تنتهِ... الأنبا عائد."

⊡

وفي قاعة البحيرات الكبرى، كان سيلفان القائم بأعمال يوهان يجلس في مكانه،
وبجواره أنطونيوس، كتفه ملفوف بالضمادات من جراح المعركة الأخيرة،
وإلى يساره ثيودور، وعلى كتفه الطائر الذهبيّ، صامتًا كأنه يسمع ولا يتكلم.
جلس رومان في الصف الخلفي، يدون الملاحظات، بينما غاب الكفيف مع يوهان في الكنيسة الأم للعلاج.

دخل مبعوث البابا، عباءته البيضاء تلمع تحت ضوء القاعة، وصوته جافّ كأنه نذير قضاء:

"قداسة البابا أورليانوس الأشدّ يشكركم على بطولتكم في مواجهة اللعنة،
ويشكر الطائر المبارك الذي أنقذ أرواحًا من الموت.

ولكن... القانون هو القانون.
الكنيسة لا تنسى.
سيُرسل وفدٌ دائم لمراقبة البحيرات والمشرق، لضمان أن لا تُعاد أخطاء الماضي.
وسيُعيَّن راهبٌ جديد في دير الظلال، ليعيد النظام باسم الكنيسة الأم."

ساد الهمس في القاعة، إلى أن قطع أنطونيوس الصمت وقال بصوتٍ خافتٍ لكنه غاضب:

"يعني أننا، بعد الدماء، وبعد الجراح، ما زلنا موضع شكّ؟"

لم يُجبه المبعوث، بل أخرج من حقيبته ورقة مختومة بختمٍ أحمر، وقال:

"وهذه رسالة... وصلتنا الليلة من الجنوب، بختم الأنبا أوغسطين نفسه."

تجمّد الجميع.
فتح ثيودور الرسالة بيده، قرأها بصمتٍ، ثم رفع نظره وقال ببطء:

"إنها بخطه فعلاً... لكنه ليس هو من كتبها."

تبادل الجميع النظرات.
صوت الريح في الخارج صار كأنّه صراخٌ بعيد.
الطائر على كتف ثيودور رفع رأسه فجأةً وأطلق صرخة حادّة،
صرخة أنذرتهم بأن ما يأتي ليس بشراً، بل الظلّ نفسه وقد عاد

كانت الرياح تعصف حول وادي المنفى، تُثير الغبار الرمادي فوق الصخور الجرداء، وكأن الأرض نفسها تنبض بذكرى اللعنة القديمة.
هناك، في قلب الوادي الموحش، بنى فان معسكره الحديديّ، صرحًا من الصخر والسلاسل والنيران الخافتة، جعل من بوابة المنفى حصنًا لا يعرفه أحد سواه.

تجمّعت حوله كتيبة الأنبا — رجاله القدامى، عمالقة الأجساد، حرس الظلال الأشدّاء الذين بقوا أوفياء له منذ معارك جيش الظل الأولى.
كانوا يظنون أنه مات، والآن يرونه أمامهم... نصف وجهٍ من لحمٍ محروق، ونصفه الآخر مغطّى بقناعٍ حديديّ داكن، عينٌ تشتعل كالجمر، وصوتٌ يُشبه هدير الحديد حين يغضب.

وقف فان أمامهم على ربوةٍ من الحجارة، ورفع صوته الجهوريّ قائلاً:

"ظننتم أن الموت نهاية... لكنه باب.
الأنبا أوغسطين أراد أن يُخمد ناري، فكان أول من سيحترق بها.
من اليوم، لن يسمع أحد باسم فان... بل سيعرفون صوت الأنبا العائد من الرماد!"

خلف جدران الحصن، كان أوغسطين نفسه مقيدًا داخل غرفةٍ ضيقةٍ من الحجر الأسود، أمامه طاولة نحاسية صغيرة، فوقها أوراقٌ مختومة بختمه الخاص.
كان فان يدخل الغرفة بنفسه، يُلقي أمامه الورق ويأمره بصوتٍ هادئٍ غاضب:

"اكتب كما كنت تفعل... بنفس خطك، بنفس ختمك، لتصدقهم الأكذوبة."

أمسك أوغسطين الريشة بيدٍ مرتعشة، بينما قال فان بابتسامةٍ مظلمة:

"ستكتب لهم أنك عدت... أنك جمعت رجال الظلال، وأن اللعنة لم تمت.

ستكتبها بيدك، حتى تصدّقها أنت أيضًا."

ومن وادي المنفى، خرجت الرسائل مختومة بختم الأنبا، متقنة الصياغة كأنها من أوغسطين نفسه، وصلت إلى القرى المجاورة أولاً، ثم إلى المشرق، والبحيرات، وحتى أطراف الكنيسة الأم في الغرب.
كل رسالة تحمل الجملة نفسها:

"لقد عدتُ، واللعنة لم تنتهِ... الأنبا عائد."

·

وفي قاعة البحيرات الكبرى، كان سيلفان القائم بأعمال يوهان يجلس في مكانه،
وبجواره أنطونيوس، كتفه ملفوف بالضمادات من جراح المعركة الأخيرة،
وإلى يساره ثيودور، وعلى كتفه الطائر ، صامتًا كأنه يسمع ولا يتكلم.
جلس رومان في الصفّ الخلفي، يدون الملاحظات، بينما غاب الكفيف مع يوهان في الكنيسة الأم للعلاج.

دخل مبعوث البابا، عباءته البيضاء تلمع تحت ضوء القاعة، وصوته جافّ كأنه نذير قضاء:

"قداسة البابا أورليانوس الأشدّ يشكركم على بطولتكم في مواجهة اللعنة،
ويشكر الطائر المبارك الذي أنقذ أرواحًا من الموت.
ولكن... القانون هو القانون.
الكنيسة لا تنسى.
سيُرسل وفدٌ دائم لمراقبة البحيرات والمشرق، لضمان أن لا تُعاد أخطاء الماضي.
وسيُعيَّن راهبٌ جديد في دير الظلال، ليعيد النظام باسم الكنيسة الأم."

ساد الهمس في القاعة، إلى أن قطع أنطونيوس الصمت وقال بصوتٍ خافتٍ لكنه غاضب:

"يعني أننا، بعد الدماء، وبعد الجراح، ما زلنا موضع شكّ؟"

لم يُجبه المبعوث، بل أخرج من حقيبته ورقة مختومة بختمٍ أحمر، وقال:

"وهذه رسالة... وصلتنا الليلة من الجنوب، بختم الأنبا أوغسطين نفسه."

تجمّد الجميع.
فتح ثيودور الرسالة بيده، قرأها بصمتٍ، ثم رفع نظره وقال ببطء:

"إنها بخطه فعلاً... هل مازال يريد أن يستمر فى اللعنه ."

تبادل الجميع النظرات.
صوت الريح في الخارج صار كأنّه صراخٌ بعيد.
الطائر على كتف ثيودور رفع رأسه فجأةً وأطلق صرخة حادّة،
صرخة أنذرتهم بأن ما يأتي ليس بشراً، بل الظلّ نفسه وقد عاد

🕯️ الفصل الرابع: خطى الظلال الأولى🌑

كانت البحيرات تبدو هادئة،
سطحها الفضيّ يلمع تحت ضوء الفجر كما لو أنّها تنام بعد حربٍ طويلة.
لكنّ الهدوء، كما يعرف أهلها، لا يدوم...

لأنّ ما يسكن تحت الماء لا ينام أبداً.

في المشرق، تولّى كريس قيادة الحرس العام بعد غياب يوهان،
رجلٌ حديديّ الطبع، لا ينام إلا على صوت السيوف.
منذ أن نُقل إليه خبر رسائل أوغسطين،
أصدر أوامره بتحصين كل ممرّ من وادي الحصى إلى ضفاف الظلال،
وأقام نقاط مراقبة في كل تلةٍ من الشرق.
لم يكن يخاف الحرب... بل كان يخشى الهدوء الذي يسبقها.

وفي المقابل،
كان أنطونيوس يجلس في قاعة البحيرات الكبرى،
ذراعه مربوطة بضماداتٍ من الكتان، وعيناه تحملان أثر المعارك.
لكن روحه ما زالت في ساحة النار.
بجواره يقف مساعده الجديد لوريس،
شابٌ سريع البديهة من أبناء البحيرات،
يتولّى قيادة الاتصالات بين البحيرات والمشرق بأوامرٍ مباشرةٍ منه.

قال أنطونيوس بصوتٍ هادئٍ وهو ينظر إلى الخريطة أمامه:

"لن نُهاجم، ولن نتحرك قبل أن نعرف أين يبدأ الظلّ من جديد.
علِّم رجالك، يا لوريس، أن الهدوء ليس أماناً،
وأن الخطر أحياناً يلبس ثوب السلام."

انحنى لوريس موافقاً، ثم خرج ليوزّع الأوامر.
وفي تلك اللحظة،
هبط الطائر فوق شرفة القاعة، وصرخ صرخةً قصيرةً غامضة.
رفع ثيودور عينيه إليه، ثم قال بخفوتٍ كمن يحدّث نفسه:

"هو لا يصرخ عبثاً... ثمة شيء يتحرّك في الظلال."

⊡

كانت الأخبار تصل متقطعة،
شائعات في القرى القريبة من وادي المنفى.
يقول البعض إنّ رجالاً ضخاماً بوجوهٍ مغطاةٍ بالحديد شوهدوا عند أطراف الغابات،
ويحملون راياتٍ سوداء عليها ختم الأنبا.
ويحلف بعض الرعاة أنهم رأوا نيرانًا تُشعل في تلالٍ بعيدةٍ ليلاً،
نيرانًا ليست نار بشر... بل نار دعوةٍ للظلام القديم.

في المشرق، كتب كريس في سجله الليلي:

"رجال الظلال يعودون، لكن لا نعرف إن كانوا
حقا اوغسطين ... أم من شيءٍ آخر.
كل الطرق بين البحيرات والمشرق تحت حراسةٍ مضاعفة،
ولا نسمح لأحد بالعبور دون ختم القائد العام."

⊡

في الليل ذاته،
تسلل رجلٌ عجوز إلى معبدٍ مهجور عند أطراف الوادي،
وفي يده لفافةٌ صغيرةٌ مختومةٌ بشمعٍ أسود.
فتحها، فأضاء داخلها نقشٌ غريب —
رمز الأنبا، تحته سطرٌ واحدٌ فقط:

"اللعنة لم تمت، بل تعلّمت الصبر."

رفع العجوز نظره نحو السماء،
فرأى الطائر يحوم عالياً، يصرخ في صمت الليل،
صرخةً واحدةً انطلقت من أعالي المشرق إلى قلب البحيرات،
كأنها تُنذر من بعيد أن الخطر بدأ يسير بخطىٍ بطيئة...
خطى الظلال الأولى

🕯️ الفصل الخامس: راية النار والضباب

بدأت الأرض تهتز.
في وادي الظلال، انشقّ الليلُ عن زلزلةٍ كأنها صرخة من جوف العالم،
تشق الصخور السوداء، وتفجّر الشقوق في كل وادٍ وقريةٍ مجاورة.
تحت الصدمة، رأى الناس السماء تشتعل نارًا حمراء،
تلقي بوميضها فوق الجبال كأنها دماءٌ تتبخر.

ثم، فوق تلال الصخر الأسود،
رُفعت رايةٌ سوداء...
ليست من قماش، بل من صفائح حجرٍ منصهرة،
تغلي تحت وهج النار، وتتحرّك ببطءٍ مع الريح.
حين رآها الناس، خرّ بعضهم ساجدًا،
وصاح آخرون:
"لقد عاد الأنبا الملعون!"

داخل دير الظلال،
حاول القائد تروفان أن يحافظ على النظام بين الجنود والرهبان،
لكن الأب جيروموس — المبعوث من الكنيسة الأم —
كان يعلم أن ما يحدث ليس مجرّد تمرّدٍ أو ثورة.
الزلزال لم يكن طبيعياً،
والراية... كانت علامةً على شيءٍ أقدم من اللعنة نفسها.

في الخلفية،
بين أقبيةٍ غارقة في السواد،
بدأت خطواتٌ ثقيلةٌ تصدر بانتظام.
رجالٌ طوالٌ بأجسادٍ ضخمة،
وجوههم مغطاة بأقنعةٍ من الحديد،
يحملون سيوفًا سوداء قصيرة
وصناديق حديدية تتدلّى منها سلاسل طويلة.
هؤلاء كانوا نواة جيش فان الجديد...
"كتيبة الأنبا".

جيروموس أرسل رسولًا إلى البحيرات يطلب المساعدة،
لكن الراهب الجديد المكلّف بإدارة الدير رفض بشدة،
وقال بصرامةٍ أمام الجميع:
"وادي الظلال للكنيسة الأم وحدها،
ولا نطلب العون من أحد."

ومع ذلك، أصرّ جيروموس أن يُرسل رسولًا سرّيًا إلى الكنيسة...
لكن الرسالة لم تصل أبدًا.
ففي طريقٍ جبليٍّ ضيقٍ بين الظلال والمنفى،
انقضّ رجال فان المقنّعون،
قطعوا الطريق على الرسول،
وغابت صرخته في الصخر والنار.

ومن تلك الليلة،
بدأت السماء تمطر رمادًا أسود،
وكانت الريح تحمل معه رائحة الحديد المحترق.

⊡

✨ الفصل السادس: تحرّك فان

في الصباح التالي،
ظهرت من بوابة المنفى أعمدة دخانٍ كثيف،
يتبعها صهيلٌ حادٌّ يشق الهواء.
ثم خرج فان.

مشهد دخوله كان كأنه خروجٌ من جحيمٍ قديم:
التراب والنار والغبار يلتفّون حوله،
نصف وجهه محروق، والنصف الآخر مغطّى بقناعٍ حديديّ داكن.
صوته حين تكلّم كان كالحديد يُطرق على صخر:

"أنا لم أعد من الموت... بل من وعدٍ لم يُكمَل."

خلفه وقف عشرات الرجال المقنّعين،
يحملون الراية السوداء نفسها.
رفع فان يده، فتوقّفت الخطوات في آنٍ واحد،
ثم قال لهم:

"من الظلال سنُعيد النور... بطريقتنا."

بدأ بإرسال أوامر عبر الرسل —
أوامر مختومة بختم أوغسطين نفسه،
لكنّها في الحقيقة بخطّ فان.
أرسل جزءًا من رجاله شمالًا،
وجزءًا آخر جنوبًا لإعادة السيطرة على القرى المنهارة.

في السر، اجتمع فان مع أحد قادة المشرق القدامى،
الجنرال سارفوس،
في كهفٍ على حافة المنفى،
وقال له فان ببرود:

"انضمّ إليّ، وخذ المشرق لك بعد الحرب.
فقط اسقط راية الكنيسة."

سارفوس لم يردّ،
لكنه لم يرفض.

في الجهة الأخرى،
كان جيروموس وتروفان يكتشفان تحرّكاتٍ غريبةً على أطراف الظلال،
فأرسلا تقريرًا مستعجلًا إلى البحيرات.
قرأ ثيودور الرسالة وهو متوتر،
ثم قال لكريس:

"اذهب أنت... تتبّع الراية السوداء.
إنها ليست عودةً... بل بداية."

وفي تلك الليلة،
ظهر الطائر فوق وادي الظلال،
صرخ صرخة واحدة فقط...
صرخة جعلت الرهبان والجنود يجثون أرضًا،
كأنهم سمعوا إعلانًا من السماء:
"المعركة اقتربت."

⊡

✨ الفصل السابع: معركة الصخر الأسود

في اليوم الثالث،
وصل تروفان ومعه كتيبة الكنيسة الجديدة إلى أطراف وادي الظلال.
الهواء كان خانقًا، والسماء سوداء،
كأن الأرض كلها تنفّست رمادًا.

حين ارتفع صوت الأب جيروموس بالصلاة،
انشقّ الضباب فجأة،
وظهرت صفوفٌ كاملة من رجال فان،
وجوههم الحديدية تلمع تحت اللهب،
والنار تنساب على أجسادهم كأنها لا تؤذيهم.

صاح تروفان بأعلى صوته:

"من يقف في وجه الكنيسة... يواجه الربّ نفسه!"
ثم اندفعت الكتائب.

المعركة كانت جحيمًا حقيقيًا.
الحديد والنار، الدم والرماد،
الهواء امتلأ بالصراخ والدخان.
الطائر كان يحوم فوق السماء،
يصرخ بصوتٍ حادٍّ متواصل،
كأنه يعلن الغضب الإلهيّ.

وسط الجنون،
تواجه فان وتروفان وجهًا لوجه.
قال فان ببرودٍ وهو يسحب سيفه العريض:

"أنتم تحاربون رجلًا عاد من الرماد ... فكيف تقتلون الموت مرتين؟"

انقضّ عليهما الجنود،
تقدّم تروفان بجرأةٍ محاولًا طعنه،
لكن فان أمسك النصل بيده العارية،
ودفعه بقبضته حتى ارتطم بالصخر.
تكسّر الحديد، واندفع الدم على التراب.

في النهاية،
انسحب فان ومعه رجاله إلى أعماق الظلال،
بينما نصف جيش الكنيسة أُبيد تمامًا.

وفي فجر اليوم التالي،
أعلنت البحيرات أن نصف أراضي الظلال سقطت،
وأُطلق عليها لقب "اللعنة الثانية"

الفصل الثامن: مجلس النار🔥

في القاعة الكبرى للكنيسة الأم،
حيث الأعمدة تمتد إلى سقفٍ لا يُرى،
والنوافذ العالية تصبّ ضوءًا باردًا على الأرض الرخامية،
جلس البابا أورليانوس الأشدّ في صمتٍ عميق،
وأمامه خرائط الظلال، وخطوط النار والدم التي غطّت أطراف المشرق.

تدفقت التقارير من كل الجهات:
القائد تروفان انسحب بعد معركةٍ لم تُحسم،
الأب جيروموس نجا بأعجوبة،
ورجال فان يرفعون راياتٍ سوداء فوق القرى،
ويحرقون من يرفض الانصياع لهم.

وقف البابا ببطءٍ،
ضرب بعصاه أرض القاعة، فارتدّ الصدى كالرعد،
وقال بصوتٍ يملؤه الغضب والسلطة:

"لقد أعيد فتح أبواب الظلال...
ولم يعد الصمت فضيلة.
باسم النور وباسم الربّ،
أُنشئ مجلس النار."

⊡

تشكل المجلس من تروفان القائد العسكريّ الأعلى،
والأب جيروموس مبعوث الكنيسة الأم،
ليكونا اليد الحديدية واللسان الإلهيّ في الحرب القادمة.
أقسم الاثنان أمام الصليب الكبير أن لا يعودا إلا بعد أن تُمحى راية الضلال
حتى لو احترق الوادي عن بكرة أبيه.

لكنّ الكنيسة لم تكن لتتحرك وحدها.
أرسل البابا رسائل عاجلة إلى البحيرات والمشرق،
يحملها وفد رسميّ بختمٍ ذهبيّ عليه نقش الصليب المزدوج.
نصّ الرسالة كان واضحًا صارمًا:

"على قادة البحيرات والمشرق أن يمثلوا أمام مجلس النار فورًا،
ليُعلَن أمرهم في الحرب المقدسة ضد اللعنة الثانية.
من يتخلّف، فلتُسحب عنه بركة الكنيسة."

⊡

في البحيرات،
تسلّم انطونيوس الرسالة بينما كان لا يزال يعاني من جراحه،
قرأها مرتين،
ثم قال بصوتٍ متعبٍ يحمل الغضب أكثر من الألم:

"أورليانوس يريد حربًا أخرى...
وكأنّ الأولى لم تترك رمادًا كافيًا."

أما في المشرق،
كان كريس يدرّب الرجال في ساحةٍ موحلةٍ قرب الجبال،
حين وصل الموفد حاملاً الختم الأحمر،
فسلّم الرسالة إلى سيلفان القائم بأعمال يوهان،
الذي قرأها بصوتٍ مرتجفٍ وقال:

"مجلس النار يدعونا...
وكأننا لم نخرج للتو من جحيم الوحش."

⊡

في الليل،
اجتمع تروفان وجيروموس في قاعةٍ مضاءةٍ بالمشاعل،
أمام خريطةٍ ضخمةٍ للوادي والبحيرات والمشرق.
أشار تروفان إلى مركز الخريطة وقال:

"بوابة المنفى... هناك بدأ كل شيء.
هناك نذهب."

لكن جيروموس رفع عينيه وقال بهدوءٍ:

"ليس كل نارٍ تطفئ نارًا، يا تروفان.
أحيانًا... النار لا تموت إلا حين تلتهم نفسها."

⊡

في الخارج،
كان الطائر يحوم فوق أسوار الكنيسة الأم،
يطلق صرخةً واحدةً ثم يختفي في السحب.
صرخة جعلت الحراس يتبادلون النظرات بخوفٍ خفيّ،
فهم وحدهم كانوا يعرفون معناها:
أن اللعنة لم تنتهِ بعد

🔥 الفصل التاسع – العودة من الرماد

الرماد ما زال يتطاير فوق وادي الظلال،
كأنّ الأرض نفسها لم تشبع من الحريق بعد.
وفي عمق الطريق الحجريّ الممتدّ بين القرى الأربعة،
انشقّ الغبار عن قافلةٍ سوداء يتقدّمها رجلٌ لا يُخطئه أحد: فان.

كان يركب حصانًا أسودَ عظيمًا،
من لونه يظنّ الناظر أنه خُلق من الدخان لا من لحمٍ وعظم.
شَعرُ الحصان فضّيّ على الرأس والقدمين،
كأنّ رماد النار القديمة ما زال عالقًا به.
أما فان، فكان نصف وجهه مغطّى بقناعٍ معدنيّ داكن،
والنصف الآخر تلوّنه ندوبٌ غائرة كأنها خُطّت بالحديد.
في يده اليسرى صولجانٌ فضّيّ لامع،
وفي يده اليمنى سيفٌ عريضٌ يحمل بريقًا باهتًا يشبه ضوء الموت.

خلفه تمتدّ صفوف الجيش الحديديّ:
رجالٌ بأقنعةٍ سوداء، ودروعٍ أثقل من أجسادهم،
يتقدّمهم العربة المركزية المزيّنة بشعار الأنبا القديم —
شعار الصليب المشقوق بسيفٍ مائلٍ إلى اليمين.

كانت أربعة أحصنةٍ بيضاء تجرّ العربة،
تلمع تحت ضوء الغروب كأنها أرواحٌ خرجت من كتابٍ مقدّس،
لكنّها لم تكن تحمل بركةً... بل سجنًا.
ففي داخل العربة جلس الأنبا أوغسطين نفسه،
عيناه غائرتان خلف ظلال الحديد،
وصمته أثقل من السلاسل التي تقيّده.

كان فان قد أبقاه حيًّا،
لا احترامًا له، بل لرمزه.
فمن اسمه فقط تُطيع الجموع،
ومن ختمه وحده تخضع القرى.
وهو الآن يتحرّك به كطيفٍ ميتٍ يُقاد أمام الأحياء.

⊡

مرّت القافلة بقرى الظلال الأربع واحدةً تلو الأخرى:
قرية الغسق، قرية الحصى، قرية المَرايا، ثم قرية السِّتار.
كل قريةٍ كانت تستيقظ على هدير الحديد ثم تصمت.
أبواب البيوت تُغلق، والأجراس لا تُقرَع،
والناس يركعون لا خوفًا من النار، بل من الاسم الذي كُتب على الراية:

"الأنبا عاد."

كان فان يكتفي بالنظر إلى وجوههم من فوق حصانه،
ابتسامةٌ باردةٌ تلمع تحت القناع،
ثم يقول في نفسه:

"إنهم يركعون للاسم، لا للرجل...
وأنا من يصنع الأسماء الآن."

⊡

عند آخر القرى، قرية الأوس،
بدأ الهواء يتغيّر.
هنا كانت أول معسكرات مجلس النار،
حيث الخيام البيضاء تلمع عند أطراف الوادي،
والرايات الذهبية ترتفع بجوار صلبانٍ كبيرةٍ تنعكس عليها شمس المغيب.

توقّف فان على تلّةٍ عاليةٍ تطلّ على المعسكر،
نظر إلى الأرض الممتدّة أمامه،
وقال بصوتٍ أجشّ كأنّه يخرج من جوف الأرض:

"هنا يبدأ الصمت الذي كنت أبحث عنه...
الصمت الذي سيبتلع كل من نجا من الرماد."

ثم رفع صولجانه عاليًا،
وانعكس عليه ضوء النار المتبقي من الغروب،
فبدا كأنه شعلةٌ تُعلن مولد حربٍ جديدةٍ لم تُكتب في كتب الكنيسة بعد

معركة قرية الأوس

كانت قرية الأوس صامتة، كأنها تحبس أنفاسها منذ الحرب الأخيرة.
البيوت الصخرية متلاصقة، والشوارع ضيقة تمتد بين الجبال،

وعند حافتها ترتفع معسكرات مجلس النار بخيامهم البيضاء وأسلحتهم اللامعة.
من بعيد، كان الدخان المتصاعد من المعسكر يبدو كغيمةٍ من نارٍ مكبوتة تنتظر الانفجار.

دخل فان القرية ببطء،
يمشي في مقدمة جيشه، خطواته تقطع الطريق الحجري كصوت المطرقة على الحديد.
لم يكن في حاجة إلى أن يأمر أحدًا...
رجاله يعرفون ما يجب أن يفعلوه.

أشار بيده، فانتشرت الكتائب بين الأزقة.
بعضهم اتجه نحو البيوت، وبعضهم تمركز فوق الصخور العالية التي تحيط بالقرية كجدارٍ جبليّ ضخم.
في آخر الصفوف، كانت عربة الأنبا تُخفى تحت أقمشةٍ سوداء عند مدخل الوادي — كما أمر فان.

بعد لحظاتٍ قليلة، دوّى صوت كسر بابٍ خشبيّ،
ثم تلاه صراخ نساءٍ وأطفال.
المجموعة الأولى كانت قد اقتحمت المنازل وجمعت أهل القرية في الساحة.
وجوههم شاحبة، عيونهم تملؤها الدهشة والخوف.
وقف فان أمامهم، سيفه في يده، وقال بنبرةٍ ثابتةٍ لا تعرف الرحمة:

"لن تُفتح بوابة الدير إلا على صوت النار...
وأنتم ستكونون أولَ من يسمعه."

أمر رجاله بسحب الأسرى إلى مقدمة الطريق،
صفّوهم في صفوفٍ متقاربة، وجعلوا كل واحدٍ منهم يواجه جهة المعسكر.
ثم صاح فان:

"تقدّموا بهم... واجعلوا الخوف يمشي أولاً."

تحركت الصفوف ببطءٍ نحو المعسكر،
رجال مجلس النار رأوا المشهد من بعيد — قرويين يسيرون تحت تهديد السيوف،
فظنّوا أنهم هاربون أو أسرى يطلبون الحماية.
هرع بعض الجنود لفتح البوابات...
وفي اللحظة نفسها، لوّح فان بيده إشارةً واحدة.

من فوق الجبال المحيطة، اشتعلت النيران دفعةً واحدة.
كتائب فان التي كانت مختبئة بدأت تمطر المعسكر بالسهام المشتعلة،
وصوت الحديد والنار ملأ السماء.
الجبال نفسها ارتجّت.

اندفع جنود المجلس من الخيام مذعورين،
لكنهم وجدوا أنفسهم محاصَرين بين النار من الخلف والأسرى في المقدمة.
صرخ أحدهم: "إنهم يستخدمونهم دروعًا بشرية!"
لكن الأوامر كانت قد ضاعت وسط الفوضى.

هجم فان من الجهة اليمنى،
سيفه العريض يشق الهواء كأنه مقصلةٌ متحركة.
كل ضربةٍ تسقط رجلاً، وكل خطوةٍ تترك خلفها صدى الرعب.
لم يكن يقاتل بعشوائية، بل بخطةٍ محسوبة:
يضرب، ثم ينسحب، ثم يُطبق عليهم من الاتجاه الآخر.

الكتائب التي فوق الجبال نزلت كالسيل،
وحين انتهت الصرخات، لم يبقَ في المعسكر سوى النار والرماد.

▫

بعد المعركة،
جمع فان من تبقّى من أهل القرية —— النساء والرجال والشيوخ ——
وساقهم نحو معسكره.
كانت وجوههم محروقة من الدخان،
وأجسادهم ترتجف كأنهم في حلمٍ لا يريد أن ينتهي.

أمر رجاله أن يُخرجوا لهم ملابسهم،
ثم أمر بإشعالها أمامهم.
اللهب ارتفع وسط الظلام، وصراخهم ملأ الساحة.

قال فان بهدوءٍ قاسٍ:

"من أراد النجاة... فليذهب إلى معسكر النار ويستغيث بهم."

وأطلقهم نحو المعسكر وهم عراةٌ إلا من الرماد.
ركضوا في الظلام، يصرخون بأسماء جنود المجلس،
وحين خرجت الفرق لإنقاذهم...
كانت كتائب فان قد أحاطت بالمعسكر من كل اتجاه.

الليل اشتعل من جديد.
صرخات، لهب، ودماء تغسل الصخور.
وحين سكت كل شيء،
وقف فان فوق تلّة الأوس، يرفع صولجانه نحو بوابة الدير البعيدة، وقال بصوتٍ غليظٍ كأنه يحدّث الموت نفسه:

"بوابة الدير لن تُفتح بالصلوات...
بل بالدم"

كان الليل ثقيلاً فوق الأوس،
النار ما زالت تلتهم أطراف القرية،
والرماد يتساقط كأنه مطرٌ من جهنم.
وسط الخراب وقف فان بين جنوده،
يمسح الدم عن سيفه بقطعة قماشٍ رمادية،
ثم قال ببرودٍ كأنه يحدّث حجرًا:

"أعيدوا العربة إلى قلب الجيش...
الأنبا لا بد أن يُرى حيث يبدأ الطريق."

تحرك الرجال فورًا.
دُفعت عربة الأنبا إلى منتصف الصفوف،
تحيط بها أربعة أحصنة بيضاء تلمع في سواد الليل،
وحولها حلقةٌ من الحرس المقنّعين لا يتكلمون.
لم يعرف أحد ما بداخل العربة،

لكن الكل انحنى أمامها وكأنها تحمل البركة.

بعدها أمر فان بصوتٍ غليظ:
"اجمعوا الأسرى... والجنود المصابين، جميعهم.
جرّدوا الرجال من دروعهم... أريدهم كما وُلِدوا، عُراة إلا من الخوف."

نفّذ الجنود أوامره في صمت.
وفي دقائق، اصطفّ أمامه صفّ طويل من البشر —
أهل الأوس، والجنود الذين أُسروا، وجوههم مغطاة بالرماد.
كانت نظراتهم متوسّلة، لكن فان لم يرَ فيهم سوى وسيلةٍ لإشعال الفوضى القادمة.

أشار بصولجانه نحو الجبال وقال:
"اتّجهوا إلى بوابة الدير.
دقّوا الأجراس... اطلبوا الغفران.
فليفتحوا لكم الأبواب."

ارتجف البعض، وصرخ آخرون يطلبون الرحمة،
لكن الحرّاس دفعوهم إلى الأمام بالسيوف،
حتى بدأ الموكب البائس في الصعود نحو الدير.

⊡

من فوق الأسوار العالية،
رأى جنود مجلس النار الحشود تقترب.
رجالٌ عُراة، نساءٌ منهارات، وبعضهم يرفع رايةً بيضاء مصنوعة من قماشٍ ممزّق.
صرخ أحد الحرّاس:
"إنهم أهل الأوس! لقد نجا بعضهم!"
دُقّت الأجراس،
وتحرّك القادة بسرعةٍ لتأمين البوابة،
ظنًّا منهم أنهم يطلبون النجدة.

أُضيئت المشاعل،
وتجمّع المئات خلف البوابة،
جنودٌ، رهبان، حراس، جميعهم على أهبة الاستقبال.
فتحوا البوابة ببطءٍ...
وصوت الحديد احتكّ بالصخر كأنه أنينٌ من الأعماق.

دخل الأسرى الواحد تلو الآخر،
وجوههم شاحبة من الجوع والخوف.
الجنود اقتربوا منهم لتهدئتهم،
وبينما أول صفٍ من الرهبان يحاول إسعاف أحد الجرحى...
كان فان قد رفع يده من بعيد.

في لحظةٍ واحدة،
انفجر الليل بمطرٍ من السهام الحديدية.
سُحُبٌ سوداء من الأسهم اندفعت من كل الجبال المحيطة،
تسقط على الساحة كعاصفةٍ من موت.

الحديد يصفّر في الهواء،
والأجساد تتهاوى بالعشرات.

صرخات، دماء، لهب.
اختلطت أجساد الجنود بأجساد القرويين،
لم يعد أحد يعرف من يقاتل من.
حاول تروفان أن يصدر أوامر الدفاع،
لكن السهام كانت أسرع من الصوت.

تساقط الجميع في فوضى عارمة،
البوابات ارتجّت،
والنار اشتعلت في الأقمشة والخيام.
كان المشهد أشبه بطوفانٍ من الجحيم.

وفوق كل هذا،
كان فان يقف على تلّةٍ قريبة،
يراقب المجزرة من بعيد،
والضوء الأحمر ينعكس على وجهه المقنّع،
ابتسامةٌ باهتة شقّت نصف وجهه،
وقال بصوتٍ منخفضٍ يسمعه أقرب رجاله فقط:

"الفوضى... هذه هي البداية فقط."

⚔️ الفصل العاشر– بوابة الدير الكبرى

كان صدى الأجراس لا يزال يرتجف فوق وادي الظلال،
لكن الصوت لم يكن دعوة صلاة هذه المرّة...
بل نداء موت.

تدفّق جيش فان كالسيل،
تحت وابلٍ من الدخان والرماد،
يتقدّمون بخطى ثابتةٍ فوق جثث الجنود والرهبان الذين سقطوا عند البوابة.
السيوف تلمع في أيديهم،
والدروع الثقيلة تصدر صوتًا واحدًا كأنّها قلبٌ من حديدٍ ينبض في الظلام.

بوابة الدير كانت ضخمة، محفورة في الصخر،
لكنها لم تصمد طويلًا.
أُحضرت العربة الحديدية التي تحمل ختم الأنبا،
ووُضعت في مقدمة الجيش كرمزٍ مقدّس،
ثم صرخ فان:

"ادفعوا الباب باسم الأنبا!"

انطلقت المطارق الحديدية،
تتابعت الضربات حتى تكسّر الحجر،
واندفع الحديد في الداخل كزئيرٍ متواصلٍ.
حين انشقّ الباب،

تدفقت الكتائب كطوفانٍ أسود،
تقتل كلّ ما يتحرّك،
ولا تميّز بين راهبٍ أو جنديٍّ أو حارس.

كانت المعركة داخل الدير كأنها مجزرة من جحيمٍ مفتوح:
الدم يختلط بماء الطهارة المنسكب من الأحواض،
وصوت الصراخ يرتفع حتى يغطي الأناشيد القديمة التي كانت تُتلى ذات يومٍ هنا.
رجال فان لا يتراجعون،
وكلّما سقط منهم رجل، صعد آخر فوق جسده ليُكمل الطريق.

من فوق الأسوار العالية،
وقف تروفان بجوار جيروموس،
عيونهما تتابع المشهد في ذهولٍ وصمتٍ ثقيل.
لم يكونا يصدّقان ما يرونه:
قائدٌ غامض يقود الجيوش بثباتٍ لا يشبه أحدًا من رجال الأنبا القدامى.
كان يسير بين النيران، لا يختبئ من السهام،
صوته فقط يكفي ليتحرك المئات دفعةً واحدة.
قال جيروموس وهو يحدّق في الظلام:
"من هذا؟! هل أعاد الأنبا خلق نفسه؟"
أجابه تروفان، وصوته يختنق بين الغضب والخوف:
"الأنبا تغيّر... أو عاد في هيئةٍ أخرى."

من بعيد، ارتفعت العربة البيضاء من خلف الصفوف،
وتقدّمت ببطءٍ تحت ضوء المشاعل،
يقودها أربعة خيولٍ بيضاء وسط الدخان.
حين رآها جنود الدير، تراجعوا.
لم يجرؤ أحدٌ على رفع سيفه أمامها —
كان المشهد أقرب إلى طقوسٍ مقدّسةٍ للدم.

أمر فان بإيقاف التقدّم عند ساحة الدير،
ثم رفع صولجانه الفضيّ عاليًا وقال بصوتٍ اخترق الصمت:

"الدير لنا.
الاسم عاد،
ومن يُقسم بغيره... فليُدفن معه!"

صمتت الساحة لحظةً،
ثم تهاوت آخر صفوف المقاومة تحت وابلٍ من السيوف.
لم يبقَ في المكان سوى أصوات اللهاث والحديد والدم.

تقدّم فان ببطءٍ نحو البوابة الداخلية الكبرى،
وقف إلى جوار العربة،
الضوء الأحمر من المشاعل ينعكس على القناع المعدنيّ في نصف وجهه،
وعيناه تتجهان إلى أعلى الأسوار.
هناك، على الحافة، كان تروفان وجيروموس يراقبانه.
تبادلا النظرات — الخوف أوضح من الكلام.
قال جيروموس بصوتٍ مرتجفٍ:
"إنه ليس الأنبا... لكنه يتكلم باسمه."

رد تروفان:
"ورجاله يؤمنون أنه هو... وهذا يكفي ليقتلنا جميعًا."

▫

في تلك اللحظة،
خرج أحد قادة فان من بين الصفوف،
تقدّم نحو السلالم المؤدية إلى الأسوار،
وصاح بصوتٍ جهوريٍ يخترق الصخر:

"بأمر الأنبا العظيم — سلّموا الدير.
كل من يضع سيفه... تُغفر خطيئته.
ومن يقاوم... يُمحى اسمه من كتب الربّ."

لم يُجب أحد.
لكن جيروموس شعر أن الهواء نفسه تغيّر —
ثِقَلٌ غريب خيّم على المكان،
كأنّ الظلال استقرت أخيرًا فوق بيت النور.

رفع تروفان سيفه،
نظر إلى الساحة التي تحوّلت إلى بحرٍ من الدم،
وقال بمرارةٍ وهو يحدّق في الرجل الذي يقف أسفل الأسوار:
"إنه ليس بشريًا... هذا وحشٌ يقود رجالًا باسم القدّيسين."

وفي الأسفل،
كان فان يبتسم ابتسامةً لا تحمل فرحًا،
بل وعدًا جديدًا بالنار

دخان الصمت

سكنت ساحة الدير الكبرى.
لم يبقَ سوى الدخان، وصرير الحديد حين يُسحب من فوق الجثث.
الريح تمرّ على الأبواب العالية، كأنها تنوح على من ماتوا هنا قبل قليل.
تحت الدرج الحجريّ المؤدي إلى القاعة العظمى، وقف فان.
ذراعه ما زالت مغطاة ببقايا الدم، وصدره يعلو ويهبط بثباتٍ كأن الحرب لم تمسّه.

أشار بيده، فتقدّم أوغسطين من بين الصفوف.
وجهه شاحبٌ كالعاج، لا أثر فيه للغضب ولا للفخر.
خطاه بطيئة، كأن الأرض تخاف أن تئنّ تحتها.
خلفه يسير جنديّ ضخم، أحد حرس فان المقرّبين، يحمل رمحًا أسود مائل الرأس،
عيونه لا تتركه لحظة واحدة.

قال فان بصوتٍ خافتٍ وهو يدير ظهره:

"ادخل... هو مكانك الآن."

لم يردّ أوغسطين، فقط رفع رأسه قليلًا ونظر إلى بوابة القاعة.

كانت الأبواب الخشبية القديمة مكسوّة بطبقةٍ من الغبار والرماد،
والصليب المنقوش عليها مشقوقٌ في المنتصف، كأنه خُذِل منذ زمن.

خطا أوغسطين خطوة... ثم أخرى.
صوت خطواته يتردّد في الممرّ كنبضٍ مريضٍ بارد.
الحارس وراءه، يجرّ الرمح خلفه، الشرر يتطاير من احتكاكه بالحجر.

حين دخلا القاعة، أُغلقت الأبواب الثقيلة خلفهما بإشارةٍ من فان.
الضوء في الداخل كان خافتًا، قادمًا من شقوق السقف العالية،
يتسلّل مثل خيوطٍ من رمادٍ حيّ.

جلس أوغسطين على العرش الحجريّ في منتصف القاعة،
المكان الذي كان له ذات يوم،
لكنّ العرش لم يبدُ كأنه يرحّب به؛
برد الحجر التصق بجسده كيدٍ ميتة.

وقف الحارس إلى جواره دون كلمة.
بينما في الخارج، وقف فان يحدّق في الأبواب المغلقة،
ابتسامة خفيفة ظهرت تحت القناع، وقال بصوتٍ بالكاد يُسمع:

"الملك عاد إلى عرشه...
لكن التاج الآن في يدي."

ثم استدار ببطء، تاركًا القاعة خلفه تغرق في صمتٍ كثيف،
كأنها قبرٌ كبيرٌ فُتح لابتلاع صاحبه من جديد.

⊡

بعد سقوط الأوس

لم تعد قرية الأوس تُشبه شيئًا من العالم القديم.
الهواء رماد، والصخور التي كانت تحرس الطريق إلى دير الظلال
صارت شواهد قبور لمن لم يبقَ منهم سوى أثر الدم.

في الساحة الصخرية،
يتصاعد الدخان من البيوت المحروقة،
رائحة الحديد واللحم تختلط في هواءٍ خانق.
رجالٌ مصلوبون على الأسوار،
ونساءٌ يزحفون بين الحجارة بأيدٍ دامية.

في المنتصف، وقف فان.
وجه نصفه قناع، ونصفه ندوب،
وفي معصمه الأيسر سوارٌ فضّيّ ضخم
يلتمع كلما لامسته النار، كأنه جزء من جلده.

قال بصوتٍ خافتٍ وبارد:

"احرقوا الحديد... لا أريد غير نارنا."

اشتعلت الساحة،
احترقت الأسلحة والدروع،
وانصهرت الأجساد حتى صار الدخان غطاءً للسماء.

⊡

جيرموسون

أُمسك جيرموسون وهو يحاول الزحف بين الجثث.
سُحب من شعره أمام فان،
عيناه متسعتان، لا خوفًا بل رفضًا للموت البارد.

اقترب منه فان،
قال ببطءٍ كمن يهمس في قبرٍ مفتوح:

"كنت تصلي كثيرًا... الآن صلِّي للصمت."

بإشارةٍ واحدة،
سُحب إلى القبو الحجريّ أسفل الدير،
حيث وُضع بين الرهبان الأسرى،
في ظلامٍ لا يُسمع فيه إلا أنين الماء من السقف.

⊡

تروفان

أما تروفان، فكان له نصيبٌ من الرعب مختلف.
لم يُقتل... بل جُعل عبرة.

أمر فان أن يُربط هو وثلاثة من رجاله
إلى أرجل ثلاثة أحصنة من بقايا القرية،
أجسادهم عارية، ودماؤهم تنقط على الحجارة.

اقترب منه فان،
السوار الفضيّ في يده يلمع مع وهج النار،
وقال بنغمةٍ جافةٍ لا حياة فيها:

"كنت تتكلم عن الشرف...
احمله معك، لو فضلك لسان."

ثم أشار للعجوز أن تضرب الخيول.
انطلقت، تجرّ الرجال الأربعة عبر الصخور.
الصوت صار مزيجًا من الصرخات والحديد والحوافر.
الأرض امتلأت بخطوط الدم،
كأنها توقيعٌ جديد لفان على الخراب.

الرسالة

بعدها أمر فان بربط رسالةٍ قصيرة
على ظهر أحد الأحصنة التي تسحب الأسرى،
كُتبت بختمٍ مزيّف يحمل شعار الكنيسة.

الرسالة وُجهت إلى أنطونيوس في المشرق،
ومعه نسخة إلى ثيودور وورومان.
لم يُرسل أحدًا؛ بل ترك الخيول تجرّ الرسالة كما تجرّ اللحم.

كانت الكلمات بسيطة، محفورة بدمٍ ناشفٍ:

"لقد عاد الأنبا.
والرماد لم يبرد بعد.

🔥 الفصل الحادى عشر – رسائل الدم

كانت سماء المشرق ملبّدةً بالرماد، كأنها تحمل خبرًا لا تريد أن تنطقه.
وعند بوّابة المعسكر الحجريّ، سُمِع صهيلُ خيولٍ قادمٍ من بعيد.
لم تكن قافلة حرب، ولا موكب نصر... بل مشهد عذابٍ حيّ.

اقتربت الخيول الثلاثة، تُجرّ خلفها أجسادًا مربوطةً بالسلاسل.
كانوا أربعة رجالٍ بزيّ مجلس النار، تتدلّى رؤوسهم من التعب،
وأذرعهم مشدودةٌ إلى ظهور الأحصنة كأنهم غنائم حربٍ من جحيمٍ قديم.
كان تروفان في المقدّمة، جِلده ممزّق والدماء تجفت على وجهه،
عيناه نصف مفتوحتين، تتقلبان بين الغضب والعجز.

حين توقّف الموكب عند بوابة المشرق،
تجمّع الجنود في صمتٍ مذهولٍ، لا يصدقون أن القائد الذي سمعوا صوته يقود "مجلس النار"
أصبح الآن يُساق كالأسير أمامهم.

اقترب القائد كريس بخطواتٍ ثقيلةٍ،
أشار بيده، فأنزل الجنود الأسرى عن الأحصنة.
تقدّم منهم بوجهٍ صارمٍ وقال بصوتٍ خافتٍ فيه مرارة:
"من فعل بكم هذا؟... أهذا من عمل الانبا الملعون ؟"

رفع تروفان رأسه بصعوبة،
وابتسم ابتسامةً واهنةً تُشبه الحرق وقال:
"يا كريس ليس هو ... بل مَن أطلقه من جديد."

سكتت الساحة،
حتى سُمِع صوت أقدامٍ يقترب من خلف الجنود.
كان سيلفان، الراهب القائم مقام يوهان،
يرتدي عباءته الرمادية، ويمسك بيده عصاه الخشبية.

نظر إلى تروفان طويلًا، ثم قال بنبرةٍ باردةٍ خاليةٍ من الرحمة:
"احملوه إلى قاعة المشرق...
ولْيُعرض أمام المجلس في أقرب فجر،
قبل أن ينتشر الرماد أكثر."

ثم مدّ كريس يده إلى أحد الأسرى،
على ظهره وُجدت رسالةٌ مربوطة بخيطٍ من الحديد الرفيع،
ختمها بدمٍ جافٍ وعلامة الأنبا.
فكّها سيلفان ببطءٍ، قرأ السطر الأول فقط،
فانبسطت عيناه في صدمةٍ لم يخفها، وقال همسًا:

"هذا... ختم أوغسطين."

نظر الجميع إليه بدهشة،
لكن تروفان قال بصوتٍ متهدّجٍ قبل أن يُسحب إلى الداخل:
"الختم له...
لكن اليد التي كتبته من رماد.

بعد ساعاتٍ من وصولهم،
كان المشرق يعيش صمتًا غريبًا لا يُشبه صمت المعابد ولا انتظار الحرب.
في قاعة المعسكر الحجرية، جلس تروفان وجنوده المأسورون على الأرض،
أذرعهم مشدودة بسلاسل خفّفها كريس بأمرٍ منه،
بينما تولّى الرهبان تضميد جراحهم وغسل وجوههم بالماء البارد.

كان كريس واقفًا عند الباب،
ينظر إليهم بعينٍ تجمع بين الشفقة والريبة.
كان يعرف تروفان جيدًا،
لم يكن ليُؤسر بسهولة،
وما رآه من آثار الحروق والقيود على أجسادهم جعله يشعر
أن ما جرى في قرية الأوس كان أبعد من معركة.

حين انتهى الرهبان من إسعافهم،
اقترب كريس ببطء وقال لتروفان:
"سنرحل الآن إلى البحيرات...
لن تقف الكنيسة الأم على قدميها إن بقيت الأخبار حبيسة الرماد."

لم يُجب تروفان،
اكتفى بالنظر إلى الطريق الطويل الممتدّ خلف النافذة الحجرية.
كان في عينيه شيء لم يفهمه كريس —
نصف غضبٍ، ونصف ندمٍ، وكأنه رأى الموت ولم يمت بعد.

▫

مع طلوع الفجر،
تحرك الموكب عبر الجبال الموحلة.
في المقدمة، قاد كريس بنفسه الفِرقة الصغيرة،
خلفه أربعة خيولٍ تحمل الأسرى،

وعلى أحدها كانت الرسالة مختومةً بختم الأنبا القديم،
موضوعةً في كيسٍ جلديٍّ صغير،
لا يجرؤ أحد على لمسه إلا كريس نفسه.

امتد الطريق طويلًا،
الضباب يملأ الممرات، وصوت الحديد يصطدم بالصخر كلما تحرّكت السلاسل.
لم يتحدث أحد.
حتى تروفان، الذي كان معروفًا بصوته الجهوريّ في ساحة الحرب،
بقي صامتًا كأنه يجرّ وراءه جثثًا لا يراها أحد غيره.

⊡

مع غروب اليوم الثالث،
وصل الموكب إلى أطراف البحيرات.
استقبلهم الحرس عند البوابة الكبرى،
وأُرسلت كلمةٌ عاجلة إلى أنطونيوس وثيودور ليحضرا فورًا.

في قاعة المجلس الحجريّ،
دخل كريس ومعه الأسرى،
ألقى التحية العسكرية، ثم قال بصوتٍ عميقٍ تعب من السفر:

"أحضرت لكم من المشرق ما تبقّى من مجلس النار...
وتلك الرسالة، يا ثيودور، لم أفهمها...
لكنها كُتبت بختم الأنبا أوغسطين."

مدّ الرسالة إليه،
فنظر ثيودور إلى الختم الأحمر الغائر،
لمس الحروف المحترقة بأطراف أصابعه،
ثم قال ببطءٍ كمن يُحدّث نفسه:

"اللعنة... ما زالت تعرف طريقها إلينا.

كان المساء يهبط ببطءٍ على البحيرات،
ضبابٌ خفيف يزحف فوق سطح الماء،
وصوت الأجراس البعيدة يرتدّ بين الجبال كأنها تنذر بقدوم شيءٍ طال غيابه.

من الطريق الحجريّ الممتدّ نحو البوابة الكبرى،
كانت عربة الكنيسة الأم تتقدّم ببطء،
تجرّها خيول بيضاء متعبة،
وعلى جانبيها يسير حرّاسٌ يحملون مشاعل تُضيء وجوههم المتعبة من السفر.

داخل العربة، جلس يوهان صامتًا،
وجهه ما زال شاحبًا رغم آثار العلاج،
عيناه مغلقتان كمن يسمع شيئًا لا يُسمع.
إلى جواره جلس الكفيف،

وجهه أكثر سكونًا من ذي قبل،
وفي يده عصاه الخشبية التي صارت امتدادًا لروحه،
ينصت لأنفاس الطريق، وكأنه يحفظها كما يحفظ صلواته.

وفوق العربة، كان الطائر يحوم في دوائر واسعة،
ريشه الرمادي يلمع تحت آخر خيوط الشمس،
وصوته يخترق سكون المساء كجرسٍ نائمٍ أُيقظ على عجل.
حين صرخ، توقّف الحرّاس لوهلة،
التفتوا نحو السماء،
فقال أحدهم بصوتٍ مرتجف:
"الطائر... إنه يسبقهم دائمًا قبل أن يتغيّر شيء في البحيرات."

⊡

عند بوابة الدير الكبرى،
كان أنطونيوس وثيودور وكريس يقفون في انتظارهم.
الوجوه مرهقة، لكن العيون تترقب بريقًا جديدًا بعد كل ما حدث في الأوس.
لم يتبادلوا كلمات كثيرة،
فالموت الذي تركه فان وراءه كان أبلغ من أي حديث.

توقّفت العربة.
فتح أحد الحراس الباب،
ونزل يوهان بخطواتٍ بطيئة،
يتبعه الكفيف الذي رفع رأسه نحو الهواء وقال بصوتٍ خافتٍ:
"رائحة الرماد لم تختفِ بعد..."

تقدّم ثيودور نحوهما، وضع يده على كتف يوهان وقال:
"حمدًا للرب على عودتك... لقد احتاجت البحيرات إلى صمتك أكثر مما تظن."

أجاب يوهان بصوتٍ مبحوحٍ متعب:
"سمعت عن مجلس النار... وعن القرى التي سقطت.
هل عاد الأنبا حقًا؟"

نظر أنطونيوس إلى ثيودور، ثم قال بمرارة:
"عاد... أو هكذا يظنون.
لكن الذي رأيناه في الأوس لم يكن أنبا، بل شيءٌ آخر...
شيء يعرف اسمه ويُخفي وجهه."

⊡

اقترب كريس وقدّم ليوهان الرسالة التي كانت مربوطة على ظهر الخيل:
"هذه وصلت من المشرق، بختم الأنبا،
لكنها كُتبت بيدٍ ترتجف كأنها تكتب من باطن قبر."

فتحها يوهان ببطء،
قرأ السطور، ثم أغلقها دون أن يتكلم.
الطائر فوقهم صرخ فجأة،

صرخةً واحدةً طويلة، ارتدت أصداؤها فوق البحيرة حتى سكنت المياه.

قال الكفيف وهو يرفع رأسه كمن يسمع ما لا يُقال:
"اللعنة لا تكتب... إنها تمشي."

نظر إليه ثيودور بصمتٍ طويل،
ثم قال ببطءٍ:
"إذًا فلننتظر خطاها القادمة.

⚜️ الفصل الثاني عشر – شهود الأوس⚜️

كانت قاعة البحيرات تغرق في صمتٍ غريبٍ كأن الجدران تسمع.
لهب المشاعل يرتجف، ورائحة الحديد والرماد تتسلّل مع الريح القادمة من الشرق.
جلس الجميع حول الطاولة الطويلة:
ثيودور، أنطونيوس، يوهان، كريس، وإلى الطرف جلس تروفان،
ملابسه ممزقة، عيونه غائرة، وصوته مبحوح كمن خرج من فم الجحيم.

قال ثيودور بصوتٍ ثابت:

"تحدث يا تروفان... احكِ ما رأيت في الأوس، من البداية."

تنفس تروفان ببطء،
يده ترتجف وهو يمسح الدم الجاف على ذراعه،
ثم قال بصوتٍ خافتٍ كأنّه يحكي حلمًا ثقيلًا:

"بدأ كل شيء قبل الفجر.
رأينا أسرى من أهل الأوس يُساقون نحو بوابة الدير...
كانوا عُراة، مقيدين، يسيرون بصمتٍ كأنهم يودّعون الأرض.
لم نعرف أنهم طُعم.
فتحنا الأبواب لننقذهم،
لكن السماء فتحت قبلنا...
مطرٌ من السهام الحديدية نزل فوقنا كالعاصفة.
سقط الرجال، وسقطت النساء...
لم ينجُ أحد إلا من أراد لهم القائد أن ينجوا."

توقّف لحظة، نظر إلى ثيودور مباشرة وقال:

"ذلك القائد... لم يكن أوغسطين، ولم يكن بشرًا بالكامل.
نصف وجهه كان من نارٍ مطفأة، والنصف الآخر حديدٌ قاتم.
صوته حين أمر بإطلاق السهام جعل الجنود يسقطون راكعين.
ظننا أنه رسول اللعنة نفسها."

تحرّك الكفيف ببطء وقال بصوتٍ مبحوحٍ:

"ذلك الوجه... هل رأيته من قبل؟"

أجاب تروفان وهو يهز رأسه:

"لا... لكن حين نزل أوغسطين من العربة،
لم يكن هو أيضًا كما عرفناه.
كان صامتًا، شاحبًا،
عيناه زجاجيتان لا تنظران إلى أحد،
ومجرد ظلٍّ للجسد الذي كان يومًا أنبا.
دخل القاعة الكبرى وحده،
ومعه حارس واحد،
وأمر القائد — ذلك الممسوخ — بإغلاق الأبواب خلفه."

ساد صمتٌ ثقيل.
أنطونيوس شبك يديه وقال ببطءٍ متوتر:

"إذا لم يكن أوغسطين هو من يقود... فمن هذا الذي يحرّك جيشه؟"

تقدّم يوهان خطوة للأمام،
لكن قبل أن يتكلم،
دوّى من فوق القاعة صوتٌ اخترق الصمت،
صرخة حادّة كأنها طُعنة في السماء.

الطائر هبط من بين النوافذ،
دخان جناحيه يملأ المكان،
استقرّ على كتف ثيودور بعنفٍ،
ريشه واقف، وعيناه تحدّقان مباشرة في وجه يوهان.

تبادل الاثنان النظرات...
لا كلمة خرجت،
لكن في تلك النظرة فقط،
كانت الحقيقة قد وُلدت في صمتٍ مفزع:

"الذي عاد... لم يكن أنبا

🔥 الفصل الثالث عشر: بين النار والظلال

خرجت مجموعة تروفان أولًا، مع بزوغ أول خيطٍ من الفجر.
كانت الريح باردة كأنها تجرّ خلفها رائحة الموت من وادي الأوس.
انطلقت خيولهم الثلاثة في طريقٍ وعرٍ نحو الشرق،
تحمل الرسالة التي ستُغيّر مصير الكنيسة الأم.
لم يلتفت تروفان إلى الوراء،
لكن في داخله كان يسمع صدى الصرخات التي تركها خلفه.

وبعدها بلحظاتٍ فقط،
تحرّكت مجموعة يوهان — كشافان من أهدأ رجاله.
دخلا أرض الظلال بخفةٍ كأنهما ظلّان آخران.
كانت القرى الأربع كأفواهٍ مفتوحةٍ بلا أصوات،
الرماد يغطي النوافذ، والجدران تحكي ما لم يكتبه أحد.
وفي قرية الأوس... رأيا ما لا يمكن نسيانه.

البيوت محترقة،
الطرقات مليئةٌ بأجسادٍ نصفها ممزّق، والنصف الآخر بلا رؤوس.
الدماء جفّت على الحجارة كأنها خُطوط صلاةٍ فاشلة.
حتى الهواء كان يحمل طعم الحديد.

قال أحد الكشافين وهو يهمس لرفيقه:

"لم يفعل هذا بشر... لا حرب تصنع وجوهًا بهذا الشكل."

وفي البعيد،
شاهدوا صفوفًا من الجنود تتحرك في صمتٍ تام.
دروعٌ سوداء تمتصّ الضوء،
خوذٌ تعلوها خطوطٌ فضيّة تلمع كالبرق،
وأقنعةٌ لا يظهر منها سوى العيون...
عيون لا تنتمي لأي عقيدةٍ أو رحمة.
جيشٌ من الخارج، بلا إيمانٍ ولا راية.
كأن الظلال أنجبتهم من رحم الرماد.

تراجع الكشافان، يختبئان خلف صخرةٍ مشققة،
واحدٌ منهم قال بصوتٍ متقطع:

"إنهم ليسوا من رجال الكنيسة... ولا من جيش المشرق... هؤلاء جيش رجلٍ آخر."

وحين همّا بالعودة لإبلاغ يوهان،
سمعا في الريح صرخةً خافتةً ترددت بين الصخور،
صوتًا خشنًا، بعيدًا، يقول:

"كل شيء يبدأ بالصمت..."

تجمّد الدم في عروقهما.
عرفا في تلك اللحظة أن الرجل ذو الوجهين —
لم يكن وهمًا كما ظنّوا.

⊡

في الجهة الأخرى،
كان أنطونيوس ينتظر خارج حدود الوادي،
جالسًا على صخرةٍ عاليةٍ يراقب منها الأفق.
معه رجاله الأشداء،
عيونهم معلقة على إشارة الكشافين من بعيد.

قال أحدهم:

"سيدي، تأخّروا كثيرًا."

فأجابه أنطونيوس بصوتٍ حادٍّ:

"حين تتأخر الريح... فاعلم أن الموت هو من يهبّ مكانها."

▫

تلك الليلة،
لم تنم البحيرات،
ولم تنم الكنيسة الأم.
كلٌّ ينتظر خبرًا —
بين من أُرسل لينقذ، ومن عاد ليحرق

صرخة المشرق

كانت البحيرات ساكنة على غير عادتها.
الريح تمرّ على سطح الماء بلا صوت،
وكأنها تخشى أن توقظ شيئًا ينام تحتها منذ قرون.

في تلك الليلة، صدرت الأوامر من مجلس البحيرات مباشرة:
التحرّك نحو المشرق.
أنطونيوس قائد الحملة،
إلى جانبه ثيودور، والكفيف، ويوهان الذي عاد أخيرًا بعد علاجه في الكنيسة الأم.

وقف يوهان أمام خريطةٍ واسعةٍ علّقوها على جدار القاعة الحجرية،
عيناه تدوران بين الخطوط والرموز القديمة،
ثم قال بصوتٍ منخفض لكنه واضح:

"لن ننتظر أن تأتي الظلال إلينا...
سنذهب نحن إليها هذه المرّة."

أومأ أنطونيوس برأسه، بينما كان الكفيف يلمس أطراف الطاولة بيده،
يتتبع بعصاه مسار الرحلة الطويلة.
أما ثيودور، فكان صامتًا كعادته،
يمسك راية البحيرات بيده اليمنى،
ينظر إلى نافذة القاعة،
حيث طائر الحِدأة كان يحوم ببطء، يراقبهم من بعيد.

▫

في الصباح التالي،
غادروا على عربتين صغيرتين تتقدمهما خيول المشرق،
والجنود يرفعون شعارات الكنيسة القديمة.
رومان ودّعهم عند البوابة،
وقال لأنطونيوس وهو يربط حزامه:

""إن لم تعودوا خلال اسبوعين سآتى لكم"
ابتسم أنطونيوس، ولم يرد.

الطريق إلى المشرق كان طويلاً،
يمرّ بين الجبال السوداء والسهول الميتة،
حيث لا يُسمع إلا صدى حوافر الخيل
ونعيق الغربان التي تتبعهم من بعيد.

⊡

في تلك الأثناء،
كان الكشافان يزحفان عبر الوادي الغربي،
جسدهما ممزّق وملابسهما مشتعلة بالرماد.
هربا من رجال القائد المقنّع بعد مطاردةٍ طويلة.
لم يتبقَّ معهما سوى قطعة قماشٍ ممزّقة
عليها شعار الأنبا المحروق،
يحملانها كدليلٍ على ما رأوه.

حين لاحت أسوار المشرق في الأفق،
انهار أحدهما على الأرض وهو يلهث:

"وصلنا... قولوا ليوهان... أن الظلال عادت تمشي فوق الأرض."

أسرع الحرس لرفعهما،
ودخلا إلى المقرّ المركزي حيث كان يوهان وأنطونيوس ورفاقهما قد وصلوا لتوّهم.
تبادل الجميع النظرات،
الصمت خنق المكان قبل أن يتكلم أحد.

رفع أحد الكشافين رأسه بصعوبة،
وقال بصوتٍ متكسّر:

"جيش... لا يشبه جيوش البشر...
قائد بنصف وجهٍ من حديد...
والنصف الآخر ندوبٌ كأنها خريطةُ جحيم."

تجمّد الجميع.
تقدّم ثيودور خطوةً واحدة،
نظره اتجه نحو النافذة العالية،
حيث كانت الحِدَأة تحوم وتصرخ بصوتٍ حادٍّ
ثم تهبط فجأة على كتف يوهان،
تنظر إليه مباشرةً بعينٍ واحدةٍ ذهبيةٍ كأنها تعرف.

في تلك اللحظة فقط،
ارتعش قلب يوهان —
وشعر أن شكوكه كانت صحيحة...
لكن الوقت لم يحن ليقولها بعد.

⊡

انتهى اليوم بصمتٍ ثقيلٍ كحجرٍ على صدر السماء.
ومن بعيد، كانت أجراس الكنيسة الأم تدقّ،
كأنها تودّع عصرًا وتستقبل آخر...
عصر النار والظلال

🔥 الفصل الرابع عشر: مرسول الرماد

كانت المدينة المقدسة مغطاة بضبابٍ رماديٍ كثيف،
صوت الأجراس يُقرَع ببطء كأنّه قلبٌ يئنّ من ثقل الذنوب.
عند بوابة الكنيسة الأم توقّف اربعه خيولٍ مُنهكة،
عليها رجال رسل من البحيرات معهم رجلٌ بعينين أطفأهما الطريق الطويل — تروفان.

ترجّل ببطء، سحب الرسالة من تحت معصمه

كانت مختومة بشعار البحيرات: شمس تشرق بالبحيره الزرقاء .
الحرّاس فتحوا البوابة بصمتٍ،
فلم يكن في وجهه ما يدعوهم للسؤال،
فقد كان وجهًا عاد من الموت، لا من سفر.

دخل تروفان إلى قاعة الأنبا الكبرى،
الشموع تذوب ببطءٍ أمام المذبح،
ورائحة البخور تغطي الهواء كأنها تخفي شيئًا فاسدًا تحته.

جلس الأنبا العجوز على مقعده العالي،
عيناه نصف مغلقتين، وصوته مبحوح من الغضب قبل أن يتكلم.

مدّ تروفان الرسالة بصمت،
يده ترتجف لا من الخوف، بل من الغضب المكبوت.
قرأ الأنبا السطور ببطءٍ،
وفي كل كلمةٍ كانت عضلات وجهه تشتد أكثر فأكثر:

"مجلس النار سقط،
والمشرق والبحيرات يتحركان وحدهما،
والرجل ذو الوجهين يقود جيشًا لا يُشبه البشر."

رمى الورقة على الطاولة،
وضرب بيده على الذراع الخشبيّ لمقعده حتى ارتجّ الصليب المعلّق خلفه.

"كفى عبثًا!"
صوته دوّى في القاعة كالرعد.
"لو أن البحيرات والمشرق أطاعا المجلس كما أمرنا،
ما كان للرماد أن يعود من ظلاله!
الآن... فليتحمّلوا عاقبة عصيانهم."

اقترب منه أحد الكهنة المرتعبين وقال:
"سيدنا، ما الذي تأمر به الآن؟"

أجابه الأنبا وهو ينهض ببطء،
ظله يبتلع ضوء الشموع من خلفه:

"لن نرسل جيوشنا بعد اليوم.
دعوهم يواجهون ما صنعوه بأيديهم.
من أراد أن يكون مستقلاً، فليحارب وحده."

ثم نظر إلى تروفان،
عيناه تحدّقان فيه ببرودٍ كأنّهما تنظران إلى شاهد قبرٍ لا إلى رسول.

"ارجع إليهم بهذه الكلمات،
وقُل لهم:
الكنيسة الأم لا ترسل المدد إلا لمن بقي من أبنائها،
وأنا لا أرى فيهم إلا رمادًا."

تجمّد تروفان في مكانه.
حاول أن يتكلم، أن يصرخ، أن يشرح ما رآه من جحيم،
لكن صوته لم يخرج.

اكتفى بأن ينحني برأسه،
خرج ببطءٍ من القاعة،
وفي عينيه لمعةُ يقينٍ بأن النار التي في الشرق...
لن تبقى هناك طويلًا.

بين الرماد والخوف

القاعة الحجرية غارقة في صمتٍ ثقيل.
الهواء بارد، يزحف من تحت الأبواب مثل أنفاسٍ قديمة،
والخرائط المعلّقة على الجدران تتحرّك قليلًا مع خفقات النار في المصابيح.

جلسوا جميعًا حول الطاولة الكبيرة:
أنطونيوس، ثيودور، الكفيف، كريس، ويوهان.
كل واحدٍ منهم يحمل في ملامحه أثر الرحلة الطويلة، والقلق من القادم.

على الطاولة خريطة دير الظلال،
نقوشها القديمة محفورة بخطوطٍ دقيقةٍ متداخلة كأنها شبكة عنكبوت.
وفي المنتصف، رمز أسود غامض يشبه عينًا مغلقة.

كان يوهان هو من كسر الصمت:
"الكشافان قالا إن الجنود لا يتكلمون، لا يتحركون كالبشر.
قائدهم نصف وجهه محروق... النصف الآخر مقنّع.
أقسم أني رأيت وجهًا كهذا من قبل... لكني لا أتذكر أين."

سرت همهمة خفيفة في القاعة،
أنطونيوس وضع كفّه على الطاولة وقال بحدة:
"من يكون أو لا يكون، لا يهم الآن. المهم أن نعرف طريق الدخول."

رفع الكفيف رأسه ببطء،
وقال بصوتٍ متقطّعٍ يشبه الحفر في الحجر:
"كان هناك ممرّ قديم... طريق للنسّاك قبل إغلاق البوابة الكبرى...
إن بقي كما كان، فهو مدخلنا الوحيد."

مدّ يده نحو الخريطة، يلمس بأصابعه خطوطها،
فجأة، ارتجفت المخطوطة الموضوعة بجانبهم،
وتحوّل أحد رموزها إلى ضوءٍ باهتٍ أحمر، يتحرّك على الورق كأنه ينبض.

اقترب ثيودور، عيونه تتابع الرمز،
ثم قال بصوتٍ خافتٍ كأنه يخشى أن يسمعه أحد:
"الطريق قَفَل... الرمز أقفله."

تجمّد الجميع في أماكنهم.
حتى اللهب على الجدران بدا كأنه انكمش خوفًا.

قال يوهان:
"هذا ليس مجرّد تحذير... هذا لعنة.
المخطوطة لا تظهر الرموز عبثًا."

وقف أنطونيوس فجأة، قبضته تضرب على الطاولة بقوة:
"كفى! لن نؤمن بالخرافات.
ثيودور، كريس، معي في الممر.
يوهان... أنت تبقى هنا مع الكفيف . لا أريد أن أخسرك مرتين."

اعترض يوهان بخطوةٍ للأمام:
"لكنّي أعرف طبيعة الأرض هناك، أستطيع—"

قاطعه أنطونيوس بنظرةٍ حادةٍ كالسيف:
"أنت تبقى خارج الظلال.
لو فشلنا، ستكون أنت اليد التي تُغلق الباب نهائيًا."

سكت الجميع.
القلق في العيون أثقل من الحديد،
وصوت الريح خلف النوافذ صار يشبه نحيبًا بعيدًا.

ثيودور نظر إلى المخطوطة مجددًا،
الرمز الأحمر ما زال يومض ثم يخبو ببطء،
كأنه قلب أرضٍ تنبض بإنذارٍ غامض.

وفي الخارج، كان الطائر يحوم بصمتٍ فوق القاعة،
ينظر إلى الأفق حيث الظلال تتكثّف،
كأن العالم كله يستعدّ لأن يبتلع نفسه مرةً أخرى

خارج القاعة، كان الليل يزداد ثِقلاً،
كأن السماء تضع ركبتيها فوق الأرض.

الطائر ما زال يحوم، جناحاه يقطعان الهواء ببطءٍ مخيف،
وفي كل دورةٍ له، كانت الظلال تتراجع خطوة... ثم تعود أقرب من قبل.

في الداخل، انطفأت نصف الشموع دون سبب.
ارتجفت النار فوق الباقي منها، فانعكس وهجها على وجه ثيودور،
الذي بقي واقفًا أمام المخطوطة، يحدّق في الرمز الأحمر الذي ما زال ينبض،
حتى خُيّل إليه أن النبض صار يسمعه لا يراه.

همس الكفيف من الخلف، كمن يرى ما لا يُرى:
"إن الأرض تتنفس... والممر استيقظ."

لم يجب أحد.
أنطونيوس أغلق خوذته بإحكامٍ، وصوته خرج مكتومًا من خلف الحديد:
"لننتظر الفجر. ندخل مع أول خيطٍ من الضوء."

أومأ كريس بصمت، بينما بقي ثيودور ينظر إلى النافذة حيث ينعكس ضوء الشموع على جناح الطائر.

الريح صفّرت في الخارج بصوتٍ طويل،
يشبه أنين بابٍ يُفتح في مقبرةٍ قديمة.
وفي تلك اللحظة، دوّت في الأفق صرخةٌ واحدة، لا يُعرَف إن كانت لبشرٍ أو لشيءٍ آخر.

رفع يوهان رأسه ببطء،
وقال بصوتٍ خافتٍ كأنه يُحدّث نفسه:
"بدأ الصمت... وها نحن داخله."

سكت الجميع.
حتى الطائر توقف عن التحليق، ووقف على البرج الحجريّ يطوي جناحيه،
كأنّه ينتظر موعدًا يعرفه هو وحده.

ومن بعيدٍ جدًا،
تسلّل إلى آذانهم صوتٌ واحدٌ غريب،
كأنه قادم من أعماق الأرض —
صوت دقّةٍ معدنيةٍ متكرّرة،
تشبه نبض قلبٍ من حديد...
قلبٍ يستعدّ لأن يُفتح من جديد

كانت الأنفاس في القاعة أثقل من الحديد.
لا أحد تجرّأ على الكلام.
أنطونيوس وضع يده على سيفه، وأشار إلى كريس وثيودور أن يتحركا.
صوت خطواتهم على الحجارة كان كوقع المطر على قبرٍ قديم،
يتردّد صداه بين الجدران كأنّ المكان نفسه يتذكّرهم.

فتحوا الباب الحجريّ المؤدّي إلى الممر.
تيارٌ من هواءٍ باردٍ انساب إلى الداخل،
يحمل معه رائحةً تشبه الرماد المبتلّ بالدم.
ارتجفت المشاعل على الجدران،
ورسمت ظلال الرجال الثلاثة طويلةً كأنها ممدودة إلى جوف الأرض.

قال أنطونيوس بصوتٍ خافت:
"من هذه اللحظة، لا صوت... ولا تراجع."

تقدّم أولاً،
يتبعه كريس، ثم ثيودور الذي أغلق الباب خلفهم ببطءٍ.
مع آخر انغلاقٍ للحجر، سمع يوهان في الخارج صوتًا غريبًا،
كأن الممر قد ابتلعهم وبدأ يبلع نفسه أيضًا.

الممر كان ضيقًا في بدايته،
ثم بدأ يتسع تدريجيًا، جدرانه مغطاة بنقوشٍ سوداء لم يروا مثلها من قبل.
الضوء الخافت من المشاعل انعكس على النقوش،
فبدت وكأنها تتحرك، تتلوّى، وتراقبهم.

كريس تمتم بصوتٍ بالكاد يُسمع:
"كأننا نمشي في بطن شيءٍ حيّ."

لم يرد أحد.
صوت أنفاسهم هو الصوت الوحيد الباقي،
حتى تسلّل من أعماق الممر صوتٌ آخر... همسٌ بعيد... يشبه ترديد كلمات صلاةٍ مقلوبة.

توقف أنطونيوس لحظة،
رفع يده إشارةً للصمت التام،
ثم نظر إلى ثيودور، وقال بصوتٍ خافتٍ كأنّه يخرج من جوف الحديد:

"الطريق بدأ يتكلم.

🔥 الفصل الخامس عشر: صوت الممر

الممرّ يضيق كلما تقدموا خطوة.
الهواء ثقيل، كأنهم يمشون في صدر جبلٍ يحتضر.
صوت أنفاسهم يتردد حولهم كأنه ليس لهم،
وصوت آخر... خافت، بعيد، يهمس من بين الجدران،
كأنه نَفَس شيءٍ مدفون منذ قرون.

أنطونيوس رفع يده، فتوقّف الجميع.
أشار إلى رجاله في المقدّمة أن يتقدّموا،
دروعهم تلمع بخفوتٍ، يختبئون خلفها كأنها جلود جديدة للنجاة.
قال بصوتٍ منخفض لكنه ثابت:
"أنتم أول السطر، لا تطلقوا سيفًا إلا بعد الأمر.
أي ظلّ يتحرك أمامكم... لا تقتربوا منه."

تقدّم كريس بجانبه، يمسك سيفه بيدٍ واحدة،
والأخرى تضيء المشعل الذي بدأ لهبه يترنّح مع كل نسمةٍ باردة.
ثيودور كان في المؤخرة،
يتحرك بصمتٍ مطلق، عيونه تراقب الظلال التي تتبعهم من بعيد.
كان يعلم أنه ليس وحيدًا...
شيءٌ ما كان يسير خلفه، ببطءٍ، دون صوت.

الأرض تغيّرت تحت أقدامهم.
لم تعد حجارةً صلبة، بل رطبة كأنها تشرب دمًا قديمًا.
وكلما ابتعدوا أكثر، ازدادت الأصوات وضوحًا:
أنينٌ، صرير سلاسل،
وكأن الجدران نفسها تتنفس.

عند أول منعطفٍ ضيّق، توقّف كريس فجأة،
المشعل في يده ألقى ضوءه على الجدار الأيمن،
فتراجع خطوة إلى الوراء.
ظهرت أمامهم زنزانةٌ صغيرة، بابها نصف مفتوح.
ومن الداخل...
هيكلٌ عظميٌّ مقيّد من اليدين والرجلين للخلف،
الرأس مائل إلى الجانب، كأن صاحبه ما زال ينتظر أحدًا يفكّه.

قال أنطونيوس بصوتٍ أجشّ:
"تابعوا السير، لا تقتربوا."

لكنهم لم يخطوا أكثر من ثلاث خطوات،
حتى ظهرت الزنازين الأخرى، صفوفٌ على اليمين واليسار،
كلّ منها تحمل مشهدًا أسوأ من الذي قبله.
أجسادٌ مصلوبة على الحجارة،
وأخرى ملقاة داخل القضبان، متعفّنة نصفها لحمٌ ونصفها عظم،
حتى بدا الممرّ كأنه مقبرةٌ مفتوحة لا نهاية لها.

كريس غمغم بصوتٍ متقطع:
"كم عامًا مضى منذ أُغلق هذا المكان؟"

ردّ أنطونيوس ببرودٍ وهو يمسح عرقه من تحت الخوذة:
"يكفي أنه لم يفتح من أجل البشر."

صوت آخر خرج من الجدار، أقرب هذه المرة،
همهمةٌ بلغةٍ غريبة، كأن الممر نفسه يتحدث.
تبادل الرجال النظرات،
وثيودور في الخلف أحسّ ببرودةٍ تخترق عظامه،
التفت خلفه بسرعة...
لكن الممر كان فارغًا تمامًا.
فارغًا... إلا من نفسٍ قصيرٍ يمر بجانبه،
صوت تنفّسٍ ليس له،
وصدى خطواتٍ تأتي من جهةٍ لا يعرفها أحد.

رفع أنطونيوس مشعله قليلًا، وقال بصوتٍ خافت:
"اسمعوا جيدًا... الممرّ له صوت،
ومن يسمع صوته كاملًا... لا يعود."

🔥 ما قبل البوابة

خرجوا من الممر كأنهم يخرجون من بطن كابوس.
هواء بارد ضرب وجوههم،
لكنّه لم يكن هواءً نقيًّا... كان كريحٍ خرجت من قبرٍ مفتوح.

وقف أنطونيوس في أول القاعة الحجرية،
نظره يتجوّل في الظلام الذي لا ينتهي.
لم يكن هناك سوى أعمدةٍ عاليةٍ تتآكل أطرافها،
وشعلةٌ واحدةٌ تترنّح في آخر الممر،
تضيء لحظة... وتختفي لحظتين.

قال كريس بصوتٍ مبحوحٍ:
"كأن المكان مات منذ قرون."

لم يرد أحد.
حتى أنفاسهم أصبحت ثقيلة لدرجةٍ يسمعونها بأذانهم.
كل خطوةٍ تُحدث صدى،
والصدى يعود إليهم مشوّهًا، كأن أحدًا يكررها خلفهم بنبرةٍ أخرى.

ثيودور كان في المؤخرة،
يخطو ببطءٍ، عيونه تمسح الأرض.
كان يشعر بشيءٍ يراقبهم من بين الأعمدة،
لكن لا حركة، لا نفس، لا ظلّ سوى ظلّهم هم.

تقدّم أنطونيوس إلى وسط القاعة،
رفع يده، أشار إلى كريس:
"ثبّت الشعلة على العمود، نحتاج نورًا قبل أن نكمل."

اقترب كريس، غرز الشعلة في شقّ الحجر،
وانتشر ضوءها الخافت على الجدران،
فكشف عن نقوشٍ باهتةٍ غريبةٍ:
وجوهٌ منحوتة بلا عيون،
وأجسادٌ تخرج من الأرض وتمدّ أيديها نحو السماء.

تراجع ثيودور خطوةً للخلف،
شعر أن الأرض تحت قدمه تتحرك قليلًا... كأنها تتنفس.
ثم جاء صوتٌ خافت من الأعلى —
طنينٌ خفيفٌ يشبه أنينًا طويلًا،
يتبعه صوت شيءٍ يسقط من العلو،
فيصطدم بالأرض أمامهم،
قطعة قماشٍ سوداء، تغطي شيئًا لم يتح له الوقت ليراه جيدًا.

كريس رفع الشعلة نحوه ببطء،
لكن اللهب تراجع فجأة،
كأن الهواء نفسه رفض أن يضيء أكثر.

قال أنطونيوس بهدوءٍ شديد،
والصوت يخرج من خلف خوذته كهمسٍ معدنيٍّ مرعب:
"اقتربنا من البوابة..."

لم يكمل.
الريح انطلقت فجأة داخل القاعة،
أطفأت الشعلة، وأظلم المكان تمامًا.

في تلك الظلمة، سمعوا جميعًا نفس الصوت...
صوت بابٍ ضخمٍ يُفتح في مكانٍ قريب،
وصوت آخر... خطواتٍ بطيئة، ثقيلة،
تأتي من جهة البوابة،
خطوة... تلو الأخرى،
تقترب.

همس ثيودور بصوتٍ يكاد لا يُسمع:
"الظلال... استيقظت.

تقدّم أنطونيوس بخطواتٍ حذرة،
عيناه لا تتركان الظلام الذي يبتلع الدير من الداخل.
أشار لكريس أن يُطفئ نصف المشاعل،
فأصبحت النار المرتعشة كأنها تتنفس من الخوف.

قال بصوتٍ خافت:
"نتحرك من الممر الغربي... هناك الممر الخلفي المؤدي إلى الساحة الداخلية.
تروفان وصفه بدقة... وأنا أعرفه أكثر منه."

نظر إليه كريس باستغراب:
"تعرف هذا المكان؟"

ردّ أنطونيوس وهو يسير دون أن يلتفت:
"كنت جنديًّا هنا... تحت يد القائد الصامت.
وقتها كان الدير لا يشبه ما نراه الآن...
كنا نصلّي في النهار، ونقاتل في الليل."

تقدّموا داخل الممر الطويل،
جدرانه كانت رطبة كأنها تتنفس بخار الموت،
وأصوات قطرات الماء تتساقط من السقف كعدٍّ زمنيٍّ لنهايةٍ قادمة.

في كل خطوة، كانت العيون تلتفت يمنةً ويسرة،
كأن الظلال تتحرك معهم.
الهواء أثقل، والرائحة خانقة —
خليط من صدأٍ قديمٍ وعفنٍ بشريٍّ لا يُنسى.

وفجأة، توقّف كريس.
أشار بيده إلى جدارٍ منخفضٍ على يمين الممر.
كانت هناك سلسلة صدئة متصلة ببابٍ حديديٍّ صغير.

سحبها ببطءٍ،
فانفتح الباب كفمٍ منسيٍّ لسرٍّ لم يُرد أحد أن يُفتح.

ما رأوه بعده... لم يكن مما يُرى.

صفوف من الزنازين القديمة،
كل بابٍ منها مفتوحٌ على ظلامٍ أعمق من الليل نفسه.
على الأرض،
هياكل عظميّة مقيدة من الأيدي والأرجل للخلف،
وأخرى مصلوبة داخل الزنازين،
وجماجم بأفواهٍ مفتوحةٍ كأنها تصرخ حتى بعد أن ماتت.

تقدّم أنطونيوس ببطءٍ،
صوت خطواته على الحجر يُدوّي كنبضاتٍ ثقيلةٍ في صدر المكان.

قال كريس وهو يحدّق في الجدران:
"كم من الأعوام مرّت على هذا المكان؟"

أجابه أنطونيوس بصوتٍ خافتٍ متماسك:
"منذ بدايه عهد أوغسطين... هذا كان سجن الرهبان العصاة."

توقف ثيودور، عيناه على نقشٍ محفورٍ في الحائط:
رمز الصليب المائل إلى اليمين... شعار الأنبا.

قال هامسًا:
"لم يكن سجناً فقط... هذا كان أصل جيش الظلال."

ساد الصمت،
حتى اللهب في الشعلة بدا كأنه خائف من أن يسمع.

ثم أشار أنطونيوس إلى الممر الجانبيّ الأضيق:
"من هنا الطريق إلى القاعة الداخلية... خلف الجدار الحجريّ."

تحرّكوا بحذر،
أيديهم على مقابض السيوف،
الهواء صار أثقل، والظلال تلتف حولهم كالدخان

🔥 الفصل السادس عشر – فخ الظلال

الهواء خلف الممر صار أثقل.
لم يعد في المكان سوى وقع الخطوات الحديدية ورائحة الحجارة القديمة.
تحرّك رجال أنطونيوس أولاً، متخفّين بدروعهم، أعينهم تراقب كل زاوية.
وراءهم أنطونيوس نفسه يسير بثبات، وبجانبه كريس يحمل الشعلة،
أما ثيودور فكان في المؤخرة، يغطّي ظهورهم بصمتٍ مريب.

أشار أنطونيوس بيده، وقال بصوتٍ خافت:
"احذروا، الممر ينتهي عند البوابة الغربية... من بعدها يبدأ الصمت الحقيقي."

تقدّموا ببطء حتى ظهرت أمامهم بوابة حجرية ضخمة،
أقفالها الصدئة متآكلة، والرماد عالق على أطرافها.
فتحها أنطونيوس بحركةٍ بطيئة،
صرير الحديد ارتدّ في الممر كأن الجدران تصرخ.

عبروا جميعًا،
الداخل مظلم... لا يُرى شيء سوى ضوءٍ خافتٍ يتسلّل من نافذةٍ عاليةٍ في الجدار المقابل.
الهواء ساكن، والسكوت كأنه جدارٌ من خوف.

قال أنطونيوس بصوتٍ منخفض:
"تروفان قال إنهم هنا... الرهبان والعمال، في هذه القاعة."

تحرّكوا بحذر،
عيونهم تتلمّس المكان، والسيوف نصف مرفوعة،
لكن لا أثر لحياة،
لا أصوات، لا أنين... لا شيء سوى الغبار ورائحة الموت القديمة.

ثم سقط ضوء القمر من النافذة على ظلّ كرسيٍّ حجريٍّ في منتصف القاعة.
على الكرسي جلس رجلٌ باردٌ، جامدٌ، لا يتحرك.
وجهه إلى الشباك، كأنه كان ينتظر الضوء نفسه.

رفع كريس الشعلة أكثر...
الضوء ارتدّ على وجه الرجل،
فتراجع الجميع خطوةً واحدة.

همس أنطونيوس بذهولٍ:
"أوغسطين..."

ببطء، التفت الجسد نحوهم،
عينا الأنبا الغائرتان انعكست فيهما نار الشعلة،
ثم خرج صوته المعدنيّ، البطيء، كأنه صدى من باطن الأرض:

"لقد تأخرتم... أيها القادمون من النور.

🔥 الفصل السابع عشر – كمين الظلال

كانت القاعة تغرق في ظلامٍ متقطّع،
الضوء الخافت المنبعث من الشعلات الصغيرة بالكاد يكشف الطريق.
كل خطوةٍ لأنطونيوس ورجاله كانت تُحدِث صدىً طويلًا يرتدّ في الجدران،
كأن المكان يتنفس خلفهم.

في المنتصف، جلس أوغسطين على الكرسي الحجري،
عيناه نصف مغلقتين، ووجهه ثابت بلا انفعال،

لكن كل من رآه شعر أن الظلال تدور حوله كما يدور الدخان حول النار.

تقدّم أنطونيوس أولًا،
سيفه مرفوع، وصوته منخفض لكنه حازم:
"أنبا أوغسطين، أين الرهبان؟ قيل إنهم محتجزون هنا."

لم يتحرك أوغسطين في البداية،
ثم رفع رأسه ببطءٍ وثقةٍ غريبة،
صوته خرج ثابتًا كأنه يُلقي صلاةً قديمة:
"ليس هنا سوى اللعنة... أما من تبحثون عنهم، فقد صاروا جزءًا منها."

ساد الصمت.
كريس وضع يده على مقبض سيفه،
لكن ثيودور رفع يده بخفةٍ يمنعه من التقدّم.
الظلام حول الكرسي كان أكثر كثافةً من أي ركنٍ في القاعة،
كأن النور يخشى الاقتراب منه.

قال أنطونيوس:
"إن كنت تحاول إخافتنا، فلن تنجح.
جئنا نستعيد إخوتنا ونُنهي ما بدأته أنت."

ابتسم أوغسطين بهدوءٍ،
لكنها لم تكن ابتسامة سخرية — كانت ابتسامة من يعرف النتيجة مسبقًا.
قال بصوتٍ منخفضٍ لكنه مملوءٌ باليقين:
"ما بدأته أنا... لن يُنهيه بشر."

اقترب ثيودور خطوةً للأمام،
عيونه معلّقة بوجه أوغسطين، كأنه يحاول أن يفهم ما وراء الكلمات.
حينها، رفع الأنبا نظره إليه مباشرةً،
وصمت الجميع للحظة.
كان في تلك النظرة شيء لا يُحتمل...
نظرة من يعرفه، من زمنٍ لم يُكتب بعد.

قال أوغسطين ببطءٍ شديدٍ كأن كل حرفٍ يحمل وزنًا من الحديد:
"أنت من أيقظت اللعنة... ورفضت أن أنهيها أنا."

تجمّد ثيودور،
عيناه اتسعتا للحظة، وكأنه فهم شيئًا خفيًا في تلك الجملة،
لكن قبل أن يتكلم، ارتجفت الأرض تحت أقدامهم اهتزازًا خفيفًا،
وتساقطت ذرات غبارٍ من السقف.

رفع أنطونيوس رأسه نحو الأعلى وقال بسرعة:
"تراجعوا للخلف! هناك حركة في الممرات!"

لكن أوغسطين ظلّ جالسًا،
عيناه أُغلقتا كمن عاد إلى سباته،
وهمس بصوتٍ خافتٍ يكاد لا يُسمع:
"لقد بدأ الطريق يُفتح من جديد..."

وانطفأت إحدى الشعلات.
ثم الثانية.
ثم ساد ظلامٌ تامّ

خرج أنطونيوس ورجاله من القاعة ببطءٍ وحذر،
خطواتهم تُحدث صدى مكتومًا في الممر الحجري الطويل،
وكأن الجدران تحفظ أنفاسهم لتسلمها لمن ينتظر بالخارج.
كانت عيونهم ما تزال تلتفت للخلف، نحو باب القاعة المغلق،
حيث تركوا أوغسطين جالسًا في الظلام،
عيناه كأنهما لا تزالان تراقبهم من خلف الباب، حتى بعد أن أغلقوه.

قال كريس بصوتٍ منخفضٍ وهو يشد قبضته على السيف:
"هذا المكان ملعون، يا سيدي... علينا أن نغادر فورًا."
لكن أنطونيوس لم يرد، فقط أشار بيده إلى الأمام.

مرّوا عبر الممر الحجري حتى وصلوا إلى البوابة الغربية القديمة،
وبمجرد أن لامس أحد الجنود الباب ليدفعه —
تردّد صوت خطواتٍ ثقيلة من الخارج.
الريح التي كانت ساكنة صارت تهبّ من الشقوق بصوتٍ يشبه العواء،
ثم ارتفعت أضواء خافتة في الخارج... نارٌ تتحرك ببطءٍ في دوائر.

فتح الباب بحذر.
لكن ما رأوه جعلهم يتراجعون في لحظةٍ واحدة.

خارج البوابة،
اصطفّ عشرات الجنود ذوي الدروع السوداء،
خوذهم تخفي الوجوه، وعيونهم تلمع بلون الحديد البارد.
في المنتصف، فوق حصانه الأسود،
جلس رجلٌ نصف وجهه مغطى بقناعٍ معدنيٍ داكن،
والنصف الآخر تملؤه ندوبٌ ملتوية،
يتدلّى على كتفه سوارٌ فضيّ يلمع بضوء النار.

فان.

سقط الصمت على الجميع.
حتى أنفاس الجنود توقّفت،
كأن المكان كله جمد في لحظةٍ واحدة بين الحياة والموت.

تقدّم ثيودور ببطء،
عيناه لم تفارقا وجه فان،
وصوته خرج متماسكًا لكنه مليء بالغضب المكبوت:
"ظننا أنك متّ مع الرماد... لكن يبدو أن اللعنة لا تموت."

ابتسم فان، ابتسامة باردة بلا أثرٍ للفرح.
"لم أمُت، يا ثيودور...
كنت أتنفّس في الرماد حتى عاد العالم ليسمع صمتي من جديد."

رفع أنطونيوس سيفه بحدةٍ وقال:
"ماذا تريد، يا فان؟"

ردّ فان بثقةٍ مخيفة:
"أريد العدالة... بطريقتي."

تقدّم ثيودور خطوةً للأمام،
كأن كلماته تخرج من صدره نارًا:
"عدالتك؟ مات بسببك جنودٌ أوفياء،
وأُبيدت قرى المشرق بأكملها!
أنت ولّدت الرعب من رحم الكنيسة،
ودم الأبرياء ما زال على يديك."

ظل فان صامتًا للحظة،
ثم قال بصوتٍ منخفضٍ كأن كل كلمة منه تُقطع من داخله:
"كل ما مات... مات لأني تأخرت في الانتقام.
أوغسطين زرع اللعنة...
وأنا فقط أرويها."

أمسك أنطونيوس سيفه بقبضةٍ من حديد وقال:
"أنت اللعنة التي تحدث عنها أوغسطين، لا أكثر.
نهاية كل خراب تبدأ بوجهٍ يشبه وجهك."

ضحك فان بخفوتٍ، ضحكة قصيرة تشبه صفير الريح بين الحديد.
"بل أنا نهايتكم أنتم،
أنتم الذين سمحتم للنور أن ينام،
والظلال أن تحكم."

في تلك اللحظة،
رفع فان يده اليسرى،
وميضٌ فضيّ انطلق من سوار الحديد على معصمه،
وفي لمح البصر اشتعلت النار خلفه على شكل دائرةٍ ضخمة،
تحيط بالمكان وتغلق الممر خلف أنطونيوس ورجاله.

تراجع الجنود، واستلّ الجميع سيوفهم،
لكن ثيودور ظل واقفًا في المنتصف،
عيناه على فان، وصوته كأنه يخرج من بين رمادٍ قديم:
"إن كنت اللعنة... فنحن من سيختمها.

سحب أنطونيوس سيفه وأشار إلى رجاله بالتحرّك،
لكنّ الظلال سبقتهم.
ارتجّت الأرض تحت أقدامهم، وصوت الحديد يصطكّ من كل جانب.
من بين الأعمدة الحجرية خرجت جحافل سوداء،
دروعٌ ثقيلة، وأقنعةٌ لا تُظهر إلا عيونًا تلمع كالنار.

صرخ أحد الجنود:
"كم عددهم؟!"
لكن الردّ جاء بسيفٍ يخترق صدره قبل أن يُكمل كلماته.

انقضّت الجموع عليهم من كل اتجاه،
نيرانُ المشاعل تتراقص على الجدران،
ورائحة الدم تختلط برائحة الحديد المحترق.
كان أنطونيوس يقاتل في المقدّمة كسيفٍ من لهب،
وكريس بجانبه يحاول صدّ الهجوم المتدفّق.

لكن الأعداد كانت طاغية...
في كل مرة يسقط فيها جنديّ من الظلال، يظهر عشرةٌ غيره من الدخان.
صرخ ثيودور من الخلف، صوته يخترق الضجيج:
"أنطونيوس! المجازفة الآن موتٌ للجميع!"

التفت إليه أنطونيوس، أنفاسه تتقطّع:
"لن أتركهم يحيطون بنا!"

أمسكه ثيودور من ذراعه بقوة،
نظراته حادّة كحدّ السيف الذي يرفعه:
"أنظر حولك... كل من معنا سقط!
لو قاتلنا أكثر سنلحق بهم، هذا ليس نصرًا... بل فخ!"

تجمّد أنطونيوس لثوانٍ، فنظر لرجاله لم يبقى سوا عشره جنود . ثم خفَض سيفه ببطء.
صوت السيوف توقف، لتحلّ محله ضحكةٌ داكنةٌ خرجت من قلب الظلال.

تقدّم فان من بين جنوده،
النصف المقنّع من وجهه يعكس لهب المشاعل،
والنصف الآخر تغطيه الندوب كخرائط لجحيمٍ قديم.
صوته أجشّ، يجرّ خلفه ثقل الموت:
"ها قد عدنا إلى النقطة التي بدأنا منها يا أنطونيوس...
الفرق الوحيد أنكم أنتم هذه المرة في القفص."

لم يردّ أحد.
أشار فان بيده، فانهالوا عليهم بالقيود الحديدية،
يُسحبون واحدًا تلو الآخر عبر الممر الحجري،
حتى نزلوا إلى سراديب تحت الأرض — حيث لا يصل الضوء.

كانت الزنازين تمتدّ على الجانبين،
فيها هياكل عظمية مقيّدة،
وجثثٌ معلّقة بالسلاسل،
وأخرى متفحّمة كأنها لم تمت، بل احترقت وهي تصرخ.

في أقصى الممر، وداخل زنزانةٍ ضيقة،
رأوا جسدًا مُلقى على الأرض —
جيرموسون.

فتح عينيه بصعوبة حين شعر بهم،

ابتسامةٌ واهية تشقّ وجهه الشاحب:
"ظننتكم... تأخرتم قليلًا."

ركع ثيودور بجانبه بسرعة:
"أين الباقون؟ الرهبان؟ العمال؟"

أجابه بصوتٍ مبحوحٍ كأنّه يخرج من جوف القبر:
"ماتوا جميعًا... كلّهم.
أنا واثنان فقط بقينا بين الحياة والموت.
إنهم لم يقتلوا أجسادنا فقط... بل أرواحنا."

انحنى أنطونيوس، يحدّق في الأرض:
"كانوا يعرفون أننا سنأتي."

هزّ ثيودور رأسه ببطء،
وصوته يغلي بالغضب:
"أوغسطين... كان يعرف، بل كان ينتظرنا.
لكنه ليس حرًّا كما تظن، شيءٌ بداخله... يُمسك به."

تبدّل وجه أنطونيوس،
وقال بحدة:
"إذن فان لم يأتِ ليقاتلنا فقط... بل ليُغلق الطريق أمامنا."

⊡

وفي الخارج، عند فوهة الممر،
كان يوهان واقفًا بجانب الكفيف،
القلق يأكل وجهه وهو ينظر نحو الظلام.

وفجأة، شقّ الصمت صرخةٌ حادّة —
صرخة طائر الحِدأة.
هبطت من السماء كرمحٍ من نار،
استقرّت على حجر الممرّ، تضرب جناحيها بعنف.

قال الكفيف بصوتٍ مرتجف:
"إنها تصرخ... لأن شيئًا تحرّك هناك بالأسفل."

حدّق يوهان في الفتحة المظلمة،
وعيناه ترتجفان بين الخوف واليقين:
"لقد حدث ما كنا نخشاه... الظلال استيقظت من جديد.

———

🔥 الفصل التامن عشر : عيون فى الظلال👁️

مرّ يومٌ كاملٌ ولم يخرج أحد.
كان الليل يهبط ببطء على الممر الغربيّ، والضباب يزحف فوق الصخور كأنّ الأرض نفسها تُخفي سرًّا.
يوهان كان واقفًا عند التلّ المقابل للدير، يراقب البوابة الحجرية التي لا تُفتح إلا للعربات القادمة من القرى المجاورة.
الكفيف إلى جواره، صامت، يصغي لأنفاس الريح.

قال يوهان أخيرًا، وصوته متوترٌ كوتر قوسٍ مشدود:
"لن ننتظر أكثر... إنهم هناك، ولا نعرف إن كانوا أحياءً أم رمادًا."

أشار إلى أحد أصغر الكشافين، فتى نحيل لا يتجاوز العشرين،
وقال له وهو يضع يده على كتفه:
"أنت خفيف وسريع... ستدخل مع أول عربةٍ تصل. لو شكّ أحد فيك، انتهى الأمر.
تذكر، أنت عامل من عمال القرى، لا تنظر في الوجوه، ولا ترفع رأسك مهما سمعت."

أومأ الفتى بخوفٍ واضح، ثم غطّى وجهه بغطاء العمال الترابي،
وتسلّل حتى اقترب من الطريق المؤدي إلى البوابة.
كانت عربات الإمداد تتوافد ببطء، محمّلة بالصناديق والطعام.
وفي غفلةٍ من الحراس، تسلّق العربة الأخيرة من الخلف، واختبأ بين القماش والخيش.

•

ارتجّت العربة عند دخولها البوابة،
وصوت الحديد على الحجارة ملأ أذنيه.
لم يجرؤ على الحركة، كل نفسٍ كان يُحسب عليه.
من شقٍّ ضيّق بين الألواح، لمح جنودًا واقفين كتماثيل سوداء،
دروعهم تلمع بضوءٍ خافت، وخوذاتهم تخفي وجوهًا بلا ملامح.

مرّت دقائق طويلة كأنها ساعات،
ثم توقفت العربة فجأة.
نزل الحراس يتحدثون بلغةٍ غليظة،
بينهم رجل ضخم يجرّ سلسلةً حديدية طويلة،
وصوتُها يُصدر شررًا مع الأرض.

انحنى الفتى أكثر، يحاول أن يرى دون أن يَظهر.
وفي زاوية القاعة الكبيرة داخل الدير، رأى رجلاً يقف أمام المصباح اليتيم:
نصف وجهه مغطّى بقناعٍ معدني، والنصف الآخر مليء بالندوب المحروقة.
كان هو نفسه الذي وصفه تروفان — ذو الوجهين.

وقف الحارس الضخم أمامه وقال بصوتٍ أجشّ:
"أُحضِر الأسرى كما أمرت، سيدي. ثلاثة ما زالوا أحياء... والباقون ماتوا."

أجابه القائد، صوته معدنيٌّ مخنوق:
"جهّزوا ساحة المشرق... عند الصباح نُعدِمهم جميعًا أمام الناس.
ليتعلّم الجميع أن الظلال لا تُقاوَم."

ارتجف الفتى، ويده تغطّي فمه كي لا يصدر صوتًا.
ثم رأى القائد يلوّح للحارس ويمشي معه نحو فتحةٍ في الأرض.
رفع الحارس غطاءً حجريًا كبيرًا، ظهرت تحته سلالم ضيقة تؤدّي إلى ممرٍّ مظلم.
هناك، حيث الزنازين التي تحدّث عنها تروفان.

انتظر الكشاف حتى غاب الاثنان عن الأنظار،
ثم زحف للخلف بصمتٍ، تسرّب من خلف الصناديق وخرج من البوابة مع العتمة.

لم يتنفس حتى وصل إلى التلّ مجددًا،
حيث كان يوهان يقف متيقظًا كأنه لم يرمش منذ الفجر.

وقع الفتى على ركبتيه وهو يلهث، وقال بصوتٍ مبحوحٍ من الرعب:
"رأيته... نصف وجه قناع... والنصف الآخر ندوب.
قال سيعدِمهم في الصباح، في ساحة المشرق.يريد ان يتحرك بِهم للمشرق .!
وهُناك تحت الدير زنازين... هناك يحتجزون الساده القاده والرهبان."

تبادل يوهان والكفيف النظرات.
لم يحتج أحدهما للكلام —
فالسماء نفسها، فوق رؤوسهم، كانت تشتعل بطائرٍ واحدٍ أسود
يحوم في دوائر، يصرخ بصوتٍ يخترق القلب،
صوتٍ كأنّه إنذار من الجحيم نفسه

الأخير: نُذور الدم

كان الليل قد ابتلع الممرات كلها.
الريح تعصف فوق الصخور كأنها تصرخ بأسماء من لم يعودوا بعد.
يوهان وقف عند التلّ، وجهه نصفه في الظل، ونصفه الآخر يلمع بضوء الشعلة الضعيف.
حولَه بضع جنودٍ وكشافين صغار، ومعهم الكفيف الذي كان يُمسك عصاه بقوةٍ كأنها آخر ما يربطه بالحياة.

قال أحد الجنود بصوتٍ خائف:
"سيدي... لقد كُشف أمرنا. رأيت الحراس يغيّرون مواقعهم حول البوابة."

سكت يوهان لحظةً، نظر نحو الدير المظلم ثم قال ببطء:
"إذًا لم يعد أمامنا سوى طريقٍ واحد... أن ندخل نحن قبل أن يخرجوا هم."

اقترب منه الكفيف، صوته مبحوح لكنه حادّ:
"لا يمكننا المواجهة الآن، عددنا لا يكفي.
يجب أن نتحرك ساعة هجومهم على المشرق... حين ينشغلون بالمسير.
هناك فقط يمكن أن نمر من تحت أعينهم كظلالٍ في ظلالهم."

فكّر يوهان قليلًا، ثم أشار إلى أحد الكشافين وقال:
"أنت، خذ هذا الختم، واذهب به إلى سيلفان في المشرق.
قل له إن الهجوم قادم مع الفجر...
وأن عليه أن يجهّز الأرض، ويُرسل رسالة للبحيرات فورًا.
الكل يتحرك، الآن."

أومأ الكشاف، قبض على الختم بيده المرتجفة، ثم اندفع يركض في العتمة،
والريح تمزّق صوته حتى اختفى بين الصخور.

عاد يوهان يلتفت إلى الدير.
ضوء خافت بدأ يظهر من أحد الأبراج العالية،
كأن شيئًا هناك قد استيقظ من نومٍ طويل.

قال أحد الجنود بصوتٍ خافت:
"هل تظنهم ما زالوا أحياء؟ أنطونيوس، ثيودور، والبقية؟"

لم يُجب يوهان.
كان ينظر إلى الأفق، حيث الطائر الأسود يحوم في دوائر واسعة،
صراخه يخترق السماء كأنما ينذر بميلاد جحيمٍ جديد.

الكفيف قال بهدوءٍ وهو يرفع وجهه نحو الطائر:
"الصوت نفسه... كأنّه ينعى من مات قبل أن يُقتل."

أغمد يوهان سيفه ببطء، ثم قال بصوتٍ ثابتٍ رغم الرعب:
"غدًا... إن لم نُهاجمهم قبل الفجر،
فسيُصبح المشرق مقبرةً لنا جميعًا."

حيث الطائر صار نقطة نارٍ وحيدة وسط العتمة —
وقال همسًا كأنما يكلّم قدرًا يراقبه من فوق:
"لقد بدأت اللعنة... ولن يوقفها سوى الدم."

الفجر الأخير
(نهاية الجزء الثاني عشر)

كانت السماء قبل الفجر رمادية كرمادِ معركةٍ لم تبدأ بعد.
الريح تعوي فوق أبراج الدير، حاملةً رائحة صدأٍ ودمٍ قديم.
ومن بعيد، كانت ألسنة النار تتلوّى كأفاعٍ باردة على أسوار الظلال.

⊡

تحت هذا الليل الثقيل، تحرك يوهان مع رجاله في صمتٍ مميت.
كان يعرف أن أي صوتٍ الآن سيعني الفناء.
قادهم من الجهة الشرقية للدير، عبر قناةٍ مهجورة كانت تمرّ قديمًا بالمياه،
ثم جفّت وتحولت إلى ممرٍّ من الحجر الأسود، لا يدخله إلا من يعرف طريقه.

الجنود خلفه يزحفون كأطياف،
والكفيف يمشي بينهم يهمس بتعليماتٍ دقيقة:
"خطوتان لليسار... الآن للأعلى... لا تلمسوا الجدار."

كلّ شيءٍ كان محسوبًا كما لو أن الدير نفسه يراقبهم.
وحين وصلوا إلى البهو الحجري الداخلي، أشعل يوهان شعلةً صغيرة،
فارتدّ ضوؤها على الحوائط الملطخة بلونٍ قاتم...
دمٌ جاف، امتزج بالغبار كأنه نقشٌ أزليّ.

⊡

أما من الجهة المقابلة،
كان فان قد خرج من الدير بجيشه،
صفوفًا من الجنود المجهولين، دروعهم سوداء كالفحم،
يتقدّمهم رجالٌ يحملون راياتٍ عليها رموز لم تُعرف من قبل.

كان عددهم يفوق الوصف —
كأن الأرض نفسها انشقت وأنجبتهم من جوفها.

لم يكن أحد يعلم من أين أتوا، ولا متى تجمّعوا،
لكن زحفهم جعل الجبال ترتجف،
وصوت خطواتهم كان كأنها نبض الجحيم يتحرك نحو المشرق.

فان سار في المقدّمة،
قناعه يعكس ضوء الفجر، ونصف وجهه الآخر،
تلك الندوب التي تشبه خريطة خرابٍ لا تنتهي،
يلتمع كلما لامسته النار من بعيد.
قال بصوتٍ منخفض، كأنما يخاطب الموت نفسه:
"اللعنة استيقظت... ولن ينجو منها أحد."

⊡

في داخل الدير،
واصل يوهان تقدّمه عبر القاعات الفارغة.
كل خطوة كانت تصدر صدى، كأن الجدران تنزف معه.
لكن حين فتح الباب الحجري الأخير المؤدي إلى القاعة الكبرى —
توقف الجميع.

المشهد أمامهم كان أكبر من أن يُحتمل.

على الأرض، صفوفٌ من الجثث الملقاة بلا ترتيب:
رهبانٌ بملابسهم الممزقة،
عمال الدير، نساء القرى وأطفالهم،
كلهم مُلقَون كأنهم ناموا في طابورٍ أبديّ.
الهواء مشبعٌ برائحة الموت،
والصمتُ فيها كان كأنه صلاةُ غضبٍ لم يكتمل.

اقترب يوهان بخطواتٍ بطيئة،
جثا على ركبتيه بجانب جسدِ طفلٍ صغيرٍ لا يتجاوز الثامنة،
عيناه مفتوحتان على اتساعهما، كأنّه رأى شيئًا لم يحتمله.
تمتم يوهان بصوتٍ خافتٍ متكسر:
"يا إلهي... ما الذي فعلوه هنا؟"

رفع الكفيف وجهه،
وقال وهو يتحسس الهواء حوله:
"المكان بارد... لكن الدم ما زال دافئًا.
لم يمر وقتٌ طويل منذ حدث هذا."

بحث يوهان بعينيه في القاعة —
لكن لم يكن هناك أثرٌ لثيودور، ولا أنطونيوس، ولا كريس، ولا جيرموسون.
كأن الأرض ابتلعتهم قبل أن تصل النار إليهم.

⊡

في تلك اللحظة،
دوّى من بعيد صوتُ البوق الحديديّ للمشرق —

إشارةُ حربٍ قادمة.

رفع يوهان رأسه فجأة،
ونظر من خلال الشقوق الضيقة في سقف القاعة،
فرأى السماء وقد امتلأت بسوادٍ كالسيل...
كان جيش فان قد وصل إلى بوابة المشرق.

⊡

في الوقت نفسه،
في أرض المشرق، وقف سيلفان على الأسوار،
يُصدر أوامره لآخر من تبقّى من الجنود.
صوته كان حادًا وسط ضجيج الحديد:
"أغلقوا البوابة الشرقية! لا أحد يخرج!
أشعلوا النيران على الأسوار، لن يدخلوا إلا فوق رمادنا!"

ثم التفت إلى أحد الكشافة وقال:
"انطلق إلى البحيرات فورًا... إلى رومان.
قل له إن الحرب بدأت قبل أن تُقرع الأجراس،
وإن المشرق لن يصمد طويلًا."

⊡

انطلق الفتى يعدو بين الريح والرماد،
والسماء خلفه بدأت تُضيء بلونٍ أحمر،
كأن الفجر نفسه اشتعل من الخوف.

أما الدير،
فقد بقي هناك، صامتًا،
وفي أعماقه، صدى صوتٍ لا يُعرف من أين جاء:
صوتٌ يشبه الهمس والضحك في آنٍ واحد،
يقول:

"كل طريقٍ إلى النور... يبدأ بالظلال.

🔥 انتهى الجزء الثاني عشر

—–

🔥 الجزء الثالث عشر: 🕯️ سقوط المشرق 🕯️

✨ الفصل الاول :ظلال الشمال

لم يكن الفجر قد اكتمل بعد،
لكن سماء المشرق صارت معبأه بلونٍ يشبه الصدأ القديم.
من بعيد، كانت الرايات السوداء ترتفع ببطءٍ فوق الأفق —
رايات الظلال، رايات سوداء صخرٌ فضى كجرحٍ مفتوح في الأرض.
في الضفة الشمالية، وقف الجنرال سارفوس وحيدًا أمام خيمته،
الريح تعصف بشعره، والهدوء يلتهم المعسكر من حوله.

في يده رسالة سيلفان المختومة بشمع البحيرات،
لكنّها الآن تتدلّى من قبضته كأنها شيء لا يعنيه.

قرأها مرّةً أخيرة بصوتٍ خافتٍ متهدّج:
"تحرّك فورًا لحماية الضفة...
لا تترك طريق الكنيسة الأم مكشوفًا..."

ثم تمزّقت الورقة بين أصابعه.

رفع رأسه نحو الأفق،

حيث بدأ يسمع هديرًا بعيدًا يشبه زئير وحشٍ من باطن الأرض.

الريح حملت صدى السيوف وضربات الحديد،

ثم ظهرت في الضباب صورةٌ لا تُشبه البشر —

حصانٌ أسود ضخم، شعره فضّيّ عند الرأس والرجلين،

وعليه رجلٌ بوجهٍ نصفه قناع معدنيّ،

والنصف الآخر يلمع بندوبٍ كأنها جمرٌ حيّ.

كان ذلك الجيش يتحرك كالموج،

صفوفٌ متناسقة، وجوهٌ مخفية خلف خوذٍ سوداء،

صمتهم أشدّ من صوتهم، كأنهم وُلدوا من الظلّ لا من رحم الأرض.

أغلق سارفوس عينيه لحظة،

والصوت الذي وعده بالمشرق عاد يتردد في رأسه:

"سلّم المشرق... وستقوده أنت.

النار لا تبتلع من يخدمها."

فتح عينيه ببطءٍ، ونظر إلى المعسكر الخالي خلفه.

الجنود ينامون، والرايات لم تتحرّك بعد.

ابتسم ابتسامةً باهتة وقال همسًا:
"ليحترق المشرق... وليبقَ اسمي على أنقاضه."

مع أول ضوءٍ من الشمس،
بدأ جنود الشمال يلاحظون التغيّر:
الأوامر توقفت، البوابات فُتحت دون إذن،
والرايات السوداء بدأت تلوّح عند الحدود.

حين رفع أحد الحراس رأسه وسأل:
"سيدي، ما الأوامر؟"
أجابه سارفوس وهو يركب حصانه:
"لا أوامر بعد اليوم...
أنا هو السيّد الآن."

وفي البعيد،

كان صوت البوق الحديديّ لجيش فان يرتفع كصرخةٍ من الجحيم،

يعلن بداية السقوط الكبير...

سقوط المشرق في يد الرجل ذو الوجهين

🔥 الفصل الثاني – سقوط الضفة الشمالية

لم يكن أحد يفهم ما الذي يحدث حقًا.
الضفة الشمالية من المشرق سقطت...
ولم تُسمَع فيها ضربةُ واحدة، ولا صوت سيفٍ يُسحب من غمده.
كأنّ الأرض نفسها سلّمت مفاتيحها دون أن تُقاتل.

جاءت الأخبار إلى سيلفان مع الفجر،
حين دخل أحد الرسل وهو يلهث،
وجهه مغطّى بالغبار والعَرق، وصوته متكسّر من الصدمة:
"سيدي... لم يُقاوم أحد...
البوابات فُتحت من الداخل...!"
سكت سيلفان لحظةً طويلة،
عيناه تحجرتا كأنهما تبحثان عن معنى وسط الضباب.
ثم قال بصوتٍ باردٍ كالنصل:
"الضفة سُلّمت... لا سقطت.
جمّعوا الجميع في القاعة الكبرى فورًا."

•
مع أول قرعٍ للأجراس، امتلأت قاعة القيادة في المشرق.

الرهبان، الجنود، والرسل —

الوجوه كلها متوترة، الأعين تترقب سيلفان وهو يقف أمام الخريطة.

ضوء الشعلة ينعكس على الممرات المرسومة،

خطٌّ أسود قادم من الشمال، يزحف كأفعى.

قال سيلفان ببطءٍ وهو يشير بعصاه إلى النقطة السوداء:

"هذا ليس جيشًا يتحرك...
هذا طاعونٌ ينتشر.
الضفة لم تُؤخذ بالقوة، بل بالهوان."
اقترب منه أحد الجنود وسأله بخوف
"هل نعلن الحرب يا سيدي؟"

نظر إليه سيلفان نظرةً حادة ثم أجاب:
"نعلن الاستعداد، لا الحرب.
الذي يُحارب الظلّ يفقد وجهه قبل أن ينتصر."

•
أصدر أوامره سريعًا:
تحصين الممرات، إغلاق البوابات الجانبية،
وإرسال رسائل عاجلة إلى البحيرات والكنيسة الأم.
لكن في داخله كان يعرف...
أن الرسائل قد لا تصل أبدًا.
في الزاوية، جلس راهبٌ شاب يهمس لصاحبه:
"سيدي، لماذا لم نرَ جيشهم بعد؟
فأجابه الآخر بصوتٍ مرتجف:
"لأنهم لا يمشون في الضوء."

•
تقدّم أحد الكهنة العجائز إلى سيلفان،
وجهه مليءٌ بالتجاعيد وصوته كأنّه خارجٌ من قبرٍ قديم:
"الضفة الشمالية ليست سوى البداية...
إذا وصلوا إلى نهر المشرق، فلن تبقى لنا أرض ولا هواء."
توقف سيلفان عند الباب،
التفت إليهم وقال بصوتٍ ثابتٍ رغم كل شيء:
"إذن سنجعل النهر هو آخر ما يبتلعهم."

ثم خرج من القاعة،
وصوت خطواته تذوب في أروقة المشرق المظلمة،
كأنها بداية لليلٍ طويلٍ بلا فجر

🔥 الفصل الثالث – مرسول الظلال

الغروب يزحف ببطءٍ فوق الوديان،
والسماء تصطبغ بلونٍ قاتم، كأنها تنذر بما هو آتٍ.
الريح تعوي في الممرات الصخرية،
تحمل معها رائحة السيف والنار،
كأنّ الحرب تقترب بخطواتٍ ثقيلةٍ من كل جهة.

يوهان كان يتقدم المجموعة،
وجهه متعب، لكن عينيه لا تعرفان التراجع.
إلى جواره الكفيف، يضع يده على جدار الوادي،
يتتبع الطريق بإحساسٍ غريبٍ لا يُخطئ،
وخلفهما الجنود والكشافة، يسابقون الظلام.
قال يوهان بصوتٍ متوترٍ وسط الصمت:
"كأن الأرض كلها تفرّ منا... أو نحمل لعنتها معنا."
ردّ الكفيف بهدوءٍ مريب:
"اللّعنة لا تُحمل يا بني... إنها تختار من تتبعه."
توقف لحظة، ثم رفع رأسه نحو السماء،
حيث كان الطائر يحوم فوقهم،
لكنه لم يكن كما عرفوه من قبل —
جناحاه أكثر سوادًا، وعيناه تومضان بضوءٍ أحمرَ باهت.
صرخته كانت كأنها نداءٌ من عالمٍ آخر.
مدّ الكفيف يده نحو الطائر، وقال:
"الرمز تغيّر...
المخطوطة لن تُفتح إلا على يد ثيودور وحده.
لا أحد سواه يفهم ما كتب فيها ."

نظر إليه يوهان بقلق:
"لكن ثيودور مفقود... لا نعرف مصيره بعد."

ابتسم الكفيف بسخريةٍ حزينة:
"اللعنات لا تقتل من كُتِب أن يكملها.
تابعوا رحلتهم بين الصخور،
الطرق ضيقة تبتلع أنفاس الخيول،
والوديان ممتلئة بصدى بعيدٍ كأنه خطواتٌ تتبعهم.
كلما ارتفعوا أكثر، زاد الخوف في صدورهم —
حتى رأوا من بعيد أضواء المشرق...
لكنها لم تكن أضواء سلام،
بل نيران معسكراتٍ تمتدّ بلا نهاية.

قال أحد الكشافة وهو يلهث:
"جيشٌ كامل...

لم أرَ هذا العدد في حياتي.
كيف سنواجههم بلا أنطونيوس... بلا ثيودور؟"

سكت يوهان،
كأنه لا يريد أن يسمع السؤال أصلًا.
نظر إلى الأفق المظلم وقال ببطءٍ:
"لن نواجههم بعد... سنحذر المشرق أولًا."

⊡

في تلك الليلة،
وصل أصغر الكشافة
حمل معه ورقةً مختومةً بشعار يوهان
منطلق سريعًا نحو الغرب —
حيث رومان و لوريس، نائب أنطونيوس.
شقّ الطريق عبر الغابات،
الدماء على فمه من شدة العطش،
لكنّه لم يتوقف حتى رأى أبراج البحيرات البعيدة.
دخل يلهث إلى مقر القيادة،
سقط على ركبتيه أمام لوريس وهو يقول بصوتٍ متقطع:
"جيش الظلال... تحت رايات الأنبا أوغسطين...
والقائد ذو الوجهين على رأسهم...
يتحركون نحو المشرق الآن!"

تجمّد لوريس في مكانه.
رمى القلم الذي في يده،
ثم نادى بأعلى صوته:
"استدعوا كل من بقي في البحيرات!
الرهبان، الحرس، والفرسان القدامى!
لن نترك المشرق يسقط !"

هرول رومان إليه، وجهه شاحب:
"هل أنت متأكد؟ أوغسطين ؟!"

هزّ الكشاف رأسه:
"نعم معه قائد لكنه ذو وجهين .
وجهه قناع ووجهه من ندوب، وصوته من نار."
سكت الجميع،
ثم رفع رومان رأسه وقال بصوتٍ عالٍ يملؤه الغضب:
"إذن... بدأ زمن المواجهة الحقيقية."

وفي الخارج،
بدأت أجراس البحيرات تُقرَع للمرة الأولى منذ مُده.
تُعلن أن الحرب التي حذّر منها الطائر...
قد وصلت أخيرًا

🔥 الفصل الرابع – نيران المشرق

كان الليلُ يهبط ببطءٍ على أرض المشرق،
والسكونُ فيها أثقل من الحديد.

الضباب يتدلّى فوق الأسوار،
والرياح تحمل رائحة رمادٍ قديمٍ، كأنها تنذر بما سيأتي.
في القلعة العليا، وقف يوهان عند البوابة الكبيرة،
وجهه شاحب من الإرهاق بعد رحلةٍ استمرّت يومًا وليلةً دون توقّف.
خلفه الكفيف، وبعض الكشّافين والجنود الذين نجا بهم من كمين الظلال.
أوامره كانت واضحة:
"أغلقوا الأبواب فورًا... لا أحد يخرج بعد الآن.
لا نعرف من منهم بشر، ومن صار ظلًّا."
انطبقت البوابة الحديدية بصوتٍ ثقيلٍ،
واهتزّت الأرض تحتها لحظة سقوط المزاليج،
كأن المشرق كلها تنغلق على أنفاسها الأخيرة.
من فوق الأسوار، نظر يوهان إلى الأفق،
فلم يرَ إلا بحرًا من راياتٍ سوداء تتقدّم من الغرب،
كل رايةٍ تحمل ختمها
شعار أوغسطين، وعلامة فان.

في الفناء الداخلي، وقف سليفان
إلى جواره مجموعةٌ من رجاله المنهكين.
كان وجهه هادئًا، لكن صوته يحمل مرارة السنين.
قال وهو يراقب جيوش الظلال تقترب:
"هكذا إذًا... عادوا بما لم نتصوّره.
لا مقاومة في الضفة الشمالية، لا خبر من كريس أو أنطونيوس...
وكأن المشرق تُسلَّم بلا حرب."
اقترب منه أحد الرهبان بخطواتٍ بطيئة،

هذه رساله سارفوس :
"أخمدوا النار يا سليفان...
لا معنى للدم بعد الآن.
الأنبا لم يأتِ ليحاربك... بل ليعيد المشرق لمكانها الحقيقي.
سلّم القلعة، وسأحفظ رجالَك."
رفع سليفان عينيه ببطء،

كانت نظرة لا تحمل خوفًا ولا غضبًا — بل شفقة.
مكانها الحقيقي؟
المشرق وُلدت من نور الحق ، لا من ظلالكم.
أنت تظنّ أنك أنقذت نفسك،
لكنك فقط استبدلت سيفك بسلسلة."

تقدّم خطوة، وضرب الأرض بطرف رمحه،

فارتجّت البوابة العظمى للمشرق ارتجافًا طفيفًا.
الجنود فوق الأسوار شدّوا أقواسهم،
لكن دخل يوهان ورفع يده بسرعة:

"لا تُطلقوا السهام! ليس الآن.
لو أردنا أن نعيش هذه الليلة،
علينا أن نفهم أولاً... اين الأصدقاء "

في الخارج، كان جيش الظلال ينتشر في صمتٍ تام،
يتحرك ببطءٍ، بخطواتٍ موحّدةٍ تشبه دقّات ساعة موت.
على رأس الجيش، هو فان —— القائد ذو الوجهين.
بجسمه الضخمٌ يمتطي حصانًا أسود ذا شعر فضى ورجلٍ بشعر فضيّ، نفس السمات التى وصفها تروفان سابقا

توقّف أمام صفوف القلعة،
رفع يده ببطءٍ إلى الأعلى
فانخفضت الأصوات كلها كأن الأرض نفسها طأطأت رأسها له.

في تلك اللحظة،
وقف يوهان فوق الأسوار، عيناه تتبعان الظلال الممتدّة عبر السهول،
وشعر لأول مرة أن المشرق لم تعد تنتظر معركة...
بل تنتظر جحيماً

وراءه، كان الكفيف يتمتم بصوتٍ خافت:

"الرمز لم يُغلق بعد...
لكن وحده ثيودور يستطيع قراءته."

أغمض يوهان عينيه للحظة،
كأنه يسمع صدى الصرخة القديمة من الطائر فوق السماء ——
الصرخة التي تسبق كل موتٍ قادم.

وفي الأفق البعيد،
كانت شعلةٌ صغيرةٌ تتحرك عبر الغابات،
إنها راية لوريس القادمة من البحيرات،
تحمل أملًا أخيرًا قبل أن تبتلع الظلال المشرق بأكمله

🔥 الفصل الخامس – صلب النور

الريح تئنّ، وتجرّ وراءها رائحةً غريبةً من الحريق والدم.
على الأسوار العالية، وقف يوهان يراقب الأفق بعينين متعبتين،
إلى جواره الكفيف، وخلفه صفوف الجنود يتهيأون،
كل واحدٍ منهم يشعر أن الليل يخفي شيئًا أكبر من الحرب.

قال أحد الكشافين وهو يلهث:
"سيدي يوهان... تحرّكوا! من كل الجهات!"

رفع يوهان منظاره الحديدي،

فرأى ما لا يصدّقه عقل ——

أربعة جيوشٍ سوداء تتحرك في انسجامٍ مريب،

كل جيشٍ منها يحمل راياتٍ عليها الصخر الأسود، شعار الظلال،

تلتفّ حول المشرق من البوابات الأربع، كأنها يدٌ تخنق المدينة ببطء.

⊡

في الجهة الغربية، كان لوريس يقود جيش البحيرات،

إلى جواره رومان، يتابع بصمتٍ وهو يرى الدخان يتصاعد من بعيد.

تقدّم تروفان بخطواتٍ حذرة، وقال بصوتٍ خافت:

"هذه ليست حربًا... بل لعنه."

ردّ لوريس بنظرةٍ حادّة:

"ومع ذلك سنخوضها.

المشرق الآن خطّ الدفاع الأخير... وبعده لن تبقى كنيسة."

تحرّك الجنود بصمتٍ،

الطبول توقّفت،

كأن الأرض نفسها تنتظر أن تتنفس أول صرخة.

⊡

على أسوار المشرق،

كان الضباب الكثيف يتحرك كالوحش حول الأبراج.

انحنى أحد الجنود على الحافة، يحدّق في الأفق.

قال بصوتٍ مرتجف:

"سيدي... هناك شيءٌ في الضباب... يشبه الرايات، لكنها لا تتحرك."

رفع يوهان نظره،

ومع أول خيطٍ من ضوء الفجر،

تكشّف ما كان يختبئ في العتمة.

أربع صلبان خشبية عملاقة.

عليها أجسادٌ تتأرجح ببطءٍ مع الريح.

الدم يجفّ على الخشب، والرؤوس منحنية كأنها تصلي.

تجمّد كل من على السور.

الجنود لم يتنفسوا، حتى الطيور صمتت.

اقترب يوهان بخطواتٍ ثقيلة،

تساقط الغبار عن ملابسه وهو يهمس:

"لا... هذا... مستحيل."

: على الألواح الخشبية مصلوبون، تَرِنُّ أشكالُهم ووجوهُهم في رأسه

جيرميسون... ثيودور... أنطونيوس... كريس.

صرخ الجندي الذي بجواره، ثم سقط على ركبتيه.

أما يوهان، فوقف مذهولًا، الدموع تختلط بالرماد على وجهه.

·

قال بصوتٍ مبحوح، :

"كما كنت أشعر... عاد فان من الرماد."

ثم بعينين دامعتين، قال بصوتٍ مخنوقٍ بالغضب:

"سنحرقه كما أحرق العالم من قبل... لن أسمح أن يُمحى النور."

أجابه الكفيف وهو يهزّ رأسه ببطء:

"لا طاقة لنا به، يا يوهان... فان ليس رجلًا...

هو ما تبقّى من اللعنة نفسها."

·

وفي الأفق، بدأ الرماد يتساقط من السماء.

راياتٌ سوداء تقترب،

وعلى مقدمة الجيش، حصانٌ أسودُ كالفحم يمتطيه رجلٌ نصف وجهه قناع، ونصفه جحيم.

خلفه آلافٌ من جنود الظلال يصطفّون كالأشباح.

تراجع أحد الجنود إلى الخلف وهو يهمس بخوفٍ مكتوم:

"إنها راية الأنبا أوغسطين... عادت..."

صرخ يوهان، صوته يخترق الرماد:

"استعدوا! نغلق الأبواب ... المشرق لا يسقط إلا بعد آخر نفس!"

وفي تلك اللحظة،

دوّى في السماء صرخةٌ حادّةٌ من الطائر الأسود،

كأنها إنذارٌ للعالم أن النار ستعود لتلتهم النور مرةً أخرى.

—

🔥 الفصل السادس: حين صمتت الأبواب

—

كانت المشرق محاصرة من الجهات الأربع،

السماء ملبّدة بسحبٍ ضبابيهِ تخنق الضوء،

وصوت الطبول يتردّد كنبضٍ ثقيلٍ فوق الأرض.

وقف يوهان على سور القلعة،

عيونه تتابع الصفوف الممتدة من الجنود حتى آخر الأفق
وأعلام سوداء
خيول سوداء

وفي قلب الساحة، ارتفعت الصلبان الأربعة.

كانت ضخمة،

وعليها تتدلّى الأجساد بلا حراك:

جيرميسون... ثيودور... أنطونيوس... كريس.

وجوههم شاحبة كأنها لا تنتمي لهذا العالم بعد الآن.

ارتجف أحد الجنود خلف يوهان وقال بصوتٍ متكسّر:

"هل هذا حقيقي؟... هل ماتوا؟"

لكن يوهان لم يجب.

كانت يداه تمسكان بالحائط الحجري حتى سال منها الدم،

وعيناه معلقتان بشخصٍ يقترب من الصفوف الأمامية

كان فان.

يسير بخطواتٍ بطيئةٍ ثابتةٍ نحو الأبواب،

صوته حين تكلّم، خرج كأنه يأتي من أعماق الأرض:

"لا مجال للمقاومة يا يوهان...

رأيت أصدقائك... معلقين

الآن سترى أجسادهم تسقط أمامك،

والمشرق سيسقط بعدها، شئت أم أبيت."

ثم أشار بيده نحو الغرب،

حيث تصاعد الدخان من بين الجبال وقال:

" سقطت...

جيوشي هناك الآن.

حتى لو أتت البحيرات كلها،

لن توقفوا زحف الظلال."

في تلك اللحظة،

تقدمت عربة الأنبا أوغسطين إلى وسط الساحة،

تجرها أربعة خيولٍ بيضاء،

تلمع عيونها كأنها تعرف الطريق إلى الموت.

توقفت لوهلةٍ أمام فان،

ثم تراجعت للخلف بأمرٍ من يده،

لينتشر الجيش بأكمله أمامها في نصف دائرةٍ كاملة.

رفع فان سيفه للأعلى،

وصوته ارتطم بالبوابات الحجرية للمشرق كالرعد:

"ابدأوا... اجعلوا السماء تشهد على نهاية النور."

ارتجفت الأبواق،

وامتلأت الساحة بالصرخات،

لكن فوق كل هذا —

ظل يوهان واقفًا على السور،

وجهه جامد،

وعيناه لا تريان إلا شيئًا واحدًا:

القناع الحديدي،

والندوب التي تحته...

كأنها تحمل جوابًا ما،

خاف أن يعرفه

تقدّم فان ببطءٍ على حصانه الأسود، حوافره تضرب الأرض كأنها طبول حربٍ قادمة من باطنها.

وقف أمام بوابة المشرق الضخمة، وخلفه بحرٌ من الجنود المكسوّين بالدروع السوداء، خوذاتهم اللامعة تخفي ملامحهم، وعَلم الظلال يرتفع خلفهم، يرفرف كجناح شيطانٍ يستعدّ للانقضاض.

رفع فان صوته — صدى غليظ معدني، يخترق الهواء كطعنةٍ باردة:

"يوهان!... أتعرف ماذا أمامي الآن؟ أصدقاؤك الأربعة... أرواحهم على حافة السيف.

افتح الأبواب، وسأجعل موتهم رحمة، وأُبقي المشرق بسلام.

قاوم، وسأجعل جدرانك تصرخ بدمائهم ودماء اهل المشرق جميعاً."

الكلمات ارتدّت على جدران المشرق كأنها نُقِرت بمسامير من نار.

يوهان وقف على الأسوار، جسده مشدود، عينيه تتابعان المشهد في الأسفل.

الصمت خيّم على جنوده خلفه، والريح وحدها كانت تمرّ فوق الصلبان الأربعة المنصوبة في الساحة،

وعليها الرؤوس المقطوعة: جيرميسون، ثيودور، أنطونيوس، كريس.

عيونهم الفارغة تحدّق نحو البوابة كأنها تنتظر شيئًا لم يكتمل.

تجمّد يوهان مكانه.

لم يعد يسمع سوى صوت نبضه، وصدى فان يعيد كلماته في رأسه كطَنينٍ لا ينتهي.

الهواء صار ثقيلًا...

كأن المشرق نفسها تمسك أنفاسها في انتظار الكارثة.

▫

في الجانب الآخر من الحدود،

كانت رايات البحيرات ترتفع وسط الغبار.

جيشٌ يتحرك بخطوطٍ متقنة، كأن الأرض نفسها تنحني له مع كل خطوة.

في المقدمة لوريس، نائب أنطونيوس، عيناه ثاقبتان تتابعان الدخان المتصاعد من جهة المشرق.

إلى جانبه تروفان، ذو الشعر الفضيّ، صامت كجبل، وجهه يحمل ندوبًا قديمة كأنها خرائط حروبٍ منسية، فهو كان قائدا من الطراز الرفيع لدى الكنيسه.

وخلفهما، على ربوةٍ عالية، وقف رومان، يراقب كل شيء بصمتٍ ثقيل، كأنه يحمل على كتفيه تاريخ البحيرات كله.

قال لوريس وهو يراقب الأفق المظلم:

"كل الأبواب الأربعة محاصرة... كأنهم يطوّقون المشرق بسورٍ من ظلال."

أجابه تروفان بصوتٍ خافتٍ لكنه حادّ:

"ليس جيشًا... انه وحوش مظلمه
إن هاجمنا الآن سندفن هنا.
نحتاج إلى وقتٍ وتشتيت لهم ."

تقدّم بخطواتٍ نحو الخريطة الممدودة على الأرض، أشار بعصاه المعدنية:

"نهاجم من الغرب بهيئة مرتزقة.

نُشعل الدخان، ونفتح ثغرة في الجهة الشمالية...

وقتها سنُرسل جواسيسنا وسط فوضاهم ليتسلّلوا إلى الداخل، يعرفوا لنا ما يحدث هناك.

ان تمكن ذالك القائد ذو الوجهين من التقدم اكثر... فسنحتاج أكثر من جيشٍ لمحوه."

أومأ لوريس برأسه ببطء، والقلق يثقل وجهه:

"يوهان وحده على الأسوار، وإن سقطت البوابة، لن نجد أثرًا لأحدٍ بعد اليوم."

رفع رومان عينيه نحو السماء :

"لن نسقط...

ما دامت البحيرات تتنفّس، فلن ندع المشرق يغرق في الظلال."

·

وبين هدير الريح ووقع الطبول البعيدة،

كان صوت فان يعود ليملأ الأفق من جديد،

ساخرًا، متوحشًا، لا يعرف الرحمة:
"افتحوا الأبواب... أو دعوا الشمس تشرق على رقابكم !"

والبوابة ما زالت مغلقة —

لكن في العيون نار،

وفي الأفق... عاصفة تتهيأ لابتلاع كل شيء

✨ الفصل السابع: ليلُ الفوضى

وقف فان أمام بوابة المشرق الكبرى، حصانه الأسود يضرب الأرض بحوافرٍ ثقيلة، وصوته يعلو كصفيرٍ من الجحيم:

"حين تفتح الأبواب، سيسجد العالم للفوضى.

وسيرى الجميع من أنا... القائد الحقيقي للعنة التي ستبتلعهم جميعًا."

ثم رفع يده.

في لحظةٍ واحدة، انطلقت السهام النارية من صفوف جنوده كعاصفةٍ من لهب.

اصطدمت بالأبراج العليا، فاشتعلت، وانهار منها الحرس والجنود.

وفي الأسفل، كانت جذوع الأشجار العملاقة تُدفع نحو البوابة، يحملها رجالٌ ضخمة أجسادهم كأنهم وحوش، يضربون بها الخشب الحديديّ حتى يتشقق ويئنّ من شدّة الطرق.

المشرق يصرخ.

الدخان يملأ السماء، وصوت فان يتردد كأنّه أمرٌ من القيامة:

"افتحوا الطريق... أو احترقوا معه."

•

في الجهة الأخرى من الميدان الرمليّ، خلف التلال المشتعلة،

كان جيش البحيرات بقيادة لوريس وتروفان يتحرك بهدوءٍ مميت.

انقسموا إلى مجموعتين كما خُطّط في الظلام.

المجموعة الأولى — الأكبر — يقودها تروفان،

تقدّمت نحو البوابة الشرقيّة حيث كان حراس فان أقل عددًا،

يُشعلون الفخاخ ، حُفرًا فى الرمال مُغطّاةٍ بالرماح،

يُسقطون فيها جنود الظلال واحدًا تلو الآخر،

بينما مجموعات أخرى تهجم بسرعةٍ لفتح البوابة الشرقيّة

لصنع ثغرةٍ تُربك جيش فان وتشغل عينه عن المشرق.

•

أما لوريس،

فكان خلف التلّ المقابل للبوابة الرئيسيّة — حيث يقف فان بجيشه الجرّار.

عقله يحسب الوقت بالدقة ذاتها التي تُحسب بها أرواح الرجال.

أشار بيده إلى رجاله المختارين،

قال بصوتٍ خافتٍ، بالكاد يسمع وسط دويّ الحرب:

"حين يشتدّ هجومهم على البوابة، نتحرّك نحن."

انتظروا اللحظة.

وحين اشتعلت السماء فوق الأبراج،

تحركوا كأشباحٍ من بين الدخان،

سحبوا الجنود واحدًا تلو الآخر من الخلف،

طعناتٌ سريعة في الظلّ،

ثم ارتدوا دروعهم وخوذهم الملطخة بالرماد.

دخلوا وسط جيش فان كأنهم أحدهم،

تسلّلوا بين الصفوف،

واندمجوا في قلب الجحيم الأسود.

لكن مهمّتهم لم تكن النصر... بل الفوضى.

أول صرخةٍ خرجت من بين الجنود كانت بداية العاصفة:

نيرانٌ، دماء، ووجوهٌ تلتفت على وجوهٍ أخرى لا تعرفها.

جنود يقتلون بعضهم في ظلامٍ كامل.

الليل انقلب على نفسه.

وفوق هذا المشهد كلّه،

كان الطائر يحوم بصوتٍ لا يُشبه أي صوتٍ سمعه بشر.

صراخه يقطع الهواء، وجناحاه يلمعان بلونٍ أحمر داكن،

وفي نفس اللحظة تقريبًا،

كانت المخطوطة بين يدي رومان على حدود البحيرات

تتوهّج بنقوشٍ غريبةٍ تتحرّك وحدها،

رموزٌ تتراقص كالدم في الورق،

حتى كاد الضوء يلتهم عينيه.

تراجع مرعوبًا، وهو يهمس لنفسه:

"اللعنة... استيقظت."
وسقط الضوء على وجهه،
بينما في السماء — فوق كل حربٍ ونارٍ —
ارتسمت دوائر حمراء كأنها عيونٌ تنظر من خلف الغيوم

🔥 الفصل الثامن – خيانة الضفّة الغربية

الليل كان يبتلع الأرض، والهواء يحمل رائحة الغبار والدم.

من بعيد، كانت رايات الظلال ترتفع على الضفّة الغربيّة...

لم تكن هناك معركة، لم يكن هناك صراخ، فقط صمتٌ ثقيلٌ يخبر الجميع أن سارفوس سلّم الضفّة دون قتال.

يوهان وقف على أسوار المشرق، ينظر نحو الأفق البعيد، وجهه شاحب والعَرق يختلط بالغبار.

الكفيف كان بجواره، يهمس بصوتٍ أقرب للأنين:

"الظلال لا تهجم من الأمام... بل من حيث لا تراها."

رفع يوهان رأسه فجأة وقال لجنوده:

"استعدّوا... سنضربهم من حيث يظنون أننا ضعفاء.

اصطفّوا فوق الأبراج، أطلقوا السهام والرماح كلما اقتربوا من الأسوار.

لن ندعهم يلتقطون أنفاسهم قبل أن نلتقط نحن النهاية."

الأسهم انطلقت كأسرابٍ من النور في العتمة،

تصطدم بدروع رجال فان، وتشتعل السماء بخطوطٍ حمراء

ارتبك جيش الظلال للحظة،

لكن تلك اللحظة كانت كافية ليعيد فان ترتيب صفوفه... كان يتحرك بينهم كطيفٍ أسود، صوته هادئ، ثابت، مخيف:

"دعوا النيران تأكل جلودهم... لا توقفوا الزحف."

في الجهة الشرقية، كان تروفان يواصل تقدمه بشراسة،
الفخاخ التي نصبتها كتيبته حصدت العشرات من جنود فان،

لكن شيئًا ما تغيّر —

من خلفه ظهرت رايات مألوفة... رايات الضفة الغربية.

ظنّها دعمًا قادمًا من الحلفاء،

لكنّ السهام الأولى التي اخترقت صدور رجاله أخبرته بالحقيقة: سارفوس خان.

ارتفعت صرخات الجنود، والتبس صدى الحرب بنحيب النار،
الأرض ارتجفت تحت وقع الحديد،
والسماء صارت ساحةً أخرى للّعنة.

⊡

بعيدًا عن كل هذا الخراب،

جلس رومان على تلٍ مائلٍ، يراقب الضوء المتوهّج الخارج من المخطوطة بين يديه.

الرموز بدأت تتحرك ببطءٍ فوق الورق، تتبدّل أشكالها كأنها تنبض بالدماء.

مدّ يده المرتجفة وقال بصوتٍ خافتٍ يملأه الرعب:

"لابد من وجود ثيودور... المخطوطة تنبّأت بشيءٍ قادم،

الدماء قربان... والباب بدأ يُفتح."

وفوقه مباشرة،

كان الطائر الأسود يحلّق كظلٍّ حيّ، يصرخ بصوتٍ طويلٍ يمزق الغيوم،

كأن السماء نفسها تستعد لتبتلع ما تبقى من المشرق

🔥 الفصل التاسع: نيران الخيانة🔥

السماء فوق المشرق كأنها تستعد للبكاء.
كان الدخان يعلو من الأبراج، يلتف حول الصلبان الأربعة التي ما زالت قائمة، لكن الأجساد عليها اختفت.
الحبال المقطوعة تتدلى،سلاسلها مرخيه والدماء لم تجف بعد.

فان خرج كالعاصفة ، نصف وجهه المعدني يعكس ضوء اللهب، والنصف الآخر تحوّل إلى قناع غضب. يستعد السيطره على جنوده فى الفوضى لينذر اليها ليجدها فارغه من الاربعه

صوته اخترق صفوف جنوده

"من الذي سرقهم؟ من الذي جرؤ أن يقترب من لعنتي؟!"

لم يجبه أحد.
اقترب أحد الحراس، فكانت رقبته أول ثمن لغضب فان.
رفع يده، فأضاءت السماء بسيلٍ من السهام النارية نحو الأبراج.
وفي صدى صرخاته، كان الجنود يدفعون جذوع الأشجار الضخمة، يضربون بها البوابة الكبرى للمشرق، والحديد يصرخ مع كل ضربة.

**"لن أتركهم يفرّون،
المشرق كله سيدفع الثمن!"**

▫

في الجهة الأخرى من الجحيم، كان لوريس يجرّ أنفاسه بصعوبة وهو يسحب الأجساد الواهنة.
أنطونيوس، ثيودور، كريس، وجيرميسون — لا صوت لهم، لا وعي سوى أنفاسٍ متقطعة.
الدماء تلوّن الأرض من حولهم.
ومعه مابقى من رجاله ، يتحركون مثله بين النيران كأشباحٍ فقدت الخوف.

قال أحدهم وهو يضع ذراعه على صدره الجريح:

"سيدي... لا طريق آمن بعد، البوابة أُغلقت خلفنا."

أجابه لوريس، والعرق يمتزج بدمه:

"سنحيا بين الهضبتين الليلة... إن عاش أحدنا، فليعلم أن النور لم يمت بعد."

تسلّلوا إلى الهضبة الشرقية، وهناك أشعلوا نارًا صغيرة بالكاد تضيء العيون المنهكة.
وفي الظلال، سمعوا وقع أقدامٍ مألوف، صوت أنينٍ خافت.

التفت لوريس، فوجد تروفان يترنح نحوه، ذراعه مضرجة بالدم، وجهه مليء بالخدوش. ومن خلفه ايضا مابقى من المجموعه التى تبعته
"ذالك القائد للضفه الغربيه "
قال لوريس:
"سارفوس؟!"

قال تروفان :
"ايدعى سارفوس. إنه باعنا يا لوريس،" قال بصوتٍ مبحوح، "فتح الضفة الغربية لفان دون قتال."

سكت لوريس طويلًا.
نظره انزلق إلى الصلبان الفارغة خلف الضباب، ثم قال ببرودٍ كمن يحاول كتم رعبه:

"إذًا الخيانة كانت أقرب إلينا من النار نفسها."

أما فان، فكان يقف قرب الأسوار.
فاقترب منه القادم "سارفوس" ليهخبروا انه احبط المحاوله ورجاله يبحثون عن الناجين من جند البحيرات
فكان وجهاهما يختلطان بنور اللهب، أحدهما بقناعٍ من حديد، والآخر بقناعٍ من خيانة.
قال فان ببطءٍ، كأنه يهمس إلى الموت نفسه:

"البوابة الغربية سقطت،
وسيسقط معها الإيمان كله.
حين أُعدمهم في ساحة المشرق، سيعرف العالم أنني... القائد الأخير للفوضى."

لم يجرؤ أحد على النظر في عينيه.
حتى الريح مرّت من بين خيام الجيش خائفةً كأنها تحمل سرًّا لا تقدر على نطقه.

في تلك الليلة، ليس ببعيد من جحيم المشرق،
جلس رومان أمام نارٍ صغيرة
يُقلب المخطوطة القديمة بين يديه.

الرموز عليها بدأت تنزف دمًا باردًا،
والسطور تتقلب من تلقاء نفسها.
وفوقه، طار الطائر الأسود في دوائر، صرخاته تشق السكون،
تغرس الخوف في الأرض والسماء.

قال رومان بصوتٍ خافتٍ كأنه اعتراف:

"الدم لم يُسفك بعد...
اللعنة لم تكتمل

كان الليل ثقيلاً... كأنه ينتظر شيئًا أعظم من الحرب نفسه

🔥 الفصل العاشر – لحظة الانفجار 🔥

كانت الأرض ترتجّ تحت وقع جذوع الأشجار الضخمة وهي تُلقى على البوابات الحديدية.
نيران السهام تتطاير في السماء، والرماد يسقط على الدروع مثل مطرٍ من جحيم.

على الأبراج العالية، كان يوهان يصرخ بأوامره، صوته يغطي صليل الحديد:

"ثبّتوا الأبواب! لا تدعوهم يمرّون! احموا المشرق ولو على الرماد!"

إلى جواره وقف الكفيف، عيونه المطفأة مرفوعة إلى السماء كأنها تبصر ما لا يُرى.
قال بصوتٍ خافتٍ متوتر:

"الأبواب لن تصمد طويلًا... أدخلوا النساء والرهبان إلى الممرات الخلفية، فهنا سيُكتب الدم."

من خلف الدخان، سُمعت ضحكة فان، عالية، مجنونة.
كان واقفًا أمام البوابة الكبرى على حصانه الأسود القاتم، القناع المعدني يغطي نصف وجهه،
والنصف الآخر مشوّه بندوبٍ عميقة تلمع مع وهج النيران.
رفع سيفه إلى السماء وهتف بصوتٍ هادر:

"افتحوا الطريق... أريد أن أرى المشرق وهو يركع."

ثم دوّى الأمر، فانطلقت جذوع الشجر تتكسر على الحديد، تتبعها السهام النارية.
ارتجّت البوابة تحت الضربات، والسماء صارت ليلًا من لهب.

⊡

بعيدًا عن الصخب، في معسكرٍ ضيق بين هضبتين خلف الضفة الشرقية،
كان أنطونيوس يستيقظ ببطء.
جسده مثقوب من أثر القيود، ووجهه شاحب كرماد.
إلى جواره جلس ثيودور وكريس وجيرميسون، ما زالوا بين الوعي والكوابيس.
وقف لوريس أمامهم، يربط جراحه بخرقةٍ قديمة، وجهه منهك لكن عينيه متقدتان.

قال بصوتٍ خافتٍ:

"أنتم بأمان... لكن المشرق ليس كذلك.
تروفان عاد في الضفه ، وسارفوس خان . لا نعرف من معنا ومن علينا."

أنطونيوس رفع رأسه بصعوبة، نظر إلى النار المشتعلة وقال:

"فان... لم يكن يقتلنا للانتقام فقط.
كان يريدنا أن نرى الخوف.
كان يبحث عن شيءٍ... شيءٍ لم يفهمه أحد."

همس كريس وهو ينظر إلى ثيودور:

"اللعنه، أليس كذلك؟"

فأجابه ثيودور بصوتٍ مبحوحٍ كأنه يخرج من قبر:

"نعم... هو لا يريدنا فقط ان نحترق، بل يريدها ان تحرق له العالم اجمع ."

⊡

في الجهة الأخرى، غادر سارفوس ليفتح بوابةً صغيرة خلفية.
رجاله يتحركون في الظلّ بأمرٍ من فان،
فكل ما جرى كان هدف الخطة منذ البداية.
سارفوس ينظر إلى الدم الذي يلطخ يديه ويهمس:

"قال لي إنني سأحكم المشرق... سأحكم فوق المقابر واشلاء المعترضين ."

⊡

مع الفجر، انكسرت البوابة الأولى.
صوت الحديد المُحطم دوّى كصرخةٍ في السماء،
ودخلت جيوش فان كالسيل الأسود.
على الأسوار، كان يوهان يصرخ:

"انسحبوا للممر الحجري! لا تسمحوا لهم بالعبور للداخل!"

سليفان أمسك بيده وقال له بصوتٍ يائس:

"اللعنة تحرّكت يا يوهان...

وفي أقصى الشرق، خلف الهضبتين،
وقف رومان مع مجموعةٍ صغيرة من جنود البحيرات.
كانوا ينتظرون إشارةً من لوريس أو تروفان،
لكن السماء كانت صامتة إلا من صرخةٍ واحدة اخترقت السكون —
صوت الطائر الأسود.

دار الطائر في دوائر ضيقة فوقهم، ثم اتجه شرقًا، يترك خلفه أثرًا من الضوء الأحمر.
فتح رومان المخطوطة بيدين مرتجفتين، فاشتعلت الرموز بوهجٍ دمويٍ غريب.
ظهرت كلمات غامضة، بلغةٍ منسية:

"الدم هو الفتح."

تراجع رومان خطوة وهو يهمس:

"الدماء قربان اللعنة... اللعنة التي أيقظوها."

ثم رفع رأسه نحو رجاله وقال بثباتٍ مفاجئ:

"اتبعوا الطائر. هناك الإجابة... وهناك المصير."

تحركت المجموعة بين الوديان،

السماء فوقهم تشتعل باللون الأحمر،
والرياح تحمل رائحة موتٍ لا يُخطئها قلب

—-

🕯️ الفصل الحادي عشر – طريق الدم والطائر

الحصار يلفُّ المشرق ككفنٍ من سواد ، والريح تعوي كأنها تنوح على مدينةٍ تحتضر.
سقطت الأبواب، وتحوّلت الأبراج إلى أعمدة من اللهب.
لم يعد هناك سوى صرخات، ووقع أقدامٍ تهرب نحو الممرات المظلمة.

كان يوهان يقف في آخر الممر الحجري، وجهه مغطى بالغبار، وصوته يعلو بين الدخان:

«اسحبوا البقية إلى الداخل! لا تلتفتوا للخلف! المشرق خسر الحرب، لكن لم يخسر الحياة بعد!»

إلى جواره كان سليفان يلهث وهو يحاول تثبيت الجرح على كتفه، بينما الكفيف يمد يده فوق الجدار الحجري كأنه يقرأ نبض الأرض.
قال بصوتٍ كأنّه قادم من قبرٍ بعيد:

«اللعنة لم تكتمل بعد... ما زال لنا فى قدر الرب بقية.»

دوّى صهيل حصانٍ خلف الأسوار، تبعه صوت فان، عميقًا، مشوّهًا، كأن الشيطان ينطق بلسانه:

«افتحوا الأبواب... أو سأفتحها بالدم!»

ارتجّ المكان، وسقطت حجارة السقف، بينما النيران التهمت آخر ما تبقى من الممرات.
لكن يوهان لم يتحرك، ظلّ يحدق في السماء التي صارت حمراء كدمٍ متجلّط.

▫

في معسكرٍ بعيد بين الهضبتين، كانت النيران تُضيء وجوه المنهكين.
جلس أنطونيوس قرب النار،يستفيق من جراحه عيناه غائرتان، ووجهه شاحب.
إلى جواره ثيودور مازال بين الاستفاقه والاغماء لا يتحرك سوى أصابعه التي تشدّ على حبلٍ من الكتّان.

قال تورفان بعين حزينه وهو ينظر إليهم:

«المشرق سقط.. يوهان ما زال هناك، هل نتركه وحده.»

ردّ لوريس، صوته خافت متعب:

«لقد عاد فان إلى المشرق كالإعصار... وسارفوس سلّم الضفة بلا قتال.
كل ما خططنا له انتهى.»

رفع ثيودور رأسه ببطء، ونظر إلى لهيب النار كأنه يرى وجهًا مألوفًا فيه، ثم قال بهدوءٍ مرعب:

«ما يسقط بالنار لا يُطفأ بالماء، بل بالدماء. إن كان يوهان ما زال حيًّا... فالحرب لم تنتهى بعد.»

وفي الجهة الأخرى من الأرض، كان رومان يشق طريقه بين الوديان المظلمة.
الطائر الأسود يحلق فوقه في دوائر ضيقة، يلمع صدره الأبيض تحت ضوء القمر كوميضٍ مشؤوم.
كان كلما حاول أن يتوقف، يصيح الطائر بصوتٍ حاد، كأنه يأمره بالاستمرار.

تقدّم رومان، والمخطوطة بين يديه تتوهّج من تلقاء نفسها.
اقترب أحد رجاله وسأله بخوف:

«إلى أين تقودنا هذه اللعنة يا رومان؟»

فقال بصوتٍ ثابت، وملامحه مطفأة كالجمرة:

«هذه ليست لعنة... بل طريق.
الطائر لا يضلّ طريقه لصاحبه ، والمخطوطة من سيقرأها.
ثيودور وحده يعرف ما كُتب فيها... ونحن فقط علينا الوصول اليهم .»

اشتدّ وهج المخطوطة فجأة، وتغيّر لون السماء إلى الأحمر القاني.
رفرف الطائر بعنف، واتجه نحو الشرق، حيث تُطلّ الهضبتان.
صرخ أحد الجنود:

«إنها النار! الأرض تشتعل هناك!»

لكن رومان لم يتوقف، تابع السير بخطواتٍ ثقيلة وهو يهمس:

«هل سيظل الدم هو المفتاح ... هل يتنتهى هذه اللعنه!؟".

🕯️ الفصل الثاني عشر – ظلام المشرق

كأنّ الشمسَ تردّدت عن إعلان ان:
المشرقُ سقط.
تلك كانت الحقيقة التي خيّمت على السماء كصوتِ نذيرٍ لا يُكذَّب.

الطرقاتُ التي كانت تعجُّ بأجراس الكنائس صارت مقابر صامتة.
الهواءُ نفسه تغيّر، صار ثقيلاً، مشبعًا برائحة الحديد والدم، وكأنّ الأرض لفظت أنفاسها الأخيرة.

فوق الأبراج العالية، رُفعت راياتُ فان، سوداءَ داكنة، تحمل نقشَ الصخر الرماديّ — رايةُ الظلال القديمة، تعود بلا شعارِ الكنيسة، ولا صليبٍ مائلٍ كما كان في عهد الأنبا.
لأوّل مرة، يعلو السواد وحده فوق المشرق.

سارت الجيوشُ كالسيل، وجوهٌ مخنوقة بالدروع، أعينهم لا تعرف الرحمة.
جنود فان، أو كما بدأ الناس يسمّونهم لعنة المشرق، انتشروا في كلِّ زاويةٍ من الأرض المنهكة، يجمعون الناجين، يطاردون الأشباح، ويبحثون عن رجلٍ واحدٍ فقط... يوهان.

لكن يوهان لم يعد هناك.

كان قد خرج في الليلة السابقة عبر الممرات السريّة، يقود من تبقّى من الجنود والرهبان والاهالى من الشيوخ والنساء والأطفال إلى الغابات الشرقية.
صوته ما زال يرنُّ في أذهانهم وهو يقول:

"لن نُصلب ولن ننتهى سنبقى لنحكي، وسنعود."

أغلبهم نجا، وبعضهم سقط في قبضة رجال فان الذين ملؤوا الممرات والقرى كالأشباح.
سُحب الأسرى إلى الساحات، حيث كان فان يُقيم صمتًا أشدّ من الموت، وكأنّه يهيّئ الأرض لطقسٍ أكبر من الحرب.

في ساحة المشرق الكبرى، وقف فان على صهوة حصانه الأسود، والريح تعبث بردائه الطويل.
وجهه نصفه ندوب، ونصفه الآخر مقنّع بالحديد.
تأمّل الساحة ثم رفع يده بهدوء، فارتفعت الرايات السوداء كلّها دفعةً واحدة، تصدر عنها أصواتُ حديدٍ تحتكّ بالهواء.

ومن بعيد، بين الدخان، كان سارفوس يراقب المشهد، ساكنًا كظلٍّ في وجه العاصفة.
لقد أعطى فان مفاتيح المشرق بيده، لكنّ شيئًا في داخله كان يعرف أنّ هذه ليست النهاية... بل البداية فقط.

حين تحرّك فان نحوه، امتزج الهواء بالغبار، وصوت السيوف بصهيل الخيل.
قال فان بصوته الغليظ البارد:

"المشرق لي الآن يا سارفوس. لا رايات، لا أنبا، لا كنيسة.
منذ هذه اللحظة... سيُولد العالم من فوضى فان."

لم يردّ سارفوس، فقط أومأ برأسه، والرجفة تسري في يده، كأنه يسمع شيئًا من بعيد.

وبينما كانت السماء تزداد احمرارًا،
كانت لعنة فان تمتدّ ببطءٍ في الأرض،
حتى صارت المشرق بأكملها تحت جناح السواد

الهروب عبر الغابات

كانت الغابة تمتدّ أمامهم كهاويةٍ من ظلالٍ لا تنتهي،
والريح تعوي كذئبٍ قد شبع من الدماء.

يوهان يركض بين الأشجار، سيفه في يده،
وسليفان يتعثّر خلفه وهو يحمل طفلًا صغيرًا على ذراعه.
الكفيف يمشي قرب الجدار الحجري للممرّ القديم،
عيناه المغلقتان أكثر وعيًا مما يراه المبصرون.

خلفهم كانت النيران تلتهم آخر القرى،
وصيحاتُ جنود فان تتردّد في أرجاء الغابة.
كلما اقترب الصوت، ازداد لهيبُ الخوف في الصدور.

قال يوهان بصوتٍ متقطّعٍ بين أنفاسه:

"إلى النهر... سنعبر الضفة الأخرى، وإلا سنُمحى هنا!"

ردّ الكفيف وهو يمدّ يده متّجهةً إلى الظلام:

"يا يوهان... لا تقاوم اللعنة، اهرب منها قبل أن تراها!"

لكنّ الوقت لم يسمح.
من بين الأشجار، اندفعت مجموعةٌ من جنود فان، دروعهم سوداء كأجنحة الليل،
يعلوها شعارٌ محفور بالصخر الرمادي.

اشتعل القتال.
كانت المعركة قصيرة لكنها كابوسٌ حيّ.
الدماء والرماد يتطايران،
صرخات الرجال تختلط بصفير السهام.

يوهان يضرب بعنفٍ يائس،
سليفان يسحب الجرحى ويصرخ يأمرهم بالتراجع،
والكفيف يقف وحده خلف صخرةٍ كبيرة،
يرفع صوته بالصلاة...
صوتٌ غريبٌ بين الحرب، يعلو كالنار في المطر.

حين وصلوا إلى حافة النهر،
كانوا نصف موتى، يلهثون، يترنّحون.
رمى يوهان درعه في الماء، ونظر خلفه إلى الغابة التي تبتلع الضوء وقال:

"هل سنعود ...ام انتهى الأمر الآن."
ثم صرخ ؛"اقفزوا "

قفزوا واحدًا تلو الآخر في النهر المظلم،
والسهام تتساقط حولهم كأصابع من نار.
ثمّ، بصمتٍ غامض،
ابتلعتهم المياه والجحيم خلفهم يشتعل

بين الهضبتين🔥

كان المعسكر ساكنًا بين الهضبتين،
صامتًا كقلبٍ أنهكه الانتظار.
لم يبقَ في المعسكر سوى همسات الأنفاس وصوت النار الخافتة.

ثيودور ما زال راقدًا، جسده مبلّل بالعرق،
عيناه نصف مفتوحتين على حلمٍ ثقيل لا ينتهي.
إلى جواره جلس جيرميسون،
وجهه شاحب، أنفاسه تتقطّع كأنها آخر ما تبقّى من الحياة.
كان الموت يجلس بينهما بهدوء، ينتظر دوره.

في الجهة الأخرى،

جلس كريس إلى جوار أنطونيوس يحاول ربط جرحٍ في كتفه،
والاثنان يبدوان كمن نجا من جحيمٍ لا يعرف كيف.
قال أنطونيوس بصوتٍ خافتٍ متكسر:

"لوريس وتروفان حمونا من فان... لكنّ الأخير لم يتركنا نعيش،
كان يعذّبنا بالصمت، وبالانتظار...
خمسة أيام دون طعام، دون ماء.
ترك ثيودور وحده في الغرفة المعتمة،
أما نحن فكنّا نسمع صوته يهمس في الظلام...
يحاول أن يوقظه من الداخل."

أغمض كريس عينيه وهو يهمس:

"كان يعرف أننا لن نموت سريعًا...
أراد أن يرى اللعنة تعمل فينا،
ببطء، كما قال أوغسطين يومًا: الشرّ لا يقتل، إنه ينتظر أن تنحني له.

ساد الصمت.
النار في منتصف الخيمة تترنّح كأنها تخاف أن تنطفئ.
تروفان جلس بجوارهم، يضع يده على ذراعه المصابة،
ثم قال بصوتٍ حاسم:

"لن نبقى هنا طويلاً.
أنا ذاهب إلى الكنيسة الأمّ... إلى البابا .
يجب أن يعرف أن مجلس النار أخطأ حين ترك البحيرات والمشرق.
إن لم نتحرك، سيبتلع الظل كل شيء."

اعترض أنطونيوس بنبرةٍ متوترة:

"ستُقتل يا تروفان... الغابات ممتلئة بجنود فان.
لا نحتاج مغامرة أخرى، نحتاج خطة واحدة."

فأجابه تروفان بعينين يملؤهما الإصرار:

"الخطر ليس في الموت... الخطر في الانتظار."

⊡

وفجأة،
دوّى صهيل في الخارج،
تبعه ضوءٌ أحمر اخترق سقف الخيمة من الأعلى.

دخل رومان ومعه مجموعة من جنود البحيرات،
وجهه مغبّر، يحمل المخطوطة بين يديه كأنها جمرة حيّة.
قال وهو يلهث:

"المخطوطة تشتعل... منذ سقوط بوابات المشرق وهي تبعث رموزًا لم أرَ مثلها من قبل.
الطائر قادنا إلى هنا، وقف فوق الخيمة .
لن يفهم ، إلا أنت يا ثيودور."

فتح ثيودور عينيه ببطءٍ،
كأن الوجع نفسه يعيده من الغياب،
نظر إلى رومان بصوتٍ بالكاد يُسمع:

الدماء التي سالت في المشرق فتحت الباب الأخير..."

ساد الذهول،
والنار في المنتصف انطفأت فجأة،
فبدا وجوه الجميع تحت ضوءٍ أحمر خافت،
كأن السماء نفسها تستمع لهم.

همس أنطونيوس وهو ينظر إلى الخارج:

"المشرق سقط، نعم... لكننا ما زلنا أحياء."

مدّ رومان يده بالمخطوطة، وقال بثبات:

"إذن فلنبدأ من جديد... قبل أن تبدأ اللعنة بنا."

الفصل الثالث عشر : أين الأنبا؟🔥

على ضفّة النهر الصامتة إلا من حفيف الريح فوق الماء.
جلس يوهان على الصخور الرطبة، رأسه بين كفّيه، والبلل والماء على وجهه كوشمٍ قديم.
إلى جواره سيلفان والكفيف، والجنود المرهقون يمدّون أذرعهم نحو الماء كأنهم يبحثون فيه عن الخلاص ،وامامهم من هرب معهم من اهل المشرق
لم يبقَ فيهم من القوة سوى أنفاسٍ متقطّعة، ولا في قلوبهم سوى طعم اليأس.

بعد ساعاتٍ من السكون، بدأوا يجمعون ثمارًا برّية من الأشجار القريبة،
وبعض جذورٍ مبلّلة كانوا يظنونها طعامًا، فقط ليبقوا أحياء.
السماء كانت رمادية، لا شمس فيها ولا نجوم.
قال سيلفان بصوتٍ مبحوحٍ:

"العودة... إلى البحيرات،
هناك آخر أمل لنا... آخر جدارٍ قبل أن تبتلعنا اللعنة."

أومأ يوهان، ثم نظر إلى النهر الذي عبره وقال:

"لن نعود خاسرين، لابد من الإنتقام ."

▫

في الجهة الأخرى، كان تروفان يمتطي جوادًا نحيلًا،
أربعة من جنوده يسيرون خلفه بصمت، يقطعون طريقًا مكسوًا بالجثث.
الهواء خانق، تفوح منه رائحة لحمٍ محترق.
في الطريق رأوا الكلاب والضباع تنهش بقايا من جثث لبشر وجنود،
وفي أحيانٍ أخرى، كانت الطيور في السماء تتقاتل على العيون.

قال أحد الجنود بخوفٍ مكتوم:

"سيدي... هل الطريق إلى الكنيسة آمن؟"

فأجابه تروفان دون أن يلتفت:

"لا طريق آمن بعد اليوم.
لكنّ البابا يجب أن يسمع ما فعل عناده،
حين جعل مجلس النار بلا المشرق ولا البحيرات."

ساروا في صمت،
إلا من صدى الحديد وهو يصطكّ في فراغٍ يشبه المقابر.

⊡

في المعسكرِ مؤقتٍ بين الهضبتين،
جلس أنطونيوس ولوريس وكريس يخطّطون بقلوبٍ أثقل من الصخور.
كانت الريح تعصف برايات فان الممزّقة التي سرقوها من المعركة الأخيرة.
قال لوريس وهو يمدّ قطعة القماش السوداء الملطخة بالدم:

"ما زال لدينا ملابسهم... سنعود بها إليهم.
نتسلل كجنودٍ تحت رايته، نغطي وجوهنا بالأقنعة.
أحدنا سيبدو مصابًا، فيدخل بهم إلى الداخل.
نعرف إن كان يوهان والكفيف أحياء، أو إن اللعنة ابتلعتهم مع المشرق."

هزّ أنطونيوس رأسه ببطء وقال:

"حسنا، سنمشي في الظلّ كما وُلدوا منه."

⊡

دخلوا المعسكر مع الفجر.
جيش فان بدا كوحشٍ منظمٍ رغم فوضاه؛
آلاف الجنود يصطفّون بدقةٍ مخيفة،
وجوههم مطلية بالرماد، أعينهم خامدة كالجمر.
الهواء ثقيل، كأن الأرض نفسها تخاف أن تتنفس.

في وسط الساحة، كان سارفوس راكعًا،
وحوله جنوده الذين خانوا،
وفان أمامهم على حصانه الأسود،
سيفه يلمع كوميض برقٍ في عاصفة.

صوته دوّى في الساحة:

"من خان أرضه لا يُؤتمن على ترابها...
من باع وطنه بثمنٍ من الوهم، يُسقى بدمه!"

ثم رفع سيفه، وهوت الضربة.
انقسم رأس سارفوس كثمرةٍ ناضجة،
وانسكب الدم على الأرض في دائرةٍ كاملةٍ حول فان،
كأنه ختمٌ جديد للظلال.

تمتم كريس وهو ينظر إليه:

"باع ولاءه... فاشترى موته."

أمسك أنطونيوس بزمام حصانه وقال:

"لننتظر لحظة.
حين يهدأ الجمع، نخرج كأننا من حرّاسه، لقد هرب يوهان ومن معه ."

·

وبينما كانت النيران تُطفئ في الساحة،
امتطى الثلاثة خيولهم،
خرجوا ببطءٍ من بين الصفوف وسط الضجيج،
وجوههم مخفية تحت أقنعة الجنود.
وحين تجاوزوا البوابة،
انطلقوا كالريح نحو الهضبتين، حيث كان ثيودور ورومان وجيرميسون المتهالك ينتظرون.

·

في الخيمة، جلسوا حول النار الضعيفة،
وروى كريس كل ما حدث.
صمت الجميع، إلا ثيودور الذي رفع عينيه ببطء وسأل بصوتٍ مبحوح:

"وأين الأنبا؟... أين أوغسطين من كل هذا؟
أليس فان ظلّه؟
فأين اختفى صاحِبُ الظل؟"

ساد الصمت.
والريح في الخارج كانت تعوي كأنها تعرف الجواب —
لكنها ترفض أن تنطقه

🕯️ الفصل الرابع عشر :إعلان السقوط

كانت المشرق تحتضر.
السماء مغيمه باهتة، والدخان يغطي الأبراج، والريح لا تحمل إلا غبار المعارك والدمار.
لم يبقَ من رايات الدير القديم شيء، ولا حتى أثر لدير الظلال.
على جدران دير إجناطيوس الكبير – الاسم القديم الذي أعادته الكنيسة بعد أن محَت أوغسطين من سجلاتها –
كانت الرايات السوداء تُرفرف فوق كل صخرة، رايات الصخر الرمادي بخطٍ أسودٍ قاتمٍ يبتلع الضوء.

وفي ساحة الدير وقف فان، على حصانه الأسود،القائد ذو الوجهين
خلفه صفوف الجنود، كتلة من الظلال المنظّمة، يسيرون في صمتٍ مطبق.
رفع فان سيفه وقال بصوتٍ خفيضٍ كأنه يأتي من باطن الأرض:

«انتهى زمن القيود... المشرق لنا، والعالم سيعرف أن ملك الفوضى قد وُلِد.»

سقطت كلماته كأنها نبوءه، وانتشرت بين الجند همهماتٌ تملؤها الرهبة.
كانت لعنة فان التى ايقظها اوغسطين قد بلغت ذروتها، وأصبحت الأرض كلها تدور في فلك الظلام.

⊡

على الجانب الآخر، كان تروفان يعبر الجبال الموحلة مع رجاله نحو الكنيسة الأم.
وجهه شاحب، وملابسه ملطخةٌ بالدم والطين.
وصل إلى المبنى الضخم للكنيسة، وسجد على عتبتها وهو يلهث:

«قداستك... المشرق سقط.»

وقف أمامه البابا أورليانوس الأشدّ، بعينين جامدتين لا تعرفان الرحمة، وقال بصوتٍ هادئٍ كطعنةٍ باردة:

«سقوطهم كان نتيجة تقاعسكم ... مجلس النار لم يكن إلا وهماً من الغرور. الكنيسة ستجمع جيوش البلاد، وسنقضي على غوغاء فان ولعنة أوغسطين.»

رفع تروفان رأسه وقال بحرارةٍ مكبوتة:

«قداستك... عناد الكنيسة هو الذي أوصلنا إلى هذا الخراب.مجلس النار تفرق عن البحيرات والمشرق ولم تجمعوهم فى جسد واحد إن القوة وحدها لا تُنقذ الإيمان، وإن اللعنة لا تموت بالكلمات!»

لم يرد البابا. أدار ظهره ببطء وقال:

«الكنيسة تحمي من تبعها فقط، أما من خرج عن طوعها... فليواجه قدره.»

في تلك اللحظة، أدرك تروفان أن الطريق بينه وبين الكنيسة انتهى.
انحنى احترامًا، ثم قال بصوتٍ عميقٍ ثابت:

«سأذهب إلى البحيرات. السد الاخير فلنبقيه... أو سنُدفن معه.»

وغادر.

⊡

وعند الهضبتين استمع انطونيوس لرأى رومان بالعوده للبحيرات "فانها الطريق الوحيد والاخير ليوهان ومن بقى معه وعلينا ان نذهب قبل ان يتحرك فان بجنوده نحوها "
فامر الجنود بحمل المصابين والتحرك السريه للعوده .

في الوقت نفسه، كان يوهان قد وصل إلى أرض البحيرات قبلهم بأيام.
استقبله الرهبان الباقون، ووجوه الناس التي أنهكها الخوف والجوع.

كانوا يعلمون أن المشرق سقط، لكنهم لم يستوعبوا أن الحصن الأخير بات وحده في وجه العاصفة.

جلس يوهان والكفيف وسليفان وبعض الناجين في القاعة الكبرى، بينما الريح تهدر في الخارج.
قال يوهان بصوتٍ متعب:

«لم يبقَ إلا البحيرات، ومن هنا نبدأ من جديد.»

⊡

بعد يومين، وصل أنطونيوس ولوريس وكريس ورومان حاملين الجرحى.
كان جيرميسون بين الحياة والموت، وثيودور شبه غائب عن الوعي، والمخطوطة بين يديه تومض بخفوتٍ أحمر، كأنها تتنفس.

جلسوا في صمتٍ ثقيل، إلى أن قال كريس:

«سارفوس خان... باع لفان الولاء ، فجزاه بقطع عنقه. قال لهم: من باع ولاءه سيبيع قبره غدًا.»

خفض الكفيف رأسه وقال بهدوءٍ عميق:

«اللعنة لا تقتل الخونة فحسب، بل تبتلع الأرض معهم. لم نعد نملك سوى الاتحاد، فإما نُكمل معًا أو نفنى متفرقين.»

تبادل الجميع النظرات، ثم قال رومان:

«العودة إلى البحيرات كانت طريق الجميع الاخير . فان لن يتركها. علينا الاستعداد قبل أن يأتي إلينا بالظلام.»

⊡

وفي اللحظة نفسها، بعيدًا،
كان فان يقف أمام عربةٍ سوداء عند أطراف المشرق.
فتح بابها، فخرج منها الأنبا أوغسطين، شاحب الوجه، عيناه مطفأتين.
قال فان وهو يبتسم ابتسامةً مرعبة:

«حان وقت الانتقام يا قداسة الأنبا... انزل بهيبتك فانا هنا لانهاء قسم قديم بينى وبينك .»

⊡

وفي الجانب الآخر من الأرض،
كان تروفان يواصل رحلته المرهقة عائدًا من الكنيسة.
قال لجنوده بصوتٍ مبحوحٍ وهو يسير نحو البحيرات:

«البابا ينتظر عودة جيش البلاد من حربه بالخارج... عندها سيعلن الحرب الكبرى على فان وأوغسطين.
لكن الوقت لا ينتظر أحدًا... علينا أن نسبقهم.»

وعند شاطئ البحيرات، وقف أنطونيوس بجوار لوريس وكريس، يتأملون الأفق الأسود.
قال أنطونيوس:

«الوقت لا يسعفنا... علينا أن نتحرك قبل أن تعود الجيوش.»

قال الكفيف بصوتٍ هادئٍ كأنه يسمع نداء بعيدًا:

«اللّعنة بيد المخطوطة، والمخطوطة بيد ثيودور.»

فتح ثيودور عينيه ببطء، وصوته خرج كهمسٍ من الأعماق:

«رمز البئر... عاد.
ولابد أن نجتمع نحن الثلاثة... البئر، المخطوطة، والطائر.

الاجتماع الاخير:

دخل ثيودور متكئًا على عصاه، خطواته بطيئة لكنها ثابتة.
وقف في منتصف القاعة، والظلال تمتد على الجدران من وهج النيران الضعيف

جلس يوهان ومن حوله أنطونيوس ولوريس وكريس ورومان والكفيف،
في القاعة الكبرى التي امتلأت بهمهمات الجنود والناجين.
الوجوه شاحبة، والعيون غارقة في ما بين اليأس والأمل

رفع رأسه، وصوته خرج كأنه صدى بعيدٍ من باطن الأرض:

«لم تنتهِ الحرب بعد... بيننا وبين فان معركة لا تشبه ما مضى.
معركة لن تُخاض بالسيوف وحدها، بل بالرموز الثلاثة التي أعادت اللعنة إلى الحياة:
البئر، والطائر، والمخطوطة.
فإذا اجتمعت، انكسر الظل أو انطفأ النور... ولا ثالث بينهما.»

ساد الصمت.
حتى اللهب الخافت بدا كأنه يصغي، والرياح في الخارج انقطعت كأنها تنتظر الكلمة التالية.
لكن ثيودور جلس، وأنفاسه كانت تتقطع من التعب، كأنها تحاول اللحاق بزمنٍ يهرب منه.

⊡

بعدها بساعات،
فُتح باب القاعة ودخل تروفان، وجهه مغطى بغبار الرحلة الطويلة، وثيابه ممزقة.
تقدّم بخطواتٍ ثقيلة حتى وقف أمامهم.
قال بصوتٍ خافت لكنه حادّ:

«قابلت البابا أورليانوس الأشدّ.
الكنيسة قررت انتظار عودة جيش البلاد من حربه في الشمال...
عندها فقط سيُعلنون الحرب الكبرى على فان، ويتركوننا نحرس الرماد.
لكن الوقت لا ينتظر أحدًا... فان لن يُمهلهم.»

تبادلوا النظرات، وكان الصمت هذه المرة أشدّ من أي ضجيج.
وقف أنطونيوس وقال ببطءٍ كأنه ينحت كلماته على الحجر:

«إذا تحرك فان، فالأرض كلها ستشتعل...
علينا أن نكون نحن البداية، لا النهاية.»

رد رومان وعيناه تلمعان بضوء النار:

«سنقاتل حتى آخر ظلّ... فربما يولد النور من قلب العتمة.»

⊡

في الخارج، كانت السماء تتغير لونها إلى الأحمر القاني.
الريح تزمجر من بعيد، كأنها تنذر بما لا يمكن الهرب منه.
وفي الأفق،
بدت ومضات بعيدة تشبه البروق، لكنها لم تكن بروقًا.
كان الجحيم يقترب.

ارتفعت الرايات السوداء من جديد على حدود المشرق،
وصوت الطائر عاد يخترق الليل،
كأنه يعلن أن النهاية لم تبدأ بعد... بل اقتربت الآن.

🔥 انتهى الجزء الثالث عشر

⚜️ الفصل الأول: العوده للقاء

توقفت العربة على اطراف المشرق.
.
فتح الباب ببطء، وخرج منه الأنبا أوغسطين متكئًا على عصاه، وجهه شاحب، لكن عينيه لا تزالان تحملان تلك القسوة القديمة التي اعتاد الجميع أن يراها فيه.
وقف مستقيمًا رغم ضعف جسده، ونظر بعيدًا، لا نحو فان، بل إلى الخراب من حوله.

اقترب فان ببطء.
خطواته ثقيلة، كل خطوة تُصدر صدى كأنه يطعن الأرض.
نصف وجهه المعدني يلمع تحت ضوء المصابيح، والنصف الآخر يشتعل بنُدبٍ ما زالت حية.
ابتسم نصف ابتسامة وقال بصوتٍ باردٍ خالٍ من أي شعور:
"كنتَ تقول إنني لعنة... لكنك الآن تراها تمشي أمامك."

لم يتحرك أوغسطين.
قال بصوتٍ متعبٍ لكنه ثابت:
"أنت لم تكن لعنة، كنت خطأً، وأنا أصلحت هذا الخطأ
ألا تتذكر!."

ضحك فان ضحكة قصيرة، كأنها خنجر يخترق السكون، ثم اقترب حتى صار بينهما خطوات قليلة.
قال وهو يحدّق في وجه أوغسطين:
"أصلحتني؟ أنت لم تُصلح شيئًا. أنت فقط خفت أن يراك الناس كما انت.
وجهك لا يختلف عن وجهي يا أنبا... أنت فقط تحرق الآخرين كي لا يحترق ظلك."

شدّ أوغسطين قبضته على العصا، ونظراته ما زالت لا تلتقي بعيني فان.
قال بصوتٍ غليظٍ حاد:

"أنت تجهل ما صنعت. أنا رفعتك من الوحل، وجعلت لك اسمًا.
لكنّك اخترت أن تسقط.
الظلال لا تنتمي إلا للظلال."

اقترب فان أكثر، حتى صار وجهه على بعد نفسٍ واحدٍ من وجه أوغسطين.
همس بنبرةٍ لا تُخطئها الكراهية:
"الظلال؟... كنتَ تبيع النور مثلما يبيع التاجر الزيت الفاسد.
أنت لست أنبا... أنت بداية اللعنة نفسها."

رفع فان يده، كأنه سيمسك بعنق أوغسطين، لكنه لم يفعل.
مدّ يده ببطء، ومسح الغبار عن كتفه، ثم همس بجملةٍ غريبة:
"الانتقام بالطريقه التى تفضلها انت."

تراجع خطوتين إلى الخلف، ونظر إلى رجاله.
قال بلهجةٍ غامضةٍ باردة:
"خذوه إلى الدير السفلي... هناك فقط سيتذكّر من هو."

تجمّد أوغسطين، وكأنه فهم المقصود.
حاول أن يتكلم، لكن فان استدار عنه دون أن ينظر إليه.
صوته خرج كحكمٍ نهائيٍّ من فم الشيطان نفسه:
"لن أقتلك... سأجعل كل من آمن بك يراك كما أنت."

تحرك الجنود نحوه.
أمسكوا به، واقتادوه إلى الداخل، بينما ظل فان واقفًا وحده.
نظر إلى العربة الفارغة، ثم إلى السماء البعيدة وقال بصوتٍ خافتٍ متحجر:
"اللعنة بدأت من كلمته... وستمتدُ بصمته."

تحت ضوء الفوانيس المتناثرة في شوارع الدير بأرض المشرق ساد صمتٌ ثقيل لا يُكسره سوى وقع خطوات جنود فان وهم يسوقون الأسرى.
كانت الرايات السوداء تُغطي جدران الممرات، والبوابات التي كانت تُفتح للصلاة صارت تُفتح للعقاب.
تبدلت ملامح المكان؛ لم يعد ديرًا، بل صار مسرحًا للظلال.

وقف فان في الساحة الكبرى، يعلو منصةً من الحجر الأسود، تحيط به ألسنة النار كأنها تُبارك حضوره.
رفع صوته، فاهتزت الجدران القديمة:

«أنا فان... ابن الفوضى وأبو اللعنة.
من اليوم، لا صوت للأنبا، ولا مجد لظلال أوغسطين.
المشرق لي... والدير لدم من خدمه.»

كانت نظرات الجنود نحوه كأنهم صنم.
أشار بيده نحو الصفوف الخلفية لإحضاره من الدير السفلى، حيث خرج الأنبا أوغسطين، مقيّد اليدين، رأسه مرفوع رغم جرحٍ فى كبريائه.

اقترب فان منه ببطء، وقال بصوتٍ خافتٍ لكنه كالسيف:

«كنتَ أنتَ الصوت الذي يُطاع... والآن أنتَ الصدى الأخير الذي سأُطفئه بيدي.»

رفع أوغسطين عينيه إليه، فيها مزيج من الغضب والمرارة:

«لا نهايه للصدى يافان.»

ابتسم فان ابتسامةً باردة، وأشار إلى الجنود:

«إذن فليبدأ الحصاد... من الآن.»

أُمسك بالأنبا ودُفع نحو العربة الحديدية السوداء.
أغلقوا الباب بإحكام، وانطلقت الخيول، تصطكّ حوافرها على الطريق الحجري كطبولٍ تُعلن بداية زمنٍ جديد.
وفي آخر نظرة بينهما، لم يكن في عيني فان وعدُ تسليمٍ للكنيسة
بعد ثوان
"أعدّوا قافلة، أوغسطين سيُسلَّم للكنيسة الأم... لكن على يد ثيودور وأنطونيوس."
هكذا قال فان .
ضجّ المكان بالهمس، فالجميع أدرك أن ما يفعله فان ليس إنتقاما عادي ولا تسليمًا رسميًا،
بل إذلالًا علنيًا أمام أعدائه القدامى ،أن يرى أوغسطين نفسه في يد من كان يحتقرهم،
أن يُهان تحت أعين من حاول سحقهم باسم النور،
فذلك هو الانتقام الذي اختاره فان

—-

الفصل الثاني – هديّة فان⚜️

يمرّ الوقت ببطء على أرض البحيرات.
يومان فقط مرّا على سقوط المشرق، لكن الزمن بدا وكأنه انكسر من وطأة ما حدث.
المعسكر صامت إلا من أصوات المطارق، وجراح تُضمد على عجل، وقلوب لم تجد بعد ما يسكّنها.

جلس يوهان في القاعة الكبرى، كتفيه منحنيّتان وثوبه ملطخ بغبار الرحلة.
إلى جواره كان الكفيف ورومان يقلبان السجلات القديمة، يحاولان البحث عن أي ذكرٍ لانبعاث اللعنة الأولى،
بينما وقف كريس ولوريس خارج القاعة يعيدان ترتيب الصفوف،
وجنود البحيرات يرفعون الأسوار الخشبية كأنهم يبنون قلعة من ركام .

أما أنطونيوس فقد بدأ يحرك ذراعه المصابة أخيرًا بعد أيام من الألم،
وثيودور يجلس قرب النار، عينيه غائرتان لكن بريقهما لم يمت،
يتحدث بصوتٍ خافت مع تروفان الذي عاد لتوّه من الكنيسة الأم،
يروي له قصة اللعنة، كيف بدأت بورقةٍ منسية وختمٍ من دم،
وكيف تحوّل أوغسطين من راهبٍ إلى نذيرٍ للخراب.

وفجأة، دوّى من بعيد وقع طبولٍ ثقيلة.
لم يكن صدى حرب، بل خطوات جيشٍ قادم.
ارتفعت الأعين نحو البوابة، فظهرت كتيبة فان تتقدّم ببطءٍ مهيب،
صفوف منتظمة، دروعهم سوداء تلمع كأنها تعكس النيران التي لم تُطفأ بعد،
وأمامهم راية الصخر الرمادي، يتوسطها ختمٌ أسود غريب.

توقّفوا في منتصف الساحة.
تقدّم قائدهم بخطواتٍ ثابتة، وصوته خرج جافًا كأنه يقرأ مرسومًا لا جدال فيه:

"بأمر الملك فان، تُسلّمون هذا الراهب المدعو أوغسطين،
وقد انتهى اسمه من سجلات الظل ، كما انتهى نوره من الأرض.

هذه وثيقة مختومة بخاتم فان، تُجيز لكم محاكمته وتسليمه إلى الكنيسة الأم.
أما الملك... فيُهديكم هذه الجثة الحية، عربونًا للسلام المؤقت،
وليذكّركم بأن انتقامه القادم في ميعاده... سيبلغ الجميع."

ثم أشار القائد إلى العربة السوداء.
انفتح بابها الحديدي، ودُفع منها الأنبا أوغسطين.
سقط على الأرض وسط الصمت، عباءته ممزقة، وجهه مغطى بالتراب والدم،
عيناه نصف مفتوحتين، تحدقان في ثيودور كأنهما تطلبان الخلاص أو الموت، لا فرق.

تجمّد الجميع.
لم يتكلم أحد.
حتى الريح التي اعتادت أن تعوي بين الجبال توقفت كأنها تنتظر ردًّا.

اقترب ثيودور بخطواتٍ بطيئة، نظر إلى أوغسطين الساقط أمامه وقال بصوتٍ خافتٍ متحشرج:

"هكذا يسقط من ظنّ أنه ظلّ الله في الأرض..."

أما يوهان فظلّ واقفًا مكانه، عينيه على الرجل الذي كان يومًا أباه الروحي وعدوّه معًا،
ثم قال بهدوءٍ غريب، أمامه:

"اللعنة لم تُخلق لتُطفأ... بل لتختار مَن يحترق بها أولًا."

تبادل الحاضرون النظرات، والجنود انسحبوا بصمتٍ كما جاءوا،
لا صوت في المكان سوى أنين أوغسطين الملقى على التراب،
والختم الأسود على الوثيقة يلمع في يد ثيودور —
علامةً على أن الجحيم لم يُغلق بعد، بل بدأ لتوّه.

القاعة الكبرى في أرض البحيرات كانت تضجّ بالصمت،
صمتٍ ثقيل يشبه انتظار العاصفة.
جلس ثيودور في صدر المجلس، أمامه أوغسطين مكبّل اليدين،
رأسه مرفوع رغم القيود، وعيناه تلمعان بكبرياءٍ ما زال يقاوم.

توزع الحاضرون حوله؛ يوهان، أنطونيوس، لوريس، رومان، والكفيف،
كلٌّ منهم يحمل في نظرته وجعًا خاصًّا، وثأرًا مؤجلًا.

قال يوهان بصوتٍ حادٍّ كالسيف:

"كم مرة خنتَ عهدك؟ كم قرية سلّمتَها للنار؟
أبي مات بسببك، وماركس دُفن وهو يحاول أن يُكفّر عن ذنبٍ لم يرتكبه.
كل من قابلك ... صار رماد!"

لم يَجِب أوغسطين، ظلّ ينظر إلى الجدار البعيد،
كأن شيئًا فيه أهمّ من كلّ من في القاعة.

تقدّم أنطونيوس، وصرخ في وجهه:

"ظنناك قائدًا، فاتضح أنك أصل الخراب!

من أجل سلطتك، بعت الرهبان، وسلّمت الحق للظلال!"

ابتسم أوغسطين، ابتسامةً باردة لا تحمل ندمًا:

"أنا لم أبع أحدًا... أنتم من لم تفهموا.
أردتُ القوة كي لا نحترق، لكنكم اخترتم الضعف!"

ارتفع صوت لوريس غاضبًا:

"تتكلم وكأنك ضحية! كل ما حدث من لعنةٍ ودمٍ وخرابٍ كان بسببك!"

حينها فقط التفت أوغسطين نحو يوهان،
عيناه تحدّقان فيه بثباتٍ غريب وقال:

"حتى أنت... تشاركني ذنبي يايوهان .
كنت تلميذي، تعلمت مني

ثم نظر لثيودور وقال " إبن إيليا، والدك ماركوس وهذا الكفيف كلهم شركاء لكن إيليا حرضهم ضدى كان ريح تلهب نارا أباك هو ايضا اراد مأردتُ أنا ، والآن تحاكمني بما لم تفهمه بعد."

تكلم الكفيف بحرقه " كنا شركاء فى العلم وفى الدين ،إيليا اراد النجاه من طمعك وحاول حمايه الناس من لعنتك ."

عمّ الصمت.
لم يتحرك أحد، حتى المشاعل كادت تنطفئ من ثقل الهواء.

وقف ثيودور، تقدّم خطوة واحدة، وصوته خرج باردًا حاسمًا:

"ما فعلتَه لا يُمحى، ولا يُغفر.
لم تكن قائدًا، كنت نارًا ظن الجميع أنها نور."

رفع أوغسطين رأسه مجددًا، قال ببطءٍ متحديًا:

"لن تُطفئوا ما بدأته... اللعنة ما زالت حية، وستعود."

أشار ثيودور للحراس، فاقتربوا.
قال وهو ينظر في عينيه للمرة الأخيرة:

"ربما... لكنك لن تراها."

تحرك الحراس، وارتجّت القيود.
وفي اللحظة التي أُغلق فيها باب القاعة خلفه،
هبّت ريح باردة من الممر،
كأنها تذكير بأن اللعنة... لم تُغلق بعد

—-

الفصل الثالث – هزيمة الكبرياء

تقدّم أنطونيوس بخطوةٍ للأمام، وقال بحدةٍ قاطعة:

"هذا هو من أطلق اللعنة، من باع الرهبان، من أضاع المشرق."

صمتَ الجميع لحظة، ثم نهض ثيودور ببطءٍ، وصوته خرج متماسكًا رغم الغضب الذي يغلي داخله:

"لو كان الأمر بيدي، لأمرتُ بقطع رقبته أمام الجميع...
ليأخذ كل جريحٍ حقه، وكل أبٍ ثأره، وكل روحٍ ماتت بسببه عزاءها الأخير."

ارتجّت القاعة بصوت أنفاس الجنود، وظهرت في عيونهم نار الانتقام المكبوت.
لكن ثيودور أكمل بصوتٍ أعمق، أقرب إلى الهمس الثقيل:

"لكن لا... موته هنا ليس كافيًا.
عليه أن يُهان كما أهان الأرض،
عليه أن يرى بعينيه كيف صارت لعنته حريقًا يلتهم مجده،
وأن تشهد البلاد كلها على سقوطه."

أشار ثيودور إلى الحراس وقال بحزمٍ لا يقبل النقاش:

"خُذوه إلى الكنيسة الأم، إلى قداسة البابا أورليانوس الأشدّ بنفسه.
ليس حكمًا فقط... بل اعترافًا علنيًا من فمه أمام الكل بما فعل."

تقدّم أنطونيوس، شدّ القيود بقوةٍ حتى كادت تقطع جلد أوغسطين،
لكن الأخير لم يصرخ، بل رفع رأسه بابتسامةٍ باهتة:

"ستندمون... أنتم لا تعرفون ما أيقظتموه."

ردّ رومان بمرارة:

"نعرف جيدًا... أنت من فتح الباب، ونحن من سيغلقه، ولو بدَمنا."

سار الحراس به خارج القاعة وسط نظرات الكل،
عيونٌ ملتهبة بالحقد، ووجوهٌ متشنجة بين الخوف والراحة.
وعندما أغلق الباب خلفه، نظر ثيودور إلى الأرض وقال بهدوءٍ قاتل:

"اللعنة بدأت بك يا أوغسطين... وستنتهي على رمادك."

تبع كلماته صمتٌ طويل،
ثم تردّد في الممرّ البعيد صوت الأجراس القديمة،
كأن الكنيسة كلها تستعدّ لمحاكمةٍ ليست لرجلٍ واحد،
بل لكل ظلال الماضي

كانت عربة السجن الحديدية تشق طريقها ببطءٍ عبر الطريق المؤدي إلى الكنيسة الأم.
تحت المطر الذي بدأ يهطل خفيفًا، تمايلت الشعلة في يد الحارس، وانعكس ضوءها على وجه أوغسطين الملطّخ بالطين والدم.
لم ينطق بكلمةٍ واحدة منذ خرج من البحيرات، كأن الصمت أصبح حصنه الأخير.

في المقدّمة، كان ثيودور يمتطي جواده، رأسه منكس،
وعيناه تراقبان الطريق الطويل نحو مدينة الكنيسة الكبرى.

بجواره أنطونيوس ولوريس، وخلفهم يسير جنود البحيرات في صمتٍ ثقيلٍ لا يُكسره سوى وقع الأقدام على الحجارة المبللة.

حين بلغوا ساحة الكنيسة،
كانت الأجراس تُقرَع ببطءٍ كأنها تُعلن عن جنازةٍ لا عن محاكمة.
الناس تجمّعوا في أطراف الساحة، بعضهم صامت وبعضهم يتهامس عن "الأنبا اللعنه الساقط" و"الراهب الصامت".
همسات بإنتصار "الصامت " على لعنه "الساقط"
فُتحت أبواب القاعة الكبرى، فاندفعت رائحة البخور الثقيلة،
وعلى المنصة الأمامية جلس البابا أورليانوس الأشدّ، بثوبه الأبيض المطرّز بخيوطٍ من رمادٍ فضيٍّ،
وجهه جامد لا يحمل سوى مزيجٍ من الحزن والغضب.

أُدخل أوغسطين وسط الحراس،
وقف أمام المنصة، نظر إلى البابا ثم إلى ثيودور الجالس في الصف الأول،
عيناه لا تخافان، بل كأنه يرى ايليا هو من يقف لمحاكمته

قال البابا بصوتٍ جهوريٍّ اخترق صمت القاعة:

"أيها الأنبا أوغسطين، تُتهم بأنك جلبت اللعنة على البلاد والعباد ،
وأنك خنت عهد الكنيسة، وأطلقت جيوش الظلال على الأبرياء.
هل تعترف بما فعلت؟"

ابتسم أوغسطين ابتسامةً باهتة،
ثم قال بصوتٍ مبحوحٍ، كأنه يخرج من أعماق قبر:

"اللعنة لم آتِ بها... كانت نائمةً فيهم جميعًا،
وأنا فقط أيقظتها."

تبادل الحاضرون النظرات المرتبكة،
بين من ظنّه جنونًا، ومن شعر للحظةٍ بأن كلماته تحمل صدقًا مرعبًا.

انحنى ثيودور للأمام، صوته منخفض لكن قاطع:

"إذن لتشهد الكنيسة على نهايتك... كما شهدت على بدايتك."

ضرب البابا أورليانوس بعصاه على الأرض فأعلنت الأجراس حكمها،
وصوتها ارتجّ في أروقة القاعة كأنه وعدٌ بنهايةٍ قادمة.

أُدخل أوغسطين إلى محبسه أسفل الكنيسة،
والكل يعلم أن المحاكمة لم تكن سوى بدايةٍ لفصلٍ آخر من اللعنة،
فما زال الظلّ في الخارج يتحرّك،
وما زال اسم فان يُهمس به كالنذير الذي يقترب

الفصل الرابع: عودة الملك الأسود👁

بعد أسبوعٍ واحد فقط من محاكمه أوغسطين ديره الكبرى "دير الظلال باسمه قديما " تحوّلت إلى مملكةٍ من الرماد.
القرى صامتة، الأجراس لا تُقرع، والممرات التي كانت تعجّ بالرهبان صارت تمرّ فيها جيوش الظلال بلا مقاومة.
لم يبقَ من صوتٍ سوى وقع حوافر الخيول فوق حجارة الدير القديم،

ذلك المكان الذي وُلدت فيه اللعنة، وعادت إليه الآن لتكتمل.

في قلب الممر الحجريّ الطويل، تقدّم فان بخطواتٍ ثابتة،
رداؤه الأسود يجرّ خلفه آثار التراب والدم،
والجنود يصطفّون على الجانبين في صمتٍ يشبه العبادة.
كان الدير القديم، دير إجناطيوس، قد صار مركز حكمه الجديد،
ومن قاعاته سيبدأ تنفيذ خطته الأخيرة: فتح البئر.

توقّف أمام البوابة الكبرى للدير،
رفع يده فأحنى الجنود رؤوسهم دفعةً واحدة،
ثم التفت إلى قائده الجديد "إيرن"، وقال بصوتٍ حادٍّ كحدّ السيف:

"كل قريةٍ في من الدير الكبرى "اجناطيوس الان" الى أخر ضفاف المشرق ترفع رايتي قبل الغروب...
ومن يرفض، فليُدفن في ظلّها."

تحركت الكتائب بانتظامٍ مهيب، راياتهم السوداء تملأ الأفق،
يدخلون القرى واحدة تلو الأخرى،
يعلنون أن الملك الجديد ـ فان ـ هو الوريث الوحيد والملك الاول ،
وأن الأنبا أوغسطين انتهى إلى العار.

⊡

في قاعةٍ مظلمة داخل الدير، جلس فان وحده أمام خريطةٍ قديمة،
مرسومة بالحبر والرموز التي لم يكت يفهمها أحد سوا اوغسطين.
كانت الخريطة تشير إلى "البئر الملعونه قديمه".
التى ردمها اوغسطين بدايه قصه الراهب الملعون
التي تقع تحت أقبية المبنى الذى بناه الانبا وقتها،
حيث قال أوغسطين يومًا إنها بابٌ بين العالمين،
بابٌ لا يُفتح إلا إذا اجتمع الدم والنار والاسم الأول للّعنة.

ابتسم فان ابتسامةً باهتة،
ثم تمتم بصوتٍ خافتٍ كأنه يتحدث إلى نفسه أو إلى من لا يُرى:

"لقد خانني مرتين... مرة حين سمّاني ملعونًا،
ومرة حين ظنّ أنه نجا من لعنتي.
لكنني سأجعله يرى بعينيه أن النار التي خلقها لم تنطفئ... بل صارت أنا."

رفع رأسه نحو سقف القاعة المظلم،
حيث تتدلّى鎖 السلاسل القديمة من زمن الرهبان الأوائل،
وقال بصوتٍ يشبه القسم:

"حين يُفتح البئر، لن يكون أوغسطين إلا قربانها."

⊡

مع حلول المساء،
أضاءت التلال المحيطة بالمشرق بنيران المعسكرات الجديدة.

كل قريةٍ رفعت راية الصخر الأسود،
وكل من رفض أُعدم في الميدان.
الناس بدأوا يتهامسون باسمٍ جديدٍ يملأ قلوبهم بالخوف:
الملك الأسود-فان- .

وفي قلب الدير،
تحت السلالم الحجرية التي تهبط إلى الأعماق،
كان صوت الماء يتردد كأن شيئًا يتحرك في القاع.
وقف فان هناك، على حافة الظلام،
يهمس لنفسه بابتسامةٍ باردة:

"البئر تسمعني... اقترب وقتها.

—-

نُذر البئر

قاعة البحيرات غارقة في سكونٍ ثقيل،
إلا من صدى خطواتٍ متقطعة واهتزاز اللهب فوق الجدران الحجرية.
عند المذبح، وقف ثيودور بخشوعٍ تام، يقرأ صلاته بصوتٍ خافتٍ كأنها همهمة تخرج من أعماق الأرض.
إلى جواره، كان الكفيف يردّد الأدعية بصوتٍ مرتجف،
يداه مرفوعتان إلى الأعلى، وملامحه تشي بأنه يسمع ما لا يُسمع.

الهواء تغيّر...
صار أثقل، كأن الغرفة تنبض بنَفَسٍ غير بشريّ.
فجأة، اهتزّ الضوء على الجدار،
وأضاءت الرموز المحفورة على المخطوطة الموضوعة على المذبح،
نورٌ أحمر غامق أخذ في الاتساع كأن قلب الأرض انفتح تحتهم.

فتح ثيودور عينيه ببطء، حدّق في المخطوطة،
ثم همس بقلقٍ مكتوم:
"إنها تتحرك من تلقاء نفسها..."

رفع الكفيف رأسه كأن شيئًا اخترق سمعه، وقال بصوتٍ مبحوح:
"البئر تستيقظ... أشعر بصوتها بين التراب والماء."

في تلك اللحظة، اخترق المكان صريرٌ حاد،
وصوتُ الطائر يشقّ السقف المرتفع وهو يحوم فوقهم،
يصرخ صرخةً طويلة، كأنها استغاثةٌ من عالمٍ آخر.
تطاير الرماد من المذبح، وسقطت الشموع واحدةً تلو الأخرى.

اقترب ثيودور من الضوء المرتجف،
مدّ يده بحذرٍ نحو المخطوطة،
لكنّ الرموز على الصفحة بدت كأنها تخرج ضوءًا حيًّا.
ارتدّ إلى الخلف وهمس:
"هناك من يفتح الطريق من الجهة الأخرى... البئر ليست مغلقة بعد."

الطائر صرخ مجددًا، ثم اندفع خارج القاعة نحو السماء،

وصوته ظلّ يتردّد بين أروقة البحيرات كتحذيرٍ لا يخطئه القلب.

قال الكفيف وهو يضع يده على صدره:
"القادم لا يحمل نبوءة... بل حكمًا."

أغمض ثيودور عينيه لحظة، والعرق يتصبب من جبينه،
ثم قال بصوتٍ واهنٍ لكنه حاسم:
"البئر عادت إلى الحياة...
من يقترب منها الآن،لايفتح الا الدمار."

وانطفأ آخر لهبٍ في القاعة

الفصل الخامس : عجوز المنفى 🕯️

كان فان يقف أمام البئر الملعونة.
المكان ساكن، كأن الهواء نفسه توقف احترامًا لشيءٍ لا يُرى.
اقترب بخطواتٍ ثابتة، نظر في الماء الذي بدا أسودَ كسواد الحمم حين تخمد.
مدّ يده ببطء، وما إن لامست الماء حتى تحوّل السواد إلى حمرةٍ فاقعة، كدمٍ يغلي في قلب الأرض.
شهق، وسحب يده فورًا، فعادت المياه إلى سوادها كأن شيئًا لم يكن.

تراجع خطوةً إلى الوراء، والجمود يسيطر على وجهه.
فكّر في البئر... السرّ الذي عاش أوغسطين حياته يحوم حوله، ولم يُبح به لأحد.
ما الذي كان يخفيه حتى الموت؟

وفجأة، خرج صوتٌ أجشّ من خلفه:
- «تتبع خطاه حتى النهاية... ولم تفهم أنه لم يصل أبدًا.»

استدار فان بحدة، فرأى عجوزًا واقفًا عند أطراف الظل،
ملتحفًا برداءٍ رماديٍ متّسخ، عيناه وميضان باهتان كأنهما جمرتان في رمادٍ بارد.

قال فان وهو يضيق عينيه:
- «أنت...؟! كيف دخلت؟ المكان محاصر برجالي!»

ضحك العجوز بخفوتٍ، ضحكةً جافةً كحجرٍ يتفتّت:
- «رجالك؟ كلهم موتى يا فان، لا يرون إلا ما يُسمح لهم أن يروا...»

تقدّم خطوة، وهمس:
- «بيدك دماءٌ كثيرة... وبيدك ستُفتح البئر. صارت حمراء لأنك لم تُخلق لتمنعها، بل لتوقظها.»

تجمّد فان في مكانه.
الريح تعصف حول البئر كأنها تنهيدةٌ من باطن الأرض.

تابع العجوز، صوته يرتفع تدريجيًا كأن الظلال تتكلم من خلاله:
- «البئر مرآةُ المصير... ترى فيها ماضيك ومستقبلك، وتملكها إن اجتمع فيها الطائر والمخطوطة.
هذا مفتاحها الذي سعى إليه أوغسطين عمره كله... ومنعه إيليا وماركوس.
أما ورقته القديمة؟ لم تكن سوى رموزٍ للعنة، تعطيلٌ لا أكثر.

أما القوة... فهنا، في قلب البئر.»

ارتجّ المكان، واهتزت النار الضعيفة حول الجدران.
نظر فان حوله، لم يعد يرى أحدًا من رجاله.
رفع صوته غاضبًا:
- «دخلتَ من أين أيها العجوز؟!»

ابتسم العجوز، ابتسامةً باردة، وقال بصوتٍ بالكاد يُسمع:
- «يا من عاد من الموت... أنا ظلّ، وأنت تدري ما معنى أن يتكلم الظل.»

ثم تراجع ببطء، خطوةً تلو الأخرى،
ومع كل خطوةٍ كان جسده يذوب في العتمة حتى تلاشى تمامًا،
كأن الظلام ابتلعه دون أثر.

وقف فان وحده، والهواء من حوله يختنق.
حدّق في البئر طويلاً ثم تمتم بصوتٍ منخفضٍ كالوعد:

- «يا عجوز المنفى...
إن لم تصدق نبوءتك... فَرقابُكم جميعًا هي الثمن.»

وانفجر صدى كلماته في الفراغ كأن البئر ابتلعتها وردّدتها من الأعماق...
صوتٌ يشبه الضحك، لا يُعرف إن كان من الأرض، أم من الجحيم نفسه

-
الفصل السادس : صدى البئر✨
-
في قاعة البحيرات،
الشموع القليلة تترنح كأنها تخاف من أن تنطفئ،
وصوت الماء في الممرات القديمة يأتي متقطعًا، كأن الجدران نفسها تتنفس بصعوبة.

جلس ثيودور في صدر القاعة،
أمامه الكفيف، وعلى يمينه يوهان،
بينما كان رومان يراجع بعض الأوراق القديمة،
وأنطونيوس يجلس في الظل، يحدّق في الأرض كأنه يرى ما لا يُرى.

قال ثيودور بصوتٍ خافتٍ متعب:
«كل شيء بدأ من البئر...
هكذا قال ماركوس.
من هناك خرجت اللعنة، ومن هناك سقط أوغسطين في ظله.»

ردّ الكفيف وهو يمدّ يده نحو النار:
«رأيتُ رموزها تتغيّر الليلة... كأن شيئًا تحرك من الداخل.»

سكتوا جميعًا، ثم رفع أنطونيوس رأسه ببطء،
صوته كان غليظًا، مترددًا بين الحزن والغضب:
«لقد رأيتُ البئر بعينيّ، حين كنتُ في دير الظلال.
كانت مغطاة بالحجارة والحديد،

لكن تحتها... ظلامٌ حيّ، كأنه ينتظر من يوقظه.
أوغسطين هو من أمر بطمسها، ثم أقنع الجميع أن ما فيها لعنة لا تُلمس.
لكنه كان يعرف أنها قوّة، لا لعنة.
رأيته يومها... كان يبتسم وهو يغلقها بنفسه.»

رفع يوهان عينيه، نبرة صوته ثقيلة كأنه يتذكّر كل ما ضاع:
«هو الذي بدأ كل هذا...
قتل من أجل أن يخفي ما وجد هناك.»

قال رومان بمرارةٍ وهو يطوي المخطوطة بين يديه:
«كل الطرق تقود إليه... إلى ظله، إلى طمعه القديم.
لكن ماذا لو فُتح البئر مرةً أخرى؟»

أجاب ثيودور ببطء، نبرته كأنها صلاة حزينة:
«حين تُفتح، لن تبقى سماء فوقنا كما هي.
لن تكون حربًا بين البشر... بل بين النور نفسه وظلاله.»

ساد الصمت،
الريح تمر من بين الأعمدة وتصدر صفيرًا حادًّا يشبه الهمس.
كلٌّ منهم كان يعرف أن الغد لن يحمل سلامًا.

⊡

وفي لحظةٍ مفاجئة،
فُتح باب القاعة بصوتٍ قوي،
ودخل تروفان بوقاره ،والعزم في عينيه.
توقف أمامهم وقال بصوتٍ حادٍ :

«وصل مبعوث الكنيسة الأم قبل قليل، آتى الى وتحدث معى
لم يمكث طويلًا... سلّمني مرسوم البابا بنفسه وغادر.»

اقترب ثيودور منه وسأله:
«ما الذي قاله المرسوم؟»

أجاب تروفان ببطءٍ وهو يفتح اللفافة المختومة بالشمع الأحمر:
«بأمر البابا أورليانوس الأشدّ...
ستُقام محاكمة الأنبا أوغسطين صباح الغد
في قاعة الحكم الكبرى للكنيسة الأم،
بحضور كل رؤساء الكنائس والمراتب العليا:
الأساقفة السبعة، قضاة الإيمان،
ووفود المشرق والبحيرات والجنوب.
سيُعلن الحكم أمام الجميع، ليُنهي عهد الظلال إلى الأبد.»

تبادلوا النظرات — لا أحد منهم تحدّث،
لكن الخوف في العيون كان أبلغ من أي كلمة.
أوغسطين سيُحاكم، نعم،
لكنهم جميعًا يعلمون أن ما بعد تلك المحاكمة... لن يشبه ما قبلها.

الفصل السابع :محاكمة الأنبا أوغسطين

كانت شوارع المشرق تضجّ بالعربات والجنود.
الطرق المؤدية إلى الكنيسة الأم امتلأت بوفودٍ جاءت من كل أرض:
من الجنوب، من البحيرات، ومن المشرق المحطّم.
الرايات ترتفع، والأجراس تدقّ بإيقاعٍ ثقيلٍ يشبه نغمة جنازة.

في الساحة الكبرى، تجمّع الناس على أطراف البوابات،
الوجوه مرهقة، والعيون تترقب ذلك اليوم الذي ظنّ الجميع أنه لن يأتي.
عند المدخل الرئيسي، وقف جنود الكنيسة بصفوفٍ متقنة،
لكنّ العيون تجمّدت فجأة حين ظهرت مجموعةٌ غريبة قادمة من بعيد ــــ
جنودٌ يرتدون دروعًا داكنة، وعلى صدورهم رمز الصخر الرمادي...
رمز فان.

تبادل الحراس النظرات، والهمس ساد المكان.
كيف يُسمح لرمز فان رموز اللعنه أن يدخل أرض الكنيسة؟
لكنّ أحد قضاة الإيمان رفع يده قائلاً بصرامة:
«هؤلاء يحملون إذنًا من البابا نفسه... لقد جاؤوا كشهودٍ على سقوط المشرق.»

في الداخل، كانت القاعة الكبرى مضاءة بشموعٍ عاليةٍ تُلقي ظلالًا مرتجفة على الوجوه.
جلس في المقاعد الأمامية الأساقفة السبعة، وإلى جوارهم قضاة الإيمان،
ومن خلفهم ممثلو الكنائس المحلية، والرهبان الكبار،
وفود البحيرات والمشرق والجنوب...
حتى الفراغ بين الأعمدة كان مكتومًا بالرهبة.

دخل ثيودور متكئًا على عصاه،
وعلى يمينه أنطونيوس بخطواتٍ واثقة رغم الجراح القديمة،
وخلفهما رومان وتروفان،
وجوههم صلبة كأنها نُحتت من الحزن.

أما يوهان، فبقي في البحيرات مع كريس،
قال قبل رحيلهم بصوتٍ خافت:
«لن أحضر دفن الماضي... سأنتظر ميلاد ما بعده.»

دوّت الأجراس ثلاث مرات.
ثمّ فُتح الباب العظيم للقاعة،
ودخل البابا أورليانوس الأشدّ بخطواتٍ بطيئةٍ مهيبة،
يرتدي ثوبًا أبيض تتدلّى منه خيوطٌ مذهّبة،
وعلى وجهه هدوءٌ لا يطمئن أحدًا.

وقف الجميع احترامًا،
وما إن جلس على كرسيّ الحكم حتى رفع يده،

وصوته خرج جهيرًا، مزلزلًا، كأنه يُعلن حكم السماء:

«يا أبناء الكنيسة...
لقد سقط المشرق لأن النور غُيّب،
ولأنّ بعض القلوب آمنت بالقوة أكثر من الإيمان.
سعى بعضٌ منّا وراء أسرارٍ لا تخصّ البشر،
فنُزعت عنهم البركة، وصارت اللعنة لباسهم.»

ساد الصمت، لم يتحرك أحد.
كان أوغسطين راكعًا في منتصف القاعة، رأسه منخفض،
والسلاسل حول يديه تلمع تحت الضوء.

تابع البابا بصوتٍ يشتدّ مع كل كلمة:

«كل من يطلب الخلاص من غير طريق الحق،
يُبتلع بما صنعته يداه.
ومن فتح باب الظلّ، سيُغلق عليه فيه إلى الأبد.
الخلاص لا يُشترى بالقوة،
ولا يُستردّ بسفك الدم،
بل بالحق وحده... وبالعودة إلى طريق الرب.»

رفع ثيودور نظره نحوه، وداخل عينيه صراعٌ بين الغضب والرهبة.
حتى أنطونيوس، الذي واجه الجحيم في المشرق،
أحنى رأسه احترامًا أمام الكلمات رغم ما يختبئ خلفها من مرارة.

⊡

ثم أشار البابا بيده، فدخل الحراس يقودون أوغسطين إلى المنصّة.
خطواته كانت بطيئة، لكنها لم تعرف الخوف،
وفي عينيه بريق كبرياءٍ قديمٍ لا يريد أن يموت.
القاعة كلها حُبست أنفاسها.
اليوم... سيتكلم الظلّ أمام النور

☸️ المحاكمة العظمى

جلس الجميع في القاعة الكبرى للكنيسة الأم، على المقاعد الحجرية التي أحاطت بالمنصة العالية.
صوت الريح يتسلل عبر النوافذ المرتفعة، يحمل معه صدى أجراس بعيدة، كأنها ترثي ما تبقى من الحق.

وقف البابا أورليانوس الأشدّ، مهيبًا بثوبه الأبيض، وعيناه تلمعان بصلابةٍ هادئة.
أشار بيده، فانحنى الحرس وسحبوا القيود عن يدي أوغسطين، ثم دفعوه للوقوف في منتصف القاعة.
كان أوغسطين شامخًا، رغم الانكسار الظاهر في كتفيه، وجهه شاحب، وعيناه تترصدان الوجوه كأنها تبحث عن ثغرةٍ في القدر.

قال البابا بصوتٍ رخيمٍ وحازم:

"أنبا أوغسطين... نحن اليوم لا نحاكم رجلًا، بل نحاكم ظِلّ قرونٍ من اللعنة."

ساد الصمت، لا يُسمع سوى حفيف الثياب بين الحضور.

تابع البابا وهو يتصفح أوراقًا قديمة أمامه:

"التهمة الأولى... فتح بوابة الدير يوم الغوغاء، وإدخالهم إلى حرم الرهبان،
حيث قُتل الأب إيليا ومجموعةٌ من الرهبان القدامى الذين رفضوا طاعتك.
بماذا تردّ؟"

رفع أوغسطين رأسه ببطء، وصوته خرج كأنه نصل:

"كنت أحمي الدير من فسادهم... لا أحاكم على الحسم، بل على القوة."

ضجّت القاعة همسًا، فأشار البابا بيده فعاد الهدوء.

"التهمة الثانية... مقتل الأب إسحاق ومن معه على يد القائد الذي كان تابعًا لك.
هل أنكرْتَ أو أمرت؟"

ابتسم أوغسطين ابتسامةً باردة، وقال:

"من يختار السيف، عليه أن يقبل نزفَه. إسحاق اختار عصياني، فاختاره الموت."

ارتفعت أنفاسٌ مكتومة، وتبدلت نظرات الحضور من الاشمئزاز إلى الخوف.

"قضية ماركوس وبولا،
الأول أذعت انه انتحر ، والثاني أُعدم لمعرفته بما حدث.
ما قولك؟"

خفض أوغسطين عينيه لحظة، ثم قال ببطءٍ:

"الخيانة لا تُغتفر، ولو كانت في صمت."

أغلق البابا السجل بين يديه، وصوته ازداد حِدّة:

"أنت المتهم أيضًا بإشعال حروب الظل الأولى والثانية،
وتأسيس جيش الرموز الذي سفك دماء الأبرياء باسم النور.
وبإطلاق لعنة الوحش التي دمرت القرى، ومات فيها مبعوثيّ، ومعه سكرتيري فرانس.
وبإنشاء بوابة المنفى التي أودعتَ فيها من خالفك الرأي دون محاكمة."

هنا التفت البابا نحوه مباشرة وقال:

"هل تنكر شيئًا من هذا؟"

رفع أوغسطين عينيه، وفي صوته برودةٌ متعالية:

"أنا لم أخلق اللعنة... أنا فقط فتحت بابها."

ساد الصمت التام،
لا صوت سوى دقات خافتة كأنها من تحت الأرض.

جلس البابا ببطءٍ، وقال:

"إجاباتك ضبابٌ كعهدك، يا أنبا الظلال...
لكن الغد لن ينتظر ضبابك.
غدًا، عند شروق الشمس، يُعلن الحكم أمام جميع كنائس المشرق والبحيرات."

ثم نهض الجميع ببطءٍ، وهم ينظرون إلى أوغسطين،
ذلك الذي كان يومًا رمزًا للقداسة،
وأصبح اليوم مرآةً للهاوية

مع طلوع الشمس على جدران الكنيسة الأم،
اصطفت الوفود في القاعة الكبرى، والرهبان واقفون بوجوهٍ يعلوها الصمت والخوف.
وقف البابا أورليانوس الأشدّ، يحمل في يده ختم الكنيسة، وقال بصوتٍ جهورٍ كأنه يصدر من قلب الحجر:

«يُجَرَّد الأنبا أوغسطين من كل رتبةٍ واسمٍ ومقام.
يُمحى من سجلّ القداسة، وتُرفع عنه البركة،
ويُسجَّل في سجلّ اللعنة إلى يوم الدين،
ويحكم عليه بالموت، جزاءً لما جلبه من الخراب على الرهبان والبلاد والكنيسة.
وينفَّذ الحكم في أرض البحيرات، أمام الراهب الأب ثيودور،
الراعي الروحيّ، وقاضي البحيرات الأوحد.»

ساد الوجوم في القاعة.
لم ينطق أحد، سوى صوت أوغسطين الذي تمتم بكلماتٍ مبهمةٍ لم يفهمها أحد،
ثم رفع رأسه نحو البابا وقال بابتسامةٍ مشوبةٍ بالهزيمة:

«ستعرفون يوماً أن الموت ليس نهاية،
وأن اللعنة لا تُعدم... بل تنتظر.»

اقتاده الحراس خارج القاعة،
وسقط صوته مع خُطواتهم الثقيلة على أرض الكنيسة الرخامية.

وفي الخارج،
كانت القوافل تستعدّ للرحيل نحو البحيرات ––
الأرض التي شهدت البداية،
والأرض التي ستشهد النهاية

––

الفصل الثامن – تنفيذ الحكم
–

كانت القافلة تشق طريقها نحو البحيرات ببطءٍ ثقيل،
الجنود يحيطون بعربةٍ سوداء مغلقة،
يُقيَّد فيها الأنبا أوغسطين بالسلاسل الحديدية،
وعيناه المطفأتان تنظران في صمتٍ نحو المجهول.
كلما مرّوا بقرية، أُغلقت الأبواب، وانطفأت النيران،
كأنّ الناس يخافون من أن تلمسهم اللعنة الهاربة من صاحبها.

في أرض البحيرات، كان ثيودور يقف على صخرةٍ عالية تطلّ على الساحة.
إلى جواره أنطونيوس ورومان وتروفان،
والكفيف يحمل الصليب الحديدي بيدٍ مرتجفة،
يستعدّ الجميع لطقسٍ لا أحد يريد أن يشهده.

صوت الأجراس يعلو،
والبحيرات من بعيد تلمع تحت شمسٍ باهتة،
كأنها تنتظر أن تعرف: هل ستغسل الخطيئة... أم تبتلعها؟

اقتربت القافلة،
فتحرّك الرهبان ببطءٍ نحو الساحة الكبرى.
نزل أوغسطين، وقد بدت عليه قسوة السنين وكبرياء السقوط.
لم يرفع عينيه عن الأرض، ولم ينطق بشيء.

في تلك اللحظة،
كان عددٌ من جنود فان الذين شهدوا المحاكمة يسابقون الريح.
تقدّم قائدهم إلى فان، وهو راكع، وقال لاهثًا:

"مولاي... الحكم صدر.
الراهب الصامت هو من سينفّذ الإعدام بيده."

ساد الصمت في خيمة فان الواسعة،
ثم ارتفع صوته المبحوح كزمجرة الحديد:

"هو من سيُنهي حياة أستاذه؟
حسنًا... فلنجعل النهاية على مرأى الجميع."

نهض من مكانه،
ارتدى درعه الأسود، ووضع قناعه المعدني على نصف وجهه.
أشار إلى رجاله، فهبّت كتائب الظلال كعاصفةٍ من الحديد.

تحرّكت الجيوش في اتجاه البحيرات،
الرايات السوداء ترفرف فوقها كشبحٍ يغطّي السماء.
كان الغرض واضحًا:
ليس إنقاذ أوغسطين،
بل حضور الإهانة الكبرى —
أن يُعدم الأنبا أمام من كانوا يومًا رهبانه.

ومن بعيد، كانت الأرض تهتزّ من وقع خيولهم.
وفي قلب البحيرات، رفع ثيودور رأسه فجأة،
كأنّه شعر بشيءٍ قادم من خلف الأفق.

لم يكن يدري أن الظلّ يسير نحوه،
وأن فان قد اقترب

ثبتت عينا أوغسطين على فان للحظةٍ طويلة، كأنّ بين النظرتين تاريخاً كاملاً من الخيانة والدم.
لم يتكلّم أحد، الهواء كان ثقيلاً، والوجوه من حولهم تنتظر الانفجار أو الخلاص.

وفجأة، تجمّد كل شيء.
ظهر عجوز المنفى أمام أوغسطين، واقفاً في صمتٍ تام، لا يراه أحد سواه، كأنه انبثق من ظله.
لم يتحرّك فان، ولم ينتبه أحد.
كان أوغسطين وحده مَن سمع صوته وهو يهمس وسط العدم.

قال أوغسطين بصوتٍ مبحوح، ممتزج بالغضب والانكسار:
«نفذتُ كل ما كان... وخانني فان في آخر لحظة... اللعنة غدرت بي كما غدرت بهم جميعاً!»

أجابه العجوز، وصوته كأنّه يأتي من أعماق الأرض:
«حذّرتُك يوم لقائنا في أرض المنفى...
من النظر في عيون اللعنة، لأنها تبتلع كل مَن يوقظها.
قبلك فعلها يوشع... والآن أنت، يا أنبا الظلال.»

اقترب العجوز منه خطوة، وانحنى قليلًا كمن يودّع:
«دورك انتهى، وقد أدّيته على أكمل وجه.
النهاية واحدة يا أوغسطين...
أن تموت فوق الأرض أو تحتها... وأنت اخترت طريقك.»

اختفى العجوز كما ظهر، تاركاً أوغسطين في مواجهة الصمت.
في تلك اللحظة، ارتفع سيف الجندي المكلّف بتنفيذ الحكم،
وبضربةٍ واحدةٍ انشقّ الهواء وسقط الرأس على الأرض،
يتدحرج بين الغبار كخاتمةٍ لاسمٍ لُعن حيًّا وميتًا.

هكذا انتهى الأنبا أوغسطين،
وسُجّل موته كآخر فصلٍ في حكاية اللعنة الأولى

الفصل التاسع ؛ عهد فان وزياره البئر

خرج فان من أرض البحيرات بخطواتٍ ثابتة، تتقدّمه كتيبته السوداء في صمتٍ مهيب.
لم يكن في صوته غضبٌ هذه المرّة، بل برودٌ يشبه ما قبل العاصفة.
توقّف أمام ثيودور، الذي كان يقف عند بوّابة الحصن الأولى، تحيط به وجوه رفاقه — أنطونيوس، رومان، والكفيف.

قال فان بنبرةٍ هادئة تخفي ما وراءها:

«انتهى زمنُ اللعنة الأولى، يا راهب الصمت... لكن ما تحت الأرض لم ينتهِ بعد.
البئر التي كنتم تخشونها ما زالت هناك، تنبض كقلبٍ لم يمت.
تعالَ، وانظر بعينيك... فربّما تعرف ما أخفاه أوغسطين عنكم جميعاً.»

ظلّ ثيودور صامتًا، عيناه تتنقّلان بين وجه فان وراياته، وبين الأرض التي اختلط عليها دم الظالم والمظلوم.
ثم قال بعد لحظةٍ طويلة من التفكير:

«إن كان ما تقول صدقًا، فأريد أن أرى.
لكنّي أطلب عهدًا بالأمان، لي ولمن معي.
لن ندخل بين جيشك إلّا بضمانٍ منك.»

ابتسم فان ابتسامةً غامضة، وقال وهو يدير ظهره:

«أعاهدك بعهد الظلّ... لا يمسّكم أحد ما دمتم ضيوفي في أرض البئر.»

همس رومان في أذن ثيودور، والقلق يرتجف في صوته:

«تثق في عهدٍ من رجلٍ لا يؤمن إلا بالقوة؟»

ردّ ثيودور بصوتٍ منخفضٍ وهو يحدّق في الرايات السوداء البعيدة:

«لا أثق فيه، لكنّي أثق بما ينتظرنا هناك.
إن خان فان العهد... فلتكن البحيرات آخر ما يدافع عن النور.»

اقترب يوهان سريعًا وقال:

«فان لا يعرف إلا الخيانة، يا ثيودور.
كيف تذهب إليه بنفسك؟»

نظر إليه ثيودور نظرةً حاسمة، كأنها فاصلٌ بين عهدين:

«لأن طريق الخلاص يمرّ من قلب الجحيم، يا يوهان.
وإن لم نواجه البئر، فستأتى هي إلينا.»

ثم استدار نحو رفاقه وقال بهدوءٍ حاسم:

«نذهب نحن الأربعة... أنا، أنطونيوس، رومان، والكفيف.
لن يأتى معنا غير مجموعة صغيرة من الجنود.
أما أنت، يا يوهان... فتحرس البحيرات مع كريس ولوريس،
فإن خان فان عهده، فاجعل الأرض كلها تعرف أن اللعنة عادت.»

صمت الجميع، والرياح تعصف برايات البحيرات كأنها تصفق لقدرٍ لا مهرب منه.
ومع رحيل فان في الأفق، بدأ زمنٌ جديد من الظلال

تحرّك ثيودور وأنطونيوس ورومان والكفيف، ترافقهم كتيبةٌ صغيرة من أقوى جنود البحيرات، صامتين كأنهم يسيرون في جنازةٍ لا تخصّهم وحدهم.
كان الطريق إلى المشرق طويلًا، تملؤه رائحة الرماد والعفن، وكلّما اقتربوا أكثر بدت الأرض كأنها تُجرّ قسرًا إلى سلطانٍ جديد.

عند مشارف المشرق، توقّف رومان وهو يتأمل الخراب المنظّم حوله:

«لم تمرّ سوى أسابيع قليلة على سقوطها... وانظر إليها الآن.
كل شيء تغيّر... الجنود في كلّ مكان، والقرى تعمل كأنها آلات.
من يعارض يُعلّق، ومن يصمت يُساق، ومن يطيع يعيش ليومٍ آخر.»

تكلّم الكفيف بصوتٍ باردٍ كأنه يحلل مشهدًا يراه بعينٍ أخرى:

«هؤلاء ليسوا غوغاء يا رومان...
فان لم يصنع جيشًا فقط، بل صنع نظامًا من الخوف.»

كانت رايات فان السوداء ترفرف فوق كل سطح، تحمل الرمز الحجريّ المكسور، إشارةً إلى كسر عهدٍ قديمٍ لم يعد له مكان.
مرّوا من ساحةٍ كانت يومًا سوقًا، والآن صارت ميدانًا للتعذيب،

ثم من دار عبادةٍ تحوّلت إلى مخزنٍ للطعام والسلاح.
لم يبقَ شيء على حاله.

حين خرجوا من أطراف المشرق باتجاه قرى الظلال — تلك التي كانت يومًا تابعةً لدير الأنبا إغناطيوس قبل أن يمحو أوغسطين اسمها —لدير الظلال ثم يدور القدر ويمحى اسمه ايضا.
تجمّع الناس على جانبي الطريق، وجوههم منهكة، عيونهم تتابعهم بخوفٍ وفضول.
كانوا جميعًا يرتدون ثيابًا رمادية موحّدة، يعملون كأنهم مسلوبو الإرادة،
وكأنّ اللعنة صارت نظام حكمٍ لا يُكسر.

قال ثيودور وهو ينظر إلى المباني العالية التي شيّدها أوغسطين زمن سلطته:

«هنا بدأت كلّ الحكايات... وهنا أيضًا قد تنتهي.»

في منتصف القرية، ارتفعت بوابةٌ ضخمة، تتدلّى منها راية فان،
واقترب منهم قائد الحرس — رجلٌ عملاق، يرتدي قناعًا معدنيًا يُخفي ملامحه، وصوته يجلجل كالرعد:

«ضيوف الملك فان... تفضّلوا إلى القصر. لقد أمركم الملك أن تُستقبلوا كما يُستقبل الملوك.»

تبادل الأربعة نظراتٍ سريعة، ثم تابعوا السير خلفه.
دخلوا القاعة الكبرى، المكان الذي كان في الماضي بيتًا للعبادة،
فإذا به قد تحوّل إلى قصرٍ من رخامٍ أسود، تتدلّى من سقفه سلاسل نحاسية وأعلامٌ داكنة،
وفي صدره جلس فان على عرشٍ من الحديد والظلّ، خلفه لهبٌ يرقص في صمتٍ غريب.

ابتسم فان وهو ينهض لاستقبالهم، وقال بصوتٍ هادئٍ يحمل شيئًا من الإغواء:

«لا وقت للكلمات يا ثيودور...
تعالوا، لنرَ البئر معًا. فقد آن أوان الحقيقة.»

ساد الصمت للحظةٍ قصيرة،
ثم تبادل الرفاق نظراتٍ ثقيلة، وتبعوا فان نحو الممرّ المظلم المؤدي إلى أعماق الدير،
حيث ينتظرهم ما لا يُرى بالنور
—

الفصل العاشر – إلى البئر

تحرّكت كتيبة البحيرات خلف فان في صفٍّ منتظم، أعلامهم الزرقاء يعلوها شعار الشمس الذهبية.
الجنود يسيرون بخطواتٍ ثابتةٍ على أرضٍ غريبةٍ عنهم، أرضٍ تغيّر كل شيء فيها خلال أسابيع قليلة من حكم فان.

المنازل التي كانت يومًا مأوى للفقراء تحوّلت إلى ثكنات، والساحات امتلأت بجنودٍ بوجوهٍ متشابهةٍ، لا حياة فيها.
القرى كلها تخضع لصوتٍ واحد، والناس تسير في الطرق بخوفٍ مكتوم.

كان ثيودور في مقدّمة الصف، إلى جواره رومان والكفيف وأنطونيوس.
حين مرّوا بجوار بيتٍ صغير مهدومٍ جزئيًا، توقّف ثيودور لحظة.
البيت بدا مألوفًا على نحوٍ مؤلم.

همس رومان بصوتٍ خافتٍ:
"هذا بيت ماركوس..."

لم يجب ثيودور، لكن ملامحه انقبضت، ونظر إلى الباب المحطّم كأنّ شيئًا في داخله يناديه.
تذكّر الليالي التي كان ماركوس يختبئ فيها في السرداب السفلي، يكتب رسائله الأخيرة،
يتحدّث عن الظل،وعن الخوف الذي لا يُروى.

أكملوا السير حتى وصلوا إلى الصرح الحجريّ الكبير الذي بناه أوغسطين فوق البئر.
البناء بدا كهيكلٍ طوبى بلا روح، نُزعت منه قداسة الماضي، وصار قبرًا للضوء.

وقف فان أمام البوابة الحديدية، نظر إليهم جميعًا وقال بنبرةٍ واثقةٍ باردة:
"هذا هو المكان... ما من طريقٍ بعده.
ادخلوا، فهنا نعرف من منا يملك الحقّ في الحلم، ومن يسقط في أعماق البئر."

تبادلوا النظرات للحظة، ثم تحرّك فان أولًا، يتبعه القائد المقنّع، وثيودور، والكفيف، ورومان، وأنطونيوس.
خطواتهم تردّد صداها في الفراغ الحجريّ، وكلّ خطوةٍ كانت كأنها تقترب بهم من فم الجحيم.

وعندما عبروا البوابة، كان الهواء نفسه قد تغيّر — صار أثقل، كأنه يحمل أنفاس الموتى.
هناك... بدأت رحلة البئر

نزلوا الواحد تلو الآخر.
فان أولًا، ثم ثيودور، فالكفيف، وأنطونيوس، ورومان من بعدهم.
الدرجات الحجرية كانت باردة كأنها عظام ميّت، والهواء يزداد ثِقلاً مع كل خطوةٍ إلى الأسفل.
الصمت غطّى المكان إلا من صوت أنفاسهم وضربات الحديد على الأرض.

حين وصلوا إلى القاع، انكشفت البئر أمامهم — فوهة واسعة يخرج منها بخار أسود كثيف.
الماء فيها لا يشبه الماء، بل ظلّ ساكن يتحرك ببطءٍ تحت ضوءٍ خافتٍ متسرّب من الفتحة العليا.

اقترب فان، نظر للحظةٍ إلى السطح ثم مدّ يده في الماء.
ما إن لامسها حتى تحوّل السواد إلى حمرة داكنة،
كأن البئر تنزف دمه.

تراجع خطوة، يحدّق في يده التي صارت كأنها مصبوغة بالنار.
ثم نظر إلى ثيودور وسأله بصوتٍ خافتٍ لكنّه مليءٌ بالشكّ:
"ما هذا الرمز؟ ماذا تعني هذه اللعنة؟"

أجابه ثيودور دون أن يرفع نظره عن الماء:
"ألا تدرى حقا.
تلك رموز من لطّخت أيديهم بدماء الأبرياء...
كلّ من اقترب من سرّ البئر، يترك أثره فيها."

تقدّم الكفيف ببطءٍ، تحسّس الجدار بأصابعه وقال بصوتٍ واهنٍ:
"إجناطيوس نفسه كتب أن هذا الرمز لا يُمحى...
هو علامة نهاية صاحبه، لا خلاص بعدها."

وقف أنطونيوس في الخلف، قبضته مشدودة على سلاحه،
عيناه لا تفارق فان، كأنه ينتظر غدرًا في أي لحظة.

ساد الصمت، ثم قال ثيودور بهدوءٍ غريبٍ يحمل شيئًا من التحدي:
"اتركنا الآن يا فان.
ما تبقّى لا يُقال أمام من يطلب القوة... بل أمام من يخشاها."

تأمّله فان لحظةً طويلة، ثم ابتسم ابتسامةً باهتة وقال:
"كما تشاء، أيها الراهب الصامت... لكن إن تأخرت أصواتكم، أعلم انى فى انتظاركم "

خرج فان ورجلاه تُصدران صدى غريبًا في النفق،
وبقي الأربعة في الداخل، لا يسمعون إلا خفق قلوبهم وصوت الماء المتحرّك.

أخرج ثيودور المخطوطة من عباءته، فتحها ببطءٍ فوق صخرةٍ ملساء،
الرموز عليها بدأت تضيء بوهجٍ أحمر خافت،
والبئر من أمامه كأنها تتنفس.

مدّ يده نحوها،
لمس الماء،
وبدأ الضوء يتوهّج أكثر فأكثر...

وهناك، توقّف كل شيء

مدَّ ثيودور يده في ماء البئر.
كان السواد ساكنًا، لكن ما إن لامس سطحه حتى تبدّل كل شيء.
تحوّل السواد إلى صفحةٍ لامعة، كأنها مرآةٌ من زجاجٍ حيٍّ تعكس السماء من فوقهم.
ظهر في أعماقها ظلّ طائرٍ أسود يدور، يقترب بسرعةٍ من المكان.

قال ثيودور بصوتٍ مبحوحٍ وهو يحدّق في الماء:
«إنه قادم... الطائر يقترب منّا.»

لم يفهم أحد كلماته، لكنّ رومان شعر بريحٍ باردةٍ تعبر النفق.
اهتزّ الهواء، وسمعوا صوت جناحين يخترقان السكون.
الطائر اندفع من البوابة العليا، اخترق الممرّ الضيّق كوميضٍ من ليلٍ مضيء،
وانتشر صدى صرخته في القبو.

وقف فان على مدخل السرداب من الخارج، يسمع الصوت،
نظر إلى الأعلى، ورأى الباب الحجري يهتزّ، فمدّ يده ودفعه ليفتح للطائر الطريق.

دخل الطائر من الظلام، دار حول البئر دورةً واحدة،
ثم نزل ببطءٍ كأنه يعرف طريقه،
وحين وقف على كتف ثيودور، سكنت الأصوات كلّها،
حتى أنفاسهم انقطعت لحظةً كاملة.

رفع ثيودور عينيه نحو فان الواقف بعيدًا،
والطائر على كتفه يحدّق في البئر،
كأن بين الثلاثة وعدًا قديمًا عاد من ظلامٍ لا يُروى

الفصل الحادي عشر – رؤية الذكرى

أمسك ثيودور بالمخطوطة، والضوء الأحمر ما زال يلمع بين رموزها.
توقف عند رمزٍ لم يره من قبل، دائرةٌ تتقاطع مع شعلةٍ باهتة، وتحتها نقشٌ صغير كتب عليه: "رؤى الذاكرة."
شعر بيديه ترتجفان، وكأن شيئًا ما في داخله يطلب أن يُفتح الباب.
أغمض عينيه، فبدأت الرموز تتحرك ببطءٍ أمامه، تتوهج حتى غمره الضوء كله.

-•-

ظهر أمامه مشهد غريب...
والده، إيليا، كان يسير بين الناس بابتسامةٍ ووقار، يحمل طفلًا صغيرًا على كتفه.
ضحكته تملأ المكان، ووراءه كانت أمه تمسك بطرف عباءته، وجهها هادئ، لا أثر للمرض فيه.
منظرٌ لم يحدث قط، لحظةٌ خُلقَت من حنينٍ لم يُكتب له أن يكون.
أحس ثيودور بدموعه تسقط على المخطوطة، لكنه لم يجرؤ أن يمسحها.

تبدّل المشهد فجأة.
رأى والده في ساحةٍ تحترق، الدخان يغطي السماء، وصوت الغوغاء يملأ الأرجاء.
كان إيليا يقف في وجه الجنود، يصرخ فيهم:

"الظلم لا يبني ديرًا... إنه يهدم النفوس."
لكن سيفًا من خلفه اخترق صدره، وسقط جسده بين ألسنة اللهب.

صرخ ثيودور، لكن صوته لم يخرج.
رأى أمه بعدها، شاحبة الوجه، على فراشها، المرض ينهش جسدها،
تكتب رسالة بخطٍ مرتجفٍ إلى ماركوس، كلماتها الأخيرة ترتجف:

"احمِ ابني، فهو آخر ما تبقى من نوره."

-•-

تتابعت الصور أمام عينيه كأنها شريطٌ من العذاب.
الكفيف، ذلك الرجل الذي كان أكثرهم علمًا وبصيرة،
جالسٌ في ظلمة السجن، صراخه يخترق الجدران،
وجنود أوغسطين يجلدونه حتى نزف بصره من عينيه.

رأى أنطونيوس شابًا، يركض بين اللهب، سيفه في يده،
يحاول إنقاذ القرويين من ظلم جنود القائد،
عيناه تلمعان بالغضب والإيمان في آنٍ واحد.

ورأى رومان طفلًا، يقف خلف والده، الجنديّ القديم،
حين سقط الأب أمامه مضرجًا بدمائه،
ويده الأخيرة كانت على كتف ابنه، كأنه يورّثه الوجع بدل السيف.

-•-

توقفت الرؤى، وساد السكون.
ظل ثيودور جالسًا، يحدّق في صفحة المخطوطة،
والرموز فيها بدأت تخبو، كأنها أغلقت الباب من جديد.

قال بصوتٍ مرتجفٍ، يسمعه الكفيف وأنطونيوس من بعيد:

"كل ما حدث... كان مكتوبًا.
درباً وقدراً، والقادم سياتى لامجال لمواجهته"

-

الفصل الثاني عشر – بوابة المنفى
—

جلسوا حول البئر، والسكوت يملأ المكان.
كان وهج المخطوطة قد خمد، لكن أثرها ما زال يشتعل في وجوههم.

رفع ثيودور رأسه ببطء، وصوته يخرج كأنه عائد من أعماق الأرض:

"ما رأيناه لم يكن حلمًا ولا ذكرى عابرة...
رأيت الباب الذي خرجت منه اللعنة.
باب المنفى.
منه خرج أوّل من وسوس... ومنه بدأ كل وجع،
ومنه تفرّق طريق من تبع الظلال حتى ابتلعتهم."

تبادلوا النظرات في ذهولٍ وصمتٍ ثقيل،
حتى انحنى الكفيف نحو الماء وقال بصوتٍ خافتٍ مرتجف:

"هذا هو الباب الذي لم يجرؤ إجناطيوس على ذكر اسمه...
باب المنفى الذي إن فُتح، أُغلِقَت كل أبواب النور."

وفجأة .
من بين الضباب ظهر عجوز المنفى،
كما لو خرج من نفس الظلّ الذي كان يُحيط بالمكان.

انطونيوس رفع سيفه على الفور،
لكن الكفيف صرخ:

"لا تضربه! اسمعوه أولًا!"

التفت العجوز إليهم، ملامحه لا تُرى بوضوح، وصوته بدا كأنه قادم من أعماق البئر نفسها:

"الباب فُتح... وفان علم بذلك.
سيأتي ليقتلكم جميعًا، ويأخذ الطائر والمخطوطة،
وإن اجتمعا بيده، انطفأ النور في العالم إلى الأبد."

اقترب خطوة، والظلال تتحرك معه كأنها تُطيعه، ثم أكمل:

"الطريق الوحيد أمامكم... خلفي.
عبر الظلال، حيث النور لا يموت، بل يختبئ."

قال ثيودور بقلقٍ واضح:

"وإن لم نتبعك؟"

ابتسم العجوز ابتسامةً باهتة وقال:

"حين يغدر فان... لن يبقى وقت للسؤال."

وفي لحظةٍ واحدة، انطفأ الضوء كله.
لم يعد يُرى سوى البئر، والماء فيها صار يعكس لون السماء كأنها مرآة مكسورة.
مدّ ثيودور يده ليتأكد مما يراه...
فلمس سطح الماء، فرأى خلفه صورة فان واقفًا مع جنوده،
يختبئون وراء بابٍ حجريٍّ عملاقٍ، كأنهم ينتظرون الإشارة.

سمعوا صوت الحديد والخيول يقترب، وصوت الصيحات يملأ الممرات.
الكفيف قال بسرعةٍ وهو يمد يده نحو الجدار:

"اتبعوا الظلال... النور هناك!"

تحرّكوا خلف العجوز الذي بدأ يسير داخل الظلام،
وخطواتهم تتسارع مع تصاعد صخب الجنود من الخلف،
حتى ابتلعتهم الظلال تمامًا،
واختفى آخر أثرٍ لهم من أمام البئر...

وفي الخارج، كان فان يبتسم من وراء الباب الحجري،
ينادى في الظلام:

"لن يهربوا هذه المرة ، احضروا لى المخطوطه والطائر"
—-

الفصل الثالث عشر

ممر البئر:✨

لم يكد فان يخطو داخل الممر حتى أدرك أن المكان خالٍ.
البئر ساكنة، والممرات مظلمة، كأنهم تبخروا من الوجود.
صرخ غاضبًا، وصدى صوته ارتدّ فوق الجدران الحجرية:

"اختفوا؟! في الظلال؟!"

ثم شدّ قبضته على سيفه، وصرخ بصوتٍ يملأ القاعة:

"العجوز! هو من أخذهم... هو من يعبث بي!"

تبدلت ملامحه، صار الغضب نارًا في عينيه،
وأمر جنوده بصوتٍ قاسٍ حادّ:

"احشدوا الجميع!
أريد كل البلاد تحت النار،
لا تُترك قرية ولا بيتٌ إلا يُفتَّش!
أحرقوا كل ما بين المشرق والمنفى،
حتى نجدهم أو نحرق العالم فوق رؤوسهم!"

وفي لحظةٍ انطلاقهم، كان الدخان يملأ السماء،
وصوت الأجراس المكسورة يختلط بصراخ الجنود ووقع الخيول.
المشرق كلّه اشتعل،
والبئر بقيت خلف فان تغلي بلون الدم.

□

في الجانب الآخر،
كان ثيودور ورفاقه يقفون أمام بوابةٍ غريبةٍ من صخرٍ أسود.
الهواء هناك بارد كشتاءٍ بلا شمس،
رغم أنّ الصيف ما زال في الخارج.

رفعوا رؤوسهم فرأوا الأرض منبسطةً كصحراء من رماد،
وعلى التلّ المقابل وقف عجوز المنفى بعصاه القديمة،
ملفوفًا بردائه، وعيناه غائرتان كفجوتي ليلٍ لا ينتهي.

قال بصوتٍ متكسّرٍ كأن الأرض تتكلم على لسانه:

"هناك، في أقصى المنفى، أصل اللعنة...
عند البوابة التي لا تُفتح إلا بالدم والنور."

ثم نظر إلى ثيودور وقال:

"فرصتك الآن، يا راهب البحيرات...
احكم العالم.
أنت ومن معك، إن عبرتم هذا الباب، ستملكون القوة.
سيد باب المنفى في انتظارك، ومعه لعنةٌ لا تُهزم."

حدّق فيه رومان بعينٍ صارمةٍ وقال ببرودٍ:

"أنت اللسان الأسود...
ذاك الذي كتبه ماركوس في نبوءته ..
حين قال:
كان اللسان الاسود ينادى فيهم
اتبعوا اللعنة تفوزوا، وينحني لكم العالم."

ضحك العجوز ضحكةً مجروحة،
صوتها كاحتكاك الحديد بالرماد،
فقال الكفيف وهو يتراجع خطوةً إلى الخلف:

"علينا أن نغادر، هذا المكان ليس لنا."

لكن ثيودور أجابه بثباتٍ غريبٍ وسط الرياح السوداء:

"نعم لا مفرّ إلا بعودة النور."

في تلك اللحظة، صرخ الطائر فوق رؤوسهم صرخةً اخترقت السماء،
والمخطوطة اشتعلت من تلقاء نفسها،
نورها صار نارًا حمراء تتدفع من البئر،
تلتهم الجدران وتُسقط السقف الحجريّ الذي بناه أوغسطين.

اشتعلت الأرض كلها،
وانفجرت البئر كأنها قلب الجحيم نفسه.

وفي الجهة البعيدة،
وقف فان يراقب اللهيب يتصاعد نحو السماء،
ابتسم وقال بصوتٍ متهدّجٍ كأنه نبوءة:

"على شفى البئر... الجحيم.

الفصل الرابع عشر:
على شفى البئر: الجحيم🔥🔥

تمدّدت ألسنة النار في طرق المشرق كوحشٍ خرج من أعماق الأرض.
لم يبقَ حجرٌ إلا وابتلعته النيران، ولا شجرة إلا صارت رمادًا.
كان فان في المقدّمة، يمتطي جواده الأسود،
عيناه تقدحان شررًا، وصوته يزلزل الأرض تحت خطى جنوده.

"أحرقوا كل طريقٍ يقود إلى الظلال!
من يختبئ فيها، فليُدفن تحت رمادها!"

لم يعرف أحد وجهته الحقيقية،
فهو لم يعُد يتذكّر طريق باب المنفى،
وكأن الأرض نفسها محَت ملامح الطريق من ذاكرته.
جنونه ازداد، وغضبه صار وقودًا لكل من حوله.

القرى التي كانت تتبع الكنيسة احترقت،
والأجراس التي كانت تدعو للصلاة صارت تصرخ تحت اللهب.
كان فان يريد شيئًا واحدًا فقط:
أن يُمحى العالم كما مُحي هو من قبل.

⊡

وفي الجهة الأخرى...
كان الطائر يحوم في دوائر واسعة فوق أرضٍ لم تعُد تعرف السكون.
حين لامس جناحاه الضوء الخارج من البئر،
اشتعل الرمز الأخير على صفحة المخطوطة.
توهّجت باللون الأحمر، ثم انفتحت كأنها نافذة من لهب.

اختفى ثيودور ورومان والكفيف وأنطونيوس من أرض المنفى،
ولم يبقَ سوى صدى الطائر يصرخ في الفراغ.

في لحظةٍ خاطفة، ظهروا مجددًا عند البئر ذاتها —
البئر التي صارت الآن فوهة جحيمٍ مفتوح.

النيران كانت تخرج منها في دواماتٍ ملتوية،
لكنّ الطائر ظلّ يحوم فوقها بثباتٍ غريب،
والمخطوطة تطفو في الهواء أمامهم، رموزها تنقلب نارًا خالصة،
ترسم في قلب اللهيب دائرةً من ضوءٍ مائلٍ إلى السواد.

وقف ثيودور مذهولًا، والحرارة تلسع وجهه،
ورأى وسط النار صورةً مشوّهةً للمصير،
مصيرٍ قادمٍ من عمق الجحيم ذاته.

⊡

في الجهة الأخرى،
كان فان يسير في طريقٍ من رماد،
جنوده خلفه كالسيل،
يحرقون كل ما يعترض طريقهم من بشرٍ أو حجر.

من بعيدٍ، كانت قرى البحيرات تُرى وهي تشتعل واحدةً تلو الأخرى.
صوت الريح يحمل صرخات النساء والأطفال،
ووهج النار ينعكس على دروع الجنود كأنهم يمشون في شمسٍ من دم.

رفع فان سيفه إلى السماء، وصاح غاضبًا:

"إن لم يُحرقوني، فليحترقوا هم جميعًا!"

⊡

عند البئر،
صرخ ثيودور فجأة:

"يوهان!"

لكنّ صوته ضاع وسط دويّ اللهيب.
كانت البحيرات في الأفق تشتعل بالفعل.
السماء حمراء كفجرٍ مقلوب،
والأرض كلها تهتزّ تحت خطوات الجيوش المتجهة إلى هناك.

قال رومان بصوتٍ مرتجفٍ وهو ينظر إلى البئر:

"إنها النهاية يا ثيودور... فان سيصل إلى البحيرات."

فأجابه ثيودور وعيناه تحدّقان في اللهيب:

"النهاية لا تكتبها النار... بل من يخرج منها."

وفي تلك اللحظة، صرخ الطائر مجددًا،
واشتعل الضوء فوق البئر حتى صار كأن النهار انفجر من الجحيم نفسه

في أرض البحيرات،
لم يكن الصباح قد اكتمل بعد،
لكنّ السماء كانت تموج بدخانٍ أسود كثيف،
ورائحة الرماد تملأ الهواء كأن العالم يحترق.

وقف كريس على أسوار المعسكر،
ينظر إلى الأفق المشتعل،
وقال بصوتٍ مبحوحٍ غلب عليه القلق:

"القرى الشرقية تحترق... فان يتقدّم نحونا."

اقترب منه لوريس، عيونه تضيق تحت وهج النار البعيدة:

"لن ننتظرهم هنا، سنقاتل حتى آخر حجر في البحيرات."

في الداخل، كانت القاعة الكبرى تضجّ بالجنود والناجين.
يوهان دخل بخطواتٍ سريعة،
وجهه مغطى بالرماد، وصوته يقطع الضجيج كالسيف:

"استعدوا... احشدوا كل من يستطيع القتال.
هذا اليوم لن يُمحى من ذاكرة البحيرات!"

تقدّم تروفان بخطواتٍ مترددة، نظر إلى الجهة التي يرقد فيها جيرمسون المصاب،
كان الأخير يئنّ في صمتٍ على فراشه،
والدماء لم تجفّ بعد على ضماد كتفه.

اقترب تروفان، وضع يده على كتف جيرمسون وقال له بهدوءٍ حزين:

"ابقَ هنا... لقد قدّمتَ ما يكفي."

لكن جيرمسون تمسّك بيده بعزمٍ غريب، وصاح بصوتٍ متهدّج:

"اذهب أنت، ولا تتركهم...
البحيرات وُلدت من الشتات ، لتكون لم الشمل ، فلا تجعلها تموت فيه!"

انحنى تروفان برأسه لحظة، ثم نهض بعزمٍ ثابتٍ وقال:

"لن أموت في الظلّ يا صديقي... بل أمامه."

خرج من القاعة،
ارتدى درعه المهترئ، ورفع سيفه إلى الأعلى،
وصاح بأعلى صوته وسط ساحة المعسكر:

"كل من بقي حيًّا... فليتّحد تحت راية البحيرات!"

تجمّع الرجال حوله،
جنودٌ، ورهبانٌ، وشبابٌ لم يحملوا سلاحًا من قبل.
العيون التي كانت غارقة في الخوف،
اشتعلت من جديد بنار الإصرار.

وقف يوهان أمامهم،
صوت الرياح يمرّ بين الصفوف كأنها أنفاس الحرب القادمة،
وقال بنبرةٍ ثابتةٍ لا تحمل تردّدًا:

"سنقاتلهم على هذه الأرض...فى ارضنا وُلِدنا، وهنا سنحمي ما تبقّى من النور."

ثم رفع سيفه، فارتفعت الرايات الزرقاء التي تحمل رمز البحيرات ——
شمسًا ذهبية تشرق من قلب الماء ——
تتراقص في الريح أمام دخانٍ أسود قادمٍ من الشرق.

وفي تلك اللحظة،
تردّد في الأفق صدى بعيد لصوت فان،
كأن الجحيم نفسه يعلن قدومه

في اللحظة نفسها التي علت فيها صيحات الحرب في أرض البحيرات،
كان ثيودور واقفًا أمام البئر،
الطائر يحوم فوقه،
والمخطوطة بين يديه ترتجف كأنها كائنٌ حيّ ينتظر الأمر الأخير.

تقدّم أنطونيوس منه بخطواتٍ سريعة، وجهه مغطّى بغبار الطريق وصوته يشتعل بالقلق:

"دعني أعود... الأرض في حاجة إلى رجالها.
سأقود الكتيبة بنفسي إلى البحيرات."

أومأ ثيودور برأسه في صمت، ثم قال وهو ينظر إلى الطائر:

"اذهب... لكن خذ معك الكفيف ورومان.
ضعهم في مكانٍ آمن قبل أن تبدأ النار."

اعترض أنطونيوس، قبضته على مقبض سلاحه حتى ابيضّت:

"لن أتركك وحدك، يا ثيودور.
هذا البئر لا يرحم من ينزل إليه، ولا من يقف أمامه."

أجابه بصوتٍ هادئٍ كأنه قادمٌ من عمق الماء:

"اللعنة بدأت بي... فدعها تنتهي بي."

ساد الصمت لحظة، لا يُسمع فيها إلا خفق جناح الطائر وارتجاف الرموز على المخطوطة.
مدّ أنطونيوس يده، وضعها على كتف ثيودور وقال بحزمٍ متهدّج:

"إن عشت، سأقاتل إلى جوارك...
وإن متّ، سأحمل اسمك معي إلى آخر معركة."

تحرّك بعدها بخطواتٍ ثابتة، وأشار لرجاله.
انطلقت الكتيبة عائدةً نحو البحيرات —
صفوفٌ من الحديد والعزم تمضي بين الدخان والرماد.

أما ثيودور فظلّ واقفًا أمام البئر،
الطائر يهبط ببطءٍ على كتفه،
والمخطوطة بين يديه بدأت تتوهّج كأنها تستعد للنطق.
همس بصوتٍ مبحوحٍ:

"إن كان المصير نارًا، فلتُفتح أبوابه أمامي وحدي."

في الأفق،
كان فان يقود جيوشه كالسيل الجارف،
ألسنة اللهب تمزّق السماء خلفه،
صوته يعلو على هدير الجحيم:

"لن ينجو أحد... لا ظلال ولا نور!"

وعلى الجانب الآخر،
اصطفت جيوش يوهان وكريس ولوريس وتروفان،
الرايات الزرقاء ترتفع في وجه العاصفة.
العيون متوترة، القلوب متأهبة،
والأرض نفسها كأنها تحبس أنفاسها انتظارًا لما سيأتي.

في تلك اللحظة،
تحركت ثلاث طرقٍ مظلمة نحو المصير ذاته —

- طريق فان وجيشه الدامي، يسعى للانتقام وسحق كل نور.
- طريق يوهان ورجاله في البحيرات، يقاتلون دفاعًا عن آخر ما تبقّى من الحياة.
- وطريق أنطونيوس ورجاله العائدين، يحملون النور على أسنة سيوفهم نحو الظلّ القادم.

أما عند البئر،
فكان ثيودور وحده،
ينظر إلى الماء الذي بدأ يغلي بالضوء والظلال معًا،
يضع يده على سطحه كما فعل من قبل بولا وماركوس وإسحاق،
ثم يغلق عينيه.

الصوت الأخير كان صرخة الطائر تخترق السماء،
والنور المنبعث من البئر يبتلع الظلام دفعةً واحدة.

✨ وانتهى الجزء الرابع عشر...
وبقيت الأرض على شفى البئر —
بين الجحيم✨ وشيءٍ يشبه الفجر☀️

الفصل الخامس عشر : على شفى البئر ؛الفجر☀️

🕯 الفصل الأول – مقابلة سيّد المنفى

جلس ثيودور أمام البئر المشتعلة، والنار تتبدّل ألوانها بين السواد والأحمر القاني كأنها تتنفس.
الريح ساكنة، حتى الطائر الذي كان يحوم فوقه توقّف، ناظراً إليه بعينٍ ثابتةٍ لا ترمش.
لم يعد في المكان إلا أنفاسه، وصوت البئر كأنها تهمس له من الأعماق.

قال في نفسه بصوتٍ بالكاد يُسمع:

"إن كانت اللعنة بي بدأت كما قالو ..
فبي يجب أن تنتهي."

مدّ يده ببطءٍ، والمخطوطة بين أصابعه ترتجف، رموزها تتوهّج ثم تخبو.
خطّ بيده على الأرض دائرة صغيرة، وضع المخطوطة في منتصفها، ثم نظر للطائر وقال بهدوءٍ غريب:

"احملها، حيث يولد الجحيم من الظلّ... فهناك سيُكتب الفجر."

لم يصرخ الطائر هذه المرّة، بل انقضّ نحو البئر واختفى فيها.
في اللحظة نفسها، ارتجّت الأرض تحت قدمي ثيودور، وتفجّر من قلب البئر وميضٌ أحمر اخترق الهواء، وسُمع صوت الحديد يُكسر في الأعماق، كأن أبوابًا صدئةً فُتحت بعد قرون.

انبعث ضوءٌ باهتٌ من خلفه، فالتفت.
الجدار الحجري خلفه انشقّ، وظهر باب الظلّ من جديد ––
الباب نفسه الذي خرج منه عجوز المنفى ذات يوم.

تردّد ثيودور لحظةً، ثم وضع يده على صدره، وقال كأنه يودّع العالم:

"يا ربّ البحيرات، إن كانت هذه طريق الظلّ، فلتقُدني للنور من قلبه."

دخل البوّابة، والهواء حوله صار أثقل، والسواد التهم الألوان كلها.
الطريق من الداخل بدا كقبوٍ لا نهاية له، تتدلّى فيه سلاسل حديدية،
وصوتها يُشبه أنين من ماتوا مقيدين في العتمة.

مع كل خطوةٍ، كان يسمع أصواتًا أخرى ––
ضحكات خافتة، همساتٍ متقطّعة، وجوهًا تظهر وتختفي في الجدران...
كلها بلا ملامح، سوى عيونٍ سوداء تُراقبه.

ثم توقّف.
أمام البئر الداخلية، في عمق المنفى، كان يقف عجوز المنفى نفسه.
ظهره منحني، وعصاه مرسومة برموزٍ قديمة، والطائر الآن يقف فوق كتفه.
قال العجوز بصوتٍ أجشّ يتردّد في الفراغ:

"تأخّرتَ يا ابن إيليا... سيدُ المنفى في انتظارك."

ثم أشار بعصاه نحو بابٍ آخر، مضاءٍ بنورٍ أحمر باهتٍ ينبض كقلبٍ يحتضر، وقال:

"ادخل... فالفجر لا يولد إلا من رحم الجحيم."

وقف ثيودور أمام الباب، نظر للعجوز نظرة طويلة —
فيها خوف، وإصرار، ودمعة حُبست في منتصف العين —
ثم خطا الخطوة الأولى نحو المجهول.

أما فى ظلال المشرق
كان انطونيوس ومن معه يسابقون الزمن للوصول .
عندما رأوا ماحدث
وكأن الأرض تصرخ.
لا ريح تهبّ، ولا طير يحلّق، سوى دخانٍ كثيفٍ يغطي السماء ككفنٍ أسود.
على امتداد الطريق من المشرق إلى البحيرات، لم تبقَ قريةٌ واحدة إلا ومرّ فوقها لهيب فان وجيشه.

تحرّك أنطونيوس في صمتٍ فوق جواده، وخلفه كتيبته من رجال البحيرات.
عيونهم غائرة، والعرق يمتزج بالغبار على وجوههم، والهواء محمّل برائحةٍ خانقةٍ من الرماد واللحم المحترق.

على الجانبين، كانت البيوت المهدّمة تمتد كصفٍ من القبور،
الناس تهرب بلا وجهة،
النساء يحملن الأطفال فوق أذرعٍ مرتجفة،
والكلاب تنبش بين الأنقاض كأنها تبحث عن بقايا حياةٍ ضاعت منذ زمن.

توقّف أنطونيوس عند أطلال قريةٍ كانت يومًا عامرة بالرهبان.
قال أحد جنوده بصوتٍ مرتعش:

"يا سيدي... حتى الكنائس لم تُ spared، لقد أُحرقت جميعها."

نظر أنطونيوس نحو برجٍ مائلٍ وقد تفحّم صليبه،
ثم قال ببطءٍ كأنه يكلّم نفسه:

"فان لا يبحث عن نصر... إنه يصنع لعنةً جديدة على الأرض."

واصلوا السير أيامًا، لا يسمعون إلا صرير العربات المحطّمة، وصوت أقدامٍ ثقيلةٍ تائهةٍ في الرماد.
كل قريةٍ مرّوا بها كانت تحمل نفس المشهد:
دم، رماد، وسكونٌ يسبق العاصفة.

في الليلة الثالثة، خيّموا على مشارف أرضٍ تعرفها قلوبهم —
كانت تلك بداية أرض البحيرات.
السماء فوقها لم تعد زرقاء، بل بلون الحديد الصدئ.
وقف أنطونيوس على ربوةٍ عالية، حدّق في البعيد وقال:

"يا ربّ الأرض ... هل سنصل قبل أن تبتلعنا النيران؟"

لم يُجبه أحد.
فقط صوت الريح كان يمرّ بين الأشجار الجافة،
يحمل معه نواح الأرض الميتة،
ويذكّرهم بأن الجحيم لم ينتهِ بعد، بل يقترب أكثر... كلّ ليلة

—

الفصل الثاني: لهب البحيرات🔥

—-

الليل فوق البحيرات لم يكن ليلًا، بل دخانٌ مشتعل.
كانت ألسنة اللهب تلتهم الأشجار، وتنعكس على صفحة الماء كأنها جمرات من نارٍ تطفو فوق الجحيم نفسه.

وصل أنطونيوس ومعه كتيبته الصغيرة إلى التلال الغربية المطلة على البحيرات.
وقف هناك، يحدّق في الأفق الذي يضجّ بالنيران، وسمع صوت القتال يتصاعد كهدير البحر.

قال أحد رجاله:

" يا سيدي، فان يضرب من كل الجهات."

ظلّ أنطونيوس صامتًا لحظة، ثم قال بنبرةٍ ثابتة:

"إذن سنضرب من الخلف. سنكون الشوكة التي تشق ظهر الظل."

تحرّك نحوه الكفيف، عصاه ترتجف في يده، وقال بصوتٍ مشوبٍ بالرجاء:

"إنها مجازفة انتحارية يا أنطونيوس. جيش فان يفوقكم عددًا وعدّة، ولن يرحم أحدًا."

ابتسم أنطونيوس، نظرة النار تلمع في عينيه، وقال بهدوءٍ أقرب إلى الحِكمة:

"من يهرب من قدره، يلقى ظله. وإن كانت نهايتي هنا، فلتكن تحت سماء البحيرات."

أمر أربعةً من جنوده بالبقاء مع الكفيف ورومان لحمايتهم، ثم شدّ على سيفه وقال:

"احموا من يحمل النور، فمصير الأرض في أيديكم."

تحرك أنطونيوس برجاله في صمتٍ كظلٍّ منظم نحو السفح الجنوبي، حيث يتركّز ثقل جيش فان.
كانت أصوات المنجنيقات تتوالى، والحجارة المشتعلة تسقط كالشهب على أسوار البحيرات.
رجال فان يزحفون كالجراد، يصعدون الأسوار بالسلالم، والسيوف تلتقي بالسيوف في لهيبٍ من الشرر.

في الداخل، وقف يوهان وسط القاعة الكبرى، رمحه في يده،
وعلى كتفه راية البحيرات الزرقاء وقد تلطخت بالرماد.
إلى جانبه كريس، وجهه مغطّى بالدم والغبار،
بينما تولّى لوريس صدّ الهجوم من الجهة الشرقية،
وتروفان مع فرقته يحرس البوابات الفرعية، يمنع النيران من التهامها.

كل زاوية في البحيرات كانت ساحة حربٍ مصغّرة.
السهام المشتعلة تسقط على البيوت، والأجراس تضرب وحدها دون يدٍ بشرية.
صوت الماء المشتعل يمتزج بصراخ الجرحى،
وكأن البحيرات نفسها تبكي مصيرها الآتي.

أما في الجهة الأخرى من النار،
كان أنطونيوس يرفع سيفه عاليًا ويصيح في رجاله:

"من أجل المشرق! من أجل ثيودور!
لنعيد للبحيرات ضوءها ولو احترقنا!"

وانقضّوا كالريح المشتعلة على مؤخرة جيش فان،
ليبدأ من هناك جحيمٌ آخر لا يميّز بين ظلامٍ ونور.

حصار البحيرات

لم يكن الليل ليلًا في تلك الليلة.
كل شيءٍ فيها احمرّ — السماء، الماء، حتى وجوه الرجال.
كانت السهام المشتعلة تمطر من فوق، كأن السماء نفسها قررت أن تحارب.

وقف يوهان على السور، صوته يتقطّع بين الأوامر والدخان:

"أعيدوا الصفوف!
لا تسمحوا لهم بالعبور إلى الداخل!"

اندفع الجنود من كل الجهات، يحملون دلاء الماء ليطفئوا النيران،
لكن النار كانت تضحك، تتكاثر كلما حاولوا إخمادها.
إلى جواره كان كريس يقاتل بجنونٍ لم يعرفه من قبل،
بينما لوريس يقود رجاله عند الباب الغربي، يصرخ:

"سدّوا الفتحات! لا تدعوا اللهب يدخل معنا!"

أما تروفان، فكان يركض بين الممرات،
وجهه مغطّى بالرماد، وصوته يجلجل في أرجاء القلعة:

"ثبّتوا السلالم! أوقفوا المنجنيق! لا تدعوهم يرفعوا الراية السوداء!"

▫

في تلك اللحظة، عند التلال البعيدة خلف جيش فان،
تحرّك أنطونيوس أخيرًا.
كان ينتظر الإشارة، والآن جاء أوانها.
أشار بسيفه إلى الأفق وقال بصوتٍ يشبه الوعد:

"نضرب من الخلف... لن نُنقذ البحيرات، لكننا سنؤخر موتها."

انقضّ بجنوده على مؤخرة جيش فان كالبرق.
الحديد على الحديد، والصراخ يملأ السماء.
الجنود السود يتساقطون واحدًا تلو الآخر،
وفان — من بعيد — التفت بدهشةٍ وغضب،
صرخ بأعلى صوته:

"من هذا الذي يجرؤ على كسر صفوفنا؟!"

الصدمة كانت كافية.

انشغل جيشه الخلفي بالقتال،
وفي تلك الدقائق القصيرة، استعاد يوهان أنفاسه،
ولمّ لوريس وكريس وتروفان ما تبقى من الرجال،
اصطفّوا معًا في منتصف القلعة،
كأنهم جدارٌ من بشرٍ يقف في وجه العاصفة.

لكن العاصفة كانت أكبر.
تحت هدير المنجنيقات،
ارتجّت الأرض،
ثم دوّى صوت الانهيار.

انهار جزءٌ كبير من السور الشرقي،
والنار اندفعت من الفتحة كوحشٍ محرّر.
صرخ كريس:

"لقد سقط الجدار!"

والبحيرات ارتجفت.
الماء اختلط بالدم،
والسماء أضاءت كأن فجرًا كاذبًا قد وُلد فوق جثثٍ كثيرة.

وقف يوهان على الحافة، عينيه تلمعان في الضوء الأحمر،
وقال بصوتٍ يشبه الهمس:

"لن تكون هذه النهاية... ليس بعد."

وبينما اللهب يبتلع أطراف البحيرات،
كانت أعين فان تلمع من بعيد —
يعرف أن الوقت اقترب،
وأن الصيد الحقيقي لم يبدأ بعد.

—

الفصل الثالث : مقابله "سيد وادى المنفى"🐦‍⬛

لم يكن الزمن يتحرك في ذلك المكان.
كل شيءٍ ساكن — كأن اللحظة لا تعرف طريقها إلى الأمام.
كان ثيودور واقفًا أمام الباب الأحمر،
يحدق في النقوش التي تلتهم الضوء وتعيده دمًا خافتًا.
مد يده إلى المقبض، وما إن لمسه حتى فُتح الباب ببطءٍ كأن أنينًا خرج من داخله.

خلف الباب، امتد بحرٌ أسود لا يرى له نهاية،
وفي وسطه مركبٌ ضخم يقف عليه رجلٌ عملاق،
لحيته قصيرة لا تغطي إلا حافة وجهه،
وعيناه تشتعلان كجمرٍ لا يهدأ.

قال بصوتٍ يشبه الرعد البعيد:

"اصعد، أيها الراهب الصامت... السيد في انتظارك."

صعد ثيودور إلى المركب، والطائر يقف على كتفه في سكونٍ غريب.
كان يحسّ أن الطائر ثقيلٌ كالحجر، لا يتحرك ولا يصرخ.
كان يتسال لماذا خانه الطائر ووقف على كتف العجوز
لكن حين التفت للخلف، رآه هناك ——
العجوز، واقفٌ عند الباب، وعلى كتفه طائرٌ آخر، مطابقٌ لطائره تمامًا.

اتسعت عينا ثيودور، لكن المركب بدأ يتحرك.
الضباب يحيط بكل الاتجاهات، لا يرى فيه سوى ظلّ الموج وهو يبتلع نفسه.
لم يكن يعرف إلى أين يذهب، لكنه شعر أن كل خطوة تقرّبه من الحقيقة... أو النهاية.

توقّف المركب أمام بوابةٍ حجرية ضخمة،
وعليها نفس النقوش التي رآها على الماء.
قال العملاق بصوته الجهوري:

"غير مسموح لي بالدخول...
ادخل أنت، ستجد من ينتظرك."

تقدّم ثيودور بخطواتٍ ثابتة،
فتح الباب فوجد نفس العملاق واقفًا بالداخل، بنفس الملامح، بنفس الصوت.
قال له بهدوءٍ عجيب:

"لاتتعجب،أنا أخوه...
الطريق من هنا."

قادَه وسط غابةٍ لا تنتهي،
أشجارها مائلة كأنها تحرس شيئًا لا تريد أن يقترب منه أحد.
بعد مسافةٍ طويلة، ظهر بيتٌ قديم، جدرانه مائلة وبابه نصف مكسور.

قال العملاق وهو يشير إليه:

"هناك، في الداخل... السيد ينتظرك."

دفع ثيودور الباب ببطء.
الطائر على كتفه ظل ساكنًا، كأن روحه خرجت منه.
في الداخل، كانت غرفة واسعة،
في وسطها مكتب حجريّ أحمر، فوقه مخطوطات مفتوحة،
وخلفه مقعدٌ من صخرٍ أسود.

جلس عليه رجلٌ هادئ الملامح،
وحين رفع رأسه،
تجمّد الدم في عروق ثيودور.

وقف الرجل، صوته خرج دافئًا كذكرى قديمة:

"أهلًا بك... في حضرة سيد المنفى."

ارتجف ثيودور،
الطائر على كتفه انتفض فجأة وصرخ صرخةً حادّة،
ثم طار في دوامةٍ من الرعب وخرج من الغرفة.

سمع صدى الكلمات مرة أخرى،
لكن هذه المرة بصوتٍ يعرفه من أعماق قلبه:

"أهلًا يا بُنيّ..."

كانت الصدمة على وجه ثيودور لا توصف.
السيد...
لم يكن سوى إيليا، والده.

—

الفصل الرابع::جدار البحيرات الاخير🪞
—
وفى الجانب الاخر
لم يكن في البحيرات ضوءٌ غير لهيب الحرب.
السماء مغطاة بالدخان، والأرض تهتز تحت وقع السيوف والمجانيق.
صرخات الرجال تتعالى، ورائحة الحديد والرماد تملأ الهواء.

من الشرق، كان جيش فان يتقدّم كسيلٍ لا يُوقف.
صفوفٌ متتابعة من الجنود، يحملون راياتٍ حمراء كأنها مشتعلة بالدم.
السهام تنهال كالمطر، والنيران تمتد من بيتٍ إلى بيت.
لكنّ رجال البحيرات لم يتراجعوا.

على الجانب الغربي، وقف لوريس ومعه صفوف القناصين والحرّاس،
كوّنوا خطًّا منيعًا أمام تقدم العدو،
وجعلوا من السور الغربي نارًا تبتلع كل من يقترب منه.

أما في القلب، فكان كريس ويوهان،
كتفًا إلى كتف، يصدّان الموجات المتتابعة من هجمات فان.
وجهاهما مغطّيان بالعرق والغبار، لكن العزم في عيونهما لا ينطفئ.

في الجنوب، كان تروفان،
يتحرك بين الجرحى ويقود رجاله كما لو أنه مهربانٌ جديد —
يصرخ فيهم:

"البحيرات هي جدار النور الأخير!
إن سقطت، سقط كل شيء!"

كانت كلماته تشتعل في القلوب قبل أن تصل إلى الآذان.
الرجال يقاتلون كأنهم يعلمون أن هذه الأرض آخر ما سيحمي الكنيسة من الظلام

في قلب التلال، كان أنطونيوس يقود رجاله وسط دوّامةٍ من الفوضى.

صوت السيوف يمتزج بصيحات الحرب، والسماء تمطر شررًا لا مطرًا.

جيش فان التفّ حوله من ثلاث جهات، أعدادهم تفوقه بأضعاف،
لكن أنطونيوس لم يعرف يومًا معنى التراجع.
أشار بيده لرجاله أن يتفرقوا بين الأشجار،
وقال بصوتٍ منخفضٍ حاسم:

"لن نحاربهم بعددنا... بل بعقولنا.
اجعلوا الغابة سلاحكم."

صعد بعض رجاله إلى قمم الأشجار،
ورماة السهام يختبئون خلف الجذوع المظلمة،
ينتظرون إشارة القائد.

بمجرد أن اقتربت طلائع فان،
انطلقت السهام من كل اتجاه كالمطر المشتعل،
واشتعلت الأشجار الميتة بالنار،
فتصاعد الدخان ليغطي السماء كستارٍ كثيفٍ من الجحيم.

كانت خطة أنطونيوس جريئة:
يحرق جثث جنود فان الذين سقطوا،
ويرميها من المنحدرات أمام أعين جيش فان الكبير،
لتبدو كأنها مذبحة في صفوفهم.
تراجع العدو في فوضى، لا يميّز بين دخان المعركة ونار الغدر.

صرخ أحد جنود فان مذعورًا:

"الظلال تقتلنا! الأشجار تتحرك!"

ضحك أنطونيوس في الظلام وقال لرجاله:

"كلما ازداد دخانهم، ضاع طريقهم أكثر... استمروا."

ومع كل لحظةٍ تمر، كانت الغابة تتحول إلى فخٍ ضخمٍ من لهبٍ وخداع.
الليل يتوهج بالأحمر، وصوت السيوف صار كالرعد وسط الغيوم.

ورغم جراحه، ظل أنطونيوس في المقدمة،
يقاتل بسيفٍ واحدٍ، وصوت النار من حوله يذكّره أنه آخر السدود قبل سقوط البحيرات.
لكن الأعداد تتزايد، والدخان يخفي السماء،
والرجال يشتد عليهم التعب، بينما الصراع يزداد عنفًا.

في الأفق، كان ضوء البحيرات يلوح،
كأنه يستنجد بمن بقي واقفًا.
أنطونيوس رفع سيفه الملطخ بالدماء، وقال لجنوده:

"لن يروا الفجر... حتى نراه نحن أولًا."

ومع حلول الفجر،

كانت محاولات أنطونيوس المستميتة،
وجدار البحيرات الدفاعي الصامد،
يؤخران المواجهة الكبرى والاقتحام الكاسح.
غير أنّ فان لم يكن رجلًا يُردع بسهولة —
جيشه الجرّار ما زال يتقدّم،
تعطّل قليلًا... لكنه لم يضعف.
وفي صوته القادم من بعيد، كان وعدٌ واضح:

"إن لم تخضعوا للنار... فستصبحون رمادها."

———-

الفصل الخامس: السقوط الأول.✨

كان الفجرُ باهتًا فوق أسوار البحيرات، والسماء مائلة إلى الرماد.
ارتجّت الأرض تحت وقع المجانيق، وانهمرت السهام كالمطر الأسود.
ثمّ — في لحظةٍ واحدةٍ كأنها زلزلة —
انفجر الجدارُ الحجريّ الأول وسقط جزءٌ عظيم منه،
فتطاير الغبار والحجارة، وارتفعت صرخات الجنود مع صوت النار.

صرخ يوهان من فوق السور بصوتٍ غاضبٍ مخنوقٍ بالدخان:

"انسحبوا إلى الداخل فورًا! لا نُقاتل على أنقاضٍ منهارة!"

ركض الجنود عبر الممرات الضيقة، يجرّون الجرحى،
بينما ألسنة اللهب تتسلّق الجدران خلفهم.
الهواء امتلأ برائحة الحديد والدمّ والرماد.

وقف يوهان وسط الدمار،
عيناه تقدحان نارًا، والسيف في يده يلمع بوميضٍ قاتم.
قال للحرس من حوله:

"لن أتركها لهم... إن كان فان يريد البحيرات، فليأخذها من يدي."

على الجانب الآخر، كان كريس يقود كتيبته نحو البوابة التي انهارت.
واجه المقتحمين بكل ما يملك من بأس،
يُقاتل وهو ينزف، ويصرخ برجاله أن يُشعلوا الخنادق بالنار
ليُعيقوا تقدّم جنود فان.

وفي الجهة الغربية،
كان لوريس يقف كجدارٍ من حديد،
سدّ الفجوة التي حاول العدو اختراقها.
رغم كثافة الهجوم، ظلّ واقفًا،
سيفه لا يهدأ، وجنوده حوله يقاتلون حتى آخر رمق.
كان وجهه مغطّى بالرماد، لكن عينيه تلمعان بإصرارٍ يشبه الإيمان.

وفي وسط الفوضى، ظهر تروفان،

الذي خلع درعه، وارتدى فوقه راية البحيرات نفسها،
وقال لجنوده بصوتٍ مبحوحٍ من شدّة الغبار:

"درعكم هو إيمانكم... وسلاحكم هو ما تبقّى من قلوبكم.
اتّجهوا إلى البوابة المنهارة، احموا إخوتكم حتى آخر قطرة."

ثمّ تقدّم بخطواتٍ ثابتةٍ نحو الجحيم المشتعل،
حيث يشتبك يوهان وكريس في قتالٍ مباشرٍ ضدّ رجال فان.
كانت النيران تشتعل حولهم،
وصوت السيوف يملأ المكان كعزفٍ مرعبٍ يعلن بداية النهاية.

السماء ملبّدة، والأرض ترتجّ تحت وقع الحرب،
لكن رجال البحيرات لم يتراجعوا.
كانوا يعلمون أنّهم إن سقطوا،
سيسقط النور معهم
—-

الفصل السادس: وجه النور ✨ فى وادى الظلال
—-

وقف ثيودور مشدوهًا،
عيناه لا تصدقان ما تريان،
وصدره يعلو ويهبط كأنه يختنق بالهواء الثقيل.
لم يتحرك خطوة واحدة،
كأن الأرض تشده إليها خوفًا من أن يقترب أكثر.

في الجهة المقابلة،
وقف إيليا، بثيابٍ المائلة للسواد،
وجهه ساكن لكن فى عينيه وكأنه وجع لا يُحتمل،
كأنهما تحملان عمرًا من الندم.

قال ثيودور بصوتٍ مترددٍ مرتعشٍ كطفلٍ ضاع من أبيه ثم وجده فى الجحيم:

"كيف...؟ كيف تكون أنت؟
أبي... أنت كنت رمز النور، الراية التى سار خلفها الجميع.
أنت الذى علّمتهم معنى الخلاص، كيف تكون سيد وادى المنفى؟
أنت الذى خرجت من بين صلواتك اللعنة التى أكلت كل ما أحببناه؟
أنت الذى خرج من ظلك الوحش الذى دمر الديار؟
أنت الذى حلم به أوغسطين وسقط من أجله آلاف؟
كيف يتحول النور إلى ظلال؟"

ظل إيليا صامتًا للحظةٍ طويلة،
نظره لا يتحرك عن ابنه،
ثم قال بهدوءٍ يشبه الانطفاء:

"يا ثيودور... ليس كل نورٍ يظل نقيًا،
أحيانًا يزداد سطوعه حتى يحرق صاحبه.

لم أختر هذا الطريق،
بل اختارنى القدر لأدفع ثمن ما لم أفهمه."

اقترب ثيودور خطوةً واحدة،
عيناه تلمعان بدموعٍ مكبوتة:

"القدر؟
أتسمي الخراب الذى حلَّ بنا قدرًا؟
أم أنك تبرّر اللعنة التى أيقظتها بيدك؟
كيف استطعتَ أن تصير سيد هذا الوادى،
وأنت من نادى بالنور يومًا؟"

أغلق إيليا عينيه لحظةً،
ثم فتحهما وقد بدا فيهما بريق من الحزن العميق:

"كنت أبحث عن الخلاص يا بنى،
أردتُ أن أوقف الحرب وأنقذ أرواحًا كثيرة،
لكننى لم أعلم أن الطريق إلى النور يمر فى جوف الظلال.
كل خطوةٍ كانت تقرّبنى من الهاوية،
حتى سقطت، وصرتُ حارسها."

سقطت دمعة على وجه ثيودور،
مدّ يده كأنه يريد أن يلمس أباه لكنه توقف،
وقال بصوتٍ متهدّجٍ غارقٍ فى الذهول:

"يعنى أنك السبب؟
اللعنة، الوحش، الدماء... كلها خرجت من ظلالك؟
كل من ماتوا... بسببك؟"

أدار إيليا وجهه ببطء، كمن لا يحتمل النظر فى عينيه،
وقال بصوتٍ مكسورٍ بالكتمان:

"اللعنة كانت فى الأرض قبلنا يا بنى،
أنا فقط فتحت بابها دون أن أدرى.
كان المصير أسرع منى...
والقدر أعمى لا يفرّق بين من يضيء ومن يُطفئ."

اقترب ثيودور خطوة أخرى،
الطائر على كتفه انتفض مرتين ثم سكن،
وصوته خرج همسًا مشبعًا بالدمع المكبوت:

"وما مصيرى أنا إذن؟
أأُكمل ما بدأته أنت؟
أكون امتدادًا للظلال أم نهايتها؟"

رفع إيليا نظره نحوه،
ابتسم ابتسامة صغيرة، وقال:

"أنت لست امتدادًا لأحد،
أنت الاختيار الذى لم أقدر عليه.
إما أن تُغلق ما فتحته أنا،
أو تترك للعالم نارًا لا تُطفأ أبدًا."

سكت الاثنان.
لم يكن بينهما سوى صدى أنفاسٍ متقطعةٍ ورائحة ماضيٍ عتيق.
الطائر صرخ فجأة،
وصوتٌ بعيد من أعماق البئر تردد كأن الأرض تتنفس،
لتبدأ حولهما ارتعاشة الظلال من جديد

فسأله :
«ما هذا الصوت؟ ما الذي يحدث هناك؟»

أجابه "إيليا" بصوتٍ هادئٍ غريبٍ يشبه الهمس أكثر مما يشبه الكلام:
«ذلك صدى اختيارك، يا بني...
اللعنة تنتظر أمرك الأخير،
إما أن تكمل الطريق كما بدأت،
أو تفعل ما لم أستطع أنا فعله... وتكسر الدائرة.»

تراجع ثيودور خطوة، والشكّ يشتعل في صدره كجمرٍ قديم،
وقال بصرامةٍ مرتعشة:
«أريد أن أرى ما يجري في الخارج...
أريد أن أعرف ما حلّ بالبحيرات... وبالناس.»

ساد الصمت لبرهة.
ثم رفع "إيليا" يده ببطء، وظهر في البئر ضوءٌ باهتٌ تحوّل إلى دوّامةٍ من الصور المتداخلة،
وميض نار، وصرخات رجال، وأعلام سوداء ترفرف فوق الرماد.

قال "إيليا" بصوتٍ خافتٍ وهو يشيح بنظره عن المشهد:
«انظر يا ثيودور... تلك هي نتيجتي،
وما سيأتي بعدها، هو قرارك.»

ظلّ ثيودور يحدّق في أعماق الضوء،
وصوت الحرب يعلو حتى غطّى كل شيء...
ثم اختفى كل ما حوله

الفصل السابع: دماء البحيرات

—

بدأت الأرض تهتزّ تحت وقع أقدام الخيول.
صوتٌ غليظٌ جاء من بعيد، كأنه زئير جبلٍ يتحرّك.
رفع الجنود رؤوسهم، وفي الأفق، ظهر فان فوق حصانه الفضيّ، يلمع درعه وسط الدخان والرمال،
وحوله صفوفٌ من جنوده تتقدّم ببطءٍ كأنهم طوفانٌ من ظلالٍ لا تنتهي.

تقدّم بخطواتٍ هادئةٍ نحو الميدان،
كانت عيناه تشتعلان ببريقٍ باردٍ كالنصل،

وفوق وجهه بقايا دماءٍ لم تجفّ بعد من معاركه السابقة.
وحين وصل إلى الساحة، توقّف، ونظر إلى تروفان الواقف عند بوابة البحيرات المحترقة.

قال بصوتٍ يسمعه الجميع:

"ها هو آخر من بقي من حُراس النور...
قل لبحيراتكم، يا تروفان، أن لا خلاص من الظلال."

رفع تروفان سيفه،
وجهه منهك، لكن نظرته لا تعرف خوفًا،
وردّ عليه بصوتٍ مبحوحٍ من الصراع والالم :

"الظلال وُجدت لتُختبر النور يا فان...
وإن متُّ هنا، فاعلم أن النور لن ينطفئ."

اشتعلت المعركة.
اندفع الحصان الفضيّ، وارتطم السيفان في ومضةٍ خاطفةٍ أضاءت المكان.
كانت الضربة الأولى كأنها تصدع الأرض،
أصيب فان في كتفه،
لكنّه لم يتراجع، بل ازداد جنونًا،
وانقضّ على تروفان بضربةٍ شقّت درعه وأسقطته أرضًا.

وقف تروفان وهو ينزف،
رفع رأسه ونظر لفان الذي يلوّح بسيفه في الهواء.
ابتسم، وقال بهدوءٍ يشبه السلام الأخير:

"لن تمرّ من هنا... ما دام فيّ رمق."

ثم اندفع نحوه بكل ما تبقّى من قوّة.
التقت السيوف مجددًا،
وصوت الحديد على الحديد صار كأنه بكاءُ الأرض،
حتى اخترق سيف فان صدر تروفان.

تجمّد المشهد لحظة.
الريح سكنت.
الدم يسيل على التراب،
والنار تزداد اشتعالًا من حولهم.

نظر فان إلى جسده، إلى جرح كتفه النازف، ثم بصق الدم على الأرض، وقال ببرود:

"حتى موتكم... يصنع ضوضاء لا معنى لها."

سقط تروفان على ركبتيه، رفع عينيه نحو السماء،
والدخان يلتفّ حوله،
ثمّ همس بصوتٍ بالكاد يُسمع:

"الظلال لا تنتصر... إلا حين يخون النور نفسه."

وسقط جسده أخيرًا.
في الخلف، كانت الأسوار الثانية للبحيرات تنهار.
صوت الانفجار والحديد والصرخات يملأ كل شيء.

لكن فوق كل هذا،
كان الطائر يصرخ من بعيد...
كأن صوته ينذر بشيءٍ قادمٍ من وراء البئر

في الجانب الغربي،
ثبت لوريس ورجاله عند البوابة،
رايات البحيرات ما زالت ترفرف فوق رؤوسهم رغم الدخان الكثيف.
قال لأحد القادة بصوتٍ صارخٍ يغلب عليه التعب:

"من هنا لن يمرّ أحد!
هذه الأرض إن سقطت، سقطت معها الذاكرة كلها!"

تقدّم بخطٍ منيعٍ،
نظامٌ حديديّ، وسيوفٌ تتلألأ في وهج النيران،
حتى فتحوا ثغرةً ضيقة من حيث لم يتوقّع جنود فان،
ومن هناك انطلق أنطونيوس ورجاله.

كان الغبار يملأ الهواء،
والسماء تمطر شررًا،
لكن أنطونيوس كان يرى هدفًا واحدًا —
الدخول من الخلف لإنقاذ ما تبقّى من البحيرات.

صاح بجنوده:

"من هنا الطريق...
من الغرب يولد الفجر ولو كان الليل جحيمًا!"

اندفعوا،
والأرض تهتزّ تحت أقدامهم.
من الأمام رجال لوريس، ومن الخلف فرسان أنطونيوس،
صار جيش فان بين فكي كماشةٍ من نورٍ ونار،
لم يعرف جنود الظلال من أين تأتيهم الضربات.

لكن الحرب لم تعرف ميزانًا بعد،
ففي كل انتصارٍ مؤقتٍ كانت الهزيمة تلوّح من بعيد.

حين اخترق أنطونيوس الأسوار المشتعلة،
تقدّم نحوه أحد الجنود مضرّجًا بالدماء،
وجهه شاحب، وصوته يرتجف:

"القائد تروفان... سقط.
مات واقفًا عند البوابة...
وفان تجاوز الحصن الأول... إنه في طريقه الآن إلى التمثال العظيم."

صمت أنطونيوس لحظة،
ثم رفع رأسه، عينيه تلمعان خلف طبقة الرماد، وقال ببطءٍ يشبه العهد:

"سنسدّ طريقه هناك،
عند تمثال سيدنا الكبير،
لن يُدنّس فان موضع النور ما دام فينا نفس."

رفع سيفه،
وصاح في جنوده:

"إلى التمثال!
من هناك تبدأ البحيرات... وهناك إما أن نُولد من جديد، أو نُدفن واقفين."

واندفعوا في قلب اللهيب،
صوتهم يتعالى مع هدير الحرب،
كأنهم يعلنون أن النور مهما احترق، لا يموت

كانت سماء البحيرات حمراء كالجحيم،
الرماد يتساقط كالمطر،
وصوت الحديد فوق الحديد كأنه طبول القيامة.

دخل أنطونيوس ومن معه عبر البوابة الغربية،
وجوههم مغطّاة بالدماء والدخان،
ومن الداخل كان كريس ويوهان يثبتان الصفوف الأخيرة.

صرخ كريس وهو يقاتل بجانب الحائط المنهار:

"أيّها الرجال، لا خطوة إلى الوراء!
خلفنا النور، وأمامنا الجحيم،
فكونوا بينهما سدًّا من إيمان!"

أشار لوريس برجاله للبقاء في مواقعهم،
يحمي الخط الغربي بكل ما تبقّى من قوّة،
بينما اندفع أنطونيوس عبر الممرّات المحترقة،
حتى وصل إلى التمثال العظيم — تمثال سيدنا الكبير،
حيث كان مدخل البحيرات الرئيسى،
وحيث توقّف فان وجيشه المظلم كطوفانٍ من نار.

وهناك...
بدأت أعظم معركة شهدتها الأرض.

صرخات، لهب، وسيوف تتطاير كالبرق.
أرض البحيرات تبتلع دماء رجالها،
ورائحة الموت تملأ كل حجرٍ وكل نفس.

سقط العشرات من جنود فان،
وسقط مثلهم من رجال البحيرات،
لكن لم يتراجع أحد.

كانوا يعلمون أن الخطوة الأخيرة تعني النهاية.

في قلب الدمار،
تقدّم يوهان، سيفه يتوهّج كجمرة،
عيناه تشتعلان بالغضب والذكريات.
اقترب من فان بخطواتٍ بطيئةٍ لكنها ثابتة،
وصاح بصوتٍ هزّ أرجاء الميدان:

"لم أنسَ يومًا وجهك...
أنت من أمر بقتل أبي،
أنت من حمل لعنة أوغسطين بعد موته،
واليوم، سأكسر تلك اليد التي لوّثت نورنا!"

ابتسم فان، ابتسامةً قاتمة،
وعيناه تلمعان كجمرتين في الظلام.
قال له:

"نورك كان كذبًا... وأنا الحقيقة التي خشيتموها."

ثم اندفعا.
سيفان كبرقين يلتقيان في صاعقةٍ من الدم والنار.
كل ضربة كانت تصنع دوّيًا يهزّ الأرض،
كل حركةٍ كأنها فصلٌ جديد من الجحيم.

لكن فان كان وحشًا لا يُقهر.
طعن يوهان في صدره بسيفه الثقيل،
فسقط يوهان على الأرض،
عيناه معلّقتان بالسماء التي احمرّت أكثر،
كأنه يرى فيها نهاية النور.

صرخ كريس واندفع نحوه،
لكن سليفان قفز أولًا — ليحمي صديق عمره
الراهب الشاب الذي لم يعرف الخوف يومًا.
وقف أمام فان،
رفع صليبه بيده وسيفه بالأخرى،
وقال بصوتٍ ملؤه الإيمان:

"لن تمرّ ما دام فينا نفسٌ من نور!"

ضربه فان ضربةً واحدة،
اخترقت صدره،
فسقط سليفان على الأرض،
وجهه هادئ، كأنه نام بين ذراعي النور نفسه.

ركع كريس إلى جوار يوهان وسليفان،
الدماء تحيط بهم،
وقال بصوتٍ متهدّجٍ كالبكاء:

"ها قد بدأت النهاية يا بحيرات النور..."

وفي الأفق،
كانت رايات فان السوداء تقترب أكثر،
كأن الظلال قرّرت أن تبتلع العالم كله

—-

الفصل الثامن: وعد المنفى👁
—

وقف ثيودور أمام إيليا
فاشار ايليا الا حائط الغرفه ، فرأى البئر .
والماء في قاعها صار مرآةً من دمٍ ونار.
السماء التي فوق البحيرات انعكست فيها حمراء قانية،
وصوت الحرب يتردّد في أعماق الوادي كأن الأرض نفسها تصرخ.

فرأى ،
جيوش فان وهي تجتاح الحصون،
ورجال البحيرات يسقطون واحدًا تلو الآخر.
رأى يوهان ممدّدًا على الأرض،
دمه يسيل على حجر التمثال الكبير،
وسليفان راكعًا إلى جواره،
عيناه مفتوحتان على نورٍ انطفأ.

عاد الطائر فجأه على كتفه وصرخ،
وصدى صوته ارتدّ من جدران الوادي كأنّه نواحُ أرواحٍ رحلت للتوّ.

همس ثيودور بصوتٍ مختنقٍ من الغضب والندم:

"كم من الأرواح أكلتها لعنة رجلٍ واحد...؟
إلى متى سيبقى الدم يُغذّي الظلال؟"

جاءه الصوت من خلفه، عميقًا كصوتٍ يخرج من فم البئر نفسها:

"لن تتوقّف يا بني...
لعنة فان لا تموت إلا بموت صاحبها.
لا أحد يستطيع الوقوف أمامه،
لا نور، ولا صلاة، ولا سيف."

التفت ثيودور، لأباه — واقفًا في الظلّ،
وجهه نصفه نور ونصفه ظلام،

قال بثباتٍ خافتٍ، كأنه يقرأ من نبوءه:

"الحرب هذه نتيجتها مكتوبة منذ البداية...

سقوط البحيرات... نهاية النور...
لكن هناك حل واحد،
أن تعود إلى وادي المنفى،
وتغلق ما فُتح،
أن تُنهي اللعنة بيدك.
ارجع إليَّ... ومعك المخطوطة،
وإلا سيفنى العالم كله بنارك."

وقف ثيودور صامتًا.
عينيه لا تفارقان الدماء التي تراها البئر.
شاهد الأطفال يهربون وسط الدخان،
ورجال البحيرات يقاتلون حتى الرمق الأخير،
وشعر أنه يسمع أنين تروفان قبل سقوطه.

كانت يداه ترتجفان،
لكن صوته خرج واضحًا، غاضبًا، متماسكًا:

"إن كانت اللعنة بدأت بي...
فستنتهي بي أيضًا.
وإن كان عليّ أن أعود إلى واديك،
فسأعود بعد أن أُنهي هذا الجحيم."

هزّ إيليا رأسه، ابتسامةٌ غامضةٌ على وجهه،
وقال:

"إذن، أعدني بوعدٍ...
عُد حين ينتهي الضوء."

أغلق ثيودور عينيه،
ثم فتحهما على مشهدٍ لم يره من قبل —
الطائر الذي على كتفه صار يصرخ،
وحوله طيورٌ كثيرةٌ تشبهه تمامًا تحوم فوق جيش فان في السماء،
دوائر سوداء تحجب الشمس.

الرياح هبّت فجأة،
والجنود رفعوا رؤوسهم،
السماء تصرخ،
والحرب توقفت للحظةٍ كأنها حُكم من السماء.

ومن بين الغبار ظهر عجوز المنفى،
اقترب من فان،
همس في أذنه بكلماتٍ لا يسمعها أحد،
ثم أشار بيده نحو البئر القديمة.

تجمّدت عينا فان،
والجنود من حوله تراجعوا خطوة.
بدا كأن نداءً خفيًا جذبه إلى هناك.

وفي اللحظة نفسها،
كان ثيودور قد بدأ طريقه نحو البئر —
ليلتقي فان وجهًا لوجه.

الرهبة تملأ قلبه،
لم يحمل سيفًا قطّ،
إلا مرّة واحدة في حروب الظلال الأولى حين دافع عن الأبرياء.
لكن الآن، عليه أن يواجه الوحش الذي لم يقدر عليه أحد.

كان يشعر بأنّ النهايات كلّها اجتمعت في صدره،
وأنّ اللعنة لن تغفر له إلا إذا فنى معها.

ومع آخر خطوةٍ نحـو الظلام،
همس لنفسه:

"ربّاه... إن كان النور لا يعود،
فليكن موتي هو آخر ظلٍّ يزول.

—-

الفصل التاسع: صراع الوحوش

—-
اما فى ساحات البحيرات.
 اشتعلت الأرض.
لهيبٌ يتصاعد من أطراف البحيرات كأنها تبتلع نفسها.
رائحة الحديد والدم امتزجت بالرماد، والسماء تحوّلت إلى لون الرماد الداكن.

في قلب الميدان،
وقف انطونيوس وحده، سيفه في يده،
جسده مثخنٌ بالجراح،
وعيناه لا تعرفان التراجع.
أمامه كان فان،
ممتطيًا حصانه ذي الشعر الفضيّ،
درعه يلمع بدماء من سقطوا قبله،
وصوته يدوّي وسط الجنود:

"من يجرؤ أن يواجه اللعنة... فليتقدّم!"

لم يتحرك أحد.
كلّ العيون كانت على الرجلين —
المحارب القوى الذى لايقهر، والقائد الذي صار الطب دائما والأمل الاخير .

تقدّم انطونيوس بخطواتٍ بطيئة،
رفع سيفه في وجه فان وقال بصوتٍ مبحوحٍ من شدة النزف:

"اليوم... لن تحكم اللعنة بعدي أرضًا،

ولن تُطفئ نارُك نورَ البحيرات."

ابتسم فان ابتسامةً باردة،
وهو يترجّل من حصانه،
يمسك سيفه العريض بيدٍ واحدةٍ كأنه يحمل ريشة.
ثم قال:

"كنتَ رجلًا شجاعًا يا أنطونيوس...
لكن الشجاعة وحدها لا تُطفئ الجحيم."

اصطدمت السيوف.
دوّى صوت الحديد في كل الجهات،
شراراتٌ تطايرت، والأرض تحت أقدامهما تتشقق من شدّة الضربات.
كان انطونيوس يقاتل كمن يُقاتل قدره،
كلّ جرحٍ على جسده صار صرخةً جديدة.

ضربةٌ تلو الأخرى،
حتى سقط الاثنان على الأرض،
كلاهما ينزف،
لكن فان نهض أولًا، سيفه مغطّى بالدم.

اقترب من جسد انطونيوس الملقى،
رفع سيفه ليُنهي المعركة،
لكن السماء صاحت فجأة —
صرخةٌ حادةٌ مزّقت الغيوم.

رفع الجميع رؤوسهم.
طائرٌ واحدٌ ظهر أولًا،
ثم تبعته عشرات الطيور السوداء،
تدور في دوائر فوق رؤوس الجنود.
أجنحتها كانت تُصدر أصواتًا كالرعد،
وأعينها تشتعل بلونٍ ناريٍ غريب.

ارتبك الجنود.
تراجعوا إلى الخلف،
وأحسّ فان بثقلٍ غريبٍ في صدره.
سيفه ارتجف في يده.

ومن بين الغبار والدخان،
خرج عجوز المنفى.
يمشي بخطواتٍ ثابتةٍ كأن الأرض تفسح له الطريق،
وجهه نصفه ظلّ ونصفه لهب،
وصوته اخترق هدير المعركة كأنّه نداءٌ من باطن الأرض:

"فان... اللعنة عادت إلى صاحبها.
باب البئر فُتح من جديد،
وسيد المنفى في انتظار من يجرؤ على نيل القوة كلها."

تجمّد فان في مكانه،
عيناه تضيقان، والدم يسيل من كتفه.

قال العجوز بابتسامةٍ ملغومةٍ بالوعود:

"الحرب انتهت يا ابن اللعنه،
والبحيرات سقطت صارت لك فى اى وقت ...
وأمامك طريقًا آخر —
بابًا يُعيد لك المجد... ويمنحك السيطرة على اللعنة نفسها."

همس فان من بين أنفاسه الثقيلة:

"السيطرة...؟ على اللعنة؟"

اقترب منه العجوز أكثر،
صوته ناعمٌ كأنّه يهمس في أذن شيطانٍ نائم:

"هي فرصتك الأخيرة يا فان...
كلّ شيء احترق،
واللعنة وحدها باقية...
إن ملكتها، ملكت كلّ شيء."

سكت فان لحظة،
نظر حوله إلى جنوده الذين يرتجفون،
إلى النيران التي تأكل الأرض،
ثم أطلق صرخةً هائلةً هزّت الميدان بأكمله:

"انسحبوا جميعًا!
نحو الديار الكبرى!
نحو البئر!"

تحرّك الجيش كأنّ صوتًا خفيًّا يسوقه،
الخيل تصهل، والسماء تمطر رمادًا.
العجوز ابتسم من بعيد،
وعيناه تتوهجان بلون البئر الأحمر.

وفي الخلف،
كان انطونيوس يزحف بصعوبة،
عيناه تتابعان السماء المليئة بالطيور،
وهمس بصوتٍ واهن:

"اللّعنة... عادت حقًا."

ثم أغلق عينيه،
وسقط سيفه من يده،
بينما كان صدى أجنحة الطيور يعلو فوق كل صوت.

وهكذا انطفأت نار الميدان،

لكن الجحيم مازال يمتد.

—
——

الفصل العاشر: لقاء البئر الأخير
—

وصل فان بسرعته القصوى الى الدير القديم، وجيشه الجرار.
كانت الأرض ساكنة، كأنها تنتظر شيئًا ينهى كل ما بدأ منذ اللعنة الأولى.
وقف فان عند حافة السلالم المؤدية إلى البئر، جسده يقطر عرقًا ودمًا، وصوته مبحوح من صرخات الحرب.
أمر جنوده أن يطوقوا البلاد، وأن يستعدوا لعودة الحرب فى أى لحظة، ثم نزل وحده.

خطواته على الدرج كانت ثقيلة، كل درجة تُصدر صدى كأنها تُنذر بالجحيم.
الهواء بارد، رائحة الحديد والدم تملأ المكان، والظلال تتحرك على الجدران كأنها تنتظر فريستها.
عندما وصل فان إلى القاع، وقف أمام البئر.
كان الماء أسودَ قاتمًا، تتخلله خيوط حمراء كالجمرة المشتعلة.

مدّ فان يده نحوه، لكن قبل أن يلمس الماء، خرج صوتٌ من الضباب:
صوتٌ هادئ، لكنه يحمل كل الألم والوجع والانتقام.

خرج ثيودور من بين الظلال، وجهه شاحب، وعيناه تحترقان بغضبٍ صامت.
وفى يده سيفٌ لم يرفعه من قبل، سيف بدا وكأنه خرج من البئر نفسها.

التفت فان، نظر إليه وضحك، ضحكة مليئة بالغرور والظلمة.
قال وهو يسحب سيفه:
"عُدت ايها الصامت...
أنت اللعنة التى لم تُكمل بعد، والآن حان وقت نهايتها."

لكن ثيودور لم يجب بكلمه ، لم يتراجع، فقط تقدّم ببطء، وكل كلمة خرجت من فمه كانت تحمل وجع السنين:
"اشتعل قلبى منذ بدأت اللعنة...
كنتَ أنت يدَ الظلام يا فان،
بك مات الأبرياء وسالت الدماء على هذه الأرض بدون وجه حق.
مات ذو اللحية البيضاء، سيد الأشراف،
ومات سيدنا الكبير، الأب الروحى للبحيرات والنور.
قتلت تروفان، الرجل الحر، وسيلفان، الراهب الصالح.
وها هو يوهان، سال دمه على التراب.
كل من أحببتهم ابتلعتهم لعنتك، والآن...
حان وقت النهاية، نهاية اللعنة... ونهايتك أنت."

صوت الألم يقطع الصمت، والظلال تتراقص على الجدران.
البئر تغلى، والماء الأسود يرتفع كأنه يغضب هو الآخر.
لم يعد هناك نور أو ظلام — فقط لحظة واحدة تفصل بين الانتقام والخلاص .

تقدم ثيودور بسيفه ورفع فان سيفه ،
تزلزل المكان تحت صدى السيوف، وارتجّت الجدران كأنها تنزف من شدّة الصراع.
ضربةٌ بضربة، وصرخةٌ تتبعها أخرى.
فان كان وحشًا حقيقيًا، جسده أقوى من الحديد، وعيونه تشتعل كجمرٍ حيٍّ لا يبرد.

كلّ حركة منه كانت كأنها عاصفة تضرب الأرض.

رفع سيفه العملاق، ضرب به الجدار، فتهشّم الحجر وتناثرت شظاياه فوق ثيودور.
سقط الراهب أرضًا، والدم يسيل من جبينه، لكنّ عينيه ظلّتا ثابتتين على خصمه.
مدّ يده إلى سيفه، قبض عليه بقوةٍ لا تشبه قوته، بل كأنها صرخة من قلب كل من مات.

نهض ببطء، والنار تشتعل في صدره.
صوته خرج مرتعشًا من بين أنفاسه الثقيلة:
"لن أتركك تنجو... هذه الأرض شبعت من لعنتك، يا فان."

هاجم بكل ما تبقى فيه من حياة.
سيوفهما اصطدمت، الشرر يتطاير كوميض برقٍ داخل البئر المظلمة.
دفعه فان للخلف، ضحك ضحكته الوحشية، وقال:
"أنت ضعيف، يا من تؤمن بالنور... أنا اللعنة، لا أموت!"

لكنّ ثيودور لم يتراجع.
انفجرت داخله نار الانتقام، نار من وجوه الأحباء الذين رحلوا، من دم يوهان وسيلفان وتروفان.
صرخ، وضرب بسيفه مرة أخرى، فارتد الصوت كأنه زئير وحش محبوس منذ قرون.
فان يصد ويضرب وثيودور يحاول ويحارب يسقط وينهض من تحت الركام ،
وفي لحظةٍ بدا فيها أن فان سينهي القتال،
هجم الطائر من الظلال، انقضّ على وجه فان، يضرب بجناحيه كأنهما نارٌ من السماء.
صرخ فان بغضبٍ هستيري، حاول الإمساك به، لكن الطائر كان أسرع.

وفي وسط الفوضى،
ظهر من خلف الضباب عجوز المنفى.
وقف بثباتٍ عند مدخل البئر، صوته خرج مبحوحًا غريبًا كأنه آتٍ من زمنٍ آخر:
"وداعًا يا فان... دورك انتهى."

التفت فان نحوه بذهول، لحظة واحدة فقط، لكنها كانت كافية.
انقضّ ثيودور بكل ما تبقّى فيه من قوّة،
طعن سيفه في صدر فان حتى اخترقه،
ثم دفعه بجنونٍ نحو البئر.

سقط فان للخلف، جسده يرتطم بالحافة،
والماء الأسود في البئر بدأ يغلي،
اشتعل لون الدم وسط الظلال، وارتفعت ألسنة النار من الأعماق.
صرخ فان صرخةً أخيرةً، جسده يذوب في الجحيم أمام عيني ثيودور،
حتى اختفى تمامًا.

وقف ثيودور يلهث، يحدّق في البئر المشتعلة،
والصمت يملأ المكان.
لم يبقَ من فان سوى صداه،
وصوت الطائر وهو يدور فوق البئر، كأنه يرثى نهاية الظلّ الأخير

الفصل الحادي عشر — على شفى البئر: الفجر

ساد الصمت في حرم المكان بعد سقوط فان.

جسد ثيودور ملقى على الأرض، سيفه إلى جواره، وأنفاسه متقطعة كأنها تحاول النجاة من الجحيم.
لم يعد يسمع سوى صدى المعركة في رأسه، ووميض النار في عينيه.
أغمي عليه، وراح يسقط في حلمٍ ثقيلٍ كأنه أبواب عالمٍ آخر تُفتح أمامه.

رأى والدته واقفة وسط ضوءٍ أبيض ناعم، ابتسامتها وادعة، تناديه بصوتٍ لم يسمعه منذ الطفولة " بنى انا فخوره بك ."
اقترب منها بخطواتٍ مترددة، سألها بصوتٍ مبحوح:
"أين والدي؟ أين إيليا؟"

ابتسمت وقالت:
"ابحث عنه، يا بني... ستراه على حقيقته."

اختفى الضوء فجأة، وغمره ظلام البئر من جديد.
استيقظ على صوت الطائر ينقر وجهه برفق،
فتح عينيه فرأى السماء قد احمرّت كأنها تلملم بقايا الحرب.
صوت الخيول قادم من بعيد،
رجال فان يصرخون حول جثة قائدهم الملقاة فى الخارج قرب صرح البئر.

كانت الجثة مشوّهة تمامًا،
محترقة حد الذوبان،
إلا أن الرأس بقي واضحًا، والعيون مفتوحة كأنها تراقبهم من الجحيم.
تراجع الجنود مرعوبين،
بعضهم فرّ، وبعضهم سقط على ركبتيه يبكي،
ثم قام أحد نوّاب فان يحاول الاقتراب...
لكن الرعب سبقه، فاستل سيفه وطعن نفسه.

اقترب ثيودور ببطءٍ من البئر.
كان لون الماء قد تغيّر،
صار أزرق صافياً كبحيرات الفجر.
مدّ يده إليها، فارتجّ قلبه...
رأى في الماء مشهداً من البحيرات:
النيران تخمد ببطء، الناس يخرجون من بين الركام،
لكن العيون تفيض حزناً.

أغلق ثيودور قبضته على السيف الملطّخ بالدماء،
أدار وجهه نحو الطريق،
ثم امتطى حصاناً هزيلاً كان يربط قرب الأسوار.
تحرّك وسط الدخان والأنقاض،
كل قرية مرّ بها كانت تبكي،
نيرانٌ لم تطفأ بعد،
ووجوهٌ تحدّق في الفراغ كأنها تبحث عن آخر شعاع للنور.

استمر في السير حتى الفجر.
الريح باردة، ورائحة الرماد تملأ صدره.
جرحه في الكتف ينزف، ورجله بالكاد تحمل وزنه،
لكنه تابع طريقه حتى وصل إلى حدود البحيرات.

هناك، عند البوابة الشرقية،
وقف ما تبقى من حرّاس البحيرات.

حين رأوه، لم يصدقوا أنه حيّ.
حملوه بين أذرعهم، وساقوه إلى القاعة الكبرى.

في الداخل،
جلس الكفيف على الأرض إلى جوار رومان،
أنطونيوس مصاب لكنه واقف،
لوريس وكريس منهكان،
الوجوه شاحبة، والعيون مثقلة بالذكريات.

دخل ثيودور بخطواتٍ متثاقلة،
رفع رأسه بصعوبة وقال:
"فان... انتهى."

ساد الصمت، ثم دموعٌ خافتة سقطت على الأرض.
قصّ عليهم ما حدث، كيف غرق فان في جحيم البئر،
وكيف تغيّر لون الماء بعد موته.

لم يصرخ أحد.
لم يتكلموا.
جلسوا جميعًا ينظرون إلى الفجر الذي بدأ يبزغ من خلف البحيرات،
فجر باهت... لكنه أول فجر بلا حرب.

كانت اللعنة قد انتهت،
لكن الثمن كان باهظًا جدًا.

⊡

ومع بزوغ الشمس،
ترددت أصوات الأجراس من بعيد.
ارتفع الغبار على الطريق المؤدي إلى البحيرات.
قاد موكبًا مهيبًا ببطءٍ بين الأنقاض.
الخيول مغطاة برداءٍ أبيض،
والصليب الذهبي يتلألأ في ضوء الفجر.

دخل البابا أورليانوس الأشدّ أرض البحيرات بنفسه،
وجهه حزين كأنه رأى نهاية العالم بعينيه.
وقف أمام القاعة الكبرى،
وأمر بأن تُقرع الأجراس إعلانًا بانتهاء حرب الظلال.

رفع يده نحو السماء وقال بصوتٍ عميقٍ سمعه كل من بقي حيًّا:

"سقطت اللعنة،
لكن الخطيئة باقية في قلوبنا...
فليكن هذا الفجر عهدًا جديدًا للنور،
ولتُغلق أبواب المنفى إلى الأبد."

أغلق الجميع أعينهم،

بين صلاةٍ ودمعةٍ وخوفٍ من الغد.

وفي زاوية القاعة،
جلس ثيودور صامتًا،
الطائر على كتفه،
ينظر إلى رماد الحرب الذي يملأ المكان،
وهمس بصوتٍ لم يسمعه أحد:

"النور عاد... لكن بثمنٍ لا يُحتمل."

وهكذا أُسدل الستار على حرب الظلال،
وظل البئر ساكنًا،
حتى إشعارٍ آخر من القدر

في صباحٍ رماديٍّ ثقيل،
دخل البابا أورليانوس الأشدّ قاعة البحيرات الكبرى،
وجهه مغطّى بغبار الطريق، وملامحه مثقلة بالحزن.
كانت الأجراس لا تزال تُقرع منذ فجر اليوم،
تعلن انتهاء الحرب، وانطفاء نار اللعنة التي أحرقت الأرض.

وقف أمام الجميع، ونظر نحو ثيودور الجالس قرب الكفيف ورومان وأنطونيوس.
اقترب ببطء، ووضع يده على كتف الراهب الصامت، وقال بصوتٍ متهدّج:

"يا ثيودور...
البحيرات كانت بحقّ أرض النور،
صمدت أمام لعنة الوحش،
ثم واجهت نار فان وجحيمه بثبات قلوب رجالها.
شكرًا لك... أيها الراهب الصامت،
وشكرًا لطائرك المبارك الذي حمل النور في جناحيه."

سادت لحظة صمتٍ طويلة.
كان الجميع ينظر إلى ثيودور وكأنهم يرون فيه بقايا المعجزة.
رفع البابا رأسه، وصوته يملأ القاعة:

"إن الكنيسة، باسم النور الأعظم، تُعلن اليوم قرارها الأخير:
دير إجناطيوس، والمشرق، وأرض البحيرات...
جميعها ستخضع من الآن لإدارة واحدة،
تحت راية البحيرات، أرض النور الأولى."

تعالت الهمسات، امتزجت بالدموع والدعاء.
لكن ثيودور ظلّ صامتًا،
حتى رفع عينيه إلى البابا وقال بهدوءٍ مثقلٍ بالتعب:

"يا أبانا،
أشكرك على كلماتك، لكن قلبي لم يجد راحته بعد.
أطلب مهلةً قصيرة... أرحل فيها بحثًا عن والدي،
إلى دار المنفى، حيث بدأت اللعنة،
لعلي أجد هناك الحقيقة التي لم تُكشف بعد."

اقترب أنطونيوس، وضع يده على كتف ثيودور وقال بثباتٍ ودفء:

"لن أتركك يا صديقي،
كنت إلى جواري في أحلك الساعات،
وسأكون معك هذه المرة أيضًا،
حتى لو كان الطريق نحو الظلال."

أما الكفيف فابتسم رغم جراحه، وقال بصوتٍ يملؤه الإيمان:

"يا ثيودور...
طريق النور ليس انتصارًا بالسيف، بل بالثبات.
الحلّ دائمًا في الاتحاد...
في أن نسير معًا، لا وحدنا."

هزّ ثيودور رأسه امتنانًا،
ثم نظر إلى الحاضرين وقال:

"لن أترك أرض البحيرات قبل أن يشفى جيرميسون،
ويعود يوهان من حافة الموت.
عندها فقط، أرحل...
لأغلق ما بدأه أوغسطين في دار المنفى،
ولأعرف... هل حقًا مات والدي أم ما زال الظلّ حيًا هناك."

ارتفع ضوء الفجر ببطءٍ من وراء النوافذ المكسورة.
انعكس على وجه ثيودور، وعلى جناح الطائر الذي وقف فوق كتفه كأنه يعلن بداية عهدٍ جديد.
خارج القاعة، كانت البحيرات تستعيد لونها الأزرق،
والأرض تتنفس بعد رمادٍ طويل.

وقف البابا عند العتبة الأخيرة قبل المغادرة،
نظر نحوهم وقال:

"لتكن هذه الأرض مباركة،
ولتُغلق أبواب اللعنة إلى الأبد."

ابتسم ثيودور ابتسامةً صغيرة،
ثم همس في صمتٍ سمعه الطائر وحده:

"الفجر عاد...
لكن الطريق إلى النور لم ينتهِ بعد."

وهكذا،
تُغلق صفحات سلسله الراهب الصامت"حرب الظل"

نهاية سلسلة الراهب الصامت: حرب الظل
نتمنى أن تكون قد لامست قلوبكم، وأثارت فيكم شغف الحكاية وصدى النور وسط العتمة.
ترقّبونا في السلسلة الجديدة: الراهب الصامت – رحلة دار المنفى
حيث لا تنتهي اللعنة... بل تبدأ من جديد